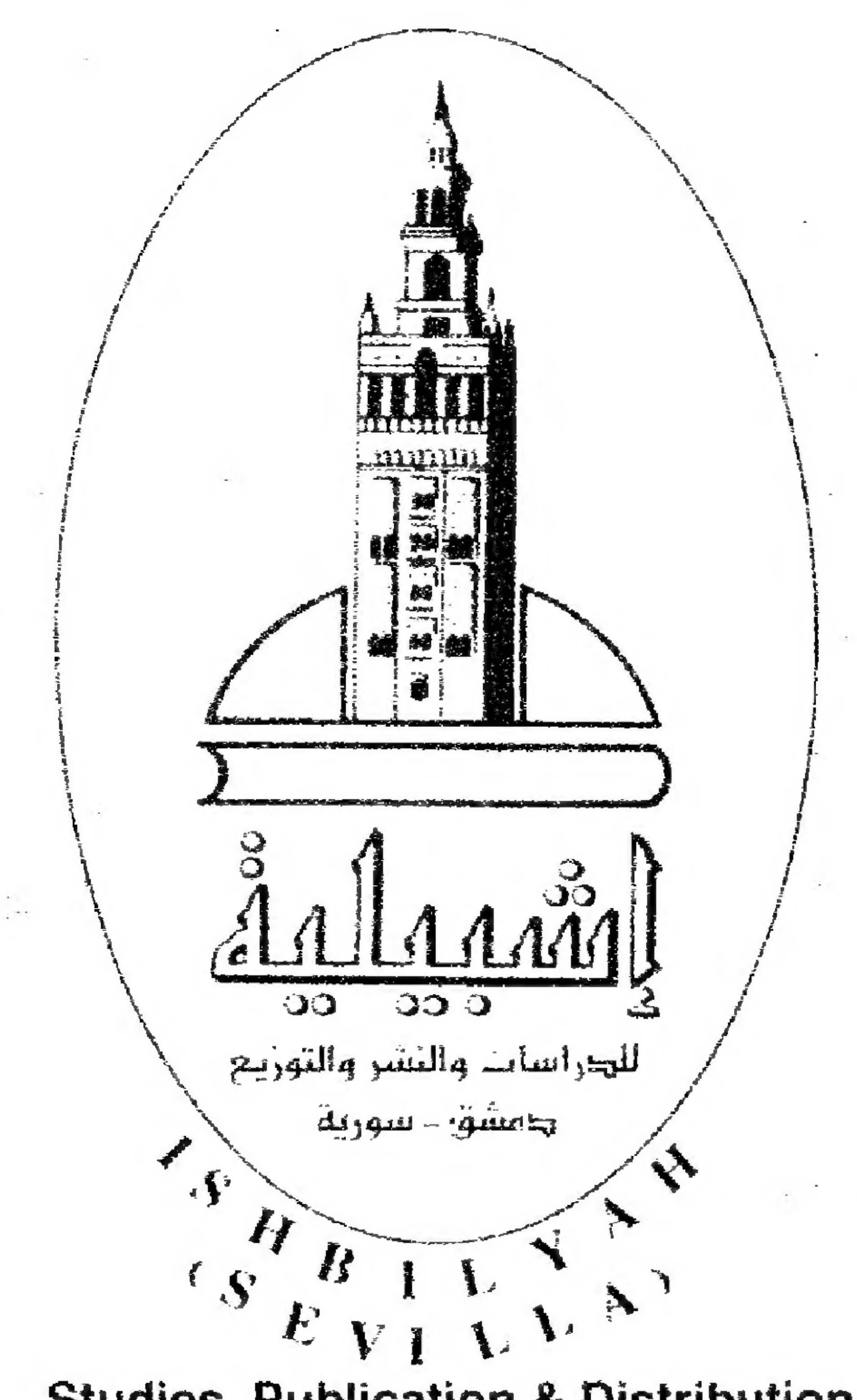


دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة





Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS, P. O. Box : 4363, SYRIA

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكّمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها وتشرف على تحريرها

لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

السنة الرابعة عشرة ، العددان ٤٥ و ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣

المدير المسؤول : د. شاكر الفحام　　　رئيس التحرير : ناظم كلاس

الاشتراكات	للأفراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر السوري	(١٠٠) ل.س	(٢٠٠) ل.س	(٥٠) ل.س
في الأقطار العربية	(١٠) دولارات أمريكية	(٢٠) دولارا	
في البلاد الأجنبية	(١٥) دولارا	(٣٠) دولارا	

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام ، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجة كتابة تاريخ العرب ، او بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق

المكاتب : جامعة دمشق ، هاتف / ٢٢٢٤٦١ /

شـــروط النشــر في المجلــة

ان مجلــة دراســـات تاريخيـــة هي جـزء مــن **مشروع كتابــة تاريخ العــرب** ، وخطوة مــن خطوات تخــدم كلها وبمجموعها الفرض الاساســي ، وهو كتابــة تاريخ وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعهــا الغرض الاساسي ، وهــو كتابة تاريـــخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي ، وتســليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريــخ الامة العربية واعطتــه خط مساره الخاص ، وايضاح ما لفه الغموض ، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يســاعد في مسيرتها ، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به ، على أن يراعى فيها ما يلي :

آ ـ ان تتوافــر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب ـ ان لا يكون البحث منشورا من قبل .

ج ـ ان يكون مطبوعا على الآلة الكاتبة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د ـ تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مــدى صلاحيتها للنشر ، وفق المعايير المذكــوورة اعلاه ، والتعديــلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف او الاختزال ، بما يتوافق مع أغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع ، ولذلك يحســن أن يتقيــد الســادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها ، على النحو التالي :

أ ـ في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى) :

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين (   ) أن كان متوفى ، اسم المصدر أو المرجع وتحته خط ، عدد المجلدات أو الاجزاء ، اسم المحقق أن وجد ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

ب ـ في محاضر المؤتمرات :

ذكر اسم الباحث كاملا ، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين «   » ، عنوان الكتاب كاملا ، اسم المحرر أو المحررين ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة أن وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

ج ـ في المجلات :

اسم الباحث كاملا ، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين «   » اسم المجلة كاملا وتحته خط ، رقم المجلد او السنة ، رقم العدد وتاريخه ، الصفحة .

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية :

د ـ في المخطوطات (للمرة الاولى) :

اسم المؤلف كاملا ، عنوان المخطوط كاملا ، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها ، رقم الورقة من الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب) . ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية .

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين (   ) ، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة * . **وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من أول البحث الى آخره ، دون التوقف عند نهاية الصفحات .**

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادرة خلال ذلك العام ، مع عشرين (مستلة) من البحث .

دراسات تاريخية

السنة الرابعة عشرة ، العددان ٤٥ و ٤٦ ، آذار ــ حزيران ١٩٩٣

تنويـه :

- **الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظـر صاحبها**
- **ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنيـة**

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها وتشرف على تحريرها

لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

دراسات تاريخية ٤٥ ــ ٤٦ / ١٩٩٣ / ١-٢

بسم الله الرحمن الرحيم



المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام

جامعة دمشق ، ٢٢ ـ ٢٦/١٠/١٩٩٤

دعت جامعة دمشق والجامعة الاردنية وجامعة اليرموك الى « المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام » الذي يعقد في رحاب جامعة دمشق من ٢٢ ـ ٢٦ تشرين الاول / أكتوبر ١٩٩٤ .

وتضمنت الرسالة التي وجهت الى السادة الباحثين المشاركين في المؤتمر موافاة اللجنة التحضيرية ببحوثهم مطبوعة على الآلة الكاتبة (من نسختين) في موعد أقصاه نهاية شهر نيسان / أبريل ١٩٩٤ .

وستتكفل جامعة دمشق بنفقات سفر واقامة السادة الباحثين الذين تقبل بحوثهم .

محاور المؤتمر

بلاد الشام من منتصف القرن الخامس
الى أواسط القرن السابع للهجرة

اولا : المصادر

آ ـ المصادر العربية .

ب ـ المصادر غير العربية .

ثانيا : القوى السياسية

آ ـ الخلافتان العباسية والفاطمية .

ب ـ القوى المحلية ، الفرنجة .

جـ ـ القوى الدولية (بيزنطة ، الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فرنسة ، انكلترة ، النورمان ..).

ثالثا : البنية السكانية في بلاد الشام

التغيرات في البنية السكانية والعوامل المؤثرة فيها .

رابعا : الحيـاة الاقتصادية

آ ـ الزراعة .

ب ـ النظام الاقطاعي ، الاسلامي والفرنجي (بداياته وتطوره).

جـ ـ النظام المالي ، الضرائب والنقد .

د ـ الصناعات والحرف .

هـ ـ التجارة الداخلية والخارجية .

و ـ طرق المواصلات والقوافل .

خامسا : الحياة الاجتماعية في المدن والارياف

آ ـ العمران والحياة في المدن (بيت المقدس ومدن فلسطين ، دمشق ، حلب ، الرها ، طرابلس ، انطاكية ، الكرك ، حمص ، حماة ..).

ب ـ الحياة في الارياف .

سادسا : الادارة ومؤسساتها .

سابعا : الحياة العلمية والثقافية ومؤسساتها .



* توجه المراسلات الى العنوان التالي :

جامعة دمشق ـ مؤتمر بلاد الشام

الاستاذ الدكتور نبيه عاقل

دمشق ـ سورية

مروان بن الحكم ينقذ الحكم الاموي

د. محمد ارشيد العقيلي
ج. الامارات العربية المتحدة

يتناول هـذا البحث علماً هاماً من الاعلام الاسـلامية ، تردد اسمه في خلافـة عثمان بن عفان، واثير حوله لغط وشبهات في دوامة الفتنة التي احاطت بهذا الخليفة، هذا العلم هو مروان بن الحكـم . ثم ولايته على المدينـة في مستهل الحكم الامـوي وموقفه أثناء العاصفة التي كادت تطيح بهذا الحكم ، والتي شغر فيها منصب الخلافة الاموية في دمشق . وكيف أسلست لـه الخلافة قيادها . فأستنقذ بذلك الحكـم الاموي ، ولكنه في الوقت نفسه أسدل الستار على حكم الاسـرة السفيانية وظلت الخلافة تتسلسل في ابنائه وأحفاده (المروانيون) حتى أطيح بها على يد العباسيين.

إذن نقاط الجدل في هذه الدراسة سوف تدور :

أولا : حول نشأة مروان ، ثم استقصاء سيرته ، وما انطوت عليه حتى نهايـة ولايته على المدينة . ومناقشة الشبهات التي اثيرت حوله .

ثانيا : كيف آلت اليه الخلافةالاموية وسط فتنةكادت تعصف بالدولة الاموية، فيستنقذ هذا الخليفة الحكم الذي كان على حافة الانهيار . وينحصـر الخلافة في البيت المرواني .

نسب مروان ونشاته :

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن عبد شمس بن عبد مناف(١) . وامه آمنة بنت علقمة بن صفوان . وتكنى أم عثمان المدني(٢) .

ثمة خلاف حول ولادة مروان ، يقوذ الى خلاف آخر : اهو صحابي ام تابعي ؟ يذكر ابن حجر انه ولـد بعد الهجرة بسنتين ، وقيـل بأربع ، وروى عن النبي (ص) ولا يصح له سـماع(٣) . وأما ابن حجر العسـقلاني فيذكر ان النبي (ص) مات وعمر مروان ثمان سنوات . فيكون مولده بعد الهجرة بسنتين(٤) . ولم يجزم بصحبته ، لانه لم يكن مميزا . ثم ان اباه الحكم أخرج من قبل الرسول (ص) الى الطائف بعـد

فتح مكة عام ٨ هـ، ومروان معه . في حين يقول الامام الذهبي انه ولد سنة ٢ هـ ، او نحوها ، ولم ير النبي (ص)(٥) .

يتضح من الروايات السابقة ان مروان لم يحظ بصحبة الرسول (ص) لانه كان صغيرا غير مميز . ولكن المحدثين يعدونه من خيرة كبار التابعين من الطبقة الثانية .

صفات مروان ومكانته العلمية :

من ابرز صفات مروان الخلقية انه كان قصيرا كبير الراس واللحية رقيق الرقبة احمر الوجه(٦) . ووصفه الذهبي(٧) بالشجاعة والشهامة ، وانه كان صاحب فكر ودهاء . اما من حيث مكانته العلمية فهو من الشخصيات التي اختلفت فيها الروايات . فصاحب كتاب الخميس(٨) ذكر انه كان اقرأ الناس للقرآن . كما قال ابن العربي(٩) انه كان من كبار الامة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين . اما التابعون فاصحابه في السن وان حازهم في الصحبة في احد الاقوال . وعرف بين رجال الحديث وشهد له الصالحون من التابعين امثال عروة بن الزبير بأنه روى عن الصحابة والتابعين . وذكر الامام الرازي(١٠) صاحب الجرح والتعديل بأنه روى عن عمر وعثمان وعلي ، وروى عنه سهل بن سعد ، وعلي بن الحسين ، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن عقبة .

عاصر مروان عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وتوفي قبلهما . وكان له معهما سباق في المجال العلمي . ويروي ابن حجر ان مروان قال في محاورة بينه وبين **روح بن زنباع** (١١) « ليس ابن عمر بأخبر مني ، ولكنه أسن مني ، وكانت له صحبة» كما ذكر ابن عبد البر في كتاب **الاستيعاب** (جـ ٢ : ص ٣٩٠) بأن عروة بن الزبير قال : « كان مروان لا يتهم في الحديث » .

وثمة صفحات من تاريخ مروان بن الحكم لم يكن لها حظ من عناية المؤرخين منها قصة المرأة التي جاءت الى عبد الله بن عمر تستفتيه بانها نذرت ان تنحر ابنها عند الكعبة في امر ان هي فعلته ، ففعلت ذلك الامر . فقال لها : لا اعلم الله أمر في النذر الا الوفاء به . كما نهى الله ان تقتلوا انفسكم . ثم افتى لها ان تنحر مائة من الابل مكان ابنها على غرار ما فعل عبد المطلب حين فدى ابنه عبد الله بمائة من الابل. فبلغ هذا الحديث مروان بن الحكم ، وكان حينها اميرا على المدينة . فقال ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس قد أصابا الفتيا . **انه لا نذر في معصية** . وقال للمرأة : استغفري الله وتوبي وتصدقي واعملي ما شئت من الخير . أما أن تنحري ابنك فقد نهاك الله

عن ذلك . فسر الناس واعجبهم قول مروان ، ورأوا انه قد أصاب الفتيا . فلم يزالوا يفتون «لا نذر في معصية» . ويبدو أن مروان اعتمد في هذه الفتيا على حديث عائشة « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصيه »(١٢) .

بيد أن **ابن الاثير**(١٣) يروي أن مروان كان في ولايته للمدينة يبالغ في سب علي بن أبي طالب ، وعندما وليّ سعيد بن العاص المدينة كف عن ذلك . ونفهم من ذلك أن مروان كان يضغن على علي ، ويسبه على المنابر .

غير أن **ابن الاثير** في رواية أخرى يناقض هذا الزعم فيقول : « سئلَ محمد ابن علي (الباقر) عن مروان فقال : كان مروان خيرا لنا في السر ، وسعيد خيرا لنا في العلانية »(١٤) . وهذا يعني أن مروان كان هواه مع علي وآل بيته ، مما يجعلنا نتحفظ على رواية ابن الاثير الاولى ، وانها تنطوي على شيء من المبالغة ، وليس أدل على ذلك من أن ابن الاثير نفسه قال : « كان الحسن والحسين يصليان خلف مروان فلا يعيدان الصلاة »(١٥) . فكيف يصلي الحسن والحسين وراء رجل يلعن أباهما على المنبر في المدينة . ومجرد لعن الحي يكفي لتفسيق صاحبه فضلا عن اللعن على الاموات .

ويذكر **ابن العربي** أن فقهاء الامصار كلهم على تعظيم مروان واعتبار خلافته والالتفاف الى فتواه ، والانقياد الى روايته . وأما **السفهاء** من المؤرخين والادباء فيقولون على أقدارهم(١٦) .

بذلك يتضح أن بعض الروايات التاريخية التي نسبت الى مروان تتنافى مع ما ذكره عنه رجال الحديث ، مما يحملنا على الاعتقاد أن سيرة مروان لا تسمح بتصديقها . وانه بالتالي شخصية أخرى غير الشخصية التي عبثت بها تلك الروايات .

التهم التي وجهت الى مروان :

التهمة الرئيسية التي وجهت الى مروان بن الحكم هي انه عندما كان كاتبا لاسرار عثمان وحاملا لختمه استغل هذا المنصب فارسل كتابا على لسان امير المؤمنين عثمان مع غلام للخليفة على جمل من جمال الصدقة المسؤول عنها عثمان الى واليه على مصر عبد الله بن سعد بن ابي السرح يأمره فيه بقتل جماعة من المصريين او جلدهم أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . واكتشف الوفد هذا الكتاب في الطريق وهم راجعون من المدينة . فاعتقدوا أن هذه مكيدة من الخليفة ، فرجعوا اليه ثانية

ليخلعوه أو يقتلوه . وقد وقرت هذه التهمة في أذهان الجماهير الاسلامية وتناقلتها الاجيال المتعاقبة . ويسترسل **الطبري وابن الاثير** في استكمال جوانب هذه المسالة وخلاصتها أن الثوار من الكوفة والبصرة ومصر عادوا للمرة الثانية الى المدينة بعد ما صرفهم علي بن ابي طالب في المرة الاولى . فلما لقي علي وفد مصر قال لهم : « **ما ردكم بعد ذهابكم ؟** » فقالوا أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا .

ولما لقي طلحة اهل الكوفة سألهم عن سبب عودتهم فقالوا مثل ذلك . ولما لقي الزبير أهل البصرة ، قالوا له مثل ذلك . وكل منهم يقول : « **نحن نمنع اخواننا وننصرهم** » ، كأنما كانوا على ميعاد . فقال لهم علي كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا اهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل حتى رجعتم علينا . هذا والله أمر ابرم بليل .. فقالوا « ضعوه كما شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ... ليعتزل عنا »(١٧).

وفي رواية لابن العربي أنه حين كان الوفد المصري عائدا من المدينة الى مصر « اذا براكب يتعرض لهم ، ثم يفارقهم مرارا ، قالوا له : مالك ؟ قال : انا رسول أمير المؤمنين الى عامله في مصر ، ففتشوه فاذا هم بالكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه الى عامل مصر ان يصلبهم ، ويقطع أيديهم وأرجلهم . فأقبلوا حتى قدموا المدينة ، فأتوا علياً فقالوا له : ألم تر الى عدو الله كتب فينا كذا وكذا . وقد أحل الله دمه . قالوا له قم معنا اليه . قال : والله لا اقوم معكم . فقالوا فلم كتبت إلينا ؟ قال : والله ما كتبت إليكم ، فنظر بعضهم الى بعض ، وخرج علي من المدينة »(١٨) .

فانطلقوا الى عثمان فقالوا له : كتبت فينا كذا . فقال لهم عثمان :إما ان تقيموا شاهدين على ذلك ، والا فيميني اني ما كتب ولا امرت . وقد يكتب على لسان الرجل ويضرب على خطه وينقش على خاتمه . فقالوا لتسلم لنا مروان . فقال : لا افعل . ويرى ابن العربي(١٩) أن عثمان لو سلمه لكان ظالما . لان تسليمه يعني ادانته ولا يوجد أدنى دليل على ذلك .

كما نسبوا الى عائشة رضى الله عنها أنها كتبت الى الوفود تأمرهم بالخروج على عثمان . ويروي الطبري أن عائشة حينما نددت بقتلة عثمان قال لها مسروق: « عملك كتبت الى الناس تأمرينهم بالخروج عليه » فقالت عائشة « والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت اليهم سوادا ببياض » . قال الاعمشي « فكانوا يرون أنه كتب على لسانها »(٢٠) .

ولسنا هنا بصدد التأريخ للفتنة التي احاطت بعثمان ، ونحصر الحديث في الجانب الذي يتعلق بمروان بن الحكم والتهمة التي وجهت اليه .

في ضوء المعطيات السابقة ومحاكمة النصوص التي أوردها بعض المؤرخين نستطيع أن نتلمس أطراف المشكلة ونضع اصابعنا على ابعاد مؤامرة كبرى ، ليس مروان بن الحكم من يتحمل وزرها ، أو أوقد شعلتها ونفخ في كورها حتى صارت لهبا أحرق وحدة المسلمين ومزق شملهم . وإنما هي وليدة تنظيم سري وايدٍ خفية جعلت لها مراكز في المدينة وفي جميع الامصار الثائرة ، تدس الدسائس وتختلق الشائعات حتى يستعصي الامر على العلاج وتأخذ الفتنة أبعادها لتمزيق وحدة الامة وتحقيق طموحات ورغبات بعض الطامعين من ذوي النيات الخبيثة .

ولا يجد المدقق في النصوص كبير عناء في الكشف عن هذه المؤامرة . وكفانا امير المؤمنين علي ابن ابي طالب مؤونة المشقة ، حين سأل كل الوفود سؤالا واضحا محددا : « كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر ، وقد سرتم مراحل حتى رجعتم الينا . . » فأفحموا . وبذلك كان أول من كشف كذب هذا الادعاء ورد عليهم بما رواه الطبري « هذا والله امر ابرم في المدينة »(٢١) او كما جاء عند ابن الاثير : « هذا والله أمر ابرم بليل »(٢٢) .

والملفت للنظر أن الثوار لم يحاولوا تبرير موقفهم أو اثبات صدقهم . بل ردوا بكل جراة وبجاحة : « ضعوه حيث شئتم لا حاجة لنا بهذا . . ليعتزل عنا »(٢٣).

ويتضح الدس والكذب من مضمون الكتاب . فتارة يقال فيه : « اذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فأجلده » وأخرى : « اذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان فأقتلهم . . ».

ومما يؤكد أن قصة الكتاب تنطوي على مؤامرة أبرمت بليل هو أن الثوار العائدين الى المدينة نسبوا تارة الى علي أنه راسلهم يستقدمهم ، وتارة الى عائشة انها ارسلت اليهم كتابا تحرضهم فيه بالخروج على عثمان . وقد استنكر علي ذلك. كما أن عائشة حلفت أنها لم تكتب سوادا ببياض . كل ذلك يؤكد ان التهمةاستهدفت تمرير المؤامرة من ناحية وتفجير الموقف بين الخليفة وامين سره من ناحية اخرى لتصديع وحدة الامة .

ان ما قصدنا اليه ليس تبرئة مروان بن الحكم من كل نقيصة او خطأ في في سياسته **او سلوكه** ، بل الكشف عن أن هذه التهمة المختلقة لم تستند الى دليل ، **وان منطق التاريخ** يرفضها . ومسألة تزوير الرسائل والكتابة على لسان اخرين قضية معروفة تاريخيا . وهذا يستدعي من المؤرخين اعادة كتابة تاريخنا وتنقيته من الروايات المدسوسة او المغالطات الواضحة بهدف تشويه صورة هذا التاريخ ورموزه.

ثمة تهمة اخرى وجهت الى مروان وهي توجيهه سهم الى طلحة بن عبيد الله في معركة الجمل أرداه قتيلا . يذكر ابن حجر أن قتل طلحة كان متأولا فيه(٢٤) . وأما ابن العربي(٢٥) فيقول بملء فيه : ان هذا لم ينقله مصدر ثبت . كما أن هناك زعما بان الاحنف هو الذي أمر بقتله . وبذلك يتضح أن اتهام مروان بقتل طلحة لا يستند الى دليل قاطع . فضلا عن انه اثناء احتدام القتال وتشابك الصفوف تتداخل الامور ، وتتعدد الروايات والاغراض ، ويختلط الحابل بالنابل .

ولاية مروان المدينة :

ولي مروان المدينة في مستهل خلافة معاوية بن أبي سفيان . ونسب **ابن كثير** لمعاوية انه قال لما سئل لمن تركت الامر بعدك ، فقال الى : « القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله ، الشديد في حدود الله ، مروان بن الحكم »(٢٦) . ويستدل من هذا ان معاوية كان يثق بمروان في دينه وفقهه وعدله . وحين ولاه المدينة رضى به معظم الصحابة . فكان عادلا بينهم ، يتبع نهج عمر بن الخطاب في القضاء .

وذكر **ابن الاثير** ان مروان تولى المدينة عام ٤٣هـ ، وحج في هذه السنة(٢٧) . اما في سنة ٤٤ هـ فقد بنى مروان مقصورة في المدينة ، وهو أول من قام بهذا العمل(٢٨) الذي يعد من ابرز أعماله المعرانية . كما أن مروان حج بالناس عام ٤٨هـ . وكان يتوقع من معاوية أن يعزله لموجدة كانت عليه .

ثم ولاه معاوية المدينة عام ٥٤هـ . وحج بالناس مرتين إحداهما عام ٥٤هـ ، والثانية عام ٥٥هـ ، واستخلف ابا هريرة على المدينة ، في إحدى السنتين أو في كليهما(٢٩) .

وفي عام ٥٧ هـ صرف معاوية مروان عن المدينة ، وولاها الوليد بن عيينة بن أبي سفيان ، فلم يزل واليا عليها حتى مات معاوية ، وبهذا نستطيع القول ان ولاية مروان على المدينة كانت متقطعة ، وسيرته حميدة عند أهلها .

والجدير بالذكر ان مروان حين ادرك العنت الشديد الذي يعانيه سكان المدينة في الحصول على مياه الشرب قام باستغلال « العين الزرقاء » التي تنبع من بئر عند قباء غرب مسجد قباء ، وبذل جهدا كبيرا في الانتفاع بمياه هذه العين ، فمد مجراها حتى مصلى الاعياد(٣١) ، وهناك أقيم عليها قبة مفتوحة من جانبيها الشمالي والجنوبي . وفي كل جانب مدرج ينزل منه الناس لاخذ المياه . وتستمر مياه العين الزرقاء في مسيرها نحو الشمال الى أن تصل الى مسجد السيق حيث أقيم لها منهل

يستقي الناس منه ، ثم تتابع مسيرها مارة بشمالي جبل سلم قرب مسجد الراية، بحيث أصبح نفعها يعم جميع سكان المدينة .

الاحداث في الحجاز والشام قبيل وفاة يزيد بن معاوية :

بعد استشهاد الحسين بن علي في كربلاء خلا الجو لعبد الله بن الزبير . فدعا وجوه أهل تهامة والحجاز الى بيعته فبايعوه جميعا باستثناء عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية (٣٢) . ووثب اهل المدينة على عاملها عثمان بن محمد بن ابي سفيان ، وعلى مروان بن الحكم وسائر بني امية وأخرجوهم من المدينة وحصبوهم بالحجارة(٣٣) . ويروي الطبري أن **عبد الله بن الزبير** هو الذي كتب الى عامله على المدينة ان ينفي بني أمية منها بعيالاتهم ونسائهم الى الشام(٣٤) . فلما بلغ **يزيد** ذلك أعد جيشا قوامه ١٢ الفا لتأديب أهل المدينة والقضاء على حركة ابن الزبير، وجعل على قيادته **مسلم بن عقبة المري** . وفي هذا الجيش **الحصين بن نمير السكوني**.

ولما اقترب جيش يزيد من المدينة تأهب سكانها لمواجهته وأحاطوا المدينة بخندق وعسكر جيش يزيد في الجوف من ناحية الحرة في ذي الحجة من عام ٦٣هـ . ولما استعصى اقتحام المدينة ، لجأ مروان الى الحيلة وخدع بعض سكانها ، ودخل ومعه مائة فارس ، فأحدث ثغرة ، ثم تبعه الجيش الاموي وجالت خيول هذا الجيش واستباحت المدينة ثلاثة أيام . ثم امسكوا بعد ذلك(٣٥) . وبذلك أسلمت المدينة قيادها **لمسلم بن عقبة المري** ، وبايع سكانها ليزيد بن معاوية عنوة .

واصل مسلم سيره نحو مكة ، وما كاد يصل الى موقع المشلل(٣٦) حتى أغتيل، وقد استخلف على القيادة الحصين بن نمير السكوني . ووصل الحصين مكة في ٢٦ محرم عام ٦٤هـ وقد تولى الدفاع عنها الى جانب عبد الله بن الزبير جماعة من الخوارج النجدات بقيادة نجدة بن عامر الحنفي . وظل جيش الحصين يحاصرها حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية في أول ربيع الاخر من عام ٦٤هـ . فتوقفوا عن القتال .

وفكر **الحصين** ملياً ، وارتأى أن يفاوض ابن الزبير ، وكان يميل الى مبايعته في ظاهر الامر ، لانه لا جدوى من القتال بعد موت الخليفة . ففتح له ابن الزبير أبواب المسجد ، فطلب الحصين أن يبايع ابن الزبير على أن يخرج معه الى دمشق. فانتزع عبد الله بن الزبير يده من يد الحصين وهو يجهر بقوله : « ابعد قتل أهل الحرة ؟ لا والله حتى اقتل بكل رجل من أهل الحجاز عشرة من اهل الشام . فقال الحصين : لقد كذب من زعم انك من دهاة العرب ، أكلمك سرا ، وتكلمني علانية . وادعوك الى الخلافة ، وتدعوني الى الحرب »(٣٧) .

انصرف الحصين بعد ذلك مع جنده الى بلاد الشام . ثم بويع معاوية بن يزيد بالخلافة بالشام في الوقت الذي انضوى فيه أهل الحجاز الى جانب ابن الزبير وبايعوه(٣٨) . ولكن معاوية كان زاهدا بالخلافة ولم يلبث ان توفي بعد شهرين دون أن يعهد بالخلافة لاحد من أبنائه أو اقاربه ، تاركا الامر شورى لينصب المسلمون من يرونه أهلا . مما افسح المجال لنزاع حاد بين المسلمين ، وأتاح الفرصة للطامعين وذوي الاغراض الشخصية ، ووضع دمشق على أبواب ازمة حادة وهي شغور منصب الخلافة فيها ، وتصارع القوى والتيارات القبلية في بلاد الشام وظهور أكثر من مرشح لدار الخلافة فضلا عن تطلع الزبيريين في كل مكان لوراثة الحكم الاموي .

شغور منصب الخلافة في دمشق :

عشية وفاة معاوية بن يزيد انتشرت الفوضى في الاقاليم العربية والعجمية على حد سواء . . واضطرب الامن ، وظهرت الفتن ، واستشرت العصبية القبلية . فابن الزبير نودي به بالحجاز خليفة(٣٩) . غير أن الخوارج الذين ناصروه أثناء حصار جيش بني أمية مكة ما لبثوا أن غادروها الى البصرة . وفي البصرة انقسم الناس الى شيع(٤٠) . وحاول عبيد الله بن زياد أن يحمل الناس على مبايعته اميرا عليهم حتى يجمع الامة على خليفة ، وأظهر المجتمعون موافقتهم(٤١) ، ولكن ما لبثوا أن نفضوا أيديهم من بيعته ، فاضطر الى الرحيل الى الشام .

أما في الشام فقد تعددت مراكز القوى وتباينت الطموحات الشخصية ، واستشرت الولاءات القبلية . فالضحاك بن قيس الفهري كان يهوى هوى بن الزبير ، ويدعو له سرا . كما كان زفر بن حارث الكلابي بقنسرين يبايع له أيضا(٤٢) . وكان **حسان بن مالك بن بحدل الكلبي** عاملا لمعاوية ولابنه يزيد على فلسطين والاردن . وكان ناتل بن قيس الجذامي بفلسطين يميل الى ابن الزبير . فخرج منها حسان الى الاردن ، واستخلف عليها روح بن زنباع الجذامي . فوثب على ناتل واخرجه منها ، واستولى عليها ، وبايع لابن الزبير .

فلما راى مروان بن الحكم اختلاف الناس ، وتفرق أهوائهم فكر بالخروج الى ابن الزبير بمكة ، فيبايع له ، ويأخذ أمانا لبني أمية . وفي طريقه الى الحجاز لقيه باذرعات من جند دمشق عبيد الله بن زياد قادما من العراق ، فسأله عن حالته . فأخبره عن قصده فلامه وثناه وأشار عليه أن يدعو الى نفسه . فهو شيخ قريش وأحق الناس بالخلافة ، وضمن له أن يكفيه قريشا ومواليها ، لا يخالفه منهم أحد. وقد لامس ما طرح على مروان الرغبة الكامنة في نفسه . فرجع الى تدمر وجمع بني أمية فبايعوه بالامارة عليهم كما بايعه اهل تدمر(٤٣) .

ولكن المشكلة أن **حسان بن بحدل الكلبي** استقر في الاردن بعد أن خرج من فلسطين . وكان يتحزب لبني أمية ويحب أن تكون الخلافة فيهم ، ويدعو أن تكون في ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية . وجميع الروايات متفقة على الدور القبلي المبدئي الذي لعبه حسان . فقد صرحت القبلية وبصورة جدية من قبل القبائل اليمنية التي حافظت خلال العهود السابقة على خصائص نظامها القبلي حيث وجدت الصلات المشتركة من التنظيم الاجتماعي مما جعلها تحافظ على كيانها وطابعها حيثما نزلت سواء في البادية أو القرى أو المدن(٤٤) .

استغل **حسان الكلبي** العصبية القبلية في تحريك القبائل اليمنية ، فدعا أهل البلقاء واذرعات(٤٥) وقبائل تدمر ، الى جانب قبائل طبريا والجولان . فالتفوا حوله، واخذ يدعو الى ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية(٤٦) أربعين يوما(٤٧) . وفي الوقت نفسه يحرّض هذه القبائل ضد خليفة الحجاز عبد الله بن الزبير(٤٨) ، معبرا بذلك عن موقفه القائم على السياسة القبلية التي احتلت حيزا من العلاقات الجيدة مع الدولة الاموية من حيث النفوذ داخل نظام الدولة منذ عهد معاوية ومن تلاه ، الذي تبلور الى ما يمكن أن يسمى **سلطة الظل** . وقد بدت هذه العلاقة واضحة فيما كان يفرض لهم من الصدارة والحل والعقد والمشورة والعطاء(٤٩) .

وبذلك يتضح كيف أن الواقع فرض نفسه من حيث شدة الالتصاق والاستقطاب بسبب عمق المصالح المشتركة بينهما ، ولان أية رياح عاصفة قادمة يمكن أن تجرد الطرفين من كل نفوذ وسلطة .

وخلاصة القول ان وضع بني أمية أصبح في غاية الحرج . الدولة الاموية بدون خليفة ، وعبد الله بن الزبير بويع في الحجاز والعراق ومصر وفلسطين وحمص وقنسرين . وفي دمشق كان هوى الضحاك بن قيس الفهري مع ابن الزبير ، ويأخذ له البيعة سرا . وبنو أمية تتقاسمهم الاهواء والحكم مهدد بالزوال . وكان الموقف يحتم وبالسرعة الممكنة التوفيق بين الطرفين الامويين : **حسان بن بحدل** الذي يؤازر ابن أخته خالد بن يزيد ، وعبيد الله بن زياد ومعه أعداد غفيرة من بني أمية ، يؤازرون **مروان ابن الحكم** . وكان لا بد من لقاء لمواجهة هذه الاخطار التي تهدد كيانهم في كل مكان فكان **مؤتمر الجابية**(٥٠) الذي عقد في ذي القعدة من عام ٦٤هـ اللقاء الذي حسم الامر.

مؤتمر الجابية :

كان في مقدمة أولويات المؤتمر توحيد الآراء المتباينة لاختيار رجل قادر على الخروج ببني امية وحلفائهم اليمنيين من مأزقهم . فبعض المجتمعين يريد أن يجعل

الخلافة لخالد بن يزيد ، والبعض الاخر يريدها لمروان بن الحكم . وكان ذلك يصطدم بتوجهات القيسية في بلاد الشام الذين يمالئون ابن الزبير في الحجاز(٥١) .

واستفحل الخلاف بين القيسية وتحول الى منازعات ومصادمات قوية. فاقترح الضحاك بين قيس عليهم أن يجتمعوا **بالجابية** لينظروا في الامر ويتشاوروا فيمن يقلدونه الخلافة . ودعا أنصار ابن الزبير ، وانصار بني أمية للاجتماع . فلما كانوا ببعض الطريق الى الجابية تصدى القيسية **الى الضحاك** ، وأنكروا عليه تخليه عن بيعة ابن الزبير ، ولاموه وأنبوه ، فأذعن لهم وعاد معهم الى **مرج راهط** ، فبايع لابن الزبير ، وخلع ولاءه لبني أمية(٥٢) .

وصار بنو أمية ومواليهم وأنصارهم الى الجابية ، ووافاهم حسان هناك فصلى بهم اربعين ليلة ، وهم يتشاورون فيمن ينتخبون للخلافة .

وظاهر الامر أن اجتماعهم في البداية كان اجتماعا حرا(٥٣) . لانهم لم يرشحوا للخلافة رجالا من أهل الشام فحسب ، بل من أهل الحجاز أيضا مثل **ابن الزبير وابن عمر** . ويبدو ان فريقا من اليمنية من أهل الاردن كانوا يؤثرون ابن الزبير ويقدمونه على غيره . قال البلاذري : « يقال أن بعض أهل الاردن قد كانوا مائلين الى **نائل** ، ومنحرفين عن **حسان بن بحدل** ، وكانت الزبيرية بالشام تقول ان ابن الزبير أولى أهل زمانه بالامر ، لانه ابن حواري رسول الله (ص) والمطالب بدم عثمان . ورجل له شجاعة وفضل »(٥٤) .

واستندوا في الموازنة بين المرشحين الى أساسين هما :

الاول : الكفاءة والجدارة .

والثاني : مصلحة بني امية ، ومصلحة أهل الشام . اما **ابن الزبير** فقد اقروا بفضله وعلو مكانته ، ولكنهم استبعدوه لمنازعته بني أمية في الامر وثورته عليهم ، وخلعه خليفتين منهم . وأما **ابن عمر** ، فاعترفوا بسابقته وصحبته وعلمه وفقهه ، ولكنهم اسقطوه لضعفه وتردده(٥٥) . فلم يبق الا مرشحا بني أمية : خالد بن يزيد ، ومروان بن الحكم ، والاهواء ازاءهما مختلفة . **فالحصين بن نمير** هواه مع مروان بن الحكم ، ومالك بن هبيره مع خالد بن يزيد . قال مالك للحصين : هلم نبايع خالد بن يزيد ، فقد عرفت منزلتنا عند أبيه . فقال الحصين : لا والله لا يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي . فقال مالك: ويحك . إنّ مروان وآل مروان يحسدونك على سوطك وشراك نعلك، وظل شجرة تستظل بها ،ومروان أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة،

وإن بايعتموه كنتم عبيدا له . ولكن عليكم بابن اختكم خالد. فقال مروان شيخ قريش، والمطالب بدم الخليفة المظلوم . وهو يديرنا ويسوسنا ، ولا نحتاج أن نديره ونسوسه. وغيره الى الان يدار ويساس(٥٦) .

ولم يكتف هؤلاء بالتلميح والتلويح بعدم قبولهم اختيار الاطفال ، بل أخذوا يعارضون بصراحة ووضوح . فهذا **عبيد الله** بن زياد يقول : « إنكم أخطأتم الرأي في بيعة يزيد ، وقد بايع الناس ابن الزبير . تبايعون غلاما حديث السن ليست له حنكة، وتريدون أن تقارعوا ابن الزبير ، وأرى أن تبايعوا مروان بن الحكم ، فان له سنا وفقهاً (٥٧) .

واما قبيلة كلب اليمنية فكانت تدعو الى بني امية، والى خالد بن يزيد بالتحديد، لانه ابن أختهم(٥٨) وأظهر حسان بن بحدل الدعوة له وعزم عليه(٥٩) . فقال له عبد الله بن عضاء الاشعري بالجابية(٦٠) : » أراك تريد هذا الامر لخالد بن يزيد وهو حديث السن ، فقال : انه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة ، **فأتي ابن عضاء** خالدا في جماعة من نظرائه من الوجوه ، فوجدوه نائماً مضطجعا فقال : يا قوم انجعل نحورنا أعراضا للاسنة والسهوم بهذا الغلام . وهو نائم في هذه الساعة . وانما صاحب هذا الامر المجد المشمر الحازم المتيقظ ، ثم أتى مروان بن الحكم ، والفاه في فسطاط له ، واذا درعه الى جانبه ، والرمح مركوز بفنائه ، وترسه مربوط الى جانب فسطاطه ، والمصحف بين يديه ، وهو يقرأ القرآن ، فقال **ابن عضاء** : يا قوم هذا صاحبنا الذي يصلح له الامر . وهوابن عم عثمان امير المؤمنين ، وشيخ قريش وسنها ، فرجعوا الى حسان بن بحدل ، وأخبروه بخبر خالد ومروان ، واعلموه أنهم مجمعون على مروان لانه كبير قريش وشيخها .

وازاء هذا الاجماع لم يسع ابن بحدل إلا الرضوخ للامر الواقع بالقول : « رأيي لرايكم تبع ، وانما كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن الزبير وتخرج من أهل البيت». ثم قام حسان خطيباً . فحمد الله واثنى عليه ثم ذكر مروان فقال : « هذا كبير قريش وسنها ، وابن عم الخليفة المظلوم والطالب بدمه قبل الناس أجمعين ، فبايعوه رحمكم الله ، فهو اولى بميراث عثمان وأحق بالامر من الملحد ابن الزبير الذي خلع الخلافة وجاهر الله بالمعصية ، فسارعوا الى بيعته وماسحوه »(٦١) . والتفت اليه بنوا امية، فقالوا الحمد لله الذي لم يخرجها منا .

ودعا حسان خالدا فقال له(٦٢) : « يا ابن اختي ، إن الناس قد ابوك لحداثة سنك ، واني والله ما اريد هذا الامر إلا لك ولاهل بيتك ، وما أبايع مروان الا نظرا

لكم . فقال له خالد : بل عجزت عنا ، قال : لا ، والله ما عجزت عنك ولكن الراي لك ما رأيت » .

وهكذا يتبين أن حسان وجد نفسه أمام ضغط من اصحاب الراي ، مضطرا للتخلي عن ابن اخته(٦٣) لاعتقاده بعدم جدوى دعمه له ، وتوجه نحو مروان بن الحكم الاكثر قدرة على استيعاب الظروف القادمة ، فضلا عن قدرته على التغيير للخروج بالجميع مما هم فيه . بيد أنه أراد أن يعرف موقع ابن أخته خالد بعد هذه التنازلات، وان يحتفظ بكل **الامتيازات السابقة** له ولقبيلته ، وعبر عن رغبته أن تكون الخلافة لابن أخته خالد من بعد مروان(٦٤) .

وبالمقابل ، كان مروان يتفاعل مع هذه الاراء وأكثر ادراكا لدور العصبية القبلية والطموحات الشخصية واهميتها . فكان عليه أن يستوعب رغبات الجميع لاستنقاذ النظام المرتبط عضويا بمصلحة الجميع المهددة . ولذا فان مروان لم يتردد في مؤتمر الجابية من ركوب **الموجة القبلية** والمطامع الشخصية ، فاستوعب رغبات أصحابها على امل ان **يوظفها** مستقبلا لصالحه . وانحنى أمام مطالب حسان بن مالك(٦٥)، واستجاب لمطالب مالك بن هبيره اليشكري(٦٦) ، ولبى شروط الحصين بن نمير(٦٧) ، ووعد عمرو ابن سعيد الاشدق بالخلافة بعد خالد بن يزيد(٦٨) . ولم يكتف بذلك ، بل تزوج ام خالد(٦٩) شقيقة حسان ، وأرملة الخليفة يزيد ليعزز الاواصر مع الكلبيين، ويعمق العلاقة المتبادلة بينهما ، وليدلل على حسن نواياه لعله يحتوي خالداً وخؤولته من بني كلب .

وبذلك اختتم **مؤتمر الجابية** بقرارات توفيقية ، في مقدمتها عدم مبايعة ابن الزبير ، واستبعاد خالد لصغر سنه ، **والبيعة لمروان بن الحكم** بصفته شيخ بني أمية المحنك والمعول عليه في اخراج الجميع من الازمة . ونصت القرارات ان يتولى خالد بن يزيد الخلافة من بعده ، ثم عمرو بن سعيد الاشدق بعد خالد والاستعداد للتصدي لاتباع ابن الزبير في الشام(٧٠) . وكان ذلك كله مقدمة للمعركة الحاسمة مع الضحاك والقيسية في مرج راهط .

معركة مرج راهط (محرم ٦٥ هـ) :

كان ابن الزبير قد ولى الضحاك بن قيس دمشق . وولى **النعمان بن بشير الانصاري حمص** ، وزفر بن الحارث الكلابي **قنسرين** ، وناتل بن قيس الجذامي فلسطين بعد ان بلغه أنهم دخلوا في طاعته وبايعوا له(٧١) . فأرسل اليهم الضحاك

يستمدهم فأمده النعمان بأهل حمص ، وزُفر بأهل قنسرين ، وناتل بأهل فلسطين . ولكن أنصاره كانوا من قيس ، اذ كانت قيس بالشام تدعو الى ابن الزبير ونصرة الضحاك(٧٢) .

وثمة رواية للواقدي مفادها أن الناس بدمشق بايعوا الضحاك بعد وفاة معاوية الثاني ، على ان يصلي بهم ، ويقيم لهم امرهم حتى تجمع الامة على خليفة جديد . ويدعي الواقدي أن الضحاك أراد الخلافة لنفسه ، ولكنه ، وهو غير القرشي والخلافة في قريش ، اضطر لمبايعة ابن الزبير(٧٣) .

وليس غريبا أن يكون في هذا الزعم بعض الصواب ، لانه يصعب علينا ان نصدق أن الضحاك بما نعرفه عن ماضيه المفرط في أمويته ، قد مال لابن الزبير دونما سبب. فقد كان كما هو معلوم ساعد معاوية الايمن ، وبطل الاجتماع الذي تمت فيه البيعة ليزيد بن معاوية .كما أن توليه الضحاك امارة دمشق بعد وفاة معاوية الثاني الذي مات دون أن يولي أحدا من بعده ، دليل اخر على ثقة الامويين به وأيمانهم بأنه سيحفظ الامر لهم حتى يتفقوا على مرشح من بينهم(٧٤) .

ان استنكاف الضحاك عن حضور مؤتمر الجابية تم إذن بتأثير قومه من القيسية. يؤيد ذلك ما ورد في الطبري على لسان بعض القيسيين يخاطبون الضحاك : « دعوتنا الى طاعة ابن الزبير ، فبايعناك على ذلك ، وأنت تسير الى هذا الاعرابي من كلب لتستخلف ابن اخته خالد بن يزيد »(٧٥) . ولعل جذور النزاع بين قيس وكلب قد استجدت بعد هجرة القبائل القيسية الى بلاد الشام عقب الفتوحات ، واصهار معاوية الى بني كلب ، مما قوى شوكتهم وزاد من نفوذهم ، ، وادى الى نقمة القيسيين عليهم. وحملت قيس الضحاك على ذلك نكاية ببني كلب(٧٦) وزعيمها حسان .

هذا فضلا عن أن حسان كان عدوا لدودا للضحاك ، واذا أضفنا الى ذلك أن بني أمية كانوا منقسمين على أنفسهم ، ادركنا أن ميل الضحاك لابن الزبير له ما يبرره ، سيما وأن بعضا من بني امية كانوا يقولون هذا القول . كما أن **القيسية** كانوا يرون في كل تقارب مع الامويين **مذلة لهم** ، لان الامويين أنصار خلص لعدوهم حسان بن بحدل وبني قومه من بني كلب .

خرج الضحاك الى **مرج راهط** على بعد عدة أميال من دمشق في جموع هائلة من القيسية والمضرية ، وجماعة من نزار وقضاعة ، والجموع التي انضمت اليه من حمص وقنسرين وفلسطين . اما **مروان بن الحكم** فقد اجتمع اليه حشود من كلب وغسان

والسكاسك والسكون ، فجعل على ميمنته عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته عبيد الله ابن زياد ، وسار بهم من **الجابية** نحو **مرج راهط** .

وكان يزيد بن أبي النمس الغساني مختبئا بدمشق ، لم يشهد الجابية. فاستغل فرصة خروج الضحاك الى مرج راهط ، وغلب على دمشق ، وأخرج عامل الضحاك منها ، واستولى على الخزائن وبيوت الاموال . وبايع فيها لمروان ، وأمده بالاموال والرجال والسلاح(٧٧) . فكان أول فتح لبني أمية .

ثم اشتبك الفريقان في مرج راهط في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ(٧٨) وقيل في المحرم سنة ٦٥ هـ(٧٩) ، في قتال عنيف استمر عشرين يوما . وانتهى بهزيمة القيسية وقتل الضحاك ، وقتل معه ثمانون رجلا من أشراف أهل الشام ، وذكر المؤرخون أن القيسية لم تشهد هزيمة مثلها ، وانها قتلت مقتلة لم يقتل مثلها في موطن قط(٨٠) . وتلاحقت فلولهم الى أجنادهم ، فبلغت الهزيمة **النعمان بن بشير في حمص** ، فخرج هاربا ، فطلبه أهل حمص من **اليمنية** فقتلوه . **اما زفر بن الحارث** فقد فرّ من قنسرين الى قرقيسيا وتغلب عليها وتحصن فيها . في حين تراجع ناتل بن قيس الجذامي عن فلسطين ، ولحق بابن الزبير بمكة . وبذلك **انفرط عقد** القيسية وآلت بلاد الشام جميعها الى مروان .

ودخل مروان بن الحكم دمشق . لقد تلقى في **الجابية** بيعة **القبيلة** ، ولكنه يحوز في دمشق على بيعة **الامة** . ويلتزم بتعهداته بتعيين نائبه الاول خالد بن يزيد أميرا لحمص . ونائبه الثاني عمرو بن سعيد بن الاشدق أميرا على دمشق .

كان لموقعة **مرج راهط** آثار خطيرة في ابتعاث العداء التقليدي ، واشعال نار الفتنة القبلية في سائر أنحاء العالم الاسلامي . فقامت الحرب بين **القيسية واليمنية** في مناطق عديدة من دار الاسلام . وبذلك تكون قضية العصبية القبلية قد دخلت لاول مرة مسرح السياسة العليا للدولة . وبعد أن كان الخلاف محصورا بين فروع **قبيلة قريش** ، أصبح مشاعا بين القبائل يصطبغ **بصبغة حزبية قبلية** . غير أن النصر الذي حاز عليه الكلبيون في مرج راهط كان **نصرا مؤقتا** ،لان الصراع بين العصبيتين القبليتين سوف يستمر طيلة الحكم الاموي ويكون في النهاية من عوامل انهيار الدولة الاموية.

استيلاء مروان على مصر :

كانت مصر قد بايعت **لعبد الله بن الزبير** فأناط ولايتها منذ شعبان سنة ٦٤هـ **بعبد الرحمن بن عتبه بن جحدم** . وبعد انتصار مروان في مرج راهط دعا شيعة بني

امية في مصر الى تخليص بلادهم من تبعية ابن الزبير ، ثم زحف على رأس جيش ضخم الى مصر ومعه وجوة اليمنية بقيادة خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الحكم وحسان بن بحدل ، سار بحذاء الساحل . وسيّر جيشا آخر بقيادة عبد **العزيز الى أيلة ،** وامره أن يدخل مصر من تلك الناحية(٨١) .

لما ترامت انباء هذا الزحف الى ابن جحدم عزم على التصدي لاهل الشام. فحفر خندقا حول الفسطاط ، وارسل بعثاً بقيادة الاكدر بن حمام اللخمي ليغير على الشام . كما بعث فرقة بقيادة السائب بن هشام العامري ليقطع على مروان طريقه الى مصر ، وجيشا بقيادة **زهير بن قيس البلوي** الى أيله ليمنع عبد العزيز بن مروان من المسير عليها، وقد باءت معظم هذه التدابير بالفشل . **فالسائب** رجع بجيشه ولم يقاتل . وهزم **زهير بن قيس** بالقرب من **أيلة**(٨٢) . ولما وصل مروان الى مصر اشتبك مع قوات ابن جحدم فتراجعت هذه ومنيت بخسائر فادحة . واسفر الامر عن صلح بين **الطرفين** دخل مروان بموجبه **الفسطاط** في غرة جمادى الاولى سنة ٦٥هـ . وضربت اعناق ثمانين رجلا من **قبائل معافر** ، امتنعوا عن خلع ابن الزبير(٨٣) .

اقام مروان في مصر شهرين ، ثم اسند ولايتها الى ابنه عبد العزيز وعاد الى دمشق. وأثناء عودته نزل في **الصنبرة من أرض الاردن**(٨٤) ، فبلغه هناك أن**مالك بن هبيرة** السكوني يقول : « شرط لي مروان بالمرج ان يجعل لي ولقومي **كورة البلقاء** »، وأن عمرو بن سعيد الاشدق يقول : **« الامر لي بعد مروان »** وأن خالد بن يزيد يقول : **« الامر لي بعد مروان »** . فقال لحسان بن بحدل الكلبي : إن قوماً يزعمون أني اشترطت لهم شروطا ووعدتهم عدات(٨٥) . ثم أخذه بالترغيب والترهيب لحمله على مبايعة ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز . وأورد الطبري(٨٦) أن مروان قال **لحسان:** بلغني أنك تقول : اني اشترطت على مروان ان يولي خالد بن يزيد الخلافة بعده . مما حدا بحسان على الجد في بيعةولدي مروان عبد الملك ثم عبد العزيز ، ليكذب ما ابلغ مروان عنه .

ولما اجتمع الناس عند مروان قام حسان فقال : « إنه بلغنا ان رجالا يتمنون اماني ، ويدعون اباطيل ، فقوموا ، فبايعوا لعبد الملك ابن امير المؤمنين بالعهد ، ثم لعبد العزيز من بعده ».

كانت بيعة مروان لولديه وعزل خالد بن يزيد ، أول مخالفة **لمقررات مؤتمر الجابية** . ولم يعارض ابن بحدل في ذلك بسبب احراج الخليفة له ، ولم يكن باستطاعته ان يكذبه . فضلا عن أن حسان يعلم أن مروان كبير السن ووفاته متوقعة في القريب

العاجل ، ثم ان خالدا ما زال في سن لا تؤهله لتسلم الخلافة . وكان ابن بحدل يخشى أن تؤول الخلافة الى عمرو بن سعيد الاشدق ، ويعتقد أن مروان وابناءه أحق بهذا المنصب منه .

والجدير بالذكر ان مروان قبل ان يأخذ البيعة لولديه أخذ يتحرش بخالد بن يزيد ، ويتعمد اهانته امام الاخرين(٨٧) بغية تحجيمه واعطاء صورة للناس بعدم صلاحيته للخلافة .

وحاول مروان بعد أن استتب له الامر في عدد من الامصار ان يرسل حملة للاستيلاء على الحجاز الذي كان لا يزال بيد ابن الزبير ، وولى **جيش بن دلجة** قيادة هذه الحملة . كما أرسل الى العراق بعثا بقيادة **عبيد الله بن زياد** ولكن هذين القائدين لن يتمكنا من اتمام المهمة في حياة مروان ، اذ أن المنية عاجلته قبل ان ينفذ هذان القائدان ما ارسلا من أجله(٨٨) .

مات مروان تاركا لولي عهده عبد الملك احداثا جساما ومعضلات كبيرة ، يتطلب حلها أن يكون على راس الدولة رجل قوي لا تهزه الخطوب كعبد الملك ، الذي سيتمكن في مدة وجيزة من استعادة العراق والحجاز الى حظيرة الدولة الاموية . مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونه المؤسس الثاني للدولة الاموية بعد معاوية بن أبي سفيان .

توفي مروان في دمشق في شهر رمضان من عام ٦٥هـ ، بعد أن حكم اقل من سنة. وقد اختلف المؤرخون ومن عني بأخبار بني أمية بسبب وفاته . فمنهم من رأى انه مات حتف انفه ، ومنهم من رأى أن فاختة بنت ابي هاشم بن عتبه أم خالد بن يزيد هي التي قتلته . وكان قدتزوجها بعد أن أخذت البيعة له . فلما عزل ابنها عن ولاية العهد ، واستخف به وافحش له بالقول شكاه اليها . فأضمرت ان تنتقم لابنها ونفسها ويقال إنها وضعت له سما في لبن فشربه فمات ، ويقال انها غطت وجهه بوسادة وهو نائم فمات مخنوقا(٨٩) . والقول الاخير هو الارجح عند المؤرخين .



الحواشي :

(١) ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة جـ٣، ص ٤٥٥ . **ابن حزم الاندلسي** ، جمهرة انساب العرب ص ٨٧٢ .

(٢) ابن حجر ، **تهذيب التهذيب** جـ ١٠، ص٩١.

(٣) المصدر نفسه ، ٩١/١٠ .

(٤) **ابن حجر العسقلاني** ، الاصابة في تمييز الصحابة جـ٣ ، ص ٤٥٦ . وانظر ، محمد ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، جـ٤، ص ١٢٦ . ويذكر انه ولد ليلة بدر في السنة الثانية للهجرة وتوجه الى الطائف مع ابيه.

(٥) **الذهبي** ، تجريد اسماء الصحابة ، جـ ٣ ، ص ٤٥٦ .

(٦) **الذهبي** ، سيرة اعلام النبلاء، جـ٣ ص٤٧٦.

(٧) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٤٧٧ .

(٨) **الديار البكري** ، الخميس في أنفس نفيس، جـ ٢ ص ٢٩٧ .

(٩) **ابن العربي** ، العواصم من القواسم ، المكتبة العلمية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٨٦ .

(١٠) **الرازي** ، كتاب الجرح والتعديل .

(١١) **ابن حجر** ، تهذيب ، جـ١٠ ، ص ٩٢ .

(١٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ، ص ٢٢٩ . وانظر ، ابراهيم علي شعوط ، اباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، المكتب الاسلامي ، ١٩٨٨ ، ص ٢٦٢ .

(١٣) **ابن الاثير** ، الكامل في التاريخ ، جـ٣ ، ص ٣٤٨ .

(١٤) المصدر نفسه ، ٢٤٨/٣ .

(١٥) المصدر نفسه ، ٢٤٨/٣ .

(١٦) **ابن العربي** ، العواصم ، ص ٩٠ .

(١٧) **الطبري** ، تاريخ ، جـ ٤ ص ٣٥١ .

(١٨) **ابن العربي** ، العواصم ، ص ١٢٧ ، ١٢٨.

(١٩) المصدر نفسه ، ص ، ١١٠ .

(٢٠) **الطبري** ، تاريخ ، جـ ٥ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧ . وانظر ، **ابن العربي** ، العواصم ، ص ١٣٦ .

(٢١) **الطبري** ، تاريخ ، جـ ٤ ص ، ٣٥١ .

(٢٢) **ابن الاثير** ، الكامل ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٢٣) **الطبري** ، التاريخ ٣٥١/٤ .
ابن الاثير ، **الكامل** ، ٨٠/٣ .

(٢٤) **ابن حجر** ،مقدمة في فتح الباري شرح صحيح البخاري ، جـ٢ ، ش ١٦٤ .

(٢٥) **ابن العربي** ، العواصم ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢٦) **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٢٥٧/٨ .

(٢٧) **ابن الاثير** ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٢١٨ .
تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٠٦ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ٢٢١/٤ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ٢٢٨/٤ . **ابن خياط** ، ص ٢٢٣ . وانظر ، **عبد المنعم صالح العلي** ، دفاع عن ابي هريرة ، مكتبة النهضة ١٩٨١ ص ١٥٦ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ٢٢٨/٤ .

(٣١) **محمد الشرقاوي** ، المدينة المنورة ، ص ١٦.

(٣٢) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٢٠٧/٣ .

(٣٣) المصدر نفسه ، الكامل ٢٠٨/٣ . وانظر ابن سعد ، **الطبقات** ، ٤١/٥ .

(٣٤) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٢١/٥ .

(٣٥) **ابن قتيبة** ، الامامة والسياسة ، ص ٢٠٥ وانظر ، **السيد عبد العزيز سالم** تاريخ الدولة العربية ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية ١٩٧٣ ، ص ٢٧٢ .

(٣٦) **ابن قتيبة** ، الامامة والسياسة ، ص ٢٠٤.
اليعقوبي ، تاريخ ، ٢٥١/٢ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٢١٥ .

(٣٨) **السيد عبد العزيز سالم** ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٧٢ .

(٣٩) **نبيه العاقل** ، تاريخ خلافة بني امية ، دار الفكر ، ط٣ ، ١٩٧٥ . ص ١١٨ .

(٤٠) **يوليوس فلهوزن** ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١١٦ .

(٤١) **حسين عطوان** ، الامويون والخلافة ، دار الجيل ، ط١ ، ١٩٨٦ ، ص ١٠٥ .

(٤٢) **البلاذري** ، انساب ، ١٣٢/٥ . **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٣٣٩/٨ .

(٤٣) **ابن كثير** ، ٢٤١/٨ . **ابن عساكر** ، تهذيب

تاريخ ابن عساكر ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ ، ١١١/٧ . **الطبري**، تاريخ ، ٥٤٠/٦

(٤٤) احسان **النص** ، القبيلة وأثرها في الشعر الاموي ، دا راليقظة العربية ، بيروت ص٥٧.

(٤٥) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٨/٥ .

(٤٦) **البلاذري** ، انساب ، ١٦٥/٤ . **الطبري** ، تاريخ ، ٥٢٥/٥ . **ابن الاثير** ، الكامل ، ١٤٦/٤ .

(٤٧) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٥/٥ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ١٣٢/٥ . الطبري، ٥٣١/٥.

(٤٩) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٩٥/٣ ، (كان يفرض لالفي رجل منهم ألفي درهم ، وان مات قام ابنه او ابن عمه على أن يكون لهم الامر والنهي ، وصدر المجلس وكل ما كان من حل وعقد).

(٥٠) قرية في نواحي الجولان على مسيرة يوم الى الجنوب من دمشق ، انظر المسعودي، ٩٦/٣.

(٥١) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٧/٥ ، ابن عساكر تهذيب ، ١٠/٧ . **ابن كثير** ،البداية والنهاية ٢٤١/٨ .

(٥٢) **البلاذري** ، أنساب ، ١٣٣/٥ ، **الطبري** ، تاريخ ، ٥٣٥/٦ . ابن عساكر ، ١٠/٧ .
ابن الاثير ، الكامل ، ١٤٧/٤ ، **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٢٤٠/٨ .

(٥٣) **ضياء الدين الريس** ، عبد الملك بن مروان وزارة الثقافة ، مصر ١٩٦٢ ،ص٤٨ .

(٥٤) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٨/٥ .

(٥٥) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٣٥/٦ ، **ابن الاثير** ، الكامل ، ٢٤٧/٤ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ٥٣٥/٦ .

(٥٧) **البلاذري** ، انساب ، ١٤٤/٥ .

(٥٨) **البلاذري** ، انساب ، ١٣٣/٥ ، **ابن الاثير**، الكامل ، ٢٤٧/٤ .
الطبري ، ٥٢٣/٦ .

(٥٩) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٨/٥ .

(٦٠) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٨/٥ . **العقد الفريد** ، ٢٩٤/٤ . **ابن قتيبة** ، الامام والسياسة ، ١٦/٢ .

(٦١) ماسخوه ، صافحوه .

(٦٢) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٣٧/٦ . **ابن الاثير** ، الكامل ،١٤٨/٤ .

(٦٣) **البلاذري** ، انساب ، ١٣٨/٥ .

(٦٤) **ابن خياط** ، تاريخ ، ص ٢٥٨ . **البلاذري**، انساب ، ١٤٤/٥ .

(٦٥) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٩٥/٣ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ٩٥/٣ (فان تكن لنا على ما كان ايام معاوية ويزيد نصرناك).

(٦٧) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٤٤/٥ (اشترط أن تنزل البلقاء ومن كان في الشام من كنده، وان يجعلها لهم ، فأعطاه ذلك).

(٦٨) **الطبري** ، ٥٤٤/٥ .

(٦٩) **الاصفهاني** ، الاغاني ، ٣٤١/١٧. **الطبري**، تاريخ ، ٥٤١/٥ .

(٧٠) **شحاده الناطور** ، عبد الله بن الزبير والانتفاضة الثورية في عهد بني أمية ص١٣١ وما بعدها .

(٧١) البلاذري ، انساب ، ٢٢٧/٥ . **ابن عساكر** ١٠/٧ . الطبري ، ٥٣٥/٦ .

(٧٢) المسعودي ، مروج ، ٩٥/٣ . **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٢٤٠/٨ . **البلاذري** ، نساب ، ١٣٣/٥ .

(٧٣) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٢٠/٥ — ٥٢٥ .

(٧٤) **نبيه العاقل** ، تاريخ الخلافة الاموية ، ص ١٢٨ .

(٧٥) **الطبري** : تاريخ ، ٥٢٣/٥ — ٥٢٤ .

(٧٦) **احسان النص** ، العصبية القبلية، ص٢٥٥ وما بعدها .

(٧٧) **ابن عساكر** ، ١١/٧ . ابن خياط، ٢٣٦/١.

(٧٨) **البلاذري** ، انساب ، ١٣٦/٥ . **ابن الاثير**، الكامل ، ١٤٩/٦ . **الكندي** ، ولاة مصر ، ص ٦٥ .

(٧٩) **ابن الاثير** ، الكامل ، ١٥٠/٦ .

(٨٠) **اليعقوبي** ، تاريخ ، ص ٢٥٦ . **المسعودي**، مروج الذهب ، ٨٧/٣ . **ابن الاثير** ،الكامل، ١٤٩/٦ .

(٨١) **السيد عبد العزيز سالم** ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٧٧ .

(٨٢) **الكندي** ، ولاة مصر ، ص ٦٦.

(٨٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧. وانظر ، سيدة الكاشف ، مصر في عصر الولاة ، ص ، ٨٠.

(٨٤) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٨٦/٢ .

(٨٥) **البلاذري** ، انساب ، ١٥٠/٥ ، **اليعقوبي**، تاريخ ، ٢٥٧/٣ . **ابن قتيبة** ، الامامة والسياسة ، ١٧/٢ .

(٨٦) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٤٠/٦ .

(٨٧) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٩٨/٣ . **ابن قتيبة** ، الامامة والسياسة ، ١٧٧/٢. **ابو الفداء** ، المختصر ، ١٩٤/١ .

(٨٨) **الطبري** ، تاريخ ، ٦١١/٥ .

(٨٩) **ابن سعد** ، الطبقات ، ٤٣/٥ . **ابن خياط**، ص ٣٢٩ . **البلاذري** ، انساب ، ١٥٨/٥ . **اليعقوبي** ، تاريخ ، ٢٥٧/٢ . **الطبري** ، تاريخ ، ٦١١/٦ . **ابن الاثير** ، الكامل ، ١٩٠/٤ . **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٢٦٢/٨ .



عبد الله بن إباض ونشأة المذهب الاباضي

د. محمد حسن النابودة
ج . الامارات العربية المتحدة

يعد عصر عبيد الله بن زياد من اكثر الفترات التاريخية عرضة للنقد والهجوم في التاريخ الاسلامي . فالدور الذي قام به هذا الامير في خدمة الخليفة يزيد بن معاوية كان له أثره الكبير على الاسلام والمسلمين من الناحية السياسية والدينية ، وفي عهده نمت جذور الثورة الهاشمية بعد مقتل الحسين بن علي ، وتأسس المذهب الشيعي . فبعد حادثة كربلاء برزت الحركة الشيعية حاملة دماء آل البيت واتخذت شكل عقيدة استولت على النفوس ، اكتمل على اثرها بناء المذهب الشيعي . وهو الامر ذاته الذي حدث مع المذهب الاباضي (مذهب القعدة) الذي أسسه أبو بلال مرداس بن أدية ، الذي لم يكن اوفر حظا من الحسين بن علي ولقي حتفه في معركة لم تكن أقل فاجعة من كربلاء . فاذا كان الحسين قد سعى بنفسه الى القدر المكتوب له في كربلاء ، فان أبا بلال حاول الافلات من قدره لكنه لم يفلح ، وقتل غدرا على أرجح الروايات . وسيرته ليست غامضة كسيرة ابن إباض ، فقد اتفقت المصادر الاسلامية الاولى في شخصه وتاريخ ظهوره . أما ابن إباض ، الذي نسب اليه أقدم المذاهب الاسلامية ، فلا نعرف عنه الا القليل . ذكر اسمه في حادثة حصار مكة أيام يزيد بن معاوية ، وورد في حادثة افتراق الخوارج بالبصرة بعد وفاة يزيد . واذا كان بعض المؤرخين القدامى قد اختلفوا حوله فان المحدثين حذو حذوهم لندرة المعلومات من ناحية ، وغموض ما يتوافر منها من ناحية أخرى . أما المصادر الاباضية فهي الاخرى لم تأت بجديد في هذا الموضوع ، وتضاربت رواياتها بشأن الدور السياسي والديني الذي قام به ابن اباض .

في هذا البحث نحاول القاء الضوء على نشأة هذا المذهب في موطنه الاول البصرة، وما اذا كان ابن اباض مؤسسه الحقيقي ، بتفنيد الروايات التاريخية التي عرضت للخوارج القعدة في البصرة والعراق بعامة . وان كان هذا العرض لا يفي بالغرض المنشود لاقتضابه .

* * *

تنسب المصادر الاسلامية كثيرا من الخوارج الاوائل وقادتهم الى قبيلة تميم وبخاصة الى فرعها بني صريم سكان صحراء الدهناء بنجد(١) . ومن هؤلاء أبو بلال

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، اذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

مرداس بن أدية وعبد الله بن اباض . وابرز ما يلفت النظر هو اسم عبد الله . فهناك اربعة من مؤسسي الفرق الاسلامية الاولى بهذا الاسم هم عبد الله بن اباض وتنسب اليه الاباضية ، وعبد الله بن سبأ وتنسب اليه السبئية ، وعبد الله بن صفار وتنسب اليه الصفرية ، وعبد الله بن وهب الراسبي قائد الخوارج في معركة النهروان ، وجميعهم مثار جدل وشك . فسبأ وراسب واباض وصفار ليست الا القابا أطلقت على فرق كانت مناوئة للحكم الاموي آنذاك . فما حقيقتها ..؟ ومن هم أصحابها الاصليون .. وما علاقتهم بهذه الفرق .. وهل صحيح انهم عبادلة ..؟

وللاجابة عن تلك الاسئلة نحن في حاجة الى دراسة أشمل واكثر تفصيلا تبتعد بنا عن مجال بحثنا .

اما عبد الله بن اباض فانه ينسب الى بني صريم بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم(٢) . فنسبه مقطوع كما يلاحظ . واباض ليس اسم والده ويقال بانه اسم لقرية باليمامة حدثت فيها احدى معارك الردة بين خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب (٣) . هذا بالاضافة الى أن عشيرته التي نشأ وترعرع فيها ليس لها ذكر في المصادر الاسلامية . فمن هو اذا ابن اباض ..؟ وهل كان معروفا بهذا الاسم آنذاك .. وما علاقته بالمذهب الاباضي .. وما صلته بالخوارج القعدة ..؟

ووفقا لما أورته المصادر فان عبد الله بن اباض لم يأت بعمل بارز ولم يشارك في أحداث شهيرة بشكل واضح . وكل ما نعرفه عنه ينحصر ، تقريبا ، في روايتين اثنتين، كما سبق واشرنا ، وهما لا يعطيان صورة واضحة لشخصيته أو لنشاطه السياسي والعقائدي . وقبل مناقشة ذلك ، نعرض لما جاء عن عبد الله بن اباض في المصادر الاسلامية :

اولا ــ المصادر غير الاباضية :

البلاذري : « قال ابو عبيدة معمر بن المثنى : كان في سجن عبيد الله بن زياد نافع بن الازرق الحنفي ونجدة بن عامر الحنفي وعبد الله بن اباض وعبيد بن هلال العنزي ... وكانوا غضبوا للبيت فقاتلوا مع ابن الزبير ، وهم لا يرون نصره ولكنهم احتسبوا في جهاد أهل الشام ثم انهم قدموا البصرة فالتقطهم ابن زياد وحبسهم ، فيقال إنه كان في سجنه من الخوارج مائة وأربعون »(٤) .

البغدادي : « .. اجمعت الاباضية على القول بامامة عبد الله بن إباض، وافترقت فيما بينها فرقاً أربع ، وهي : الحفصية ، قالوا حفص بن ابي المقدام .. الحارثية ،

اتباع حارث بن مزيدالاباضي ،.. اليزيدية ، ومنهم غلاة ،.. واصحاب طاعة لا يراد الله بها ...»(٥) .

الملطي : « والفرقة الخامسة من الخوارج : هم الاباضية أصحاب إباض بن عمرو، خرجوا من سواد الكوفة ، فقتلوا الناس وسبوا الذرية ، وقتلوا الاطفال ، وكفروا الامة ، وافسدوا العباد والبلاد ، فمنهم بقايا بسواد الكوفة »(٦) .

الشهرستاني : « الاباضية : أصحاب عبد الله بن إباض ، الذي خرج أيام مروان ابن محمد ، توجه اليه عبد الله بن محمد بن عطية ، فقاتله بتبالة . وقيل ان عبد الله ابن يحيى الاباضي كان رفيقاله في جميع احواله وأقواله .. وهم ثلاث فرق :الحفصية: أصحاب حفص بن أبي المقدام . والحارثية : أصحاب الحارث الاباضي ، واليزيدية أصحاب يزيد بن أنيسة »(٧) .

الرازي : « والفرقة التاسعة عشرة من الخوارج : الاباضية ، اتباع عبد الله بن إباض ، ظهر في زمن مروان بن محمد آخر ملوك بني امية »(٨) .

ابن حجر :« عبد الله بن إباض التميمي الاباضي ، راس الاباضية من الخوارج وهم فرقة كبيرة . وكان هو فيما قيل رجع عن بدعته ، فتبرأ أصحابه منه واستمرت نسبتهم اليه »(٩) .

الحميري : «ومن الخوارج الاباضية : إمامهم عبد الله بن إباض التميمي من مقاعس تيم الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . قال ابو القاسم البلخي : حكى أصحابنا ان عبد الله بن إباض لم يمت حتى ترك قوله أجمع ورجع الى الاعتزال والقول بالحق . قال :والذي يدل على ذلك ، أن أصحابه لا يعظمون أمره .. ومن الاباضية ، الحفصية : إمامهم حفص بن ابي المقدام ... ومنهم اليزيدية : إمامهم يزيد بن ابي أنيسة ..»(١٠) .

المبرد : « الاباضية وهم أصحاب عبد الله بن اباض ... وقوله أقرب الاقاويل الى السنة من أقاويل الضلال »(١١) .

ابن حزم : « واقرب فرق الخوارج الى أهل السنة أصحاب عبد الله بن يزيد الاباضي الفزاري الكوفي »(١٢) .

«والى قول الثعالبة رجع عبد الله بن اباض فبرىء منه اصحابه فهم لا يعرفونه اليوم، ولقد سألنا من هو مقدمهم في علمهم ومذهبهم عنهم فما عرفه أحد منهم »(١٣).

ابن قتيبة : « الاباضية من الخوارج ، ينسبون الى عبد الله بن إباض وهو من بني مرة بن عبيد من بني تميم رهط الاحنف بن قيس »(١٤) .

ثانيا ـ المصادر الاباضية :

بداية تجدر الاشارة الى أن معظم المصادر الاباضية متأخرة ، وخاصة التاريخية منها . اضافة الى أن مؤلفيها اعتمدوا كثيرا على الطبري وابن الاثير والبلاذري والمسعودي وابن كثير في كتابتهم لتاريخ صدر الاسلام والقرن الاول الهجري. وبالنسبة لابن اباض فهذه المصادر لم تأت بجديد ، بل ان مؤلفيها لا ينكرون أن معرفتهم بابن إباض لا تتعدى المعلومات التي ورد ذكرها في المصادر غير الاباضية .

ومن اقدم المصادر الاباضية سيرة ابي الحسن علي بن محمد البسيوي أو البسياني ، من أعيان القرن الخامس الهجري ، اذ لم يشر في سيرته هذه لاي دور بارز قام به ابن إباض . فهو يورد بعض أحداث صدر الاسلام ، ثم يتكلم عن اوائل المحكمة، ويشير الى الدور الهام لابي بلال مرداس بن أدية التميمي في محاربة الجبابرة الامويين وخروجه عليهم ، وينتقل بعد ذلك الى قيام الإمامة الاولى في عمان (١٥) .

ومن سيرة ابي المؤثر (الصلت بن خميس الخروصي وهو من فقهاء عمان عاش في القرن الثالث الهجري) نورد هذه المقتطفات : « فكانت سيرة المسلمين بعد اهل النهروان واحدة وكلمتهم جامعة ، غير انهم كانوا مقهورين في دار تقية بين ظهراني الجبابرة ، الا من وجد منهم روح الجهاد فنهض اليه حتى يستشهد رحمهم الله (وهنا اشارة واضحة الى الخوارج القعدة في العراق كما سنرى فيما بعد) فخرج أهل النخيلة ، ثم قريب والزحاف ، ثم المرداس ، وغيرهم من الخوارج المسلمين على العدل (ولفظ الخوارج هنا نادرا ما يرد ذكره في المصادر الاباضية) ، حتى خرج نافع بن الازرق عدو الله فدعا الى دعوة لم يقل بها أحد قبله ، ثم انه خالف سيرة المسلمين ، فانتحل الهجرة واضاف الشرك الى أهل القبلة ، واستحل السبي والغنيمة ، فبرىء منه المسلمون . وقام نجدة بن عامر ، وعبد الله بن صفار ، فدعوا الى مثل ما دعا اليه نافع ، غير انهما خالفاه في أمور اخرى .. فخالفهم عبد الله بن اباض امام المسلمين رحمه الله هو والمسلمون وبرءوا منهم ودعوا الى دعوة المسلمين .. »(١٦) .

« والخوارج مختلفون ، منهم المسلمون يسمون الاباضية لمكان امام المسلمين عبد الله بن اباض .. »(١٧) .

« .. ثم خوارج المسلمين من بعدهم (بعد أهل النهروان وغيرهم ممن خرج على علي بن ابي طالب) ثم قريب والزحاف ومن قاتل معهما زياد بن ابي سفيان بالكوفة

حتى استشهدوا رحمهم الله ، وعروة بن حدير رحمه الله الذي قتله عبيد الله بن زياد زياد واشياع يزيد بن معاوية بعد أن دعوهم الى دين الله حتى استشهدوا رحمهم الله. ثم إمام المسلمين عبد الله بن اباض وسائر ائمة المسلمين جابر بن زيد وصحار ابن عبد . . »(١٨) .

وينقل لنا المؤرخ العماني المعاصر سالم بن حمد الحارثي عن أحمد بن عبد الله الرقيشي ، وهو ممن عاشوا في القرن العاشر الهجري قوله : « الاباضيون منسوبون الى امامهم في الدين عبد الله بن اباض بن تيم اللات بن ثعلبة التميمي من بني مرة بن عبيد رهط الاحنف بن قيس، وهو الذي فارق جميع الفرق الضالة عن الحق وهم المعتزلة والقدرية والصفانية (الصفرية) والجهمية والخوارج والروافض والشيع. وهو أول من بين مذاهبهم ونقض فساد اعتقاداتهم ، بالحجج القاهرات والايات المحكمات النيرات ، والروايات النيرات الشاهرات .نشأ في زمان معاوية بن أبي سفيان وعاش الى زمان عبد الملك بن مروان ، وكتب اليه بالسيرة المشهورة والنصائح المعروفة المذكورة . . »(١٩) .

ويضيف الرقيشي كذلك « فقد بلغنا أن أبا بلال مرداس وغيره من أئمة المسلمين، لم يكونوا يخرجون الا بأمر امامهم في دينهم جابر بن زيد العماني رحمه الله ومشورته، ويحبون ستره عن الحرب ، لئلا تموت دعوتهم ، ويكون ردءا لهم »(٢٠) .

ويذكر أحمد بن سعيد الشماخي (القرن التاسع الهجري) : « أن ابن اباض يصدر في كل افعاله وأقواله عن جابر بن زيد »(٢١) .

وينقل عنه سالم بن حمود ما يلي :« وأما تسمية مذهبنا بالاباضية ، فلكون عبد الله بن إباض رضي الله عنه كان المجاهد علنا ، المناضل علنا ، في سبيل تحقيق الحقائق ، وتصحيح قضايا العقول فيما أحدثته المقالات والبدع من الزور والافتراء في شريعة ربنا . وكان شديدا في الله تعالى ، وله مناظرات مع أهل التنطس أو النطس والتفلسف ، كان الحجة الدامغة التي يخنس امامها كل ثرثار ، وله كلام مع عبد الملك بن مروان يهضم نفس كل جائر جبار ، فغلب على المسلمين أصحابه ، الذين يقولون بقوله . وتسمى المذهب باسمه على هذا المعنى ، وانما كان الامام القائد ، والوسيلة الراشد ، أس المذهب وحاميه ، مرجع الفضل في تدوينه وتشييد مبانيه، انما كان جابر بن زيد رضي الله عنه »(٢٢) .

بينما يقول أحمد بن سعيد الدرجيني (توفي حوالي ٦٧٠ هـ) : « إذ عرف عبد الله بن اباض بانه إمام أهل الطريق ، وجامع الكلمة لما وقع التفريق ، فهو العمدة في

الاعتقادات ، والمبين لطرق الاستدلالات والاعتمادات ، والمؤسس للابنية وهي مستندات الاسلاف . . . وكان راس القعد ورئيس من في البصرة وغيرها من الامصار، والمتقدم في حلبة الفضل بين أولئك الاخيار ، قعد عن اللحاق فاشتراه من غير انكار . . قلى ما اعتقده ابن الازرق في المحمدية ، وعدل عن طريق النجدية وسلك محجة العدل، وكان قدوة لاهل الفضل ، فاليه النسبة اليوم من العقائد ، معدولا عن اسم الوليد الى الوالد ، طلبا لتخفيف ، واختصاص الاشهر ، وذلك في اللغة معروف لا ينكر . . ولابن اباض فضائل مشهورة في الآفاق ، وآثار حميدة مخلدة في بطون الاوراق . . »(٢٣) .

وينقل لنا سالم بن حمد الحارثي عن البرادي (القرن الثامن الهجري) : « أن المسلمين بعد قتل أبي بلال ، اجتمعوا بجامع البصرة وعزموا على الخروج وفيهم عبد الله بن إباض ونافع بن الازرق ووجوه المسلمين ، فلما جن الليه سمع عبد الله دوي القراء ورنين المؤذنين ، وحنين المسبحين ، فقال لاصحابه أعن هؤلاء أخرج معهم ،فرجع وكتم أمره واختفى » . إلا أن الحارثي يرد على ذلك بالقول : « لم أقف على شيء من أمر عبد الله بن إباض » (٢٤) .

وقد ذكر ابن اباض في معظم المصادر الاباضية الاخرى على أنه احد أئمة المذهب الاباضي (مذهب أهل الاستقامة) . فهو يأتي بالتدرج الطبقي بعد عبد الله بن وهب الراسبي صاحب النهروان . يقول صاحب **كتاب الاهتداء** (وهو من أعيان القرن السادس الهجري) بأن دين الاستقامة هو « دين محمد (ص) ودين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ودين عمار بن ياسر ، وعبد الله بن وهب الشاري إمام أهل النهروان ، ودين عبد الله بن اباض إمام المسلمين ، ودين عبد الله ابن يحيى الامام طالب الحق ، ودين وائل بن أيوب . . فهؤلاء ائمتنا واولياؤنا في الدين وعلماؤنا في ديننا . . »(٢٥) .

ولا يورد ذكرا لآراء عبد الله بن إباض السياسية والدينية في المصادر الاباضية عامة ، فهي كما هو ملاحظ لم تأت بجديد في هذا الموضوع ولم تكشف اللثام عن سيرة ابن اباض الغامضة . والاضافة الوحيدة التي أتت بها بعض هذه المصادر والتي لم نجدها في المصادر غير الاباضية ، هي الرسالة التي نسبت الى ابن إباض وقيل بأنه أرسلها الى عبد الملك بن مروان .

أما المراجع الاباضية الحديثة فعلى الرغم من توسعها في كتابة التاريخ الاباضي والعماني ، عجزت عن اعطاء صورة واضحة لابن إباض وتاريخه ، إضافة الى كونها متأخرة ولا يمكن الاحتجاج بها وبآراء مؤلفيها ، من علماء ومشايخ الإباضية(٢٦) .

ويجمع الاباضيون المتقدمون منهم والمتأخرون على أن عبد الله بن إباض من تلاميذ جابر بن زيد العماني وأحد المتكلمين باسمه ، فهو الذي جهر بالدعوة وناظر الامويين وأتباعهم ، ورد على آرائهم بالحجج الدامغة ، فلمع اسمه وانتشر خبره وعرفت دعوته ، ولهذا نسب الامويون او المخالفون لدعوته المذهب اليه . ويلخص لنا يحيى محمد دبوز أحد علماء الاباضية المعاصرين ذلك بقوله: « إن الإباضية قد نشأوا بمبايعتهم لعبد الله بن وهب الراسبي ليقضوا على الملكية ويحافظوا على الجمهورية ، وباستقلالهم عن الملوك ومبايعتهم للأمة ، ومعارضتهم للملكية ودعوتهم الى الجمهورية ، والتزام سيرة أبي بكر وعمر في العدل والديمقراطية والمساواة ، والتمسك بالدين في كل الامور . وكانت هذه النشأة في سنة سبع وثلاثين من الهجرة بعد خلع الحكمين للامام علي في رمضان من تلك السنة . وإمامهم في الدين هو جابر ابن زيد ، وقد نسبهم الامويون الى عبد الله بن إباض . وكان عبد الله بن إباض من علمائهم ، ومن فصحائهم وشجعانهم ومن المناظرين للخوارج ، يرد عليهم مقالاتهم ، ومن المناظرين لعبد الملك بن مروان ومن الدعاة الى الجمهورية ، وكان متحمسا مناضلا بالحجة والبرهان ، في النوادي والمجامع ، وكان يجتمع الإباضية في داره ، ويسير بهم الى المجامع والنوادي لمناظرة الخوارج ، والملكيين ، فظهرت شخصيته بهذا فنسب الجمهوريون إليه . أما إمام الإباضية فهو جابر بن زيد .. فأبى الأمويون أن ينسبوا إليه الجمهوريين وهو إمامهم في الدين ورئيسهم حتى لا يجذبوا إليه الأنظار ، ولا يبدون في هالة جابر المشرقة فتميل اليه النفوس ، فنسبوهم الى عبد الله بن إباض وهو أقل منزلة من جابر بن زيد في العلم وان كان لا يقل عنه في التقوى والورع والصلاح ..»(٢٧)

فما مدى صحة هذا الكلام ؟

نحن في واقع الأمر امام شخصية معظم ما قيل عنها لا يستند على حجج وبراهين قوية ؛ فمن هو عبد الله بن إباض ..؟ وما هي علاقته بنشأة المذهب الاباضي ... ولماذا نسب إليه المذهب ..؟

نحصر معلوماتنا المتناثرة والمقتضبة عن ابن اباض في ثلاث نقاط :

ـ ذكر في حصار مكة ايام يزيد بن معاوية مع من ذكر من قادة الخوارج .

ـ وذكر بأنه اختلف مع نافع بن الازرق وعبد الله بن صفار في البصرة .

ـ وذكرت المصادر الاباضية بانه أرسل رسالة الى عبد الملك بن مروان .

وعلى الجملة فان عبد الله بن اباض ، كما هو ملاحظ ، الحلقة المفقودة التي تقع بين ابي بلال مرداس بن ادية المؤسس الفعلي للخوارج القعدة ، كما سنرى ، وجابر بن

زيد المؤسس الحقيقي للمذهب الاباضي كما تدعي المصادر الاباضية . فبين هذين الشخصين هنا شخص ثالث قام بدور هام إبان انقسام الخوارج في البصرة حتى مجيء الحجاج بن يوسف الى العراق . فهل كان هذا الشخص هو عبد الله بن اباض ، هذا ما سوف نناقشه في الصفحات القادمة .

مما لا شك فيه ان كل حركة دينية او سياسية تمر بمراحل مختلفة ومتباينة في العمر ونشاطها يقترن بالظروف التي تكتنفها . ولا بد أن تكون هناك بذور أولى غرست في أرض خصبة . فالزمان والمكان هما العاملان اللذان يحددان نجاح الحركة أو فشلها. والمرحلة الاولى وهي مرحلة النشوء والتكوين غالبا ما تكون ذات طابع سري ، وتعرف بمرحلة الكتمان . وهذه المرحلة لا تجد لها مكانا في التاريخ ، وذلك للسرية المطبقة التي تحيط بها ، فاذا مات أهلها اندثرت معظم اخبارها . والدعوة الاباضية نشأت في أصعب الظروف التي يمكن ان تواجهها اية دعوة في التاريخ الاسلامي . ففي مرحلة الكتمان واجهت عبيد الله بن زياد أكثر ولاة بني أمية بطشا بالمناوئين للحكم الاموي، وفي مرحلة الجهر واجهت الحجاج بن يوسف الثقفي أقوى ولاة بني أمية وأكثرهم صرامة وشدة. ويعود بقاء هذه الدعوة على قيد الحياة إزاء تلك الظروف القاسية بالدرجة الاولى ، الى صلابة قادتها وقوة ايمانهم بالدعوة ، كذلك كان لموت يزيد بن معاوية المفاجيء دور ليس بالقليل في استمرارية الدعوة برغم ما أصاب مؤسسيها من قتل وتشريد . ففي الفترة ما بين موت يزيد واستقرار الامر للحجاج في العراق وجدت الدعوة الاباضية متنفسا لها استطاعت من خلاله اعادة تنظيم نفسها وتضميد جراحها. فكيف حدث ذلك؟

ان أولئك النفر السبعة او التسعة الذين نجوا من معركة النهروان شكلوا مع الذين لم يشاركوا في المعركة من الخوارج النواة التي انبثقت منها الحركة الخارجية بعد مقتل علي بن أبي طالب . هذه الحركة التي عانت منها الدولة الاموية من زمن معاوية ابن أبي سفيان مؤسسها ، الى زمن مروان بن محمد آخر خلفائها ، ومرت بمراحل وأطوار مختلفة ، كما شهدت انقساما قويا فيما بين أتباعها . ومما يؤسف له أن معلوماتنا عن الحركة الخارجية بين النهروان ومقتل علي بن أبي طالب تعوزها الدقة والوضوح . فالحركة اخذت منحى آخر بعد هزيمة النهروان ، ولم تعد تجاهر بآرائها وأفكارها مثلما كان الحال قبلها ، وغلب عليها طابع الانشقاق على الجماعة ، وفرضت عليها العزلة . وإزاء هذه الظروف تطلب الامر أن يكون العمل سريا ، بانشاء خلايا في جميع أرجاء الدولة الاسلامية . واعادة تنظيم الحركة وبث روح الثورة والحماسة في نفوس أفرادها الذين انهارت معنوياتهم بعد النهروان . ولن يتحقق ذلك الا بالخلاص من القيادات الموجودة على الساحة التي يلتف حولها معظم المسلمين ، كعقبة كأداء أمام الفكر الثوري الخارجي ، فلا بد إذاً من التخلص منها اذا أرادت الثورة أن تنجح في

كسب راي الجماهير المنقسمة على نفسها . وهكذا حيكت خيوط مؤامرة كبرى ذهب ضحيتها علي بن أبي طالب ، وكان الخاسر الاكبر نتيجة لذلك ليس شيعة علي فحسب بل الخوارج أنفسهم ، واصبح معاوية بن أبي سفيان الرابح الاكبر . ولم يكن ذلك في حسبانه . وكذلك نجم عن هذه المؤامرة سقوط دولة وقيام أخرى وانشقاق امة بلغ ذروته في كربلاء . ولا يزال قائما الى يومنا .

ومن المعروف أن الاباضيين مشارقة ومغاربة ينظرون الى عبد الله بن وهب الراسبي وعبد الرحمن بن ملجم على أنهم من كبار أتباعهم ، وأنهم استشهدوا في سبيل الحق وفعلوا ما فعلوا من أجل نصرة الاسلام والحفاظ على الدين ، الامر الذي يجعلنا نقول ان جذور المذهب الاباضي تمتد الى حروراء،وان مولده كان ثوريا صريحا.ونتيجة للهزيمة الثقيلة التي مني بها الخوارج عامة في النهروان تغير الوضع كليا ، ولم يعد طابع الصراحة يغلب على خوارج ما بعد النهروان . وهنا حدثت الفرقة بين فريق مؤيد للخروج والثورة بزعامة المتحمسين من الشباب والاعراب ، وفريق آخر مؤيد للقعود والتقية بزعامة ابو بلال مرداس بن ادية الذي كان يحظى باحترام الفريقين . والواقع ان السياسة التي اتبعها ولاة معاوية في العراق مع هؤلاء الخوارج كان لها تأثير واضح على نشاط كلا الفريقين .

واذا تركنا الخط الثوري جانبا لانه أشبع بحثا ودراسة ، فاننا نرى فيه الخط الواضح في تاريخ هذه الحركة ، واذا نظرنا الى الفريق الاخر الذي آثر القعود على الخروج وجدنا ان المؤسس الفعلي لهذه الفرقة هو ابو بلال مرداس بن أدية . فبعد النهروان وما حل فيها بالخوارج ، وبعد مقتل علي بن ابي طالب واستقرار الامر لمعاوية بن أبي سفيان ، اعتزل أبو بلال مع فئة من أنصاره العمل الثوري وآثروا القعود على الخروج،وساعدهم في ذلك سياسة اللين والمسالمة التي اتبعها المغيرة بن شعبة مع المناوئين للحكم الاموي ، ورد على معارضي هذه السياسة بالقول : « .. لا احب أن ابتدىء أهل هذا المصر بقتل خيارهم ، وسفك دمائهم ، فيسعدوا بذلك واشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ، ويذل يوم القيامة المغيرة ؛ ولكني قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئهم ، وحامد حليمهم ، وواعظ سفيههم ، حتى يفرق بيني وبينهم الموت ، وسيذكرونني لو قد جربوا العمال بعدي »(٢٨) وقال لشخص أمن أحد الخوارج من الذين خرجوا على المغيرة : « ... والله لوددت أنك أتيتني بهم كلهم فامنتهم .. »(٢٩).

وأود أن أشير هنا الى أن مذهب العقدة من الخوارج ظهر أول الامر فيالكوفة . فحتى عهد المغيرة بن شعبة ظلت الكوفة المصدر الرئيسي الذي يزود الحركة الخارجية بما تحتاجه من طاقة بشرية ، أما البصرة فقد كان أهلها ذوي ميول عثمانية آنذاك ،

ومن الطبيعي الا تجد الحركة الخارجية أرضا خصبة لافكارها في هذه المرحلة المتقدمة من خلافة معاوية بن ابي سفيان الذي رفع شعار الثأر من قتلة عثمان . لكن الوضع تغير فيما بعد ، فقد هاجر الى البصرة أعداد كبيرة من القبائل العربية وخاصة أزد عمان . وهذه الاخيرة انضم كثير من أفرادها الى الخوارج القعدة .

ولم يكن جميع الخوارج أو غالبيتهم يوافقون ابا بلال على هذه السياسة ، فهذا معاذ بن جوين بن حصين يحث القاعدين من الخوارج على الخروج ومجالدة الكفار في أبياته التالية :

الا أيها الشارون قد حان لامرئٍ شَرَى نفسه لله أن يترحّلا

اقمتم بدار الخاطئين جهالةً وكلُّ امرئٍ منكم يُصادُ ليُقتَلا(٣٠)

وها هو حيان بن ظبيان أحد الناجين من معركة النهروان يدعو خوارج الكوفة الى القتال ، والثأر للذين قتلوا من اتباعهم ، وأنهم لا عذر لهم في القعود بعدما ولي الأمر معاوية بن أبي سفيان « .. فانه لا عذر لنا في القعود ، وولاتنا ظلمة ، وسنة الهدى متروكة ...»(٣١) .

أما أبو بلال فقد اتخذ موقفا صريحا وواضحا ، تجاه أولئك الذين خرجوا ارتجالا من الخوارج ، ورموا بأنفسهم الى التهلكة وغرروا بالاخرين وتسببوا في قتلهم ، فها هو يقول عن أحد قادة الخوارج ـ ممن خرجوا على زياد بن أبي سفيان ـ واسمه قريب الايادي : قريب لا قربه الله ، وايم الله لان أقع من السماء أحب إلي من أن أصنع ما أصنع »(٣٢) .

لكن هذه السياسة التي انتهجها أبو بلال لا تعني أنه سكت على الظلم ، وتجاهل ما يدور حوله . فبعد انتقاله الى البصرة ـ هذا الانتقال الذي لا نعرف سببه وربما كان لدواع أمنية أو تكتيكية أو لوجود أنصار هناك ـ لم يسكت على تهديد زياد وتوعده ، ورد عليه : « انبأ الله بغير ماقلت ، قال الله عز وجل : (وابراهيم الذي وفى ❊ ألا تزر وازرة وزر أخرى ❊ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فأوعدنا الله خيرا مما وأعدت يا زياد ، فقال زياد : إنا لا نجد الى ما تريد انت وأصحابك سبيلا حتى نخوض اليها في الدماء »(٣٣) .

ينتمي ابو بلال الى قبيلة تميم ، شهد صفين مع علي بن أبي طالب ، وكان ممن خرجوا عليه بعد التحكيم وانضم الى عبد الله بن وهب الراسبي . وكان أحد الناجين من معركة النهروان(٣٤) . ويبدو أنه لقي بعض الدعم المعنوي من قبيلته تميم ، اقوى

وأكبر القبائل العربية التي استوطنت العراق في تلك الفترة .وربما كان الاحنف بن قيس شيخ بني تميم وأحد أنصار علي بن ابي طالب متعاطفا معه ، الامر الذي جعل أبا بلال يحس بالاطمئنان أكثر من غيره من الخوارج إبان حكم معاوية بن أبي سفيان . وهذا قد يفسر لنا سبب ثناء المصادر الاباضية على الاحنف بن قيس التميمي .

هكذا توفر لأبي بلال المناخ الملائم في البصرة لنشر آرائه وأفكاره الدينية والسياسية ، خاصة أيام زياد بن أبي سفيان . فهذا الاخير لم يشأ توسيع دائرة الصراع مع الخوارج ، ولم يصطدم مع الخوارج القعدة ولم يزج بهم في السجون ، ولهذا السبب لا نسمع أية أخبار عن أبي بلال واتباعه بقية حياة زياد بن أبي سفيان ، (ت ٥٤ هـ) .

وبسبب ورعه وتقواه وشدة تدينه استطاع أبو بلال أن يجمع حوله كثيرا من الاتباع والمريدين تولوا مهمة نشر مذهبه فيما بعد .ومن هؤلاء الاتباع ربما كان عبد الله ابن اباض والذي قدر له أن يتولى زمام المهمة بعده . وقد علا شأنه كقائد للخوارج القعدة في البصرة بعد وفاة يزيد بن معاوية . ولكننا نفتقد الصورة التي كانت عليها العلاقة بين أبي بلال وابن اباض ، اذا سلمنا بالقول انه أحد أتباعه . اذ لا يوجد بين أيدينا نص واضح يشير الى مثل هذه العلاقة وتبقى المسألة محل نقاش وجدل ، برغم وجود أدلة هي مثار شك وريبة عند كثير من المؤرخين المعاصرين .

ظل أبو بلال طوال عهد معاوية بن أبي سفيان يعمل في الخفاء خوفا من اثارة الامويين ، خاصة بعد تولي عبيد الله بن زياد امارة العراق الذي عرف بشدته وقسوته تجاه المعارضين . كما كان لسياسة معاوية بن أبي سفيان التي غلب عليها طابع الحلم والتروي دور في عدم استفزاز الخوارج القعدة وعلى رأسهم أبو بلال . الا ان هذه السياسة ما لبثت أن تغيرت عندما اعتلى يزيد بن معاوية عرش الخلافة في دمشق، وكان على نقيض أبيه ، متسرعا في اتخاذ القرار ووضع السيف محل الكلمة ، والغضب محل الحلم ، فلا عجب أن نرى كبرى المآسيتحدث في عهده، نقصد حادثة كربلاءووقعة الحرة ورمي الكعبة بالمنجنيق. ففي بداية عهده حل بالخوارج القعدة ما حل بشيعة آل البيت . فتوج هي كربلاء الخوارج القعدة ، والتي قتل فيها أبو بلال أحد كبار المحكمة الاوائل . واذا كان شيعة آل البيت أوفر حظا من الخوارج ، وشاركهم حزنهم على آل البيت جميع المسلمين ودونت أحداث كربلاء بشيء من التفصيل والوضوح ، فان الخوارج بكافة تنظيماتهم بقوا في نظر المجتمع الاسلامي فرقاً مارقة ولم يجدوا من يتعاطف معهم برغم اعتدال القعدة منهم، وما حل بهم من ظلم وتعسف على يد عبيد الله

ابن زياد المسؤول الاول عن حادثتي كربلاء وتوج . فتبخرت كثير من أخبار الخوارج القعدة ولم تجد لها مكانا في كتب التاريخ الاسلامي .

شهد عهد عبيد الله بن زياد احداثا جساما تسببت في انقسام المسلمين الى فرق تناوىء بعضها بعضا ، وتزيد من حدة الاختلاف والانشقاق . فاذا نظرنا الى سياسته تجاه الخوارج باتجاهيهم ــ ولن نتطرق لسياسته مع شيعة آل البيت ــ لوجدنا انها بلغت من الشدة والقسوة درجة أرغمت القاعدين منهم على الخروج ، وما تمخض عنه من نشأة المذهب الاباضي فيما بعد . فقد نقلت لنا الروايات بأنه كان اذا ظفر بامرأة خارجية قتلها ثم عراها وصلبها . فكانت النساء الخارجيات اذا دعين للخروج قلن : «لولا التعرية لسارعنا»(٣٥) . وهذا عروة بن أدية أخو ابي بلال ، عندما ظفر به ابن زياد أمر بقطع يديه ورجليه ثم قتله(٣٦) . وهذه السياسة كان لها رد فعل قوي لدى الخوارج ، وكانت السبب المباشر لظهور التطرف الديني عندهم الذي بلغ أشده عند الازارقة . لقد انحرفت الحركة الخارجية عن مسار المحكمة الاولى أيام عبيد الله بن زياد بسبب سياسته الشديدة حتى ضد المعتدلين منهم . ويظهر هذا واضحا في كلام صخر بن عروة :« اني كرهت قتال علي بن أبي طالب لسابقته وقرابته ، فأما الان فلا يسعني الا الخروج»(٣٧) . ولقد كان لمقتل أبي بلال الاثر البالغ في نفوس جميع الخوارج آنذاك ، وتسبب في انقسامهم قعدة يعملون سرا وينسب اليهم عبيد الله بن اباض وآخرون حملوا السيف وظهر منهم المتطرفون والغلاة ، وبلغ هذا الخلاف ذروته بعد موت يزيد بن معاوية .

وتختلف الروايات في سبب ثورة ابي بلال مرداس بن أدية على عبيد الله بن زياد. ولا شك انه لم يحتمل نقمة ابن زياد وغلوه في قتل الخوارج ، أو الشراة . حدثت الثورة في بداية عهد يزيد بن معاوية سنة ٦١ هـ . وفي معركة غير متكافئة التقى الفريقان في توج وأبيد الجيش الخارجي وقتل أبو بلال ورفاقه غدرا كما تؤكد معظم الروايات(٣٨) ، وبعدها أخذ ابن زياد في تتبع الخوارج وملاحقتهم واستئصال شأفتهم، فقتلهم على الشبه والظنة(٣٩) .

هكذا ارتبطت ثورة ابي بلال بسياسة القمع التي انتهجها ابن زياد ضد الخوارج. فقبيل وفاة معاوية بن ابي سفيان شد عبيد الله بن زياد على الخوارج ولم يفرق بين المعتدلين منهم والذين حملوا السيف ، وزج بالعشرات منهم في السجون ، ومن بين هؤلاء ابو بلال . وتختلف الروايات في السنة التي قتل فيها عروة بن ادية فيما اذا كانت سنة ٥٨ هـ أو بعد مقتل ابي بلال(٤٠) . ونحن في الواقع لا نستطيع ترجيح رواية على أخرى بسبب الغموض الذي اكتنف حادثة قتله . فهو ممن نجوا من النهروان ، وممن

تحدوا زياد بن أبيه ومن بعده عبيد الله . ويبدو انه لم ينضم الى الثائرين من الخوارج وكان على علاقة قوية بأخيه ابي بلال يعمل تحت امرته . ونحن اذ نشير الى عروة ومقتله ، فان ذلك له صلة بثورة ابي بلال وبما حل بالخوارج القعدة . فبعد أن خرج أبو بلال من سجنه ـ أما لشهادة السجان عند ابن زياد لورعه وتقواه ، في رواية ، أو هروبه من السجن في رواية أخرى (٤١) ـ أدرك ان عبيد الله لن يتركه وحاله، اضافة الى ما شاهده من قتل وتمثيل وصلب للخوارج ، الامر الذي جعله يغير مسلكه في القعود ويؤثر الخروج ؛ خاصة وأن أخاه عروة وهو السند القوي الذي يعتمد عليه في نشر المذهب مطارد من قبل ابن زياد ومحكوم عليه بالقتل فيما لو أخذنا بالرواية الثانية . وهذه الظروف الصعبة اجبرته على الخروج هو واتباعه . لكنه كان يعلم ان نسبة نجاحه ضئيلة ، وبالتالي فانه لم يشأ أن يقضي على الدعوة ؛ مما يقودنا الى الاحتمال القائل بانه ترك له اتباعا يعملون في الخفاء بالبصرة ربما كان ابن اباض واحدا منهم ، أو خليفته في البصرة . ويتضح لنا ذلك في قوله : « أريد أن أهرب بديني وأديان اصحابي من أحكام هؤلاء الجورة .... واني لا اجرد سيفا ولا اخيف أحدا ولا أقاتل الا من قاتلني ... » وفي قوله : « ... انا لم نخرج لنفسد في الارض ولا لنروع أحدا ولكن هربا من الظلم ، ولسنا نقاتل الا من يقاتلنا ولا نأخذ من الفيء الا اعطياتنا »(٤٢).

الا أن ذلك لم يثن عبيد الله عن عزمه على استئصال شأفة جميع الخوارج وارسال الجيوش تترى خلفهم . ولقد تمكن اتباع أبو بلال رغم قلة عددهم وعدتهم من إلحاق هزيمة نكراء بالجيش الاموي بآسك صارت مضربا للمثل عند الشعراء(٤٣) . ولكن الجيش الثاني الذي أرسله عبيد الله تمكن من قتل أبي بلال واتباعه غدرا كما سبق وذكرنا(٤٤) ، وكان قائده عباد بن أخضر (علقمة) المازني الذي اغتيل على يد أحد أتباع أبي بلال فيما بعد بالبصرة(٤٥) ، الامر الذي يؤكد لنا ان كثيرا من اتباعه بقوا في البصرة بهدف مواصلة المهمة ، ولعل غالبية الذين بقوا ولم يخرجوا معه لم يكن عبيد الله بن زياد على دراية بهم .

وعلى الجملة يمكن القول هنا أن عهد عبيد الله بن زياد قد شهد تطورا سياسيا ودينيا كبيرا على المستويين الشيعي والخارجي . « فبعد كربلاء برزت الحركة الشيعية كما لم تكن من قبل ، فقد أدى امتزاجها بدماء آل البيت الى تحويلها الى عقيدة متغلغلة في النفوس ، فانتقلت من طور النظر الى طور العمل ، لا سيما بعد انتشار التشيع بين الفرس أصهار الحسين »(٤٦) . وبدا هذا التطور والانتقال واضحا في حركتي التوابين والمختار بن أبي عبيد الثقفي إبان الحرب الاهلية الثانية .

اما فيما يخص بعض الخوارج ، فلقد كان لمعركة توج التي قتل فيها أبو بلال آثار سياسية ودينية هامة . فقد تغلغل مذهب أبي بلال ودعوته في نفوس المخلصين

ممن بقي من أتباعه ، ولم يزدهم مقتله الا تمسكا بهذا المذهب وتشبثابمبادئه وآرائه المعتدلة ، والتضحية في سبيل هذه الدعوة . ويبدو ذلك واضحا من الاشعار التي نظموها وخلدوا ذكر اسمه فيها . وقد كان لهذا الشعر تأثير قوي في نفوس من تبقى من الخوارج القعدة ، والصدى الذي تردد في جميع أرجاء الدولة الاسلامية واستقر في بعض أقاليمها لينبت ويثمر وتكبر ثماره .

ولحسن حظ الخوارج القعدة ــ ومعهم الشيعة كذلك ــ أن توفي يزيد بن معاوية قبل أن تضعف عزيمتهم وتنطفىء نار حركتهم وحسرتهم ، فجاءت الظروف لتهيىء للفريقين وغيرهم من المناوئين للحكم الاموي المناخ الملائم للعمل وتوسيع دائرة نشاطهم .

فبعد مقتل ابي بلال واخيه عروة حدث فراغ سياسي وديني انتهى بانقسام الخوارج وافتراقهم الى الابد . والفترة الممتدة بين مقتل أبي بلال ووفاة يزيد ، تعد فترة انتقال بالنسبة للحركة الخارجية . فحتى قبيل ثورته ظلت الحركة الخارجية متماسكة الاهداف ، ثوابتها واحدة أهمها التخلص من الحكم الاموي . وكان لأبي بلال دور كبير في هذا التماسك. وبعد وفاته دب خلاف شديد بين أتباعه ومؤيديه في القعود بقيادة عبد الله بن اباض، وبين المناصرين للخط الثوري المسلح بقيادة نافع بن الازرق. واقدم ما وصلنا في هذا الشأن ، هو ما ذكره ابن جرير الطبري عن هشام بن محمد الكلبي ولوط بن يحيى : « تفرق القوم (الخوارج) ، فأقبل نافع بن الازرق الحنظلي، وعبد الله بن صفار السعدي من بني صريم بن مقاعس ، وعبد الله بن اباض من بني صريم ، وحنظلة بن بهيس ، وبنو الماحوز : عبد الله ، وعبيد الله ، والزبير ، من بني سليط بن يربوع ، حتى أتوا البصرة ، وانطلق أبو طالوت من بني زمّان بن مالك بن صعب من بكر بن وائل ، وعبد الله بن ثور (أبو فديك) من بني قيس بن ثعلبة ،وعطية ابن الاسود اليشكري الى اليمامة ، فوثبوا باليمامة مع أبي طالوت ، ثم أجمعوا بعد ذلك على نجدة ابن عامر الحنفي ، فأما البصريون منهم ، فانهم قدموا البصرة وهم مجمعون على رأي أبي بلال . فانتدب لها نافع بن الازرق ، فعقد على ثلثمائة رجل ، فخرج ، وذلك عند وثوب الناس بعبيد الله بن زياد ، وكسر الخوارج أبواب السجون وخروجهم منها ، واشتغل الناس بقتال الازد وربيعة وبني تميم وقيس في دم مسعود ابن عمرو ، فاغتنمت الخوارج اشتغال الناس بعضهم ببعض ، فتهيئوا واجتمعوا ،فلما خرج نافع بن الازرق تبعوه ، واصطلح أهل البصرة ... ، فتجرد الناس للخوارج ، فأتبعوهم واخافوهم حتى خرج من بقي منهم بالبصرة ، فلحق بابن الازرق ، الا قليل منهم ممن لم يكن اراد الخروج يومه ذلك،منهم عبد الله بن صفار، وعبد الله بن اباض، ورجال معهما على رايهما . ونظر نافع وراى ان ولاية من تخلف عنه لا تنبغي ، وأن من تخلف عنه لا نجاةله .. فكتب لهما كتابا فرد عليه ابن اباض : قد كذب فيما يقول ،

ان القوم كفار بالنعم والاحكام ، وهم براء من الشرك ، ولا تحل لنا الا دماؤهم ، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام ، فقال ابن صفار: بريء الله منك، فقد قصرت، وبريء الله من ابن الازرق فقد غلا ، وقال الاخر : فبريء الله منك ومنه . وتفرق القوم واشتدت شوكة ابن الازرق ، وكثرت جموعه ... »(٤٧) .

هكذا تفرق الخوارج بعد موت يزيد بن معاوية ، واختلفوا في الاراء والتوجهات السياسية والدينية . فخرجت مجموعة منهم عن الخط أو النهج الذي انتهجه المحكمة الاوائل ، وأثر فيهم الجو السياسي السائد انذاك . ولا نعرف عن تفاصيل ذلك الاختلاف الا القليل . فقد تلاشت الروايات الاكثر تفصيلا والحقيقة الموثوق بها في خضم الاحداث الجسام التي شهدتها الامة الاسلامية في تلك المرحلة الحرجة من عمرها . فأحداث الخوارج إبان انقسامهم ، وتفرقهم ، في الفترة ما بين أواخر عصر معاوية بن أبي سفيان وبداية حكم عبد الملك بن مروان ، لم تكن الا شرارة لا يكاد نورها يرى ، امام نار الحرب الاهلية ، التي اشتعلت ألسنتها في مشارق الدولة الاسلامية ومغاربها . فأصبحت بذلك أخبار الخوارج ، على هامش أحداث الشام ومعركة مرج راهط ، وثورة المختار في العراق ، وإمارة ابن الزبير في الحجاز وثورة ابن خازم في فارس وخراسان ، وحكم مصعب بن الزبير في البصرة ، هذا بالاضافة الى استفحال العصبية القبلية في كل هذه المناطق ، وما ترتب عليها من صراعات وحروب انتشر لهيبها بين القبائل العربية .

واذا رجعنا الى ما ذكره الطبري نجد نقصا كبيرا في المعلومات ، ومن المحتمل ان تكون هذه الرواية ليست الا نتفاً من روايات عدة اختلفت حوادثها وحقائقها التاريخية .

ان قضية اشتراك جميع الخوارج في الدفاع عن مكة مع ابن الزبير والمحاربة تحت امرته من الصعب التسليم بها . نحن نعرف أن الخوارج كانوا من الشدة والتعصب لدرجة أنهم يرفضون اي شخص لا يتفق معهم حول قضية عثمان وعلي . فكيف اذن يوافقون على امرة شخص هواه مع عثمان ، كان صاحب الراية ضد علي في معركة الجمل . وهو ، فوق كل هذا ، ابن الزبير بن العوام الذي يتبرأ منه الخوارج ، مما لا يتفق ومنطق الاحداث . اضافة الى أنه من الصعب تصور خروج خوارج البصرة منها وتوجههم الى ابن الزبير ، زمن عبيد الله بن زياد ، الذي عرف بشدته وقسوته تجاههم .

وبناء على ذلك ، نرى أن الذي حدث هو وقوف بعض الخوارج مع ابن الزبير ، ممن فروا من بطش والي العراق . وبعد فك الحصار تركوه وتوجهوا الى مواطنهم في اليمامة والبحرين لأن أسماءهم تؤكد نسبتهم الى هذه المناطق ، مثل: ابو فديك ونجدة

ابن عامر الحنفي . ومما يدعم هذا الرأي ما ذكره المبرد في احدى رواياته عن افتراق الخوارج حين قال : « . . . فكان أول أمرهم الذي نستاقه ، أن جماعة من الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي ، عزموا على أن يقصدوا مكة لما توجه مسلم بن عقبة يريد المدينة لوقعة الحرّة فقالوا : هذا ينصرف عن المدينة الى مكة ويجب علينا ان نمنع حرم الله منه ، ونمتحن ابن الزبير فان كان على رأينا بايعناه ، فمضوا لذلك »(٤٨).

اما البصرة فكانت آنذاك في قبضة ابن زياد ، وفي عهده لم يستطع أي من الفرق المناوئة للحكم الاموي تحريك ساكن ، الا بعد وفاة يزيد بن معاوية ، حين انقلبت الاوضاع وكشف الخوارج عن امرهم واخرجوا اخوانهم من السجن ، وبرز قائدهم ابن الازرق (٤٩) .

من هذا المنطلق نرى ان رواية هشام بن محمد ولوط بن يحيى ، كانت في الاصل لاكثر من خبر ، وان الاحداث الاخرى والاكثر أهمية غطت على أخبار الخوارج مما جعل الرواة لا يعطونها الاولوية في تجميعهم ونقلهم لتاريخ صدر الاسلام والقرن الاول الهجري . ومما زاد الامر غموضا أن معظم روايات تلك الفترة تم جمعها فيما بين سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية ، وما ترتب على ذلك الجمع والتدوين فيما بعد من تأثير سياسي وعقدي واجتماعي لم يكن في أي حال من الاحوال يخدم مصالح الخوارج . فليس عجبا أيضا ، ان يعجز الاباضية عن تغطية تلك الفترة من تاريخ الخوارج لانهم لم ينجوا من السلطة العباسية عندما قامت الامامة في عمان ، الامر الذي جعل كتابهم المتأخرين يعتمدون على المصادر غير الاباضية لكتابة تاريخ صدر الاسلام . وهكذا نجد انفسنا عاجزين عن تتبع بقية أخبار عبد الله بن اباض وكأنه اختفى من مسرح الاحداث واعتزل الامر كله . ومثلما هو واضح ، نجد أن أخبار ابن اباض واخبار ابن صفار تنقطع عند هذه الرواية ، وكأنهما لم يقوما بدور بارز لكي يحفظه الرواة ويسجله التاريخ .

من خلال العرض السابق ، نكون قد وقفنا على بعض أجزاء تلك الحلقة المفقودة في نشأة المذهب الاباضي . فلو افترضنا ان هذه الحلقة أربعة أجزاء ، فقد وقفنا على ثلاثة منها ، وهي :

- الاحنف بن قيس وعلاقته بأبي بلال وعبد الله بن اباض ، والثلاثة من تميم .
- الحرب الاهلية في البصرة (٦٤ – ٦٥هـ) ، وموقف أهلها من الازارقة ، وموقف عبد الله بن اباض من ذلك .
- تعظيم اهل عمان لأبي بلال أيام عبد الملك بن مروان .

اما الاحنف بن قيس فلا نعرف عن علاقته بالخوارج القعدة شيئا ، الا أن ثناء المصادر الاباضية عليه يدعو الى الاعتقاد بأنه وفر نوعا ما من الحماية لأبي بلال ، وجعله يعيش في منازل تميم . وليس مستبعدا أيضا أن يكون الاحنف وقبيلته تميم وراء انتقال أبي بلال من الكوفة الى البصرة . وخلال الفترة التي قضاها ابو بلال في منازل بني تميم بالبصرة التقى بعبد الله بن اباض الذي لا يستبعد ان يكون من أتباع الاحنف بن قيس ، فالاثنان ينتسبان الى بني مقاعس بن عمرو من بني سعد بن زيد مناة . ومعظم بطون بني سعد التي هاجرت الى العراق في صدر الاسلام استوطنت البصرة . وفي البصرة برزت قيادات تميمية لم تكن في كثير من الاحيان بجانب الامويين. كما ان قبيلة تميم بعامة وفرعها سعد بن زيد مناة بخاصة كانا الممول الرئيسي للحركة الخارجية في عهدها الاول .

ان توفر مثل هذه الظروف ، ساعد ابا بلال في نشر آرائه وافكاره بين أفراد قبيلته . وليس غريبا أن يكون عبد الله بن اباض من هذه القبيلة ، وأن يكون خليفة أبي بلال في البصرة ، وليس أيضا بمستبعد ان الاحنف بن قيس قد وفر بعض الحماية لابن اباض مثلما فعل لابي بلال قبل خروجه ، مع كل التدابير اللازمة في الحيطة والحذر . هكذا قدر للحركة الاستمرار في قبيلة تميم بعد وفاة يزيد بن معاوية .

والجزء الثاني من هذه الحلقة ، ما حدث في البصرة بعد هروب عبيد الله بن زياد منها ، قال ابو عبيدة : ... وكانت جماعة الازد آخر من نزل البصرة ، ... ، واقامت جماعة الازد لم يتحولوا ، ثم لحقوا بالبصرة بعد ذلك في آخر خلافة معاوية ، وأول خلافة يزيد بن معاوية ، فلما قدموا قالت بنو تميم للاحنف : بادر الى هؤلاء قبل ان تسبقنا اليهم ربيعة .... »(٥٠).

وقد ذكر عوانة بن الحكم نقلا عن هشام بن محمد انه قال : « ... وكانت خوارج قد خرجوا ، فنزلوا بنهر الاساورة حين خرج عبيد الله بن زياد الى الشام ، فزعم ناس أن الاحنف بعث اليهم أن هذا الرجل الذي قد دخل القصر (ويقصد به مسعود ابن عمرو الازدي) لنا ولكم عدو ، فما يمنعكم من أن تبدؤا به ، فجاءت عصابة منهم حتى دخلوا المسجد ... » وفي حديث طويل ذكر أن أحد هؤلاء الخوارج الذين دخلوا المسجد ومسعود يخطب رماه بسهم أصاب قلبه فمات(٥١) .

وقال هشام بن محمد نقلا عن لوط بن يحيى :« ... فانتدب لها نافع بن الازرق، فاعتقد على ثلاثمائة رجل ، فخرج ، وذلك عند وثوب الناس بعبيد الله بن زياد وكسر الخوارج أبواب السجون وخروجهم منها ، واشتغل الناس بقتال الازد وربيعة وبني

تميم وقيس في دم مسعود بن عمرو ، فاغتنمت الخوارج اشتغال الناس بعضهم ببعض فتهيئوا واجتمعوا . فلما خرج نافع بن الازرق تبعوه ، واصطلح أهـل البصرة على عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب يصلي بهم . وخرج ابن زياد الى الشـام . واصطلحت الازد وبنو تميـم . فتجرد الناس للخـوارج ، فاتبعوهم واخافوهم حتى خرج من بقي منهم بالبصرة فلحق بابن الازرق، الا قليلا منهم ممن لم يكن اراد الخروج يومه ذلك ، منهم عبد الله بن صفار ، وعبد الله بن اباض ، ورجال منهما على رأيهما »(٥٢) .

فهناك علاقة لا نعرف عنها شيئا ، ربطت الاحنف بن قيس زعيـم تميم ببعض الخوارج ــ ربما القعدة ــ وهيأت المناخ المناسب للفكـر الخارجي القاعـد ــ وكانت زعامته حتى ذلك الوقت في بني تميم ــ كي يتغلغل في قلوب ازد عمان الذين وصلوا الى البصرة في أواخر عهد معاوية وبداية عهد يزيد . فعبد الله بن اباض هذا ليس الا أحد أتباع أبي بلال التميمي، وربما من المقربين للاحنف بن قيس ، وجد ضالته في المهاجرين الجدد من ازد عمان . وقد كان عدد لا بأس به منهم مهيأ للدخـول في مذهب ابن اباض او بمعنى أصح أبي بلال . فالظروف السياسية التي سادت البصرة والعـراق آنذاك كانت تنذر بنشوب حرب أهلية طاحنة تنعدم فيها الرؤية السليمة ، فليست هنـاك مصالح لأزد عمان عند جميع الاطراف المتنازعة على الساحة العراقية ، وكل يدعي انه صاحب الحق الشرعي. كما أن هذه الحروب كانت في كثير من الاحيان تحركها عواطف وثارات تعود في جذورها الى ما قبل الاسلام ، وازد عمان الذين هاجروا للبصرة كانوا بطبيعتهم مسالمين ، لم يعرفوا مثل هذه الحروب الاهلية كما رأوها في البصرة . هـذه العوامل عجلت بفريق منهم للانضمام الى القعدة من الخوارج ، الذين اتصفوا بصفات هي في الواقع قريبة لصفات الصحابة والمسلمين الاوائل ، سواء كان ذلك في عباداتهم او حياتهم اليومية . لكن ما علاقة الاحنف بن قيس بكل ذلك . . ؟ هذه العلاقة تبدو اكثر وضوحا في الدور الذي قام به من أجل أخماد نار الفتنة ، والتقرب من الازد ، عن طريق الموافقة على شروطهم في شـأن قضية مسعود بن عمرو . وليس ثمـة شك بأن بعض المفاوضات قد جرت بين الطرفين ، وأن الاحنف كان قد ارسل رسلا من اجـل التفاوض ، ربما كان احدهم عبد الله بن اباض الذي كان يتمتع بصفات المتكلم الجيد، فلقد كان صاحب حجة وبيان ؛ ولكونه المتكلم باسم القعدة من الخوارج . من هنا بدأ الاتصال الاول بأزد عمان ، ليتولوا هم فيما بعد مهمة هذه الدعوة ، وكان للظروف التي ذكرناها دور كبير في ذلك .

وهذا يقودنا الى الجزء الثالث من الحلقة المفقودة ، وهي المنحى الذي اتخذتـه دعوة أبي بلال بعد هذا الاتصال . فقـد هيأت الظروف السائدة في العالم الاسـلامي

آنذاك المناخ الملائم لنقل الدعوة من مقرها الرئيسي في البصرة الى عمان ، حيث كثف دعاة الحركة من نشاطهم مستغلين ظروف الحرب الاهلية التي كانت تمر بها الدولة الاسلامية في تلك الفترة ، وجمعوا اكبر قدر ممكن من الانصار والاتباع . وكان من الطبيعي أن يكون معظم هؤلاء من أزد عمان بعد ما تولى مجموعة من هذه القبيلة امر هذه الدعوة .

والحقيقة اننا لا نعرف الكثير عن دعاة ازد عمان الاوائل الذين تولوا مسؤولية الدفاع عن دعوة ابي بلال ونشرها في الامصار الاسلامية . فهناك اشارة ذكرها المبرد ، مفادها أن عمران بن حطان ــ وهو من بني شيبان من بكر بن وائل ــ وقد كان راس القعد من الصفرية عندما ارتحل الى عمان أيام عبد الملك بن مروان ، وجد اهلها يعظمون أمر أبي بلال ، ويظهرونه(٥٣) .

وهذا يؤكد حقيقة واحدة وهي ان مذهب أبي بلال وصل الى عمان عن طريق اولئك النفر الذين هم في الاصل من أزد عمان، نقلوا المذهب الى موطنهم الاصلي عمان، إما كدعاة ، أو كتجار . ومما يؤسف له في هذا المجال أن كتب التاريخ سكتت سكوتا تاما عن أمر هؤلاء الذين نقلوا المذهب من البصرة الى عمان قبيل تولي الحجاج بن يوسف السلطة في العراق .

ويبقى الجزء الرابع ــ ربما أهم الاجزاء ــ مفقودا ؛ وهو حقيقة العلاقة بين عبد الله بن اباض وجابر بن زيد ، ومتى وأين وكيف تم الاتصال ؟

أما لماذا نسب المذهب الى عبد الله بن اباض ، فربما حدث ذلك أيام الحجاج ابن يوسف الثقفي . فقد كان أهل البصرة يطلقون على الخوارج القعدة ــ الذين تبرأوا من نافع بن الازرق وأفعاله ولم يرضوا بلقب الخوارج لانهم لم يخرجوا على السلطان ــ أطلق عليهم أتباع عبد الله بن اباض ، لكون الاخير ما يزال الابرز والاكثر نشاطا ، وربما كان رئيس القعدة . هذا وقد عرف أزد عمان المذهب عن طريق عبد الله بن اباض وطريق اتباعه ، وبمرور الزمن أطلق على هذا المذهب المذهب الاباضي .

اما الرسالة التي تزعم المصادر الاباضية أن عبد الله بن اباض ارسلها لعبد الملك ابن مروان ، فهذه لا تدخل ضمن اطار هذا البحث ، اضافة الى أن مايكل كوك قد ناقشها باسهاب ، واستعرض جميع ما جاء فيها ، وما تحمله من آراء سياسية وفقهية ، كما ناقش اللغة التي كتبت بها هذه الرسالة(٥٤) .

الحواشي :

(١) يقول ابن الكلبي : « ومن بني صريم بن مقاعس ، عبد الله بن اباض الخارجي ، وعبد الله بن صفار الخارجي ، الذي تنسب اليه الصفرية، والبرك بن عبد الله الخارجي الذي ضرب معاوية ... » .
هشام بن محمد السائب الكلبي (ت ٢٠٤)، جمهرة النسب، بيروت : عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية (١٩٨٦) ، ص٢٣٦ ، وانظر كذلك ، ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد ابن سعيد ت ٤٥٦ هـ) ، **جمهرة انساب العرب** ، القاهرة : دار المعارف (١٩٧٧) ص ٢١٨ .

(٢) ليس من السهل على المرء ، أن يتعقب نسب شخص عاش قبل أربعة عشر قرنا ، فكيف اذا كان الغموض يكتنف سيرته ونشأته ومماته . فليس عجبا أن نجد أكثر من اسم وأكثر من نسب لشخصية لم يعرف عنها الا القليل عند المؤرخين الاوائل ، وتنسب اليها احدى أقدم الفرق الاسلامية ، الا وهي الاباضية . ان عبد الله بن اباض ، لم تتفق المصادر الاسلامية الاولى على اسمه أو نسبه، أو حتى على الفترة التي ظهر فيها . وهذه بعض الامثلة لهذا الاختلاف :
ابن قتيبة : «الاباضية من الخوارج، ينسبون الى عبد الله بن اباض ، وهو من بني مرة بن عبيد من تميم ... » . (أبو محمد عبد الله ابن مسلم ، ت ٢٧٦ هـ) ، **المعارف** ، القاهرة : دار المعارف (١٩٨١) ، ص٦٢٢.
السمعاني : « الاباضي هذه النسبة الى جماعة من الخوارج ، يقال لهم الاباضية ، وهم من أصحاب الحارث الاباضي ... » . (أبو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني ،ت ٥٦٢ هـ)، **الانساب**، بيروت : دار الجنان (١٩٨٨) ، ج١ ص٧٠.

(٣) اباض : اسم قرية بالعرض، عرض اليمامة. وعندها كانت وقعة خالد بن الوليد مع مسيلمة الكذاب . ياقوت (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، ت ٦٢٦هـ) ، **معجم البلدان** ، بيروت : دار صادر (١٩٧٧) ، ج١ ص ٦٠؛ البكري (ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي ، ت٤٨٧هـ) ، **معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع** ، بيروت : عالم الكتب (١٩٨٣) ، ج١ ص٩٤؛ البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ، ت٧٣٩ هـ) ، **مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع**، القاهرة: دار احياء الكتب العربية (١٩٥٤) ،ج١ ص ٨ ؛ ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم) ، **لسان العرب**. بيروت : دار صادر، أباض .

(٤) البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) ، **انساب الاشراف** ، القدس : الجامعة العبرية (١٩٣٨) ، ج٤ ق٢ ص١٠١ — ١٠٢ .

(٥) البغدادي (عبد القاهر بن طاهر البغدادي، ت ٤٢٩ هـ) ، **الفرق بين الفرق** ، بيروت : دار الافاق الجديدة (١٩٧٨) ، ص٨٢-٨٤.

(٦) الملطي (أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي ، ت ٣٧٧ هـ) . **التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع** ، بيروت : مكتبة المعارف (١٩٦٨) ، ص ص ٥٢ ، ١٧٨ .

(٧) الشهرستاني (ابن أبي الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم الشافعي ، ت٥٤٨ هـ)، **الملل والنحل** ، القاهرة : مكتبة الانجلو (١٩٧٧) ص ص ١٣٧ — ١٤٠ .

(٨) الرازي (فخر الدين محمد بن عمر الخطيب ت ٦٠٦ هـ) ، **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**، القاهرة : مكتبة الكليات الازهرية (١٩٧٨) ، ص ٦٤ .

(٩) ابن حجر (شهاب الدين أبي الفضل أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢هـ)،

لسان الميزان ، حيدر اباد : دائرة المعارف العثمانية (١٩٧١) ج٣ ص ٢٤٨ .

(١٠) الحميري (أبو سعيد نشوان الحميري ، ت ٥٧٣ هـ) ، **الحور العين** ، صنعاء : المكتبة اليمنية (١٩٨٥) ، ص ص٢٢٧–٢٢٩.

(١١) المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، (ت ٢٨٥ هـ) الكامل في اللغة والادب، بيروت مؤسسة المعارف (بدون تاريخ) ج٢، ص٢٤١.

(١٢) ابن حزم (علي بن احمد ت ٤٥٦هـ) **الفصل في الملل والاهواء والنحل** بيروت : دار المعرفة ١٩٨٦ ، ج٢ ، ص ١١٢ .

(١٣) المصدر السابق . ج٤ ص ١٩١ .

(١٤) ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم ، ت٢٧٦هـ) **المعارف** . القاهرة : دار المعارف ١٩٨١ ، ص ٦٢٢ .

(١٥) **السير والجوابات لعلماء وائمة عمان.** مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة ، ج٢ ص٨٤.

(١٦) **السير والجوابات لعلماء** ، ج٢ ص ٣٠٧ – ٣٠٨ و ٣١٤ .

(١٧) المصدر السابق . ج٢ ص٣١٠ .

(١٨) المصدر السابق . ج٢ ص ٣١٤ .

(١٩) سالم بن حمد بن سليمان الحارثي ، **العقود الفضية في أصول الاباضية** ، مسقط : وزارة التراث القومي والثقافة (١٩٨٣) ، ص١٢١.

(٢٠) عوض خليفات ، **نشأة الحركة الاباضية** ، عمّان : مطابع دار الشعب (١٩٨٢) ص ص ٧٩ – ٨١ .

(٢١) الشماخي (سعيد بن عبد الواحد ق٩ هـ) ، **كتاب السير** . مسقط : وزارة التراث القومي والثقافة ١٩٨٧ ، ج١ ص ٧٢ – ٧٣ .

(٢٢) لم اقف على هذا النص في الكتاب الذي بين يدي ، وانما ورد ذكره عند سالم بن حمود ابن شامس السيابي في كتابه **ازالة الوعثاء عن اتباع ابي الشعثاء**، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة (١٩٧٩) ، ص٥٠ .

(٢٣) الدرجيني (أحمد بن سعيد ت ٦٧٠ هـ)، **طبقات المشايخ بالمغرب** . حققه وقام بطبعه ابراهيم طلاي ، ج٢ ص ٢١٤ .

(٢٤) الحارثي ، **العقود الفضية** ، ص ١٢٢.

(٢٥) النزوي (أحمد بن عبد الله بن موسى ،القرن السادس الهجري)، **كتاب الاهتداء.** مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة ١٩٨٥ ، ص ٢٣٧ .

(٢٦) ان علي يحيى معمر ، وهو من كبار كتاب الاباضية في العصر الحديث ، لم يترجم لعبد الله بن اباض في كتابه **الاباضية في موكب التاريخ** رغم أنه ترجم لبعض متأخري الاباضية الذين لا يبلغون درجة عبد الله بن اباض في الشهرة . وانظر كذلك كتابه **الاباضية دراسة مركزة في أصولهم التاريخية** . القاهرة : مكتبة وهبة ١٩٨٧ .

اعوشت (بكير بن سعيد) **دراسات اسلامية في الاصول الاباضية** . مسقط : المطابع العالمية (بدون تاريخ) ، ص ٢٠ و ٢٢ ؛ السيابي (سالم بن حمود) **طلقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الاباضي** . مسقط : وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٧ ؛ الباروني (سليمان) **مختصر تاريخ الاباضية** . مسقط : مكتبة الضامري (بدون تاريخ) ص ٢٢ .

(٢٧) دبوز (محمد علي) ، **تاريخ المغرب الكبير** . القاهرة : عيسى البابي الحلبي ١٩٦٣ ، ج٢ ص ٣٩٨ – ٣٩٩ .

(٢٨) الطبري (محمد بن جرير . ت ٣١ هـ) **تاريخ الطبري** . القاهرة : دار المعارف ١٩٧٩ ، ج٥ ص ١٨٩ و ص ٢٥٥ .

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٣٢) المصدر السابق، ص ٢٣٧ ؛ المبرد ، **الكامل**، ج٢ ص ١٨٠ .

(٣٣) ابن الاثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم)، **الكامل في التاريخ**. بيروت : دار صادر ١٩٧٩ ج٣ ص ٤٥٠ .

(٣٤) المصدر السابق ، ج٣ ص ٥١٨ ؛ المبرد ، **الكامل** ،ج٢ ص١٨٣ ؛ ابن قتيبة (أبو محمد

عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ) ، **المعارف** . القاهرة : دار المعارف ١٩٨١ ، ص ٤١٠ .

(٣٥) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ، ص ١٨٠ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣٨) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٨٧ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** ، ج٤ ص ٩٤ .

(٣٩) الدينوري (ابو حنيفة أحمد بن داوود ت٢٨٢هـ) ، **الاخبار الطوال** . القاهرة : وزارة الثقافة ١٩٦٠ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن الاثير، **الكامل** ، ج٢ ص ٤٥٠ .

(٤٠) الطبري ، **تاريخ** ، ج٥ ص ٣١٢ ؛ المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٣٤ و ١٩٠ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** ، ج٣ ص ٥١٧ و ج٤ ص ٩٥ .

(٤١) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٨٣ — ١٨٤ ؛ الطبري ، **تاريخ** ، ج٥ ص ٣١٣ ؛ ابن الاثير، **الكامل** ، ص ٥١٩ .

(٤٢) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٨٣ — ١٨٥ .

(٤٣) المبرد ، **الكامل** ج٢ ، ص ١٨٥ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ١٨٧ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** ، ج٤ ص ٩٤ .

(٤٥) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٤٦) **مصطفى** (نيفين عبد الخالق) ، **المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي** . القاهرة : مكتبة الملك فيصل الاسلامية ١٩٨٥ ، ص ٢٨٠ .

(٤٧) الطبري ، **تاريخ** ، ج٥ ص‌ص ٥٦٦ — ٥٦٨ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** ،ج٤ ص‌ص١٦٥ — ١٦٨.

(٤٨) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص٢٠٢ . والذي يدعم هذا الرأي ويقويه، هو ما رواه هشام الكلبي عن عوانة انه اثناء حصار مكة سنة ٦٤ هـ « قدم على ابن الزبير نجدة بن عامر الحنفي في اناس من الخوارج يمنعون البيت ...». الطبري ، **تاريخ الطبري** ، ج٥ ص ٤٩٧ .

(٤٩) الرواية الوحيدة التي وصلتنا في هذا الصدد هي ما ذكره المقدسي، حيث قال :« واجتمع اهل البصرة على عبيد الله بن زياد وكان واليها في أيام معاوية ويزيد ، ونصبوه أميرا، وسألوه أن يطلق عن الخوارج ، الذين في السجون ، فأطلقهم وفيهم نافع بن الازرق ، وعبيد الله بن الماحوز ، وقطري بن الفجاءة المازني ، فعاثوا في الارض وافسدوا ، وخافهم عبيد الله على نفسه ، فهرب الى الشام » . ورغم أننا لا نعرف المصدر الذي نقل منه المقدسي هذه الرواية ، الا ان ما ذكره يتفق ومجريات الاحداث . المقدسي (مطهر بن طاهر ، ت٥٠٧ هـ) ، **البدء والتاريخ** ، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية (د.ت.) م٢ ج٦ ص ١٨ .

(٥٠) الطبري ، **تاريخ** ، ج٥ ص ٥١٦ .

(٥١) المصدر السابق ، ص ٥٢٥ .

(٥٢) المصدر السابق ص ٥٦٧ .

(٥٣) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٢٨ .

(٥٤) ورد ذكر هذه الرسالة في أكثر من مصدر اباضي ، منها الحارثي ، **العقود الفضية** ، ص ١٢٣ — ١٣٨ ؛ الباروني ، **مختصر تاريخ الإباضية** ، ص‌ص ٢٣ — ٢٦ . ولعل أفضل ما كتب حول رسالة ابن اباض لعبد الملك ابن مروان ، وصحة نسبها ، وتاريخ كتابتها هو M. Cook في كتابه **E. M. Dogma** فقد استعرض جميع ما ورد في هذه الرسالة وناقش محتوياتها ، والاراء السياسية والفقهية التي ذكرت فيها ، وناقش كذلك اللغة التي كتبت بها . انظر مقالة :
« The Letters of Ibn Ibad to Abd Al-Malik, » pp. 51-67, in **Early Muslim Dogma,** Cambridge : University Press, 1981 .

الملـــف

ســورية والشــرق الأدنى القديم ، ٣٠٠٠ ــ ٣٠٠ ق.م

« نــدوة عالميــة »

جامعــة حلب ــ جامعة رومــا

حلب ، ٢٠ ــ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣ هـ / ١٧ ــ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢

سـورية وأصـل الزراعـة

د. سـلطان محيسـن
ج . دمشـق

مقدمة : عاش الانسان على امتداد القسم الاكبر من عصـور ما قبل التاريـخ (العصر الحجري القديم) متنقلا يجمع طعامه بالصيد والتقاط الثروات البرية التي اختلفت كما ونوعا تبعا للظروف . ومع بداية العصر الحجري الحديث ، النيوليت . حصل تحول جذري في أسلوب انتاج الغذاء لدى الانسان ، فلم يعد يعتمد اعتمـادا كاملا على الطبيعة وثرواتها المتقلبة وانما بدأ يتحكم بنفسه بانتاج قوته وضمان عيشه. وهكذا ترك حياة التنقل وأقام في قرى دائمة مارس فيها زراعـة الحبـوب وتدجين الحيوانات بشكل سد حاجة افراده المتزايدين باستمرار . لقد كان هذا التحـول الاقتصادي ، وما رافقه ونتج عنه من تحولات اجتماعية ، من الاهمية لدرجـة دفعت الباحثين لان يطلقوا عليه « الثورة الزراعيـة » أو « ثورة انســان العصر الحجـري الحديث »(١) . ومنذ مطلع هذا القرن تحظى ظاهرة نشوء الزراعة باهتمام متصاعد وتتضافر الابحاث والعلوم والتقنيات الحديثة بهدف تحديد كيفية حدوث تلك الظاهرة ــ التي تعتبر بداية الحضارة الانسانية بمعناها الشامل والمعقد ــ وزمانها ومكانها . وقد تبين ان منطقة المشرق القديم كانت مهد هذا التحول لما تمتعت بـه من شروط بيئية ــ جغرافية وحضارية ــ تاريخية ، لم تتوافر لاية منطقة اخرى من العالم . وتبين أيضا أن دور بلاد الشام كان مركزيا . وعلى الرغم من أن بلاد المشرق العربي القديم كونت وحدة حضارية باكرة تبلورت في اطار طبيعي وجغرافي واحد ، ومن غير الممكن أن نفصل بين سورية وبين بقية بلدانه عند دراسة ظاهرة موغلة في القدم جرت أحداثها وتكاملت على مسرح هذا المشرق ، فاننا آثرنا الاقتصار على عرض المكتشفات السورية اختصارا للبحث ولان تلك المكتشفات على درجة من التكامل والدلالة والاهمية مما يجعل منها نموذجا مثاليا لفهم الزراعة نشوءا وتطورا .

---

* أعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ــ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ــ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ــ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

تاريخ البحث :

تعود الدراسات الجدية الاولى حول نشوء المستوطنات الزراعية الباكرة في سورية الى الثلاثينات من هذا القرن ، وكانت أولها التنقيبات والابحاث التي اجراها الامريكي روبرت بريدوود R. Braidwood في منطقة العمق شمال غرب سورية وبخاصة في موقع تل الجديدة والكشف فيه عن قرية زراعية تعود الى الالف السادس ق.م(٢) . وكذلك الكشف عن قرية زراعية أخرى من العصر نفسه في تل حماه من قبل بعثة دانماركية بادارة هارود انغولت H. Ingholt (٣) وقد مر زمن طويل اعتبرت فيه مناطق حماه والعمق ، من خلال ما ظهر من تتابع حضاري طويل ومستمر، مفاتيح التحولات الزراعية لمجتمعات العصر الحجري الحديث . بعد الحرب العالمية الثانية حصل تحول هام في الابحاث والمكتشفات فتطورت المناهج والاساليب واصبح البحث عن البقايا النباتية والحيوانية القديمة من اهم اهداف المنقبين والعاملين ، كما تحسنت طرق التأريخ المطلق وبخاصة طريقة الفحم المشع ١٤ (C14) واصبحت المكتشفات الاثرية تخضع لتحاليل مخبرية تحدد التحولات الحاصلة في شكل النباتات والحيوانات المدجنة وحجمها لتمييزها عن الانواع البرية فكانت تنقيبات رأس الشمرة التي بينت أن السوية الخامسة من هذا التل ، التي ترقد تحت انقاض مملكة أوغاريت الشهيرة ، تعود الى مجتمع زراعي قام هناك منذ نهاية الالف السابع ق.م(٤) . كما تبين أن مستوطنة زراعية معاصرة قد نشأت على الساحل السوري أيضا في تل سوكاس الى الجنوب من جبلة(٥) . وفي الستينات تتابعت وتكاثرت الاعمال وتزايدت أهمية المكتشفات ، وبدأت تنقيبات هنري دوكنتنسون H. de Contenson في حوضة دمشق في مواقع تل أسود وتل الخزامي وتل الغريفة وتل الرماد ، التي كشف فيها عن مستوطنات زراعية تعود الى الالف الثامن حتى الخامس ق.م(٦). وتوبعت تلك الاعمال على امتداد السبعينات ... بينما كانت تجرى في الوقت نفسه تنقيبات في حوض الفرات قبل انشاء السد وتشكل بحيرة الاسد ، بحملة جاءت باكتشافات فاقت كل التوقعات ، من مواقع تل المريبط وتل الشيخ حسن وتل أبو هريرة التي أكدت انتقالا محليا وتدريجيا من مجتمعات الصيد والالتقاط الى مجتمعات الزراعة والتدجين ،تم في حوض الفرات الاوسط منذ مطلع الالف الثامن ق.م(٧).

ومنذ الثمانينات حصلت تطورات جديدة وبدأت تنقيبات في مواقع الكوم والغدير في البادية السورية أكدت وجود مجتمعات زراعية مستقرة الى جانب مجتمعات رعوية متنقلة في البادية منذ الالف السابع ق.م(٨) ، كما تجرى حاليا تنقيبات عديدة في مناطق الغمر بفعل السدود التي هي قيد الانشاء في أحواض الخابور والبليخ والفرات الاعلى حيث ظهرت عشرات المواقع العائدة الى العصر الحجري الحديث مثل

تل الدامشلية وتل الصبي الابيض في البليخ، وتل الفيضة وتل حنكة وتل كشكشوك في الخابور ، وتل حالولة وتل جعدة المغارة في الفرات ، وكلها مواقع تعطي الجديد في كل يوم مما يبرهن على أن أرض سورية كان لها دور أساسي في نشوء المجتمعات الزراعية الاولى وتطورها (٩) .

المجتمعات الزراعية الاولى :

لم تكن الزراعة اكتشافا فوريا مفاجئا، وانما اتت نتيجة عملية تحول طويلة وبطيئة تعود جذورها الى آلاف السنين . واذا كانت الزراعة قد موروست منذ النصف الاول للالف الثامن ق.م . فان الشروط المناخية والحضارية التي مهدت لها سبقتها ببضعة آلاف من السنين على الاقل . فمنذ العصر الحجري الوسيط ، الميزوليت ، انتشرت على مناطق واسعة من سورية والمشرق ، جماعات بشرية متطورة العدة والعدد ، تخصصت في صيد حيوانات محددة والتقاط نباتات معينة دون غيرها . وهذه الحيوانات والنباتات هي التي تم تدجينها فيما بعد . وأفضل ممثل لهذه المرحلة الممهدة هي المجتمعات الكبارية وبعدها المجتمعات النطوفية التي حققت تحولا اقتصاديا واجتماعيا جعل ممارسة الزراعة أمرا ممكنا بل وربما حتميا . ان القرى الزراعية التي تعنينا في هذا البحث عاشت على امتداد نحو أربعة آلاف عام أي منذ مطلع الالف الثامن ق.م وحتى نهاية الالف الخامس ق.م . ولكن ابتكارات تلك القرى لم تكن واحدة ولا متزامنة وانما تنوعت في الزمان والمكان . وتسهيلا لاستيعاب التحولات الاقتصادية والحضارية على امتداد الزمن المدروس رأينا من المفيد أن نقسم هذه المرحلة الى قسمين رئيسين : الاول يتناول المجتمعات الزراعية الباكرة على امتداد الالفين الثامن والسابع ق.م والقسم الثاني يتناول المجتمعات الزراعية المتطورة في الالفين السادس والخامس ق.م .

المستوطنات الزراعية الباكرة :

ان مرحلة الالفين الثامن والسابع ق.م هي عصر نشوء وتشكل القرى المستقرة التي زرعت الحبوب ودجنت الحيوانات ووفرت بذلك القسم الاكبر من غذائها دون أن تتخلى بعد تماما عن الصيد والالتقاط البريين . ان الاثار الاولى والاقدم لزراعة الحبوب اتت من بضعة مواقع سورية، اهمها تل أسود (السوية آ) في حوضة دمشق حيث عثر على بقايا مباشرة لحبوب متفحمة من القمح والشعير والحمص والعدس تعود الى نحو ٧٨٠٠ سنة ق.م. وهي بذلك أقدم دليل مؤكد معروف حتى الان عن الزراعة في العالم كله(١٠) . وفي الوقت نفسه تقريبا أظهرت التحاليل المخبرية تزايدا واضحا

في كمية غبار طلع حبوب القمح والشعير في موقع المريبط (السوية الثالثة) مما يدل على أن السكان قد نقلوا تلك الحبوب الى جوار قريتهم وزرعوها مدركين ماذا يفعلون(١١) . وقد امتدت القرى الزراعية في هذا العصر على مساحات واسعة ، وصلت حتى ٣٠٠٠٠ م٢ في المريبط مثلا ، أقام سكانها في بيوت كبيرة دائرية الشكل وبيضوية ، من اللبن والحجر والخشب ، قسمت من الداخل الى أقسام مختلفة المساحات : للطبخ ، والتخزين ، والنوم ، كما في البيت ٤٧ في المريبط . ثم ما لبثت تلك البيوت أن أصبحت مستطيلة الشكل متلاصقة بشكل يمكن من زيادة عدد غرفها كلما دعت الضرورة . كما تطورت أدوات تلك الجماعات وتقنياتها فظهرت بخاصة الادوات الزراعية كالاجران والرحى والمدقات والمناجل ....

ورافق هذا التطور الاقتصادي تحول اجتماعي هام فظهرت معتقدات جديدة دلت عليها تماثيل الالهة الام الاولى وقرون الثور المغروسة في جدران البيوت والقبور المزودة بالاضاحي في المريبط وظهرت لاول مرة تقريبا أحجار غريبة « الاوبسيديان » الذي استورد من مناطق الاناضول البعيدة مما يشير الى علاقات تجارية للمزارعين الاوائل تخطت مناطقهم بكثير . اضافة الى المريبط والشيخ حسن وتل أسود ، وجدت دلائل المجتمعات الزراعية الباكرة في مواقع تل قرامل في منطقة حلب وتل جرف الاحمر في حوض الفرات الاعلى وغيرها . ولكن الموقعين الاخيرين لم ينقبا بعد (١١ آ) . ومهما يكن فان النصف الاول للالف الثامن ق.م هو عصر بواكير الزراعة ودلائلها الاولى . أما في النصف الثاني منه فقد تابعت المجتمعات الزراعية الباكرة تطورها فاتسعت قراها وامتدت على هكتارات عدة (١٢ هـ . أبو هريرة) وتطورت المنازل وأصبحت ذات اشكال مستطيلة مبنية من اللبن والحجر لها مخططات محددة مزودة بالمواقد والتنانير ودكات النوم ، والمخازن ، تفصل بينها شوارع وباحات ، أرضها وجدرانها مطلية بالملاط الابيض وقد حملت بعض جدرانها رسوما هندسية أو أشكالا لطيور ، كما في تل بقرص حيث نفذت على جدران احد البيوت لوحة جميلة تمثل طيور النعام باللون الاحمر على خلفية بيضاء ، اضافة الى تماثيل ووجوه بشرية من الطين نزلت عيونها بحجر الاوبسيديان ، وأوان وأدوات زينة غنية ومتنوعة ، كالخرز والخواتم والاساور والاختام . ومن جهة ثانية تطورت المعتقدات والشعائر فظهرت الى جانب معتقدات « الالهة الام » و « الثور المقدس » عقيدة « تقديس الاموات » التي دلت عليها الجماجم المحنطة الموضوعة على قواعد وتماثيل طينية في بيوت السكن ، كما في المريبط وتل الرماد . لقد دفن سكان القرى الزراعية الباكرة موتاهم داخل بيوتهم بعد أن فصلوا في حالات كثيرة الجماجم عن الاجساد(١٢) ، كما طور سكان هذه القرى أدواتهم واجهزتهم باستمرار كرؤوس النبال والمناجل والبلطات وأدوات الجرش والدق والطحن ، وتابعوا تحسين قدراتهم في مجال زراعة الحبوب والبقول ، وتدجين

الحيوانات وانتشرت قراهم في كل المناطق الجغرافية السورية ، في الفرات والبادية حتى السواحل ، بعد أن تزايدت اعدادهم وتمتنت اواصر بنيتهم الاجتماعية . كما تابعوا علاقاتهم التجارية البعيدة المدى مستوردين الاوبسيديان والاحجار النادرة الاخرى من الاناضول ومناطق زاغروس وغيرها .

المستوطنات الزراعية المتطورة :

بعد مرور نحو الفي عام على ممارسة الزراعة اكتملت انجازات المجتمعات الزراعية بابتكار الاواني الفخارية التي باتت الحاجة لها ضرورية أكثر من اي وقت مضى ، من أجل تخزين الطعام والشراب في القرى الزراعية المتزايدة الانتاج وبعد أن نضجت القدرات التقنية اللازمة لتصنيع الفخار . ومع الفخار اصبحت هذه المادة الاثرية الهامة معيارا اساسيا في التمييز بين الشعوب والحضارات في الزمان والمكان. ان الاواني الفخارية الاولى التي تعود الى منتصف الالف السابع ق.م ظهرت في موقع تل أسود في الجزيرة السورية العليا وهي من الفخار البسيط المصنوع باليد والمصقول او المزخرف بالحز أو الطبع . ونعتقد أنه من هذه المنطقة بالذات انطلقت صناعة الفخار الى بقية المناطق في الاناضول والرافدين وسواحل المتوسط ومهما يكن الامر فقد انتشر مع مطلع الالف السادس ق.م استخدام الاواني الفخارية بشكل شامل ، وتنوعت في الشكل والتقنية والزخارف ، وغطى السواحل السورية فخار قاتم اللون مصقول ولامع (فخار العمق آوب) في حين ساد في الفرات والجزيرة فخار فاتح اللون مصقول أحيانا . مع مناطق تواجدت فيها أنواع مختلفة من هذه الاواني كالبادية السورية .

في هذا العصر اتقنت فنون الزراعة والتدجين وأصبح المردود الزراعي مصدر العيش الوحيد تقريبا ، بعد أن تراجع الاعتماد على الصيد والالتقاط الى درجة كبيرة. وهكذا زرع القمح والشعير والعدس والحمص والفول ونباتات اخرى لم يبق لها أثر واضح في الواقع ، ودجن الغنم والماعز والبقر على نطاق شامل في كل المستوطنات التي تزايدت مع تزايد السكان . ان مستوطنات هذا العصر هي في الواقع استمرار طبيعي لمستوطنات العصر السابق ، لكنها عموما أكبر ، ومواد بنائها من اللبن والحجر والخشب ، المعدة سلفا لاغراض البناء ، أفضل تجهيزا . وكانت أرضيات البيوت وجدرانها تطلى بالملاط . ولكننا لم نعثر على ما يدل على أن سكانها زخرفوا جدرانها مثلما فعل أسلافهم في العصر السابق . كما وحصل تحول هام في مجال دفن الموتى فلم يعد هؤلاء يدفنون داخل بيوت السكن وانما في مناطق محددة خارج المستوطنات المعمرة . ويمكن القول انه في هذا العصر ظهرت المقابر بمعناها المتعارف عليه .وفي مجال

الشعائر والمعتقدات لا نظن ان هناك تبدلا ملحوظا ، فقد استمرت معتقدات العصر السابق وأن كنا نجد فقرا واضحا في الدمى والتماثيل والفنون دون أن نستطيع تفسير ذلك الان .

وبشكل عام بقيت الادوات والاسلحة الحجرية تستخدم على نطاق واسع كرؤوس النبال التي يلاحظ أن تواجدها تباين من موقع لآخر مما يدل على تباين دور الصيد من مستوطنة لاخرى . وتزايدت الادوات الزراعية من المناجل والبلطات وادوات تحضير الحبوب وقطع الاشجار بعد أن وصلت المستوطنات الى الغابات والمناطق الجبلية التي كانت مغلقة سابقا . في منتصف الالف السادس ق.م حصل تبدل في وتائر تطور المجتمعات الزراعية السورية فدخلت المناطق الشمالية من سورية ـ مناطق الجزيرة والفرات وما هو الى الشمال من حمص تقريبا ـ في عصر جديد هو العصر الحجري النحاسي ، وحصل بذلك تكامل حضاري مع بلاد الرافدين حيث سادت الحضارة الحلفية على كل هذه المناطق بتجانس . وهذا دليل وحدة حضارية هي الاكثر تعبيرا حتى الان ، واما المناطق الجنوبية من سورية بما فيها فلسطين فقد تابعت تطورها السابق ولم تدخل في العصر الحجري النحاسي الا في مطلع الالف الرابع ق.م وبذلك انتهت مرحلة طويلة من ابتكار وتأسيس وارساء دعائم أبدية لمجتمعات الزراعة والتدجين في المشرق العربي القديم .

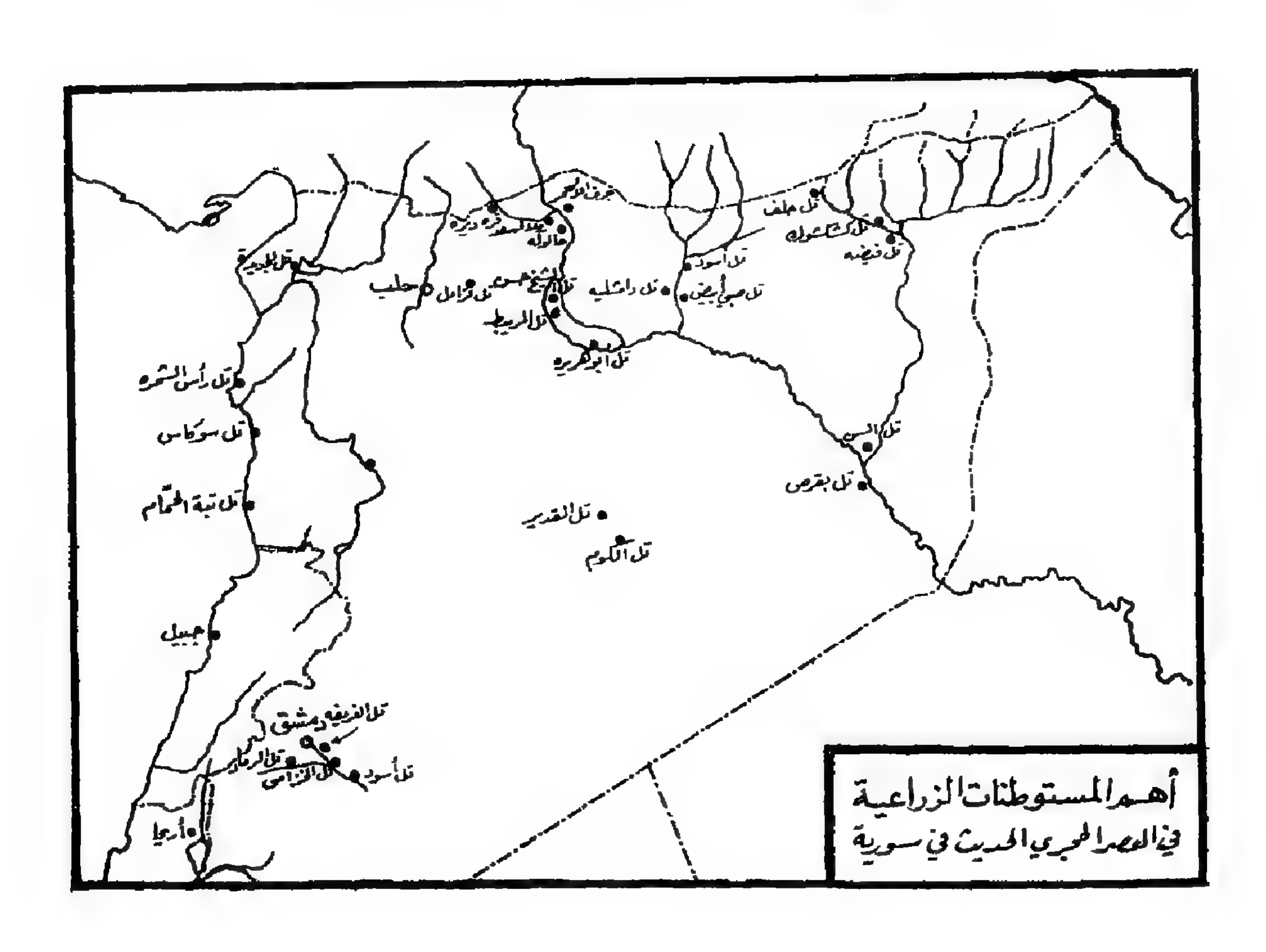
خاتمة :

يمكن أن نوجز القول بأن نشوء الزراعة قد مرّ بمرحلتين رئيستين ، الاولى زرعت فيها انواع معينة من الحبوب ودجنت حيوانات محددة ولكن بقي الصيد والالتقاط من مصادر الغذاء الهامة . وفي المرحلة الثانية اختفى الصيد والالتقاط وأصبحت الزراعة والتدجين مصدر النشاط الاقتصادي ـ الغذائي الوحيد .

لقد تكاملت هذه العملية على أرض سورية وعلى امتداد العصر الحجري الحديث ولكن مسرح الاحداث الاكبر غطى منطقة المشرق العربي القديم بما فيها الاناضول ومناطق زاغروس حيث حصلت تحولات زراعية هامة على طول وعرض هذه المنطقة ، وما مواقع أريحا في فلسطين والبيضا في الاردن وجارمو في العراق وجبيل في لبنان الا النصف الاخر للمواقع السورية التي أتينا على ذكرها .

واذا كنا قد استطعنا ان نعرض متى واين وكيف نشأت الزراعة فانه يجدر أن نشير الي مشكلة تحظى باهتمام متصاعد من الباحثين ، وهي لماذا اكتشفت الزراعة ؟

وهو سؤال مـن الصعب أن يحظى باجابـة قاطعة . لذلك نرى المواقف تتباين بـل وتتناقض احيانا في السبب الذي دفع مجتمعات العصر الحجري القديم الى تبديـل نمط حياتهما الاقتصادي متجهة نحو زرع الحبوب وتدجين الحيوانات وبعض الباحثين يعطي الاهمية للبيئة وتحولاتها التي جعلت الزراعة امرا ممكنا ، في حين يرجح البعض دور القدرات التقنية ، وآخرون يعطون العامـل الاجتماعي الدور الاهم بينما يقـول غيرهم بأن تزايد السكان دفع الى الزراعة من اجل اطعام الناس المتكاثرين ، كما أن هنالك من يقول بأن الفكر الانساني هو الذي أبدع هـذه العملية الاقتصادية المنظمـة لأسباب نفسية ــ حضارية دون أن تكون الحاجة الاقتصادية هي السـبب . كل ذلك مع فرضيات اخرى لا نستطيع الخوض فيها الان(١٢) . ومهما يكن فاننـا نعتقد بأن عملية الزراعة فعل مركب ساهمت في حصـوله عوامل عديدة : بيئيـة وجغرافية واجتماعية وتقنية وفكرية وسكانية وغيرها ، دون أن نستطيع الان تقريـر ارجحية مطلقة لعامل واحد أو تحديد الدور الحقيقي لكل من هذه العوامل .



الحواشــــي :

(١) Childe, V. G., 1951, **Social evolution**, London .

(٢) Braiwood, R.L.and Braidwood, L. S., 1960, **Excavation in ihe Plajns of Antioch I**, Oriental Institut Publicatin n. 61,Chicago

(٣) Ingholt, H; 1940, **Rapport Préliminaire sur sept campagnes de fouilles à Hama en Syrie (1932 — 1937).**

(٤) Schaeffer C.F.A. 1962 . « Les fondements préhistoriques d' Ugarit,» in **Uqritica** IV (15) 151 - 240 ; Archaeologisk - Kumsthistoriske meddelment II

(٥) Riis, P.Y. et Thrane, H, 1974, **Sukas III:** The Neolitic periods publication of carlsberg Expedition to Phoenicia, 3, Copenhagen, Munksgand.

(٦) Contenson, H. 1978, « Recherches sur le néolithique de Syrie (1967 - 1976) » C. R.A.L. 820-825

(٧) Cauvin, J. 1978, **Les premiers Villages de Syrie - Palestine du IXeme au VIIeme millénaire avant J.C.**, publication M.O.,n.4

(٨) Cauvin, J. 1982, « L'Oasis d' el Kowm au néolithique, Bilan d'aprés trois campagnes; métodes , problémes et résultats, **Cahiers de l'Euphrate 3,**

(٩) هذه التقنيات مستمرة ، نشر عنها مقالات وتقارير في مجلات عالية متنوعة ، أهمهـــا مجلة Paléorient التي يصدرها مركـز الابحاث القومي الفرنسي،وفي مجلات هولندية وامريكية ومعظم هذه المواضيع قيد النشر.

(١٠) Moor, A. 1985, « Neolitic Societies in the Near Eest, » in **Advances in Archaeology**, vol . 4, p. 1-69 .

(١١) Leroi - Gourhan , Arl 1974 , « Etudes palinologiques des derniers 11000 ans en Syrie Semi - désertique », **paléorient** 2/443 - 451 .

(١١) آ انظر المسح الهام الذي أجراه جون ماترز في منطقة نهر قويق :
Matthers, « The River Qoueiq, Nothern Syria and its catchement» , **BAR.** I.S., 98, 1981 .

(١٢) Contenson, H. 1971 , « Tell Ramad,a village of Syria of the 7 th and 8 th millenia B. C » . **Archeology** 24, 278 - 283 .

(١٣) Henry, D; 1989, **Form Foraging** the agriculture, the Leveant at the and of the ice age , philadilphia, U.S.A.
Redman, C.C., 1978,**The rise of civilisation** , San Francisco
Mellaart, J.1975, **The neolitic of the Near East,** London .

التجارة في إبلا

د. عيد مرعي
جامعة دمشق

تظهر نصوص الارشيف الملكي في ابلا ان التجارة كانت ركنا هاما من أركان الاقتصاد ، ساعد على ازدهارها زراعة متطورة واستغلال جيد للارض ، وصناعة متقدمة فاق انتاجها حاجات السوق المحلية . اهم من ذلك موقع ممتاز على تقاطع طرق التجارة الدولية بين بلاد الرافدين والبحر المتوسط ، وهضبة الاناضول ووادي النيل في الجنوب ، قريب من غابات الجبال الساحلية وجبال لبنان الشرقية والغربية والامانوس وطوروس ، الغنية باشجار الصنوبر والسرو والارز والبقس والسنديان. المرغوبة جدا في مصر وبلاد الرافدين ، وبخاصة لبناء القصور والمعابد بسبب مقاومتها وطولها ، مما مكن ابلا من جني أرباح كبيرة من وراء ذلك.

وكانت ابلا تتحكم بطريق تجارة المعادن الثمينة ، وبخاصة الفضة ، من الاناضول الى بلاد الرافدين عبر شمال سورية(١) .

كان الاتجاه الجغرافي لتجارة ابلا ، حسب النصوص المكتشفة ، نحو الشرق والشمال الشرقي بشكل رئيس، حيث وصلت الىأبعد بكثير منها في الغرب والجنوب. وكان أهم طريق تجاري لها ذلك الذاهب الى الفرات ، وبخاصة الى ماري ومن ثم الى كيش وسط بلاد الرافدين ، أو الى منطقة الخابور وأعالي بلاد الرافدين ومنطقة شرق دجلة . كذلك كانت هناك طرق اخرى تذهب الى ايمار ، الميناء الهام على الفرات والى كركميش وغيرها .

ويبدو أن أهم شريك تجاري لابلا كان ماري التي لم تكن في وقت من الاوقات تحت سيادتها ، اذا اتبعنا الفهم الجديد لرسالة اتّا داجان(٢) . ويمكن تمييز نوعين من المنتجات في نصوص ابلا :

---

* اعد هذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ – ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ – ٢٢ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ – ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

منتجات محلية، ومنتجات مستوردة، اما لاستخدامها محليا أو بغرض التجارة، سجلت في سجلاتها ، وتشمل هذه المجموعة خاصة المواد الاولية الاتية من الخارج ، واحيانا من مناطق بعيدة جدا .

امـا المنتجات المحليـة فتشمل المنتجـات الزراعية والمنسوجـات والملابس والمفروشات الخشبية ، وبعض الصناعات اليدويـة التي صنعت في ابـلا من المعادن والاحجار الكريمة وشبه الكريمة المستوردة . وتعد المنسوجات والملابس اكثر المواد ذكرا في نصوص ابلا الاقتصادية ومنها أنواع عديدة كتانية أو صوفية وغيرها(٣) . وكانت هذه الانسجة والملابس تعطى أحيانا الى بعض الموظفين ورجالات القصر ، أو ترسل الى حكام المدن والبلدان الاخرى كهدايا ، أو تحملها القوافل الى المدن الاخرى لتسويقها هناك . ويذكر النص (TM. 75. G. 1741) بعض الانسجة التي أعطيت الى احد التجار الذي ذهب الى كيش ، والى اشخاص ربما كانوا يعيشون في كيش(٤). وهناك نص آخر (TM. 75. G. 2316) يذكر توريد ستمائة لباس نسائي من قبـل شخصين(٥) .. وهذه الكمية قد تكون ضريبة دفعها للقصر الشخصان اللذان صنعا هذه الالبسة(٦) .

اما بالنسبة للمنتجات الزراعية فهي الزيت والعنب والحبوب بانواعها . وكان جزء من هذه المنتجات يستخدم لسد حاجات القصر الملكي ، اما الجزء الاخر يمكن ان يكون قد صدر الى الخارج .

وتذكر النصوص « زيت نوع أول » كان يرسل مع اعـداد من الانســجة الى البلدان الاخرى كهدية الى الملوك الاخرين وعائلاتهم .

من بين الاشياء التي صنعت من معادن وأحجار كريمـة واستخدمت جزئيـا للتجارة يمكن أن نذكر الخناجر الامورية (GIR. MARTU) التي كانت تصنع من الذهب والفضة ، والتي يتكرر ذكرها مع الالبسة (تعبير أموري ، يعني أنها صنعت حسب النموذج الاموري) وهنـاك أيضا مجوهـرات وأوانٍ من الاحجار الكريمـة والمعادن ، يبدو أنها كانت تصنع للتوزيع الخارجي (٧) .

الواردات :

ويأتي على راسها المعادن وبخاصة الثمينـة منها كالفضـة (KU. BAR 6) والذهب (KU. GI) والنحاس والقصدير ، التي تذكر في النصوص بكميات كبيرة . فالنصان (TM. 76. G. 2072+2073) يذكران ٤١٩٨ مينه من الفضة . والنص (TM. 76. G. 973) يذكر ٤٤ مينة من الذهب عيار ١/٢(٨) . واذا علمنا ان المينة

السورية تساوي نحو (٤٧٠) غراما(٩) ، فالكمية الاولى تبلغ نحو ١٩٧٣ كغ من الفضة والثانية نحو ٦٨ر٢٠٨ كغ ذهبا . والنص (TM. 76. G. 118) يذكر وجود الف مينة ذهب اضافة الى ١٣٢ مينة وزعت(١٠) والنص (TM. 75. G. 1953) يذكر ما مجموعه ٢١٨٨ مينة فضة و ٢٦ر١٢٤ مينة ذهب مرسلة من ملك ماري ابلول إل ، ومن شيوخها وكبار موظفيها (منها ١١٠٠ مينة فضة و ٩٣ مينة ذهب من الملك وحده) . ويرى البعض أن هذه الكمية هي الجزية المفروضة على ماري بعد ان فتحها أنا داجان(١١) . ويعدها البعض الاخر هدية من ملك ماري الى ابلا(١٢) .

وهناك نصوص أخرى عديدة تسجل كميات كبيرة من الفضة والذهب نذكر منها على سبيل المثال :

ARET VII 2 (3)	ويسجل مجموعا عاما قدره ١٤٩٤ مينة و ٦ شيقيل فضة و٩٧ مينة ذهب .
ARET VII 4 (17)	ويسجل ٤٨ر٢٠٧ مينة فضة و١٣ مينة ذهب ، ارسلت الى ماري .
ARET VII 8	ويسجل ٤٥ر٥٣ مينة فضة و ٢١ر٢ مينة ذهب مرسلة الى ماري مع أشخاص يتكرر ذكر بعضهم في مواضع اخرى . وربما كانوا تجارا زودوا بهذه الكميات للحصول على مواد مختلفة .
ARET VII 69 I 1-3	ويسجل ١٢٩ مينة و ٤٥ شيقيل ذهب عيار ٤،
» » II 1-3 :	و ٥ر١١٦٧ مينة ذهب .
TM. 75. G. 1841 :	يسجل خروج كميات كبيرة من الذهب والفضة في عدة سنوات مجموعها ٨٣٨٩ مينة من الفضة و ٤٠٥ مينة و ٤٧ شيقيل ذهب عيار ٢½(١٣) . وذكر عيار الذهب في هذين النصين وفي نصوص اخرى يدل على وجود معايير دقيقة لهذا المعدن الثمين .
ARET VIII 528 (1)	يسجل مجموعا قدره ٦١٩ مينة و ٤٠ شيقيل ذهب .
MEE 2 nº. 1 : r.I. 1	يسجل ٧٠٠ مينة فضة .
» » » I	يسجل ١٠ر٧٨٠ مينة فضة .
» » » 23	يسجل خروج كمية كبيرة من الذهب على دفعات مجموعها ٨٣٨ مينة و ٢٠ شيقيل . وهناك حالة تذكر مبادلة فضة مع عقيق ولازورد .

MEE 2 49 r III 8-IV 2 : ٦ شيقيل دلوني فضـة مبادلـة مع ٣ شيقيل دلوني عقيق ولازورد .

ويذكر نص اكتشف عام ١٩٨٢ فيما يذكر : ١٥٠٠ مينة ذهب (نحو ٧٠٠ كغ) قيمة حبوب ، و ١٧٠٠ مينة فضة (نحو ٨٠٠كغ) قيمة خشب بقس وأخشاب عطرية، وينتهي بالملاحظة « تعود الى إبْي زكير »(١٤) .

ويبدو ان هذه العملية كانت صفقة تجارية لصالح الملك إبْي زكير . والسؤال هنا : من اين كانت ابلا تحصل على كل هذه الكميات الضخمة من الذهب والفضة .؟.

في الواقع لا توجد اجابة اكيدة على ذلك ، ولكن يعتقد ان جبال طوروس وهضبة الاناضول كان فيها مناجم للفضة بدليل تسمية شاروكين الاكادي لجبال طوروس بجبال الفضة . واذا علمنا ان الفضة تدعى باللغة الاكادية « كسبوم » (الواو علامة الرفع والميم كالتنوين في العربية) يمكننا اعتبار اسم « كسب » الذي يطلق على احدى القرى في شمالي سورية دليلا اخر على غنى هذه المنطقة بالفضة . اما الذهب فكان يصل ابلا من مصر عن طريق أوجاريت ، او غيرها من المدن الساحلية . فمصر كانت غنية بذلك المعدن واكتشفت مناجم عديدة له في الصحراء الشرقية وفي النوبة والسودان(١٥) .

الاكتشاف الهام الذي حدث في ابلا هو العثور على اكثر من ٢٢ كغ من اللازورد الخام في احدى قاعات القسم الاداري من القصر الملكي . وتعد هذه الكمية أكبر كمية تكتشف حتى الان في موقع أثري (عدا مقبرة أور الملكية). وعثر كذلك على كميات من السبج (الاوبسيديان) والبلور الصخري . من المعروف أن منطقة بدخشان في افغانستان كانت مصدر اللازورد القادم الى بلاد الرافدين وسورية عبر بعض المراكز في جنوب وشرق ايران مثل تبة يحيى Tepe yahya وشهري سوختا Shahri-i Sokhta التي كانت متخصصة في التصنيع الاولي للاحجار شبه الكريمة كالعقيق واللازورد .

كان اللازورد يرسل من هذه المراكز ، مقابل الحصول على منتجات زراعية ، باتجاه جنوب غرب الى شاطىء الخليج العربي ومن ثم الى سومر ، أو ترسل بالاتجاه الشمال الى تبه هيسار Tepe Hissar ثم الى الغرب باتجاه جبال زاغروس ثم الى وديان ديالي والفرات الاوسط . وكان هذا الطريق أكثر خطورة بسبب صعوبة عبور الجبال وعدم الاستقرار السياسي للقبائل المحلية . وكانت ماري قبل اكتشاف ابلا المحطة الاخيرة على هذا الطريق . أما الان فيمكن تتبع هذا الطريق حتى ابلا ، حيث

كان جزء من اللازورد المستورد يستخدم في الورشات الملكية لصنع العقود والحلي وغيرها ، ويرسل الجزء الاخر باتجاه سواحل المتوسط الشرقية ليحصل عليه التجار المصريون مقابل مصنوعاتهم اليدوية الثمينة ، أو كميات من الذهب . فمصر كانت تتطلع دائما للحصول على اللازورد وغيره من الاحجار الكريمة من سورية (١٦) .

وتزودنا نصوص ابلا بالعديد من الاشارات الى اللازورد : فهناك نص يذكر ١٠ مينة و ٢٠ شيقيل لازورد (gin : Za) من (Iti) تاجر (ras : ga) ماري(١٧) . وهناك نص آخر يذكر ٢ مينة لازورد جلبها شخص الى شخص اخر مع أشياء اخرى(١٨) . ويذكر أيضا ٥ مينة و ٤٠ شيقيل لازورد جاءت من ماري (أو الى ماري)(١٩) ، وثوبان و ١٠ مينة لازورد أرسلها ملك ابلا الى ملك ماري(٢٠) .

ويذكر النص نفسه أيضا الف مينة من حجر شبه كريم غير معروف حتى الان (A-GU 6) (٢١) . ويوجد نص ثالث (TM.75. G. 1599)يذكر مينة واحدة و ١٠ شيقيل لازورد استلمهم Adalum الحداد ، و ١٣٫٥ شيقيل لازورد استلمهم أبو ملك (Abu-Malik) (٢٢) . ويذكر نص رابع أنسجة وخنجر أموري ذهب وخمسة مينة لازورد هدية حاكم (en)مدينة (tugurasu (ki)) (٢٣) .

أما المعادن الاخرى التي تذكرها النصوص بكميات كبيرة فهي النحاس والقصدير ويستخدمان بعد خلطهما بنسب معينة للحصول على البرونز لصناعة الادوات المختلفة.

وثمة تسميتان للنحاس تظهران في نصوص ابلا ، الاولى URUDU وترد قليلا، والثانية a-gar 5 التي ترد غالبا a - gar 5 - gar5 (نوع من الجمع)(٢٤) ونورد فيما يلي بعض النصوص التي تذكر النحاس والقصدير :

(1) ARET II 11 : ٥٩٫٥ مينة نحاس و ٧٫٥ مينة قصدير جعلها أحد الاداريين (AN - NA) تستخدم لصنع مئة خوذة ؟ .

(2) » » » : ٣٥ شيقيل دلوني نحاس و ٤٫٥ شيقيل دلوني قصدير جعلها الاداري تستخدم لصنع (؟) خوذة .

يتضح من هذين المثالين أن نسبة النحاس الى القصدير هي نحو ٨ الى ١ .

(1) ARET II 48 : ٩٥٫٥ مينة نحاس استلمها شخص يدعى EN. TI

(2) » » » : ٧٢٫٤٠ مينة نحاس أضيفت ، كذلك ٧ مينة نحاس بعهدة EN.TI لصنع ١ لاخا (مكيال للسعة) .

ويبدو ان المذكور في المثالين السابقين اعلاه كان مسؤولا عن احدى الورشات الملكية المكلفة بتصنيع الادوات المعدنية .

ARET III 185 I 3	: يذكر أربعمائة مينة نحاس (نحو ١٨٨ كغ) .
» III 56 1 (II)	: يذكر ٢١ مينة نحاس .
» VII 24 (1)r. I 4	: يذكر ٦٠ مينة نحاس .
» VII 136 : I-II	: ٣ مينة و ٤٠ شيقيل نحاس الى ib - dur-I-sar ناظر الحدادين .
» VII 137	: ٦ مينة و ٣٠ شيقيل نحاس الى (Isilum)
» VII 138 I	: ٢ مينة و ٥٠ شيقيل نحاس .
» VII 139 I 3-5	: ١.٥ شيقيل نحاس لصنع حربة للملك
» VII 140 I 1-3	: ٩ مينة و ٢٠ شيقيل نحاس لصنع ادوات مختلفة .
» VII 141 (1)	: ٢٦ مينة و ٤٠ (شيقيل) نحاس، و ٤٠(شيقيل) قصدير دلوني كبير نشرت ، ١٠ مينة نحاس ، MAS . MAS (شيء مصنوع) و ٢٠ شيقيل قصدير دلوني صغير، ٢١ مينة و ٤٠ شيقيل برونز (Zabar) ، ٢٠ بلطة كبيرة استلمهم (Ikna - Damu) .
» VII 141 (4)	: ٦ مينة و ٤٠ شيقيل نحاس ثم ٦ مينة نحاس لصنع ادوات مختلفة .
» VII 142 I. II	: ١٠ مينة قصدير و ٥ مينة نحاس .
» VIII 528 (18)	: يسجل ما مجموعه ٥ر٣٢ مينة نحاس .

وهناك نص يذكر ١٨٦٦ مينةو٤٠ (شيقيل) نحاس ، ١٣٣ مينة و ٣٠ (شيقيل) نحاس .. اعطيت من بيت الملك لانتاج ١١٢٠٠ ... من نحاس ، (وزن الواحد) ١٠ (شيقيل) (٢٥) .

ويوجد نص آخر يذكر ٤٢ شيقيل دلوني قصدير لسبكهم مع ٢٠ مينة و ٤٠ شيقيل دلوني نحاس لصنع ٢٠ قدوم صغير وزن الواحد ٢٠ شيقيل(٢٦) . ويذكر نص ثالث ٨٩٠ مينة نحاس (٢٧) .

والسؤال هنا من أين كانت تحصل ابلا على النحاس والقصدير ؟ . .

تظهر في قوائم ابلا المعجمية كلمة Ka-pa-lum التي يجب أن تربط مع الجـذر kpr (قلب اللام راء) وبالتالي مع اسم قبرص (باللاتينية cuprum)(٢٨) التي كانت غنية جدا في العصور القديمة بالنحاس الذي يصدر منها الى بلاد الرافديـن ووادي النيل . حتى أن اسم « قبرص » بالعربية يعني النحاس الجيد(٢٩) .

لذلك لا غرابة أن نجد ذكر تلك الكميات الكبيرة من النحاس في نصوص ابلا ، اذ يبدو انها أقامت علاقات قوية مع جزيرة قبرص . أما القصدير فالرأي السائـد الان بين المختصين انه كان يستخرج من شمال غرب ايران(٣٠) . وعثر في بعض غرف القسم الاداري من قصر ابلا الملكي ، على أصداف من أنواع مختلفة ، كانت الصغيرة تستخدم لصنع العقود ، والكبيرة كمصابيح . وتبين بعد دراستها أن قسما كبيرا منها أصله من الخليج العربي ، والمحيط الهندي ، وأقلها من البحر المتوسط .

بالتأكيد وصلت أصداف الخليج العربي والمحيط الهندي الى ابلا على طريق التجارة القادم من سومر بمحاذاة الفرات . أما أصداف البحر المتوسط فكانت سهلة المنال بسبب قرب ابلا من السواحل الشرقية(٣١) . ونعلم من نصوص ابلا ان ماري كانت ترسل اليها الصوف باستمرار ليتحول فيها الى أنسجة وملبوسات(٣٢) . ويبدو أنه على الرغم من غنى ابلا بالاغنام فان صناعتها النسيجية الواسعة كانت بحاجة الى كميات اضافية من الصوف تستورد من المدن الاخرى . وهناك نصـان(٣٣) يذكران استيراد الصوف من مدينة تدعى نجر Nagar (٣٤) ويبدو أنه كانت على علاقات جيدة مع ابلا ، اذ يذكر نص آخر ارسال خمر وزيت من ابلا اليها(٣٥) . ويتحدث نص آخر (TM. 75. G. 2133) عن اعطاء كمية من الذهب من أجل رحلة تجارة لشخصين الى تلك المدينة (٣٦) .

يتضح من كل ما تقدم ان التجارة كانت مزدهرة في ابلا وتصل الى مناطق بعيدة. ولكن كيف كانت العمليات التجارية تتم ومن كان يقوم بها ؟ .

قسم بيتناتو في مقاله عن « تجارة ابلا الدولية » التجارالى مجموعتين :

١ ـ تجار يعملون في خدمـة الدولة ولهم تسـميات عديـدة منها : لو كاس lu - kas (4) ومشكيم maskim .

٢ ـ تجار يعملون لحسابهم الخاص (احرار) ولهم تسميات عديدة منها : (دم ـ كر dam - gar ، وغا : راش ga : ras ، وماخو mahu ، ولو ـ كار lu - kar وبدالوم badalum)(٣٧) . ولكن الفصل صعب بين تجارة الدولة والتجارة الخاصة .

فنصوص رافدية حديثة تذكر أن التجار (الاحرار) مارسوا التجارة كثيرا بتكليف من الدولة(٣٨) . كما أن نصوص ابلا لا تعطي معلومات عن حقوق وواجبات التجار . وبما انهـا نصوص ملكية يظهر التاجر فيها يعمل في خدمـة الدولة(٣٩) . وبالتالي لا يمكن القول بشيء من التأكيد بوجود تجار أحرار في ابلا كانوا يمارسون التجارة لحسابهم الخاص .

كانت تسمية لو ـ كار هي التسمية الشائعة للتاجر في ابلا ، وتظهر في الكثير من النصوص مرتبطة بأسماء مدن وبلدان عديدة . وكان عددهم احيانا كبيرا في المدينـة الواحدة . ففي النص ARET III 627 I 2 f يظهر ٢١ لو ـ كار مـن مدينة أبشـو Abshu (مدينة غير معروفة) . أما ماري فيظهر فيها أكثر من ثلاثين لو ـ كار(٤٠) . وكان بعضهم يقيم في مدن أخرى ويمارس العمليات التجارية ،كما يتضح من النصوص التي تذكر تزويدهم بأعداد كبيرة من الانسجة والملبوسات(٤١) . كذلك يظهر لو ـ كار من مدن أخرى عديدة مثل ككميوم ومنوات Manuwat وغيرها(٤٢) .

كان اللوـكار يقومون عادة برحلات تجارية من مكان الى آخر ويعقدون الصفقات التجارية من بيع وشراء . وربما كانوا يعملون أحيانا كتجار كبار متخصصين ببيع مادة محددة،اذ يرد ذكر لوـكار الفخار من مدينة إبال : lu-kar bahar sa 11 eb-al (ki)

ويبدو أن هذه المدينة كانت تنتج الفخار بكثرة لذلك احتاجت الى تخصص احد التجار ببيع انتاجها(٤٣) . ويبدو أن اللوـكار كانـوا أحيانا من الموظفين الكبار ولهـم سمعتهم ومكانتهم العالية ، اذ يرد ذكرهم في أحد النصوص قبل ابناء ملوك المدن (٤٤) لا بد من الاشارة هنا أن كلمة لو ـ كار سومرية الاصل وتعني « رجل المركز التجاري» أو « رجل السوق » أو « رجل الميناء » .

من التسميات الاخرى للتاجر مشكيم وهي تسمية كانت تطلق على وظيفة مراقب أو مشرف على مهنة كالعمل في التجارة ، وهي أدنى من اللوكار(٤٥) . وهناك أيضا تسمية ماخـو mahu التي تشبه غا : راش ، وكانت تطلق على التاجر الذي يمارس تجـارة بعيدة . فالنصوص تذكر ماخو من نوزي(٤٦) ومن حران(٤٧) ومن توتول وغيرها ... وقد جلب الماخو انسجة ومواد معدنية وفضة واستلموا الفضة كهدايـا أو كراسمال لرحلاتهم(٤٨) . ويبدو أنه كان يوجد أكثر من ماخـو واحد يعمل في المدينة الواحدة ، ويمكن أن يكون لديه مشكيم يعمل في خدمته(٤٩) . وبما انه لا يوجد اشتقاق سومري لكلمة ماخو لذلك يمكن أن تكون ابلوية(٥٠) .

اما تسمية دم ــ كر السومرية فهي قليلة الاستعمال وتوجد أيضا تسمية لو ــ كاس التي تعني حرفيا « ساع » . ولكن يبدو أنها كانت تستخدم احيانا للاشارة الى نوع من التجارة(٥١) .

بالاضافة الى التسميات السابقة هناك تسمية معروفة من نصوص ابلا هي بدالوم badalum التي ترجمت من قبل البعض الى « تاجر » بالمقارنة مع كلمة بيدالوم bidalum الاوجاريتية . التي ترجمت « تاجرا » أيضا(٥٢) . ولكن النصوص لا تذكر شيئا عن نشاط البدالوم . ويبدو أن مركزه كان عاليا اذ يذكر الى جانب حكام المدن ويتلقى هدايا مثلهم . وفي الكلمة ثلاثة آراء :

١ ــ بدالوم في حران كانت تسمية للحاكم في حران ، ٢ ــ أنها تعني التاجر . ٣ ــ تقرأ ba-da-gum وتعني القاضي(٥٣) . وكل هذه التفسيرات غير مقنعة . ويمكن القول بشكل عام انه كان يوجد في كل مدينة بدالوم واحد يحتل مركزا عاليا فيها بعد الحاكم مباشرة ، وربما عمل كمستشار أو « وزير كبير » للحاكم(٥٤) . ويبدو أن بدالوم حران كانت له أهميته الخاصة اذ يذكر مرارا عديدة في نصوص ابلا وترسل له أنسجة وهدايا أخرى ، بينما لا يظهر حاكمها الا نادرا(٥٥) . تجدر الاشارة هنا أن حران كانت في عصر محفوظات ابلا مدينة مستقلة تحكمها سلالة محلية ، الا أنها كانت تميل الى ابلا . وتذكر النصوص ارساليات عديدة من الانسجة والذهب والفضة الى حاكم حران والشيوخ ، وأحيانا الى بعض الموظفين ، بالاضافة الى البدالوم . كذلك كانت ملكة حران تتلقى هدايا ثمينة من أبلا وبخاصة في زياراتها لهذه المدينة(٥٦) . ومن المدن الاخرى التي وجد فيها بدالوم مدينة تدعى Sanapzugum (٥٧) وكانت ترسل اليه والى شيوخها أنسجة من ابلا(٥٨) . وكذلك يظهر بدالوم من اريتوم(٥٩) ومن أورسئوم(٦٠) وترسل لهما أنسجة ابلوية .

يتضح مما تقدم ان الابلويين ، على الرغم من أنهم عرفوا التسمية السومرية الشائعة للتاجر (دم ــ جر) ، استخدموا تسميتهم الخاصة بهم وهي لو ــ كار التي كانت تشير غالبا الى التجارة القريبة نسبيا . أما غا ــ راش وماخو فهما تسميتان للتجارة البعيدة تصديرا واستيرادا(٦١) . ويبدو أن عدد التجار الابلويين كان قليلا اذ لا يظهرون الا نادرا في النصوص(٦٢) .

وكدليل على اهمية التجارة عقدت ابلا معاهدة أساسها الرغبة في اقامة حركة منظمة لا يعكرها شيء للتجارة والسعاة مع مدينة أثارت قراءة اسمها جدلا كبيرا بين المختصين . فقال بيتناتو أول من ترجمها انها معاهدة بين ملك ابلا وملك آشور A-sur لتنظيم العلاقات بينهما وبخاصة التجارية(٦٣) ولكن سولبرجر Sollberger قام بنشر

النص (TM. 75. G. 2420) والتعليق عليه ولم يقبل بهذه القراءة (آشور)(٦٤) وقرأ الاسم مؤقتاً كما يلي a-bar-sal (ki) ، قائلاً ان آشور كتبت بالاشارات (as-LAL - RIN) في القائمة الجغرافية المكتشفة في ابو صلابيخ (OIP 99, P. 71 ff) وهي الاشارات المستخدمة عادة لكتابة آشور . وللبرهنة على رأيه قال ان إتّاداجان في رسالته الى ملك ابلا يذكر إبلول إل كملك لماري وأبارسال . وقد ترك إبلول إل هذا كتابات . فاذا كان فعلا ملك آشور أفلم يكن من الطبيعي أن يذكر ذلك . ورأى أن أبارسال كانت مدينة تقع بالقرب من ابلا(٦٥) . كذلك عدّ سولبرجر الكلمة التي رأى فيها بيتناتو اسما لاحد ملوك آشور (Tudia) صيغة فعلية سومرية(٦٦) .

كتب النص على لوح ذي أبعاد كبيرة نسبيا (٣٠ر٢٣ × ٢١ سم) في ٦٢٣ سطرا موزعة على ٣١ عمودا ، ويمكن تقسيمه الى ثلاثة أقسام رئيسة هي : المقدمة وبنود المعاهدة والخاتمة .

تعدد المقدمة (الاسطر ١ — ١١١) المدن والبلدان التابعة لملك ابلا ، ومن بينها كركميش (المدن الاخرى غير معروفة حتى الان) ، وتذكر أن رجال هذه المدن والبلدان تابعين لملك ابلا . أما البلدان التابعة لملك أبارسال (أو آشور) فتذكر أسباب غير معروفة ، بعبارة عامة دون ايراد أية تفاصيل . ويمكن ان نستنتج من ذلك أن تلك المملكة كانت صغيرة والبلدان التابعة لها قليلة . ويبدو أن الغرض من ذكر المدن والبلدان هو اثبات الحق القانوني على الاشخاص سواء كانوا ابلويين أو آشوريين في هذه المدن بحيث يكون كل واحد منهم مسؤول عن أعماله في بلده الاصلي(٧٦) . بعد هذه المقدمة تأتي بنود المعاهدة في ١٨ بندا (الاسطر ١١٢—٦٠٧) تبدأ أحيانا بعبارة سوما su - ma أو سوما لو su - ma lù (اذا انسان ، رجل) . وهي عبارة مألوفة في القوانين السومرية والاكادية ، وتعالج في معظمها قضايا تجارية تتعلق بانتقال التجار والسعاة ، والواجبات المفروضة عليهم تجاه ملك ابلا وملك ابارسال (أو آشور) . ونظرا لصعوبة النص واختلاف وجهات نظر المفسرين لا يمكن اعطاء صورة واضحة عن محتوى البنود المختلفة .

يرى بيتناتو أن المعاهدة تتحدث عن ايجاد مركز تجاري فيه مصلحة لكل من ملكي ابلا وآشور ، وعن المكوس المفروضة على استخدام هذا المركز وكيفية التعامل مع السعاة ، ومشكلة العبيد والاجراءات القضائية عند الطرفين ، وحتى مع حالات العنف التي قد تحدث في مثل هذا المركز . فمثلا « يدفع الرجل الاشوري مكسا الى ابلا ، ويدفع الرجل الاشوري مكسا الى آشور . ويدفع الرجل الابلوي مكسا الى آشور . ويدفع الرجل الابلوي مكسا الى ابلا » . يتضح من ذلك ان التجار الذين يريدون استخدام المركز التجاري الجديد كانوا ملزمين بدفع ضرائب مزدوجة ، الى

مدينتهم الام والمدينة الثانية . ويتبين من ذلك أن المدينتين كانتا على مستوى واحد من المعاملة . وتذكر المعاهدة (حسب بيتناتو) أن ملك ابلا طلب من ملك آشور أخذ بعض الواجبات الهامة على عاتقه ، مثل ضمان وتسهيل التجارة الابلوية في المناطق البعيدة عن الوطن الام . من هنا ادخال فقرات يتعهد فيها ملك آشور باجازة اقامة التجار الابلويين في آشور وضمان الطعام والمأوى لهم ، والا يحتجزهم أكثر من الوقت المحدد ، والا يستخدمهم لخدمة أغراضه الخاصة . وان نشوء اضطرابات سوف يؤدي الى الغاء المعاهدة وبالتالي الغاء التجارة الاشورية في كل المناطق التابعة لابلا . بالمقابل تتعهد ابلا بتحرير عبيد آشور الذين يشتريهم تجار ابلويون ، وتضمن لملك آشور ممارسة القضاء على رعاياه(٦٨) .

ويرى سولبرجر ان بعض البنود تتحدث عن تجارة مائية بين ابلا وأبارسال . وعن وجود موانيء نهرية وسفن كبيرة ، وعن جزية سنوية رمزية (ثوروكيش) تدفعها ابارسال الى ابلا ، بحيث يبدو الامر وكأنه احتكار للتجارة المائية وتثبيت حقوق قطعية على تلك التجارة مع أبارسال(٦٩) .

أما الخاتمة (الاسطر ٦٠٨ ــ ٦٢٣) فهي عبارة عن لعنات على من يخرق المعاهدة ، وذكر لاسماء الالهة أدد وأوتو والالهة الاخرى كلها كشهود . ولا تذكر المعاهدة أسماء ملوك المدينتين المعنيتين . وهذا يدعو الى القول انها لم تكن بين ملكين بل بين مملكتين(٧٠) . وقد أيد البعض بيتينانو في رأيه بأن المدينة هي آشور واستشهد بأمثلة عن معاهدات بين ملوك ممالك الشرق الادنى القديم(٧١) . ووقف البعض الاخر على الحياد (٧٢) .

أما فون زودن Von Soden عالم الاكاديات المعروف فيرى أنه على الرغم من ان الكتابة لا تسمح بقراءة صحيحة للاسم توجد بعض الملاحظات ، منها ان الاسماء المذكورة من هذه المدينة ليست آشورية ، وان الاشارة الثانية من اسم المدينة تقرأ sal (4) ، وبالتالي يقرأ الاسم A-sal (4) . بذلك تصبح لدينا قراءة جديدة للاسم (A-sa-al/lu) . وهي مدينة تقع شمال منطقة الخابور ، ويذكر إبلول إل في رسالة اناداجان ملكا لها بالاضافة الى ماري . وقد استقلت فيما بعد عن ماري وتوسعت نحو الغرب حتى جاء ملك ابلا وقيدها بالمعاهدة المذكورة. وبعد نحو ستمائة عام من ذلك التاريخ تظهر Asal بشكل متفرق في رسائل من ماري ومن كرانا(٧٣) . على أي حال تبقى المعاهدة شاهدا بارزا على قوة تجارة ابلا وامتدادها نحو الشرق . ويرد في المعاهدة ذكر للتجارة المائية (الاسطر ٣٧٨-٤١٧) ويترجمها سولبرجو كما يلي:

« ابلا سوف تمارس تجارة مائية مع ابارسال ، ابارسال يجب الا تمارس تجارة مائية مع ابلا . ابارسال ، ميناء نهري وسفن كبيرة ... (أبارسال) استلمت ...

لماذا يعود ناظر ميناء (لو ــ كار) ابلا الى أبارسال ؟ لماذا يعود ناظر ميناء أبارســال الى ابــلا(٧٤) ؟ » .

نلاحظ ان كلمة لو ــ كار ترجمت هنا harbour-master وترجمها سولبرجر في ARET VIII P. 62 ناظر ميناء أو مراقب harbour-master or market-supervisor سوق . الا ان ترجمتها « تاجر » هي الاصح على ما يبدو . على أية حال تدل الفقرات السابقة من المعاهدة على وجود تجارة مائية مشتركة بين ابلا وأبارسال (أو آشور) . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا مرة أخرى : أين كانت تقع أبارســال ؟ هل كانت تقع على الفرات (أو بجانبه) بالقرب من ماري ، أو على أحد روافــده ، وذلك بســبب ذكرها في رسالة اناداجان(٧٥) ؟ أو أن هناك ميناء مشتركا تستخدمه المملكتان لاغراضها التجارية ؟ ونحن نعرف من الالف الثاني قبل الميلاد أن ايمار كانت ميناء مملكة يمحاض على الفرات . لذلك لا نستبعد وجود مثل هذا الميناء من الالف الثالث ، خاصة ولدينا شواهد اخرى من ابلا عن السفن والتجارة. فالنص ARET II 29 يتحدث عن صفقات مختلفة يشترك فيه اناس عدة وتذكر فيه مدن بعضها معروف مثل حــران وتوتول وماري ، وترد فيه الفقرة التالية :

١ مينة فضة ، سعر شراء سفينة واحدة VIII 11-12 .

٤ شيقيل دلمونــي فضــة ، صارى ، رجل في ....، سفينة نــوع أول ،.... ماري IX 1-6 .

وتدل عملية الشراء هذه على اهتمام ابلا بالتجارة والمواصلات المائية التي يبدو انها تتم عن طريق ماري او اي ميناء آخر باتجاه جنوب بلاد الرافدين(٧٦). خاصة اذا علمنا أن ابلا كانت ترتبط بعلاقات قوية مع بعض المدن هناك مثل كيش .

كذلك يدل ذكر الشيقيل الدلموني كثيرا في نصوص ابلا على قيام علاقات قويــة بين ابلا ودلمــون(٧٧) . وبالطبع كانت تلك العلاقات تتم بواسطة الطرق المائية .

هناك نص يذكر اعطاء ثوبــين الى مــلاح (ma-lah) من مدينــة تدعى نــيرار ni-ra-ar (ki)(٧٨) . يبدو ان هذه المدينة كانت تقــع بالقرب مــن سواحــل البحر المتوسط وكانت لها علاقات مع ابلا . فالنص ARET VIII 533 (18) يذكر انسجة الى ملك نيرار . ويذكر نصان آخران انسجة الى مغني نيرار(٧٩) .

ويوجد نص آخر (ARET V 6) يعــد أطول نص أدبي بلغــة سامية من الالف الثالث قبل الميلاد ، هو ترنيمة مخصصة لاله الشمس،ويذكر فيها انليل وانكي وسين، ويبدو أن موضوعها كان التجارة والتجارة المائية بشكل خاص . فهي تتكلم عن تجــار

(راش : غا RAS : GA) وسفن الحمولة (ما . غور (8) MA. GUR)والذهب والفضة والنحاس واللازورد والاخشاب والانسجة والعطور والخمور ، وترد فيها تسميات جغرافية مثل : بلاد ، جبال ، ما وراء البحر وشاطيء البحر وغابة الارز . وقد تبين ان هناك نسخة من هذهالترنيمة بين نصوص ابو صلابيخ (OIP 99, 91, 326) قال عنها بيغز Biggs انها ربما لم تكتب في أبو صلابيخ ، بل أتت من مكان آخر ، قد يكون كيش أو ابلا(٨٠) . يتضح مما تقدم اهتمام ابلا بالتجارة المائية .

العلاقات التجارية : آ ـ مع مصر : عثر المنقبون عام ١٩٧٧ تحت أرضية القاعة الداخلية من القسم الاداري في القصر الملكي G في ابلا على ثلاث لقى ذات أهمية غير عادية ، هي قطعتان من الديوريت وغطاء مدور من الالباستر ، تحمل أسماء حاكمين مصريين من المملكة القديمة . وتحمل القطعتان كتابة منقوشة «للالقاب الكبيرة» لخفرع أحد فراعنة الاسرة الرابعة وباني الهرم الثاني (نحو ٢٥١٠ ـ ٢٤٨٥ ق.م) .

أما القطعة الثالثة فنقشت عليها أسماء بيبي الاول (نحو ٢٢٦٨ـ٢٢٢٨ق.م) الفرعون الثالث من الاسرة السادسة . وقد وجدت مع هذه اللقى كسرات اخرى من الديوريت والالباستر تعود بالتأكيد الى أواني مصرية المنشأ . ويبدو أن هذه الاواني كانت لها أشكال مختلفة واستخدمت كمصابيح للاضاءة أو لحفظ الزيوت العطرية. وهناك مشابهات كثيرة لهذه الاواني من القبور الملكية المصرية(٨١). ووجود مثل هذه الاواني التي تعود الى عهدي الاسرة الرابعة (نحو ٢٥٧٠ ـ ٢٤٥٠ ق.م) والسادسة (نحو ٢٢٩٠ ـ ٢١٣٥ ق.م) برهان أكيد على العلاقات بين ابلا والبلاط المصري.

وعثر أيضا في موسمي ٧٨ ـ ١٩٧٩ في قبور تحت القصر الملكي Q الذي يعود الى العصر البرونزي المتوسط ٢ (١٨٠٠ ـ ١٦٥٠ ق.م) على أواني ومصنوعات يدوية مصرية ، بعضها من الالباستر ، بينها مقبض عصا من العظم والمعادن الثمينة يحمل اسم الفرعون Hotepibra من السلالة الثالثة عشرة(٨٢) . وهذا يدل على استمرار العلاقات بين ابلا ومصر بعد أن فقدت ابلا قوتها السياسية وتحولت الى مدينة تابعة لقوة جديدة في المنطقة .

والسؤال هنا : كيف كانت تصل هذه الاواني الى ابلا ؟

بالنسبة للعصر البرونزي الوسيط يمكن القول ، بناء على وجود أدوات مصرية من هذه الفترة في أماكن عديدة من سورية ، أن هذه الادوات كانت هدايا الفرعون المصري الى حكام تلك المناطق ، أو ربما كانت هناك تجارة مباشرة بين مصر والمدن التي وجدت فيها تلك الادوات(٨٣) . أما بالنسبة لعصر المحفوظات الملكية فيرى كلينغل أنه يمكن القول بشيء من التأكيد ان تجارة مصر مع سورية كانت تتم عن طريق البحر ،

وبشكل أساسي عن طريق جبيل ، علما بأنه يرى أن ذكر جبيل في نصوص ابلا لايزال موضع شك(٨٤) . ويعتقد دياكونوف أن ابلا تاجرت مع مصر بشكل غير مباشر ، وربما عن طريق احدى مدن سورية الداخلية مثل تونيب أو قطنة او حماة التي كانت تراقب المرور الى فينيقية عبر جبال لبنان(٨٥) .

ولكن بما أن أوجاريت ذكرت مرارا في نصوص ابلا فيمكن القول ان الاتصالات بين ابلا ووادي النيل كانت تتم عن طريقها ، فيأتيها التجار المصريون حاملي بضائعهم المختلفة ويعودون ومعهم اللازورد والعقيق والاخشاب وغير ذلك مما تحتاجه بلادهم من الموجود في ابلا .

ب ـ مع ماري : يوجد الكثير من النصوص الابلوية تذكر اعطاء انسجة الى العديد من تجار ماري والى أشخاص آخرين من تلك المدينة نوردها فيما يلي:

(66)	1	I	ARET	: انسجة الى تجار (4) kas (4) lú-kas ذهبوا الى ماري :
(23)	2	»	»	: ٣٠ شيقيل فضة هدية Ennanil (من) ماري .
(79)	5	»	»	: العديد من الانسجة الى مغنين صغار من ماري.
(85)	5	»	»	: أنسجة الى لوكار ماري .
(89)	5	»	»	: أنسجة الى Andu لوكار ماري.
(90)	5	»	»	: انسجة الى ku-ku لوكار ماري .
(31)	7	»	»	: انسجة الى مغنين من ماري في ابلا .
(46)	7	»	»	: انسجة الى A-zi لوكار ماري .
(52)	7	»	»	: انسجة الى A-mu-du لوكار ماري .
(57)	7	»	»	: انسجة الى A-mu-du لوكار ماري .
(64)	7	»	»	: انسجة الى اولاد خيدار Hi-da-ar ماري وشيوخها(٨٦) .
(95)	8	»	»	: انسجة الى A-nam لوكار ماري .
(17)	11	»	»	: انسجة الى (ملك) ماري .
VI	137	III	»	: انسجة الى ماري .

V.V	236	III	ARET :	I-ku-ni لوكار ماري .
III	329	III	» :	ثلاث انسجة الى حداد ماري (simug Ma-ri (ki)).
III	940	III	» :	اداني A-da-ni لوكار ماري.
(30)	1	IV	» :	يذكر أنواعا مختلفة من الانسجة بأعداد كبيرة : ٦٠ ، ٨٠ ، ٢٠٧ ، ١٠٠ ، ٢٤٧ ، الى لوكار ماري المقيم في دونيتوم .
(43)	1	IV	ARET :	انسجة الى A-ba 4 -KUR. (kI) لوكار ماري .
(60.63)	»	»	» :	انسجة الى أشخاص من ماري في مدينة A-ru 12-ga-du(ki).
(61)	»	»	» :	انسجة الى شخص من ماري في مدينة DU-U9 (ki) .
(12)	2	»	» :	١٧ ثوبا نسائيا الى لوكار ماري بيد شخص (من أوفي) sa-za(ki) . علما ان تعبير su-ra المذكور في هذا النص يشير الى عملية تجارية .
(14)	2	IV	ARET :	ù-da-ah لوكار ماري .
(22)	»	»	» :	انسجة الى اخارشي A-ha-ar-sé لوكار ماري .
(26)	»	»	» :	انسجة الى أمودو A-mu-du لوكار ماري .
(27)	»	»	» :	انسجة الى أمار Amar لوكار ماري.
(35)	»	»	» :	انسجة الى I-ga-la-um لوكار ماري .
(40)	»	»	» :	انسجة الى زوزوم zu-zu-um لوكار ماري .
(41)	»	»	» :	انسجة الى أمودو A-mu-du لوكار ماري .
(44)	»	»	» :	انسجة الى إثاني Enn-NI لوكار ماري .
(47)	»	»	» :	انسجة الى سامو Sámu لوكار ماري .
(49)	»	»	» :	انسجة الى بوشو Bùsu لوكار ماري .
(54)	»	»	» :	انسجة الى Ilum-NI-zi-lu لوكار ماري .
(51)	17	»	» :	انسجة الى Iku ilum لوكار ماري .

(9)	21	»	»	: مائة نسيج الى خيدار ماري .
(15)	9	VII	»	: ١٧ مينة فضة مرسلة مع شخصين في رحلة من ماري .
(25)	9	»	»	: ١٠ مينة فضة مرسلة من ماري مع شخصين لثماني رحلات .
(26)	9	VII	»	: ١٨ مينة فضة مرسلة من ماري مع ثلاثة أشخاص لتسع رحلات .
(32)	9	»	»	: يسجل مجموع ٥ر٣٠٤ مينة فضة و ١٩ مينة ذهبا من لوغال ماري .
(1)	13	»	»	: ٥ر١٧ مينة فضة سعر سبعة أثواب و ٥ر١٦مينة لازورد و ٥٤ شيقل دلوني عقيق و ١٠ شيقيل دلوني احجار من Iti من ماري.
(5)	13	»	»	: ٥ر١٦ مينة فضة سعر انسجة و ٣ مينة و ٨ شيقيل دلوني لازورد من Iti من ماري .

رأينا سابقا أن إتي هذا يظهر في أحد النصوص (الهامش ١٧) كتاجر من ماري. ويبدو أنه كان يشتري أنسجة من ابلا ويزودها باللازورد والاحجار الكريمة الاخرى.

14. r.I 1-3		VII	ARET	: تلقى لوكار ماري ثمانمائة جوبار شعير .
15 (1) r.I 4-6		»	»	: Arrusum لوكار ماري
(2) r.III 1-2	»	»	»	: لوكار ماري
(3) III 7-9	»	»	»	: Dubuhu-Malikلوكار ماري
(4) IV 9-10	»	»	»	: لوكار ماري
77 (12)		»	»	: مينة واحدة وعشرون شيقيل دلوني فضة سعر شراء ٤٠٠ مينة nig-nE (مادة) من ماري.
77 (16)		»	»	: ٢٠ شيقيل دلوني فضة سعر شراء ٩ انسجة مارية (أو من ماري) .
521 (13)		VIII	»	: انسجة الى عدة اشخاص بينهم لوكار ماري:
522 (19)		»	»	: ثلاثة انسجة مختلفة الى Pudagan لوكار ماري.
522 (21)		»	»	: ٤٧٠ لباس صوفي لاربعمائة وسبعين شخصا (na-se (11) (مقيمين مع) لوكار ماري المقيم في دونيتوم .

(26)	523	«	«	: انسجة الى مدينة Ununi (ki) أودعت بيد إشماني Is-ma-ni لوكار ماري .
(31)	«	«	«	: انسجة الى لوغال ماري.
(35)	«	«	«	: ٤٦ ثوبا الى اثنين من المغنين الكبار nar-mah من ماري .
(37)	«	«	«	: ٤٢ ثوبا الى ٢١ مغنيا من ماري .
(14)	524	«	«	: ثلاثة أنواع من الانسجة من كل نوع ثلاثون الى لوكار ماري المقيم في دو نيتوم .
(21)	524	«	«	: انسجة الى ثلاثة اشخاص من ماري.
(16)	525	VIII	ARET	: ثلاثة البسة مختلفة الى شار Sara لوكار ماري
(41)	525	«	«	: انسجة الى Ursag لوكار ماري .
(35)	527	«	«	: انسجة الى اشبو espu لوكار ماري .
(34)	529	«	«	: انسجة الى عدة اشخاص بينهم لوكار ماري.
(36)	531	«	«	: انسجة الى اشخاص بينهم لوكار ماري.
(49)	«	«	«	: انسجة الى مغنٍ كبير والى مغنٍ صغير من ماري.
(10)	532	«	«	: انسجة الى Gullisum لوكار ماري .
(20)	«	«	«	: انسجة الى اشخاص بينهم داشي Dase لوكار ماري .
(34)	«	«	«	: انسجة الى اشخاص بينهم Ile لوكار ماري.
(16)	542	«	«	: انسجة الى عدة اشخاص بينهم لوكار ماري.
(19)	«	«	«	: انسجة الى لوكار ماري .

يتضح مما تقدم وجود علاقات تجارية قوية بين ابلا وماري . ويمكن الاستنتاج من خلال ذكر عدد كبير من تجار ماري في نصوص ابلا ان تجار ماري كان لهم دورهم البارز في تجارة ابلا .

ج ـ مع ايمار : تتخذ العلاقات مع ايمار طابعا رسميا فمعظم الارساليات من الانسجة مخصصة لملك ايمار وشيوخها . فيما يلي نورد النصوص التي تتحدث عن ذلك :

(4) 1 I ARET : انسجة الى ملك (en) ايمار وشيوخها .

(57) » » » : ثوب واحد وفضة وقلادتان الى تيشاليم Tisalim ملكة ايمار .

(64) » » » : انسجة الى ايمار والى تيشاليم الملكة .

(76) » » » : انسجة الى شخص من ايمار .

(4) 2 » » : انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .

(4) 3 » » : انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .

(3) 4 » » : انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .

(5) 5 » » : انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .

(4) 6 » » : انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .

(5) 7 » » : انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .

(19) 8 » » : انسجة الى ملك ايمار وشيوخها ومغنيها .

(42) 8 » » : انسجة الى ملك ايمار

(4) 9 I ARET : انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .

(6) 10 » » : انسجة الى ملك ايمار .

(12) » » » : انسجة الى ايمار .

(26) » » » : انسجة الى ايمار .

(59) » » » : انسجة الى ايمار .

(20) 15 » » : انسجة الى تيشاليم ملكة ايمار .

3 I 63 III » : انسجة الى ملك ايمار .

II 326 » » : ٢٠ شيقيل دلوني ذهب وقلادتان هدية الى Tibur - Lim ملكة ايمار .

(33) 6 IV ARET : انسجة الى ملك ايمار .

(15) (10) 9 » » : انسجة الى ايمار .

(91) 18 » » : انسجة الى شخص من ايمار .

(22) 19 » » : انسجة الى ملك ايمار .

(12)	20	»	»	: أنسجة الى ايمار .
(11)	23	»	»	: أنسجة الى شخص من ايمار .
(44)	»	»	»	: أنسجة الى شخص من ايمار .
(1)	24	»	»	: أنسجة الى ملك ايمار .
(4)	521	VIII	ARET	: انسجة الى شخص من ايمار .
(11)	522	»	»	: أنسجة الى شخص من ايمار .
(14)	524	»	»	: أنسجة الى شخص من ايمار .
(41)	»	»	»	: أنسجة الى ملكايماروملك مدينة Ibutum (ki) .
(39)	529	»	»	: أنسجة الى ثلاثة ملوك مدن بينهم ملك ايمار .
(47)	»	»	»	: أنسجة الى ملك ايمار .
(42)	533	»	»	: أنسجة الى أشخاص من عدة مدن بينهم شخصان من ايمار لكل منهما ثلاثة انسجة مختلفة .
(32)	540	»	»	: أنسجة الى ملك ايمار وابنه .
(33)	»	»	»	: انسجة الى شيوخ أيمار وملكة ايمار وابنتيها .
(48)	»	»	»	: أنسجة الى ابن ملك ايمار .
(78)	541	»	»	: أنسجة الى ملك ايمار وشيوخها .

جـ ـ مع اورسئوم Ursaum : يعتقد ان اورسئوم هي نفسها أورشوم التي يرد ذكرها في نصوص ماري وفي النصوص الاكادية . ولكن موقعها غير معروف حتى الان، والعلاقات بينها وبين ابلا كعلاقات هذه مع ايمار ، فمعظم الانسجة المرسلة الى هناك مخصصةللملك والشيوخ وفي حالات قليلة لبعض الاشخاص كما يتضح من نصوص كثيرة(٨٧) .

د ـ مع حرّان : وهي لا تختلف عن علاقات ابلا السابقة الا بفارق بسيط هو ان الانسجة المرسلة موجهة الى بدالوم حران وشيوخها وليس الى ملكها الا في حالات قليلة جدا (٨٨) . وهذا يدل على المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها هذا الموظفالكبير.

هـ ـ مع كيش : على الرغم من البعد الكبير الذي يفصل بين ابلا وكيش كانت العلاقات بينهما قوية في عدة مجالات وبخاصة في المجال التجاري . فالعديد من

وثائق ابلا يرد فيها ذكر كيش او ذكر بضائع مرسلة اليها أو اشخاص منها أو مسافرين اليها أو تجار . ويتبين من تلك الوثائق أن المنسوجات هي التي كانت ترسل غالبا الى كيش سواء الى الملك وعائلته كهدايا أو الى اشخاص اخرين .

وكانت الادارة الابلوية تزود رسلها الى كيش بالفضة بكميات مختلفة لاغراض محددة . فهناك نص يذكر ٨ مينة (نحو ٧٦ر٣كغ) أعطيت الى قافلة ذهبت الى كيش. ويذكر نص ثان اعطاء خمسة شيقيل فضة الى شخص يدعى Ennai كمخصصات للسفر(٨٩) . ويتحدث نص ثالث عن تاجر ذهب الى كيش في مهمة لشراء ثياب ، ولكنها لم تذكر كمية الفضة التي كانت بحوزته. وكذلك كان الذهب يرسل على شكل سبائك الى شخصيات هامة في كيش . فأحد النصوص يذكر ارسال سبيكة واحدة وزنها ٤٠ شيقيل (٣١٣غ) الى ملك كيش ، وست سبائك وزن كل واحدة ١٦ شيقيل (نحو ٧٢٥غ) الى الشيوخ، وست سبائك وزن الواحدة .١شيقيل (نحو ٤٧٠غ) الى المغنين . وتذكر في نص ثان كميات اخرى ارسلت الى الملك والشيوخ والمغنين(٩٠). ويتحدث نص ثالث عن ارسال أنسجة وسبيكة وزنها ٤٧ شيقيل ذهب الى ملك كيش(٩١) . ونقرا في نص رابع ما يلي:

٩ انسجة (ثلاثة من كل نوع) ومينة واحدة ذهب و٢ شيقيل وسبيكة و ٥٠ (شيقيل) ذهب وسبيكة و ٤٥ شيقيل ذهب وسبيكة هدية الى ملك كيش وابنه بعهده inamalik رجل إبريوم (٩٢) .

ويرد في نص خامس ذكر لتاجر من كيش (٩٣) . كما توجد نصوص اخرى تتحدث عن ارسال انسجة الى كيش(٩٤) ، أو عن تخصيص فضة لرحلات الى كيش(٩٥) .

و ـ مع دلون : يذكر الشيقيل الدلوني بكثرة في نصوص ابلا ، مما يدل على استخدامها الاوزان الدلونية . ولما كانت دلون ترتبط بعلاقات تجارية قوية مع ممالك جنوب بلاد الرافدين في عصر السلالات الباكرة وبخاصة في تجارة المعادن، فيمكن القول أن علاقات دلون التجارية امتدت لتصل ابلا في النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد . وكانت الاتصالات تتم بشكل غير مباشر عن طريق مدن بلاد الرافدين وبخاصة تلك الواقعة على نهر الفرات(٩٦) .

ز ـ العلاقات مع المدن والمناطق الاخرى : تذكر نصوص ابلا اسماء العديد من المدن والمناطق التي كانت ترتبط مع ابلا بعلاقات تجارية وغيرها مثل اريتوم Iritum وحماه وامورو وكركميش ومورار وجاسور وككميوم Kakmium ومنوات Manuwat وادابيغ Adahig وارمي وغيرها .

لكن طبيعة المعلومات المتوافرة لا تسمح باعطاء صورة اضحة عن تلك العلاقات ، كما ان مواقع العديد من المدن المذكورة غير معروف حتى الان .

1.Pinnock,F.,"About the trade of early syrian Ebla", in:M.A.R.I. 4(1985)p.90ff;Klengel,H.,"Ebla im Fernhandel des 3.Jahrtausends ",in:WGE, p.246.

2.Klengel,H.,Ebla im Fernhandel, p.247 ff.

3.Pinnock,F.,"Trade at Ebla",in:Bulletin:The society for Mesopotamian Studies 7(1984) p.22.

4.Ibid,p.23.

5.Biga,M.G.,"Tre testi amministrativi da Ebla",in: SEb IV(1981) p.30 ff.

6.pinnock,Trade at Ebla,p.23.

7.Ibid,p.24.

8.Archi,A.,"The Archives of Ebla",in:Veenhof(ed.), Cuneiform Archives and Libraries 1986,p.75.

9.Archi,A.,"Reflections on the system of Weights from Ebla",in:Eblaitica I(1987) p.47ff

10.Archi,A.,The Archives of Ebla,p.76.

11.Pettinato,G.,"Les Relations entre les royaumes d'Ebla et de Mari au troisième millénaire d'aprés les Archives royales de Tell Mardikh-Ebla" in: Akkadica 2(1977) p.27;The Archives of Ebla,an empire inscribed in clay,Garden City-New York, 1981,p.102,166.

12.Archi,A.,in:SEb IV,p.132-134.

13. Archi,A.,"Wovon lebte man in Ebla",in:AFO,Beiheft 19(1982),p.179-181;Pettinato,G.,Ebla Nuovi orizzonti della storia,Milano 1986,p.406ff.

14. Archi,A.,"Prices,workers-wages and maintenance at Ebla",in:AOF,15(1988),p.24.

15. Lexicon der Ägyptologie II,p.725ff

16. Pinnock,Trade at Ebla,p.25;"Einige Erwägungen zum Handel von Ebla",in:Altertum 31(1985),p.135; "Observations on the trade of lapislazuli in the IIIrd Millennium B.C",in:WGE,p.107ff.

17. ARET III 635 v.I:šu-ba-ak 1 ma-na 20 gín:za aš-ti raš:ga Mari(ki) 10 gín D.bar 6:ku nig-ba Ur-na Mari(ki).

مبادلة مينة واحدة و ٢٠ (شيقيل) لازورد من إتي تاجر مارى

(مقابل) ١٠ شيقيل دلموني فضة هدية أونا (من) ماري.

18. ARET VIII 528(3).

19. ARET VIII 528(15).

20. ARET VIII 528(19).

21. ARET VIII 528(2).

22. Pettinato,G.,The Archives of Ebla,p.168ff.

23. MEE 2,17,r.VIII 1-6.

24. Waetzoldt,H., Zur Terminologie der Metalle in den Texten aus Ebla ,in:Cagni(ed.),La Lingua di Ebla, p.364.

25. Ibid,p.365.

26. Ibid.

27. MEE 2, no.1: r.I,3,5.

28. Waetzoldt, H., Zur Terminologie ,p.366;MEE 4:78: r.III 6-7: urudu kà-pá-lum نحاس قبرص

29. لسان العرب ، م٦ ،ص١٦٨ ، معجم البلدان ،م٤ ، ص ٣٠٥

30. يشير النص (١) AREP VII 141 الى " قصدير دلموني كبيـر " و "قصدير دلموني صغير" لكن دلمون (البحرين) لم يكن فيها مناجم للقصدير. والتفسير المعقول لذلك هو أن دلمون كان لها دور هام كمحطة تجارية ، تستورد الكثير من البضائع وتعيد تصديرها الى بلدان أخرى . وكانت علاقاتها مع ابلا قوية ،بدليل استخدام الشيقيل الدلموني في ابلا. ولكن من أين كانت دلمون تحصل على القصدير ..؟ ربما كان يصلها عن طريق البحر من أفغانستان أو غيرها ... قارن :
Stech,T.,Pigott,V."The metal trade in southwest Asia inthe third millennium B.C.",in:Iraq 48(1986), p.39ff.

31. Pinnock,Trade at Ebla,p.26;Einige Erwägungen,p.136.

32. Pinnock, Trade at Ebla, p.27.

والنص (44) ARET VIII 534 يذكر ٥ مينة و ٤٢ شيقيل فضة ثمن شراء ٥٠٠ وحدة وزن صوف من ماري

33. ARET VIII 533 (62):

na-gár(ki) صوف نجر (وحدة وزن) na (4) 28

na-gár(ki) صوف نجر (وحدة وزن) na (4) 235

ARET VIII 533 (65): صوف نجر na(4)102.

صوف نجر na(4) 40.

صوف نجر na(4) 60.

34. هناك مدينة تحمل الاسم نفسه تظهر في نصوص ماري، ربما كانت شمال سجاراتوم Sagarātum على الخابور . أنظر :

RGTCI (1977), p125; III(1980), p.175.

35. ARET, VIII 542(22).

36. Archi, Wovon lebte man in Ebla, p.186.

37. Pettinato, "Il commercio internazionale di EBLA: Economia statale e private", in: OLA 5(1979), p.171ff 184ff.

38. Waetzoldt, "Diplomaten, Boten, Kaufleute und Verwandtes in Ebla", in: Cagni(ed.), Il Biblinguismo a Ebla, p.410.

39. Pinnock, Trade at Ebla, p.29; Einige Erwägungen, p.139.

40. أنظر العلاقات مع ماري

41. يذكر النص ARET IV 1(30) أنواعا مختلفة من الانسجة
وبأعداد : ٦٠، ٢٠٧،٨٠، ٢٤٧، ١٠٠ الى لوكار ماري المقيم
في دونيتوم Du-ne-tum(ki)
ARET IV 2(12) ١٧ ثوب نساشي الى لوكار ماري بيد
شخص من (أوفي) sa-za(ki) (مدينة غير معروفة)
ARET VII 14 r.I 1-3: لوكار ماري تلقى ٨٠٠ جوبار شعير
ARET VIII 522(21): ٤٧٠ لباس صوفي لـ ٤٧٠ شخصا
(مقيمين مع) لوكار ماري المقيم في دونيتوم.
ARET VIII 523 (26):Ununi(ki) أنسجة الى مدينة
أودعت بيد Iš-ma-ni لوكار ماري
ARET VIII 524(14): ثلاثة أنواع من الانسجة من كل نوع
ثلاثين الى لوكار ماري المقيم في دونيتوم
ARET VIII 532(48) xix 1-5: أنسجة (عدد مشوه) الى
٣٨٠ شخصا مع لوكار ماري المقيم في دونيتوم

42. أنظر العلاقات مع المدن والمناطق الاخرى

43. Waetzoldt,"Diplomaten,Boten,Kaufleute",p.417.

44. ARET III 467 IV 14ff.

45. Waetzoldt,"Diplomaten...",p.406,418.

46. maḫu Gasur(ki) ١ مينة فضة أعطيت الى ماخو جاسور
٣ مينة و ٤٠ شيقيل أعطيت الى ماخو جاسور (من أجل) ٦ رحلات.
Pettinato,G.,Gasur,p.299. (جاسور اسم نوزي القديم)

47. ARET III 193 v.7ff

48. Waetzoldt,"Diplomaten...",p.419.

49. Ibid,p.420.

50. Ibid,p.421.

51. Pettinato,The Archives of Ebla,p.114.

52. Waetzoldt,"Diplomaten...",p.422ff.

53. Ibid,p.423ff.

54. Ibid,424ff;Lipinski,E."šu-bala-aka and badalum, in:WGE,p.258ff;Archi,"Ḫarran in the IIIed MILlennium B.C",in:UF 20(1988),p.2.

55. أنظر العلاقات مع حران.

56. Archi,"Ḫarran",P.1ff.

57. ربما كانت تقع شرق غوزانا (رأس العين) التي تبعد نحو ٩٠ كم الى الشرق من حران.
Archi,"Harran",P.1.

58. ARET I 3(16);4(13);5(15);6(15);7(15);8(30).

59. ARET II 14(17);III(898) II;IV I(107);13(20); 16(16,17).

60. ARET I 8(7);10(40);III 247 II;IV 18(76).

61. Waetzoldt,"Diplomaten",p.425,437.

62. ARET III 467 IV:

خيموتوم Ḫimutum لو- كار ابلا وأبناء ملك خزووان Ḫazuwan(ki)

63. Pettinato, The Archives of Ebla, p.103ff; Ebla Nuovi orizzonti della storia, Milano 1986, p.389ff.

64. Sollberger, E., "The so-called treaty between Ebla and Ashur", in: SEb III(1980), p.129-155.

65. Ibid, p.130; Gelb, "Ebla and the kish civilisation", in: Cagni (ed.), La Lingua di Ebla, p.21,70.

66. Sollberger, Op.Cit., p.131.

قارن Gelb، المرجع السابق ص ١٢ ومايليها

67. Pettinato, The Arfhives of Ebla, p.104.

68. Ibid, أنظر أيضا :

Lambert, W.G., "The Treaty of Ebla", in: Cagni(ed.), Ebla 1975-1985, p.355ff.

69. Sollberger, Op.Cit., p;142; Stieglitz, R., "Notes of riverine-maritime trade at Ebla", in: Raban, A.(ed.) Proceedings of the first international worshop on ancient mediterranean Harbours, Oxford, 1985, p.8.

70. Sollberger, Op.Cit., p.134.

71. Kienast, B., "Der Vertrag Ebla-Assur in rechthistorischer Sicht", in: WGE, p.231-243.

72. Lambert, Op.Cit., p.353-364.

73. Von Soden,W.,"Ebla,die früheste Schriftkultur Syriens,in:WGE,p.327.

74. Sollberger,Op.Cit.,p.142

75. Archi,"The Personal names in the individual cities",in:SLE ,p.232;Stieglitz,Op.Cit.,p.8.

76. Stieglitz,p.7.

77. أنظر العلاقات مع دلمـون

78. ARET VIII 524(32) XV 23-25.

79. ARET VIII 529(4) Vii 9-11;532(22)

80. Biggs,R.D.,"Ebla and Abu Salabikh",in:Cagni(ed.) La Lingua di Ebla, p.127.

81. Mattiae,G.S.,"Vasi inscritti di chefren et Pepi I. nel plazzo reale G di Ebla",in:SEb I(1979),33ff; "Ebla und Aegypten im Alten und Mittleren Reich", in:Antike Welt 13(1982),p.15.

82. Matthiae,"Ebla und Aegypten...",p.16.

83. Ibid,p.17.

84. Klengel,H.,"Ebla im fernhandel des 3.Jahrtausends",in:WGE,p.246ff.

85. Diaknoff,I.M.,"The importance of Ebla for history and linguistics",in:Eblaitica 2(1990),p.12.

86. يرى آركي أن هُيدار هو آخر ملوك ماري معروف من نصوص ابلا وكان معاصرا لابي زكير آخر ملوك ابلا انظر :

Archi,"Les noms des personnes mariotes à Ebla (IIIe millenaire)"in:<u>M.A.R.I.</u> 4(1985),p.47ff.

ولكن ميشالوفسكي يشكك في امكانية كون بعض الحكام الذين رأى فيهم آركي ملوكا لماري في عصر آرشيف ابلا الملكي ومنهم هُيدار ،ويرى أن بعض تلك الاسماء ليست أسماء أعلام . أنظر :

Michalowski,P.,"Third Millennium contacts:opservations on the relationships between Mari and Ebla" in:<u>JAOS</u> 105:2(1985),p.298ff.

87. <u>ARET</u> I 1(9);2(8);3(11);5(10);6(8);7(9);8(7);9(8);10(40);III 247 II,395 II;IV 1(31);1(44),(45),(57);5(41);7(22);8(6);16(20),(34),(36);<u>18</u>(75),(89),(90);20(37);VIII 521(38);522(11);523(8);524(15),(19);525(25);527(3);529(15)Xii 8-10,(37);532(38),(39);541(9,10,31);<u>MEE</u> 2,v.III 3-7.

88. <u>ARET</u> I,1(13);3(15);4(12);5(15);6(14);7(14);8(15);III 63 III 3;367 II;868 I;IV 1(109,110);6(1,37);19(26) VIII 527(19,35);531(15);533(15).

Archi,"More on Ebla and Kiš",in:Eblaitica 1(1987);

90. Ibid,p.126.

91. Archi,"The personal names..",p.229.

92. ARET VIII 540(10).

93. ARET III 76 II-III:zi-mi- NÌ lukar Kiš(ki).

94. ARET III 107v.3;117 III;VIII 540(28).

95. ARET VII 9(6): ٦ مينة فضة من أجلّ ست رحلات الى كيش

96. Stieglitz,R.,"Ebla and Dilmun",in:Eblaitica 2 (1990),p.43ff.

مختصرات أسماء المراجع والمصادر

ARET = Archivi Reali di Ebla-Testi.

AoF = Altorientalische Forschungen.

M.A.R.I. = Mari Annales recherches interdiscilinaires, Paris.

MEE = Materiali epigrafici di Ebla.

OIP = The University of Chicago Orientale Institute Publication.

OLA = Orientalia Lovaniensia Analecta.

RGTC = Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes.

SEb = Studi Eblaiti.

WGE = H. Waetzoldt und H.Hauptmann (edts.),Wirtschaft und Gesellschaft von Ebla,Heidelberg 1988.

تاريخ حلب في بداية الالف الثاني ق.م
من خـلال نصوص ماري

د. جان ماري دوران
جامعة السوربون ـ باريس

تسجل المصادر التاريخية الرافدية الاهميـة العالميـة لمدينـة حلب في الشرق الادنى ، منذ بداية الالف الثاني ق.م . الا أن معلوماتنا عن هذه المدينـة جاءت مـن مصادر غير مباشرة ، وليس من محفوظات محلية كالحواضر السورية الاخرى ، مثل كركميش او قطنة . هذا ، مع اختلاف آخر هو اننا ، في حالة حلب ، غير متأكدين من المكان الذي ترقد فيه المدينة القديمـة ، ولم تأت الحفائـر بمـا يدل عما اذا كانت المدينة قد وجدت قبل أن تشير النصوص الاولى اليها ، كما هي الحال العامة للمدن في الشرق الادنى .

ومما يدعو الى مزيد من الاسف ، الصمت التام في المصادر التي تعود الى الالف الثالث عن حلب . فلا سومر الباكرة ، ولا الامبراطورية الاكادية ، أو أور الثالثة ، تذكر حتى اسمها . وما يدهش أكثـر سكوت نصوص ابـلا في منتصف الالف الثالث عنها ، برغم القرب الجغرافي . وهذا ما يجعلنا أمام نظريتين : أولاهما ان المدينة لـم تكن قد وجدت بعد . والثانية : هي أنه لا يستبعد أن تكون المدينة آنذاك باسم آخر. ومن هنا ظهرت فكرة التفتيش عن حلب تحت اسمي أرمي Armi أو خلمـا halma الذين تذكرهما وثائق ابلا .

أما فيما يتعلق بالالف الثاني ، فلدينا العرض الكلاسيكي ل (هورست كلينجل)، فما دونه من تاريخ حلب يستند الى مصادر من القرن الخامس عشر حتى الثاني عشر، وبخاصة : المصادر الحثية .

مصادر آلالاخ (تل عطشانة ، انطاكية ، سورية) المستوى ع .

مصادر تل العمارنة (مصر) .

مصادر أوجاريت (راس شمرا ، سورية) .

* اعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

الا أن هذه الوثائق ، من جهة اخرى ، قليلة التنوع ، وتعنى بالتاريخ السياسي او الحربي فقط . وتجدر الاشارة الى أن وثائق ايمار (مسكنة الجديدة) لم تأت بجديد عن هذه الفترة ، نظرا لطبيعة نصوصها الخصوصية : فهي محفوظات عائلية خاصة ، او طقسية رافدية ــ سورية . والاشارات السياسية الوحيدة فيها تشير الى كركميش (جرابلس) التي قامت بدور الوسيط لحساب الادارة المركزية في حاتوشا زمن سيطرة الحثيين على شمال سورية . وتقدم لنا مصادر ماري (تل الحريري) في العصر الذي كتب عنه كلينجل عرضه التاريخي ، بعض المعلومات عن القرن الثامن عشر ، ولكنها محدودة نسبيا ، لان الاهتمام بمحفوظات ماري الملكية ، في ذلك الوقت، كان يتركز على نشر وثائق عصر مملكة الرافدين العليا (سمسي أدو وولداه) ، حيث كانت المراكز السياسية تقع في أقصى الشرق : شبات انليل (تل ليلان) في أعلى الجزيرة ، وبخاصة أكالاتوم ، على ضفاف دجلة ، أو محفوظات حكام مركز مملكة ماري التي تتعلق ، قبل كل شيء ، بمناطق اخرى ، دون العاصمة (تل الحريري) مثل ترقا (تل عشارة) او وادي الخابور الادنى .

اذاً ، تعد ماري ، من الان فصاعدا ، مصدرا رئيسا لتاريخ حلب ، أو غرب سورية بعامة . وقد نشر مؤخرا المجلدان (A R M XXVI/1) (XXXVI/3) اللذان يتضمنا رسائل سفراء ماري أو مبعوثيها المتنوعين الى مملكة حلب .

تقدم لنا هذه النصوص لمحات بالغة الاهمية ، ولكنها ، بالطبع لا تحل محل المصادر المباشرة ، وانما تسمح ، من الان فصاعدا ، بانتظار ظهورها بهدوء .

١ ـ تحديد العصر الاموري :

تتعلق نصوص ماري بما اتفق على تسميته « العصر الاموري » ، لقد قدم الاموريون من غربي الشرق الادنى ، كما أن اسمهم يعني « الغربيون » . هؤلاء الساميون ، الذين كانوا بدوا حوالي ٢٠٥٠ق.م ، هم ، دون شك ، المسؤولون الرئيسيون عن سقوط سلالة اور الثالثة ونهاية السيطرة السياسية للحضارة السومرية ، وهم الذين تحضروا بأغلبيتهم حوالي ١٨٠٠ ق.م ، اي في زمن محفوظات ماري ، وسيطروا على الشرق الادنى بكامله حتى سوزا في جنوب ايران ، وبحيرة أورمياخ Urmiah في الشمال . كما أن الحواضر الكبرى الاكادية مثل اشنونا وبابل، والسومرية مثل لارسا ، يجب أن تعد وكأنها محكومة من قبل سلالات امورية. واشهر ملوك ذلك العصر ، المشرع والفاتح حمورابي ، كان اموريا .

آ ـ كان الاموريون ينقسمون الى فرعين قبليين كبيرين :

ـ بني يمينا (ابناء جهة اليمين أو الجنوبيون) .

ـ وبني سمأل (أبناء جهة الشمال أو التماليون) . ونعلم اليوم ، ان العائلة الملكية في ماري كانت من بني سمأل ، وهكذا الحال ، على ما يبدو ، بالنسبة للعائلة المالكة الحلبية . بالمقابل ، كان أصل العائلة الملكبة في بابل من بني يمين . وقد وجد دائما ، حتى بين المتحضرين ، نزوع للعودة الى البداوة ، ولان يصبحوا ما كان يدعى آنذاك «خناني» ، أي « الذي يعيش في الخيمة » أي بدوي . وقد حل بنو سمأل البدو في الجزيرة العليا خاصة . وتفرعوا الى بطون صغيرة تمارس مع قطعانها النجعة الموسمية .

وعلى العكس من ذلك كان بنو يمين من قبائل بدوية كبيرة اتسمت تنقلاتها السنوية بالجموح غير آبهة بالحدود السياسية ، تنطلق من ضفاف الفرات حتى المتوسط ، مرورا بيمخاض الى الشمال أو « بالبادية التدمرية » الى الجنوب ، التي كانت بالتأكيد أقل تصحرا بكثير مما هي عليه اليوم .

ب ـ وكان يوجد في ذلك العصر توازن أكيد بين القوى السياسية الرئيسية، وهي:

ـ (من الجنوب الى الشمال) : خاسور ، قطنة ، حلب ، كركميش .

ـ (من الغرب الى الشرق): ماري ، كالاتوم ، بابل ، أشنونا ، لارسا .

في هذه الاثناء توضح رسالة شهيرة من ماري هيمنة مدينة حلب فتذكر أن عشرين ملكا « يتبعون » ملكها في حين لا يتبع الملوك الباقين ، في أفضل الحالات ، أكثر خمسة عشر « تابعا ملكيا » .

٢ ـ حدود المملكة :

ثمة ميزة هامة للاموريين وهي أنهم أعطوا أسماء جديدة للاماكن التي حلوا فيها، وبذلك خلقوا للمواقع الجغرافية أسماء جديدة غطت على أسمائها القديمة ، وحالت غالبا دون مطابقتها مع أسماء المواقع كما كانت تعرف في الالف الثالث .

ـ ان الاسم الذي يشار به عادة الى مملكة حلب هو ددوم Dadûm ويعني ببساطة « بلاد » باللهجة الامورية ، أما مملكة ماري حيث يعرفون اللهجة البابلية بصورة أفضل ، فتدعى ماتوم Mâtum ، وتعني أيضا « بلاد » باللغة الاكادية . أما الاسم الرسمي لمملكة حلب ، الذي يتضمن مفاهيم سياسية ، فهو يمخاض Yamhad الذي يبدو أنه صيغة فعلية تعني « هو كثير »(*). ولكن تعليل ذلك غير مؤكد ، وهذا

* ان الجذرين العربيين اللذين يقابلان « يمخاض » الاكادية هما محض و مخض . والاول يدل على القلة : محض الشيء ، والثاني على العطاء : مخاض ، وربما على الكثرة ، كما يقول ديوران (المترجم) .

حال الاسم « اخ يوراتيم » بالنسبة لماري (ضفاف الفرات) أو « أخادجلت » بالنسبة لـ « اكالاتوم » (ضفاف دجلة) أو واروم Warum بالنسبة لاشنونا .. الخ.

ـ نستطيع في هذا المجال أن نحاول تفسير اسم المدينة نفسه ، الذي يظهر في نصوص ماري حلب halab ، وقد ظهر عدد من أسماء المواقع القريبة منه في العصر الاموري ، فمر معنا اسم خلبيت Halabit الذي يدل على حلبية Halabiyé المعاصرة أو على « حلابا » وهي مدينة في الجزيرة . وثمة اسماء مواقع مشتقة من الجذر خ ل ب HLB ذاته في وثائق اوجاريت . من جهة اخرى ، يذكر لنا قاموس رافدي من القرن الاول قبل الميلاد ان خلبو Halbu كلمة تعني « الغابة » ونعلم من خلال ادلة أكيدة أن خلبيت ، الاسم القديم لـ « حلبية » ، كانت مشهورة بغابتها . وربما أخذت المدينة هذا الاسم من اشجار الفستق (الحلبي الشهير) منذ العصور القديمة . فهو اذا اسم موقع يعادل تماما اسم Foresthill المعروف جيدا في البلاد الانكلو ـ ساكسونية .

اما امتداد مدينة حلب ، فيمكن تحديده كما يلي :

من الغرب الى الشرق : من البحر المتوسط (بحيث تتبع لها أوجاريت والالاخ حسب نصوص ماري) حتى الفرات ، حيث تقع ايمار Imar (Emar في القرنين ١٤ و ١٣ ق.م) التي كانت ، برغم استقلاليتها ، المنفذ التجاري لملكة حلب على الفرات وحدود سلطتها السياسية في الشرق.

في الشمال تحدها مملكة كركميش في أعالي الفرات . وكانت الحدود على ما يبدو نهر ساجور ، في شمال منبج .

من الجنوب ، كانت دولة قطنة في منطقة حمص المنافس المزمن لحلب . ولا نعلم بالتحديد خط الحدود ، ولا لمن كانت تتبع حماه التي لما تذكرها النصوص بعد . وفي الواقع نحن لا نعرف سوى القسمين الغربي والجنوبي من مملكة قطنة (حمص) ، حيث كانت الضفة الشرقية لبحيرة حمص ومدينتا قادش (قادسيا) وناشالا (القريتين) قسما من أراضيها . وهذا أمر مؤكد . اما تدمر فقد كانت مجال توسع على الاقل .

٣ ـ السياسة :

نستطيع من الان فصاعدا ، وبفضل نصوص ماري ، أن نلاحظ أن (عائلة ملكية واحدة) حكمت مملكة حلب خلال قرنين . وتسمح نصوص ماري بتوثيق ثلاثة ملوك وزوجاتهم وهم :

ــ سومر ايبوخ ، مع ملكته سومونابي ، وهو بشكل شبه مؤكد مؤسس هـذه السلالة . مثل يخدون ــ ليم معاصره وخصمه، ثم حليفه ، الذي أسس سلالة ماري. وهما من قبائل بني سمأل .

ــ ياريم ليم مع زوجته الملكة جاشيرا حمو زمري ليم ملك ماري .

ــ حمورابي (مازلنا نجهل اسم زوجته).

كان الملك ابان Aban الذي ذكر في وثائق آلالاخ طفلا صغيرا عندما دمرت ماري. ونلاحظ اســتمرار التحالف مع ماري (زواجان ملكيــان : حيث ان زوجتي يخدون ليم ونظيرتها الشهيرة شيبتو زوجة زمري ليم كانتا اميرتــين حلبيتــين) . وكذلك استمرار التنافس المسلح بين حلب وقطنة ، اذ لم تكن فترات السلم الا فترات عابرة.

وتوطدت العلاقــات بين حلب وماري بعدد من التحالفات الحربية ادت الـى قيامها بالحرب جنبا الى جنب ضد اعــداء حلب في الجبــال الشمالية ، او ضـد اعداء ملك ماري في الشرق ، أي اشنونا او العلاميين ، وحتى لارسا جنوبي العــراق الحالي ، عندما كان زمري ليم وياريم ليم متحالفين مع بابل . وبذلك نستطيــع أن نتحدث عن محور سياسي ــ حربي فراتي حقيقي هو محور حلب ــ ماري ، الـذي غالبا ما امتد الى بابل حيث الاعداء الى جنوبها الغربي أو شمالها الشرقي.

هناك نوعان من الوثائق النادرة تحدد جبروت حلب :

ــ الاول هو رسالة تهديد من ياريم ليم الى امير « دير » في وادي دجلـة ، والتي تبدو نائية شرقا . ولكن ملك حلب القوي يتوعدها بغضبه الشديد . وقد احتفظت المحفوظات الدبلوماسية في ماري بنسخة من هذه الرسالة ، كان ياريم قد بعث بها الى صهره (اعلاما بالامر) .

اما الثاني فهو مجموعة من نصوص ماري الادارية ، وتسمح لنا بكتابة وقائعرحلة طويلة للملك زمري ليم ، مع قسم من بلاطه ، مصطحبا اوانيـه الثمينــة من الذهب والفضة الى مملكة حلب. ولم يكتف ملك ماري بالذهاب حتى عاصمة يمخاض من أجل تكريم إله حلب العظيم أدو ، الذي سنتحدث عنه بعد قليل ، ولكنه تابع طريقه الـى ضفاف البحر المتوسط ، الى أوجاريت . ولا نعرف ، للاســف ، دواعي قدوم ملك ماري الى ضفاف بحر الغرب الكبير .

٤ ــ ثروة البــلاد :

انها ثروة كبيرة ، واهم من ثروة مملكة رافدية عادية. اذ ان مملكة حلب لا تتوقف مواردها على فيضان دجلة والفرات ، أو على محاصيل الحبوب والتمور فقط . فهي منطقة ممطرة ومحصول الشعير وحده كاف ليجعلها مصدرة للحبوب ــ عن طريق مرفأ ايمار ــ على مستوى بابل البالغة الخصوبة ، وزيادة على ذلك هناك زراعة كل انــواع الكرمة، مما يجعلها مثل كركميش او طوروس ، المصدر الرئيس للنبيذ في ذلك العصر. من جهة اخرى ، يجب الا ننسى زراعةالزيتون البالغة الاهمية، التي تذكرها النصوص خطأ في ابلا . لقد إتسعت زراعة هذه الشجرة بــين ٢٣٥٠ و ١٨٠٠ ، وكانت حلب منطقة مصدرة لزيت الزيتون الى ماري ، حيث لا يوجد الا زيت السمســـم . كمــا نستطيع أن نستنتج ، من جهة اخرى ، وجود قطعان كبيرة من الغنم ، اذ أن صوف يمخاض ونسيجها كانا مشهورين ومرغوبا فيهما وراء الحدود .

وكان لتجارة الاخشاب دور اقل اهميــة مما كنا نعتقــد سابقا ، لان منطقتي توتول ، Tutul وخلبيت كانتا تكفيان حاجــة ماري ، ونــرى بالتأكيــد الاخشاب الثمينة تأتي من الشمال ، كالارز الذي استعمل كثيرا مــن اجل التبخير عند تقديــم الاضاحي ، اضافة لاستعمالاته في البناء . ان المثال الوحيد الواضح الذي نعرفــهلنقل جذوع الارز من لبنان الى ماري بهدف البناء ، ما قام به الملك يخدون ليم ، عند تشييد معبد شمش حينئذ ، اذ لا يمكن القول ان يخدونليم قد مر عن طريق حلب ، التي كان على حرب دائمة معها . ان موقع يمخاض ، كمحطة بين البحر المتوسط والفرات منحها دورا رئيسا في عالم التجــارة في ذلك العصر . ان ايمار ، ونحن نتخيل ، اكثر مما نعلم ، بلغت مستوى يؤهلها للمقارنة مع نظيرتها الشرقية القوية آشور ، من حيث اهميتها وبيوتها التجارية . لقد وجدت بالتأكيد اتصالات في ميناء اوجاريت مع عالم بحر ايجة (كبتار Kaptar). ومن كريت كانت تأتي الاسلحة وقطع الثياب (وخاصة الجزم) وتصل حتى ماري .

وكانت حلب منطقة عبور « نحاس الجبال » الى ماري المحمول من آلاشيا (مــن الواضح انه اسم مدينة هامة في قبرص في ذلك العصر ، وليس اسما للجزيرة كلها) كما وجدت اتصالات مع حاصور Hasor وفلسطين عن طريق قطنا ، ولم يظهر اي ذكر لمصر حتى الان .

كما وجدت اتصالات ، عن طريــق كركميشــ ، مع الاناضـــول حتى كانيش (كبادوسيا) وبرشخاتة (طز غولو) ، ـ الغرب ، وحتى حاتوشا نفسها الى الشمال.

بالمقابل ، كانت حلب تفتقر لما تحتاجه من القصدير ، وهو المادة الاساسية في انتاج البرونز الذيتصنع منه الاسلحة في ذلك العصر ، والادوات والاواني . ونلاحظ جهودا حقيقية من أجل الحصول عليه ، ولكن ليس عن طريق الشمال (الاشوريون) ولكن عن طريق ابعد الى الشرق : أما في منتصف الطريق ، في تل ليلان (شبات ـ انليل) ، واما بواسطة ماري ، في الوقت الذي حطمت فيه سوزا قوة اشنونا العسكرية واصطنعت طريق جديدة لتجارة القصدير على طول نهر الفرات بواسطة موزعي ماري .

٥ـ الحياة والموت :

تتميز نصوص ماري بميزة هامة هي انها تسجل الى جانب الظواهر الجغرافية والسياسية والاقتصادية احداثا مختلفة تتيح لنا ان نفهم كيف عاش الحلبيون آنذاك ، كما تسجل مفاهيمهم وقيمهم بالنسبة لموضوعات هامة في الحياة الاجتماعية والدينية . عندما نشهد مراسم دفن الملكة سومونابي ، وكذلك في موت ملك كركميش أبلا خاندا Aplahanda ، نلاحظ ان مراسم الدفن كانت سرية (مقدسة وشبه سرية . المترجم) ، وشأنا عائليا في الحالة الاولى . أما عندما يموت الملك ، فان الحياة العامة والدينية تتوقف كليا . تسمى طقوس الدفن « كيسبوم » ، وفيما يخص العائلة الملكية فهي مراسم في القصر تأخذ شكل وليمة ، بحضور الالهة وأصدقاء متميزين ، وقد يدعى اليها سفراء ماري مثلا . هذا المظهر العائلي المنزلي للشعائر يساعد على فهم سبب وجود المدفن في البيوت الخاصة ـ كما نلاحظ في أوجاريت مثلا في وقت لاحق ـ وتتميز هذه القرابين الجنائزية بأنها كانت تتضمن حيوانات ميتة كانوا يقدمون ما يدعى بجروم Pagrum مقابل ما يجرى في الطقوس العادية من تغذية الاله باراقة دم حيوان رمز الحياة (والكلمة البابلية المقابلة لكلمة « اضحية » هي في الواقع « جريان » : نقوم niqum . هذا المظهر ظهر في آثار أوجاريت ، في عصر تال .

وثمة وجه آخر مهم لهذه الطقوس هو مناجاة الاسلاف الاولين . وقد ظهر أيضا في وثائق أوجاريت عن زمن لاحق . وهذه الاحتفاءات بذكرى الاسلاف كانت الاصل في كتابة قوائم السلالات ، وأول النصوص التاريخية . ان الذاكرة التاريخية فيالشرق الادنى ، ومن ثم في دنيا الكتابة ، وجدت بحجة تكريم الاموات .

اما الحياة فتبدو أزهى باحتفالات الزواج ، ونحن نعرف عنها في منطقة حلب اكثر مما في منطقة حمص . فبعد الاتصالات الدبلوماسية كان يتم تبادل التقدمات : وكان والد العروس يقدم البائنة dot وتدعى ببساطة نديتوم nidittum (اعطية ، هبة) ، أما العريس (أو والده بالطبع) فانه يقدم للخطيبة الترخاتوم terhatum

(الهبة المقابلة) وكذلك البوبلوم bubulum (تقدمة) الى الاهل والى عدد من الوجهاء. وكانت الهدايا ، وهي غالبا ثمينة ، تبدو وكأنها محاولة لتجهيز البيت الزوجي أو ترمز الى الثروة آنذاك : جواهر ثمينة (تصفها النصوص بدقة) ، أوان قيمة أو للاستعمال ، ومفروشات متقنة الصنع الى حد ما ، وملابس وحيوانات وعبيد ـ وغالبا نساء عليهن تأسيس « بين الزوجة » قد يكون بينهن « نساء ناسخات ». كل ذلك رقم بعناية وسعر بدقة .

ويتلقى الاب الهدايا وحوله كبار اتباعه . وعند ذلك يستطيع مندوبو الزوج البدء باحتفالات الزواج .

وفي الحالتين اللتين نعرفهما ، لم يكن الزوج حاضرا ، ولهذا لم يوثق لنا سوى زواج بالوكالة. وكانت الفترة الاساس في الاحتفال ، لحظة وضع الحجاب على رأس الفتاة . ومن الهام جدا رؤية مثل هذا الاحتفال الذي نقل الينا أخيرا . لقد وثقت لنا شريعة القانون الاشوري الاوسط (القرنين الرابع والثالث عشر) في الواقع ، أهمية الحجاب من أجل تحديد صورة Statu المرأة المتزوجة واحترامها ، مقابل العاهرة التي كان عليها أن تسير في الشارع مكشوفة الرأس .

ونرى اذن في النتيجة الى أي درجة يمكن احياء مدينة حلب بفضل نصوص ماري. وهناك احد الملامح الاساسية التي أرغب الانتهاء بها، الا وهي خصوصية الحياة الدينية في المناطق الغربية من الشرق الادنى ، مقابل الحياة الدينية الرافدية الاكثر خصوصية (المناطق الشرقية : بابل وسومر) والتي لا نعرفها الا من خلال وثائق بابلية تعود الى الالف الاول ق.م .

آ ـ **التنبؤ أو النبوءة :** الى جانب اللجوء الى طرائق التنبؤ بالعرافة أو التنجيم (فحص الاحشاء وخاصة كبد الخروف) وهي ميزة العصر البابلي القديم ، نلاحظ طرقا اخرى ، كالتنجيم بوساطة الطيور أو بجرع أشربة قد تكون كحولية . وثمة طريقة خاصة لفهم المستقبل يبدو ، من جهة اخرى ، انها كانت تجري بواسطة اثنين، عراف متخصص بفحص الاحشاء ، واخر يسمى « خادم الاله » وبعد ان ينتهي العراف من فحص الاحشاء يعلن التشخيص بـ « ملائم » أو « غير ملائم » فمن فم الخادم « الملهم » اذن يفصح الاله عن ذاته بشكل واضح ومفصل ، وبنبرة غنائية وتنبؤية خاصة .

ب ـ **شخصية ادو ((الاله)) حلب :** نشير ، بصورة خاصة ، الى الصورة المدهشة لاله مدينة حلب ادو . إن اله الصاعقة يحتل مكانة متميزة في عالم الالهة في ذلك العصر،

وكلامه ذو نبرة خاصة . هذا الاله تخيلهالاقدمون، نظرا لجوهره الالهي ، بصورة محارب يقود بمهارة ويتحكم بهواطل المطر والبرد والثلج ، وهو مع ذلك الوحيد الذي ينطق بكلام ديني صاف وحقيقي ، حسب معاييرنا الدينية . وبدل أن يكون أحد الالهة العديدة المشركة المتعطشة الى النذور الثمينة والغنى ، يشدد على ان من يريد تكريمه يجب ان يقنع بممارسة العدل .

ففي هذه الخصوصية الدينية اذن تكمن ، دون شك ، بذور شعبيته الكبيرة في العصر المتوسط (القرن الرابع والثالث عشر) ، حيث لم يعد يدعى حتى باسمه ، وانما بلقبه : بعل Ba 'al وحسب ، أي السيد ، فمنذ العصر الاموري ،هو اله حارس للملكة . ولا شك في أن أولويته على سائر الالهة قد امتدت بالتأكيد الى خارج حدود يمخاض ، اذ أن زمري ليم لم يكتف بارساله لـه نصبا يمثله ، بل ألحقه بطبل ضخم من البرونز بلغ من الثقل ماجعل نقله الى ايمار ، ومنها الى حلب ، من الصعوبة بمكان.

جـ ـ الميثولوجيا السورية : نرى ، بصورة خاصة ، ادو اله حلب ، وقد ارسل قواته الى مملكة ماري عندما انتصر زمري ليم على عدوه واستولى على الحكم، والتي لابد أن تكون قد استخدمت ، بصورة أو باخرى ، عند تنصيب ملك ماري الجديد .

وسيرى زمري‌ليم ، في نهاية عهده ، أدو اله حلب يذكره بهذه اللحظة المميزة . وما قاله له آنذاك ذو أهمية في تاريخ الادب والفكر السوري القديم . اذ يتحدث الاله عن قوات ارسلها الى ماري عند تنصيبه ، وأنها هي الذي اتاحت له الانتصار على اله البحر فهناك رسالة وجدت في ماري قادمة من حلب ، تشهد قبل خمسةقرون على الشعر الاوجاريتي العظيم الخاص بمعركة بين بعل ويم ، اله البحر .

تسمح لنا ماري بالحديث اذن ، ليس عن حلب وحسب بصورة دقيقة ، وقبل أن نجد الوثائق (الحلبية) التي ما تزال ترقد في التل القديم ، أينما كان ، بل تبين جيدا الموقف التاريخي وتأصلمجموعة كاملة من الملامح السورية الخالصة ، غير الرافدية ، والتي نلاحظ وجودها في أوجاريت في عصر حديث نسبيا ، ولكنه يعود الى زمان أكثر بعدا منها بكثير .

رسائل جديدة عن تاريخ حلب وشمال سورية

(في القرن ١٨ ق٠م)

د. فيصل عبد اللـه
ج . دمشـق

منذ العثور على محفوظـات ماري في الاربعينات من هـذا القرن ، ونشر معظـم الرسائل والنصوص في سلسلة تحمل اسم المدينة ، ظهـر اسم مدينـة حلب (حلب Halab) وأسـماء عدد مـن ملوكها وكبـار موظفيها . وقد أتاحت معلومات هـذه النصوص تكوين فكرة هامة عن تاريخ مدينة حلب ومملكتها التي عرفت باسم يمحض Yamhad

وقبيل نشر المجلد الثالث والعشرين من محفوظات ماري عام ١٩٨٤ ، كانت معظم معلوماتنا عـن حلب يشوبها بعض الغموض ويدور حولها كثير من النقاش ، وخاصة ما يتعلق بهوية سومو ايبوخ ملكها الاول ، وقصة الزواج الملكي بين زمري ليم وابنة ملك حلب ياريم ليم ، شيبتو . وقد شك بعض العلماء بامكان لجوء زمري ليم الى قصـر ياريم ليم فيحلب واتمام الزواج هناك، ومن ثم التحضير لحملة عسكرية ضد الاشوريين لاستعادة ماري منهم وتتويج زمري ليم من جديد على عرش أبيه يخدون ليم الضائع. بعد نشر المجلد الثالث والعشرين من سلسلة محفوظات ماري(١) (ARM) ثم المجلدين الرابع والعشرين والخامس والعشرين ، ثم السادس والعشرين بجزئين كبيرين ، حتى عام ١٩٨٨ ، وخلال السنوات الخمس الاخيرة ، تغيرت معظم الافكار السابقة السائدة حول نشوء مملكة يمحض ، وعلاقاتها بمملكة ماري، وخاصة فيما يتعلقبقضية الزواج السياسي بين ملك ماري زمري ليم وابنة ملك حلب آنفة الذكر .

هذه المجموعة الجديدة التي ننشر ترجمة لها من الاكادية ــ الماريـة مستعينين بترجمة جان ماري دوران في الجزء الاول من المجلد السادس والعشرين(٢) ، لا تشكل

---

* اعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ــ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ــ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٢هـ / ١٧ ــ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ــ حزيران ١٩٩٣ .

الا جزءا يسيرا من تاريخ حلب . وقد اخترناها لانها تتناول أهم القضايا التي كانت غامضة ، وهي الزواج السياسي بين العائلتين المالكتين في ماري وحلب .

تشكل هذه الرسائل بمجموعها ــ وعددها سبع ــ كـلا منسجما . وسـنرى ونلمس من خلالها ، وبالربط بين معلوماتها ومعلومات أخرى ، مدى أهميتها(٢) . وهي تنسب الى أصقدوم أحد رجالات ماري ، ويتبين منها أنه كان على راس بعثة رسمية من ماري الى حلب . وهو يعالج في رسائله الى ملك ماري موضـوع مهمته وتفاصيل مفاوضاته مع القصر الحلبي وطلب يد الاميرة شيبتو .

بدأ أصقدوم بارسال الرسائل باسمه من مدينة حلـب ، وباسم معاونـه على ما يبدو ، وأسمه ريشيبا ، ثم من ايمار عندما تم الاتفاق وتمت مراسيم الزواج ــ بدون حضور الزوج طبعا ــ وبعد ايمار بدأ الموكب رحلة العرس والعودة باتجاه ماري.

صنفت هذه المجموعة من الرسائل من قبل جان ماري ديوران ، مدير الفريـق الفرنسي في مركز الابحاث في باريس ، الذي يترجم هذه النصوص وله الحق وحده بنشر الترجمة الاولى من الاكادية ــ المارية الى الفرنسـية . وقـد استعنا بهـذه الترجمة ، ولكن تبقى ترجمتنا مستندة بشكل أساسي على النص الاكادي ، حيث نجد فارقا كبيرا في تركيب النص العربي المترجم عن الاكادية ، مع مثيله المترجـم الى الفرنسـية. ويلاحظ المختصون أن سبب ذلك هو أن الاكادية والعربية من عائلة لغويـة واحدة، ومبدأ تصريف الافعال والاسماء فيهما واحد . الا ان هناك صعوبـة واحـدة تتعلق بموقع الفعل في الاكادية ، اذ غالبا ما يترك الى اخر الجملـة . بحيث تبـدأ الجملة الاكادية غالبا بجار ومجرور ، يليه مفعول به ثم الفاعل وصفاته وتنتهي بالفعل أخيرا . وهذا ما يجعل مطابقة الجملة العربية على الاكادية عمليـة صعبـة . ولذا فسيلاحظ القارىء أننا ، عندما نرى الجملة مفهومة ، نؤخر الفعل في العربية كما في الاكادية لنحافظ على حرفية النص وامكان المقارنة . وعندما نجد ذلك متعذرا ، نترك الجملة العربية على طبيعتها .

يمكن تصنيف هذه المجموعة من الرسائل وفق موضوعها كمايلي(٤) :

آ ــ الرسائل المرسلة من حلب وتحمل الارقام :

[A. 2617] 10 : وهذه الرسالة تتعلق بمراسم الزواج التي تمت بعـد موافقـة الملك ياريـم ليم ، وقبـل مـوت الملكـة الام سومو نابي .

11 [A. 414] : وتتعلق بزيارة المبعوثين لبلاد يمحض في فتـرة مرض الملكة الام .

12 [A. 3627] : وفيها انباء عن مشاركة البعثة بحل بعض الخلافات في منطقة حلب .

13 [A. 2679] : وموضوعها يتعلق بمكان اقامة العروس، الاميرة شيبتو، في ماري .

14 [A. 547] : احد مندوبي زمري ليم واسمه ساميتار يعترض على اختيار موعد انطلاق موكب العروس في شدة الحـر والقيظ ، ويقتـرح التريث لانتهـاء الحر وفيضـان الفرات .

15 [M. 5418+M. 906 5] : وصول الموكب بقيادة أصقـدوم وريشيا الى ايمـار (مسكنة حاليا) على الفرات ، حيث يتوقعون وصولهم الى ماري خلال ايام .

16 [A. 973] : وصول شيبتو المتوقع مع أصقدوم الى مناطق متاخمـة لماري تبدأ من زبناتوم ثم ترقان الى صبروم واخيرا الى العاصمة ماري .

وكما ذكرنا فان زمري ليم لم يتزوج من شيبتو الاميرة الحلبية قبل استرجاعه عرش ابيه الذي كان الاشوريون بقيادة شمشي أدد وابنيه يسمخ أدد وأشمي دجـن قد ضموه الى مملكتهم في الفرات الاعلى ، ونصبوا يسمخ أدو بدلا من يخدون ليم والد زمري ليم، الذي قتل اثر تلك الاحداث كما يبدو . ولم يعرف آنذاك مصير زمري ليم، ولا توجد أية معلومات عامة عنه الا بعد عودته الى عرش أبيه وقوله انه استعاد ممتلكات والـده(٥) .

قبل نشر هذه الرسائل كان جورج دوسان ، أول مترجم لنصوص ماري ، قـد نشـر مجموعة اخرى ، توحي بأن الزواج تـم منذ أجـل بعيـد .. نظـرا لعمـق الصلات التي كانت تبدو في بعض رسائل زمري ليم الى ابيه « حميه » ياريم ليم وكأن هذا الاخير هو الذي كان وراء عودته الى مملكة أبيه ، وأن الزواج كان حصيلة رؤيـة سياسية لتوحيد قوى ماري وحلب في وجه الضغط الاشوري والبابلي على حد سواء. هذه الصورة تغيرت بعد أن ظهر من الرسائل التالية أن الزواج قد تم في ماري ، وأن الملك لم يذهب بنفسه لاجراء مراسم العرس ، بل كلف بعثـة على رأسـها أصقدوم وريشيبا للقيام بالمهمة . وهذا ما نعتبره أقـدم مثل موثق في التاريخ لعمليـة زواج بالوكالة . لقد تزوج زمري ليم بعدد من النساء قبل شيبتو وهن غـير معروفات ،

ولكنهن أمهات أميرات ، بنات لزمري ليم ، قام بتزويجهن لعملائه وكبار موظفيه . ولكنه ما ان وصل الى السلطة ، ووطد دعائمها ، حتى توجه الى حلب طالبا الزواج، ولا شك أن ذلك يوفر له سندا قويا من جهة الغرب. لقد تم تقديم هدايا العرس وهي تسمى ترخاتوم « Terhatum » بالاكادية (الطرحة) من قبل المبعوث الرسمي اصقدوم وكان ذلك في نهاية سنة تسمى « كاخات » من سنوات حكم زمري ليم الاولى وهي السنة التي تم فيها توطيد السلطة السياسية في حوض الفرات ، وتقابل السنة الثالثة من حكمه(٦) .

ويبدو من مجموعة رسائل اخرى ، أن أصقدوم هذا أو آخر سيحمل ذات الاسم ، قام برحلة اخرى من ماري الى حلب . ونلاحظ أن الرسالة ذات الرقم (٩) لها أهمية خاصة ، لان مرسلها هو الشخصية الثانية المرافقة لأصقدوم ، وهو ريشيبيا ، يبدو فيها وكأنه هو الذي يقود عملية مفاوضات الزواج ، ولكنه يذكر اسم أصقدوم في السطر السادس مشيرا الى أن التعليمات الملكية معطاة اساسا الى الاثنين. كما يرد أسم احد كبار موظفي القصر ، لا شك انه الوزير شمروم ، نلاحظ من الرسالة ذاتها ، انه هو الذي يستطيع ان يؤثر على نجاح المفاوضات أو فشلها . ونعلم مسبقا أن وزيرا آخر للبلاط(٧) هو طب بلاطي Tab - balati (ربما طيب البلاط أو المؤتمن عليه) ، أي أمين سر البلاط ـ ولقب الوظيفة بالاكادية شوط لوم قد ظهر في وثائق ماري المتعلقة بشؤون حلبية . وعلى هذا يبدو أن شمروم الذي يأتي اسمه غالبا من اسم نبات « الشمر » المعروف كان وزيرا قبل هذا الاخير ولربما عاصر الملك الاول لحلب، سومو ابيوخ والد ياريم ليم، وبقي وزيرا في عهد الابن ، كما هي الحال بالنسبة لطب بلاطي الذي لا نعلم عنه شيئا حتى عهد صعود حمورابي الحلبي وخلافته لابيه ياريم ليم(٩). وهنالك ما يدعو للاعتقاد بأن الاتنين قد مارسا سلطة وزارية في البلاط الحلبي جريا على عادة الممالك الامورية في بابل وماري انذاك في تكليف وزيرين بادارة شؤون البلاط(١٠) . ولكن يبدو أن شمروم هو الاقدم في البلاط ، وله الخبرة الكبيرة والقدرة على اقناع الملك الحلبي بتزويج ابنته الى ملك ماري ، ولهذا فان اختيار أصقدوم وريشيبيا له كوسيطين لم يكن عبثا . لان هذا الشيخ ـ الوزير ، لم يكن ليقبل بالمهمة بلا ثمن ، فذكر أصدقاءه السفراء الماريين بأنه كان قد طلب « وكتب » لملك ماري بأن يرسل له المغنية المسماة كاراناتوم . وقد اختار اللحظة المناسبة للتذكير بذلك ، أي أنه يعلن بشكل خفي « امراة بامراة » انتم تريدون شيبتو وأنا أريد كاراناتوم . وهو يعلم بأن ريشيبيا سفير ماري قادر على ذلك ،فقد سبق له أن كان مشرفا على فرقة الغناء في عهد يسمخ أدد .

ويجب القول هنا إن شحروم لا بد أنه قد أسن ، ويبدو ان طب بلاطي قد أصبح الوزير الاول بعده . ويتبين من الرسالة (٩) أن سفراء ماري لا يستطيعون

الحصول على ماريدون مباشرة من الملك الحلبي ، وان مقابلة الملك والحوار معه مسألة تحتاج لوسيط ، هو الوزير الذي يحتل مرتبة « العارف » بشؤون العائلة الملكية ، ويواكبها أبا عن جد . ولا شك بأن قناعة الوزير تعني أوامر الملك ، ولهذا فان رغبات الوزير هي من رغبات الملك . وهذا ما يدعونا للتأكيد بأن مشروع زواج زمري ليم والاميرة الحلبية لم يكن مشروعا مبيتا ، كما كان يعتقد سابقا، بل جاء نتيجة مفاوضات لا يبدو أنها كانت سهلة . بل أن احداثا أخرى قد دفعت بزمري ليم الى اتخاذ مثل هذه الخطوة لان حلب أصبحت أقوى سلطة سياسية وعسكرية غربي مملكته . وتتلخص هذه الاحداث بتدهور مملكة أعالي الفرات التي كانت بزعامة شمشي أدد وابنيه أنفي الذكر ، وظهور تحالف جديد لا نعرف عنه كثيرا بزعامة زمري ليم في ماري والفرات الاعلى ، وتوطيد السلطة الحلبية في الغرب وبدء توطيد نفوذها في مناطق الفرات القريبة وخاصة ايمار(١١) .

من جهة أخرى فان الملك الحلبي لم يكن على ما يبدو متسرعا أو متلهفا لتزويج ابنته من زمري ليم ، لاعتبارات عدة ، ربما كان أولها كبر المقام الحلبي ، وضرورة التريث ، وكذلك لان « أميرة حلبية » ربما كانت مرغوبة من ملوك آخرين أكثر اهمية . ولهذا نلاحظ أن المبعوثيين الماريين بذلا جهودا كبيرة للحصول على موافقة ياريم ليم على الزواج . فقد تلقى أصقدوم هدايا العريس (ترخاتوم) وحملها على الفور الى القصر بانتظار قبولها . ولم يقبلها الملك الا بعد حين . ولكن قبوله لها كان يعني الموافقة كما سنرى .

لقد استطاع جان ماري ديوران أن يقدر زمن انطلاق المهمة المارية الى حلب بين ١٥ كانون الاول و ١٥ كانون الثاني ، قبيل اشتداد البرودة في المنطقة ، وفي فترة مناسبة للملاحة في حوض الفرات أيضا ، لان ارتفاع مياه الفرات يبلغ مداه في تشرين الثاني وكانون الاول(١٢) بنتيجة أمطار الخريف . كما لاحظ دوران غياب أصقدوم في سجل الاعمال الادارية في ماري لمدة تقدر بأربعة أشهر . وهذا يعني ان رحلة العودة تتطابق مع وصف الرسالة١٤ ، من أنه يجب انتظار زوال فترة الحر والقيظ . أي أن العودة كانت في بداية شهر أيلول . وهذا يعني أن الرحلة باتجاه ماري بصحبة العروس قد بدأت في هذه الفترة تقريبا ، وأن رحلة البعثة بما فيها الاقامة في حلب وزيارة مواقعها القوية كما سنرى قد استغرقت قرابة تسعة اشهر . ولكن التاريخ المحدد لوصول العروس او الملكة الجديدة لماري لم يظهر بشكل دقيق ، وفي أقرب تقدير أنه تم في السنة الثانية من حكم زمري ليم ، وفي بدايتها على الاغلب .

١ ــ الرسالة [A. 984] 9 : الوصول الى حلب وبدء مفاوضات الزواج :

ريشيبيا ، يكتب الى مولاه (زمري ليم) . ان موكب الرحلة قد وصل بسلام الى حلب ، وسر الملك (الحلبي ياريم ليم) بذلك . قام ريشيبيا واصقدوم بعرض الموضوع ــ وهو طلب يد الاميرة شيبتو ــ على وزير البلاط شمروم . الذي قام بدوره بشرح الامر امام ياريم ليم . يذكر شمروم ــ بهذه المناسبة ــ ملك ماري بأنه كان قدطلب منه ارسال المغنية كاراناتوم . ولذا فان مندوبي ماري يحثان مولاهما على ارسالها بسرعة كي يضمنا قيام شمروم بانجاح عملية مفاوضات الزواج : وهذا هو نص الرسالة .

قل الى مولاي
هكذا (تحدث) ريشيبيا ،
خادمك :
موكب (حملة) مولاي ، سالمة ،
وصلت ، والملك كان مسرورا جدا .
الأوامر ، لأصقدوم
وإلي بالذات ، التي وجهها مولاي ،
قد عرضت أمام شمروم .
اوامر مولاي . .
قد اثلجت (صدر) شمروم .
وموضوعنا ، امام الملك ياريم ليم
بالذات ، سيعرضه شمروم ،
(ويفصل له) موضوع اوامر مولانا .
ويشير علينا بما يلزم
شمروم أمام الملك ،
شارحاً (بالتفصيل) .
ثانيا ؛ شمروم ،
قال لنا ما يلي :
« ما لمولاي ، والمغنية
التي كتبت له عنها ، لم يرسلها ! »
الآن ، يوم ، اللوحة (الرسالة) هذه
يسمعها مولاي ،
المغنية كاراناتوم
على بغل لياسيم داجان
او لآخرين
ليركبوها ،
وفي اليوم التالي
لوصول لوحتي (رسالتي) هذه .
فلتغادر ، لتصل بسرعة .
هذا لكي :
يتمكن شمروم من
عرض الموضوع امام
الملك .
كي تصل هذه المغنية ،
ليبذل مولاي كل جهده . .

٢ ــ الرسالة [A. 2617] 10 : تعثر المفاوضات بسبب مرض الملكة الام سومونابي :

مندوبا زمري ليم ، اصقدوم وريشيبيا ، يكتبان من حلب الى مولاهما . لقد قدما هدايا العرس الى الملك ياريم ليم وقبلها ، وهذا يعني الموافقة . ولكنه اخطرهما بأن والدته مريضة ويخشى من حدوث ماتم ، ولهذا سارعا بوضع الحجاب على رأس

العروس وهو رمز اعلانهـا زوجـة (وضع الاكليل) . وانتظروا ليعطي الملك اوامـره باصطحابها الى ماري ، ولكن الملك اقترح عليهم ان يذهبوا برحلة « سياحية » الـى مملكته . ولكن المندوبين قد احتجا على هذا التصرف ، لانهمـا يعتبران الملكـة الام سومونابي مولاتهما وانهما لا يقبلان الانصراف . ويبدو ان الملكة توفيت في هذه الاثناء، ولذا فانهما يطلبان مجلسـا محترما في مراسم التأبين مع خدم ابن الملك ياريم ليم . لقد قاما بايصال رغبتهما عن طريق « طب بلاطي » الوزير الثاني . ولكن الملك رد بانزعاج قائلا : قلت لكم اذهبوا . .

قل لمولانا ما يلي :
هكذا تحدث أصقدوم
ريشييا
خادماكَ :
ياريم ـ ليم
احاطنا علماً بالموضوع كمايلي:
لقد أحضرتم المقدم ـ ببلوم
ولكن أمي مريضة
وأخشى من حدوث مأتم
في قصري
وقربت أيامكم (يوم رحيلكم) .
ولهذا وبسرعة
قد سلمنا المقدم ـ ببلوم
الذي حمّلنا إياه مولانا .
ووضعنا الحجاب على راس العروس
وبعد ثلاثة أيام
من تقديمنا المقدم ـ ببلوم
فان سومونابي
قد لاقت مصيرها .
الملك ياريم ليم
بواسطة طب بلاطي ،
قد احاطنا علماً كما يلي :
اذهبوا ، فمدني القوية
وقصوري ، شاهدوها ، كلها .
نحـن
تساءلنا
وكتبنا للملك ما يلي :
« لماذا بعث لنا مولانا
هذه الاسطر :
« هذه مدني القوية ، وقصوري
شاهدوها كلها ! »
هذا ما كان جوابنا
ثم كتبنا له ما يلي :
اليست السيدة سومونابي
مولاتنا ! إذا لم يكن
لنا مقعدنا بجانب مولانا
فإن هذا الأمر سيسمع في ماري!
وزيادة على ذلك مجلس خدم
ابنك معنا
الى هنا ، لا جواب !
وهو قد اكتفى بإعادة خدمه قائلين:
« الم تروا بلادي . . »
اذهبوا !. قلت
....
....
....
....
....
....
....

....
في قصر مولانا
٥٥ ومـن ممتلكاتـه ، ٢٠ نمريقاً او مزهرية مذهبة

ليرسلها لنا .لتودع في النهاية في قن (أو مستودع) مولانا .

٣ ـ الرسالة [A. 414] 11 : زيارة سياحية في بلاد يمحاض :

يبدو أن مندوبي ماري قد أجبرا على القيام برحلة « سياحية » في مناطق حلب ريثما تنتهي أيام الحزن بعد وفاة الملكة الام سومونابي . فان ريشييا واصقدوم يكتبان لمولاهما في ماري بعد عودتهما واتمام مراسم دفن سومو نابي ، وقد اجتمع عمـلاء وتابعوا الملك ياريم ليم اثر ذلك ، فكان مسرورا جدا. وبعد ذلك يذكران لمولاهماالهدايا التي قدماها للقصر الملكي .

الى مولانا
قل ما يلي :
٢ هكذا تكلم أصقدوم
٤ وريشييا
خادماك
٦ كما أن « الملكة » سو نابي
قد ماتت ، فإن ياريم ليم
٨ قد قال لنا ما يلي :
« ريثما ينتهي هذا المأتم
١٠ اذهبوا الى وسط (لب) بلادي
وشاهدوها » . خمسة عشر يوما
١٢ في أوساط بلاده
ونحن نتجول
١٤ ثم عدنا
ومنذ أن عدنا فإن الخرفان الاولى
١٦ أضحية البنت (بنت ياريم ليم) المتبقيـة
١٨ وكذلك ما تبقى من خرفان
كانت لدي ،
٢٠ قد قمت بتحضيرها .

خاتم واحد من الذهب (وزنه) ٦ وزنات (ثقل) .
٢٢ ثوب واحد (ساكوم) وثـوب قماش « نـوع أول » ٥ أثواب قماشية خشـنة نوع ٢ واحـد وعشرون ثوب عادي
٢٤ ومائتا خروف (تيشاني) .
وخرفان « بألية » أو طيور
٢٦ الى ياريم ليم .
ثوب واحـد رقيق ، وشكلتـان ذهبيتان وزنهما (ثقلان) .
٢٨ وشكلتان ذهبيتان بثقل واحد وعشرون خروفـا الى السـيدة جاشيرا
٣٠ ثوب واحد من نوع (مراتو) واربع شكلات ذهبيات بثقلين ، الى البنت شيبتو
٣٢ الهدايا الاولى وكذلك الثانية ، قد وفت (بالأمر) .
٣٤ ياريم ليم ،

وجهه كان مشرقا جدا .
٣٦ وقال
هداياك التي أمامي ماذا أعمل بها؟
حتى الآن الملوك لم يكونوا هنا
٣٨ اما الان
فان حكام البلاد قد اجتمعوا
اجتمعوا كلهم

٤٠ من اجل هذا فان ياريم ليم
كان مسرورا جدا
وبعد الاضحى (خيارى)
٤٢ وألح على ذلك
وبسرعة سنغادر
فالأمر قد تم .

٤ ــ الرسالة [A. 3627] 12 : **مندوبا ماري يشاركان بحل خلاف في يمحاض :**

يبدو أن ياريم ليم قد طلب من مندوبي ماري أصقدوم وريشيبيا المساهمة في حل خلاف بين بعض الجهات التابعة للملك الحلبي . ولكن موضوع الخلاف غير واضح :

الى مولانـا
قل :
هكذا تكلم أصقدوم
رريشيبيا :
٥ خُدماك :
فيما يتعلق بقافلة مولانا
. . . .
. . . .
هكذا لـ . . .
٢ قد ردوا بهذا الكلام علـى أمراء
زلمـاكو
لنذهب
ولنبعث بأمرائنا أو شيوخنا
كي يتناقشوا معكم ، حينئذ قال

ياريم ليم :
٦ مع مبعوثيهم قد ارسلت مبعوثين
لي مع أوامري التالية :
٨ « يجب ان يصل مبعوثون منهم
على الاقل ، أثناء اقامتكم » .
ولكن هؤلاء الامراء لم يصلوا
١٠ بل ارسلوا شيوخهم
وعادوا ، وقالوا ذات الشيء .
١٢ كيف يحصل أن اتلقى كلاما
لا معنى له ، في بيته »
١٤ والآن فإن مبعوثي ياريم ليم
لم يعودوا حتى الآن .
١٦ ولهذا فإن تقريرا كاملا
لم نرسله حتى الآن الى مولانا

٥ ــ الرسالة [A. 2679] 13 : **مكان اقامة العروس :**

نلاحظ أن الملك الحلبي ياريم ليم مهتم جدا بمكان اقامة ابنته بعد ان وافق على زواجها من ملك ماري. وهو يسأل عن الموضوع فيجيبه المندوب اصقدوم بأن بيتها سيكون جميلا . ولكن هذا ليس كافيا ويسارع بالكتابة الى مولاه ملك ماري زمري ليم

طالبا منه أن يختار بيتا او قصرا مناسبا للملكة الجديدة ، لان مرافقي العروس الحلبية سيكتبون تقريرا الى مولاهم بعد عودتهم . ويظهر من هذه الرسالة ، أن الملك ياريم ليم يطلب أن تقيم مع زوجها تحت سقف واحد .ولكنه يشير الى امكان تركها المكان لبضعة أيام في الشهر . وفي ذلك اشارة الى تقليد اجتماعي بأن تبتعد المرأة عن زوجها أثناء الدورة الشهرية :

الى مولاي
٢ قل :
هكذا تكلم أصقدوم
٤ خادمك :
ياريم ليم
٦ قد أحاطني علما بما يلي :
غالبا ما سمعت
٨ ان آلهة القصر
(حاضرة) قوية
١٠ فأين ستوضع
اغراض ابنتي !
١٢ أجبته بيت ابنتك
سيكون جميلا !
١٤ فقال : أغراض ابنتي
لتوضع في بيتها .
١٦ ولتعش ابنتي مع زوجها ،
ومن خمسة الى ستة أيام
١٨ لتترك قصرها
للعدة (مدة الدورة الشهرية) .
٢٠ والآن ، ليأمر مولاي
ويختار بيتا لابنته (لابنة
ياريم ليم) .
٢٢ ولينسقه (ينظمه)
كيما ، خدمه
٢٤ الذين سيأتون معي
يرونه ، والى مولاهم
٢٦ يرفعون تقريرا
والآن ما سمعته من فم ياريم ليم .
٢٨ الى مولاي
قد كتبته ، فليتفكر مولاي
٣٠ بمسكن البنت هذه
لنستقر على خيار
٣٢ ثانيا ، والآن . . .
....
٣٤ ....
....
٣٦ ....
....
٤٠ . . لنعد . . . .
فيما يتعلق بالحمالين(للكراسي)
٤٢ الذين كتبت له عنهم
ليرسلهم لي مولاي
٤٤ كيما ، وقبل سفري ،
اتمكن من ترتيب هذا البيت .

٦ ــ الرسالة [A. 547] 14 : حالة الطقس وموعد رحلة موكب العرس :

الطقس والاحوال الجوية لم تتغير بشكل ملحوظ منذ تاريخ كتابة هذه الرسائل حتى يومنا هذا والزمن هو حوالي ٤ الاف سنة !. والمعروف أن مناخ المنطقة مستقر

منذ أكثر من ١٠ الاف سنةاي من بداية العصر الحجري الحديث. موضوع هذه الرسالة ما هو الوقت المناسب للقيام برحلة العرس الى ماري انطلاقا من حلب ، الخلاصة أن ايلول ، أو بداية الربيع هما الوقت المناسب . وهو ما نعرفه اليوم عن حالة الطقس في المنطقة :

كثير من النساء سيواكبن العروس من حلب ولذا يجب اتخاذ اجراءات مناسبة فهن رقيقات كما تصف الرسالة :

الى مولاي
٢ قل (ما يلي) :
هكذا تكلم مساميتار
٤ خادمك
فيما يتعلق بالموكب الذي
سيقوده أصقدوم
٦ ويؤمن سلامة مولاتي .
سمعت أن كثيرا من النساء
٨ سيذهبن مع مولاتي ،
والنساء اللواتي سيذهبن هن
ناعمات
١٠ والطريق هذه ، مدبرة ، وقفراء،
وما من أحد يرتحل في مثل هذه
الايام .
١٢ انها ايام خطرة .
واخشى ، بسبب العطش
١٤ أن تتضرر نفوس أو
اي شيء اخر .
١٦ مما سيندم عليه
مولاي . في هذا الشهر
١٨ ما من احد يسلك هذا الدرب
ففي الربيع او الخريف
٢٠ تسلك هذه الدرب .
الدرب في هذا الشهر ليست
٢٢ سالكة . هذا الشهر
بعد خمسة ايام سينتهي
٢٤ وفي الشهر القادم وفي ايجي كور،
في اليوم العاشر اذا لم يكن في اليوم
الخامس
٢٦ فالايام ستبرد ، والفرات
سيبدأ فيضانه ، والرحلة مناسبة
٢٨ « نص مهشم »
....
٣٠ ....
....
٣٢ ....
....
٣٤ ....
....
٣٥ ....
كخادم
٣٦ الى مولاي
قد كتبت
٣٨ وليتساءل مولاي (ويتفكر)
وليتصرف بسلطانه !

٧ ـ الرسالة [M.5418+M. 9065] 15 :

هنا نجد وصفا لمسار الرحلة بعد ان وصلت ايمار وغادرتها واصبحت على مشارف ماري ، والمندوبان يكتبان الى مولاهما سائلين التوجيه فيما يتعلق بمبيت الملكة العروس ، قبل وصولها ماري بأيام :

الى مولانا
٢ قل ما يلي :
هكذا تكلم اصقدوم
٤ وريشيبيا
خادماك
٦ هذا الرُقم (الرسالة) من ايمار
ارسلناها الى مولانا ، في اليوم
العاشر
٨ وسنصل ماري بعد تسعة ايام!
٢ آ .. كيما يرى ويصطحب اخوته.
ثانيا اوامر مولانا

٤ آ لتصدر لنا ، فيما اذا كانت
البنت (العروس) ستطلع
٦ آ الى دور يهدوليم او
الى مدينة ساجاراتيم
٨ آ الى قصر ترقا او اي قصر
اخر . .
ساع ، أو مراسل سريع
١٠ آ يجب ان يصل
١٢ آ إلينا بسرعة
كي نتدبر الامر .

٨ ـ الرسالة [A. 973] 16 : **الموكب على مشارف ماري :**

احد عاملي زمري ليم الذي حضر لاستقبالها في دور يخدون ليم يكتب عن وصولها وعن تحضير الطعام لها ولمرافقيها . وهنا نجد وصفا لمسير الرحلة عبر القرى على طريق ماري :

الى مولاي قل ما يلي :
٢ هكذا تكلم سومو خادو
خادمك
٤ هذا الرقم من دوريهدوليم
قد ارسلته الى مولاي
٦ في هذا اليوم ، مولاتي
الى دور يهدوليم ، مساء
٨ ستصل
فقد كتب الى أصقدوم :

١٠ وجبة طعام لمولاتنا
وجماعة العرس ، أحضرها من
١٢ دور يخدوليم ، الى تيلازيبوم
وبما أنني لم أوافق
١٤ فقد ادخلت مولاتي
الى دور يخدوليم
١٦ الركب
في «مدينة» جانيباتوم
١٨ قد انتظر

وبما أن ، شاتمنى في مدينةخوران
٢٠ فقد خشيت
من بني يمين ولم ارسلهم
٢٢ الى جانيبا توم
انطلاقا من خوران . الركب
٢٤ سيركب .يوم في يخدوليم
ستبيت ، ويومها الثاني
٢٦ في ريبناتوم ، وفي ثالث
يوم في ترقا
٢٨ وفي اليوم الرابع
الى صبروم ستصل
٣٠ وستبيت في صبروم
وستنهض في اليوم الخامس
٣٢ حيث ستدخل الى ماري
في الظلام .و.هكذا..!
..(تهشيم) ..

٩ ـ العودة الى ماري :

طريق العودة الى ماري ، يجب أن يمر من ايمار (مسكنة) . ولا توجد لدينا رسائل عن الطريق الا بدءا من هذه المدينة وهي رسـالة واحدة ، ورسالتان من قبل سومو خدو ومساميتار . نلاحظ ان الوصول الى ماري عن طريق دور يخدون ليم ثم ساجارانوم أو عن طريق ترقا . ويبدو أن اختيار الطريق يتعلق بوجود خطر البدو ، بني يمين .

وتذكر الرسائل ان الموكب فيه المرافقون والمرافقات ، ومنهم من سيتولى كتابة تقرير للملك الحلبي عن الرحلة وعن أوضاع العروس بعد استقرارها ، وفيه الوصيفات الرقيقات كما تقدم . ولكن للاسف لا توجد تفاصيل أكثر عن تركيب مجموعة موكب هذا العرس التاريخي ! الذي مضى عليه قرابة ٤ الاف سنة وهو من اقدم الامثلـة على الاطـلاق .

١٠ ـ مراسم الزواج الحلبي والسوري عامة :

لدينا مجموعة وثائق مسمارية تعطي فكرة هامة عن مراسم الزواج في سوريـة خلال مطلع الالف الثاني ، وخاصة في عصر ماري أي القرن الثامن عشر ق.م ، والمثال الاول الذي تقدمه الوثائق هو زواج يسمخ ادو بن شمشي ادو ملك اشور من ابنـة ملك قطنا « بلتوم » Béltum ، وكذلك فان معظم بنات زمري ليم اللواتي تزوجن فيما بعد قدمن مثلا على طرائق الزواج . فلقد أصبح واضحا ان الكلمة الاكادية نديتوم Niditum تعني مجموعة الهدايا التي يقدمها الاهـل لابنتهم وقد ترجمها دوران (ن ARM 2611 p.99.) بـ (dot) وهي البائنة أو المهر بالمفهوم الحديث في مجتمع سورية اليوم . ومما يلاحظ ان النديتوم ذاتها تعطى للبنت التي تترهب وتصبح قديسة . ولقد أصبح هذا الجذر اللغوي (ndn ،ندن) يدخل في تركيب اسماء العلم المقدسة.

والمعنى الاساس لهذا الفعل هو « أعطى » وعندما يدخل في تركيب الاسماء يصبح « عطا » وعطاء ، وهو تركيب معروف في أسماء العلم المعاصرة .

في هذه النصوص لا نجد ما يدل على النديتوم المعطاة لشيبتو ، بل معلومات عن الـ «ترخاتوم» كما هو وارد في النص : ARM T XXV 616 = M.5647 ، الذي يبدأ بتسجيل المواد وفي الختام يذكر في السطر (٦٢) وما يليه ان ما تقدم هو : «ترخاتوم الى بنت ياريم ليم ، التي أخذها معه الى حلب ، أصقدوم (بتاريخ) شهر (d)min-biri سنة استيلاء زمري ليم على (مدينة) كاخات » . يفهم من هذا ان ترخاتوم هي الهدايا التي يقدمها العريس الى العروس.

اما المواد المذكورة في النص آنف الذكر فهي : أساور وأحجار كريمة مذهبة ، وسبحات وحلق. والجدير بالذكر أن كل حلية مسجلة يذكر الى جانبها وزنها وسعرها! فنجد ذكراً لاربع أساور وعدد من المجوهرات متواضعة القيمة الى جانب مزهرية ذات قيمة ملحوظة . ولا يوجد ذكر لاثاث منزلي وانما لكثير من الثياب . وللاسف ان الرقم الفخاري هذا مهشم في قسم منه ولا يسمح بمعرفة قيمة الترخاتوم تماما . وفي امثلة اخرى نجد ذكرا لعدد وفير من المواشي في زواج ابن ملك قطنا . ويمكن القول ان ثروة زمري ليم كانت أقل من مثيله يسمخ أدو بالمقارنة بين ما قدمه كل منهما كترخاتوم(١٢) .

عندما يقدم أصقدوم هذا الترخاتوم ـ هديا العريس ـ لا نجده يذكرها بهذا الاسم . بل نجد في النص (١١) كلمة « mu - tû » وهي « تقدمه » وقد تمت عمليتان من هذا النوع كما لاحظنا ، واحدة قبل مأتم الملكة الام والثانية بعد العودة من الجولة « السياحية » . وكما نلاحظ أن هذه التقدمات تشمل العائلة وليس العروس فقط ، فهي اخر من تلقى التقدمة في النص المذكور . ولربما أن الترخاتوم هي الدفعة الاولى التي ذكرناها وكذلك مجموعة التقدمات تحت اسم بيلوم Biblum في النص [A. 2617] 10 . هذه الكلمة تعني باللهجة البابلية « هدية العرس » وهي مذكورة في قانون حمورابي وهي غير معروفة في ماري كما يذكر دوران (ن. دوران ١٠٢).

وعندما قبل ياريم ليم أن يقدم اليه البيبلوم ، فهذا يعني أنه وافق على الزواج وانتهت مرحلة المفاوضات ، ونلاحظ تعبيره الخاص ادخلوا البيبلوم ! وعلى العكس يكون رفضه عدم الموافقة . هذا من العادات والتقاليد التي ما تزال معروفة ، ونلاحظ من جهة اخرى ان قبول الهدايا السياسية أو رفضها يعني كذلك قبولا أو رفضا لعروض الزائر السياسي .

أما ما يتعلق بحجاب العروس ، فاننا لاحظنا بأن المندوبين قد سارعوا الى وضعه على راس شيبتو بعد دخول البيبلوم وقبول الاب له . وما ان يوضع غطاء الرأس Kitti mum (من كتم) حتى تصبح العروس ملكا لعريسها تخضع لطاعته . وطالما أن العريس غير موجود ، فالوكلاء يحلون محله . هذا وضع زمري ليم الذي لم يكن قادرا على ما يبدو على القدوم الى حلب لانشغاله ، عسكريا وسياسيا **وعلى هذا يعتبر زواج زمري ليم وشيبتو ، حتى الان ، اقدم مثل على الزواج بالوكالة في التاريخ اطلاقا .**

من جهة اخرى ، فان العاهرات المقدسات لا يحق لهن وضع غطاء على الراس ! (انظر المكان نفسه ص ١٠٣) وكذلك العبدات .

واذا كانت علامة الزواج هي وضع الغطاء ، فان **علامة الطلاق** هي أن يقدم الزوج على تمزيق طرف رداء الزوجة بحضور شهود . كما ان العصمة يمكن أن تكون بيد المرأة ولها ان تطلب الطلاق . ولدينا بعض الامثلة : فاحدى بنات زمري ليم تكتب لابيها ان يأتي لاحضارها ، فهي لم تعد تريد أن تعيش مع زوجها . ونجد في بعض الامثلة البابلية ان المرأة تستطيع ان تقول لزوجها « أنت طالق »(انظر ديوران نفسه ص ١٠٤).

١١ ـ المسكن الشرعي ومشكلة الدورة الشهرية :

تبرز مسألة السكن الشرعي للزوجة في الرسالة (١٣) ويتيح لنا النص فهم بعض العادات الاجتماعية على المستوى الملكي على الاقل . نلاحظ أن المشكلة تبدأ عندما يطرح ياريم‌ليم السؤال أين ستسكن ابنتي طالما ان « الحضور الالهي » أو المقدس عظيم في قصر ماري ! وكان جواب أصقدوم ، بيت ابنتك سيكون على مايرام .. وهذا يعني احتمالين : هل سيكون لشيبتو بيت مستقل خاص ، أم أنها ستعيش في (شقة) من القصر الكبير .

يقول ياريم‌ليم في الرسالة السابقة : انه سيكون لابنته بيتها الخاص ، ولكن يجب أن تعيش مع زوجها « تحت سقف واحد » وهنا السؤال أين سيكون بيتها الحقيقي.

اذا اخذنا بنظر الاعتبار أن المرأة في المخاض تعد غير طاهرة من وجهة النظر الدينية اذ لا يحق لها ممارسة الطقوس ، وكذلك الامتناع عن الزوج . فاننا نستطيع أن نفهم ان العادة الحلبية او السورية تقضي بان تسكن الزوجة مع زوجها ـ تحت سقف واحد ـ ولكن في طور العادة الشهرية يمكن ان تتركه لبضعة ايام كما جاء على لسان ياريم ليم ، على اعتبار ان القصر حكمه حكم المعبد ، فعلى الزوجة مغادرته في طور عدم

الطهارة . ولنلاحظ أيضا أن العادات البابلية والمارية السابقة والمسجلة في النصوص توحي بان بعض الزوجات لهن بيوتهن الخاصة خارج القصر من جهة اخرى فان الرجل عندما يكون غير طاهر تنطبق عليه محرمة عدم الدخول الى المعبد . (انظر دوران نفسه ص ١٠٥) .

اللغة العربية في هذهالرسائل :

ان الاكادية هي أقدم لغات العائلة اللغوية القديمة والحديثة في الوطن العربي كما هو معروف ولهجة ماري هي اكادية متوسطة بين لهجة بابل والغرب ـ حلب ـ اوجاريت ـ تل العمارنة . وتركيب الجملة الاكادية يختلف عن مثيلتها العربية فيموقع الفعل ، في آخر الجملة لا اولها . إلا أن جميع حركات الاعراب واحدة ، وكذلك تصريف الافعال والاسماء الى حد ما .يضاف الى ذلك الضمائر الشخصية وغيرها . ولنأخذ رسالة واحدة فقط ونقارن بعض كلماتها بالعربية :

بعلي ، سيدي . مولاي beli-ia .

سليمة . (جذر الفعل سلم وبالاكادية شلم) salmam .

نلاحظ أن حرف ù يقابل واو العطف العربية وهي ذاتها بالاكادية .

جذر الفعل الاكادي هو : ù-wa-i-ra-an-né-ti (ور (waru).
ويفيد معنى : اصدر امراً . او أمَرَ ، وعندما نعلم أن الواو الاكادية أصلها (م) في كثير من الكلمات لذا نجد أن moru تردفيكثير من النصوصالاكادية المتأخرة . أما Warutm فهي مشتقة من الجذر ذاته والتاء للتأنيث . والكلمة هنا تفيد معنى الاوامر أو أمرة . (ن. سطر ٩٤٧).

شمرا اسم نبات . (سطر ٨)	Simru
سكن . بالاكادية « شكن » سطر ٩	ni-is-ku-un-ma
سبت ، وثبت . سطر ١٢ . .الخ	Sa-bé-it
ثانية ، ثانيا	sa-ni-tam
شور . اشار . سطر ١٤	i-sa-ri-is

كما ، كيما . سطر ١٨	ki-a-am
ما ، مما . أما . سطر ١٩	mi-nu-um
أستفِر (سِفرٌ) بمعنى ، أكتتبَ ص ٢٠ .	as-ta-ap-pa-ru-ma
ليركبونها . . ركب . سطر ٢٦	Li-sa-ar-ki-bu-ni-is-si-ma
يوم . سطر ٢٧	uma - am

هذه هي الكلمات التي يمكن مقارنتها بسهولة بالعربية ، في الرسالة الاولى فقط. وليست غايتنا هنا تقديم دراسة لغوية مقارنة بين العربية والاكادية ، فالامر يحتاج الى صفحات . ولكن اظهار مدى **القرابة اللغوية بين هذه الرسائل التي كتبت منذ اربعة آلاف سنة وبين اللغة التي نتكلمها ونكتب بها** . وتجدر الاشارة هنا الى أن كثيرا من الكلمات والصيغ المنطوقة في الدارجة ، نجدها مكتوبة في كثير من الحالات في الرسائل الاكاديــة .

خاتمـــة :

ان هدف ترجمة مثل هذه الرسائل من اللغة الاكادية الى اللغة العربية يرمي الى مجموعة من الاهداف والفوائد :

١ ــ ان العامل اللغوي قوي جدا ، ويثبت مدى بقاء اللغــة الاكادية في اختهــا العربية عبر آلاف السنين ، ونحن نعلم مدى أهمية العامل اللغوي في تكوين حضارة شعب ما . ولهذا نجد أن الاكادية تقدم لنا أقدم أمثلة على لغة أم للعربية ، وغيرها من العائلة القديمة . **ان دراسة اللغة العربية وتاريخها ، لا يمكن باي حال من الاحوال ، أن يتوقف عند ظهور أول نص مكتوب بالحرف العربي المعروف اليوم ، بل ان دراسة اللغة العربية وتاريخها يمتد عبر خمسة آلاف سنة ، فتقدم لنا النصوص الاكاديةأمثلة حية على اللغة الام للعربية وهي الاكادية بلهجاتها المختلفة .**

٢ ــ برغم أصالة العامل اللغوي وأهميته في حضارات العرب القديمة، فان عامل تكوين شخصية الفرد والمجتمع ونمط عيشه وتفكيره تعد من العوامل الهامة في تكون حضارة شعب ما . وفي عملية البحث عن جذور العادات والتقاليد ، وجـذور العلوم والابحاث وانماط التفكير ، نجد أن مثل هذه النصوص ــ وقد بلغت أكثر من مليون

لص ــ تقدم لنا أقدم مثل على أنماط عيشنا اليوم وتفكيرنا وطقوسنا . **وشاهدنا على ذلك الحجاب الذي قرانا عنه في احدى هذه الرسائل ، والمسكن الشرعي للمرأة المتزوجة ، وطقوس الطهارة والنجاسة وسيادة قانون الاب في المجتمع الخ..**

٣ ــ نريد أن نقول ان الانسان مع المحيط يشكلان وحدة قادرة على الثبات والاستمرار مثل عامل اللغة . فاللغة تخضع لعامل النطق وعامل النطق بتغير مع الزمن ، وتفقد اللغة من وحدانيتها عندما تتوزع على مساحة جغرافية واسعة . ولكن الانسان والمحيط وما يخلفانه من عادات وأعراف وقوانين تساعد على فهم أكثر للترابط والتواصل بين حضارات الماضي وحضارة اليوم . **نريد أن نقول ان أي انقطاع** حضاري لم يحدث منذ ٥ الاف سنة حيث ظهر أول كلام سومري ــ واكادي مكتوب، **حتى يومنا الحاضر رغم التغيرات في أسماء القبائل والشعوب ، ولهجاتها المتعددة فالانسان والحضارة موجودان بشكل مستمر ولا تشكل الحدود الجغرافية لقبيلة او شعب أي حاجز بينها وبين حضارة العرب القديمة والحديثة .**



تمكنت من اعداد هذه الدراسة أثناء اقامتي في معهد الدراسات الشرقية في شيكاغو ، ربيع وصيف ١٩٩٠ ، بفضل برنامج التعاون بين جامعتي دمشق وشيكاغو .

الحواشي :

(١) Archives Royales de Mari .

(٢) J. M. Durand, Archives Epistolaires de Mari I/1, ARM XXVI, (erc) Paris 1988.

(٣) حول تاريخ حلب في القرن ١٨ ق.م وجميع المصادر المتعلقة بها حتى عام ١٩٨٥ في موضوع اطروحتي للدكتوراه ، انظر :

(٣) F; Abdallah, Le Royaume d'Alep / Yamhad et les villes de Syrie du Nord, 1800-1594 avant. J - C. Université de Paris I (La Sorbonne) 1985 .

(٤) انظر جان ماري دوران ARM 2611 ص ٩٥، فقد نشر مضمون هده الرسائل في مؤتمر الاشوريات في باريس ، انظر :

F. Abdallah. "La Famme dansrile Royaume d'Alep au XVIIIe. Siécle av. J-C. " dane La Fcmme dans le Proche - Orient antique - XXXIIIe RAI, 1986, pp. 13-15.

(٥) فيما يتعلق بعودة زمري ليم الى عرش ابيه ، انظر :

D. Charpin, J-M. Durand, « La prise du pouvoir par Zimai-Lim» M. A. R. I. 4, p. 336 - 338 .

(٦) ان ترتيب سنوات حكم زمري ليم التي عرفت من خلال تاريخ الرسائل بسنوات واحداث حكمه، يخضع لاعتبارات ودراسات مقارنة ، لمزيد من التفاصيل لابد من الرجوع الى:

J.M - Durand, ARM 26/1, p. 96, note 3.

(٧) انظر حول هذا الموضوع : M. A. R. I. 2, 1983, pp. 219 - 220 ; Durand, ibid

(٨) من اجل هذه المعلومات والوثائق انظر : Durand, ARM 26/I, p. 96 N. 5

(٩) المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع والنصوص ستنشر في المجلد ٢٧ الذي سيصدر بعنوان :
A.E. M1/3, L'Affaire d'Alahtum

(١٠) دوران نفسه سينشر هذه المعلومات في المجلد المشار اليه اعلاه .

(١١) « La Prise du pouvoir ..» , ibid.

(١٢) P. Sanlaville , M.A.R.I. 4, p. 24 .

(١٣) لمزيد من المعلومات انظر :

J. M. Durand (ibid) p. 102-102).

اخبار جديدة عن نفوذ مملكـة يمخد (حلب)
في منطقـة الخابـور

د. فاروق اسـماعيل
كليـة الاداب ـ جامعة حلب

كانت مملكة يمخد ومركزها مدينـة حلب واحدة من ابرز ممالك سورية وبـلاد الرافدين في القرن الثامن عشر ق.م . ورد اول ذكر لها في وثائق ماري العائـدة الى عهد يخدون ليم (القرن التاسع عشر ق.م) حيث كان يحكمها **سومو ابخ** ، وفي عهده كانت تحاول تشكيل قوة سياسية مناوئة لنفوذ ماري المتزايد ، معتمدة في ذلك على جمع شمل حكام المدن الصغيرة في مناطق الفرات الاعلى ، ولا سيما قبائل 'بني يمينا' ولكنها أخفقت ولم تستطع التأثير في قوة يخدون ليم .

عندما بدأت سيادة شمشي أدو الاول على مملكة ماري وما حولها اتخذ سياسة تأليب القوى السياسية الصغيرة المحيطة بيمخد عليها ، ومذاك برز العداء الطويـل بين يمخد وقطنا ، ولكن سومو ابخ استطاع برغم ذلك الحفاظ على وحدة مملكته وتأمين سيادتها على منطقتها التي كانت تمتد بين كركميش وتوتول من جهة ، وجبل البشري ومناطق قطنا فمنطقة العاصي من جهة اخرى .

في عهد خلفه **ياريم ليم الاول** قوي الدور السياسي ليمخد في المنطقة ، ولاسيما بعد موت شمشي أدو الاول . اذ استطاع زمري ليم الاول ان يمد نفوذه الى مناطـق شرق دجلة ، وان يتولى حماية مدن هناك مثل دير ودينيكتم ، كما تحققت بفضـل مساعدته عودة زيمري ليم الفار الى عرش ماري .

في عهد ابنه **حمورابي الاول** استمرت ، في باديء الامر ، العلاقات الودية بـين القوى الرئيسة الثلاث يمخد ، ماري ، بابل ، بدليل أنه أرسلت قوات يمخدية الى حمورابي بابل بقيادة زيمري ليم حاكم ماري، ولقيت هناك ترحيبا وتقديرا ،ولكن ذلك لم يدم طويلا ، وكانت ماري ضحية تنامي قوة حمورابي بابل وشعوره بان العالم يجب

---

* اعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

ان يخضع له، وكان حمورابي حلب أضعف من ان يواجه ذلك ، ولم يحرك ساكنا عندما دمر حمورابي البابلي ماري (حوالي ١٧٦١ ق.م) بل بدأ التخطيط للتغلغل في مناطق الخابور وسنجار التي كانت تحت سيطرة ماري سابقا .

حتى سنين خلت كانت اخبار منطقتي الخابور وسنجار وعلاقاتهما الخارجية بعد سقوط ماري غير وافية لقلة الشواهد الكتابية واقتصارها على الوثائق المكتشفة في تل الرياح في منطقة سنجار .

لقد تفككت كما يبدو المملكة الموحدة التي أرسى أسسها شمشي أدو الاول الى ممالك مدن صغيرة على شكل مشيخات ، وبرزت بالتالي أطماع القوى الخارجية الكبرى في السيطرة على اجزاء منها ، وتجلى ذلك في حملات حكام أشنونا وعيلام على منطقة الخابور ، وكذلك في بروز النفوذ اليمخدي هناك . وهذا الوضع الجديد ترصده الوثائق الكتابية التي اكتشفت عام ١٩٨٧ في تل ليلان (شخنا / شبت انليل القديمة، مركز مملكة آپوم) . وهي تكشف بوضوح ولاول مرة عن النفوذ اليمخدي الحلبي هناك في عهد ملكها حمورابي الاول .

لقد كانت مملكة آپوم « بلاد القصب » واحدة من أقوى الممالك الصغيرة في منطقة مثلث الخابور الشرقية متاخمة لايدا مرص في القسم الغربي منها ، وبذلك كانت تشكل منطقة ربط جغرافي مع مناطق شرق دجلة وسنجار ، وقد ادرك حاكم يمخد (حلب) أهميتها الجغرافية والسياسية ، واستطاع كسب صداقتها لتحقيق نفوذه في المنطقة. ففي بداية عهد ملكها **موتيا** (منتصف القرن الثامن عشر ق.م) تحقق تعاون كامل بين المملكتين ، وتبادل الملكان الرسل والخدمات . فقد كتب اليه حمورابي طالبا منه المساعدة في ارسال مبعوثي بلاد پوراتم Purattum الواقعة في مقاطعة نمخم Numhum بين بلاد آپوم ودجلة ، وذلك عندما قررت التبعية لملك يمخد والانضواء تحت حمايته (L 87 - 1309)

وفي رسالة اخرى يشير حمورابي الى تعليمات عسكرية هامة ارسلها اليه مع خدمه ، ويطلب منه أن يوليها الاهتمام الكامل (L87 - 1278) ، وثمة رسالتان اخريان منه الى موتيا يصعب فهم مضمونهما بسبب حالتهما السيئة (L87 - 1302, 1355) وخلال عهده برزت مشكلة تمس سيادة حلب الخارجية ، اذ تشير رسالة (L87 - 929+944) الى ان بلاد يسّان ويموتبلئم المحيطة باندريغ ورزاما حوالي سنجار والواقعة تحت نفوذ حكام حلب قد تعرضت للغزو والتخريب ربما بدعم من حكام اندريغ ورزاما ، ويسمع حمورابي بالامر ويوجه اصابع الاتهام الى حكام كردا وآپوم وكرنه / قطارا وذلك بوجود بعض رسلهم . ويزعج خبر الاتهام هذا حاكم كردا

فيكتب الى ملك آپوم محرضا اياه على الاحتجاج لدى تبلو المندوب الحلبي المقيم في شخنا /شبت انليل وطالبا منه ان يرسله اليه للتحقيق في الامر بحضوره مع حكام بعض المدن القريبة من منطقة التمرد . ان ما كان يقلق حلب في هذه المسألة هو الخوف من استغلال بابل الفرصة والعمل على ازالة سيادة حلب على تلك المنطقة . ويبدو ان هذا الاتهام غير المحقق قد سبب الفتور لفترة في علاقات يمخد وآپوم، ولذلك تحول حمورابي الى الاعتماد على حاكم آخر في المنطقة هو خالو رابي الذي لا نعرف بالضبط مركز حكمه ، ولكنه كان على الارجح في منطقة جنوب بلاد آپوم شرق كمنت .

كانت هذه فرصة مناسبة لخالو رابي كي يبرز نفسه ودوره في المنطقة ، ولذلك جند كل قواه لتحقيق آمال حكام يمخد المعقودة عليه .

في حلب عهد حمورابي الى اخي دبخ القائد العسكري تنظيم حملة على تلك البلاد الثائرة قوامها ستة آلاف محارب . وفي منطقة الخابور راح خالو رابي وبن دمو السفير الحلبي المتنقل هناك يتباحثان في خط سير الحملة والامور المتعلقة بها .

فمن رسالة من إيِّا مالك حاكم كخت الى موتيا (L87 - 936) نعلم ان بن دمو التقى خالو رابي و « الملوك » (اشارة الى بعض حكام المنطقة) في مدينة زرآنوم Zar' anum (وهي مدينة غير بعيدة عن شخنا) وذلك لعقد تحالف بينهم، والتباحث في الوضع الجديد .

وفي رسالة اخرى (L87 - 560) نقرأ ان رسولا لاخي دَبخ وصل الى خالو رابي، وقال له : لقد بدأت التوجه نحو اندريغ ومعي ستة الاف محارب ، سأسير عبر منطقة الخانيين وبين قطعان الاغنام .. وحظائر الخانيين .. ولن يحصل [أي اعتداء]، ليتك تفرح .

في عهد **تل ابنو** الذي ارتقى عرش شخنا/شبت انليل في السنة الاخيرة من فترة ولاية خابيل كينو (السنوات الاولى من النصف الثاني من القرن الثامن عشر ق.م) عادت العلاقات الحسنة بين المملكتين ، فقد كتب حمورابي الى تل ابنو مباركا ارتقاءه العرش ، ومؤكدا احترامه سيادته ، قائلا : « المدينة مدينتك والبلاد بلادك ..». (L87 - I383).

ومن رسالته الثانية الى تل ابنو يتضح تحسن العلاقات والتعاون العسكري بينهما وقبول ملك آپوم باستخدام المحاربين الحلبيين لارضه مقابل خدمة مصالحه ، يقول له فيها : « سابقا ارسلت اليك رسولي بن دمو ، وانت نفذت قرارك اذ وزعت [جنده] في بلادك ، وقد كانوا افضل خدمة لك من ذي قبل . الان عليك ان تؤدي

خدمة جيدة لأبيك ، ضع مخططا مع رسولي بن دمو ، وقم [بزيارة] الي . مسألة أخرى: لقد قبض في أمورسكم على خدم لي ،اكتب [الى المسؤولين فيها] كي يحرروا خدمي ، ثم اتخذ انت قرارا في وضعهم » (L 87 - 472) .

لكن تل ابنو لم يرض تلبية طلب حمورابي بزيارته قبل ان يتحقق من حسن نواياه بمعاهدة صداقة تبرم بين المملكتين . في هذا المجال برز أيضا دور خالو رابي في التقريب بينهما ، ففي رسالة من خالو رابي الى تل أبنو نقرأ : « لقد استمعت الى رسالتك المرسلة الي ، اذ كتبت عن عزمك على عدم السفر الى حلب . بما انك لن تسافر ولن تتقابل مع الملك [حمورابي] دع أحد خدمك الثقاة يقود حاميتك الملكية ، ويذهب معي الى حلب . سوف يلمس الملك حلقه من أجلك . (وهذا تعبير رمزي عن الالزام الذاتي والتعهد بتحقيق ما يرضي الطرف الاخر) ، وليرقبه خادمك ، وسوف ينقل اليك بعدها كيف لمس الملك حلقه من أجلك ، وعندها سيبتهج قلبك بالتأكيد . وعندما اعود من حلب تعال الي نتواجه ، وسأوضح لك آراء الملك » . . (L 87 - 227) .

لا نعتقد ان تل ابنو اقتنع باقتراح خالو رابي ، مما اضطر هذا الاخير الى السفر وحده الى حلب ، ففي رسالة ثانية منه يذكر انه قابل الملك ، ويخاطب تل أبنو قائلا : « رأي الملك يتفق مع رأيي ، فليبتهج قلبك . لقد ناقشت أمورك ــ كما تريد ــ مع الملك . لا تكن متهاونا فيما يتعلق بمناطق الرعي . ليت تحياتك واخبارك تصلني على الدوام » (L 87- 1398) .

لا توضح الوثائق أسباب الحذر الذي كان يتملك تل أبنو ، وقد يكون من بينها عدم اطمئنانه لمغادرة بلاده خوفا من تمرد داخلي ، كما لا تساعد على معرفة حدود تحسن العلاقات مع ملك يمخد ، ولكن يمكن استخلاص حرص حمورابي على الاتفاق الكامل مع تل ابنو ، وربما كان مرد ذلك انه لم يقتنع تماما ببديل اخر قوي يخدم مصالحه في منطقة الخابور ، وعلى الرغم من ان خالو رابي بذل جهده واظهر كل الاخلاص له أدت وشاية من بوريا حاكم اندريغ الى تحول حمورابي عنه . لقد كتب خالو رابي الى تل ابنو شاكيا : « لقد افترى علي بوريا امام حمورابي ، وقال :لقد عقد خالورابي معاهدة مع أحد الاعداء ، لقد حلف اليمين وذبح حمارا » (L87 - 832) وذبح حمار كان أحد طقوس عقد المعاهدات .

يبدو أن ذلك تم في فترة انصرف فيها حمورابي عن الاعتماد على حكام منطقة الخابور بشكل عام ، ووجه انظاره نحو اندريغ منتهزا فرصة بروز الخطر البابلي على دويلات منطقة سنجار .

لقد مد يد العون نحو اندريغ فقبلت التبعية له خوفا من الاطماع البابلية المتنامية وتهديداتها لمنطقة سنجار . لقد افرح تعهد حمورابي بالحماية حاكم اندريغ . وكتب الاخير الى تل أبنو يعلمه بذلك قائلا : « لقد جمعنا رسلنا وأرسلناهم الى حلب ، ولكنهم عادوا بعد أن وصلوا مدينة كبشم (في أعالي المنطقة الواقعة بين الخابور والبليخ ، شرق أو جنوب شرق حران) ، اثنان سريعان منهم . . استطاعا المتابعة الى حلب عبر توتول والوصول الى حمورابي ، وقد سطع [وجهه] كشروق الشمس . لقد قال كل الكلمات الجميلة التالية : « لن أقطع (المساعدة عن) بوريا ، طالما انه قد . . ملك بابل . . والبابليون سوف [يصلون] كركميش . سوف يأتون أولا الى هنا ، و [يهاجمون] ابني بوريا . لذلك سوف ينطلق عشرة آلاف محارب بقيادة أخي دنج، وسيمكثون سنتين في اندريغ ، وينفذون كل رغباته (رغبات بوريا). ولانهم سيحققون رغباته ليته يأتي الى هنا مع أخي دبخ ويقابلني » . لقد وصل هؤلاء المحاربون الى اندريغ حقا عبر طريق الصحراء ، وهم يقيمون معي (L87 - 462+489) .

لا تفيدنا الوثائق بمعلومات أكثر عن هذا التحول في سياسة حلب تجاه منطقتي الخابور وسنجار ، والامل معقود على وثائق أخرى تكتشف مستقبلا في تل ليلان أو غيره في اضاءة مجريات الاحداث في السنوات اللاحقة .

ما هو جدير بالبيان أيضا تلك الشخصية السياسية الحلبية التي قادت النشاط اليمخدي هناك . أعني **بن دمو** الذي يستحق بحق ان يوصف بـ « سفير حلب المتنقل في منطقتي الخابور وسنجار » .

لقد كان بن دمو ممثلا شخصيا للملك حمورابي ، ومقيما شبه دائم في المنطقة البعيدة يتلقى التعليمات من سيده ويتنقل بين أنحاء الخابور وسنجار لحماية مصالح حلب السياسية والاقتصادية ، ويسهم في حل المشاكل القائمة ، اضافة الى نشاطات مدنية وعسكرية متنوعة . ويبدو انه استمر في اداء هذا الدور في عهد ابان ايل بن حمورابي وخليفه [انظر (L87-628)] . وهو بذلك يشبه البابلي موتو خدكيم كما صورته وثائق تل الرماح .

لقد وصف بن دمو بـ « زعيم الاموريين SAG GAL MAR.TU.MES (L87-765) واشارت الوثائق مرارا الى التقائه بملك البلاد ، وذكر في الوثائق الاقتصادية ذكرا يشير الى التقدير الكبير الذي كان يلقاه ، فقد صدرت باسمه هدايا ومنح قيّمة كثيرة مثل الاواني الفضية وانواع من الاحذية والثياب ووجباب طعام فاخرة (انظر مثلا (L87-638, 184,977a, 474) . كما تلقى الفتيان الذين كانوا يتبعون له ،

ويشكلون حاميته المرافقة ويتنقلون ناقلين الاخبار والتعليمات، موادا كثيرة قيمة ايضا. كما تجدر الاشارة الى وثيقة تسجل استلام طباخ بن دمو ثوبا ، ويبقى التساؤل قائما : هل كان قد احضر معه طباخا من حلب ، أم خصص له القصر في شخنا طباخا من أهالي البلاد .

وثمة رسل اخرون قدموا من حلب وتلقوا الهدايا من أحذية وثياب عندما غادروا شخنا/شبت انليل مثل Yaridi - Addu, Irimmunu, Ahuni, Iluranu

وتحدثنا وثيقة اقتصادية عن جماعة حلبية زارت البلاد . وعند العودة تلقى أفرادها أواني فضية كبيرة وثيابا من النوع الاول (L87 - 653) .

إن أهمية هذه الاخبار تنبع من جدتها وتفردها برصد تلك الفترة التاريخية القصيرة (حوالي منتصف القرن الثامن عشر ق.م ومطلع نصفه الثاني) ، مشكلة بذلك جسرا بين أخبار مملكة يمخد/حلب في وثائق ماري والالاخ .

إن ما يؤسف له هو غياب وثائق من تلك الفترة من حلب العاصمة نفسها ،وبقاء أرشيف ملوك حلب القدامى مجهولا غائبا تحت حلب الجديدة .



العلاقات السياسية بين مملكة ارفاد الارامية وآشور
حتى اواسط القرن الثامن ق.م

د. محمد حرب فرزات
جامعة دمشق

نحاول في هذ البحث تسليط بعض الاضواء على المرحلة التاريخية التي سبقت عقد المعاهدة المعروفة بين متع إل برعترسمكي آخر ملوك أرفاد المملكة الارامية القديمة في سورية الشمالية ، وبرجاية مدك (كتك) من أجل المساعدة على تفسير بعض الغاز النصوص الارامية المعروفة بنقوش سفيرة . (راجع الحالة الراهنة للبحث في : لومير ودوران (١٩٨٤) . A. Lemaire et J. - M. Durand, 1984, p. 3-21, 131 - 147)

ولهذه النصوص في هذه النقوش الارامية القديمة اهمية تاريخية كبيرة ،ويتوقف على تفسير عدد من المسائل الشائكة التي تطرحها رسم صورة التاريخ السياسي الصحيح لهذه المرحلة المهمة من تاريخ سورية القديم ما بين أواسط القرنين التاسع والثامن ق.م . ويبقى أهم الاسئلة المطروحة فيها :

من هو برجايه ؟ واين هي مملكة (كتك) ؟ وضد من وجه هذا التحالف ؟ وما هي حدوده ؟ وبدون الاجابة عن هذه الاسئلة يبقى عدد من المسائل التاريخية في حيز الفرضيات .

لقد كنا حاولنا مناقشة هذه الاسئلة واقترحنا أجوبة لها من قبل في دراسة بعنوان : (مملكة أرفاد الارامية ، ١٩٧٢ ،
H. Farzat, Le royaume araméen d'Arpad, 1972)

كانت في حينها أول دراسة شاملة عن تاريخ هذه الدولة الارامية وعلاقاتها مع الدول المعاصرة ، وظهرت بعدئذ دراسات أخرى كان اكثرها اثارة للنقاش الدراسة المشتركة للاستاذين لومير ودوران ، دو نأن يؤدي ذلك الى إغلاق البحث في الموضوع، فالمسائل المطروحة من قبل ما زالت قائمة ، تناولها فيما بعد عدد من الباحثين كان اخرهم أ.مالامات (١٩٧٦) و ن.نعمان (١٩٧٨) .

---

* أعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٢ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

أما في بحثنا هذا ، فاننا سنعمل على إيضاح العلاقات بين مملكة ارفاد وآشور في النقاط التالية :

١ ــ ارفاد واشور قبل ادد نيراري الثالث .

٢ ــ العلاقات بين أرفاد واشور في زمن أدد نيراري الثالث .

٣ ــ محاولة لاعادة النظر في العلاقات بين أرفاد وآشور من خلال نصوص سفيرة الارامية ومسلتي انطاكية ومرعش الاشوريتين .

ــ ارفاد واشور قبل ادد نيراري الثالث :

ماتزال المعلومات عن مملكة ارفاد ، وهي مملكة بيت أجوشي الارامية ، التي امتد سلطانها على رقعة واسعة من سورية الشمالية ، محدودة ومبعثرة ، وفيها ثغرات كثيرة . فمع التحولات السكانية والسياسية التي عرفتها سورية والمشرق القديم في مطلع الالف الاول ق.م ، تطورت الاوضاع في منطقة حلب وأخذت تذوب ملامح الدولة الامورية الحثية ياحان على أيد الاسرة الآرامية الحاكمة الجديدة من بيت أجوشي . وقد عاصرت هذه الدولة التي تمكنت من ترسيخ قواعدها في شمال سورية الذين نعرف منهم جوشي ملك **ياحان** وارامي أو أدرامي مارجوشي ، رجل جوشي وعتر سمكي وابنه متع إل اللذين عرف كل منهما بلقب ملك **أرفاد** . وكان أولهم معاصرا لآشور ناصر يال الثاني (٨٨٣ ــ ٨٥٩) وآخرهم معاصرا (لكل من آشور نيراري الخامس (٧٥٤ ــ ٧٤٥) وتكلات بلاصر الثالث (٧٤٤ـ٧٢٧) .

والى ما قبل سنوات لم تكن تتوافر معلومات موثقة كافية عن هذه الدولة التي غدت في النصف الاول من القرن الثامن ق.م . واحدة من أهم دول سورية الشمالية.

وقد ذكر ارامي Arame مار أجوشي معاصرا لكل من شلمانصر الثالث ملك آشور (٨٥٨ ــ ٨٢٤) وسردور الاول ملك اورارتو ، أما ماكان يعرف عن عتر سمكي والد متع إل فكان ضئيلا جدا . وقد ارتبط تاريخ مملكة أرفاد في مراحله الاخيرة بنقوش سفيرة وباتجاهات الباحثين ، لا سيما اللغويين منهم في تفسيرها . وتأثر تفسير نقوش سفيرة الى حد كبير بطبيعة نصوص المعاهدة الاخرى الشهيرة بين آشور نيراري الخامس ومتع إل ملك ارفاد وهي معاهدة تبعية من الواضح فيها أن متع إل كان تابعا للملك الآشوري لكن النصوص الاشورية التي نشرت في السنين الاخيرة تلقي مزيدا من الضوء على التحركات الآشورية في سورية وتطلعنا على مطامح عتر سمكي والد متع إل مما يستدعي إعادة النظر في الظروف التاريخية المتداولة بين المهتمين بموضوع العهود المعقودة بين متع إل وبرجاية .

إن نشر نصوص مسمارية آشورية تاريخية جديدة مؤخرا ، وهي نصوص واضحة الخط ، كتبت بأسلوب تقريري مفصل ، وتعود الى زمن الملك أدد نيراري الثالث ، يسد فراغا ملحوظا في المعلومات عن العلاقات الاشورية ـ الارامية في هذه الفترة التي امتدت اكثر من قرن من أواسط القرن التاسع الى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد .

وقام بنشر هذه النصوص المسمارية فيصل دونباز ، من اصطنبول ، ضمن منشورات مشروع نشر نقوش بلاد الرافدين في تورانتو بكندا :

(Donbaz, Veysel, Two Neo - Assyrian Stelae in the Antakya and Kahramanmaras Museums, in Annual Review of The Royal Inscriptions of Mesopotamia Project. Vol. 8, 1990 = ARRIM, TORONTO, (Ontario, CANADA)) .

وقبل التحدث عن هذين النصين المنقوشين نحاول التعرف على الاوضاع في سورية قبل مجيء أدد نيراري الثالث ، فقد وقعت في كلحو ، العاصمة الاشورية ، في السنين الاخيرة من حكم شلمانصر الثالث أضطرابات خطيرة ، حين كان يقود بنفسه حملة على الحدود الشمالية الشرقية ، وقد تركت هذه الاضطرابات تأثيرا خطيرا على كيان الامبراطورية الاشورية ، واغتنمت الدول الواقعة غربي الفرات أي في سورية الداخلية وعلى الساحل الفرصة للتحلل من السيطرة الاشورية الضعيفة وممارسة سياسة مستقلة فيما بينها . ومن المعروف أن شلمانصر الثالث لم يستطع ان يفرض سياسته على تحالف الدول الارامية ـ الكنعانية في قرقر (٨٥٣) ، لكن شمشي أدد الخامس (٨٢٤ ـ ٨١١) ، الذي خلف اباه تمكن في سنتين من قمع الاضطرابات في العاصمة الاشورية واسترد نفوذ المملكة في بابل بعد التوصل الى عقد معاهدة بين الدولتين الرافديتين ، اشور وبابل :

(E. F. Weidner , « Der Vertrag Samsi - Adad V mit Marduk Zakir Sumi I » Afo, 8, 1932/33, p. 27-29).

أما الدول السورية فكانت قد عادت الى منازعاتها القديمة . وقامت دمشق بزعامة ملكها حزائيل تسعى الى فرض هيمنتها على دول المنطقة الارامية ـ الكنعانيةفي سورية وفلسطين واستؤنفت سياسة برهدد الثاني ، وبعد وصول حزائيل الى القدس اضطرت مملكة يهوذا في جنوب فلسطين الى قبول التبعية للملك الارامي، (سفر الملوك الثاني ١٢ : ١٧ـ١٨) .

ومن جهة اخرى يطلعنا نقش كيلامو ملك سمأل الواقعة شمال جبال الامانوس، وهو نقش باللغة الكنعانية ـ الفينيقية ، على جانب من العلاقات بين الدول السورية

الشمالية في أواخر القرن التاسع . وقد وجدت سمأل التي اختارت ان ترسل بشكل نظامي مبالغ سنوية الى اشور منذ أيام شلمانصر الثالث طلبا للحماية ، صعوبة كبيرة في ترتيب علاقاتها مع جيرانها الاقوياء على حدودها ، على حد وصف النص نفسه، واهمهم من الشرق بيت أجوشي ، وحطينا / أونقي جنوبا ، أي العمق ، حول حوض العاصي الاسفل ، وهي منطقة انطاكية . وقد ذكرت هذه المنطقة باسم اونقي/ العمق في الوثائق الاشورية لاول مرة في زمن شلمانصر الثالث :

(ARAB, I, 613; Elliger, Festschrft Eissfeldt, 1947, s. 80; KAI II, 24).

الذي استطاع ان يتدخل في وجه سياسة بيت اجوشي التي كانت تشجع حطينا / اونقي ضد سمأل حليفة اشور . أما سياسة بيت اجوشي في منطقة حوض العاصي فكانت تقوم على مبدأ أساس ينص على منع مملكة حماة من مد نفوذها نحو الشمال، ومنع مملكة شمأل من مد نفوذها نحو حوض العاصي جنوبا ، وذلك حرصا على مصالحها في خضم الصراعات الاقليمية المحلية .

كانت مملكة حماة مملكة قوية بين الدول السورية الارامية التي انتقل الحكم فيها من أيدي حكام حثيين الى أيدي أمراء وملوك آراميين ، أشهرهم زكر ملك حماة ولعش .

وقبل وصول زكر الى الحكم في حماة كان أورخليني ملك حماة قد انضم الى الحلف السوري الحثي ـ الآرامي ـ الكنعاني وعلى رأسه ملك آرام / دمشق لمحاربة ملك اشور شلمانصر الثالث ملك اشور في قرقر على العاصي (٨٥٣ ق.م).

وتمكن الامراء السوريون بعد معركة ضاربة من إرغام الملك الاشوري على التراجع خائبا دون أن يحقق الهدف المرجو من الحملة . وعندما جاء زكر الى الحكم في حماة بعد ذلك انفرد في مواقف البت عليه الدول السورية الاخرى بزعامة ملك دمشق ، مما أدى الى الحرب والى محاصرة الملك زكر ، ملك حماة ولعش في مدينة حزرك التي كانت عاصمة اقليم لعش . وكان زكر يوحد في شخصه الملكي المملكتين المتحدتين معا في مملكة واحدة مزدوجة افترض لاند سبرجر أن اسمها الموحد هو كتك التي هي محصلة تحالف مملكتي حماة وحزرك واتحادهما . وكانت هذه المملكة واراضيها محل تنافس بين ملك آرام دمشق من جهة وملك أرفاد / حلب (بيت أجوشي) من جهة اخرى لانها واقعة بين الدولتين . وكان لاندسبرجر B. Landsberger أول من اشار الى فرضية مفادها ان كتك هي حزرك ، وهي فرضية تزداد اهميتها بعد التنقيبات الحديثة في آفس :

(B. Landsberger, Sam'al, 1948; G.Buccellati, Cities and Nations of Ancient Syria, 1967, p. 145).

وقد عثر على نقش ذكر في آفس ١٩٠٣ ، ونشر يونيون النص لاول مرة ١٩٠٧، وهو موجود في متحف اللوفر في باريس).

يوضح هذا النص الارامي المهم الوضع الجغرافي ـ السياسي المنقسم في سورية في تلك المرحلة ويعدد أسماء الدول القائمة آنذاك ، وقد ابرز هذا النقش ما كان يتمتع به زكر من مؤهلات سياسية تمثلت بالطموح والنشاط والقدرة على التحرك الفعال. ويمكن ان يعد هذا النقش اثرا اعلاميا ما يزال صداه يتردد حتى اليوم ، فهو ملك حماة ولعش ، جعله ربه بعل شمين ملكا على حزرك ، « وهملكني بعل شمين بحزرك» وهو[1] الذي أيده ونصره ومكنه من فك الحصار عن عاصمته حزرك وارغم المهاجمين على التراجـع .

في هذا الصراع على النفوذ بين الدول السورية ، وقف ملك ارفاد ، ومـن المرجح ان يكون عترسمكي المعاصر لادد نيراري الثالث الى جانب ملك دمشق الـذي كان زعيم التحالف ومحركه وقد وجد ملك أرفاد فرصة نادرة للتحالف مع ملك دمشـق الارامي لمواجهة مطامع ملك حماة ولعش زكر ، وانضم اليهما ملوك قوي في كيليكية ، وأونقي / العمق على العاصي ، وجرجم على سـفوح طوروس ، وشمأل في شمال الامانوس ، وملاطية في سورية العليا وسبعة ملوك آخرون لم تذكر أسماؤهم .

توضح هذه الوثيقة مدى تجزؤ سورية السياسي منذ عصر العمارنة (النصف الثاني من الالف الثاني ق.م). وهذا التنافس الشديد بين الدول الرئيسة في البلاد في خضم النزاع على النفوذ في المنطقة بين الدول والقوى الكبرى المحيطة (آشـور وأوراتو) . ومثل هذا الوضع السياسي كان يحول دون اتحاد البلاد على نحو فعال ضد مطامع الملوك الاشوريين التوسعيين .

فبعد ان امنت مملكة دمشق حدودها الجنوبية أيام حزائيل ، وبعد ان فتحت الطرق أمام تجارتها حتى العقبة وبسطت سيطرتها على الطريق الملكية الكبرى الممتدة من شرقي الاردن الى الجزيرة العربية قام برهدد الثالث وهو ابن حزائيل، بتوجيـه سياسته نحو الشمال : (A. Dupont-Sommer, Les Arameens, p 47) وكان حليفه السياسي العسكري في هذه المرحلة ملك أرفاد برجوشي الوارد ذكره في نقش والذي يحتمل ان يكون عتر سمكي كما يمكن ان يستنتج من نقش انطاكية ونقش كهرمان مرعش . ومهما يكن فان الموقع المميز الخاص لبرجوش في نص زكر يعكس الـدور المهم لهذه المملكة الارامية في شمال سورية منذ آرامي Aramê المعاصر لشلمانصر الثالث . ولم يكن ملك ارفاد متساهلا تجاه مطامع أشور كما كان يفعل ملك سمأل ،

وعمل خلفه برجوش على وضع حد لتوسع مملكة حماة باتجاه الشمال والجنوب وهو ما فرض التحالف بين الدولتين المعنيتين ، وهما برجوش ملك أرفاد وبرهدد ملك دمشق ، اللذان سعيا لتوسع التحالف للتمكن من محاصرة زكر في حزرك ، لكن زكر نجاأخيرا من الحصار ونتائجه . ويرى س. سميث (C.A.H. III,p. 28) ان الصراع بين الدول الارامية كان لمصلحة آشور التي وقفت الى جانب زكر . ويلاحظ سميث ان أدد نيراري الثالث وجه ، بعد مهاجمة حزرك من قبل التحالف ، حملات عنيفة ضد اعداء زكر بين سنتي ٨٠٥ـ٨٠٢ (ARAB, I,739-740) ثم تطور الوضع فيسورية كلها بعد ذلك بتأثير عاملين:

أسرعت مملكة اسرائيل وهي بيت عمري في الوثائق الاشورية للاستفادة من إخفاق برهدد وحلفائه فاستردت المواقع التي كان حزائيل قد سيطر عليها . وهذا يتقدم أدد نيراري نحو مناطق أمورو وآرام الواقعة غربي الفرات تكون آشور قد عادت لاول مرة بعد ربع قرن الى استئناف سياسة شلمانصر الثالث التوسعية في المنطقة، ووجدت فيه مملكة اسرائيل التي كانت تخشى مملكة آرام دمشق المنقذ المنتظر (سفر الملوك الثاني ١٣ : ٥) .

ـ سياسة ادد نيراري الثالث (٩/٨١٠ ـ ١/٧٨٢) :

عند اعتلاء أدد نيراري الثالث عشر أشور كانت تل برسيب وهي تل احمر قد اضحت حصنا أشوريا متقدما على الفرات لمراقبة الاوضاع في غربي الفرات، وتحركات الدول السورية الشمالية والارامية لا سيما حلب / أرفاد وحماة ودمشق .

وتميز عهد أدد نيراري الثالث بتحرك نشيط أدى الى اعادة بناء الامبراطورية الاشورية . فلقد تمكن بسرعة أن يسترد محاور الطرق المهمة ، غوزانا / تل حلف في ٨٠٨ وبالتالي تحكم بطريق المواصلات والقوافل التجارية نحو بلاد أمور والداخلية والساحلية . وكان التحرك الاشوري في هذه المناطق مألوفا منذ زمن بعيد ولكن بدءا من العام٨٠٦/٥ والى ٨٠٢/١ أخذ الجيش الاشوري يتحرك نحو مناطق لم يكن تقدم اليها من قبل لاحكام القبضة الاشورية على سورية التي كانت لها أهمية اقتصادية واستراتيجية للوقوف بوجه الاقوام المحاربة على الحدود الشرقية والشمالية للدولة الاشورية ، فمن سورية كانت تجلب اليد العاملة الماهرة والاخشاب من الامانوس ولبنان ، وعبر طرقها كانت أشور تستورد المعادن من بلاد الاناضول .

واستنادا الى هذه المصادر الاشورية كانت بلاد ارفاد (KUR Ar-pa- da) ضمن نطاق هذا الهجوم الاشوري الواسع منذ (٨٠٥) . ولكن لا يعرف ما اذا كانت مدينة

ارفاد نفسها قد هوجمت. لكن مدينة رئيسية في مملكة بيت أجوشي وهي خزازو/أعزاز (URU Hazazi) هوجمت في ٨٠٤ . وكان من نتائج هذه الهجمات الاشورية قطع الاتصال مع ملك دمشق الذي كان يعمل على الاحتفاظ بتحالفاته مع سورية الشمالية.

(S.Page « Astela of Adad Nirari III and Nergal Eres from Tell al Rimah » Iraq, 30, 1968, p. 139 - 153).

وفي (٨٠٢) تقدمت الجيوش الاشورية في حملة ضخمة نحو البحر الكبير باتجاه ارواد وصيدا وصور لفرض أتاوات وغرامات على مدن الساحل ، وأقام الملك نصبا تخليدا لهذه الحملة الظافرة (المرجع السابق ، أيضا :

(H.Donner « Adad Nirari III und die Vasalen des westen in Archeologie u. Altes Testament, Festschrift fur K. Galling Tubingen, 1970, p.49-60).

وفي نقش ملكي يتباهى أدد نيراري بانه أخضع بلاد خاطي ، أي سورية الشمالية وأمورو بكل امتدادها (سورية الوسطى) وفيها صور وصيدا وعمري (بيت عمري) وهو الاسم الذي كان يطلقه الديوان الاشوري على مملكة اسرائيل المذكورة في العهد القديم ، وأدوم وفلسطو (فلسطين) حتى البحر الكبير في الغرب . وهكذا وصلت حدود الدولة الاشورية الى مصر . وكان هدف ملك أشور في نهاية المطاف ضرب مملكة دمشق التي كان يدعى ملكها ماري / أي سيدي في وثائق الديوان الاشوري (A. Dupont - Sommer , Les Araméens, p. 53) وفي الترجمة العربية أيضا .

وهكذا اثبت **تسلسل الاحداث وتتابعها أن هدف اشور في غرب الفرات كان** ضرب العالم **الارامي ، لاسيما أهم ممالكه آرام دمشق .**

وبنتيجة هذه الحملات العسكرية تمكنت آشور من تحقيق بعض مآربها ، فقد تلقى أدد نيراري من دمشق كميات كبيرة من الفضة والنحاس والحديد والاقمشة ، ونقل الفاتح الاشوري كميات كبيرة من الاخشاب التي قطعت من الغابات في جبال الامانوس ولبنان . الا أن أدد نيراري لم يستطع أن يمسك في قبضته البلاد السورية طوال حكمه . (انظر أهمية دمشق التجارية :

B.mazar, BA XXV, 4, 1962; ARAB, I, 734-739; ANET, p. 282)

ومع ذلك فان أكبر الاهتمام وجه آنذاك الى المناطق الشمالية الشرقية حيث كانت تتكون قوى محاربة في أوراتو (من القرن التاسع) حول بحيرة وان ، وأخذت هذه القوى الجديدة تهدد الدولة الاشورية ومصالحها في سورية العليا وسفوح طوروس وسورية الشمالية في منطقة حلب .

وتدل الحوليات الملكية الاشـورية على مدى اهتمام الملـوك الاشوريين المحاربين شلمانصر الرابع (٧٨٢ ـ ٧٧٢) واشـور دان الثالث (٧٧٢ ـ ٧٥٤ ـ بحماية مصالح الدولة الاشورية بالعمل علىالاحتفاظ بسيطرتها على الطريق الاستراتيجية المؤدية الى البحر . وتعرضت حدود مملكة أرفاد والطرق عبر أراضيها للانتهاك مـن الجيوش الاشورية . وكان بعض المواقع هدفا متكررا للهجمات الاشورية لا سيما حتاريكا / حزرك التي ابرزت **التنقيبات الاثريـة الجديدة في تل آفس اهميتها** ، كمـا حدث في الاعوام ٧٧٢ و ٧٦٥ و ٧٥٥ ق.م .

وفي حين اختارت بعض دول المنطقة مثل سمأل سياسة التفاهم مع أشور لطلب حمايتها في المنازعات المحلية بينما لجأت أرفاد الى المراوغة وتراوحت سياسـتها بين الاصطدام بآشور عند الاصطدام بحلفائهـا ، وبـين التفاهـم الدبلوماسـي كما في اتفاقية آشور نيراري الخامس مع متـع إل ، وهي تتضمن بالدرجـة الاولى فرض تحالف عسكري على أرفاد أهم متطلباته تقديم الجند والمؤونة للجيش الاشوري حين طلبهـا .

وهكذا يتضح ان منطقة حلب ، وهي في القلب من مملكة بيت أجوشي كانتمحل نزاع بين ثلاث قوى هي : ١ ـ الدول الارامية المحلية ، ٢ ـ الاورارتيون الذين حاولوا التقدم من جهة الشمال ، ٣ ـ اشور التي حاولت فرض نظامها الامني والاقتصادي على المنطقة المتدة بين جبال زاغروس والبحر المتوسط . لكن اشور لم تتمكن مـن فرض سياستها الا بعد صراع طويل امتد الى أيام تكلات بلاصر الثالث في اواسط القرن الثامن ق.م .

ـ العلاقات بين ارفاد وآشور :

يعود النقشـان المسماريان اللذان نشرهما الباحث التركي فيصل دونباز الى زمن ادد نيراري الثالث (أواخـر القرن التاسـع ومطلـع القـرن الثامـن ق.م) (حول الملك الاشوري : (Crayson, CAH. 3/1, 270-276

وكان بعض الباحثين قد اشار الى اهمية **النقش الاول** وهـو نقش انطاكية او مسلة انطاكيـة : (A. R. Millard — H. Tadmor, Iraq, 35, 1973 p. 60 - 61) الا أن فيصل دونبار قدم قراءة منهجية مفصلة للنص المسماري وخلاصته : **تحديـد الحدود بين ممتلكات زكر ملك حماة وعترشومكي ملك أرفاد ، وتقسيم الانتفاع بنهـر العاصي بين الطرفين .**

وقد جاء في هذا النقش أن ادد نيراري ملك اشور ، ابن شمشي ادد ملك اشور ابن شلما نصر (الثالث) ملك الجهات الاربعة قد قام ومعه قائد الجيش شمشي ايلو

بتحديد الحدود بين زكر صاحب بلاد حماة واترسمكي (عترسمك في نصوص سفيرة) ابن أدرمو (أرامي في نصوص سفيرة أيضا) ، والمقصود هنا برجوشي صاحب ارفاد (السطر ١ ــ ٥) وتنص هذه الوثيقة على أن تكون مدينـة (نخلاسي) بكل حقولهـا وبساتينها ومستوطناتها ملكا لاترسمكي، وعلى أن يقتسم الطرفان نهر العاصي بينهما. ويؤكد النص علىان الملك وقائد جيشه اعطيا طواعية وصراحةهذه الحدود لاترشومكي بن ادرمو ولاولاده وعقبه ، وله ان يحصن مدينته وأراضيه حتى تخومه (سطر ٦ــ١١) ويقسم ملك اشور بالارباب التي تذكر هكذا تباعا : اشور وادد وبر/ور والبل الاشوري ومولیشو وسين/شهر المقيم في حران ، أرباب اشور العظام ، بأن من يتحدث بسوء بعد هذا عن هذا النصب أو من يغير مكان هذه الحدود بالقوة ويأخذها من اترشومكي وأولاده وأحفاده ويمحو الاسم المكتوب ويكتب اسما اخر بدلا عنه سيحل عليهم غضب الارباب العظام الذين سجلت اسماؤهم على هذا النصب ولن يتقبلوا صلاته .

اما **النقش الثاني** وندعوه **نقش مرعش** فهو حجر حدود أيضا . وقـد رسمت هذه الحدود على ايدي أدد نيراري ملك اشـور ، ابن شمشي أدد ملـك آشـور وساموراماات سيدة قصر شمشي أدد ملك اشور أم ادد نيراري ، كنـة سلمانصر ملك الجهات الاربع ، (سطر ١ ــ ٧) .

يذكر النص كيف ان الوضع الحرج الذي وجد فيه اشبيلولوما ملك الكوموخيين اضطر الملك الاشوري وسيدة القصر سامورامات الى اجتياز الفـرات لنجدتـه . ويتحدث النص عن انتصار ملك اشور الذي وقف الى جانب أوشبيلولوما على تحالف كان على رأسه اترشومكي بن أدرمو صاحب أرفاد ومعه ثمانية ملوك لم تذكراسماؤهم ودارت المعركة عند مدينة بافيراخوبونا ، وانتهت حسب ما أفادت الوثيقة الاشوريـة الى هزيمة اترشومكي وحلفائه والى اضطرار ه مع حلفائه الى الانسحات والتفرق ، بينما تمكن أدد نيراري من تعيين الحدود بين أوشبيلولوما ملك كوموخ وكالباروا بن بالالام ملك جرجم.

وتأتي هذه الوثيقة شاهدا على الدور المهم الذي كانت تضطلع به مملكة أرفاد وملوكها من بيت اجوشي منذ أيام اترشومكي في مواجهة التوسع الاشوري ومن جهة اخرى يؤكد هذا النص ما كانت تمارسه اشور على العلاقات الدولية والسياسية في المنطقة من تأثير ، فكانت تعقد الاحلاف وترسم الحدود وتفرض سياستها بما يخـدم السلام الاشوري (Paxa Assyriana) وتحرص على تثبيت هذه العلاقات بالتـسجيل ووضع أحجار الحدود (التخوم) .

ـ نقش مرعش ، الظهر :

يتحدث عن توجه القائد شمشي إيلو في ايام شلمانصر، وهو شلمانصر الرابع (٧٨٢ـ٧٧٣) ، ابن أدد نيراري ، ملك العالم ، ملك اشور ، ابن شمشـي أدد ملـك الجهات الاربع « الى دمشق ، حيث تلقى من حزائيل » رجل دمشق جزية تتألف مـن فضة وذهب ونحاس ، وسريره الملكي وكرسيه الملكي ، وابنته مع بائنـة ثمينـة ، وما لايحصى من ممتلكات القصر .

ويقول الملك في هذا النص انه عند عودته من دمشـق اعطى حجـر الحـدود « التخـوم : تخومو في الاشـورية » لاشبيلولوما كوموخ . وفي هـذا اشـارة الى ان الملك اضطر الى تأكيد موقفه من قضية حدود كوموخ في سورية الشمالية العليا (وهي بلاد كوماجين في المصادر الكلاسيكية فيما بعد).

ويعلن ملك اشور في ختام النص انذاره بضرورة المحافظة على الحدود المرسومة قائـلا :

« ومن يجرؤ على انتزاع هذا الحجر من يد أوشبيلولوما او من أولاده واحفاده ليكن اشور ومردوك وأدد وسين وشمس خصوما له في دعواه ، ليصموا آذانهم عـن صلواته وليحطموا بلاده كما تتحطم قطعة الآجر » .

ويتضـح من هذه النصوص كيف أن اشور اضطرت الى القتال مرتين من أجل حدود كوموخ ذات الموقع الاستراتيجي الهام على خطوط مواصلاتها ، مرة ضد أرفاد ومرة أخرى ضد دمشق ، وأوقعت الهزيمة بالطرفين قبل مجيء متع إل الى الحكم في أرفاد / بيت أجوشي .

لقد أدى التدخل الاشوري المتواصل في نطاق مصالح استراتيجية للدولة على مسرح تجاوز حدود سورية الشمالية وامتد الى سفوح طوروس حيث كانت تقـوم دول صغيرة متنافسة ومتنازعة تداخلت مصالحها وتضاربت أحيانا الى منازعات على الحدود افسحت المجال لتدخل الدول الكبرى في المنطقة : اشور .

وكانت هذه المنازعات بين الدول السورية تجري دون تدخل خارجي كما حصل في الحرب بين ملك دمشق وحلفائه، ومن جهة أخرى ملك حماة زكر (نقش زكر) ولكن وقوع نزاعات مماثلة على الطرق الحيوية للمواصلات بين الفرات والبحر أدى الى تدخل مباشر (نقش انطاكية) وقد اشار نص مرعش/الوجه صراحـة الى موقـف

اترشمكي الذي يبدو انه اراد الافادة من النزاع بين كوموخ وجرجم وهما من دول سفوح طوروس للتوسع في المنطقة . فقد كان لارفاد منذ القرن التاسع ق.م استراتيجية عسكرية في منطقة تمتد ما بين مجرى الفرات الاعلى ووادي العاصي الادنى . وهو ما كان يتضارب مع مصالح الدولة الاشورية التي كانت تتابع باصرار سياستها التوسعية باتجاه الغرب وهي سياسة بقيت تتمسك بها وتتابعها حتى القضاء على الدول الارامية تباعا واحدة بعد الاخرى .

ان ما كانت تفعله اشور في المنطقة يشبه شيئا ما من النظام الدولي الاقليمي كانت تعمل على فرضه على الدول الصغيرة في المنطقة بمختلف الوسائل في جهود متواصلة ترافق فيها التحرك العسكري مع التحرك الدبلوماسي لفرض ما يمكن أن يسمى السلام الاشوري على المشرق القديم كله ، وعندما كانت تنجح في فرض وجهة نظرها أو تسوية النزاعات المحلية بحضورها كانت تتوصل الى تعيين الحدود / التخوم، تحديدا ماديا بأحجار منقوشة معترف بها ترعاها الالهة ويفرض على الدول المعنية الالتزام بمضمونها.

وقد لجأ بعض دول المنطقة الى طلب حماية اشور فكانت هذه الدول راضية بتبعيتها كما كان موقف سمأل وكوموخ . الا أن ارفاد كان مختلفا ، فهي تصادم مرة الى أن تتوصل الى حل مرض كما جرى في تسوية الحدود مع زكر على نهر العاصي ، وتصالح مرة أخرى كما جرى في التعاهد بين اشور نيراري الخامس ومتع ال ، الا أن انقلاب الاوضاع في اشور قبل صعود تكلات بلاصر الثالث العرش شجع متع ال على خوض مغامرة كبرى بالسعي الى توحيد العالم الارامي في وجه التوسع الاشوري بالتعاون مع القوى الارامية الاخرى . وقد ظهر من قبل أن ذلك كان ممكنا مرتين ، مرة للوقوف بوجه زكر المدعوم من اشور ومرة أخرى عندما تدخل عتر شمكي ضد كوموخ .

ـ محاولة لاعادة النظر في العلاقات بين ارفاد / حلب / وآشور في زمن متع إل:

تابع متع إل سياسة ابيه، ومضى خطوة أبعد لتأليب العالم الارامي كله ضد اشور وتحركاتها التوسعية . فالحلف الذي تحدثت عنه عهود سفيرة يضم ارام كلها ومصر وارام العليا والسفلى (نقش سفيرة I A)وان بنودها تنطبق على منطقة تمتد من قرقر (اي من منطقة نهر العاصي) الى يأودي (سمأل) ومن لبنان الى يبرود ومن دمشق الى ... ومن البقاع الى ... (نقش سفيرة I B) أما الارباب الذين يضمنون هذه العهود فهم أرباب المنطقة الممتدة من بابل الى ارام وكنعان .

ويحتل هدد حلب مكانا متميزا بين الالهة الشهود (سفيرة I A سطر ١٠ ، ٣٦ ، ٣٨) فهو الاله المشترك للعالم الارامي كله . وقد وجهت اشور كل قواها لدحر

المراكز الكبرى لهذا التحالف وهي العواصم التي هاجمهـا تكلات بلاصر الثالث ملـك اشور القوي الذي كان يعرف مواقفها من اشور وعلاقتها فيما بينها :

ففي ٧٤٣ ق.م هاجم ارفاد بعد انضمام متع إل الى أعداء اشور (أوراتو).

وفي ٧٤٣ ق.م هاجم حماة ونقل كثيرا من سـكانها ...ر٣٠ للحاجة الـى الايدي العاملة .

وفي ٧٤٠ ق.م دخل ارفاد وجعلها قاعدة لاشور .

وقام في ٧٣٤ ق.م بمهاجمة بيت عموكاني / نابومكين زير وعاصمته شابيا في جنوب بلاد الرافدين .

واخيرا في ٧٣٢ ق.م دخول دمشق بعد سحق المقاومة الارامية فيها .

فمن هذه المعطيات تبين أن التحالف الذي عقده متع إل مع ملك كتك هو تحالف ضد اشور لا معها كما ظن بعض الباحثين . أما حلفاء متع إل فهم الذين بقوا يحاربون اشور الى النهاية وهم ملوك حماة وبابل/بيت عموكاني ودمشق . وان مملكة (كتك) هي ضمن رقعة من هذا الامتداد الجغرافي الذي اشرنا اليه لا خارجه . اما برجاية فهو عاهل لاحدى هذه القوى الارامية البابلية في المنطقة . واذا لم يكن بالامكان حتـى الان القبول بصورة جازمة بأيٍ من الفرضيات المطروحة لتحديد شخصية برجاية أو تحديد موقع كتك فان مصطلحات لا تتحمل اللبس مثل : « كل آرام » و «عالي آرام ، وتحتا» توحي بوجود اتحاد آرامي ضد التوسع الاشـوري في العالم الارامي ، كان برجايـة احـد أطرافـه .

وقد أشارت بعض الفرضيات المعروضة لتحديد شخصية برجاية الى احتمـال كون برجاية ملكا من ملوك احدى المناطق السورية أو الرافدية ، فهو يمكن أن يكـون اسما لملك غير معروف لمدينة يحتمل أن تكون (كاتيكا) عنـد بحيرة الجبول يمكـن أن تكون ذكرت في حوليات تكلات بلاصر الثالث ، وامتدت بين حلب والفرات . وهذا يعني ضرورة البحث في منطقة سفيرة ، ولا يوجد دليل مادي يؤيد ذلك حتى الان .
(A. Alt, 1935; H. Genge, Nordsyrische - Südanatolischereliefs, 1970).

ويرى لاند سبرجر أن كتك يمكن أن تكون مملكة حماة ولعش وهـي حزرك / حتاريكا : أما برجاية فهو الملك الذي خلف زكر . ولكن لا يوجد ما يؤيد هذه الفرضية بعد . أما التعديل الذي اقترحه نعمان (١٩٧٨) فيجعل لعش في موقع بين مملكتي حماة ودمشق . وينقل ملامات الى كي ــ (ات) ــ كا وهو اسم مرمم لمدينة من بيت عديني على الضفة الشرقية للفرات اضحت بعد السيطرة الاشورية مقرا لقائد الجيش شمشي ــ ايلو . (A.Malamat, 1976; J.D. Hawkins RLA, 1982)

ويبقى الراي الذي حرك النقاش الدائر حول الموضوع (انظر : لومير ودوران ، ١٩٨٤) في حيز الفرضية . اذ كيف يمكن قبول قيام تحالف بين متع إل ملك ارفاد مع شمشي ــ ايلو الذي ضرب ارام كلها من شمال ارفاد الى ارام دمشق التي كانت حليفة لارفاد بيت أجوشي .

وفي خضم الاراء المختلفة حول شخص برجاية وموقع كتك ، كان مارتن نوت (١٩٦١) قد اقترح أن يكون برجاية ملكا غير معروف لمدينة كيسك الواقعة في جنوب بلاد الرافدين . وكنا بدورنا في بحثنا السابق (١٩٧٢) ، أكثر تحديدا عندما اقترحنا اسم نابوموكين زر زعيم بيت عموكاني الذي كان معاصرا لمتع إل وبرهدد الثالث ، والذي اغتصب عرش بابل في ظروف شديدة الوطأة على الاراميين والكدانيين في الجنوب وخاض مع ملك اشور تكلات بلاصر الثالث صراعا مريرا ، انتهى بسقوطه وبانتزاع الملك الاشوري عرش بابل أيضا ، ليكون الزعيم الثائر هو العاهل الذي يدل عليه اسم برجاية (ابن الجلال) ، أو (ابن الجاه) . وقد دعانا حينئذ الى هذا الاتجاه دراسة معمقة لحضور الارباب الشهود وترتيبها في القائمة (نقش سفيرةA I) ويأتي في مقدمتها آلهة بابل : مردوك وزربانيت ونابو وتاشميت وشمش . ولكن قراءة اخرى للاحداث التي وقعت في أيام ادد نيراري الثالث وعتر سمكي في سورية الشمالية ، وملاحظة هذا الترابط في المواقف بين متع إل ملك ارفاد من جهة وملك بابل المغتصب للعرش زعيم بيت عموكاني نابومكين زير في شابيا من جهة أخرى (انظر عن الاوضاع في بابل بعد العصر الكاشي : برنكمان (Brinkman (J.A.) PHPKB, 1968) وبرهدد ملك دمشق من جهة ثالثة ، ما يدعو الى البحث عن برجاية وعن مملكته التي دعيت (كتك) في نقوش سفيرة ، في الاطار الجغرافي ــ السياسي للمنطقة قبل عقد عهود سفيرة ، مع ايلاء عناية خاصة الى هوية الارباب الشهود وفي طليعتها إل/ملل ومليشو ومردوك وزربانيت ونابو وتاشميت (من مجمع الارباب في بابل) ، وهدد حلب وسين/شهر حران (من مجمع أرباب العالم الارامي) ، وإل كبير الالهة في العالم الكنعاني .

فهل يمكن ان نجد في نقوش سفيرة محاولة لتوحيد العالم الارامي المجزأ والمهدد من اجل وضع حد لمطامع ملوك آشور وتسلطهم ؟ فاذا كان الامر كذلك ، فلا بد من التريث فترة أخرى لكي يعرف من هو برجاية الذي وقف الى جانب متع إل ملك ارفاد .

جمع معظم مادة هذا البحث اثناء وجود الباحث في مهمة علمية في جامعة شيكاغو (حزيران ــ تشرين الاول ١٩٨٩) .

الفرس الاخمينيون في سورية(١)
(من خلال التنقيبات الاثرية)

د. شوقي شعث
المتحف الوطني بحلب

* مقدمة تاريخية :

ورث الفرس الاخمينيون(٢) الحكم الكلداني (البابلي الجديد) بعد سقوط بابل في نحو ٥٣٨ ق.م ، ويعد المؤرخون هذا الحدث هاما جدا في التاريخ، أنهى حكما ساميا ليأتي بحكم هندوأوربي ، ظل قائما في ظل الفرس والهلنستيين والرومان والبيزنطيين حتى انتهى على يد العرب المسلمين بعد أن خرجوا حاملين عقيدة جديدة وافكارا جديدة قامت على تحرير البلاد والعباد(٣) .

توسعت الامبراطوبة الاخمينية التي اسسها كورش (٥٥٠ ـ ٥٣٠ ق.م) شرقا وغربا ، ولم يمض حتى غدت بعد خمس وعشرين سنة من أعظم الامبراطوريات التي عرفها الشرق القديم ، وشملت سورية ومصر واسيا الصغرى في الغرب ، والبنجاب في الشرق ، وامتدت من القوقاز شمالا حتى المحيط العربي جنوبا (المحيط الهندي) ، وعليه ربما كانت هذه المرة الوحيدة التي أصبحت هذه الاراضي الشاسعة فيها تحت حكم مركزي واحد(٤) .

اصبحت سورية في هذا العهد ضمن الايالة الخامسة (المرزبانة) التي كانت تضم لبنان وفلسطين، وتضم أربعة مناطق لكل منها مركز هو مدينة شبه مستقلة، وكانت دمشق من اهم المدن السورية في ذلك العهد ، كما كانت بعض المدن الساحلية ، مثل أرواد وجبيل وصيدا وصور ، على درجة من الاهمية ؛ وقد سمح لها بممارسة الحكم الذاتي مكافأة لها على الخدمات التي قدمتها للامبراطورية الفارسية في حربها مع الجزر اليونانية وفي حملتها على مصر(٥) ، كما سمح لها بصك النقود باسمها .

* اعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

كان الملوك الاخمينيون يتطلعون الى سورية لموقعها الاستراتيجي الهام ، فهي الممر الاجباري لهم نحو مصر التي كانت تعد من اغنى المقاطعات في الامبراطورية ، وطريقا هاما لهم نحو سواحل البحر الابيض المتوسط وبالتالي نحو الاناضول والجزر اليونانية(٦) . وكما انطلقت من موانيها السفن التجارية المحملة بالبضائع الى غرب البحر المتوسط ، انطلقت السفن الحربية لاخماد توارث الايونيين ، وضد اليونان في الحروب الميدية ، وضد الاثينيين عام ٤٥٠ ق.م ، وضد السلاميين بقبرص Salamines ، ومما يفسر الاهمية الاستراتيجية لسورية وجود حاميات أخمينية في كثير من مراكز المدن السورية يؤكد ذلك وجود مدافن للجنود الفرس في شمال سورية ، كما في النيرب مثلا(٧) .

على الرغم من السلم الذي فرضه الاخمينيون على سورية ، الذي ساعد على استتبابه التقاء المصالح التجارية السورية والاخمينية ، حيث وجد كل طرف طريقه في الامبراطورية المترامية الاطراف الى تنمية تجارته ، فكان السوريون يتاجرون لصالحهم الخاص أو لصالح الطرفين شرقا وغربا مما ساعد على ازدهار البلاد وغناها ، الا ان هذا لم يمنع السوريين من الثورة ضد الحكم الاخميني عندما كانت تتعرض كرامتهم الوطنية للاهانة من قبل الحكام الفرس . فقد كان هؤلاء يظهرون صلفا وتكبرا يزيد عن حده احيانا . وحاولوا أكثر من مرة اهانة ممثلي الشعب السوري في مناسبات كثيرة فرد السوريون بالتمرد والثورة التي اندلعت شرارتها في نحو اواسط القرن الرابع قبل الميلاد ، وعرفت بثورة المقاطعات السورية (٤٤٨ق.م) (٨) ، وتبعتها ثورة اخرى في عام ٣٥١ ق.م انتقلت الى طرابلس وصيدا ، ومدن سورية اخرى . الا أن الفرس تمكنوا من اخمادها(٩) وأجبرت سورية على المشاركة في حروب الاخمينيين ضد المقاطعات الاخرى مثل مصر واليونان ، كما ا جبر المدن السورية على دفع الجزية الى الملك الفارسي الكبير كما يشير هيرودوتس (III, 91) (١٠) .

ساعد اتساع الامبراطورية الاخمينية وامتدادها من الشرق الى الغرب وتواجد الشعوب الكثيرة فيها على ازدهار التجارة العالمية وتلاقح الافكار والثقافات . كما ساعد سك النقود واستعمال اللغة الارامية في التجارة العالمية على ذلك الازدهار ويفسر هذا في الوقت نفسه قوة التأثير السوري في اطار الامبراطورية . الا ان هذه الامبراطورية ارتكبت خطأ تاريخيا فادحا لا تزال الاجيال العربية عامة والسورية خاصة تتذكره بمرارة وهو السماح لليهود الذين وجدهم الفرس ببابل عند احتلالها بالتوطن في فلسطين وليس معروفا فيما بعد اذا كان مرسوم كورش الذي سمح لليهود بالتوطن بفلسطين كان مكافأة لهم على مساعدتهم الفرس بالخيانة التي ارتكبوها ضد الكلدان حين سربوا أخبار ضعفهم الى الاخمينيين ، ام انه كان خطة للتخلص منهم حتى

لا يرتكبوا خيانة اخرى ضدهم ، أم انهم قصدوا بارسالهم الى فلسطين خلق توازن سكاني وسياسي مع الفئات الموالية للمصريين فيها(١١) ، ومع ان السكان الاصليين قاوموا ذلك الاستيطان بقيادة شيخهم جشم ، الا أن القوات الفارسية قضت على تلك المقاومة(١٢) .

* التطور الحضاري في ظل الحكم الفارسي :

تميزت الامبراطورية الفارسية الاخمينية عن غيرها من الامبراطوريات السابقة بطريقة خاصة في الادارة وباجراءات قانونية معينة ، الى جانب استخدام النقد واللغة والكتابة الارامية . وقد ساهم ذلك في التطور الفكري والحضاري على مستوى الامبراطورية ، مع أن الفرس لم يحاولوا فرض أو خلق نوع من الوحدة الفكرية التامة كما أنهم لم يتخلوا عن معتقداتهم ولم يحاولوا استخدام القوة في نشر أفكارهم في بلاد الشام أو غيرها من البلدان المغلوبة(١٣) . وعلى الرغم من ذلك ، وحتى وقت قريب ، كان من الصعب أن يقيم الباحثون الاثر الحضاري الذي تركه الاحتلال الفارسي في سورية وبلاد الشام عامة، ـ الذي استمر قرابة القرنين من الزمان ـ(٥٣٧ـ٣٣٣ق‌م) في بلاد الشام ، وذلك بسبب قلة المصادر التي اقتصرت على بقايا النقود وبضعة نقوش هنا وهناك الى جانب بعض الاشارات التي لا يركن اليها ، التي وردت في التوراة وفي كتب المؤرخين الكلاسيكيين(١٤). وفي الاونة الاخيرة نشطت الاكتشافات الاثرية، واظهرت برغم قلتها ، كثيرا من الطبقات الحضارية الاخمينية في المواقع السورية في الداخل والساحل وفي بعض المواقع الفلسطينية واللبنانية وزودتنا بعض المعلومات عن تطور الحضارة في سورية ابان الحكم الاخميني ، وسنعرض فيما يلي الى اهم المكتشفات الاثرية التي تعود الى ذلك العصر .

جرت في سورية تنقيبات اثرية في كثير من المواقع مثل : عمريت ، وتل سوكاس، وتل الكزل ، وتل مرديخ / ابلا ، وتل افس وتل عين دارا ، وتل دينيت ، وتل رفعت . ومواقع حوض الفرات مثل: تل الحاج وتل السويحات وتل العبد ، وراس شمرا ، وراس ابن هانيء ، والمينا . وفي لبنان بمواقع صور وصيدا وبيبلوس وكامد اللوز ، وفي فلسطين تل أبو حوام وتل عراد وتل القدح (حازور) وتل الحسي والسامرة وتل الشريعة وتل القصيلة وغيرها من المواقع وقد اظهرت تلك التنقيبات طبقات حضارية تعود الى العهد الاخميني كما أشرنا سابقا .

ففي **عمريت** اظهرت التنقيبات الاثرية التي قامت بها المديرية العامة للاثار والمتاحف بمعاونة موريس دونان آثارا تعود الى العصر الفارسي ، وكان قد عثر قبل

ذلك على تماثيل حجرية واجزائها عام ١٩٢٦ تعود الى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، ولا شك ان التنقيبات المقبلة ستميط اللثام عن آثار جديدة تعود الى العصر الاخميني(١٥) .

وفي تل سوكاس على شاطىء البحر جنوب مدينة جبلة بنحو ستة كيلومترات ، الذي يقوم على مرفأ طبيعي يعد من افضل المرافىء الواقعة على الشاطىء السوري ، قامت في مستعمرة يونانية في العهد الكلداني ، احتلها كورش الاخميني ودمرها ، الا انها ظلت مسكونة في العهد الفارسي ، وان قل شأنها ، وكذلك في العهدين الهلنستي والعربي بدلالة وجود كسر فخارية تعود الى تلك العهود(١٦) .

وفي تل الكزل (سميرا القديمة) وجدت طبقة تعود الى العصر الاخميني ويبدو انها كانت تمتد على مساحة واسعة من المدينة من الشرق الى الغرب ، وظهر ذلك جليا في الاسبار الاثرية التي جرت هناك حيث ظهرت كسر فخارية تعود الى الفخار المطلي باللون الاحمر ذي الارضية السوداء ، الى جانب كسر تخص أوان أتيكية ذات طلاء اسود بعضها مزين في اسفله الداخلي بفصينات من النخيل وأشكال تأخذ شكل القلوب وكلها تعود الى القرن الخامس قبل الميلاد وربما عاد بعضها الى الفترات اللاحقة . وهناك ايضا بعض الاواني المصنوعة محليا كالسرج المفتوحة ذات المثعب او المثعبين والصحاف الافقية والقدور الكروية والجرار التي تأخذ شكل الطوربيد ، الى جانب ذلك اكتشف في الطبقة الفارسية دمية برونزية ومقبض عظمي لسكين ، ورأس سهم ، الى جانب ستة رؤوس لدمى فخارية وجدت الى جانب بعضها البعض(١٧) ، وعلى الرغم من اللقى الكثيرة التي تعود الى العصر الاخميني الا انه لم يعثر على بقايا معمارية هامة ومرد ذلك ربما الى استمرار استعمال المنشآت المعمارية ابان العصور اللاحقة .

عموما يظهر من التحريات والتنقيبات التي جرت في تل الكزل ان الموقع كان في العهد الفارسي الاخميني موضع استيطان كثيف ، وربما كانت سميرا في ذلك العهد ميناء بحرياهاما او ربما كانت قريبة من البحر اغننت بالتجارة ، وربما ساعد على ذلك غياب مدينة حماه بعد تدميرها نحو عام ٧٢٠ ق.م على يد سرجون الثاني الاشوري(١٨) .

اما في تل مرديخ / ابلا فقد عثر في المنطقة E في النصف الشمالي الشرقي من الاكروبول على سوية فارسية كما عثر على بعض المباني المتفرقة في المنطقة المنخفضة خاصة في المنطقة الشمالية الشرقية من المنطقة B ، ومؤخرا في الزاوية الجنوبية الشرقية من القطاع B . ويلاحظ ان اللقى المكتشفة في ا لسوية الفارسية تشبه

في تقنيتها تلك التي عثر عليها في العصر الحديدي الثاني وتقاليده المحلية الا انه يلاحظ تأثير يوناني كثيف بدأ في العصر الفارسي وازداد في العصر الهلنستي(١٩) ، ويلاحظ كذلك أن البقايا المعمارية في هذا العصر انتشرت دون تنظيم حول قصر صغير يأخذ شكل مستطيل غير منتظم له باحة مركزية ، أطواله ٣٥ x ٢٥م ، وقد يكون هذا البناء هو الوحيد الذي بني في هذه الفترة على انقاض قرية من العصر الحديدي الثاني بعد أن سويت الارض ، وبنيت البيوت الخاصة ملاصقةلجدران القصر الجنوبية والغربية والشرقية (٢٠) . ويتألف القصر من باحة سماوية مرصوفة تحيط بها الغرف من الجوانب الاربع ، وفيما بعد صغر حجم الباحة الوسطى لبناء غرف مسقوفة ، كما حدث تغيير في وظيفة الجزء الشمالي من مخطط مبني على نمط بيت‌هيلاني ليصبح هناك فسحة داخلية عامة أو باحة مربعة للعمل الرسمي،كما استبدل به نموذج‌معماري مغلق له استقلاله الذاتي حصن تحصينا جيدا بجدران حجرية عالية تفصله عن المناطق السكنية التي تحيط به ، وهذا النموذج المعماري معروف جيدا في سورية ، فقد عثر عليه في راس شمرا ومعروف بشكل جيد بفلسطين ابان الفترة الفارسية ، وتطور هذا النوع من القصور في تل مرديخ (شكل ١) وفي أماكن اخرى مثل تل السعيدية (شكل ٢) أو القلعة الشمالية باسدود ، وهذا يشير الى ميل عام الى تحويل القصور في الفترة الفارسية الى أبنية محصنة مزودة بابراج مراقبة(٢١) . وقد يكون سبب ذلك كره السكان المحليين لممثلي الحكومة الفارسية ، وهناك حالات أخرى جاء مخطط القصور الفارسية فيها على نمط القصور الاشورية من العصرين الحديدي الاولوالثاني وهو نمط معروف في سورية وفلسطين(٢٢) .

وفي **تل دينيت** ، الذي يقع الى الشرق من مدينة ادلب حيث تنقب المديرية العامة للاثار والمتاحف منذ عام ١٩٧١ ، بادارة كاتب هذا المقال ، عثر في المنطقة(آ)على سوية فارسية هي السوية الثانية في الاكروبول تضم بقايا معمارية فارسية مبنية بالحجارة الفشيمة وببعض الحجارة المسواة ، فيها قاعدة عمود من الحجر الكلسي تزينه أقواس تفصل بينها حليات زهرية على شكل زهرة اللوتس . ويبدو أن العمود الذي كان يرتكز على هذه القاعدة كان من الخشب المكسو بطبقة من الكلس أو الطين ذلك لوجود افريز في أعلى القاعدة ويعتقد ان هذا البناء الذي نتحدث عن بقاياه يخص قصرا من العهد الفارسي(٢٣)، (الشكل ٣) الى جانب البقايا المعمارية عثر على لقى صغيرة تعود الى العصر الاخميني مثل : دمى الخيالة وعشتار وختم مسطح عليه شعار اهورامزدا المجنح وعلى الوجه الاخر صورة لحيوان . وكذلك عثر على ختم مخروطي من الفخار طبعته تمثل طيرا مختزلا ربما كان ديكا ، هذا الى جانب الفخار الاسود اللماع والاحمر اللماع المصنوع محليا او المستورد . وفي المنطقة (ط) عثر ايضا على سوية فارسية فيها بقايا معمارية وكسر فخارية ، وعنصر تزييني مصنوع من الفريت

يمثل قردا وجرار طوربيدية ونلاحظ في تل دينيت أنه في السوية الاخمينية تسود الى جانب التقاليد الفارسية الاخمينية تقاليد محلية ارامية وتقاليد يونانية دخيلة (٢٤) .

وفي **تل آفس**(٢٥) الى الشمال من ابلا ، والذي يعتقد أن حزرق أو حزاريقا الارامية تقبع فيه ، عثر على لقى فارسية مختلطة بعض الشيء مع لقى الطبقة الهلنيستية . ويبدو أن ذلك راجع الى استمرار استعمال مساكن العهد الفارسي في العهد الهلنستي ، أي أن سكانه من العهد الفارسي ظلوا هم انفسهم في العهد الهلنستي دون تغيير . عثر في هذه الطبقة على بقايا معمارية متطورة من تقاليد محلية سابقة ، كما عثر على لقى أخرى مثل المشابك البرونزية والفخار اليوناني المستورد . وتقوم اليوم بعثة اثرية ايطالية بالتنقيب بالموقع .

وفي **عين دارا** ، قامت المديرية العامة للاثار والمتاحف باجراء تنقيبات اثرية اظهرت عددا من السويات تعود الخامسة منها الى العهد الفارسي الاخميني عثر فيها على بقايا ارضيات غرف ، وعلى دمى فخارية لحيوانات من ذوات الاربع ودمى فرسان وتميمة من الحجر البلوري مثل عليها أهورامزدا الرب الفارسي المتحد مع قوص الشمس المجنح(٢٦) ، كما عثر على جرار فخارية ذات قعر مدبب وأحيانا مجوف (٢٧) . وتتابع اليوم المديرية العامة تنقيباتها بادارة الدكتور علي أبو عساف(٢٨) .

وفي منطقة حوض الفرات عثر في **تل العبد** في السوية الاولى (النصف الثاني للالف الاول قبل الميلاد) على بيوت سكنية تعود الى العهد الاخميني، تشير الى أن سكانها كانوا قرويين يعتمدون في حياتهم على الزراعة ، والمبادلات التجارية مع سورية الداخلية والساحلية وبلاد ما بين النهرين ويؤيد هذا ما عثر عليه من الاواني الفخارية الملونة باللون الاحمر أو اللون الاسود والتي تأخذ شكل القصعات والقدور ، والفخار الاتيكي المتأخر ذي الطلاء الاسود والمصابيح (السرج) اليونانية والدمى التي تمثل الفرسان الاخمينيين واللوحات التي تمثل عشتار(٢٩) .

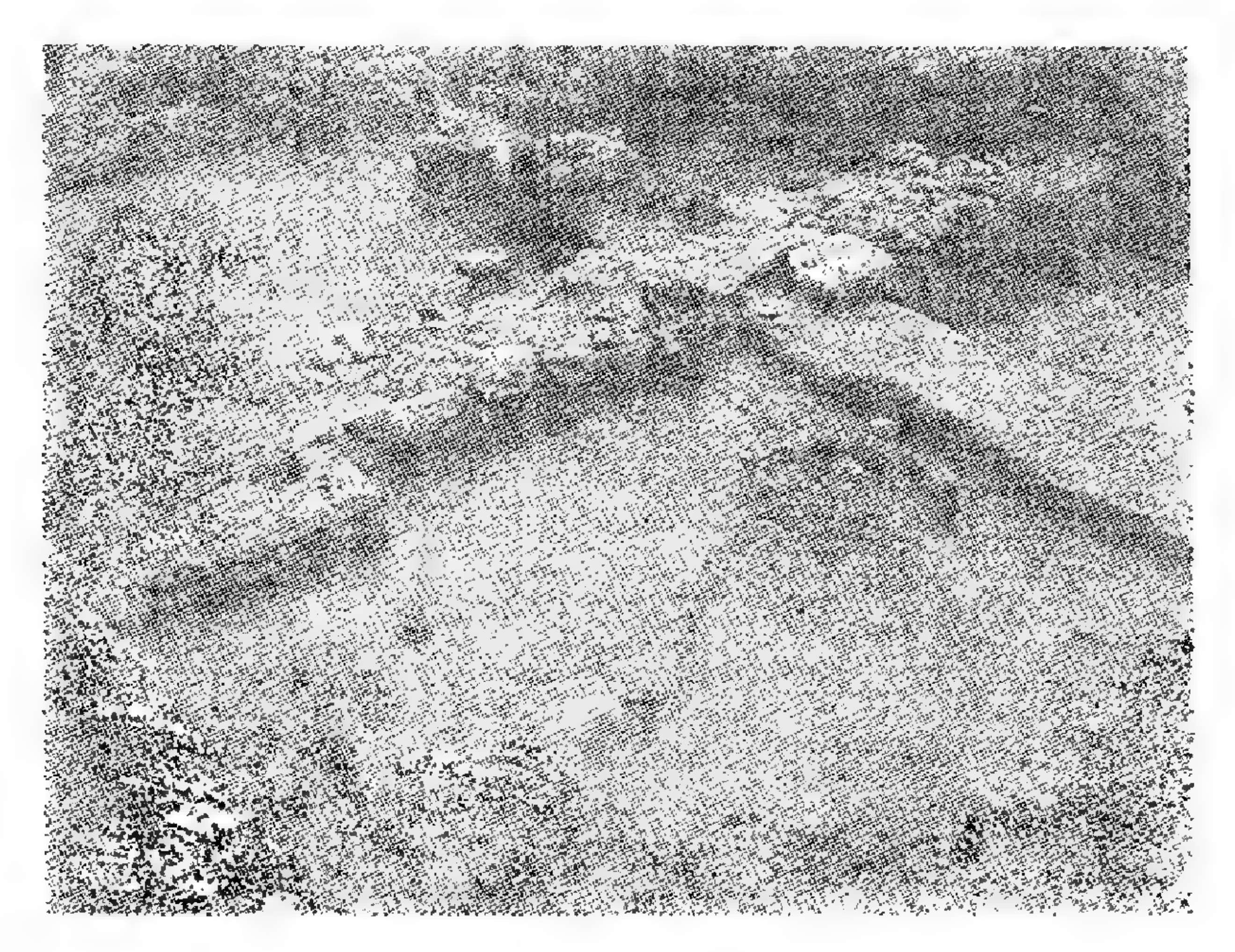
أما تل الحاج فعثر فيه على سوية من العهد الاخميني لكنها فقيرة باللقى وأهم ما فيها دمى تمثل عشتار ودمى فرسان وصحون اتيكيه مدهونة بالاسود(٣٠) وفي **تل السويحات** عثر على بقايا معمارية تعود الى نهاية عصر الحديد أو الى العصر الفارسي(٣١) . وفي **تل رفعت** تعرفنا على طبقة فارسية (السوية الاولى) عثر فيها على بقايا معمارية ودمى طينية تمثل فرسانا ولوحات عشتار ، وأختام ، ويلاحظ هنا أن الطبقة الفارسية مخربة(٣٢) .

وفي **راس شمرا** اكتشف بناء من العصر الفارسي عام ١٩٣٤ ، أعيد العمل فيه عام ١٩٧٢ ، وقد تبين أن غرفه منتظمة تتحلق حول باحة أرضيتها مفروشة بأحجار غير منتظمة تميل نحو الغرب ، وهي مجهزة بمجرى له الاتجاه نفسه(٢٣) . ويوجد عمودان في الجهة الشرقية ، أو ربما دعامتان من الخشب يعودان الى العصر الاخميني.

بنتائج هذه التنقيبات الاثرية أمكن التعرف على تطور الحضارة السورية في العهد الفارسي في المجالات المختلفة ، كالعمارة وصناعة الفخار والفنون التشكيلية . كانت نتائج التنقيبات في طبقات العصر الفارسي في جميع المواقع السورية واللبنانية والفلسطينية متشابها تشابها كبيرا فيما بينها . فقد عثر على بقايا مستوطنة فارسية دمرت في مطلع العصر الهلنستي في تل أبو حوام بفلسطين في السوية الثانية(٢٤) المرحلة (B) ، وكذلك في تل عراد(٢٥) (الطبقة الخامسة) بمنطقة بئر السبع ، وفي تل حازور (السوية الثانية) في المدينة المرتفعة (القرن الرابع قبل الميلاد)(٢٦) . وفي تل الحسي (المرحلة الخامسة) عثر على بقايا معمارية وعلى مستودعات حبوب(٢٧) . كما تعرفنا على التيارات الحضارية التي كانت سائدة أو مؤثرة في سورية وسائر بلاد الشام ، ويمكن أن نخلص الى أن السيادة السياسية الفارسية لم تؤثر كثيرا في النواحي الفنية ، ويبدو ان ذلك عائد الى أن الفرس لم يحاولوا فرض حضارتهم على سكان البلاد المغلوبة وركزوا اهتمامهم على التجارة وحمايتها بشتى الوسائل . هذا ويمكن أن نلخص صفات الحضارة في سورية في الفترة الاخمينية الفارسية كما يلي :

١ ــ رسوخ التقاليد الحضارية الارامية المحلية التي كانت سائدة قبل مجيء الفرس الاخمينيين . فقد استمرت الحياة متواترة كما كانت . وقد يكون هذا هو السبب في تنامي الشعور بالتفوق الحضاري على سادتهم ، وعليه لم يحدث تطور كبير يلفت النظر كشكل جديد .

٢ ــ ازدياد التأثيرات اليونانية في هذه الفترة بدلالة وجود كثير من اللقى الاثرية الفخارية وغيرها المستوردة من بلاد اليونان ، ولا بد من القول ان المستعمرات اليونانية التجارية كانت موجودة قبل الفرس لكنها تطورت في عهدهم بسبب التجارة . وقد أظهرت التنقيبات في تلك المستعمرات كميات كبيرة من الفخار الاتيكي الاحمر والاسود الذي أصبح شائع الاستعمال . كما أصبحت النقود اليونانية متداولة بين الناس قبل مجيء الاسكندر بنحو قرن وربع ، وقلدت محليا منذ منتصف القرن الخامس وذلك برغم وجود النقود الفارسية . (المبادلات الدولية كانت تتم بالدراخما اليونانية أما المبادلات المحلية فكانت بالعملة الفارسية أو المحلية) .



صورة ما يعتقد انه قصر من العصر الفارسي الاخميني (تل دينيت ـ سورية)

٣ ـ شيوع استعمال اللغة الارامية بشكل واسع لدرجة أنهـا أصبحت اللغـة الوحيدة التي كان يتعامل بها الحكام الفرس في المراسلات الدبلوماسية والتجارية وظلت كذلك حتى القرون الميلادية .

خلاصة القول ان هذا العصر هو عصر سـوري آرامي حضـارة وتجارة برغـم السيادة السياسية الفارسية ، وان جلبت تلك التجارة معها بعض المـواد الحضارية الى سورية من الشرق أو الغرب .



الحواشـــي :

(١) يطلق العلماء على هـذه الفترة كثيرا مـن التسميات اعتمادا على المكتشـفات الاثريـة التي ظهرت في هذا العصر ، فمنهم من يطلق على هذا العصر الحديدي الثالث ٥٥٠ــ ٣٣٠ ق٠م
Albright W.F., Archaeology of Palastine pp. 142-146
ومنهم من يفرد له عصرا يسـميه العصـر الفارسي الاخميني
Nozzoni S., The Persian and Hellenistic settlinents, Athens 1971 .
ويسميه ريس Riis العصر الفينيقي الجديد ويسـمه بريدوود Suke, Koben. 1970
العصر السوري-الهليني Syro-Hellenic
وهناك تسميات أخرى منها : العصر الارامي اليوناني أو الفارسي اليوناني ونحن نفضل تسمية بالعصر ارامي المتأخر .

(٢) حملت هذا السلالة اسم السلالة الاخمينية تسمية بالعصر الارامي المتأخر .

(٣) حتي ، فيليب تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ١ ترجمة جـورج حداد وعبد الكريـم رافق ، دار الثقافة بالاشتراك مع مؤسسـة فرانكلين ، ١٩٥٨ ، ص ١٣٩ .

(٤) حتي ، المصدر نفسه ص ٢٤٠ ، ولنفس المؤلف لبنان في التاريخ منذ أقدم العصـور التاريخية حتى عصرنا الحاضر ، مؤسسـة فرانكلين ١٩٥٩ ص١٨٥ .

(٥) حتي فيليب ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص ٢٤٦ .

(٦) SARTRE M., la Syrie soue la domination Achéménide dans Archeologie et Histoire de la Syrie II, p. 12.

(٧) المصدر نفسه ص ١٢ ، ويضيف في نفس المقال (ص ١٤) ان سوريا كانت هامـة للاخمينين لانها قدمت لهم كثيرا من مـواد البناء لبناء قصورهم ومعابدهم في سوزا وغيرها من العواصم الملكيـة ، هذا الـى جانب بناء قصور تبلائهم الذين سكن بعضهم في سوريا .

(٨) SARTRE , op. cit. p. 14.

(٩) حتي ، تاريخ سورية ٠٠ص ٢٤٨٠

(١٠) SARTRE , op. cit. p. 14.

(١١) حتي ، تاريخ سورية ٠٠ص٢٤٢ .

(١٢) الدباغ مصطفى : بلادنا فلسطين جـ١/ق١ ص٥٨٥ ، ويضيـف الدبـاغ ان الفرس الاخمينين وجدوا في اليهود جواسيس لهم وعنصرا من عناصر بذر الفرقة بين خصومهم بفلسطين ، وعونا لهم في احتلال مصر .

(١٣) مورتغـات : تاريخ الشـرق الادنى القديـم تعريـب توفيـق سـليمان واخـرون (بلا تاريخ) ص ٣٧٨ وانظر كذلك : ج٠ب جروندى G.B. Grundy في مقاله : « الفرس وامبراطورية الشاه الاعظـم » الذي كتبه في « تاريخ العالم » الذي نشره السيرجون هاملتون المجلد الثاني ص٤٦١٠

(١٤) حتي ، لبنان في التاريخ ص ١٩١ــص١٩٢٠

(١٥) انظر دليل المتحف الوطني بدمشق ،الطبعة الاولى ١٩٦٩، وضعه امناء المتحف ، قاعـة المنطقة الساحلية ص٤٠ــص٤٢ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٦٠

(١٧) دونان وبني وصليبي : التنقيب في تل الكزل تقرير اولي ، الحوليات السورية ، م ١٤ (١٩٦٤) ص ٢٠١ــ ص ٢٠٢ .

(١٨) المصدر نفسه ص ٢٠٨ . هذا وقد عاودت التنقيب في تل الكزل بعثة اثرية تابعـة للجامعة الامريكية ببيروت.

(١٩) Mazzoni S. OP. Cit. p.81

(٢٠) Mazzoni Ibid , p. 83.

(٢١) Mazzoni Ibid, p. 87.

(٢٢) Mazzoni Ibid, p.87 ; Albright p. 145.

(٢٣) SHAATH Shawqi. Tell Denit, Studi Archeoloici et Topo grapnie unpublished desserta-tion 1976 -- 1977.

(٢٤) شعث ، شوقي : نتائج التنقيب الاثري في تل دينيت ، الحوليات الاثرية السورية ٤٠ (١٩٩٠) ص ٥٧–ص٦٣ .

(٢٥) MAZZONI S. (ed) Tell Afis et l'eta clel Farro Seminari di Orientalistica - 2 /1992.

وفي هذا الكتاب مقالات عن تل افس ومحيطه.

(٢٦) الصيرفي ، فيصل : حفريات عين دارا ، الحوليات الاثرية السورية (١٠) ١٩٦٠ ، ص ٩٦ .

(٢٧) الصيرفي : المصدر نفسه (٢/١٥) ، ١٩٦٥، ص ١١١ .

(٢٨) ابو عساف ،علي : انظر المقال المنشـور في الحوليات الاثرية السورية م ٣٣/١–٢ ، حول متابعة التنقيب الاثري بموقع عـين دارا ص ٦١ ، ٩٢ ، و ص ٢١–٦٩ .

(٢٩) دليل مكتشفات حوض الفـرات ص ٢٧ (١٩٧٤) .

(٣٠) المصدر نفسه ص ٩٧ .

(٣١) المصدر نفسه ص ١٠١ وكذلك انظر :
— T.A Holland , Preliminary report on excavations at T. Swey'hat Syria 1973 - 4 Levant Vol. VIII (1976) pp. 40 - 41 .

(٣٢) Seton WILLIAMS, Preliminary repolt on tlu excavation at Teu Rifât, IRAQ Vol. XXIII Spring 1961 pp. 68 - 87 and pls. XXXI-XLE .

(٣٣) شتوكي ،رالف : تنقيبات راس شمرا / أوغاريت ، تقريـر أولي الموسم الثـالث والثلاثون (١٩٧٢) م ٢٣ (١٩٧٣)ص٣٥٩ .

(٣٤) Eneyelopedy of Excavatlin Vol. I p. 10 .

(٣٥) Ibid p. 83 .

(٣٦) Ibid Vol. II p. 495 .
Ibid Vol. II p. 520 .

(٣٧) وانظر كذلك :
Albright, Archaeogy .... pp.142 - 143 .

* * *

اعمال التنقيب السورية في تل سيانو

د. عدنـان البنـي
المديرية العامة للآثار والمتاحف
سـورية

نعرف من نصوص أوغاريت ان مملكتين صغيرتين في التخوم الجنوبية لتلك المملكة الباهرة ،تحملان اسم سيانو واشناتو ، متحدين مختلطتين حينا ، ومنفصلتين أحيانا، كانتا في ممتلكاتها وانفصلتا عنها . ومع اتحادهما كانت تتمتع كل منهما بملك. والاجماع الان ان سيانو هي في تل سيانو(١) ، أما أوشناتو فهي في أحد مواقع ثلاثـة(٢) . وما يعنينا في هذا البحث هو المملكة الاولى .

تل سيانو واحد من اكبر خمسة تلال أثرية على الساحل السوري، يقع على خط الطول ٢٢ر٣٥ ، وخط العرض ٠٠ر٣٦ الى الشرق من مدينة جبلة ، وعلى بعد حوالي ثمانية كيلومترات منها(٣) ، ويمر الى الجنوب منه نهر الحداد(٤) . تبلغ مساحة التل، انطلاقا من خط تسوية النهر ، قرابة عشرة هيكتارات ، ويرتفع ٤٠ر١٤٨م عن سـطح البحر . أما ارتفاعه عن مستوى السهل المحيط به فهو وسطيا نحـو ٤٠ مترا . وفي ذروة التل نقطة مساحية مثلثاتية من الدرجة الثالثة ترى من كل الجهات .

أصل تل سيانو رابية طبيعية من الغضار البني الضارب الى الصفرة ، تراكمت فوقها الطبقات الاثرية بارتفاعات مختلفة . وتتسنم التل أجمة تظلل بضعة قبور أهمها قبر الشيخ علي (غانم) الذي يحمل شاهدة مؤرخة في القرن ١٢ هـ . والاشجار في الاجمة وعلى بعض سطوح التل هي البلوط والسنديان والصنوبر والزعرور وغيرها . وفي الوضع الراهن نجد أقساما كبيرة من تل سيانو على شكل جروف متدرجـة تزرع بالزيتون والحبوب . وبقرب التل وحوله تقوم بيوت قرية سيانو . وثمة بئر اثريـة شهيرة فيها تعرف باسم بئر سيانو تقع الى الجهة الغربية من القرية .

ما زالت في الاقسـام السفلى من التل وفي جواره القريب معالم أثريـة ظاهرة او مختفية كشفت عن بعضها أعمال المشاريع العامة المختلفة ، منها سـرداب او نفق في

---

* اعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ــ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ــ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ــ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

الجهة الشرقية ، تردد الحديث عنه ــ وسنقوم بدراسته علميا وتحديد زمنه وطبيعته مستقبلا ــ ومنها أيضا ما نرجح انه جبهة مدفن بزخارف كلاسية من ايام الرومان كتب عليها باليونانية « (سنة ... شهر) ابيلايوس ، اليوم الرابع ، تيودود بن ابولونيوس (بنى هذا او أقام هذا الـ ....) » .

ومن شكل الحروف يقدر أن تاريخ الكتابة هو النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي أو مطلع الثالث ، أيام اسرة السفيرة السورية ــ البرقاوية . وفي التل قطع حجرية متناثرة مختلفة الاشكال كانت في الاصل تابعة لمبان ازيلت ، اذ كان التل ، وحتى زمن قريب ، (مقلعا) تنزع منه الحجارة المنحوتة وتبني بها مساكن المنطقة .

* * *

اسباب التنقيب الاثري في تل سيانو :

اشير مرارا الى أهمية تل سيانو من الوجهة الاثرية ، بعد القيام بزيارات منهجية له ، والوقوف على حجمه وشكله والبقايا المبعثرة فوقه ومن حوله ، ونماذج الفخار الوفير المنتشر على سطوحه . وقد زاره زيارة أثرية اميل فورير في عام ١٩٣٤(٥) ، وقدر انه عاصمة مملكة سيانو ، كما زاره زيارة استكشافية أثرية بول ريس(٦) ، وكذلك عدد من الزملاء السوريين والاجانب ، وسجلته المديرية العامة للاثار والمتاحف عام ١٩٧٩ موقعا أثريا(٧) . وقمنا مع الاستاذ جبرائيل سعادة وبعض الزملاء بجمع نماذج الفخار منه وتصويره في ١٩٨٣ .

وفي شباط ١٩٩٠ اثارت رئيسة دائرة آثار اللاذقية السيدة نجوى خاسكية موضوع الخطر المحدق بالتل وضرورة التنقيب فيه وذلك في تقرير خاص فكلفت رسميا بدراسة وضع التل الحالي من كل النواحي كما كلف السيدان بسام جاموس وجمال حيدر باعداد وصف لوضع التل أثريا فوصفا دراسة أولية حسنة .

وحدث حادث غيّر سير الامور وأدى الى ضرورة البدء فورا بالعمل . ففي اواخر حزيران من العام ١٩٩٠ اخترقت آليات شركة في اللاذقية (ريما) الاجزاء الدنيا من التل بعمق شديد ، وانكشفت في الجهة الغربية منه معالم اثرية . فأوقف العمل واقيمت حراسة على التل ، وجرت أعمال توسيع وتوضيح لمعصرة زيت من العصر الروماني المتاخر ، بخزانها والبلاط الفسيفسائي ذي المكعبات الكبيرة(٨) . وتولى هذا العمل السيد وجيه الملاح بتكليف من دائرة آثار اللاذقية .

تشكيل البعثة وتوقيتها :

عهدت لنا المديرية العامة للاثار والمتاحف بادارة بعثة سورية واسعة لاجراء عمليات تنقيب شاملة في هذا التل ، بدأت العمل الفعلي من ٧ تموز حتى منتصف ايلول ١٩٩٠ ، وشارك فيه السيد ميشيل مقدسي نائبا للمدير والسيدة نجوى خاسكية ، والسيد باسم جاموس والمهندسة نهى دروس والسيد هيثم حسن والانسة غادة عزوز ، بالاضافة الى بعض متطوعين وطلاب دبلوم الاثار بجامعة دمشق ، اسهموا بالعمل بعض الوقت .

وفي الموسم التالي ١٩٩١ ، كان تشكيل البعثة نفسه تقريبا بالاضافة للانسة سهام اسماعيل . وشارك فيه عدد من طلبة دبلوم الدراسات العليا في قسم الاثار بجامعة دمشق وطلاب المعهد المتوسط للاثار . وفي الموسم الثالث ١٩٩٢ كان الاستاذ ميشيل مقدسي مسؤولا عن ادارة البعثة ميدانيا ، مع اضافة الاستاذ احمد سرية والسيد سهل مشارقة والسيد غسان القيم الى البعثة . وامتد العمل كالعادة من نحو منتصف تموز الى منتصف ايلول ، وبلغ مجموع المساحات المنقبة في ذروة التل وعلى السطح الشمالي والشمالي الغربي والاسبار الموزعة في عدد من أجزاء التل ، اثنين واربعين بمقياس ٥×٥ م .

مدينة سيانو في النصوص القديمة :

لم يرد ذكر مدينة سيانو ، مثلها مثل اوغاريت وارواد ، في حوليات الملك المصري من الاسرة الثامنة عشرة ، تحوتمس الثالث (نحو ١٤٨٣ ــ ١٤٥٠ ق.م) بعد ان قام بسبع عشرة حملة على ممالك سورية المتمردة دوما ، وسجل أخبارها على جدران معبد الكرنك . وفي عهد خليفته الفرعون امنحوتب الثاني (نحو ١٤٥٠ ــ ١٤٢٥ ق.م) سعت مملكة أوغاريت التي كانت تحكمها سلالة كنعانية وطنية للدخول رضائيا في نطاق النفوذ المصري(٩) ، محتفظة باستقلالها ، تأمينا لمصالحها التجارية ، وسادت ، فضلا عن ذلك على جارتها الجنوبية مملكة سيانو/أوشناتو المزدوجة . واحترم المصريون هذا الواقع الجديد .

وثمة رسالة طريفة من تلك الفترة ، محررة بالبابلية ، من رجل يسمى شيني تيشوب الى سيده ملك اوغاريت عن مهمة اتمها في مدينة سيانو يقول فيها حرفيا:

الى سيدي ملك اوغاريت. ان خادمك شيني تيشوب يقول : عند قدمي مولاي اسجد من بعيد سبع مرات ، أثر سبع مرات . فيما يخص ملك أوغاريت كل شيء يسير على ما يرام . أرسل أخبارك لخادمك بعودة البريد . طبعا لما طلبه مني سيدي واجهت الرجل المغرر به بحقيقة نفسه فخجل ووشى بالرجال الذين افسدوه ولكن كيف الوصول اليهم(١٠) .

ومن أخبار سيانو في أوغاريت رسالة محررة بالاوغاريتية من ملك سيانو على الارجح(١١) جاء فيها : يقول ملك (سيانو) لملك أوغاريت يا اخي سلام عليك ، لتحفظك الارباب ، اني مرسل اليك رسولي أوخورا ليعالج بعض القضايا التي تخصني فارعاه يا اخي حتى يوم عودته. وأرسل لك أيضا ابن سوراتو ليبحث بعض قضاياي والمشكلة الحاصلة مع رجل بالووان ابن سوراتو وابن نعمو سيمثلان امامك فاقض بينهما ولتكن تسوية عادلة مع رجل بالو .... وان رجالا من بيروت(١٢) . من الذين ادعو بانهم يسعون للحصول على بعض المشروبات من أوغاريت ارتكبوا اعمالا معادية. .الخ.

وفي عصر العمارنة والاصلاح الديني في مصر ضعف النفوذ المصري في بلاد الشام وبخاصة في الشمال والساحل . وكانت الممالك الساحلية تطلب نجدة مصر دون جدوى وتبقى الرسائل مكومة في محفوظات امنحوتب الثالث ، وأمنحوتب الرابع (اخناتون) بخاصة . وفي هذه النصوص ذكر لمدينة اسمها تيانا يعتقد بأنها سيانو . ففي أحد النصوص نجد ياباخو حاكم ، او ملك مدينة غزرو ، يشكو من عداوة أخيه البكر ويذكر فيها أن مدينة تيانا ضده . وثمة نص فيه شكوى من شوباندو ملك مدينة اخرى يذكر ان تيانا فيحالةحرب معه (١٣) .

وفي ايام نقماد ملك أوغاريت (نحو ١٣٧٠ ـ ١٣٣٠ ق.م) عقدت في حدود عام ١٣٦١ ق.م معاهدة بينه وبين عزيرو ملك أمورو (بلاد الاموريين) ، شملت بنودها عهدي خيبات ملك سيانو ، تذكر المعاهدة مناوشات في غياب الملك عزيرو بمصر بين بعلويا الوصي على عرشه وبين عبدي خيبات ملك سيانو ، الامر الذي يدل على وجود تخوم مشتركة بين سيانو وامورو(١٤) .

وفي أيام الملك الاوغاريتي نقما بن نقماد (نحو ١٣٣٠ ـ ١٢٧٠ ق.م) ازداد النفوذ الحثي في شمال سورية ، وتسرب الى الساحل ، وخرجت سيانو من فلك اوغاريت وارتبطت بمملكة كركميش (جرابلس)(١٥) ، التي كان الحثيون قد اتخذوها مركزا على الفرات لمراقبة الشؤون السورية(١٦) . وكان ذلك بين ١٣٣٦ و ١٣١٥ ق.م (١٧) .

ايد الملك الحثي مرسل الثاني (نحو ١٣٥٠ ـ ١٣١٥) الوضع الجديد الذي كان حتما بتدبير الحثيين ، وعين الحدود بين مملكة اوغاريت ومملكة سيانو أكثر من مرة . ولقد اغضب هذا الامر اوغاريت لان سيانو كانت تابعة لها ، ولان كركميش بعيدة ولا حدود مشتركة بينها وبين سيانو .

كان ملك اشناتو وملك سيانو يقدمان التزامات لملك اوغاريت ، وبعد انفصالهما من تبعيته لم تعد هناك ضرورة لذلك . وقد اقر الملك الحثي مرسل الثاني هذا الوضع الجديد الذي اصبحت مملكتا سيانو وأوشناتو بموجبه تابعتين بشكل ما للحثيين ولكركميش ، والت بعض مداخيل المملكتين لهم وخسرتها أوغاريت ، الامر الذي جعلها تتلكأ بدفع الجزية المعتادة للحثيين . واشتكى ملك أوغاريت نقماد للملك الحثي مرسل الثاني من انه لا يستطيع الاستمرار في دفع الارزاق التي كان يدفعها اسلافه لهم بسبب اقتطاع مملكتي سيانو واوشناتو ، فخفض الملك الحثي جزية اوغاريت الى ٢٥٠ شاقلا من الذهب ، مثلها في ذلك مثل مملكة امورو .

وقد وجد نص في قصر اوغاريت الملكي يقول على لسان الملك الحثي مرسل الثاني: مرسل الملك الكبير ، فصل عبد عنات ملك سيانو وأولاده عن أوغاريت وأعطى سيانو للملك كركميش كي تكون في خدمته . سيانو مع مدنها المجاورة وحدودها وجبالها أعطاها بموجب صك مختوم الى ملك كركميش(١٨). وفي نص اخر يقول الملك الحثي نفسه انه حدد الحدود بين أوغاريت وسيانو وانه ثبت مدنا سماها لاوغاريت وانه قسم الملاحات بين نقماد ملك اوغاريت وعبد عنات ملك سيانو . وعلى ملك سيانو ان يدفع في شهر شباط من كل عام خروفا واربع جرار من الخمر مثل ما كانت العادة في ايام الملك ساسيا(١٩) . والملك ساسيا هذا ربما كان مؤسس مملكة سيانو(٢٠) .

وبرغم التحكيمات والمراسيم الحثية ظلت مسألة الحدود بين اوغاريت وسيانو مثار مشكلات كثيرة خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م ، نقرأ صدى ذلك في مراسلات عدة بين ملوك الحثيين وكركميش وأوغاريت وسيانو وأوشناتو . من ذلك ذلك ما جاء في جزء من مرسوم عليه ختم الملك الحثي توداليا الرابع (نحو ١٢٦٥ — ١٢٣٥ ق.م) عثر عليه في القصر الملكي باوغاريت يتضمن تسوية بين آرى تيشوب ملك سيانو ومعاصره في أوغاريت ، وهو حتما الملك عشتمرو الثاني (١٢٦٠—١٢٣٠)، ويتعلق هذه التسوية بمدينة سوكسي (تل سوكاس) وملاحات مدينة اتاليغ(٢١) وكان ذلك في اواخر أيام اوغاريت .

بعد اجتياح شعوب البحر للساحل السوري في نحو عام ١١٨٥ق.م وانهيار المملكة الحثية والمملكة الاوغاريتية ، وأكثر ممالك الساحل السوري من الامانوس حتى رفح ، بدات فترة معتمة غامضة في هذا الساحل(٢٢) .

وفي نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، اخذت دولة آشور تحاول شق منفذ لها على البحر . وتابع الملك الاشوري تغلات فلاصر أول (١١١٢ — ١٠٧٤ ق.م)

غزواته حتى البحر المتوسط لكنه لم يدخل في نزاع مع الممالك الارامية في الداخل او المدن الكنعانية على الساحل . وتوقفت الحملات الاشورية من بعده حتى اواخر القرن العاشر ق.م . ومنذ عهد الملك الاشوري حدد نيراري الثاني (٩١١ — ٨٩١ق.م) بدات المحاولات من جديد ولم تنقطع حتى عصر سلالة الملك السرجونيين (٧٢٢ — ٦١٢ ق.م) . فاجتاز الملك آشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣ — ٨٥٩ ق.م) الفرات الى بلاد الشام وكان بين الممالك التي قدمت له الهدايا ، الممالك الكنعانية الغنية على الساحل . وفي حكم خليفته شلمنصر الثالث (٨٥٩ — ٨٢٤ ق.م) حدث الارتطام. ومن اخباره المنقوشة على المسلة السوداء(٢٣)، وعلى صفائح البرونز على باب بالاوات(٢٤) ، نعرف أنه وصل الساحل في أول سنة من حكمه ، اذ ذكر انه غسل سلاحه في البحر الذي تغيب فيه الشمس . وحين هزمه ، عام ٨٥٣ ق.م ، الملوك الكنعانيون والاراميون ، والسوريون عموما ، بزعامة ملك دمشق بر حدد ، في معركة قرقر(٢٥) كان معهم ملكا سيانو وأوشناتو. وذكر شلمانصر الثالث أن أدونو بعلي (ملك سيانو قدم للمعركة ٣٠ عربة وألف جندي(٢٦) وان الاوشناتيين قدموا ٢٠٠ جندي(٢٧)

ويذكر ابنه تغلات فلاصر الثالث (٨٤٥ — ٨٢٨ق.م) في حولية السنة الثالثة من حكمه انه الحق بآشور مدنا عديدة منها مدينتا أوسنو (أوشناتو) وسيانو(٢٨) . ويذكر في نص آخر انه ضم هاتين المدينتين مع غيرهما ووضع ضباطه حكاما عليها(٢٩) . وكان ابنه شلمنصر الخامس واليا على الساحل الكنعاني قبل أن يصير ملكا بين ٧٢٨ — ٧٢٢ ق.م .

خلف شلمنصر الخامس سرجون الثاني (٧٢٢—٧٠٥ق.م) وعند انشغاله بالحروب مع بابل استعادت مصر نفوذها في بلاد كنعان، وتجمعت الممالك السورية ساحلا وداخلا بزعامة حماة ضد الاشوريين ، وخاضت ضد سرجون الثاني معركة قرقر الثانية عام ٧٢٢ ، وكانت الغلبة فيها للاشوريين . وليس لدينا ما يدل على ان مدينتي سيانو واوشناتو كانتا بين المدن التي شاركت في هذه المعركة . ومن الساحل قام سرجون الثاني بحملة على قبرص ، فعبر البحر في سبعة ايام ، ونزل في قبرص عام ٧١٣ق.م وذكر أنه اصطادها كما يصطاد السمك وأقام فيها تمثالا له على الطريقة الاشورية(٣٠) ثم استعادها ملك صور (لولي) ، وبتشجيع من مصر سيطر هذا الملك على المدن الكنعانية في الساحل ، لكن سنحريب (٧٠٤—٦٨١ ق.م) استعادها .

ونظرا لاهمية سيانو واشتراكها بشكل فعال في احداث الالف الاول ، اثرت في محرري التوراة اليهودية . فقد جاء في سفر التكوين(٣١) ان اهل سيانوهم من نسل السيني سابع ابناء كنعان . وقلد التوراة يوسيفوس اليهودي الذي يضع سينايوس

بين ابناء كنعان(٣٢) ، وتبعهما في ذلك القديس جيروم(٣٣) . وفي الواقع ان أكثر هذه العروق المزعومة هي أسماء مدائن مثل صيدا وعرقة وسيانو وأرواد وصمور (تـل الكزل) وحماة .

وفي أواخر القرن الثامن اختفى اسما سيانو واوشناتو اللتين ذابتا في مملكـة ارواد الناهضة . هذا وان عدداً من اسماء ملوك سيانو وارد في النصوص ، فمن أيام أوغاريت هناك سياسيا مؤسس السلالـة على الغالـب وباسـمه الختـم السلالي للمملكة(٣٤) ، وعبد عنات المعاصر لنقماد ملك أوغاريـت ، وآري تيشـوب المعاصـر لامشتمرو الثاني ملك اوغاريت . ومن أيام معركة قرقر الاولى (٨٥٣) نعرف اسم الملك ادونو يعني (٣٥) .

اما المدن أو بالاحرى البلدات التي كانت تابعة لسيانو في أيام أوغاريت، وبعـد انفصالهما فقد ورد عدد منها في احد الرقم الاوغاريتية الذي يتعلق بمواطني مدينـة اسمها قاراتو مقيمين في مختلف بلدات مملكة سيانو(٣٦) ، وفيما يلي اسماؤها وقـد وضعنا أمامها ما يقابلها حاليا في رأي م.استور(٣٧) .

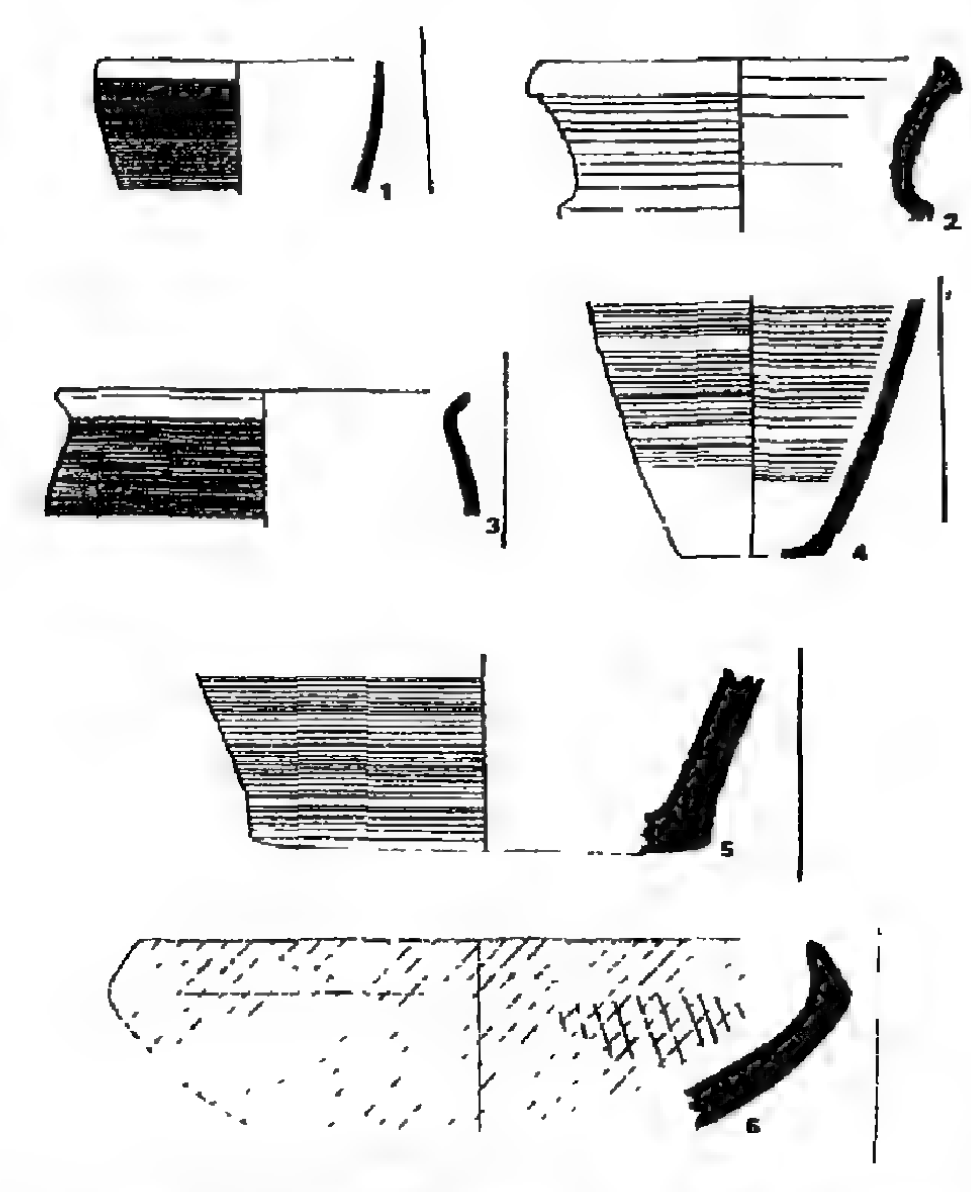
جي	—	مـا	ـ ني	....
لا	—	شا	ـ بي	....
سي	—	ال	لا	أو (سيلايا) لعلها عين‌سيلو
دو	—	مـا	ـ تي‌ـفي (ادـشي)	....
مـو	—	اور	ـشاـآ	ولعلها مارشته
جا	—	لي‌ـلي تو‌ـكي‌ـيا		وقد يكون تل جلال
او	ـرا		ـ آ	....
قي	—	ام	ـ صي	قمصو على الراجح
شابا	—	ال		....
صا	—	.		صايا على الراجح
مـار	—	دو	ـ شي	مرداش
ام	—	مي	ـشاـبي	....
آر	—	مي	ـلي	بيت الارملة
مـا	—	را	ـال	بعمرائيل احتمالا

موجز نتائج التنقيب في المواسم الثلاثة الماضية (١٩٩٠ ـ ١٩٩١ ـ ١٩٩٢):

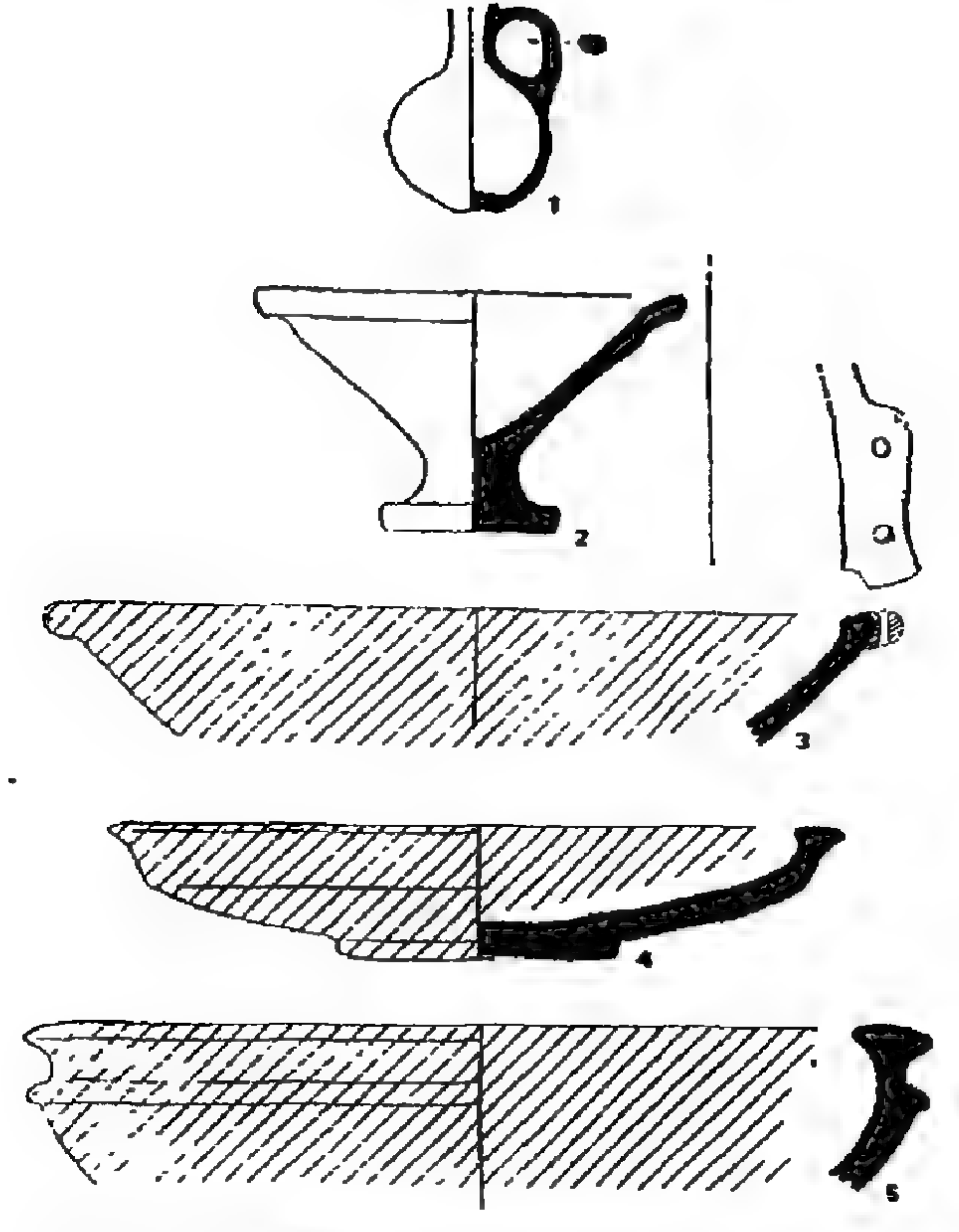
خلال المواسم الثلاثة الماضية اظهرنا في السوية الرابعة من التل(٢٨) جزءا اساسيا من منشأة حصينة تراوح سماكة جدرانها بين ٢.١٠ و ٢.٥٠م ، كانت بداية انشائها في مطلع عصر الحديد الثاني (نحو القرن الثامن ق.م) ووسعت بمرور الزمن ، واخر تعديلات احد اضافات لها جاءت في عصر الحديد الثالث (نحو القرن الخامس قبل الميلاد) . وبدلالة نماذج الفخار المكتشف حتى الان نعتقد ان هذه المنشأة قد هجرت حوالي القرن الرابع قبل الميلاد . وذلك يوافق زمن احتلال الاسكندر المكدوني للمنطقة (٣٣٣ ق.م) واخذت تنهار واستلبت حجارتها في ايام الرومان ، وفي أواخر العصر البيزنطي ،وخلال فترات من العصر العربي الاسلامي ، كانت اطلالها تستخدم للسكن من جديد ولكن لم يبق من تلك الفترة الا ثلاثة تنانير وارضية سطحية بعد ان اجتثت الاعمال الزراعية المتاخرة كل الجدران . وقد المحنا لذلك من قبل .

اما السوية السادية فهي حتى الان السوية الاهم في القطاع الذي جرى التنقيب فيه من التل . وهي تعود لعصر البرونز القديم الثالث والرابع ، وفي الفترة الاخيرة منها مرحلتان آ و ب . تشكل الجدران في هذه السوية مجموعة سكنية تكاد تلامس سطح التل في وضعه الراهن وتتكون الجدران من الحجر النهري (الفشيم)المستدير أو الحجارة الكلسية نصف المشذبة ، وهي منفرسة أو مغلقة بطبقة من الغضار الاصفر يصل سمكها الى نحو نصف المتر . وكل ما في هذه الطبقة أو فوقها أوان شبه كاملة من الفخار المشط الجيد الشي،ذي الرنين المعدني تقريبا ، واللون الزهري والرمادي والسكري الفاتح عموما ، وقد استخدم الرمل الابيض في تقوية عجينتها . وهذا الفخار الجميل يصاحبه اكواب واقداح أكثرها من الفخار السكري لها كعب حققي أو قرصي من النماذج المعروفة في سهل العمق وابلا وحماه . وفي هذه السوية ايضا فخار رقيق جميل مائل للحمرة ملمع ، واخر مزين بشرائط سوداء . ونحن بصدد دراسة الفخار واللقي والصور بشكل معمق حتى نصل الى استنتاجات اكثر وضوحا.

ان السويات التي وقعنا عليها وحاولنا تحديدها مبدئيا قد تقل أو تكثر مع تقدم العمل ولكن خطوطها الكبرى حاليا لا توائم بعض المعروف من تاريخ سيانو . اذ اننا في هذا القطاع من التل لم نعثرعلى سوية من عصر البرونز الحديث (الرابع عشر والثالث عشر ق.م) وهي فترة علاقة سيانو بأوغاريت والحثيين والمصريين ، فهي اما ان تكون قد زالت بالانتكال في هذه الجهة وسنجدها في مكان اخر من التل ، او انها في مكان ما قريبا منه .



نماذج من فخار عصر البرونز القديم الثالث في سيانو



نماذج من فخار عصر الحديد الثاني في سيانو



جزء من حصن يعود لعصر الحديد الثاني (تل سيانو)



جانب من معصرة زيت من القرون الميلادية الاولى

ومن جهة ثانية ، ان غزارة فخار عصر البرونز القديم الثالث ، وبخاصة التنوع الكبير والبديع في الفخار المشط ، يفوق كل ما نعرفه في أوغاريت (السوية الثالثة) وفي كل الساحل السوري . وانأول استنتاج يمكن ان نستخلصه هو اهمية سيانو الزراعية والتجارية في عصر ابلا . فسيانو كانت ، في تلك الفترة تستخرج كميات ضخمة من الزيت ومشتقات العنب والمجففات تضعها في مثل هذه الجرار الصلبة وتصدرها الى مصر وبقية اجزاء الساحل .

واخيرا ، وبخلاف بعض مناطق سورية كالجزيرة والسهول الداخلية التينهضت مدائنها في الالف الثالث بسبب رزاعات الحبوب البعلية ، فان الساحل السوري الشمالي لضيق السهول فيه وكثافة الاحراش في هضابه وجباله اعتمد آنئذ، بخاصة، على الزراعات عالية الانتاجية التي لا تحتاج الى مساحات كبيرة ، كالزيتون والكرمة والاشجار المثمرة الاخرى ، وجعلها موضوعا للتبادل والتجارة . فكان يصدر فضلا عن الخشب والانسجة المصبوغة بالارجوان،الزيت والخمر والثمار ، وله تجارة منظمة ناشطة مع مصر وقبرص ، وحتى كريت منذ الالف الثالثعلى الاقل، فضلا عن عمليات الترانزيت من الرافدين واليها . ولا نجد صدى ذلك في النصوص فحسب بل اثبتها البرهان الاثري ، وعدد التلال الاثرية الكثيرة في سهل جبلةلوغنى سوية عصر البرونز في تل سيانو دليل واضح على ما قدمنا.

الحواشــــي :

(١) فوربر (١٩٣٩) نوغابرول ، قصر اوغاريت الملكي ، ج٤ ، ص ١٦ ــ ١٧ وان ورود اسم سيانو في النصوص القديمة على شكل سيانا او ثيانا لا يبدل من الامر شيئا ، فمنشيء النص قد يسمع خطأ او ينسخ وفق اللغة التي يتكلمها . وقد وردت سيانو فيالقطعية المسمارية الاشورية الحديثة بشكل شياني بقلب السين الى شين كالعادة لدى الاشوريين استور (١٩٧٥) .

(٢) مرب الملك ، دوسو (١٩٢٧ ص ١٣٣) ،اما فوربر (اهريخ ١٩٣٩ ص ١١٣) فيضعها في تل حصين (ويسمى تل بصيرة ايضا) ، وريس (١٩٦٠ ص ١١٦) يقترح لها تل دروك . ويؤثر استور (١٩٧٩ ص ١٩) تصور فوربر ويقول انه محتمل تماما .

(٣) ذكر فوربر (١٩٣٩) أنها على بعد ٣ كم، ويذكر ريس انها على بعد ٧ كم .والحقيقة انها على بعد ٨ كم وذلك مثبت في المصنف الهجائي للقصبات والقرى والمزارع المنشور عام ١٩٣٩ .

(٤) نهر صغير يروي عدة قرى قبل ان يصب في البحر ، ويشح بدءا من شهر حزيران ، اقامت الدولة عليه سدا يطلق عليه اسم سد كفر دبيل .

(٥) راجع سعادة (١٩٦٤ ص ٩٦).

(٦) المرجع السابق ص ٩٧.

(٧) كان الدكتور علي ابو عساف انئذ مديرا للمباني الاثرية وقام بمسح مواقع الساحل واقترح تسجيل التل .

(٨) مماثلة لما اكتشف في رأس ابن هاني ، راجع د. عدنان البني ، التنقيب في رأس ابن هاني ، الحوليات الاثرية العربية السورية (١٩٨٣) ص ٤٤ .

(٩) في النصوص المصرية وبخاصة نصب امنحوتب الثاني الذي نشره أ.م. بدوي في حوليات دائرة الآثار المصرية (العدد ٤٢ ، ١٩٤٣ ، ص١ وما تلاها) ، وفي نسخة عنها وجدت في ممفيس ، أطلق على أوغاريت لقب تلمسة الملك ، وكان فيها انئذ على ما يبدو قوات مصرية حدثت انتفاضة ضدها جعلت الفرعون يأتي الى أوغاريت ويذكر « أنه روض كل اعدائه فيها ثم عاد بقلب فرح اذ جعل كل هذه البلاد في ممتلكاته » عن كلود شيفر (١٩٥١ صفحة ٩) .

(١٠) نوغايرول ، اوغاريتيكا ، ج٥ ، ٤٤ .

(١١) المرجع السابق ، ص ١٢٤–١٢٦ .

(١٢) المقصود المدينة الاوغاريتكية في رأس ابن هاني على الراجح . راجع ادنو (١٩٨٤) وفي جميع الاحوال لابد ان تكون مدينة قريبة من سيانو واوغاريت ، وليس بيروت البعيدة عاصمة لبنان ، (وبئروت أو بئروتي تعني الآبار أو مدينة الآبار) .

(١٣) موران (١٩٨٧ ، رقم ٢٩٨ ورقم ٣٠٦).

(١٤) استور (١٩٧٩ ص ١٤).

(١٥) راجع عن انفصال سيانو واشناتو عن أوغاريت: قصر أوغاريت الملكي ج٤ ، ص٦ وما بعدها ، وص ٧١ – ٨٣ .

(١٦) من هذه المراكز الحديثة ايمار (مسكنة) وشغرى (تل القرى) وكركميش (جرابلس).

(١٧) استور (١٩٧٩ ص ١٤) .

(١٨) نوغايرول ، قصر أوغاريت الملكي ، ج٤ ، ص٨٠.

(١٩) المرجع السابق ، ص ٧١ وما بعدها .

(٢٠) استور (١٩٧٩ ص ١٤ حاشية ١٥) .

(٢١) نوغايرون ، قصر أوغاريت الملكي ، ج٤ ص٢٩١

(٢٢) ان اعمال التنقيب في ابن هاني اخذت تلقي بعض الضوء على تلك الفترة ، لكن النصوص المكتوبة معدومة تماما .

(٢٣) مصدرها من كلح وهي في المتحف البريطاني.

(٢٤) موقع مدينة اشورية كان اسمها امكر انليل .

(٢٥) يقدر عادة أن قرقر موقعها في تل كركور شمالي الغاب حيث تنقب بعثة امريكية لم تصل الى يقين في هذا المجال حتى الآن .

(٢٦) هيلين صادر (١٩٨٧ ص ١٨٨) .

(٢٧) هذا الفارق في الحشد بين سيانو واوشناتو قد قد يدل على صعود نجم سيانو بالنسبة لشقيقتها .

(٢٨) هيلين صادر (١٩٨٧ ص ٢٠٤).

(٢٩) هيلين صادر (١٩٨٧ ص ٢٠٥–٢٠٦).

(٣٠) في متحف برلين .

(٣١) الاصحاح العاشر (١٥–١٨) : وكنعان ولد صيرون بكره وحثا واليبوسي والاموري والجرجاشي والحوي والعرقي والسيني والاروادي والصماوي والحماتي ، وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني .

(٣٢) يوسيفوس ، الاثار اليهودية ، الجزء الاول ص ١٣٨ .

(٣٣) دي كوكيه (١٩٧٤ ص ٣٢) .

(٣٤) راجع الحاشية ٢٠ من هذا البحث .

(٣٥) راجع ما ذكر عن معركة قرقر الاولى في هذا البحث .

(٣٦) نوغايرول ، قصر أوغاريت الملكي ، ج٦ ص٧ وما يليها .

(٣٧) استور (١٩٧٩) ص ١٩ وما يليها ، ولمسة بلدان اخرى في نصوص غيرها .

(٣٨) هذه التسمية مبدئية قابلة للتعديل مع تقدم العمل .

المختصـرات للمراجـع الاجنبيـة

D. Arnaud: La Lettre Hani 81/4, l'identification du site de Ras Ib n Hani = ١٩٨٤ أرنو
Syria, LXI (1984), pp. 15-23

M. Astour: Place Names; Ras Shamra Parallels, II = ١٩٧٥ استور
The Texts from Ugarit and the Hebrew Bible, éd. L. R. Fishter, Rome, (1975), pp. 249-369

M. Astour: The Kingdom of Siyannu-Ušnatu; UF,11, (1979), pp. 13-28. = ١٩٧٩ استور

R. Dussaud : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale, = ١٩٢٧ دوسو
BAH IV, Paris, (1927)

E. O. Forrer : Appendix II publié dans Ehrich (1939) : pp. 113-125. = ١٩٣٩ فورير

W. L. Morin : Les Lettres d'El-Amarna, correspondance diplomatique du pharaon (traduction française de D. Collon et H. Cazelles), Paris, (1987). = ١٩٨٧ مورين

J. P. Ray-Coquais : Arados et sa Pérée aux époques grecques, romaine et byzantine, BAH, XCVII, Paris, (1974) = ١٩٧٤ ري كوكة

P. J. Riis : L'activité de la mission archéologique danoise sur la côte syrienne en 1959; AAAS, X, (1960), pp. 111-132. = ١٩٦٠ ريس

J Nougayrol : Textes accadiens des Archives Sud (Archives Internationales), PRU, IV, Paris, (1956) = ١٩٥٦ نوغايرول

J. Nougayrol : Textes suméro-accadiens des Archives et Bibliothèques privées d'Ugarit; Ug, V, (1968), pp. 1-446 = ١٩٦٨ نوغايرول

G. Saadé : Histoire de Lattaquié I, Ramitha problèmes des origines, Damas, (1964) = ١٩٦٤ سعادة

C. Schaeffer· Découverte d'un sceau Royal Hittite à Ras Shamra-Ugarit = ١٩٥١ شيفر
(Campagne 1950) , AAAS- I/2, (1951), pp. 165-170

H. Sader : Les états araméens de Syrie, Beyrouth, (1987) = ١٩٨٧ صادر



بعثة تل سيانو عام ١٩٩١ ، مع طلاب الجامعة المتمرنين



تل سيانو ـ البعثة الاثرية السورية في موقع العمل

هجـرة القبيســات الاولى مـن ابو ظبــي الى العديـد والدور البريطاني (١٨٣٥ ــ ١٨٣٧)
((دراسة وثائقية))

د. محمد حسن العيدروس
ج. الامارات العربية المتحدة

مقدمـــة :

نتناول في هذا البحث هجرة القبيسات الاولى الى العديد من عــام (١٨٣٥ ــ ١٨٣٧) والموقف البريطاني تجاهها ، ودوره المزدوج في البداية بعدم معارضة سياسة التجزئة التي مارستها في المنطقة وتمشيا معها ، وخاصة تجاه القواسم وبني ياس ، وتفتيت وحدة ساحل عمان بعد انفصاله عن عمان الام ، في نهاية الدولة اليعربية ، وصولا الى اعترافها بانفصال دبي عن أبو ظبي عام ١٨٣٣ .

ثم محاولة بريطانيا الاعتراف بانفصال القبيسات عن أبو ظبي (١٨٣٥–١٨٣٧). لقد فشلت عملية الانفصال بسبب ضعف القبيلة وصغر حجمها وعدم مقدرتهــا على حفظ المصالح البريطانية . اضافة الى التخوف البريطاني من تحول منطقة العديد الى مصدر ازعاج وتهديدها للامن البريطاني . لذلك فان بريطانيا تراجعت عــن مواقفها السابقة بتشجيع الانفصال وقيــام امارات جديدة ، الى السـماح لحاكم ابو ظبــي باسترجاع قبيلة القبيسات بشن حملة عسكرية .

وتقوم هذه الدراسة أساسا على الوثائق التي تنشــر لأول مرة ، والتي تلقــي الضوء على ما كان يجري من مراسلات بين حاكم أبو ظبي ، وشيخ القبيسـات المنشق، والوكلاء البريطانيين في الشارقة والبحرين ، والمقيم السياسي البريطاني في الخليـج العربي ، وحكومة بومباي في الهند .

قبيلة القبيسات : القبيسـات عشــيرة تعمل في صيد الاســماك واللؤلؤ وبنــاء السفن ، من قبيلة بني ياس في امارة أبو ظبي ، يعيش غالبية افرادها فصل الشــتاء بمنطقة ليوا ، على أطراف الربع الخالي في الظفرة ، ويملكون اشجار نخيل واغنــام

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

وماعز . وهم الذين قاموا ببناء مدينة على الساحل الجنوبي لخور العديد في مستهل القرن التاسع عشر ، عرفت بمدينة « العديد » ، التي اكتسبت أهمية استراتيجية عندما جاء العثمانيون الى الاحساء وقطر ، اذ كانت الحد الفاصل بين النفوذ العثماني والبريطاني في شرق الجزيرة العربية ، اضافة الى حكم قبيلة القبيسات واقامتها هناك في تلك الفترة . وتحظى حاليا المنطقة بأهمية كبيرة ، لوجود احتياطي من البترول فيها ، ولكونها الحد الفاصل بين امارة ابو ظبي وقطر والسعودية . كما أن السعودية تسعى لايجاد منفذ بحري لتصدير النفط في المستقبل القريب .

اسباب هجرة القبيسات من ابو ظبي الى العديد : عندما قامت السلطات البريطانيةبجمع الغرامةالتي فرضتها على حاكم ابو ظبي خليفة بنشخبوط ، لتعديه وتعرضه للسفن البريطانية في الخليج العربي ، هرب رعاياه في كل الاتجاهات ليتفادوا دفع انصبتهم ، الى درجة ان بريطانية طلبت من بقية حكام امارات ساحل عمان عدم استقبال الهاربين من ابو ظبي . ومن هؤلاء الهاربين كان القبيسات ، الذين تركوا ديارهم وديونهم دون سداد وانتقلوا الى « العديد » في المنطقة الساحلية الجنوبية الغربية غير الاهلة بالسكان ، بزعامة خادم بن نهيمان القبيسي ، وأسسوا لانفسهم موطنا جديدا هناك .

واضافة الى الضرائب كان هناك سبب اخر وراء خروج قبيلة القبيسات من أبو ظبي،وهو الامل في تكون امارة مستقلة أسوة بامارة دبي التي انشقت وانفصلت عن ابو ظبي عام ١٨٣٥ بعدما شجعتها بريطانيا لاضعاف قوة ابو ظبي والقواسم وتجزئة أملاكهما الى امارات صغيرة ، حتى تستطيع مواجهتهم بأسطولها في الخليج العربي. وبذلك كانت بعض القيادات والزعامات المحلية من القبيسات وراء قيام امارة مستقلة عن امارة أبو ظبي دون أن تدرك الدوافع البريطانية وراء ذلك، وتكون بذلك قد وضعت مصلحتها الخاصة ونظرتها الضيقة فوق مصلحة بني ياس او امارة ابو ظبي الوطنية العليا .

ولكننا نلاحظ توجه شيخ القبيسات الى البحرين بعدما أسكن افراد قبيلته في العديد ، وقد يرجع ذلك لطلب الحصول على مساعدات مالية ومعنوية من بعض رعاياه المقيمين في البحرين والذين لا يتجاوزن العشرين شخصا(١) . ويبدو أنه حاول الحصول على دعم من حاكم البحرين ، الا انه لم يوفق في ذلك نظرا للعلاقة القوية بين حاكم البحرين وحاكم أبو ظبي ، وخاصة أن الاخير كان دائما يبعث بقواته لمساعدة حاكم البحرين كلما حاولت قطر الانفصال عنها .

اعلان استقلال العديد وموقف حاكم ابو ظبي : اعلن خـادم بن نهيمـان شـيخ القبيسـات انفصاله واستقلاله عن ابو ظبي وعزمه على اقامة امارة خاصة به في العديد، وقام بحفر ابار المياه العذبة وأسكن جماعته هناك . وأول رد فعل كان من قبل خليفة بن شخبوط ، انه كتب الى الوكيل البريطاني في الشارقة الملا حسين يبلغه بأمـر الانفصال ، وبأنه لن يسكت هذه المرة على اقتطاع جزء من امارته أو قبول انفصاله عنها ، علما بان « البوفلاسـة » كانوا قد انفصلوا عن ابو ظبي واقاموا لهم امارة خاصة بهم في عهد خليفة نفسـه عندما هاجروا الى دبي وأعلنوا الاستقلال عام ١٨٣٣ . وقد اعترفت بريطانيا بذلك ومنعت ابو ظبي من استعادة دبي .

وخاطب حاكم ابو ظبي المقيم السياسي البريطاني في (١٨٣٥/١١/١٥) بقوله :

ان القبيسـات هي جزء من قبيلته وان مساكن أفرادها وأسرها موجـودة ، ولكنهم غادروا ابو ظبي باختيارهم الى مدينة الدوحة ، وطلب منهم شراء عدد كبير من املاكهم ، وبما أنهم خرجوا عن طاعته وسيادته فانه غير مسؤول عن تصرفاتهم التي قد تلحق ضررا بالغا بالامن في المياه الاقليمية مما قد يشكل خطرا ومصدر ازعاج وقلق للسلطات البريطانية(٢) . وانه يهدف الى اعادتهم الى منازلهم ، وبالتالي الى سلطته وسيادته . وانه يعلم المقيم السياسي البريطاني اولا باول . حتى لا يتخذ المقيم عـدم اخباره بتصرفاته المستقبلية ذريعة ضده .

وبناء على ذلك فانه طلب من المقيم السياسي البريطاني السماح له باعادة افراد قبيلة القبيسات ، أو أن يطلب منهم العودة طوعا الى ابو ظبي ، وانه ينتظر اسـتلام الرد سريعا قبل ان يتحالفوا مع القبائل الاخرى وخاصة قبائل شرق الجزيرةالعربية مثل « الهواجر » و « بني مرة » ، مما يعني حدوث شغب وفوضى ، علما ان القبيسات حتى تلك اللحظة لم يكونوا قد انضموا الى اية قبيلة .

واختتم شخبوط بن خليفة طلبه بقوله :

انت موقن انهم من رعايانا ومن المهم ان تأمرهم بالعودة ، ونأمل اما أن تسـمح بأن نرجعهم أو أن تأمرهم انت بالعودة . يتضح من ذلك مدى التزام حاكم ابو ظبي باتفاقيات الهدنة البحرية التي فرضتها بريطانيا على حكام امارات ساحل عمـان ، اضافة الى طلبه الموافقة البريطانية لنقل قواته عبر البحر الى العديد ، لاعادة المنشقين الى سيادته .

وقد حذر المقيم السياسي البريطاني حكومته من مغبة تجاهل طلب حاكـم ابو ظبي ، الامر الذي قد يثير هؤلاء القبيسـات المنشقين ويدفعهم الى اعمال مخلـة

بالامن في المنطقة والى تجاوز اتفاقيات الهدنة البحرية في مياه الخليج . ولم تشأ بريطانيا التدخل آنذاك الا في اطار مصلحتها ، وأرسلت عام ١٨٣٦ أسطولا صغيرا مؤلفا من ثلاث سفن حربية الى « البدع والوكرة والعديد » وأخذت تعهدا كتابيا من حكام تلك المناطق بعدم التعرض للسفن والمصالح البريطانية في الخليج العربي ، ومراقبة الساحل وبذل أقصى طاقة ممكنة للحيلولة دون التعرض لسفنها ، ولضمان تنفيذ المطالب البريطانية .

كما طلبت من خادم بن نهيمان القبيسي تقديم كفالة تقدر بقدر معين من المال او الممتلكات العينية ترد اليه عندما يظهر سلوكا متجاوبا ، ويظهر ان العهد الذيقطعه على نفسه غير كاف لان بريطانيا كانت تخشى ان تتحول العديد الى قاعدة لضرب السفن والمصالح البريطانية في الخليج العربي من المقيمين في تلك المنطقة أو المناطق المجاورة لها . وهذا يعني انها لم تكن تمانع في انفصال العديد ، بشرط الالتزام بالامن البريطاني والتعهد بذلك ، وفي الوقت نفسه تتخلى عن التزاماتها تجاه حاكم ابو ظبي الذي وقع أيضا تلك التعهدات ، كما تحاول تجزئة امارته الكبيرة الى امارات صغيرة.

وقد اثنى « ويلوغبي » وزير الدولة في حكومة بومباي على تصرفات المقيم السياسي البريطاني تجاه القبيسات بتسوية خلافاتهم مع حاكم ابو ظبي في ١٨٢٦/٧/٩(٣) : أمرني حاكم المجلس ان اعلمك أنك تصرفت بحكمة عندما بعثت برسالة الى شيخ القبيسات توصيه فيها بتسوية خلافاته مع خليفة بن شخبوط وتعلمه فيها عن مغبة عدم الالتزام بهذه التوصية .

ولكن يبدو أن هذه المحاولات لم تنجح في اقناع القبيسات في التوصل الى حل مرض ، وذلك واضح من خلال الرسالة التي بعثها « ويلوغبي » وزير الدولة في حكومة بومباي الى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٦/٩/٩ ، وجاءفيها(٤) : انني أعبر عن أسف الحكومة لفشل محاولاتك التوصل الى صلح بين رعايا خليفة بن شخبوط وشيخ القبيسات .

وبرغم هذا الفشل فقد كان الاتجاه السائد لدى السلطات البريطانية هو المحافظة على كيان الامارة الجديدة والاعتراف غير المباشر بها في هذه المرحلة . فقد جاء في رسالة من مكتب الاشراف في بومباي الى الكابتن هنيل مساعد المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٦/١٢/١٧(٥) : نامل أن تتمكن من الاحتفاظ بأكواخ الخشب الخاصة (ويقصد فيها منازل العشيش والقصب) بقبائل القراصنة الذين توطدوا بالقرب من العديد .

وهنا نلاحظ استمرارية حكومة الهند البريطانية في اطلاق اسم « القراصنة » على أفراد قبيلة القبيسات الذين استوطنوا في العديد ، اما قوله بالقرب من العديد فيقصد به السكن بالقرب من مياه خور العديد .

ويتضح من هذه الرسالة رغبة بريطانيا في تقديم الحماية غير المباشرة للقبيسات مع عدم التورط باعطاء اية تعهدات مكتوبة لهم ، فقد كان « و.هـ. وولترس » رئيس الحكومة في بومباي قد كتب الى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٦/١٠/٢٩(٦) : أود اعلامك أن حاكم المجلس قد أقر باجراءاتك المؤقتة والمتعلقة بنقل مدفعين و ١٤ قذيفة مع توابعها اللازمة الى السفن الحربية التي هي على وشك التوجه الى العديد.

يتضح من رسائل المسؤولين البريطانيين في الخليج الى حكومة الهند البريطانية التناقض في السياسة البريطانية مع القبيسات ، ففي حين لا تمانع في المصالحة بين القبيسات وحاكم ابو ظبي ، فانها تشجع الانفصال ، وهذا يعني أن بريطانيا كانت تجس نبض القبيسات وخاصة اذا ما أثبتوا قدرتهم على حماية أنفسهم ونجحوا في الاستقلال عن ابو ظبي، كما فعل البوفلاسة في امارة دبي عندما انفصلوا وحافظوا على استقلالهم . ولا شك ان بريطانيا سوف تدعم استقلال القبيسات . ولكنها، في حال فشلهم، سوف تعمد الى تشجيع حاكم أبو ظبي لاعادتهم الى سيادته ولو بالقوة العسكرية ، وهذا ما حدث فيما بعد ، ونلاحظ هذا من الرسائل المتبادلة بين بريطانيا من جهة وحاكم ابو ظبي والقبيسات من الجهة الاخرى .

لقد وجدت بريطانيا فيما بعد ان التكوين القبلي للقبيسات صغير لا يستطيع حماية العديد ، أو يحول دون استخدامه كمركز لتهديد السفن والمصالح البريطانية والاخلال بالامن ، اضافة الى ترك القبيسات يحكمون تلك المنطقة دون تقديم المساعدات اللازمة لهم لجعل وجودهم في خطر بمواجهة القبائل القوية المجاورة . في حين ان عدم السماح لخليفة بن شخبوط ـ المرتبط مع بريطانيا بمعاهدات الهدنة البحرية ـ باستعادة العديد ، ومنعه من حرية الحركة في البحر ، كان من الممكن أن يشجع شيوخ القبائل الاخرى على تأسيس امارات صغيرة في مناطق يصعب تقديم الحماية اللازمة لها لارتباطها بعمق الجزيرة العربية وقبائلها الكبيرة . مما يعني بأنها ستكون بادرة مشجعة في المستقبل لظهور كيانات ضعيفة لا تستطيع حماية نفسها مما يترتب عليه جهد مضاعف من الاسطول البريطاني لمراقبة تحركاتها وحفظ أمنها .

المشكلات البحرية : وحدث ما كان متوقعا ،وبدأت المنطقة تشهد عدة أعمال سلب ونهب . ورد في الرسالة بعث بها « و.هـ.وولترس » رئيس الحكومة في بومباي

الى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٦/١٠/٢٠(٧) : وردت رسالة من الوكيل البريطاني في الشارقة بأعمال السلب والنهب التي ارتكبها أفراد لهم علاقة بالعديد ، واود اعلامك أن حاكم المجلس راض عن نهج السياسة التي تتبعها في اعتبار « شيخ البدع »* و « الوكرة »** و « العديد » وأبو ظبي مسؤولين عن تلك الاعمال ، وكذلك جاسم بن جابر ورفاقه*** . ولو لم تكن هناك مساعدة من تلك الاماكن لما حصل المذكور على المنصب الرفيع الذي يتمتع به .

ويبدو من تلك الرسالة استياء السلطات البريطانية وتخوفها من الاعمال التي تهدد امن المنطقة ، ولذا قدمت حكومة بومباي المعلومات الكاملة الى المقيم السياسي البريطاني عن البدع والوكرة وهما من أهم المدن القطرية ، في حين أن العديد من المناطق التابعة لامارة ابو ظبي ، وزاد من التخوف على المصالح البريطانية ، وخاصة من قبل جاسم بن جابر ، كما كان من قبل ذلك رحمة جابر الجلاهمة ، وتحدث عن اهمية الموقع الجغرافي للبدع والوكرة والعديد ومميزاتها للسفن الحربية(٨) ، حتى يأخذ المقيم السياسي البريطاني بعين الاعتبار تلك التوجهات .

وأمام هذه الاتهامات ، وخاصة الموجهة الى شيخ العديد ، فان زعيم القبيسات بادر الى شرح وجهة نظره للمقيم السياسي البريطاني في رسالة بتاريخ ١٨٣٧/١/٧ يقول فيها(٩) :

---

* البدع : تعتبر البدع حاليا أحد الاحياء المهمة في مدينة الدوحة عاصمة قطر ، وقد لعبت مدينة البدع في القرن التاسع عشر دورا مهما في تاريخ قطر بصفة خاصة : اذا كانت من أهم المدن لكونها مقر الحكم لفترة طويلة ، وذلك قبل أن تتوسع مدينة الدوحة وتضم البدع الىأحيائها. وقد أسس مدينة البدع افراد من قبيلة « السودان » ومفردها « السويدي » والتي هاجرت من ساحل عمان ، كما توجد بعض افرادها في العراق ، ومن أهم شخصياتها « توفيقالسويدي » الذي كان وزيرا للخارجية في العهد الملكي في العراق .

** الوكرة : تعد مدينة الوكرة من المدن المهمة في شبه جزيرة قطر ، وقد لعبت دورا بارزا في تاريخها ، ولا سيما أنها كانت تربط الطريق القادم من ساحل عمان الى مدينة البدع والدوحة في الشمال ، وكثيرا ما تمتعت بحكم ذاتي ولفترات طويلة .

*** جاسم بن جابر : كان من الزعماء البارزين في الخليج العربي، وهو الذي تصدي للاستعمار البريطاني وقام بعدة عمليات ناجحة ضد سفن الاسطول البريطاني، وكان جاسم بن جابر قد اتخذ من قطر والعديد مقرا لعملياته العسكرية ضد الوجود البريطاني في الخليجالعربي، وضد كل من يتعامل مع الاستعمار البريطاني ، ولهذا كانت بريطانيا تحذر زعماء المنطقة كشيخالبدع وشيخ الوكرة وغيرهم من التعامل مع جاسم بن جابر .

اذكرك بما كنت قد ذكرته فيما يتعلق بالعهود التي قطعتها على نفسك أمامنا ، القائلة بانه سيتم تجديد هذه العهود لدى الاستيلاء على قوارب (القرصنة) . فليكن معلوما لديك أنه لا سلطة لنا عليهم نظرا لانهم تحت أمرة خليفة بن شخبوط .

انت تعلم اننا أعداء هذا الشيخ وان العرب القراصنة وضعوا انفسهم تحت حمايته ولن نسمح لهذا الشرير ان يدخل الى اراضينا .

لقد اعتقل الشيخ خليفة بن شخبوط احد افراد قبيلتنا وقمنا بالمقابل فيإعتقال أهالي أبو ظبي ، وكنت قد طلبت ان نتركهم وشأنهم ، وقد نفذنا ما طلبته الا انك لم تأخذ بعين الاعتبار حرية جماعتنا .

ارسل الينا ردا على ذلك مرفقا بمسدسين وبعض مسحوق البارود..

ويبدو من رسالة شيخ القبيسات بأنه غير قادر على تحقيق الامن ومنعحوادث السلب والنهب التي تنطلق من منطقته ، كما انــه يلقي اللوم على حاكم أبو ظبي ويطلب من المقيم السياسي البريطاني ارسال مسدسين وبعض مسحوق البارود ، ونعتقد أنه لو لم يكن شيخ القبيسات موقنا باستجابة المقيم السياسي البريطاني لما كتب يطلب ذلك .

وبعث ملا حسين الوكيل البريطاني في الشارقة بتاريخ ١٨٣٧/٣/٢٣ برسالة الى المقيم السياسي البريطاني يبلغ فيها عن الاحوال في الساحل العربي ، وانه حدث نزاع بين حاكم ابو ظبي وشيخ قبيلة المزاريع ، بسبب مقتل اثنين من أقرباء جاسم ابن جابر في ابو ظبي ، ويقول أيضا بانجاسمبن جابرمن قبيلة المزاريع وليس من قبيلة القبيسات كما ذكر في سجلات بومباي(١٠) . كما بعث الوكيل البريطاني في البحرين برسالة الى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٧/٤/٥ جاء فيها(١١) : ظهر العداء علنا بين قبيلتي بني ياسوالقبيسات ، وكتبت الي خادم بن نهيمان شيخ القبيسات رسالة تهديد ، ويساورني الشك أن يكون خادم بن نهيمان شخصيةسيئة.

لقد وجد شيخ القبيسات تعاطفا ملحوظا من الموظفين البريطانيين ، سواء من الوكيل البريطاني في الشارقة أو البحرين أو المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي . ولكن عدم مقدرته على فرض الامن والاستقرار كان من أهم أسباب تخلي السلطات البريطانية عنه ، خوفا من أن الحماية البريطانية للقبيسات تكلفهمالكثير.

وقد بعث « س. هينل » المقيم السياسي البريطاني رسالة الى « ج.ب. ويلوغبي » رئيس حكومة بومباي بتاريخ ١٨٣٧/٤/٩ يقول فيها(١٢) : ارفق لحاكم

المجلس الرسالة الواردة من ملا حسين الوكيل في الشارقة يعلمنا فيها عن بداية العداء السحيق والذي يهدد العلاقة بين خليفة بن شخبوط حاكم أبو ظبي وخادم بن نهيمان شيخ العديد ، أحد رعاياه المتمردين . ومن المحتمل ان ينشأ العنف بين الطرفين المتنافسين خارج مسار السفن التجارية التي تبحر شمال وجنوب الخليج العربي، واني لا اتوقع حدوث أمور وخيمة العواقب والتي ربما نتجنبها باستمرار المراقبة الصارمة لاعمال المتحاربين .

أما عن التخوف من حدوث مشكلات اثناء موسم الغوص فيقول المقيم السياسي البريطاني في رسالته الى « ج.ب. ويلوغبي » رئيس حكومة بومباي بتاريخ ١٨٣٧/٤/٢٩ : « أعتقد أنه من المحتمل أن يحل هدوء في موسم صيد اللؤلؤ على الرغم من وجود خطر ضئيل بأن يتوقف هذا الهدوء بسبب حالة الحرب المستمرة بين العديد وأبو ظبي ، فقد لاحظت حاليا واستنادا لمعلوماتي السابقة بأنه لا يتوقع أن ينشأ أي ضرر منهم (يقصد أبو ظبي والعديد) أو من غير المحتمل أن يكبح أو يبطل هذا الضرر عن طريق مراقبة هذه الاطراف المتورطة مراقبة صارمة وقوية(١٣) .

وبرغم ذلك فقد حدثت بعض المشكلات ففي الرسالة التي بعثها الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٧/٥/٦(١٤) قال : أفاد خادم ابن نهيمان في رسالته الموجهة الي بقوله : « ذهبت جماعتنا الى ابو ظبي للحصول على مؤن فألقوا القبض على ستة رجال وقتلوهم وقاموا بنهب سفينة « بقارة واحدة » (وهي نوع من السفن الكبيرة التي كانت وما زالت بعضها تستخدم مع اضافة الاجهزة الملاحية والميكانيكية الحديثة) ومارسوا طغيانهم ، فالرجاء اعلام المقيم بهذا الامر ». ويقول الوكيل البريطاني في البحرين : « أنا موقن أن اللوم يقع على عاتق خادم ابن نهيمان »(١٥) .

ولهذا فان الموقف البريطاني تغير وبدات بريطانيا تشعر بأن تشجيعها للقبيسات او على الاقل سكوتها عنها من شأنه ان ينعكس سلبا على علاقاتها مع حاكم أبو ظبي، الذي سيفقد الثقة في الموقف البريطاني ويجعله يشك في نوايا البريطانيين ، مما قد يدفع به الى البحث عن دعم خارجي لموقفه . وهذا ما جعل الادارة البريطانية تعيد تقييم سياسته بهذا الشأن ، ولذا فانها وافقت على طلب حاكم ابو ظبي لاسترجاع رعاياه من العديد .

إعادة العديد الى ابو ظبي :

كان خليفة بن شخبوط قد طلب من سلطان عمان امداده بقذائف مدفع ومسحوق البارود للقيام بهجوم على العديد ، الا انه لم يستجب لطلبه(١٦) . وأثناء

لقاء حاكم ابو ظبي بالمقيم السياسي البريطاني الذي زاره في ابو ظبي وبحث معه الاعمال العدوانية التي حدثت بين ابو ظبي والعديد ، سأل خليفة بن شخبوط عما اذا كان الصراع مع قبيلة القبيسات يمكن ان يتوقف حتى نهاية موسم صيد اللؤلؤ ، فأجاب بأن دماء كثيرة قد هدرت من الطرفين ، ومن المستحيل أن يتوقف العداء . واضاف بأنه في انتظار ورود الاذن مني لارسال قوة لمحاصرة العديد ، وتمنى في الوقت نفسه بأنه ينبغي منع الزعماء المجاورين من مساعدة القبيسات أثناء اقتحام العديد(١٧) . فأجاب المقيم السياسي البريطاني بقوله : بأنه سيكون هناك حصار حقيقي مميز، ولكنه ضئيل ، وعليه فقد وافق خليفة بن شخبوط .

اما الوكيل البريطاني في البحرين فقد بعث بتاريخ ١٨٣٧/٥/٢٤ برسالة الى المقيم السياسي البريطاني يقول فيها (١٨) : وصلت أخبار تفيد بأن خليفة بن شخبوط قد وصل في(١٢) مايو الى جزيرة « صير بني ياس » ومعه ثلاثمائة سفينة وسفينة القيادة « بتيل » ، وأرسل من ذلك المكان ولده « شخبوط » و « ابن سلمى » الى شيخ القبيسات لمحاولة اقناعه بالعودة بهدوء الى ابو ظبي والاقامة فيها ، وفي حالة رفضهم لذلك فانه (أي خليفة) سيستولي على العديد بالقوة .

هجوم خليفة بن شخبوط : بما ان موافقة بريطانيا على هجوم خليفة بن شخبوط على العديد يعني أنها أرادت وضع نهاية للمشكلة ، كما أن الوكيل البريطاني في الشارقة والمقيم السياسي البريطاني عدّا حاكم دبي متورطا في إثارة المشكلة ، سواء بمساعدة القبيسات أو باخبارهم عن الحملة العسكرية لابو ظبي ، أو بايوائهم بعد استعادة العديد ، ومحاولته مساعدة الهجمات على ابو ظبي، ولولا التحذير البريطاني لحاكمي دبي ورأس الخيمة لتطورت المشكلة ، في الوقت الذي يجد فيه خليفة بن شخبوط مبررا لاستعادة دبي أيضا من المنشقين البو فلاسة .

حاول حاكم ابو ظبي بوسائل سلمية مختلفة استعادة العديد ، وطلب من رعاياه المنشقين بشتى الوسائل العودة الى ابو ظبي، ولكنهم أصروا على البقاء كامارة مستقلة، املا في الحصول على مساعدة من حكام دبي ورأس الخيمة والبريمي ، ولاعتقادهم بأن بريطانيا لن تسمح لحاكم ابو ظبي بالهجوم على العديد ، فيما هم يطلبون الحماية البريطانية .

كل هذه العوامل جعلت القبيسات يتشددون في عدم العودة الى ابو ظبي ، والرغبة في اقامة امارة مستقلة ، وكان الاعتقاد السائد لديهم انه في حالة الهجوم عليهم فانهم سوف يستطيعون الصمود والمقاومة ، وان حكام دبي والبريمي ورأس

الخيمة سوف يقومون بهجوم مضاد من الخلف على ابو ظبي مما قد يجعل خليفة ابن شخبوط يسحب قواته لمواجهة الخطر القادم على امارته من الخلف . ولذلك لم يكترثوا لرسائل التحذير التي وجهت اليهم من ابو ظبي أو الرسائل التي أرسلها حاكم دبي عن الحملة العسكرية لأبو ظبي .

اما عن هجوم خليفة بن شخبوط على العديد، فسوف نورده كما جاء في التقريرين التاليين ، الاول من الوكيل البريطاني في الشارقة ، والثاني من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ، نظرا لان التقريرين يمثلان واقع الحال من وجهات النظر الرسمية :

١ - **تقرير الوكيل البريطاني في الشارقة** : نظرا لما يمثله الوكيل البريطاني في الشارقة من مكانة ادارية وسياسية في امارات ساحل عمان ، وباعتباره شاهد عيان ، فان تقريره ذو اهمية في معرفة الاحداث التي جرت والملابسات التي صاحبتها، وفيما يلي نص التقرير(١٩) :

غادر خليفة بن شخبوط أبو ظبي ومعه أربع مائة وخمسون مركبا من جميع الاحجام بغرض شن هجوم على العديد ، وكان قد وصل الى هناك في الرابع عشر من شهر مايو / ايار ، مما اثار الرعب والهلع بين سكان العديد ، الذين لم يصدقوا من قبل انه كان جادا في نواياه القتالية .

وبالرغم من أن اهالي دبي كانوا قد بعثوا بمركب لتحذيرهم ، الا انه مكث لبعض الوقت في عرض البحر ، حيث كان يقوم بصيد اللؤلؤ ، الا انه وصل قبل وصول خليفة بن شخبوط بخمسة أيام ، واوصل الرسائل التي كان يحملها ولكن القبيسات أصروا على رفضهم الوثوق بالمعلومات التي وصلتهم ، وذلك لان واحدا من قبيلة البوفلاسة الذي كان قد وصل مؤخرا من الشارقة ، أكد لهم أنه لا أساس لصحة هذه المعلومات ، وأن حاكم أبو ظبي لن يجرؤ على بدء القتال ضدهم لانه يعرف تمام المعرفة ان الشيخ مكتوم حاكم دبي والشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة سوف يقومان بشن هجوم عليه من الخلف . واعتمادا منهم على هذا الاعتقاد لم يقوموا باية استعدادات ، وفوجئوا بوصول حاكم ابو ظبي على رأس قواته ، ولم يكن لديهم اكثر من مئة وخمسين عبدا وخادما في المدينة ، ولكن كان هناك مركبان « بقارة » تابعان لدبي ، وعلى متن أحدهما عبد الله ابن بدر وابن أخ أو ابن اخت الشيخ مكتوم .

وبغض النظر عما سبق ، فقد أقيمت الاستعدادات للدفاع ، وتم ارسال عشرة

تحت قيادة غايب بن هامل لاحتلال البرج الذي يشرف على المياهالاقليمية ، بينما اقام الباقون التحصينات في المراكز الدفاعية الاخرى .

وبعد ان وصل الشيخ خليفة الى العديد بفترة قصيرة ، وكان قد ترك خمسة عشر مركبا مقابل المدينة ، توجه نحو البر ، مقابل الابار حيث كان هو نفسه أول رجل يطأ الشاطىء بقدمه ، وما لبث ان اكتشف أمر الذين كانوا في المياه ، علما بأنهم لم يكونوا مزودين بالمدفعية . وقد شجعتهم هذه الظروف للقيام بهجوم عام تحت قيادة الشيخ نفسه ، كما تمت اقامة سلالم بالاضافة الى الرماح التي بحوزتهم .

وقد أمطر الحصن بنبالهم من جميع الجهات ، وتم قتل جميع أفراد الحامية بالسيف ، وعندما رأى أهالي العديد ذلك ، فقدوا الامل من المقاومة اذ انهم فقدوا البرج البحري ، ولم يفكروا الا بالفرار ، فامتطى كل من خادم بن نهيمان وشقيقه جواديهما ولاذا بالفرار ، أما محمد بن علي وعبده وبعض أصدقائه فقد نجحوا في ركوب البقارة الخاصة به في البحر ، وتبعتهم أربعة مراكب تابعة لابو ظبي ، ولم يعرف ما اذا كانت قد لحقت به ام لا . أما بالنسبة للمركبين الخاصين بدبي في العديد ، فقد وصل أحدهما بسلام الى مينائه في دبي ومعه بقارة صغيرة تابعة لدبي، وعلى متنه اثنان وعشرون من السكان ، الا أن الحظ لم يحالف المركب الاخر ، والذي كان على متنه ابن اخ أو ابن أخت الشيخ المكتوم وقريبه الذي يدعى عبد الله بن بدر ، فيقال أن ملاحي المركب كانوا قد اشتركوا في القتال ، وعندما فقد الجميع ، حاولوا الفرار حاملين معهم عشرين شخصا من السكان ، الا أنهم وقعوا في أيدي قوات ابو ظبي ، فقتلوا مع خمسة من ملاحي المركب ، ومن بينهم قريب لحاكم دبي ، وقد صرح بعض أفراد قوات ابو ظبي أن قريبي الحاكم قد قتلا وهما يقاتلان على البر . وبعد أن تم الاستيلاء على المكان بعد حصاره ، نقل الشيخ خليفة بن شخبوط جميع النساء والاطفال مع متاعهم ، ودمر جميع الابراج والمنازل ، ورمى في الابار اثنتي عشرة جثة من القتلى ، ثم قام برمي بقية الجثث في الابار ثم ملأها ببقايا الابراج المدمرة مزيلا كل أثر لهم .

وكان من بين السكان تاجر بحريني كان قد جاء الى العديد لشراء بعض اللالىء، ويقال بأنه كان يحمل اشياء كثيرة ذات قيمة ، منها بعض الاموال النقدية والارز والاقمشة .

ويذكر البعض من قوات ابو ظبي أن خمسين شخصا من الاعداء قد قتلوا كما تم اسر خمسين آخرين ، واحتجاز ثلاثين مركبا بالاضافة الى بقارة وبغلة كان الشيخ سلطان قد أعطاها الى محمد بن عتيق .

ولقد علمت ان الشيخ خليفة بن شخبوط كان قد بعث بسبعة مراكب الى الوكرة لكي يطلب تسليم خمسة وعشرين رجلا من القبيسات الذين كانوا قد التجأوا اليه ، بالاضافة الى مركبين من مراكبهم كانا قد استعملا لهذا الغرض ، وهو يخشى من أن يبدأوا عمليات سلب وما الى ذلك .

وكان الشيخ خليفة بن شخبوط ينوي العودة الى أهالي دبي الذين تنتفخ صدورهم بالكبرياء ويميلون دائما الى اثارة الفوضى والشغب . فعند معرفتهم بأن الشيخ خليفة بن شخبوط قد تلقى إذنا بالتوجه الى العديد ، سارعوا الى اعلام أهل العديد بدلا من التزامهم الصمت كباقي القبائل ، كما أنهم بعثوا برسلهم الى الشيخ سلطان بن صقر ، ويتهمونني بأنني كنت الوسيط الذي استطاع الشيخ خليفة بواسطته الحصول على اذن للقتال .

ومنذ ذلك الحين بعثوا بمركبين الى جميع أفراد قبيلتهم الذين كانوا على مغاصات اللؤلؤ . ويقول البعض ان الغرض من ارسال هذه المراكب كان لتحذيرهم من اي هجوم قد يحصل من جهة ابو ظبي ، ويقول البعض الاخر أنهم قد أدلوا بارشاداتهم اليهم لكي ينتهزوا أقرب فرصة للانتقام من أهالي أبو ظبي لموت أقرباء شيخهم .

ولو أن الامر كان كذلك فان أهالي أبو ظبي لن يصبوا انتقامهم على رعايا الشيخ مكتوم فقط ، بل انهم سوف يقومون على الارجح بالهجوم على حلفائه أيضا ، كالشيخ سلطان بن صقر ، وبذلك يكون قد تم وضع حد لموسم الصيد بأكمله .

ولدى وصول الاثنين وعشرين هاربا من العديد الى دبي بعث بهم الشيخ على متن مركب الى رأس الخيمة ، وقد طلب من الشيخ سلطان بن صقر أن يزودهم بمركب وبعض الرجال للتوجه الى البحر سرا والبدء بشن الهجمات على أبو ظبي . وعندما وصلوا الى عاصمة القواسم وأعربوا للشيخ سلطان بن صقر عن رغباتهم ، عبر الشيخ عن أسفه الشديد لسماع أنباء محاصرة العديد ، وأخبرهم أنه من المستحيل الان وفي ظل هذه الظروف أن يزودهم بالمساعدة التي طلبوها ، لان جميع المراكب الان في مغاصات اللؤلؤ . ولكنه وعدهم بتنفيذ رغباتهم عند انتهاء موسم الصيد وعودة المراكب والرجال .

وتابع الشيخ قائلا : انه عندما جاء المقيم السياسي لزيارة الساحل الغربي من اجل اقامة الصلح ، فانه لم يكن لديه (أي الشيخ سلطان) أية فكرة عن أنه قد سمح لخليفة بن شخبوط بشن الحرب على العديد .

وعندما منحهم طلبا على الشارقة بمبلغ مئة كرون ، أرسل بهم الى ذلك المكان، وعندما استلموا المبلغ عادوا الى دبي ، وأخشى الان ان يقوم سكان دبي بتزويدهم سرا بوسائل الهجوم على ابو ظبي .

ولقد مضى وقت منذ أن زارت آخر سفينة حربية الساحل ، ولا حاجة للتكرار بأن لا شيء يمنع ارتكاب الاعمال غير القانونية مثل زيارة الطرادات الحربية المستمرة للموانيء العربية .

٢ ـ تقرير المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي :

بعث (س. هينل) المقيم البريطاني في الخليج العربي بمذكرة في تاريخ ١٨٣٧/٦/١٧ الى (ج.ب. ويلوغبي) وزير الدولة في حكومة بومباي بعد استيلاء ابو ظبي على العديد مباشرة ، جاء فيها(٢٠) : لي الشرف أن أبلغ حاكم المجلس الموقر عن الاستيلاء على العديد في ١٤ من الشهر الجاري من قبل شيخ ابوظبي خليفة ابن شخبوط . وقد تم نقل التفاصيل التامة لهذا الهجوم في الرسالة المرفقة للوكيل من الشارقة ، غير أنني لا ارى ضرورة الدخول في دقائق هذا الهجوم .

يبدو من هذا التقرير أن قبيلة القبيسات قد سمحت لنفسها أن تباغت على حين غرة ، اذ فقدت خمسين رجلا لدى مقاومة قوات ابو ظبي ، وذلك عندما وجدوا أن المدخل الى المياه العذبة قد عزل الباقين منه فاستسلموا . ومع ذلك استطاع بعض زعماء القبيلة الهروب الى الداخل ، ونجح آخرون في الافلات من سفن أبو ظبي والوصول الى عرض البحر في قواربهم .

وتوجه الشيخ خليفة بن شخبوط لجعل هذه المنطقة غير ماهولة وذلك بهدم جميع الحصون والمباني ، وجعل الابار عديمة الفائدة بقذف جثث المذبوحين فيها ، وملئها بعد ذلك الى القمة بأنقاض الحصون وما جاورها . وبالرغم من ذلك ، فهناك بعض الاسباب التي يخشى أن تؤدي الى جر شيخ ابو ظبي الى الحرب مع زعيمي دبي وراس الخيمة بسبب عمله البطولي ، فما زلت أنظر الى أمر ترحيل قبيلة القبيسات من العديد على أنه أمر مفيد ، اذ لم يعد للشيخ خليفة عذر في أن يقلل من مسؤولية خط الساحل بأكمله ، وهو الخط الواقع بين العديد وأبو ظبي والمشتمل على منطقة « حيزان » .

لقد تردد على جزيرة « بني يأس » في السنة الماضية الرجل الشرير جاسم ابن جابر وأصحابه الخارجون عن القانون .

وحول حجز قارب دبي في العديد وفقدان بعض أفراد طاقمه الذين نوه عنهم الوكيل ، فاني لا اشك أن يثير الشيخ مكتوم هـذا الحادث ليبرر قيامه بأية محاولـة للمعاقبة ، اما علناً بواسطة قبيلته ، أو سرا عن طريق دعم القبيسـات الذين لجأوا الى مينائه بهدف ارتكاب عدوان على أبو ظبي .

ومع هذا فانني ارى ان التدخل غير ملائم ، ومخالف للاصول والقواعد البحرية لقاربي زعيم دبي في العداءات القائمة بين الشيخ خليفة ورعاياه المتمردين ، ولقد ثبت هذا تماما بواسطة نقل أحد القاربين عشرين من السـكان ، ومحاولـة القارب الثاني القيام بنفس العمل .

كما ارى أن يرفع اللوم في انتهاك الهدنة عن كاهل حاكم ابو ظبي ويوضـع على عاتق شيخ دبي .

وواضح من فحوى رد الشيخ سلطان بن صقر على أسرى العديد ، والذيـن طلبوا منه الوسائل التي تمكنهم من مهاجمة قوارب ابو ظبي ، التحريض من زعيـم قبيلة البوفلاسة وحكام دبي . كما انـه من الواضح أنه على الرغم من كونـه ما زال يكره الاستيلاء على العديد ،الا أنه لا يميل الى سحب رعاياه من مغاصات اللؤلؤ ليكون نصيرا للقبيلة المهزومة . ولقد تأكدت من هذا الامر لدى تسلمي رسالة من شقيقه صالح شيخ الشارقة ، وبعد الاشارة الى نجاح شيخ ابو ظبي ، أعرب عن املـه أن لا يسمح له بأن ينقض الهدنة اذا تمت السيطرة على الروح المخادعة والمضطربة لشيخ دبي . ولدي أمل بأن تبقى الامور هادئة على الاقل في فترة صيد اللؤلؤ .

ولقد أرسلت الآن رسائل الى شيخ دبي أحذره فيها من انه سيكون مسؤولا عن اي عمل عدواني يرتكبه اللاجئون من العديد الى منطقته ، وسأرسل سفينة الشركة المبجلة الحربية (مكيف) بأقرب وقت لدى عودتها الى هذا الميناء ، واعلن فيها عدم السماح له بانتهاك الهدنة أو اتخاذ أي اجراءات لها طبيعة عدائية حيال أبو ظبي على الاقل قبل انتهاء الفترة المحددة له .

وبالنسبة لقسم من تقرير الوكيل ذكر فيه أن الشيخ خليفة قد ارسل قوارب الى الوكرة والبدع طالبا أن يسلم اليـه افراد معنيون ينتمون الى العديد لجأوا الى تلك المناطق . وفي ذلك الوقت وصلتني أخبار ان الشيخ خليفة توجه شخصيا الى ساحل قطر مكتفيا بتحذير الزعماء المجاورين بأنه سيعتبرهم جميعا مسؤولين في حالة انتهاز قبيلة القبيسـات فرصة الحماية المقدمة اليهم ليقوموا بازعاج رعاياه أو اتباعه .

ولقد علمت من الجميع أن سلوك الشيخ خليفة بن شخبوط يتميز بالاعتدال ازاء رعاياه المتمردين منذ أن قام باخضاعهم مرة ثانية ، واستعاد جميع الناس الذين تم ترحيلهم الى ابو ظبي قواربهم ، كما أصدر الشيخ عفوا عاما وصفح من اللاجئين الذين ربما يختارون العودة ، ووعد في الوقت نفسه ان يرد لهم سفنهم وممتلكاتهم شريطة أن يسلكوا في المستقبل سلوك الرعايا المطيعين والمسالمين .

ترتبت بعض النتائج على أستعادة العديد ، ومن أهمها عودة الاستقرار الى الامارة وعودة القبيسات الى ديارهم . واهم النتائج :

أولا : توجه القبيسات الى دبي والتخوف من تطور الاوضاع في امارات ساحل عمان : بعد دخول قوات ابو ظبي الى العديد واستعادته ، هرب معظم أفراد القبيسات فالبعض توجه الى قطر ، والبعض الاخر توجه الىالامارات الشمالية في ساحل عمان، وخاصة الى أمارة دبي التي كانت تدعم الانفصاليين بغية ممارسة الضغط على ابو ظبي واشغالها باتجاه العديد واضعافها حتى لا تحاول استعادة المنشقين الذين أسسوا لانفسهم امارة دبي ، ونتيجة لفشل شيخ القبيسات في تحقيق الانفصال ، اراد حكام دبي استخدامهم من جديد كورقة ضغط على أبو ظبي ، ولكن المقيم السياسي البريطاني حذرهم من الاخلال بالامن أو تقديم أية مساعدة للقبيسات من أجل القيام بهجمات على أبو ظبي. وطلب « س. هينل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي من العميد البحري قائد سرية الاسطول البريطاني في الهند اصدار تعليمات الى قائد السفينة الحربية التي كانت راسية في ميناء (باسيدو) بجزيرة (قشم) ، التوجه الى الشارقة ودبي وتحذير الشيخ مكتوم حاكم دبي بأنه سيكون مسؤولا عن أية اعمال يقوم بها أفراد قبيلة القبيسات ، الذين اتخذوا من دبي ملجأ لهم ، وفي حالة ارتكابهم أية أعمال مخلة بالامن ومخالفة للاصول أثناء وجودهم تحت حماية شيخ دبي ضد سكان أبو ظبي أو أفراد آخرين ، فسيكون (مكتوم) مسؤولا عن اعمالهم تلك مسؤولية مباشرة(٢١) .

وارسلت رسالتان الى سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة ، الاولى من المقيم السياسي البريطاني يقول فيها(٢٢) : بالنسبة لرعايا دبي والذين قدموا لمساعدة القبيسات وقضي عليهم أثناء مهاجمة قوات أبو ظبي للعديد ، فان خرق اتفاقية الهدنة قد تم من حكام دبي وسكانها ، واليك مزيدا من المعلومات بهذا الشأن :

لقد أرسل أكثر من قاربين من قبل الشيخ مكتوم لتحذير قبيلة القبيسات من الشيخ خليفة بن شخبوط على وشك مهاجمتهم ، وعلمنا الان أن القتال قد جرى بين

أفراد طاقم القاربين وقوات ابو ظبي . ولو انهم ذهبوا بهدف التزود بالماء لكان من الغريب أن القارب الذي احتجزه شيخ ابو ظبي وهرب عائدا الى دبي ، كان مكتظا بأفراد من القبيسات وممتلكاتهم .

وباختصار فان تدخلهم بين الشيخ خليفة بن شخبوط وأعدائه سيؤدي الى وقوع العواقب الوخيمة على رؤوسهم .

وفي الرسالة الثانية من مساعد المقيم السياسي البريطاني الى سلطان بن صقر يقول :

اود اعلامك ردا على ما ذكرته في رسالتك بأن الشيخ خليفة بن شخبوط قد استأذن لمهاجمة دبي ، وأنه قد جرى اعلامك بشكل خاطىء حول هذا الموضوع ، ومع ذلك اذا كان خليفة بن شخبوط قد استأذن ، فليكن معلوما لديك أنه لن يمنح أي اذن للقيام بذلك طالما اتفاقيات الهدنة سارية المفعول ، كما أنه لن يسمح للزعماء الذين وقعوا على وثيقة الهدنة أن يعلنوا الحرب ضد بعضهم البعض في الفترة المحددة في وثيقة الهدنة .

وتأسف الحكومة البريطانية جدا عندما ترى أن التفاهم التام الذي استمر طوال السنوات العشر الماضية بين الزعماء العرب قد تلاشى ، وطالما ان حروبهم مع بعض ظاهرة للعيان ومعترف بها ، فان الحكومة البريطانية لن تتدخل في المنازعات الداخلية. وانا واثق أن خليفة بن شخبوط ليست لديه النية في مهاجمة دبي كما ذكرت ، ولكن تحت أي ظرف من الظروف سيكون لك ولا شك مطلق الحرية في دعم أصدقائك وحلفائك في الساحل العربي في حالة مهاجمتهم من قبل قوى أخرى(٢٣) .

وهذه اشارة واضحة لمساعدة القواسم لحاكم دبي في حال مهاجمتها من ابو ظبي، اي أن السياسة البريطانية لم تكن تهتم بانهاء المنازعات أو فرض الامن الا اذا كان ذلك يشكل تهديدا لمصالحها وليس لمصالح امارات ساحل عمان .

وتأكيدا على هذه السياسة فقد بعث (س. هينل) المقيم البريطاني تقريرا عن ذلك الى (ج.ب. ويلوغبي) رئيس حكومة بومباي بتاريخ ١٨٣٧/٧/١٥ جاء فيه(٢٤) :
على الرغم من الازعاج والفزع المستقرين في اذهان زعماء القواسم ودبي بسبب استيلاء وتدمير العديد من قبل خليفة بن شخبوط ، الا أنه لم تجر أعمال عدوانية أو ارتكاب لأي حوادث « قرصنة » سواء من قبل جماعة خادم بن نهيمان او معظم زعماء قبيلة القبيسات الذين هربوا لدى سقوط بلدتهم ، وتم اقناعهم بوضع شروط مرضية عقدها

حاكم ابو ظبي معهم للعودة والاستقرار في ديارهم في ابو ظبي . ومن المحتمل أن يحذو حذوهم بقية الهاربين . وهكـذا فان حدوث اضطرابات نتيجة محاولاتهم للثأر مـن الطرف المعتدي سيتقلص بشكل نسبي .

ولي أمل كبـير ان لا يحدث انتهاك للهدنة يستدعي تدخلنـا ، ولكـن تحت اي ظرف من الظروف سأعتبر انه من واجبي ان ابذل قصارى جهدي للمحافظة على عدم انتهاك هذه الهدنة ، وفيما يتعلق بالاعتقاد بوجهة النظر التي أبداها الشيخ سلطان بن صقر من أن زعيم ابو ظبي قد أضمر نوايا سيئة حيال دبي ، ارى انه من غيرالمحتمل اطلاقا ان يكون الشيخ خليفة بن شخبوط قد تشجع نتيجة للنجاح الذي لاقته حملته على العديد لان يحاول اعادة دبي تحت سيطرته . ومع ذلك صرحت في رسالتي الموجهة الى شيخ راس الخيمة ، أن الشيخ خليفة بن شخبوط لم يصرح لي عن نوايا كهذه، واذا استأذن فيما بعد لمهاجمة دبي خلال فترة الهدنة فسأرد عليه برفض قاطع . وفي حالة تقديم طلب الاذن بعد انتهاء فصل صيد اللؤلؤ ، فسأخبره بضرورة الرجوع الى الحكومة قبل اعطائه ردا محددا بهذا الخصوص .

في حين بعث مكتوم بن بطي شيخ دبي برسالة الى المقيم السياسي البريطانـي بالوكالة بتاريخ ١٨٣٧/٧/٢٢ ، يحاول فيها تبرئة نفسه من تهمة مساعدة القبيسات التي وجهتها اليه بريطانيا ، ويطلب اعادة بعض ممتلكاته التي فقدت أثناء مهاجمـة العديد ، وقد جاء فيها(٢٥) : سبق أن أعلمتنا أن سفينتي (بقرة) العائدتين لنـا قـد غادرتا (العديد) للمشاركة في الحرب ضد خليفة وانك بعيد النظر ومتفهم للامـور أكثر من الاخرين ، واذا تلقيت أنباء تعود الى سفينتي بقرة ، فأرجو ان تسـمح لي باعلامك اننا لو كنا ننوي القيام بمساعدة العديد في الحرب لما اتفقنا أن نصبح طرفا في الهدنة . فقد غادرت سفينتا بقرة الى ضفاف شاطىء صيد اللؤلؤ قبل ابرام الهدنة دون أن تعلما بالعمليات التي عـزم على القيام بها الشيخ خليفة بن شخبوط ، وبعـد أن شاهدتا قوة تقترب منهما هربتا كلتاهما ودخلتـا خور العديد ، ولدى وصـول خليفة تم احتجازهما . وبعد ان استولى الشيخ خليفة بن شخبوط على العديد حاولت السفينتان الهرب ، الا أنه تمت مطاردتهما وتم الاستيلاء على احداهما وقتل أفراد طاقمها بعد ٢٤ ساعة من الاستيلاء عليها . ولن نقوم بأي عمل يغاير رغباتكم ،ونفيدكم أن رجالنا الذين قتلوا كانوا تحت حمايتكم .

وسبق ان ذكـرت ان الاربعة والعشرين رجلا من اهالي العديد هم معنا ، واننا بالتعاون معهم فقد نقضنا الهدنة ، ولكن اذا كان بوسع هؤلاء الرجال ان يقدمـوا لنا مساعدة فعالة فانهم سيظهرون قوتهم وهم في بلدهم .

ولم نبعث بالرسالة الموجهة الى عبد الله بن احمد التي سبق أن ارسلتها الينا ، وكنت ترغب أن تبعث بها الى البحرين، نظرا لاننا نخاف من الشيخ خليفة بن شخبوط لذا نعيدها اليك راجين ان تقوم بارسالها عن طريق اية سفينة من سفن الحكومة التي قد تتوجه الى البحرين ، فيكون ذلك كرما منك ويرجى اعلامنا لدى استلامك الرد عنها .

ثانيا : فقدان بعض الممتلكات الخاصة والاضرار الناجمة عن الهجوم : لا شك ان اي هجوم أو معركة لابد ان تخلف وراءها دمارا تبعا لنوع الهجوم وقوته ، وخاصة عندما هاجمت اربعمائة سفينة وما عليها من قوات منطقة العديد ، التي لا تتجاوز قواتها ثلاثمائة مقاتل ، فانها لابد تخلف دمارا واضرارا ليس للقبيسات فقط . وانما لغيرهم من المقيمين في العديد أو القادمين أو العائدين ، من التجار وغيرهم . ومن هذه الاضرار فقدان بعض الممتلكات لتجار المنطقة . وخاصة تجار البحرين الذين كانوا في العديد أثناء المعارك ، فقام حاكم البحرين عبد الله بن أحمد بكتابة رسالة عن سرقة ممتلكات بعض من تجار البحرين وفقدانها . ورد عليه المقيم السياسي البريطاني في ١٨٣٧/٦/٢٨ برسالة يقول فيها(٢٦) : بالنسبة لما ذكرت حول سرقة ممتلكات التجار المعنيين والمقيمين في العديد ، والتي قام بها أفراد من قوات ابو ظبي لدى استيلائهم على العديد ، فأود أن اعلمكم ان العداوة المستمرة بين أهالي ابو ظبي والعديد مسألة غير محمودة السمعة ، ومنذ اربعة اشهر قتل في خيران ابو ظبي (جمع اخوار للمياه الاقليمية في ابو ظبي) عدة افرادمن كلا الطرفين .

مضى الان أكثر من عام منذ أن تسلم الشيخ خليفة بن شخبوط اذن الحكومة لاعادة رعاياه المتمردين الى سلطته ، وتحت هذه الظروف فان هؤلاء الافراد الذين استمروا في الاقامة في العديد ، ذلك المكان الذي يجري فيه القتال ، يستحقون اللوم لانهم عرضوا انفسهم الى خطر النهب مع المقيمين الاخرين عند مهاجمة مكان اقامتهم .

وكما ذكرت فانا لا استطيع أن اطلب من الشيخ خليفة بن شخبوط التخلي عن الممتلكات المحتجزة ، الا انني سأكتب له وأنصحه بطريقة ودية وذلك من أجل ازالة كل أسباب الفوضى والاضطراب ، لذلك من المستحسن اعادة الحاجيات للافراد والرعايا التابعين لسلطة شيوخ العديد ، حيث أن الشيخ خليفة على وفاق وديمعهم ولدى وصول رد منه فسأنتهز أول فرصة للاتصال معك مرة اخرى .

وبعدها بعث المقيم السياسي البريطاني برسالة الى خليفة بن شخبوط بتاريخ ١٨٣٧/٧/٦ ، عن الاضرار التي لحقت بتجار البحرين مع نسخة من رسالة حاكمها

يطلب فيها اذا أمكن استعادة تلك البضائع ، وجاء فيها(٢٧) : أود اعلامك أنني تسلمت مؤخرا رسالة من الشيخ عبد الله بن احمد شيخ البحرين من قبل اتباعك حال استيلائهم على العديد . وبما انني متأكد انه لدى جعل رعاياك المتمردين تحت سلطتك مرة ثانية ، لن يكون في نيتك ان تجعل رعايا جيرانكم المحبين والمسالمين وغير المذنبين يعانون من ضيق ، فأنا واثق بأنك ستتخذ اجراءات لاستعادة البضائع المأخوذة من الافراد المذكورين انفا واعادتها الى اصحابها الشرعيين ، وقد ارفقت لك لائحة بالممتلكات المذكورة لاعلامك بها .

ثالثا : عودة القبيسات الى ابو ظبي واستقرارهم فيها : برغم تصرفات القبيسات وخروجهم عن سيادة أبو ظبي ، ومحاولة الاستقلال وعمل كيان خاص بهم ، وبرغم فشلهم واستيلاء خليفة بن شخبوط على العديد ثم هروبهم والتجائهم الى دبي ،وعلى الرغم من اغراءات حاكم دبي للقبيسات لمهاجمة أبو ظبي أو خلق المشكلات ، الا ان خليفة بن شخبوط تصرف بحكمة وسعة صدر عندما أصدر العفو العام عن جميع افراد القبيسات ، ورد اليهم جميع سفنهم وممتلكاتهم التي صودرت أثناء الحرب ، او بعدما تركوا ابو ظبي ، ثم قام بتقديم الاغراءات المادية السخية لتشجيعهم على الاستقرار والعمل من جديد تحت سيادة ابو ظبي.

الخاتمـة :

اتمنى ان اكون قد وفقت في اعطاء الصورة الواضحة ، من خلال الوثائق الرسمية لاطراف المشكلة المتمثلة في محاولة شيخ القبيسات اقامة امارة مستقلة اسوة بامارة دبي التي أقيمت قبل ذلك بعامين ، معتمدا على بريطانيا وعارضا عليها الدخول تحت حمايتها ، وذلك باقتطاع الاجزاء الجنوبية الغربية من امارة ابو ظبي التي تعادل مساحة امارة قطر والبحرين والكويت معا .

ولكن بريطانيا رفضت ذلك لارتفاع تكاليف حماية الامن والاستقرار ، اضافة الى قربها من قبائل وسط وشرق الجزيرة العربية ، مما يصعب معه التحكم وتقديم الحماية الكافية .

ولا ننسى أن بريطانيا كانت تشجع الانقسامات والتجزئة اضافة الى حكام امارات الساحل ايضا ، كما حدث لحاكمي دبي ورأس الخيمة ، اللذين شجعا انفصال العديد عن أبو ظبي ، ولكنها عندما وجدت أن ذلك لا يتفق مع امنها ومصالحها ، مع ارتفاع تكاليف حمايتها ، فانها تخلت عن القبيسات ، وسمحت لحاكم ابو ظبي باسترجاع العديد ، فعاد الاستقرار والامن الى امارات ساحل عمان من جديد .

ولكن المشكلة لم تنته عند هذا الحد ، فقد هاجرت قبيلة القبيسات للمرةالثانية عام ١٨٤٩ ،ولكن حاكم ابو ظبي استطاع اعادتها بالحكمة والدبلوماسية قبل تفاقم الامور ، ثم هاجرت القبيلة للمرة الثالثة عام ١٨٦٩ ، وكادت بذلك ان تخلق مشكلة كبيرة ، فبعد مجيء الحملة العثمانية عام ١٨٧١ ودخول حاكم قطر تحت السيادة العثمانية ، وحدودها تتاخم منطقة العديد وبتشجيعمن حاكمها الجديد قاسم بنثاني، قامت قبيلة القبيسات بالانفصال عن ابو ظبي ، ولكن هذا الانفصال كانت له أبعاد جديدة ، وهذا ما سوف نتناوله في بحث خاص في المستقبل القريب ان شاء الله .

الهامش والمصدر ، هي وثائق تنشر لأول مرة

(١) R/15/1/68 صفحة (١٨٠) : رسالة من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بتاريخ ١٨٣٥/٩/٢٣ .

(٢) R/15/1/68 صفحة (٢٠٤ ــ ٢٠٥): رسالة من خليفة بن شخبوط الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ١٨٣٥/١١/١٥ .

(٣) R/15/1/69 صفحة(٧): من «ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي الى المقيم بالوكالة في الخليج العربي ١٨٣٦/٧/٩ .

(٤) R/15/1/69 صفحة(١١): من«ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي الى المقيم بالوكالة في الخليج العربي ، رقم (١٦٩٠) ١٨٣٦/٩/٩ .

(٥) R/15/1/69 صفحة (٤٣) : من مكتب الاشراف ــ بومباي الى مكتب الكابتن « س.هنيل » مساعد المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي ، رقم ٢٦٢٢ (١٨٣٦/١٢/١٧).

(٦) R/15/1/69 صفحة (١٣) : من « و.هـ. وولترس » رئيس الحكومة الى المقيم السياسي بالوكالة في الخليج العربي، قلعة بومباي ١٨٣٦/١٠/٢٩ .

(٧) R/15/1/69 من « و. هـ.وولترس» رئيس الحكومة الى المقيم السياسيالبريطاني بالوكالة في الخليج العربي ، رقم (٢٠٥٥)، ــ قلعة بومباي ــ ١٨٣٦/١٠/٢٠ .

(٨) R/15/1/69 صفحة (٢٦) : من ويلوغبي وزير الدولة في حكومة بومباي الى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة فيالخليج العربي ، رقم (٢١٨٣) ، قلعة بومباي (١٨٣٦/١١/١٩).

(٩) R/15/1/75 صفحة (٢٤) : من خادم بن نهيمان شيخ العديد الى المقيمالسياسي البريطاني في الخليج العربي (١٨٣٧/١/٧).

(١٠) R/15/1/75 صفحة (٨١) : رسالة من ملا حسين الوكيل البريطاني في الشارقة الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (١٨٣٧/٣/٢٣).

(١١) R/15/1/75 صفحة (٤٩): من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (١٨٣٧/٤/٥).

(١٢) R/15/1/75 صفحة (١٧ ــ ١٨) :من « س.هنيل » المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى « ج.ب. ويلوغبي » رئيس حكومة بومباي ، الدائرة السياسية ١٨٣٧/٤/٩ .

(١٣) R/15/1/75 صفحة (١٣ ــ ١٧) : من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى «ج.ب. ويلوغبي » وزير الدولة في

حكومة بومباي ١٨٣٧/٤/٢٩ صفحة التقرير الثانية .

(١٤) R/15/1/75 صفحة (٣١–٣٢) :من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي (١٨٣٧/٥/٦).

(١٥) R/15/1/75 من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي (١٨٣٧/٥/٦).

(١٦) R/15/1/75 صفحة (١٢٣) : من الوكيل البريطاني في مسقط الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة عام (١٨٣٧).

(١٧) R/15/1/75 صفحة (١٣–١٧) :من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى « ج.ب. ويلوغبي » وزير الدولة في حكومة بومباي (١٨٣٧/٤/٢٩) ، صفحة التقرير رقم (٤) .

(١٨) R/15/1/75 صفحة (٦٤–٦٦) :من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة ١٨٣٧/٥/٢٤ .

(١٩) R/15/1/75 صفحة (٦٩–٧٦) : من ملا حسين الوكيل البريطاني في الشارقة الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (١٨٣٧/٦/١) .

(٢٠) R/15/1/75 صفحة (٦٦–٧٢) : من « س. هنيل » المقيم البريطاني في الخليج العربي الى « ج.ب. ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي (١٨٣٧/٦/١٧) .

(٢١) R/15/1/72 صفحة (٦٦–٧٢): من « س.هنيل » المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى العميد البحري قائد سرية الاسطول البحري الهندي (٦/١٤/ ١٨٣٧) .

(٢٢) R/15/1/74 صفحة (٥–٦) من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة (١٨٣٧/٧/١٤) .

(٢٣) R/15/1/74 صفحة (٥–٦) من المقيم المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة الى الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة (١٨٣٧/٧/١٤) .

(٢٤) R/15/1/72 صفحة (٨٨–٩٠) : من « سي. هنيل » المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى « ج.ب. ويلوغبي » رئيس حكومة بومباي (١٨٣٧/٧/١٥) .

(٢٥) R/15/1/75 صفحة (١٤١ – ١٤٢) : من مكتوم بن بطي حاكم دبي الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة (١٨٣٧/٧/٢٢) .

(٢٦) R/15/1/74 صفحة (٢–٣) : من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى الشيخ عبد الله بن أحمد حاكم البحرين (١٨٣٧/٦/٢٨).

(٢٧) R/15/1/74 صفحة (٤) : من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى الشيخ خليفة بن شخبوط حاكم ابو ظبي (١٨٣٧/٧/٦) .

تغير وضعية اليهود في المغرب الأقصى
في القرن التاسع عشر
وموقف الحكومة المغربية منها

د. تركي عجلان الحارثي
جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة

تمهيد :

كانت الديانة اليهودية أول ديانة سماوية تصل الى شمال افريقيا ، ليعتنقها بعض السكان من القبائل البربرية الوثنية مثل جراوة ومدينونة وبهلولة وغياثة وبنو بازاز(١) ، وظلت متمسكة بدينها برغم ضغوط الرومان لنشر الدين المسيحي . وكأمة غالبة استطاع الرومان تحويل الكثير من البربر من الوثنية الى النصرانية ووقف انتشار اليهودية بين الوثنيين بوضع القيود على التحول اليها ، وقلصوا من حريات اليهود في ممارسات شعائرهم الدينية . الا أن الوندال الذين كانت لهم الغلبة في شمال افريقيا فيما بعد أعطوا لليهود حرية دينية كاملة (٢) .

ولما ظهر الاسلام انتشر في الجزء الشمالي ـ الغربي من القارة الافريقية ، وهو ما عرف بعد الفتح باسم المغرب(٣) . وقد تركز هدف المسلمين على نشر الدين بين سكانه ، يهودا أو مسيحيين أم وثنيين ، فدخل بعضهم في الاسلام ، وبقي البعض الاخر على دينه ، لان الدين الاسلامي أعطى الخيار لاهل الكتاب(٤) بين الدخول في الاسلام أو الدخول في عهد أهل الذمة ، استنادا الى أساس متين من مبادىء الاسلام بأن لا اكراه في الدين(٥) . قال تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »(٦) .

عاش يهود المغرب الاقصى تحت عقد أهل الذمة الذي حدد ما لهم وما عليهم(٧)، ودخل بعضهم في الاسلام بعد الفتح العربي الاول برغم تمتعهم بما وفره لهم الدين الاسلامي من ضمانات . وعندما سيطر ادريس الاول زحف على بعض القبائل التي كانت على اليهودية والنصرانية ، مثل تندولاة وبهلوانة ومديونة ومازار ، وادخلها في الاسلام (٨) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

تعاقب على المغرب الاقصى بعد الادارسة على التوالي المرابطون والموحدون والمرينيون . وعلى الرغم من اعتماد سياسة تلك الدول على الرباط والجهاد وتوحيد البلاد تحت مظلة الدين ، الا أن المجتمعات اليهودية نعمت بالامن وممارسة معتقداتها، بضمانات عهد أهل الذمة ، الذي كان الطابع الملازم للعلاقة بين دول المغرب والاقلية اليهودية فيه(٩). وعندما أخذ ميزان القوى العسكرية خلال القرن الخامس عشر يتحول لصالح المسيحيين في الاندلس عانى المسلمون واليهود على السواء ، وأجبروا على مغادرة البلاد أو التنصر(١٠) فغادر نحو مائة وخمسين الفا من اليهود ، استقر الكثير منهم في المغرب الاقصى وتركزوا في كبريات المدن المغربية مثل فاس ومكناس وطنجة وتطوان والرباط وآسفي ، وعاشوا آمنين على انفسهم وأموالهم، ممارسين لشعائرهم الدينية، وقاموا بدور كبير في تجارة المغرب الداخلية والخارجية وسيطروا على معظمها ، متعاونين مع يهود الواحات الجنوبية ، مما ساعدهم على السيطرة على تجارة جنوب الصحراء (١١) .

وفي عهد الدولتين السعدية والعلوية بقي لليهود مركز الصدارة في تجارة المغرب، وعمل البعض منهم في السلك الدبلوماسي فكان قيمران أحد مستشاري مولاي اسماعيل بن محمد (١٦٧١ ـ ١٧٢٧ م) ، وعقد ابن عطار معاهدة مع انكلترا نيابة عن السلطان محمد بن عبد الله .وخلال الحكم العلوي بالذات نعم اليهود باهتمام خاص من قبل السلاطين ، فصدرت أوامر سلطانية بتوسيع عدد من أحياء اليهود وترميم أسوارها كي تتوافر لهم الحماية والامن . بل أن السلطان رشيد رفض محاولة فرنسة احتكار تجارة المغرب الخارجية مقابل مبلغ من المال ، لان ذلك يضر بتجارة اليهود ، ولانهم رعايا السلطان ويجب الحفاظ على مصالحهم(١٢) .

يهود المغرب الاقصى في مطلع القرن التاسع عشر :

في بداية القرن التاسع عشر كان اليهود يمثلون ٧٪ من سكان المغرب الذين قدر عددهم في أواخر القرن بين خمسة وتسعة ملايين(١٣) ، وتتركز غالبيتهم في المدن الرئيسة كما مر ، وفي عدد من مناطق الداخل مثل صفرو وتارودانت وسجلماسة وتافيلالت(١٤) ، وأهم الاعمال التي كانوا يمارسونها التجارة الخارجية والداخلية . وقد رفع اسهمهم في التجارة الخارجية علاقتهم بيهود اوربا ، ومعرفتهم للغات الاجنبية وسيطرتهم على القروض البنكية الربوية . ولهذا العامل الاخير دور كبير في استحواذهم على نسبة كبيرة من التجارة الداخلية ، كتجار جملة ، مما قلص من فرص التجار المسلمين ، خاصة وان التجارة عن طريق الربا محرمة في الاسلام(١٥).

حفظ سلاطين الدولة العلوية لليهود حقوقهم التي ضمنها لهم عهد اهل الذمة، ففي فترة حكم السلطان سليمان بن محمد (١٧٩٢ – ١٨٢٢ م) صدر أمر سلطاني بتوسعة مسجد تطوان حتى أصبح متصلا بملاح اليهود . فما كان من السلطان الا أن اقطع اليهود أراضي مخزنية دون مقابل ومنحهم فرصة لبيع دورهم للمسلمين، واعطاهم الوقت الكافي لبناء دور جديدة بعيدا عن المسجد حتى لا يتضرروا من المسلمين ولا يتضرر المسلمون منهم(١٦) . وعندما ضاق ملاحا الرباط وسلا على أهلهما سمح لهم السلطان سليمان بانشاء ملاح بأطراف مدينة الرباط بعد أن أقطعهم اراضي يقيمون عليها دورهم وحوانيتهم(١٧) .

ومن أهم الاعمال التي أولاها حكام المغرب اهتمامهم توفير الامن والحماية لليهود، والسماح لهم باقامة أسوار حول أحيائهم في كافة المدن حتى انهم خصصوا بعض العسس لحمايتهم أثناء الليل ، ومع ذلك نجد أحياء اليهود مستهدفة اثناء الفتن والثورات . ففي رمضان سنة ١٨٢٠ قام جيش الودايا باعلان العصيان ضد سليمان ابن محمد ونهب ملاحاليهود بفاسوما فيه من الكتانوالحرير والنقود كالذهبوالفضة، حتى أن أحمد الناصري وصف ذلك بقوله : « .. وضاعت في ذلك أموال لا يحصيها قلم حاسب .. »(١٨) . وتعدى ذلك الى الاعتداء على محارم اليهود وارتكاب بعض المنكرات التي تتعارض مع الدين الاسلامي كالافطار في أيام رمضان . ولم يقتصر اذي الودايا على اليهود بل شمل المسلمين مما جعل أهل فاس مسلمين ويهودا يقفون في وجه الثوار . واخمدت الفتنة بعد توصل الاطراف الى صلح وأعاد الودايا بعض ما نهبوه(١٩) .

ويبدو أن اليهود كانوا مستهدفين من الخارجين على السلطان . فعندما قام أهالي فاس والقبائل المحيطة بها بتولية ابراهيم بن يزيد بحجة ان عمه السلطانسليمان غير قادر على حمايتهم من جيش الودايا ، تعرض اليهود للاعتداء على ملاحهم ونهبت منه أموال كثيرة . واستطاع السلطان هزيمة الثوار بالقنطرة بالقرب من فاس واستولى على أموال طائلة كانت قد نهبت من ملاح تطوان . وعندما قام السلطان سليمان باسترداد تطوان قام على حد قول الناصري« بالصفح عنهم (عن أهلها) واحسن اليهم »(٢٠) ويبدو أن الكاتب يشير الى اعادة ما نهبه الثوار الى اليهود .

وبعد وفاة السلطان سليمان بن محمد سنة ١٨٢٢م/١٢٣٧هـ وتولية ابن اخيه عبد الرحمن بن هشام ظل اليهود في المغرب يلتزمون بعهد أهل الذمة، والحكومة المغربية تقدم لهم الحماية في حدود الامكانيات المتوافرة . ففي ١٢٥٦هـ . على سبيل المثال ، قام الذميون في سلا بدفع جزيتهم المتأخرة ثلاث سنوات (ألف مثقال) لعامل

المدينة احمد عواد الذي ارسلها بدوره للخزينة المغربية(٢١) . وعندما طلب يهود مكناس عام ١٢٧٥هـ من السلطان عبد الرحمن بناء سور جديد للاحهم امر السلطان بذلك(٢٢) ، وعندما قامت بعض العصابات فيما بعد بالهجوم على ملاح مكناس والاضرار بسوره ، وقتل ذمية وجرح ذميين ، غضب السلطان وأمر بترميم السور وزيادة العسس ، وبتتبع تلك العصابات ، التي كان معظم أفرادها من قبائل زمور ومجاط وجران(٢٣) .

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر شارك اليهود كغيرهم من المواطنين المغاربة في الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب ، فقام السلطان عبد الرحمن ابن هشام في ١٨٢٧ بانتداب مير بن مكنين كمبعوث له في لندن ولكن الحكومة البريطانية رفضت شخصية مكنين بحجة انه كان أحد رجال الاعمال المعروفين في المغرب ، وانه لم يقم بتسديد الديون المتراكمة عليه للتجار الانكليز(٢٤) .

وفي الاقتصاد استمر اليهود في الاستحواذ على نسبة كبيرة من التجارة الخارجية ، بل أن الحكومة المغربية عادة ما قدمت لهم تسهيلات كتخفيض الضرائب وامهالهم لتسديد اثمان الغلال التي يقومون بشرائها من المنتجين أو التجار ،وتسويقها فيأوربا مثل القمح والسكر والصوف(٢٥) . ونظرا لعمل الكثير من اليهود في الميدان التجاري فلقد سنحت لهم الفرصة لايجاد روابط اقتصادية واجتماعية بالاوربيين استطاعوا من خلالها أن يكسبوا تعاطف هؤلاء الذين عملوا جاهدين لتغيير وضعيتهم ، من مواطنين مغاربة ذميين الى أفراد لهم وضعيتهم الخاصة والمتميزة ، والتي تفوق وضعية المغاربة المسلمين انفسهم . ذلك التغيير لم يستغرق فترة طويلة كما سنرى في الصفحات القادمة .

التواجد الاجنبي واستغلال اليهود له :

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر أخذت المصالح الاستعمارية في المغرب الاقصى تنمو يوما بعد اخر، وتمثل ذلك فيعقد المعاهدات وارسال الدبلوماسيين للحفاظ على هذه المصالح وبخاصة السياسية والاقتصادية . وعلى الرغم من أن المغرب في بداية القرن التاسع عشر كان يرتبط بمعاهدات تجارية مع معظم الدول الاوربية الا أن السلطان سليمان بن محمد حاول تقليص التجارة الخارجية للمغرب مع تلك الدول وذلك بمنع سفر التجار المسلمين الى اوربا الا باذن ، ووضع قيودا على سفر اليهود ومتاجرتهم مع الدول الاوربية خوفا من تهريب رؤوس الاموال ، كما انه حاول الغاء الجهاد البحري حتى لا يعطي الفرصة للاوربيين للتدخل في المغرب(٢٦) . الا ان

تلك السياسة ـ التي وصفها الكثير من المؤرخين الاوروبيين بسياسة العزلة والانغلاق ـ لم تستمر طويلا ، فقد توفي السلطان سليمان بن محمد وخلفه ابن اخيه عبد الرحمن بن هشام الذي نهج سياسة مغايرة لسياسة عمه ، فقام باحياء الجهاد البحري وزيادة عدد الاسطول المغربي وترميم الموانى لكي يواكب التطورات السريعة التي طرأت على اساطيل الدول الاوربية . وكان لهذا النهج الجديد أثره السلبي والايجابي على علاقات المغرب الخارجية ، فمن آثاره السلبية ظهور نوع من الاحتكاك المسلح بين الاسطول المغربي والاساطيل الاوربية التي اعتادت ان تجوب الشواطىء المغربية متحدية بذلك المغرب في سيادته على شواطئه ، ومن الناحية الايجابية كان لقرار احياء الاسطول أثره في تنشيط التجارة الخارجية للمغرب اذ كان هناك العديد من الدول الاوربية تحاول زيادة نشاطها التجاري معه(٢٧) . وبالطبع قام اليهود بدور بارز في هذا الميدان .

زاد من النشاط التجاري للمغرب الاقصى مع أوربا ازدياد المصالح الاوربية فيه، بخاصة عند احتلال فرنسا للجزائر . فمع أن المغرب حاول عدم التدخل عسكريا الى جانب الجزائريين ، الا أن السلطان عبد الرحمن استجاب لمطالب أهالي تلمسان بضمهم الى المغرب اداريا . ذلك القرار لم يكتب له النجاح لان فرنسا اجبرت السلطان على سحب الادارة المغربية من تلمسان ، وبذلك تحسنت العلاقة بين البلدين . كذلك قام السلطان بمساعدة الامير عبد القادر الذي اتخذ من التراب المغربي ملجأ له . فساءت العلاقة مع فرنسا لتصل الى صدام مسلح في معركة ايسلي سنة ١٨٤٤م ، التي هزم فيها المغرب(٢٨) ، وبنتيجتها فرضت عليه معاهدة ١٨٤٤م التي استطاعت فرنسا من خلالها انتحصل على امتيازات تجارية جديدة وأن تعامل معاملة الدولة الاكثر تفضيلا في المغرب(٢٩) .

كانت تلك المعاهدة بداية التنافس بين الدول ذات المصالح الكبيرة في المغرب، واهمها فرنسا وبريطانيا واسبانيا . فبعد المعاهدة الفرنسية ـ المغربية قامت بريطانيا بالضغط على الحكومة المغربية ـ خاصة عندما انخفض التبادل التجاري بين الدولتين الى اقل مستوى في بداية الخمسينات ـ واضطرتها الى توقيع معاهدة ١٨٥٦ التجارية ، التي ضمنت لها امتيازات تفوق امتيازات فرنسا(٣٠) . واشتد التنافس عندما دخلت اسبانيا في حرب ضد المغرب (١٨٥٩) وهزمته واملت شروطها في معاهدة الصلح (١٨٦٠) ، ومن اهمها الشرط الثالث عشر الذي نص على أن يعامل رعايا اسبانيا معاملة رعايا الدولة الاكثر تفضيلا(٣١) .

ادى التنافس الاوربي الى ازديا التبادل التجاري مع الدول الاوربية . وبلغت

المراكب الراسية في موانيء المغرب الاقصى نحو ٤٧٠ مركبا(٣٢) عام ١٨٥١ ، وارتفع هذا العدد الى ١٦٥٠ مركبا(٣٢) عام ١٨٧٣ . ومن احصاءات حجم تجارة المغرب الخارجية ، التي بلغت ٢٦٥٩٠٣ طنا عام ١٨٧٨(٣٤) ، نجد ان بريطانيا وفرنسا واسبانيا كانت تستحوز على معظمها ، اذ بلغ حجم تجارة تلك الدول ٢١٠٦١٦ طنا في تلك السنة ، اي ما يعادل اربعة اخماس تجارة المغرب الخارجية تقريبا . وبازدياد حجم التبادل التجاري ازداد التواجد الاوربي فارتفع عدد الاوربيين في المغرب من ٢٥٠ فردا عام ١٨٣٢ ، الى عشرة آلاف تقريبا عام ١٨٩٤(٣٥) . وكان لازدياد حجم التجارة ونمو الاستيطان الاوربي اثره على تحول وضعية اليهود في ذلك البلد .

ومع سنوات النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازداد التنافس الدولي للحصول على اكبر قدر ممكن من المكاسب السياسية والاقتصادية في المغرب . وتمثل سياسيا في مد يد العون لليهود ومحاولة استغلالهم كأقلية لاضعاف الجبهة الداخلية . اضافة الى ذلك كان للاوربيين الدور الكبير في جعل السلطان محمد بن عبد الرحمن وابنه الحسن من بعده يتبنيان سياسة الاصلاح ، التي من خلالها استطاعوا ان يؤثروا على القرار داخل المغرب . فقد نجح الانكليز منذ بداية ستينات القرن الماضي في اقناع الحكومة المغربية بادخال اصلاحات ادارية واقتصادية وتعليمية وعسكرية(٣٦) . وهدفهم التغلغل داخل المغرب عن طريق تلك الاصلاحات والحفاظ على مصالحهم في المقام الاول وليس انقاذ المغرب مما يعاني منه .

كان للنجاح الذي حققه الانكليز الاثر الكبير في زيادة حدة التنافس ، فاخذت الدول الاوربية الاخرى تحذو حذو بريطانيا . ووصل التنافس ذروته في مؤتمر مدريد، الذي كان يفترض أن يضع حدا للحماية الاجنبية الا أنه منح الاوربيين امتيازات جديدة(٣٧) . أما من الناحية الاقتصادية فكانت المعاهدات بين المغرب وبعض الدول الاوربية كفيلة بحفظ المصالح الاوربية فيه ، وفتحت أسواقه للمنتجات الاوربية التي اعفيت من أكثر الضرائب داخل المغرب .

كان للمكاسب السياسية والاقتصادية التي حصل عليها الاوربيون الاثر الكبير في زيادة نفوذهم داخل المغرب ، الذي شمل الكثير من مناحي الحياة ، حتى كاد المغرب أن ينهار لولا التنافس الكبير بين الاوربيين انفسهم الذي اطال امد استقلاله حتى بداية العقد الثاني من القرن العشرين .

اما اليهود فقد وجدوا ضالتهم في الاوربيين ، الذين اخذوا في تعيين بعضهم قناصلْ لدولهم في المدن المغربية . ففي أواسط القرن التاسع عشر اكد القنصل

الامريكي هذه الحقيقة عندما أشار أن جميع نواب قناصل الدول الاوربية ، ما عدا نواب القنصل البريطاني من اليهود(٣٨) . وكان لتلك التعيينات الاثر الكبير في تغير وضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وأخذ نواب القناصل اليهود في التحرر من القانون المغربي عندما أصبحوا يتمتعون بحصانة دبلوماسية ، وذلك بصفتهم يمثلون دولا تكفل لمن يعمل في سلكها الدبلوماسي امتيازات وحقوقا كثيرة ، وعينوا بعض أبناء جلدتهم كمخالطين أو ممثلين أو سماسرة لهم ، ومنحت لهم الحماية التي استخدمها القناصل الاجانب ونوابهم أسوأ استخدام(٣٩) . ومن الناحية الاقتصادية ، كان معظم نواب القناصل تجارا ، وبعد توليهم تلك الوظائف رفضوا دفع الضرائب التي كانت تؤخذ منهم ، كالجزية وغيرها من المكوس ، وكان لذلك أثر كبير في اضعاف اقتصاد المغرب لان تلك الضرائب والمكوس تمثل نسبة كبيرة من موارد بيت المال المغربي .

لقد كان للتواجد الاجنبي طرقه الخاصة لتبرير استخدام اليهود فأخذ القناصل والرحالة بل والتجار الغربيون يصورون لشعوبهم أن اليهود يعيشون في بؤس ، وأنهم كانوا يخضعون لعهد أهل الذمة الذي يتدخل في شؤونهم الخاصة كالملابس والسلوك ، ويضيع حقوقهم التي يجب أن تكفل لهم ولو على حساب استقرار المغرب وأمنه ..(٤٠) . ووجدت تلك الضجة اذنا صاغية من الحكومات الاجنبية التي أخذت تتعاطف مع اليهود في المغرب . وهذا ما اشارت اليه الكثير من المراسلات التي كانت تصل الى القناصل الاجانب في طنجة . ففي احدى الرسائل المرسلة من الحكومة الامريكية الى قنصلها في طنجة Jesse Mcmath جسي مكماث ، وردت التعليمات القاضية باستخدام جميع الامكانات لمساعدة يهود المغرب باسم الانسانية(٤١) . وقدم القنصل الامريكي ، كغيره من القناصل المساعدة لليهود ، لا من أجل انتشالهم من الظلم والجور ، وانما من أجل تحقيق مصالح دولته الاقتصادية وأهدافها السياسية . وهذا هو الهدف الحقيقي الذي سعت من أجله جميع الدول الاجنبية وأخفي تحت ستار اغاثة اليهود(٤٢) .

ضغوط اليهود الدولية وموقف الحكومة المغربية :

اضافة الى تقارير القناصل الاجانب الى حكوماتهم والمقالات التي تكتب في الصحف الغربية ، تصور بؤس اليهود في المغرب ، أخذت المنظمات اليهودية داخل المغرب في استعطاف الحكومات الغربية عن طريق الهيئات اليهودية في أوربا وأمريكا . ففي بداية الستينات من القرن التاسع عشر بدأت بالكتابة الى الهيئات اليهودية في الغرب تطلب منها التدخل لصالح يهود المغرب . ومن أهم النداءات التي وجهها اليهود المغاربة الرسالة التي بعث بها يهود طنجة الى المنظمات اليهودية في كل من لندن وباريس

ونيويورك ، وزودوا القناصل الاجانب في طنجة بنسخة منها ، وتضمنت وصفا للحالة السيئة لليهود في المغرب وانتقدت الحكومة المغربيـة لتنفيذها حكم الاعدام في بعض اليهود المغاربة الذين ارتكبوا الجرائم ، ووصفت ذلك الاعدام بأنـه لا ينبغي أن يحدث على علم من الامم المتحضرة ، وطالب مرسـلو تلك الرسالة باسم الانسـانية حكومات الدول الاوربية بأن تضع اليهود تحت حمايتها(٤٣) .

كـان لتلـك التقارير والمقـالات والاسـتفاثات أثـر كبير في تعاطف الاوربيين والامريكيين مع يهود المغرب . اضافة الى ذلك قامت المنظمات اليهودية بالضغط على حكوماتها في الغرب لمسـاعدة يهود المغرب ، فطالبت المنظمـة اليهودية البريطانيـة بتدخل الحكومة البريطانية ، وأرسل وزير الخارجية البريطانية اللورد جون راسـل John Rassul الى القنصل البريطاني في المغرب جون هاي John Hay تعليمات تقضي بمساعدة اليهود المغاربة على أن لا تصل تلك المساعدة الى التعدي على سـلطة الحكومة المغربية على رعاياها . وازدادت الضغوط لتصل الى طلب رئيس الجاليـة اليهودية في بريطانيا موسى مونتفيوري من حكومته السـماح له بالسفر الى المغـرب وترتيب لقاء بينه وبين السلطان . فقام القنصل البريطاني بترتيب هذا اللقاء وكتب الىالوزير الاعظم يخبره بتوجه مونتفيوري الىعاصمة السلطان ويطلب منه أن يُستقبل الاستقبال الحسن(٤٤) . وعندما وصلت البعثة البريطانية الـى مراكش في ٢٥ ينايـر ١٨٦٤م أستقبلت الاستقبال الحسن . وبعد عدة أيام عقد اجتماع مع السلطان محمد ابن عبد الرحمن نوقشت فيه أحوال اليهود . وكان من أهم الامور التي توصل الطرفان الى حلها اطلاق سراح يهوديين من السجن اتهما بقتل أحـد الاسبان بعد أن أبرهمـا أصحاب القتيل(٤٥) . واستطاع مونتفيوري أن يستصدر من السلطان ظهيرا (مرسوم) يؤكد معاملة اليهود المعاملة الحسنة ، ومما ورد فيه : « ... من سائر خدامنا وعملنا والقائمين بوظائف أعمالنا ان يعاملوا اليهود الذين بسائر ايالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الاحكام حتى لا يلحق احدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام ، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضـام ، وأن لا يتعدوا هـم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم ، وان لا يستعملوا أهل الحرف منهم الا عن طيب أنفسهم وعلى شـرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لان الظلـم ظلمات يوم القيامة ، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم ، ولا نرضاه لان الناس عندنا في الحق سواء ، ومن ظلم أحدا منهم او تعدى عليه فانا نعاقبه بحول الله، وهذا الامر الذي قررناه واوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محررا لكن زدنا هـذا المسطور تقريرا وتأكيدا .. »(٤٦) .

نلاحظ ان السلطان استطاع كسب الصداقة البريطانية بهذا الظهير ، برغم انـه

لم يضف جديدا على ما قرره الاسلام لأهل الذمة . وهذا ما حاول السلطان تأكيده عندما اشار الى أن التعليمات التي أرسلت الى عماله مقررة ومعروفة. واستغل اليهود هذا المرسوم واخذوا ينسخونه ويوزعون النسخ على يهود المغرب ، ويفسرون ما ورد فيه بما يتفق مع مصلحتهم على حساب مواطنيهم المسلمين ، مما جعل السلطان يستدرك ويلحق ذلك الظهير بكتاب آخر موضحا فيه ما فسر خطأ : « .. فنأمرك أن تستوصي خيرا بضعفاء اليهود ومساكينهم المعروفين بالسكينة المشتغلين بمعاشهم وأما صعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض في الامور فعاملهم بما يستحقونه على فعلهم أن فعلوا ما يوجب تربيتهم جزاء وفاقا ... »(٤٧) .

لم تتوقف الهيئات اليهودية في الخارج عن ضغوطها على الحكومة المغربية ، التي عادة ما تكون مقرونة بوصايا من الدول الاوربية . ففي عام ١٨٦٥م تلقى السلطان محمد بن عبد الرحمن خطابا من وزير خارجيته ومعه خطاب من أحد اليهود البريطانيين يوصي بالاهتمام باليهود المغاربة ، فكان رده ايجابيا مواصلا بذلك سياسته الرامية الى عدم الاصطدام مع الانجليز ، وجاء فيه « .. فقد وصلنا كتابك وصحبته كتاب اليهودي موزي افلوري وترجمته الواردة على يد باشدور دولة النكليز (الانكليز) كما وصل كتابه الذي كتب لك عن اذن دولتهم في شأن اليهود وتجديد وصية العمال عليهم، فها نحن أمرنا كاتبنا بأن يجيبه ويوجهه لك لتوجهه له ... »(٤٨) .

لقد أخذ القناصل ونوابهم على عاتقهم الدفاع عن يهود المغرب تنفيذا لتعليمات حكوماتهم ، ولكسب اليهود ــ وبخاصة من يعمل منهم بالتجارة ، الى جانبهم ، ليكونوا موزعين لتجارة بلدانهم من جهة ، وللتدخل في شؤون المغرب الداخلية من جهة أخرى. بل ان أولئك القناصل كانوا يريدون أن يصنعوا لانفسهم شيئا من الهيبة والاحترام عند الجهاز الاداري للحكومة المغربية وفي أعين الناس الذين دخلوا في حماية الدول الاجنبية ، فلقد أرسل نائب القنصل البريطاني في الدار البيضاء خطابا الى السيد الكبير بن المدني أحد قواد السلطان جاء فيه « .. فموجبه الاعلام لديك اننا لنا الاذن من طنجة من عند باشدورنا اذا وقع ظلم من كل أحد على اليهود فيكون أمرهم عندي ونتكلم عليهم ونكون بصيرة عليهم أينما كانوا ، كما عندك الامر بذلك من قبل السلطان نصره الله ، وان لا يقع ظلم على اليهود حسبما ورد الامر بذلك لدى جميع القواد لانهم تحت الذمة ، فلا يقع عليهم ظلم من أهل دائرة القواد وغيرهم ... »(٤٩) .

ومع مرور سنوات النصف الثاني من القرن التاسع عشر اخذت المنظمات اليهودية في أوربا والولايات المتحدة في الضغط على الحكومة المغربية وتوجيه اصابع الاتهام اليها في معاملتها لليهود المغاربة ، عن طريق البعثات الدبلوماسية او بواسطة

قناصل الدول الغربية ففي بداية السبعينات طالبت المنظمة اليهودية في باريس وزير الخارجية الفرنسي بالتدخل لدى السلطان لكي يزيل الظلم والقسوة عن يهود المغرب حسب ادعائها . أما القنصل البريطاني جون هاي John Hay فتحت ضغوط المنظمة اليهودية البريطانية قام بتقديم احتجاج لدى السلطان سنة ١٨٧٣م طالب فيه بمعاملة يهود الرباط ومكناس المعاملة الحسنة ، فأكد السلطان على عاملي المدينتين بأن يعاملا اليهود معاملة خاصة(٥٠) . وفي نيويورك قامت الجمعية اليهودية الامريكية بارسال خطاب الى القنصل الامريكي فليكس ماثيوز Felix Mathews في طنجة مشيرة فيه الى ما يتعرض له اليهود في المغرب من اضطهاد وتمييز عنصري حسب ما ذكرت الرسالة وفي نهاية ذلك الخطاب طالبت الجمعية الامريكية القنصل الامريكي بمساعدة اليهود بعد أن حاولت كسبه ببعض الكلمات المعسولة(٥١) .

على أن المنظمات اليهودية في أوربا والولايات المتحدة لم تهمل طرقا أخرى للضغط عن طريق المراسلات التي تصل من وقت الى اخر الى السلطان ورجال دولته مباشرة تطالبهم بالاهتمام باليهود . فعندما قام الحاج محمد الزبدي بزيارة لبريطانيا فيأواسط السبعينات من القرن التاسع عشر تقدمت المنظمة اليهودية البريطانية ببعض المطالب، تمثلت في كف حاكم أزمور عن معاملته غير العادلة لليهود فيها ، والسماح ليهود الصويرة ببناء ملاح جديد نظرا لضيق ملاحهم ، والتأكيد على عمال السلطان بان يعاملوا اليهود بالحسنى . ويبدو أن الزبدي أبدى استعداده لعمل ما يمكن عمله في سبيل تحقيق تلك المطالب . والملفت للنظر أن المنظمة اليهودية البريطانية اعتمدت على اتهاماتها ضد حاكم أزمور على تقارير السواح الذين كانوا يبالغون عادة بقصد أو بغير قصد ، في وصفهم لحالة اليهود في المغرب(٥٢) .

كان للضجة الواسعة والمفتعلة داخل المغرب وخارجه حول أوضاع اليهود المغاربة الاثر الكبير في استعطاف الرأي العام في الدول الغربية وأصبحت المنظمات اليهودية العالمية في الغرب تدافع عن يهود المغرب وكأن لها الوصاية على ذلك . وفي واقع الامر أن تلك الهيئات كانت تطالب بامتيازات ليهود المغرب تتعدى عهد أهل الذمة الذي كان اليهود مقتنعين بعدالته منذ قدوم الاسلام وحتى القرن التاسع عشر . هذا لا يعني أن اليهود المغاربة لم يتعرضوا لأي حوادث تعكر صفو عيشهم ، فالاحداث السياسية التي مرت بها البلاد كان لها الاثر على أمن واستقرار مواطني المغرب مسلمين ويهودا على السواء ، كما ان بعض الاعتداءات التي تعرض لها اليهود من بعض الخارجين عن القانون أو السوقة لم تكن الحكومة راضية عنها . ولكن مطالب اليهود كان الهدف منها اعطاءهم امتيازات تفوق ما يتمتع به غيرهم من المسلمين . اضافة الى ذلك استغلال وجود اليهود كأقلية في المغرب جعل الاوربيين يستغلون ذلك لصالحهم ، فبداوا

يثيرون تلك الاقلية ضد الاكثرية المسلمين وبالفعل نجح الاوربيون في ذلك حيث استخدموا اليهود كممثلين دبلوماسيين وكسماسرة يقومون بتسويق منتجاتهم في المغرب .

اندفاع اليهود نحو الحماية الاجنبية :

تعتبر الحماية الاجنبية لبعض الرعايا المغاربة من أكثر المشاكل التي واجهت الحكومة المغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكانت تلك الحماية ، التي عرفت بالحماية القنصلية ، مقصورة على القناصل الاجانب أو نوابهم فقط . ومع ازدياد المصالح الاجنبية أخذ القناصل الاجانب في تعيين نواب لهم من المغاربة اليهود الذين كانوا على معرفة ببعض اللغات الاوربية ، ولهم علاقات تجارية مع يهود أوربا ، لكونهم يعملون في السلك الدبلوماسي الاجنبي ، وهذا ما أشارت اليه المعاهدات المبرمة بين المغرب والدول الغربية (٥٣) . فتحول نظام الحماية القنصلية من حماية رعايا الدول الاجنبية الى حماية المغاربة أو ممن يعولونهم ، وبذلك بدأ الشرخ في القانون المغربي ، خاصة عندما أخذت بعض الدول الاوربية تطمح بل وتطالب بالامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا في معاهدة ١٨٥٦م (٥٤). وكان للتسابق المحموم بين الدول الاجنبية على تحقيق مصالحها الاقتصادية الاثر المباشر على زيادة الحمايات واضفائها على الكثير من تجار اليهود ، حتى أصبحت الحكومة المغربية غير قادرةعلى السيطرة على رعاياها .

تمثل الدور الذي قام به اليهود العاملين في القنصليات نوابا او تراجمة أو خداما ، في اعطاء الحماية ، اضافة لمن يعولونهم ، لابناء جلدتهم من اليهود . وتغاضت القنصليات الاجنبية عن تلك الممارسات تحت ستار انقاذ اليهود من الوضع المتردي الذي بالغ الاجانب في وصفه حتى جعلوا منه قضيتهم الاولى(٥٥) .

ان الامثلة عن دور اليهود الاجانب في المغرب كثيرة جدا ، فلقد تعاطفوا مع ابناء جلدتهم باستصدار حماية لهم من قناصل دولهم ، وتمادوا في ذلك حتى انهم منحوهم الحماية مباشرة(٥٦) . فعلى سبيل المثال قام أحد القناصل الاسبان والمدعو جوان بلانكو Juan Blanco بمنح الحماية لحوالي ٨٥٣ يهوديا في عام ١٨٥٩م(٥٧) . وكذلك منح قنصل الولايات المتحدة فليكس ماتيوز Felix Matews وهو من أصل يهودي – الحماية الامريكية لاهالي قرية من قرى طنجة معظمهم من اليهود ، حتى ان القنصل ويليم لويس William Lewis الذي خلفه عام ١٨٨٧ م وصف تلك القرية بأنها مستعمرة امريكية داخل المغرب(٥٨) .

ومن الامثلة على ذلك أن نائب القنصل الاسباني في أسفي أخذ في اعطاء الحمايات بغير قانون ، ومنحها لاناس تحت حماية دولة اخرى مما جعل عاملها السيد الطيب ابن هيمة يطلب من ممثل السلطان في طنجة محمد برقش التدخل عند القنصل الاسباني لايقاف تلك التصرفات غير القانونية : « وبعد فأعلم أن قونصو (قنصل) الصبنيول الذي بأسفي أكثر علينا من الحمايات في المدينة والقبائل بدون قانون ولا طرقه فان القانون لا يحمى شخص الا بالورقة من طنجة وان الحماية لا بد من بيان وجهها من الاوجه المحصورة فيها الحماية ، وكادت الاحكام أن تتعطل من جهة كثرة من يريد الاحتماء به بلا قانون ، وقد رام أدخال شخص في حمايته مع أنه حماية البرتقيز (البرتغال) »(٥٩) . كما ان نائب القنصل البلجيكي في الدار البيضاء بالغ في منح الحمايات للمغاربة بدون قانون ، وبخاصة وبالطبع شمل عطفه اليهود الذين كانوا اكثر مرونة من المسلمين في ارتباطهم بالاجانب ، مما أقلق الحكومة المغربية التي حاولت الوصول الى مخرج تتمكن من خلاله من وضع حدا للحمايات غير القانونية ، والنص التالي يوضح موقف الحكومة المغربية من هذه الممارسات : « .. وبعد فقد وصلنا كتابك جوابا عما كتبنا به في شأن اشتغال قونص (قنصل) البلجيك بالدار البيضاء بادخال الناس في الحماية وذكر أنك كلمت باشدوره في ذلك وتغير منه وكتب للقونصو (للقنصل) المذكور بالتوبيخ .. »(٦٠) ومن هذه الرسالة يتضح أن القنصل البلجيكي كان غير راض عن سلوك نائبه في الدار البيضاء ، أو أن الامر كان لامتصاص حماسة نائب السلطان ، وسياسة بلجيكيا كانت في حقيقة الامر تقضي بزيادة نفوذها في المغرب عن طريق الحمايات .

اضافة للتعاطف الغربي مع اليهود ، كان من دوافع منح الحمايات التسابق على تحقيق المصالح الغربية داخل المغرب ، وأهمها المصالح الاقتصادية لكل دولة على حساب الدول الاخرى . ومن هنا بدأ السباق بين دبلوماسيي الدول في اعطاء الحمايات بقانون وبغير قانون، ودون اكتراث بالقانون المغربي ، لكثير من السماسرة والمخالطين(٦١) وبينهم بالطبع الكثير من اليهود . وقد أجاب القنصل الاسباني عندما سئل عن سبب اعطائه الحمايات غير القانونية بالقول ان القناصل البريطانيين والفرنسيين منحوا الحمايات بقانون وبغير قانون للكثير من المغاربة فلماذا لا يفعل هو ذلك(٦٢) . وبذلك كان التسابق على تعزيز نفوذ الدول الاجنبية وتحقيق مصالحها على حساب المغرب .

وتحولت الحمايات من طور الى طور ، فأخذ بعض القناصل او نوابهم ، او رعايا الدول الاجنبية والعاملون في قنصلياتها ، في بيع الحمايات الى المغاربة ، ومن

ضمنهم اليهود الذين تسابقوا الى شرائها لتغيير وضعهم المتمثل في عقد أهل الذمة الى وضع يضمن لهم امتيازات جديدة . وجدت تلك العملية هوى عند القناصل أو نوابهم ، وعند التجار الذي جعلوا من بيع شهادات الحماية مصدر دخل لهم ، فبيعت أوراق الحماية بأزهد الاثمان وتفاوتت أسعارها من شخص الى آخر تبعا للبائع والشاري، ما بين ١٠ و ٢٥ قرشا(٦٣) . وأصبحت بمتناول الكثيرين من سكان المغرب ، وخاصة اليهود حتى عجزت الحكومة المغربية عن السيطرة على الحماية التي نخرت قواعد المخزن ، وحاولت في عهد السلطان الحسن بن محمد ، وضع حد للحمايات غير القانونية، فعقد مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ الذي توصلت فيه الحكومة المغربية الى التزام الدول الاجنبية بايقاف الحمايات غير القانونية . الا أن هذا الالتزام لم ينفذ واستمر الاجانب في ممارستهم غير القانونية مما أتاح الفرصة لكل من فرنسا واسبانيا وضع المغرب تحت الحماية (٦٤) .

تجاوزات اليهود المحميين وموقف الحكومة المغربية .

بعد حصول اليهود على الحماية أصبحوا يتمتعون بالامتيازات التي يتمتع بها الاجانب داخل المغرب التي ضمنتها لهم المعاهدات مع الدول الاوربية ، وهي امتيازات قانونية ومالية تفوق بكثير ما يتمتع بى المواطن المغربي (٦٥) ، ومنها عدم جواز اعتقال المحمي الا بعد اشعار القنصل أو نائبه ، ومنها أن جميع الخصومات التي تتعلق بالمحميين يحكم فيها القناصل الذين يتبع لهم المحمي . أما المالية فهي أن جميع الدبلوماسيين والمحميين مستثنون من دفع الضرائب . ولقد استخدم هذا الشرط أسوأ استخدام عندما دخل الكثير تحت مظلة الحماية تحت مسمى سماسرة أو مخالطين(٦٥) .

وعلى أن اليهود الذين شملتهم الحماية بدافع الشفقة والرحمة ، والحفاظ على المصالح الاجنبية في المغرب ، تمادوا على قوانين بلدهم وعلى مواطنيهم حتى بلغ الامر الى النيل من أفراد الحكومة المغربية . ونمت التجاوزات حتى وصلت الى صدامات فردية بين المحميين اليهود وبين المسلمين ، وتدخل الاجانب في شؤون المغرب بحجة حماية اليهود . وأدى ذلك التدخل الى تعكير علاقة المغرب بالدول الغربية عندما لجأ بعض القناصل الى التهديد باستخدام القوة للوصول الى أهدافهم .

تعددت تجاوزات اليهود المحميين وتلونت بأشكال مختلفة ، وهدفها تقويض عهد أهل الذمة الذي كان الاوربيون يؤكدون أنه مجحف في حق اليهود ، فكان لهم ما أرادوا عندما أخذ اليهود المحميون في ممارسة الكثير من التجاوزات المالية والقانونية

والدينية والسياسية ، التي ساعدت على اضعاف المغرب حتى أصبح فريسة سهلة للاوربيين . فمن الناحية المالية نجد ان المعاهدات التي وقعت بين الدول الاوربية والمغرب استثنت العاملين في القنصليات الاجنبية ، ومعظمهم من اليهود ، من دفع الجزية (٦٦) . واصبح اليهود المخالطون والسماسرة مستثنين من دفع الجزية ، مما شجع الكثيرين للحصول على الحماية للتحلل من الجزية ، وهذا ما يؤكده الخطاب الذي قام بارساله السلطان الحسن الى نائبه محمد الطريس حيث قال « .. وبعد فقد أمرنا عامل يهود فاس بأن يقبض منهم (أي اليهود) ما بذممهم من قبل الجزية على الكيفية الشرعية فأجاب بأنهم يطلبون التوسعة عليهم في اعطائه ثلاثة أشهر ومرادهم بذلك جعل الفسحة ليكتب المحميون منهم لحمايتهم بالكلام عليهم بعدم قبضها منهم على الكيفية الشرعية مع أن قبضها منهم على تلك الكيفية من جملة الشروط المشروطة عليهم والعهود المأخوذة عنهم ومن القربات عندهم في دينهم لا يسوغ لهم نقضها وأعلمناك لتكون على بال منه اذا وقع الكلام معك فيه ... »(٦٧)

لم يكن عدم دفع الجزية التجاوز المالي الوحيد ، بل ان اليهود تجردوا من دفع الضرائب على الابواب بحجة أنهم محميون ، وكانت الى جانب الجزية ، ذات أهمية كبيرة للخزينة المغربية ، والتجرد منها جعل المالية المغربية تتناقص عاما بعد آخر لازدياد الداخلين في الحماية . كما أن تلك الممارسات وضعت عمال المخزن في حرج لانهم كانوا غير قادرين على اجبار أولئك المحمين على دفع الضريبة ، أو بالالتزام بقوانين البلاد . ويمكن ملاحظة ذلك من رسالة احد الجباة الى أمين الامناء : « .. وبعد فاعلم أعزك الله وبارك لنا فيك لا يخفى عليك أمر الابواب هنا من الحماية والقرب للثغور ، وغاضتنا النفس من جهة الاسلام والله عالم على قلوبنا على المسلمين من جهة الحماية والمذلة الحاصلة للاسلام ، ترى الذمي لا يساوي فلسا واحدا يدخل ويخرج ولا يؤدي في الابواب ، والمسلم يؤدي شريفا أو مشروفا ... »(٦٨) . من هنا تتضح تلك التجاوزات التي خلقت فجوة بين المحميين وغير المحميين ، كان لها الاثر الكبير في نفوس المغاربة الذين لا يحملون شهادات الحماية مما جعلهم يسعون جاهدين للحصول عليها. وهذا ما أشارت اليه الرسالة فقال مرسلها : « .. والمسلم تراه حين ينظر للذمي لا يؤدي (أي ضرائب الابواب) فيغيضه الحال ويدخل تحت الحماية ... »(٦٩) .

اضافة الى تجرد اليهود المحميين من دفع الجزية وضريبة الابواب أخذوا يرفضون دفع كراء دور المخزن وحوانيته التي كانت الحكومة المغربية تؤجرها لهم ويعود ريعها للخزينة . من ذلك أن احدهم ، ابن هليل ، قام ببناء حوانيت على أرض مخربة في الدار البيضاء وكان عليه أن يدفع نصف كراء الحوانيت للمخزن مقابل ذلك. الا أن ابن هليل ، المحمي من قبل اسبانيا تنصل من ذلك بحجة أن شروط المعاهدة

الاسبانية المغربية تقضي عدم دفع المحمي أية ضريبة . وردت الحكومة المغربية على هذا التبرير بالرفض ، بعث السلطان محمد بن عبد الرحمن الى نائبه بطنجة رسالة يأمره فيها أن يطلب من القنصل الاسباني أصدار أمر الى ممثل القنصلية الاسبانية في الدار البيضاء يجبر ابن هليل على دفع الديون المخزنية التي رفض دفعها(٧٠) . ويبدو أن مسألة التنصل من دفع اجارات المخزن لم تجد حلا لتعنت القناصل ونوابهم ، وصلفهم تجاه الحكومة المغربية لضعضعة موقفها امام رعاياها . ويوما بعد يوم غدا القناصل انفسهم يمتنعون عن اداء كراء العقارات المخزنية ، ويتضح ذلك من النص التالي « . .وبعد فان أمين المستفاد . . بثغر آسفي لما وجد بشريف حضرتنا احتساب مدة خدمته . . فتخلف بذمة اليهودي ابن زكر المر كاني عشرة آلاف ريال وثلاثمائة ريال وواحد وعشرون ريالا وخمسة عشر بليونا وخمسة وعشرون سنطيما من قبل كزك هنري للمخزن ثمنا لك (لما) بيده عن مدة تسع سنين وأصدرنا أمرنا الشريف للخديم بن همة بتكليم اليهودي المذكور وغيره من المتقاعدين على كراء أماكن المخزن ثمه في أداء ما بذمتهم لامين المستفاد فأجاب بأنه كان كتب في شأن اليهودي المذكور لقنصل المركان بالصويرة واجابه بانه لم يقع سكوت عنه وانما كان يماطل والكلام يدور مع قنصل جنسهم بآسفي . . فأجاب به عن ذلك ، انه كتب بالقضية لطنجة وسيجيبه بما اجاب به باشدورهم عنها حسبما بنسخه من قوانين طيه وعليه فلنباشر الامر مع نائب المر كان هناك في ذلك ولتعرف بأن التقاعد على الكراء صدر من أناس من حمايتهم منهم اليهودي المذكور وقنصلهم كوب الذي بالدار البيضاء وغيرهم ليلزمهم اداء ما بذمتهم لما هو العدل والانصاف اذ التقاعد على الكراء بدون موجب أمر قبيح لا يوافق عليه منصف . . »(٧١) .

واستغل اليهود الامتيازات القانونية التي خولتها لهم المعاهدات مع الدول الاوربية(٧٢) ، حتى أصبحوا يعاملون ، بعد حصولهم على الحماية ، معاملة مواطني الدول التي منحتها لهم .وبلغ الامر ذروته عندما أصبحت السلطات المغربية لا تستطيع القبض على من يرتكب جريمة الا بعد استئذان قنصل الدولة الحامية . وأكدت ذلك شروط مؤتمر مدريد الذي حاول فيه المغرب الحد من الحماية القنصلية(٧٣) ، الا أن محاولته لم يكتب لها النجاح وتنامت الحماية وأخذ القناصل بعد المؤتمر في التشدد في تطبيق الشروط التي صيغت لصالحهم وتحذير الولاة المغاربة من القبض على المحميين التابعين لدولهم الا بعد اخذ الاذن منهم ، مثال ذلك الخطاب الذي ارسله قنصل الولايات المتحدة الى محمد الطريس في هذا الشأن « . . واذا اراد ولاة المغرب في المستقبل القبض على أحد مستخدم رعيتنا أو حمايتنا فيعلمون في الحال بواسطتك بمقتضى الشروط . . . »(٧٤) .

اضافة الى ذلك ، انه في حال ارتكاب أحد المحميين جريمة ما كان الدبلوماسيون الاجانب يتدخلون لرفع الحكم عنه أو تخفيفه . فعندما قام احد المحميين اليهود ، اسحاق بن عمار ، بالتسبب في قتل احد مواطنيه المغاربة غير المحميين لم تستطع السلطات المغربية القبض عليه الا بعد رفع نائب القنصل الاسباني في الدار البيضاء الحماية عنه . وعندما علم القنصل الاسباني في طنجة بالمستجدات التي طرات على قضية ابن عمار بعد رفع الحماية عنه طلب من محمد برقش تأكيدات بأن يحاكم محاكمة (نزيهة) بحضور نائب القنصل الاسباني في الدار البيضاء(٧٥) ، فأكد محمد برقش للقنصل الاسباني في طنجة بأن دفع بن عمار مبلغا من المال لاهل المقتول كفيل بتسوية القضـية .

ان هذه الامتيازات القانونية التي اعطيت لليهود المحميين جعلتهم يتمادون في غيهم ضد الولاة المغاربة وضد مواطنيهم المسلمين واليهود الذين لا يحملون شهادات الحماية . ومن ممارساتهم ضد ولاة المغرب اتهامهم بالفجور . اغتاظ السلطان من تلك الاتهامات وأنكر ترامي اليهود على الحمايات وتجريحهم عماله وولاته ، وطلب من محمد برقش وضع حد لذلك . واخبر برقش السلطان بمساعيه في هذا السبيل : « .. وذكر سيدنا ايده الله ، انه كيف يدخل الغير فيهم (أي اليهود) ويحسن لهم افعالهم حتى صار فجارهم يرمون العمال الذين هم في محل الامانة والصدق بالفجور، وليس ذلك بقانون ولا بمعروف عند أحد من قديم .. »(٧٦) واستمر برقش في توضيح مساعيه للسلطان محمد والتي تقضي بمحاولة اقناع القنصل الانجليزي ونواب الدول الاجنبية بعدم منح الحماية القنصلية لليهود لان ذلك سوف يزيدهم طيشا وتجاسرا على عمال المخزن خاصة وان القناصل ونوابهم عادة ما يقومون بمساعدة اليهود والتدخل في مصالحهم حتى ولو كانوا على غير صواب(٧٧) .

وعلى الرغم من محاولات الحكومة المغربية اخذت تجاوزات اليهود تزداد يوما بعد آخر ، تاركة اثارها السلبية على الراعي والرعية . ففي عهد السلطان الحسن بن محمد قام يهودي يدعى مير بن موسى كوهين ، من الحماية الفرنسية ، بالتهجم على محتسب مكناس وسبه وهدده بالضرب . وعندما ابلغ السلطان بذلك أصدر تعليماته الى نائبه في طنجة ليبحث في القضية مع القنصل الفرنسي : « .. وبعد فان يهوديا من يهود مكناسة الزيتون اسمه مير بن موسى كوهين تعدى طوره وجده ، واستعمل في الترامي على الناس والجسارة عليهم جهده ، وصدرت منه أفعال شنيعة ، وأمور فظيعة ، وصار يتهدد على الناس بالحديد . ويبدي في الهجوم عليهم ، ويعيد ، ومن جملة ذلك انه هجم على محتسب مكناس ودخل عليه للمحل المعد للاحكام المخزنية هو ويهودي آخر ، وتهدد عليه واغلظ له في القول وسبه وسب اصحابه بمراى ومسمع من جماعة

الناس حسبما تراه في الشهادة طيه ، فانظر هذه الافعال الصادرة من اليهود ، ومع ذلك يتظلمون ويتشكون بعدم وقوع الحق لهم ..»(٧٨) وفي حقيقة الامر ان الحكومة المغربية حاولت الضغط على قناصل الدول الذين يقدمون الحماية لليهود لكفهم عن التعدي على ولاة المخزن ، بل وتأديب كوهين على ما اقترفه لكي لا يجرؤ هو أو غيره على تكرار تلك الممارسات ، وابدت عزمها الاكيد على معاقبة من يقوم بالتعدي على الولاة بالسب أو التهديد وان الاستمرار في ذلك سوف يعرض عرى القانون المغربي الى الحل عروة بعد أخرى(٧٩). وبالفعل كانت تلك العرى تنقض واحدة بعد الاخرى حتى أصبح القانون المغربي في نظر الاجانب ومحميهم عبارة عن حبر على ورق .

اضافة الى ولاة المخزن ، شملت التجاوزات اليهودية المواطنين المسلمين فلقد قام أحد اليهود المحميين من فرنسا والمدعو مردوخ بن يسوعي . بالهجوم على امرأة مسلمة كي ينال من شرفها بالقرب من فاس ، ولما حاول زوج المرأة نجدتها أطلق اليهودي النار عليه واصابه بجروح . وعندما اخذ الجاني والمجنى عليه الى عامل المدينة ، وفي الطريق تجمهر الناس وكان بينهم أحد اليهود المدعو ابراهيم بن يعقوب العلوف ، فأشهر سلاحه ضد المسلمين وأخذ في سب الدين والحكومة فما كان من العامة الا أن هجموا على العلوف وقتلوه وأحرقوه . وكادت الامور تتطور الى مذبحة بين المسلمين واليهود لولا تدخل السلطات المغربية . ولما علم السلطان بذلك أمر بعزل حاكم فاس وطلب من العامل الجديد التحقيق في الحادث والقبض على الجناة . وبعد ايام توفي زوج المرأة متأثرا بجراحه(٨٠) .

وبرغم محاولات الحكومة المغربية استمر ممثلو الدول الاجنبية في السعي الى اثارة المشاكل للحكومة المغربية كي يتسنى لهم التدخل في شؤون المغرب تحت مظلة الحفاظ على مصالح محمييهم . ونفذ اليهود بقصد أو بغير قصد ما كان يسعى اليه ممثلو هؤلاء . فعلى سبيل المثال ، قام أحد اليهود المحميين المدعو مركوس بمزاحمة أحد المسلمين عند أحد أبواب مدينة فاس وهو راكب فرسا ولابس ملابس الاجانب(٨١) فعاتبه المسلم وتطور الامر الى شجار قتل فيه اليهودي المسلم باطلاق النار عليه من بندقية كان يحملها . وتجمع الناس حول اليهودي مستنكرين ، واخذ هذا يسب المسلمين فحدث شجار انتهم بقتل اليهودي حرقا . وهرع عامل المدينة الى مكان الحادث مع معاونيه ، وفرقوا الناس وقاموا بحماية اليهود حتى لا تتطور الامور الى اشتباك بين الطائفتين . وباشر العامل بالتحقيق في الحادث وكتب الى السلطان بما حدث(٨٢) . وتبين هذه الحادثة ، مع حادثة العلوف ، مدى التوتر الذي كان يحصل بين اليهود والمسلمين بين فترة واخرى نتيجة لتصرفات اليهود ومن ورائهم الاجانب.

شملت تجاوزات اليهود ابناء جلدتهم غير المحميين والذين عانوا بعضهم من تسلط المحميين . فلقد قام أحد اليهود المدعو زاك بن الرومية المحمي من قبل الانكليز، بالتعدي على ذمي آخر يدعم حييم بن بخاش وضربه على رأسه والحق به جروحا بليغة . وحاول عامل مراكش الوصول الى حل حول ذلك التعدي مع نائب القنصل الانكليزي في أسفي بصفته أقرب ممثل للقنصلية الانكليزية ، ولما لم يصل الى حل مرض اضطر ان يكتب للسلطان الحسن بن محمد والذي أصدر تعليماته الى محمد برقش : « .. وعليه فنأمرك أن تتكلم مع الباشدور هناك وتعرفه بأن هذا اليهودي بلغ بهالطيش والخيال وعدم المبالاة بالولاة والحكام الى أن صار يتصرف لنفسه ويتعدى بما لا يقره عليه أحد ، فلابد من زجر هذا اليهودي بما ينزجر به أمثاله ، والا اتسع الخرق ، ويتجرأ أهل الحماية أكثر من ذلك ويتمالئون على هذا الفعل القبيح الشنيع الذي لا توافق عليه ملة من الملل ، ولا يقر عليه جنس من الاجناس في وطنه وقد عيل الصبر .. »(٨٣) . من هذا المقتطف يمكن ادراك معانات المواطنين المغاربة ممن لا يحملون الحماية ، الذين اصبحوا لا حول لهم ولا قوة .

اما التجاوزات الدينية فلقد تمثلت في تطاول اليهود على الدين الاسلامي وسبه علانية في الاماكن العامة ، بل وأمام القضاة . وهذا ما حدث في أسفي عندما امتنع العدول من قبول توكيل من أحد المسلمين ليهودي ليقوم باستيفاء ديونه ، لعدم مطابقته للشرع فقام اليهودي بسب الاسلام والمسلمين مما جعل عامل اسفي يكتب للسلطان يطلب منه ايقاف تلك التجاوزات . وبالطبع أمر السلطان نائبه في طنجة بوضع حد لتلك التجاوزات . وكتب هذا بدوره الى القنصل الامريكي : « .. وبعد فقد وصلنا كتاب شريف في شكاية رفعها عامل أسفي للحضرة الشريفة بكون اليهودي المسمى اسحاق عمار المراكشي أتى لعند العدول بأسفي ومعه مسلم وبيدهما دين بقصد أن يشهد المسلم أن اليهودي المذكور نائب في ذلك الرسم فامتنع العدول من الاشهاد على الدين المذكور بالنيابة لعدم موافقة ذلك لقانون الشرع فأطلق اليهودي اسحاق عمار المذكور لسانه بسبب العدول وسب دين الاسلام والمسلمون يسمعون ذلك ... وهذا اليهودي بلغنا أن له تعلق بجنس المركان ... فنرجوكم أن تقضوا في زجره بما تقتضيه قوانينكم حتى تسكن نفوس المسلمين بأسفي الذين سمعوه يسب دينهم ... »(٨٤) .

لم تكن التجاوزات المالية والقانونية والدينية نهاية المطاف ، بل تعدت ذلك لتصل الى تجاوزات سياسية كان الهدف من ورائها محاولة بعض الجماعات اليهودية الاستقلال سياسيا عن المخزن ، أو اثارة البلبلة باشاعاتهم الكاذبة التي تحط من سمعة الحكومة المغربية داخليا وخارجيا . ووراءها طبعا بعض المحميين الذين كان هدفهم

الاول التمرد على قوانين بلادهم والتجرد من عهد أهل الذمة الذي حفظ لهم حقوقهم قرونا طويلة . من ذلك ما قام به يهود تطوان عندما طردوا العسس المعينين من قبل المخزن ونصبوا حكاما عليهم . وقد تعاملت الحكومة المغربية مع هذه المحاولة بحزم وقررت القضاء عليها في مهدها . يتضح ذلك من رسالة السلطان محمد : « ... فقد أخبرنا وصيفنا القائد محمد بن منصور المهدوي أن يهود تطوان دفعوا علي المقدم الذي كان ملازما لباب حارتهم لحراستها ، وقالوا له انا لا نحتاج اليك ولا الى غيرك ، وامتنعوا من دفع مشاهرته ، ونصبوا جماعة منهم حكاما عليهم افتياتا منهم وتحديا على جانب المخزن ، وقد أمرناه ان يقبض على الذين دفعوا علي البواب وعلى الذين نصبوهم حكاما ويضرب عليهم أكبالا ويوجههم لحضرتنا العالية بالله ، ويقول لجماعتهم انا لا نحب لهم الظلم ولا نوافق على ظلمهم ولا على من يصلهم بمكروه ، كما انا لا نسكت لهم على الافتيات وخرق القوانين والتمرد على الاحكام ، وأمرناه أن يبحث عمن يغريهم على ذلك ويزين لهم فعلهم ويزيد فيهم من اليهود ، وحين تحقق أمره يطرده من المدينة ان كان من أهل الحماية لانه انما (لا) يليق أن يسكن بها الا المسكين المشتغل بمعاشه لا الخائض في الفتنة والفساد ، وان كان ليس من أهل الحماية فيقبضه ... »(٨٥)

تعددت محاولات المحميين اليهود لزعزعة أمن المغرب واستقراره ، واظهار الحكومة المغربية بمظهر العاجز عن حمايتهم ، لتتلقفهم أيدي العطف الاجنبية وتمنحهم الحماية . من ذلك على سبيل المثال ادعاء يهود مراكش بأن ثلاثة يهود فقدوا بمدينتهم وعندما قامت السلطات المغربية بتحري الحقيقة وجدت ان الادعاء ليس له أساس من الصحة . وبعد ذلك قام يهود مراكش بادعاء اخر مفاده أن أحد المخزنية قد قتل في مدينتهم ، وانعامل مراكش أمر العسس بقتله . وكان ذلك افتراء من اليهود لسوء تفاهم بينهم وبين عامل المدينة اذ اتضح فيما بعد ان المخزني لم يصب بأذى، واعترف بأنه اخذ مالا من اليهود ليغادر المدينة ويختفي ، ليكون عامل المدينة مسؤولا عن قتله(٨٦) .

موقف الحكومة المغربية من اليهود الذميين :

لقد كان للحكومة المغربية موقفها الحازم من اليهود الذين دخلوا تحت الحماية وحاولت الحد من تجاوزاتهم التي خلفت اثارا سيئة على البلاد . أما الذين بقوا على عهد أهل الذمة فلقد حاولت الحكومة المغربية احتوائهم كي لا ينزلقوا في مكامن الحماية. وظهر ذلك في ظهائر السلاطين العلويين وفي توجيهاتهم لعمالهم من وقت لآخر ، بالاهتمام بحماية اليهود وتوفير الامن لهم ، ومعاقبة من تهاون في ذلك ، ومنها ظهير السلطان محمد بن عبد الرحمن الذي اكد على معاملة اليهود المعاملة الحسنة(٨٧) .

واهتم السلاطين بحماية اليهود وممتلكاتهم اهتماما مباشرا فعندما شب حريق

في ملاح اليهود في مدينة مراكش كتب السلطان الى ابنه الحسن يشكره على ما قام به المسؤولون من حماية اليهود ويأمره بتعميد المتسبب باصلاح ما أتلف من حوانيت ، بقوله . . «وبعد فقد وصلنا كتابك مخبرا بالحريق الواقع بالملاح ببعض حوانيت الفندق، وذكرت ان وصيفنا القائد ابراهيم الجراوي وقف في ذلك على ساق الحزم ، واغلق باب الملاح ، ومنع المسلمين من الدخول لـه حتى لا يجد أحـد منهم ما يقول ، ولم يتوصلوا لاغراضهم الفاسدة ووصل الرسم المتضمن لذلك أصلحك الله ورضي عنك، وقد احسن وصيفنا القائد ابراهيم فيما فعله في ذلك ، وهو الواجب ، أصلحه الله ، وبوصول كتابنا هذا اليك مر ناظر الفندق المذكور الطالب عمر اود باصلاح الحوانيت التي احرقت منه . .»(٨٨) .

حاولت الشائعات اليهودية اظهار الحكومة المغربية بانها غير قادرة على حماية اليهود والحفاظ على حقوقهم . ولكن التعليمات لعمال المخزن التي تحث على اعطاء اليهود حقوقهم كاملة غير منقوصة(٨٩) تدحض ذلك . ففي احدى الرسائل الحسنية يأمر السلطان أحد عماله بالاهتمام بايفاء احد اليهود دينه من بعض المدينيين الذيـن ماطلوه . الا أن العامل لم يتخذ اجراءات صارمة ، مما جعل السلطان يرسل تعليماته لتحصيل الدين او ارسال المدينين الى مقر السلطان ليبت في أمرهم . « . . وبعد فقد اشتكى على حضرتنا العالية بالله اليهودي يعقوب الليبي أنك ما زلت لم تنصفه ممـن تقاعد له من ايلتك على ما بذمتهم من الدين ، مع أن أمرنا الشريف كان صدر لك أولا وثانيا على يد أخينا مولاي اسماعيل بفصاله معهم ، فاذا به لم يظهر منك أثر ، وعليه فنأمرك أن تنصفه منهم بتمكينه مما له عليهم من الدين عـن آخره أو توجهه لحضرتنا العالية بالله (مع) جميع غرمائه . .» (٩٠) . .

اضافة الى التعليمات السلطانية للعمال ، وجدت اجراءات أخرى لتأكد احترام العهد الذي كان السلطان ملتزما به في المقام الاول . فالسلطان هو المسؤول أمام الله عن اي تقصير تجاه الرعية ، بصفته الراعي الاول لشؤون مواطنيه ، استنادا الى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « . . كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الامام راع ومسؤول عن رعيته . .» (الحديث) (٩١) . فاذا مست حقوق اليهود ، نتيجـة اهمال أو تقصير من العمال ، اتخذت اجراءات ، منها ، على سبيل المثال ، رسالـة السلطان الحسن الى احد عماله : « . . وبعد فقد اشتكى على حضرتنا ابراهيم احنـا المكناسي ان حقوقهم ضاعت وتجارتهم تعطلت بأعراضك عن فصال دعاويهـم التي يرفعونها لك ، وعدم التفاتك اليها ، وقد استغربنا صدور هذا منك واستبعدناه ، لكونه من شأن من لا ينظر في عواقب الامور ، ولا يعرف أن ثمرة الولاة وفائدتهم هـي ايصال ذوي الحقوق بحقوقهم وأن المسلم والذمي في الحق سواء وعليه فنأمرك ان تكون على بال من دعاويهم . .»(٩٢) .

بلغ اهتمام السلاطين بحقوق اليهود الى حد عزل الولاة المتهاونين . فعندما فشل عامل فاس في حفظ الامن بحيث تعرض بعض اليهود للاعتداء وحرق أحدهم ، أمر السلطان بعزله : « . . ولما بلغنا ذلك عزلنا في الحين حاكم فاس الجديد لما توسمنا فيه من البرودة وعدم النجدة وولينا في محلة خالنا القائد العربي ولد اب محمد الشركي وامرناه بالبحث عمن فعلوا ذلك باليهود ، والقبض عليهم ، وقد قبض على اهل السوق المذكور ، ومازال جادا في البحث عن الفعال . . »(٩٣) .

لم تقتصر اهتمامات السلاطين على حقوق اليهود الذميين ، بل عاملوا بعضهم معاملة خاصة واعطوهم امتيازات يفتقدها كثيرون من مواطنيهم ، وبعض السلاطين اوكل اليهم مهاما تتعلق بأمورهم الشخصية . من تلك الامتيازات ما انعم به السلطان الحسن على أحد التجار الذميين « . . يعلم من كتابنا هذا اننا بقوة الله وحوله ، ومنته وطوله ، أسدلنا جلباب الامن والامان ، والسكينة والاطمئنان، على ذمينا العاقل التاجر شلوم عمار المكناسي ، وبوأناه مهاد الوقار ، والعناية والاعتبار ، فلا يضام ولا يهان ، ولا تمد له يد بحيف ولا بعدوان ، نائما في ظلال الامان ، مراعاة لاشتغاله بين أمثاله بما يلحق من امور تجارته وماله ، فنأمر الواقف عليه من العمال أو ممن ولي شيئا من الاعمال ، أن يعمل بمقتضاه . . (٩٤) ذلك الظهير كان دعما معنويا لذلك التاجر الذمي ولغيره من التجار اليهود الذين كانوا يسيطرون تقريبا على معظم التجارة الداخلية والخارجية المغربية ، ولبعضهم علاقات تجارية مع الكثير من افراد الحكومة المغربية .

أما السلطان الحسن بن محمد فقد اوكل أمور قصره التموينية في مكناس لاحد اليهود ، الذي كان مكلفا باحضار الفواكه والخضار وأنواع اللحوم يوميا . وبلغ أمر السلطان الى عامل مكناس ومحتسبها وامنائها ليكونوا على علم بذلك ، لان اليهودي كان يزود بالمال من أولئك العمال.(٩٥) . وهذا يؤكد الثقة المتبادلة بين السلطان ورعاياه اليهود الملتزمين بعهد أهل الذمة ، الذين يكنون الاحترام لسلاطينهم ولقانون بلادهم، وينتقدون اليهود المحميين الذين احدثوا بتجاوزاتهم المتعددة أضرارا كبيرة تركت أثارا واضحة على أمن واستقرار بلدهم . وعندما تفشت الحماية الاجنبية وشملت الكثير من اليهود الذين تطاولوا على المسلمين كان هناك ردة فعل من السلطات المغربية التي حاولت أن تتعرف على موقف اليهود الذين لم يدخلوا في الحماية . فلقد قام عامل فاس عبد الكريم ولد اب بجمع اساقفة اليهود واعيانهم في مدينته والذين عددهم سبعة عشر ، وناقشهم في تجاوزات اليهود المحميين ، فاستنكروها سواء كانت ضد المسلمين او اليهود ، وطالبوا بوقف التعديات وجددوا ولائهم لحكومتهم واكدوا احترامهم لعهد الذمة الذين نظم العلاقة بين اليهود وبين المسلمين خلال قرون عديدة (٩٦) .

الحواشــــي :

(١) عبد الرحمن بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج٦ ، بيروت ، دار الفكر ١٩٨١ ، ص ١٤٠ . أيضا انظر : محمــد الحبيب بن الخوجة ، يهود المغــرب العربي ، القاهرة ، معهــد البحوث والدراسات العربية١٩٨٣ ، ص١١-١٢

(٢) Michael Menchem Laskier,The Jewish Communities of Morocco and the alliance Israelite Universelle 1860 - 1956, Ph.D. Thesis, University of California 1979. pp. 3 - 5 .

(٣) من تسمية اقسام المغرب انظر : عبد العزيز سـالم ، المغرب الكبير (العصر الاســلامي) دراسة عمرانيــة وتاريخية وأثرية ، ج٢ ، بيروت ، دار النهضة ١٩٨١، ص ١٢٥-١٢٧.

(٤) عن الاختلاف فيمن يطلق عليهم أهل الكتاب انظر : عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام ، ط٢ ، مؤسســة الرسالة ١٣٩٦هـ ، ص ١١ .

(٥) د. علي حسن الخربوطلي ، الاسلام وأهل الذمة ، القاهرة ١٣٨٩ ، ص ٩٦ .

(٦) البقرة ، آيــة ٢٥٦ .

(٧) من أجل الواجبات التي ضمنت لاهل الذمة، انظر : أبي الحسن علي بن محمد الماوردي ، الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط٣، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٤٥ .

(٨) عبد الرحمن بن خلدون ، ج٤ ، ص ١٧ .

(٩) محمد الحبيب بن الخوجة ، ص ٢٢-٢٥.

(١٠) أحمد بن قاسم الحجري الاندلسي ، ناصــر الدين على القوم الكافرين (مختصر رحلــة الشهاب الى لقاء الاحباب) تحقيق الدكتور محمــد رزوق ، الدار البيضــاء ، كليــة الاداب ، ١٩٨٧ ، ص ١٧-١٨ .

(١١) محمد الحبيب الخوجة ، ص ٣٣-٣٥ صلاح العقاد : « اليهود في المغرب العربي » مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد ٣ (١٩٧٢) ص ٣٨ . ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، ج٢ الدار البيضاء،دارالرشاد،١٩٨٤ص١٩٠-١٩٢

(١٢) نفس المصدر السابق . ج٣ ص٤٨٢-٤٨٣.

(١٣) Margaret Landenberger, United States Diplomatic Efforts on Bihalf of Maroccam Jews 1880 - 1906 , N. Y. : St. John's University, 1980 , p 3.

هناك تقديرات من المؤرخ الفرنسي ميــج في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، بتقدير عددهم بـ ٣٠٠ ألف فقط وهذه في اعتقادي نسبة ضئيلة . انظر :

Joan - Louis Miege, LE Maroc Et L'Europe (1830 - 1894) Tom 111 Paris, Presses Universitaries De France 1962, p. 24-26 .

(١٤) شمعون ليفي وآخرون ، التاريــخ الحديث والمعاصر ليهــود المغــرب ، الربــاط ، دار الستوكي ، د.ت ، ص ٢٨-٢٩ .

(١٥) نفس المصدر السابق ونفس الصفحات .

(١٦) محمد داود ، تاريخ تطوان ، ج٣ ، تطوان ، المطبعة المهدية ، د.ت ، ص ٢٣٧-٢٣٩ .

(١٧) محمد الضعيف الرباطي ، تاريـخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) ، الرباط ، دار المأثورات ١٩٨٦ ص ٣٤٤ .

(١٨) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا في أخبار المغرب الاقصى ، ج٨ ، الــدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٥٦ ص ١٤٣ . ذكر الناصري ان جيش الوادايا أعلن العصيان في رمضــان سنة ١٢٣٥ وهي توافق سنة ١٨٢٠ ، حيث ان سنة ١٢٣٦ تبدا في ٩ أكتوبر .

(١٩) المصدر السابق ص ١٤٣ - ١٤٤ . ذلك العمل الذي قام به الودايــا استنكره الكثير من المسلمين ونظــم بعضهم قصائــد يستنكرون فيها عظم المعصية التــي ارتكبت

ضد أهل الذمة ، وقال أحدهم ويدعى عبد محمد الفاسي في قصيدة طويلة ومنها هذه الابيات :

نهبوا حارة اليهود وهدوا
دورهم وعرى النساء سباء
لو تراهم بين الرعايا
يحتذيهم رجالهم والنساء
خفروا ذمة النبي قدموا
كمماء فلا سقاهم عماء
يا امام الهدى عليك يقوم
ملأ الغرب بغيهم والبغماء

(٢٠) المصدر السابق ص ١٥٠-١٥٤ ،ص ١٥٩ .

(٢١) عبد الرحمن بن زيدان ، اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، ج٥ ،الرباط، المطبعة الملكية ١٩٣٣ ص ٤١-٤٢ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

(٢٣) المصدر السابق ص ٢٣٣-٢٣٤ .
محمد حبيب بن الخوجة ص ٥٨ .

(٢٤) ب.ج روجر. تاريخ العلاقات الانجليزية حتى عام ١٩٠٠ ، ترجمة يونان لبيب رزق ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ١٩٨١ ص ١٨٤ .

(٢٥) جلال يحيي ، المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، ج٣ ، بيروت دار النهضة العربية ١٩٨١ ص ٣٤٣ ــ ٣٥١، ٣٥٥ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٣٤٦ ــ ٣٤٧ .

(٢٧) شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا ، تونس، الجزائر، المغرب) القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٧ ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥ .

(٢٨) صلاح العقاد ، المغرب العربي ، دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة (الجزائر تونس ، المغرب الاقصى) القاهرة (د.ت) ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

(٢٩) لمزيد من المعلومات عن المعاهدة انظر : ابراهيم حركات ، ج٣ ص ٢٠٤ ــ ٢٠٩ .

(٣١) عن المعاهدة الاسبانية المغربية لعام ١٨٦٠ انظر : محمد داود ، مج ٤ ص ٢٨١-٢٩٢ .

(٣٢) انظر : التقرير المرسل من القنصل الامريكي جورج براون George Brown الى حكومته ٢٧ نوفمبر ١٨٥٢ (١٤ صفر ١٢٩٦)، الرسائل المرسلة من القناصل الامريكيين في طنجة ، فيلم رقم ٤٧ مجموعة ٥٩، الارشيف القومي ، واشنطن .

(٣٣) رسالة من القنصل الامريكي فليكس ماثيوز Felix Mathews الى وزير الخارجية الامريكي فريدرك فرلنفيسين Frederick Ferlinfissin ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ (١٤ شعبان ١٣٠٠) فيلم رقم ١٢ ، المرجع السابق .

(٣٤) المصدر السابق .

(٣٥) مصطفى بوشعراء ، الاستيطان والحماية بالمغرب ، ١٢٨٠ ــ ١٣١٩ (١٨٦٣ ــ ١٨٩٤) ج١ ، الرباط ، المطبعة الملكية ١٩٨٤ ، ص ١٨٤ .

(٣٦) ب.ج. روجرز ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

(٣٧) لمزيد من المعلومات انظر : عبد الوهاب بن منصور ص ١٠٤ ــ ١٠٧ .

(٣٨) رسالة من جورج براون George Brown الى وبستر Webster يوليو ٩ ــ ١٨٥٢ (٢٠ رمضان ١٢٦٨) الرسائل المرسلة من القناصل الامريكيين في طنجة ، فيلم رقم ٧ ، مجموعة ٥٩ ، الارشيف القومي ، واشنطن.
لقد أورد القنصل الامريكي ذلك بقوله :
« With the exception of the British Vice - Consuls in Morocco, of other nations. are Berbery Jews ».
وفي واقع الامر ان بريطانيا كانت تقوم بتوظيف اليهود كقناصل لها في المغرب ، ويبدو ان احتجاج المغرب على بريطانيا على ذلك والمؤرخ في ٨ صفر ١٢٣٥ (١٤ مايو ١٨٣٧) جعل الحكومة المغربية تتفهم وجهة النظر المغربية خاصة عندما ذكر السلطان بقوله « ... ان شغل اليهود لهذه الوظائف يدفعهم الى الغطرسة على المسلمين وتعدي الحدود ...»

هذا التفهم البريطاني لم يدم طويلا فانساقت بريطانيا مع الدول الاوربية الاخرى خاصة بعد اتفاقية ١٨٥٦ للتعليق الاخير انظر : ب.ج روجرز ص ١٩٦ .

(٣٩) لمزيد من المعلومات انظر عبد الوهاب بن منصور ، الحماية القنصلية من نشأتها الى مؤتمر مدريد ١٨٨٠ ، ط ٢ ، الرباط ، المطبعة الملكية، ١٩٨٥، ص٤٨ وكلمة مخالطين تعني المشاركة بالمال مع بعض المغاربة الذين أصبحوا بمشاركتهم مع نواب القناصل أو الاجانب ، يتمتعون بالحماية ، والتي عادة ما تعطى لهم من قبل شركائهم .

(٤٠) لا زال بعض الكتاب المعاصرين يحاولون تهويل حالة اليهود في المغرب قبل التدخل الاجنبي وفي نفس الوقت ينسون أو يتناسون ما قدمه المغرب لليهود بعد طردهم من اسبانيا للتعرف علي بعض آراء بعض أولئك الكتاب . انظر:
Margaret Landenberger, p. 12.

(٤١) T. A. Al-Harithi, Moroccan Policy Towards the United Stetes : A Study in Moroccan Society under the Impact of Western Penetration 1830 - 1912. Ph. thesis, Exeter University, 1987, pp, 110-111.

(٤٢) عبد الوهاب بن منصور ، ص ٣٠ .

(٤٣) رسالة من موسى برينت الى ممثلي الدول الاجنبية في طنجة ٢٧ اكتوبر ١٨٦٣ (١٤ جمادى الاول ١٢٨٠) ، وثائق العلاقات الخارجية الامريكية ١٨٦٣ ، ص ٤١٥-٤١٦.
تلك الرسالة استخدمت في بحثي المقدم لنيل الدكتوراه كشاهد على العلاقات بين يهود المغرب ويهود الولايات المتحدة ، بينما هنا يتضح ان الرسالة ارسلت ايضا الى المنظمات اليهودية في اوربا وهذا ما اشار اليه القنصل الامريكي عندما قال :
«.. Equal representation has been made to all the representatives for foreign nations in this country..».
أنظر ص ٤١٦ في نفس الهامش ، أيضا لمزيد من المعلومات انظر :
T. A Al-Harithi, p. 110.

(٤٤) ب.ج روجرز ، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٤٥) محمد بن داود ، ص٦٢.

(٤٦) احمد بن خالد الناصري ، ج٦ ، ص ١١٣، صدر الظهير بتاريخ ٢٦ شعبان ١٢٨٠ هـ (٥ فبراير ١٨٦٤م) .
أيضا ورد نص المرسوم في **الوثائق** ، ج٣، الرباط ، المطبعة الملكية ، ١٩٧٠ ، ص٢٩١.
تتكون الوثائق من ستة مجلدات (مجموعات) قام باختيارها الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة المغربية من الاف الوثائق الموجودة في مديرية الوثائق الملكية في الرباط ونشر بعضها في اواخر السبعينات والبعض الاخر خلال الثمانينات .

(٤٧) ظهير السلطان محمد بن عبد الرحمن الى عماله في جميع انحاء المغرب ٢ رمضان ١٢٨٠، **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٢٩٤ . لقد ورد نص الظهير في الاستقصاء ولكن هناك تحريف في بعض الالفاظ ، انظر ابو العباس احمد بن خالد الناصري ، ج٩ ، ص ١١٤ .

(٤٨) رسالة من محمد بن عبد الرحمن الى محمد برقش ١٥ صفر ١٢٨٢ (١٠ يوليو ١٨٦٥) **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٣٢٦ .

(٤٩) رسالة من نائب القنصل البريطاني في الدار البيضاء الى السيد الكبير بن المدني ٢٣ صفر ١٢٨٣ (٧ يوليو ١٨٦٦) **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٥٠) ب.ج. روجرز ، ص ٢٣٧ .

(٥١) رسالة من الجمعية الاسرائيلية الامريكية تحت توقيع M. J. Isaac الى فليكس ماليوز Felix Mathews ٣٠ ديسمبر ١٨٧٧ (٢٤ ذي الحجة ١٢٩٤) الرسائل المرسلة من القناصل الامريكيين في طنجة . فيلم ١١ مجموعة ٥٩ ، الارشيف القومي ، واشنطن .

(٥٢) عبد الرحمن بن زيدان ، ج٢ ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .
أيضا انظر : **الوثائق** ، **ج٥** ، ص ١٨—٢٤ .

(٥٣) معظم المعاهدات التي عقدت بين المغرب والدول المغربية ضمنت حقوق رعايا تلك الدول من دبلوماسيين وغيرهم ولكن المعاهدة البريطانية — المغربية سنة ١٨٥٦ أعطت للعاملين المغاربة ومن يعيشون معهم تحت سقف واحد بعض الاعفاءات الضريبية والقانونية كعدم دفع الجزية مثلا . لمزيد من المعلومات انظر الشرط الثالث من المعاهدة المذكورة . الوثائق ج٢ ص ١٥٨—١٥٩ .

(٥٤) لقد توصلت الحكومة الاسبانية في المعاهدة مع المغرب في نوفمبر ١٨٦١ الى موافقة الحكومة المغربية بان يعامل رعايا الاسبان معاملة الاجناس الاخرين في جميع المعاهدات التي عقدت بين المغرب والدول الاجنبية الاخرى ، وبالطبع حصل الاسبان على ما حصل عليه الانكليز في معاهدة ١٨٥٦ .
انظر : عبد الرحمن بن زيدان . ج٣ ، ص ٤٩٦ .

(٥٥) جلال يحيى ، ج٣ ، ص ٤١٦ .

(٥٦) انظر :
T.A. Al-Harithi, pp. 108-112, 164 - 168.
ايضا انظر :
Margaret Landerberger, p. 245.

(٥٧) Leland Lowis Bowie, The Portage System in Morocco 1880 - 1904 , Ph. D. thesis, Michigan, The University of Michigan , 1970, pp. 10-11 .

(٥٨) T. A. Al-Harithi, p. 185
أيضا انظر : الوثيقة التي تثبت تمادي القنصل الامريكي وابنه الذي اخذ يعطي الحمايات للمغاربة بدون قانون ، نص الوثيقة مثبت في المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٦٠ .

(٥٩) رسالة من الطيب ابن هيمة الى محمدبرقش ١٣ صفر ١٢٩٦ (٦ فبراير ١٨٧٩م)**الوثائق**، ج٤ . ص ٤٤٢—٤٤٣ .

(٦٠) رسالة من الحسن بن محمد الى محمد برقش ٧جمادي الاولى ١٢٩٦ (٢٩ ابريل ١٨٧٩) المصدر السابق ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

(٦١) السماسرة تعني الوسطاء ، أما المخالطون فهم الشركاء الذين كانوا على علاقة مع القناصل الاجانب او نوابهم أو مع التجار الاجانب ، وعادة ما تكون المخالطة في التجارة او الزراعة او الرعي .

(٦٢) في الواقع أن الحماية منحت لليهود والمسلمين على السواء ونجد بعض المسلمين الى جانب اليهود انساقوا وراء تلك الحمايات في سبيل تحقيق مصالح شخصية على حساب مصلحة بلادهم .

(٦٣) عبد الوهاب بن منصور ، ص ٥٢.

(٦٤) لمزيد من المعلومات حول موقف الحكومة المغربية من الحماية الغير قانونية انظر عبد الوهاب بن منصور ، ص ٦٠ وما بعدها .

(٦٥) لمعرفة المزيد من تلك الامتيازات انظر المعاهدات التي عقدت بين المغرب وكل من بريطانيا عام ١٨٥٦ واسبانيا في ١٨٦١ ، بخصوص المعاهدة الاولى انظر **الوثائق** ج٢، ص١٥٧—١٧٤، أما بخصوص المعاهدة الثانية انظر عبد الرحمن بن زيدان ، ج٣ ، ص٤٩٠— ٥١٧ .

(٦٦) انظر على سبيل المثال الشرط الثالث من المعاهدة المغربية الانكليزية ١٨٥٦ ، حيث ذكر ان العاملين في القنصلية البريطانية لايكلفون بجزية ولا غرامة ، وهذا يعني ان معظم العاملين كانوا من اليهود ، ولو كان بينهم مسلمون لذكر لفظ الزكاة مع الجزية ،انظر عبد الرحمن بن زيدان ، ج٥ ، ص١٩٣ .

(٦٧) رسالة من الحسن بن محمد (الطابع غير واضح) الى محمد بن العربي الطريس ٢٨ جمادى الاولى ١٣٠٢ (١٥ مارس ١٨٨٥)،

رسائل خاصة بالعلاقة المغربية الامريكية ، محفظة ٢ ٥، رقم الوثيقة ٦٢ ، خزانة تطوان ، تطوان .

(٦٨) رسالة من محمد بن يحي الى أمين الامناء محمد بن المدني بنيس ٢٥ جمادى الاخر ١٢٨٠ (٧ ديسمبر ١٨٦٣) **الوثائق** ، ج٤، ص ٣٠٣ .

(٦٩) المصدر السابق والصفحة .

(٧٠) رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمن الى محمد برقش ٢٦ ربيع الثاني ١٢٨٠ (١٠ أكتوبر ١٨٦٣) **الوثائق** ، ج٤ ، ص٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٧١) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى محمد الطريس ١٧ محرم ١٣١٩ (٦ مايو ١٩٠) وثائق خاصة بالعلاقات المغربية المغربية الامريكية ، المحفظة ٩ مديرية الوثائق الملكية ، الرباط .

(٧٢) انظر الشرط الحادي عشر من المعاهدة بين المغرب واسبانيا عام ١٨٦١ حيث اشير الى ذلك من المقتطف التالي « .. ان كل دعوة كبيرة أو خصومة أو أسباب الشكايات التي تصدر بين رعية الصينول أو رعية الاجناس لا يدخل ولا يبحث في دعواهم قواد ولا قضاة ولا غيرهم .. » وبالطبع أصبح المحميون المغاربة من رعايا الاسبان واستفادوا من تلك الامتيازات. انظر عبد الرحمن بن زيدان ، ج٣، ص٤٩٦.

(٧٣) لقد ذكر في الشرط التاسع ما نصه « .. لكن فولاة المسلمين لا يقبضون متعلما أو خادما لاحد في خدمة اللكسيون أو القنصلات (القنصليات) أو رعية الاجناس ، أو محمي دون أعلام لحاكم جنسه .. » . انظر عبد الوهاب بن منصور ، ص ١٩٧ .

(٧٤) رسالة من وليم ريدلويس William Read Lowis الى محمد الطريس ٢٠ مايو ١٨٨٩ (٢٠ رمضان ١٣٠٦) رسائل خاصة بالعلاقات المغربية الامريكية ، المحفظة الخاصة ، مديرية الوثائق الملكية ، الرباط .

(٧٥) تلك الحادثة وردت في رسالة من ج.دريموند هي J. Drummond Hay الى مركيز ساليزبوري Marquis Salisbury ٣١ اكتوبر ١٨٧٩ (١٥ ذي القعدة ١٢٩٦) **الوثائق** ، ج٥ ، ص ٣٧٣-٣٧٤ .

(٧٦) رسالة من محمد برقش الى السلطان محمد بن عبد الرحمن ٢٣ محرم ١٢٨١ (٢٨ يونيو ١٨٦٤) **الوثائق** ، ج٤ . ص٣١١ — ٣١٢ .

أيضا انظر : محمد بن داود ، ج٦ ،ص٦٥.

(٧٧) المصدر والصفحات نفسها .

(٧٨) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى محمد برقش ٢٦ جمادى الثانية ١٢٩٧ (٥ يونيو ١٨٨٠) **الوثائق** ، ج٤، ص ٥٠٥-٥٠٦. عبد الرحمن بن زيدان ، ج٢ ص ٣٦٨-٣٦٩.

(٧٩) انظر المصدرين السابقين والصفحات نفسها.

(٨٠) تفاصيل تلك الحادثة في الرسالة التي أرسلها السلطان الحسن بن محمد الى محمد برقش ١٣ صفر ١٢٩٧ (٢٦ يناير ١٨٨٠) **الوثائق**، ج٤ ، ص ٥٠٢ — ٥٠٣ .

(٨١) أشير في بداية البحث ان هناك أمورا مستحبة تلزم أهل الذمة ومنها أن يكون لديهم زيهم الخاص وأن لا يركبوا الخيل النجاب .انظر هامش رقم ٧.

(٨٢) رسالة من عبد الجليل بن شقرون الىمحمد الطريس ٣٠ صفر ١٣١٨ (٢٨ يونيو ١٩٠٠) رسائل خاصة بالعلاقات المغربية الامريكية، المحفظة ٨ ، الوثائق الملكية ، الرباط .

ايضا انظر :

T.A. Al-Harithi, Vol. p. 346 .

الرسالة ارسلت الى محمد الطريس .

(٨٣) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى محمد برقش ٢٩ شوال ١٢٩٧ (٤ اكتوبر ١٨٨٠) الوثائق ، ج٤ ، ص ٥١٢ — ٥١٣.

(٨٤) رسالة من نائب السلطان في طنجة (محمد الطريس) الى وليم لويس (William Lowis) ٢٢ محرم١٣٠٦هـ (٢٩ سبتمبر ١٨٨٨) رسائل خاصة بالعلاقات

المغربية الامريكية المحفظـــة الخامسة ، الوثائق الملكية ، الرباط .

(٨٥) رسالة من محمد بن عبد الرحمن الى محمد برقش ٢٦ شوال ١٢٨١ (٢٤ مارس ١٨٦٥) **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٢٢١ .

(٨٦) رسالة من موظف مغربي مجهول الى جون باركلي June Barcaly ٨ ذي القعـدة ١٣١١ (١٣ مايو ١٨٩٤) رسائل خاصـــة بالعلاقات المغربية الامريكية ، المحفظة ٧ ، الوثائق الملكية ، الرباط .

(٨٧) اصدر السلطان محمد ذلك المرسوم فيمحاولة لارضاء أفراد البعثة البريطانية التي كانت تضم بعض اليهود الا أن السلطان لم يضف جديدا على ما أكده لهم عهد أهـل الذمة ، حيث ورد ذلك في الظهير وهـــذا يعني أن السلطان نجح في تحقيق هدفين من أصداره. مقتطفات من ذلك الظهير ، في الصفحـات السابقة .

(٨٨) رسالة من السلطان محمد الى ابنه الحسن ٢٨ ربيع الاول ١٢٨١ (٣١ أغسطس ١٨٦٤) مقتبسة من عبد الرحمن بن زيدان ـ العز والصولة في معالم نظم الدولة ج٢ ، الرباط، مط الحكومية الملكية ١٣٨٢ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٨٩) هذا لا يعني ان اليهود الذميين لم يصابـوا بأذى ، فهم كغيرهم من سكان المغرب المسلمين تعرضوا في بعض الفترات لبعض المضايقات سواء على المستوى الفردي أو الجماعيخاصة عند وفاة السلطان أو انتفاض بعض القبائل.

(٩٠) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى عبد الله بن أحمد ١٣ شوال ١٢٩٦ (٣٠ سبتمبر ١٨٧٩) عن عبد الرحمن بنزيدان، ج٢ ، ص ١٣٦ .

(٩١) أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، رياض الصالحين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩١ ، ص ٣٠٩ .

(٩٢) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى حم بن الجيلاني ٢٩ صفر ١٣٠٢ هـ (٢٩ نوفمبر ١٨٨٤) عن عبد الرحمن بن زيدان ج٢ ، ص ١٣٨ .

(٩٣) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى محمد برقش ١٣ صفر ١٢٩٧ (٢٦ يناير ١٨٨٠) **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٥٠٣-٥٠٤.

(٩٤) ظهير من الحسن بن محمد الى من يهمهالامر بتاريخ ١ رمضان ١٣٠٢ (١٤يونيو ١٨٨٥) عن عبد الرحمن بن زيدان ، معالم نظم الدولة ، ص ١٣٨ .

(٩٥) ظهير من الحسن بن محمد الى عماله بفاس بتاريخ ١٥ شوال ١٣٠٨ (٤ يونيـو ١٨٩٠) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٩٦) محضر عقد بين عامل فاس وبعض أعيانهـا المسلمين من جانب ، وأساقفة اليهـــود وأعيانهم ، بتاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٣١٨ (٧ أغسطس ١٩٠٠) رسائل تتعلق بالعلاقـات المغربية الامريكيـة ، المحفظة ٩ ، الوثائـق الملكية ، الرباط .

* * *

صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام
اللجنة الوطنية العليا في دمشق
(ايلول ١٩١٩ ــ تموز ١٩٢٠)

د. سهيلة الريماوي
الجامعة الاردنية

اللجنة الوطنية العليا شكل متميز من أشكال التنظيم السياسي ، ظهر في ايلول ١٩١٩ وانتهى في تموز ١٩٢٠ . وهو شكل جدير بوقفة قصيرة ، لانه لم يكن في الواقع حزبا جديدا على شاكلة الاحزاب التي كانت قائمة في بلاد الشام في تلك الفترة ، أو جبهة من نوع الجبهات التي تكونت قبل الحرب العالمية الاولى وفي أثنائها . لقد كانت اللجنة الوطنية العليا ، من حيث ظهورها وتكوينها وأهدافها واساليبها ، صيغة جديدة من صيغ التنظيمات السياسية ، يمكن أن تقارن ــ دون تعسف ــ بصيغة الاتحاد القومي من أكثر من زاوية ، كما يتبين من نظامها ، ومن نشاطها وفعالياتها ، ومن تكوينها الطبقي بقيادتها وقواعدها .

نشاة اللجنة وظروف تأسيسها :

ثمة روايات عدة تروي قصة تأسيس هذه اللجنة ، استقينا بعضها من مذكرات بعض المؤسسين والبعض الاخر من أدبيات هذه الفترة ، أو من خلال صحفها .

يقول محب الدين الخطيب الكاتب العام لهذه اللجنة في التأسيس ما يلي :لما ذهب الامير فيصل الى أوربا ليطالب بحقوق الاستقلال العربي والسوري في ١٩١٩ في مؤتمر الصلح في باريس ، كان لا يزال مخلصا للاستقلال الذي ثار مع والده ثم حارب مع الحلفاء للحصول عليه ، فالتفت الى الشيخ كامل القصاب ــ وكان من مودعيه ــ قائلا له : اني انتظرت منك ومن اخوانك الوطنيين ، أن تقوموا بحركة شعبية واسعة لتحويل الامة الى امة مسلحة ، والى أن يتحول الوطن كله الى ثكنة عسكرية . . وكان ان قام الشيخ كامل القصاب ومحب الدين الخطيب فعلا بتأسيس اللجنة الوطنية العليا ، واللجان الوطنية الفرعية التي تحولت بها دمشق وسائر المدن السورية الى ثكنات عسكرية والامة الى امة مسلحة(١) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ــ حزيران ١٩٩٣ .

ويروي محمد عزت دروزة : أن اللجنة الوطنية العليا ، قد تأسست رسميا أثر أزمة استبدال الجيوش الانكليزية بالجيوش الفرنسية في شهر تشرين ثاني نوفمبر ١٩١٩ (الاتفاق الثنائي بين فرنسا وبريطانيا) حيث قررت الحكومة اعداد ما يمكن اعداده من وسائل الدفاع فكان من ذلك أن قررت التجنيد الاجباري ، وأن أنشأت اللجنة الوطنية العليا : حيث أخذ وجهاء الاحياء الدمشقية وشبابها يتجمعون بتوجيه رجال العهد (الفيصلي) للاستعداد للدفاع ، وأمكن تأليف لجنة عامة مؤلفة من مندوبي الاحياء ، ثم اشتركت الهيئات والاحزاب في هذه اللجنة ، ولم تلبث أن أصبحت مظهرا شعبيا على شيء من الخطورة بالنسبة للحركة الوطنية والدفاعية(٢) .

وعلى اختلاف رواية الخطيب التي تعزو فكرة انشاء هذه الحركة الشعبية الى توجيه فيصل في لحظة وداع ، عن رواية دروزة التي تعزوها الى قرار من الحكومة، فان الروايتين غير متناقضتين تماما ، وان كان موقف (فيصل) من هذه الحركة ، فيما بعد ، يدعو للشك في دقة رواية الخطيب ، أو يشير الى تغيير جذري طرأ على موقف الامير من الحركة ومن مبررات قيامها .

اما مقدمة « نظام اللجنة الوطنية العليا » فتوضح ظروف نشوء هذا التنظيم السياسي الشعبي وطريقة نشوئه بان اللجنة الوطنية وفروعها ، هي مجموع الكيان الفخيم الذي تكون من مجموع أعمال الشعب الذي هب أبناؤه في كل حي من أحيائه، يقومون بانفسهم بلا تواطؤ مع غيرهم ، ليبرزوا الى الوجود مايصيبهم من حصة في العمل الوطني الذي كانت تلقيه المرحلة عليهم حينذاك مندفعين بحس الواجب الوطني(٣) .

معنى هذا ، أن نشوء هذا التنظيم جاء وليد ظروف معركة شهدتها البلاد، وتغيرات سياسية عسكرية دفعت الاحياء الشعبية لتنظيم نفسها بعفوية ، فألفت لجانا تقود النضال الشعبي في كل حي ، ثم وحدت عملها في لجنة عليا لقيادة هذا النضال . على أن يتولى هذه القيادة ــ حتى انتخاب اللجنة العليا ــ ثمانية أشخاص من أهل الوجاهة والغيرة الوطنية . وحددت المادة الاولى من « نظام اللجنة الوطنية العليا » طريقة انتخاب هذه اللجنة . وعلى ذلك ، فالسمتان البارزتان في نشوء هذه الحركة هما :

آ ــ ان هذا التنظيم نشأ في ظروف المعركة ومن خلالها .

ب ــ انه تنظيم جماهيري تكونت وحداته على مستوى القواعد ، ثم اقامت قيادته العليا ، خلافا لما يحدث عادة في نشوء الاحزاب . وهذا مؤشر على درجة الوعي

الذي تفتح عند المواطنين في بلاد الشام بنتيجة ممارستهم العمل الجماعي فيالجمعيات العلمية والادبية ، والحلقات السياسية ، التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ونمت خلال الحرب العالمية الاولى وتطورت ابان الحكم العربي الفيصلي ، وما تثيره هذه الجمعيات والحلقات من قضايا فكرية وسياسية واجتماعية تدرس وتناقش من جميع جوانبها . كما أسهمت الجمعيات الخيرية في تكوين المسؤولية الاجتماعية تجاه المجتمع والمواطن ، وبالتالي في خلق المسؤولية السياسية والتطلع لايجاد التنظيمات السياسية اللازمة لممارستها .

وكانت عملية الانتساب للجمعيات ـ بصرف النظر عن أهدافها ـ وما تتطلبه من اجراءات ومن التزام بواجبات العضوية ، عاملا مهما في ادراك اهمية العمل الجماعي المنظم وفائدته ، وفي توفير الخبرات اللازمة للعمل السياسي وتنظيماته .

اهداف اللجنة الوطنية العليا ومبادؤها :

نجد أهداف التنظيم الذي تقوده اللجنة الوطنية العليا ، واللجان الفرعية التابعة لها ومبادئه ، محددة بصورة واضحة وموجزة في المادة الثانية من نظام اللجنة ، وهي بنصها حرفيا المادة الثانية ايضا من نظام اللجان الوطنية الفرعية ، وهذه الاهداف والمبادىء هي :

١ ـ اتخاذ كل الوسائل لحفظ وحدة البلاد السورية والذود عن استقلالها التام، ومقاومة كل مبدأ يرمي الى تأسيس قومية غريبة تهدد كيان البلاد السياسي والوحدة السورية .

٢ ـ تنمية كل قوى البلاد المادية والمعنوية وتنظيم تلك القوى ، وحسن الاستفادة منها في سبيل الغاية المشار اليها .

٣ ـ انعاش الروح القومية العربية .

٤ ـ توثيق روابط التضامن والتعاون بين الافراد والجماعات والطوائف .

٥ـ تعضيد المساعي العلمية والفكرية والاقتصادية .

٦ ـ وبالجملة التوسل بكل ما من شأنه ايصال هذه الامة الى مصاف الامم المتمدنة.

وهذا الايجاز والوضوح في صياغة الاهداف والمبادىء يجعلها في متناول جميع المواطنين متحاشية التطرق الى التفصيلات والمسائل النظرية ، التي قد تؤدي الى

الخلاف والانشقاق . ومع ذلك ، كان واضعو النظام حريصين على تأكيد مبدأ القومية العربية ومقاومة الحركة الصهيونية ، فنصت المادة الثالثة على انعاش الروح القومية العربية . واكدت المادة الرابعة ضرورة تقوية الرابطة القومية فأشارت الى : « توثيق روابط التضامن والتعاون بين الافراد والجماعات والطوائـف » ، كما نصت المـادة الاولى على : « مقاومة كل مبدأ يرمي الى تأسيس قومية غريبة ، تهدد كيان البـلاد السياسي والوحدة السورية » وهذه اشارة صريحة الى مقاومة الحركة الصهيونية ، تدل على ادراك أهدافها ومراميها ، وتهديدها لكيـان البـلاد السـياسي والوحـدة السـورية .

تكوين اللجنة الوطنية العليا :

١ ـ **العضوية** : تبدو السمة المميزة والبارزة لهذا التنظيم من مفهوم «العضوية» فيه وشروطها ، إذ نص « نظام اللجنة الوطنية العليا في العاصمة السورية ونظام اللجان الوطنية الفرعية في البلاد السورية » على ان « كل فرد من أفراد الامة مرتبط باللجنة الوطنية العليا ارتباطا قانونيا بمقتضى المصلحة الوطنية » .. ومن نتائج هذا الارتباط القانوني ، ان كل فرد من أفراد الامة هو ناخب من ناخبي اللجنة العليا ومؤيد لها ضمن دائرة غاياتها المعينة في المادة الثانية والمادة الثالثة من نظـام اللجنة العليا ، واللجـان الفرعية .. وأن تتألف في كل حي من أحياء العاصمة السورية الثمانية والاربعين ، وفي كل بلد من البلاد السورية التابعة لها ، لجنة وطنية مرتبطة باللجنة الوطنية العليا المنتخبة من قبل الاعضاء وقوام كل لجنة من اللجان الفرعية من ٦ الى ١٢ عضوا ، ينتخبون انتخابا قانونيا من أفراد الحي الذي تنتسب اللجنة اليه (المادة الاولى من نظام اللجان الفرعية) .

وأن : « يتجدد انتخاب نصف الاعضاء كل ٦ شهور . ويكون تجديد انتخابهم كتابة بصورة سرية في اجتماع عام يحضره كل أهل الحي أو البلد ، واذا تعذر الاجتماع في مكان واحد يجتمعون في أماكن مختلفة ولكن في وقت واحد ».. (مادة ١٢ من نظام اللجان الفرعية). وتنعقد جلسات ممثلي الاحياء الثمانية والاربعين مرة كل اسبوع في الظروف الحاضرة ، فتعرض عليهم اللجنة العليا ما ترى عرضه من الامور المهمة ، وتأخذ رأيهم فيها وتسمع اقتراحاتهم التي لها مساس بغاية الجمعية (المادة ١٣ من نظام اللجنة العليا).

وتنعقد جلسات الاربعات المندوبة عن الاحياء مرة كل اسبوعـين في الظروف الحاضرة ويتداول فيها بما ذكر في المادة السابقة (م ١٤ من نظام اللجنة العليا) .

وتدعو اللجنة الفرعية جميع اهـل الحي او البلد الى اجتماع عام مرة في كـل شهر ، واذا تعذر اجتماعهم في مكان واحد تجمعهم على مرتين او أكثر ، وتطلعهم على ما يجب ان تطلعهم عليه وتنتدب خطباء يلقون عليهم الخطب بالمواضيع التي تقتضيها الحال ، بشرط أن تكون الخطب منطبقة على ما ورد في المادتين الثانية والثالثة ، واذا خطب احد بما يخالف ذلك توجه المسؤولية على الخطيب أولا وعلى اللجنة الفرعية ثانيا . وان اللجنة الفرعية تهتم في هذه الاجتماعات بما يعرض عليها من اقتراحات الاهالي وتبلغ المهم منها الى اللجنة العليا (م١٥ من نظام اللجان الفرعيـة) . ونرى في هذه النصوص :

آ ــ ان كل مواطن عضو قانوني في التنظيم .

ب ــ ان كل مواطن ، عضو كامل العضوية ، يمارس حقوقها في عمليات انتخاب اللجان وفي مناقشة نشاطها ومراقبته .

جـ ــ ان كل حي أو قرية هو وحدة محلية للتنظيم تضم جميع المواطنين فيه.

فاذا اضفنا الى هذا ان النظام لا يفرض على المواطن او العضو واجب دفـع اشتراك مالي محدد ، لان مالية التنظيم على كافة مستوياته تعتمد على التبرعات ، يتبين بجلاء الصفة الجماهيرية الشاملة التي يتصف بها هذا التنظيم .

٢ ــ **طريقة تشكيل اللجان ومسؤولياتها** : اذا كان مفهوم العضوية وشروطهـا يعطي لهذا التنظيم صـفة الشعبية الشاملة ، فان طريقة تكوين اللجـان على كافـة مستوياتها وتحديد مسؤولياتها ، والعلاقة فيما بينها ، يبرز سمة الديمقراطية التي يتصف بها أيضا :

أولا : جميع أعضاء اللجنة الوطنية العليا منتخبون ، ويتم انتخابهم بطريقة خاصة تبتدىء من جميع المواطنين في الاحياء على الصورة التالية :

آ ــ تنتخب كل وحدة محلية ، اي كل حي في العاصمة ، أربعـة مندوبين في اجتماعات محلية عامة يشترك فيها جميع سكان الاحياء بصورة علنية .

ب ــ ينتخب هؤلاء الاربعة ممثلا لهم .

جـ ــ يجتمع الممثلون (لاحياء العاصمة) في هيئة تنتخب اللجنة الوطنية العليا (م١ من النظام المركزي).

يتجدد في كل ٦ اشهر انتخاب اعضاء اللجنة العليا المنسوبين الى أربعة فقط من

اثمان العاصمة ، ويكون تجديد انتخابهم من جانب ممثلي الاحياء الداخلة في اثمانهم، كما جرى في انتخاب مساء الاربعاء (٥ تشرين الثاني ١٩١٩) وتتعين هذه الاثمان الاربعة بالقرعة لاول مرة فقط ، ثم يكون تجديد النصف الاخر بالتناوب ، ويجوز أن ينتخب العضو القديم مرة أخرى (م ١٠ من نظام اللجنة العليا).

ثانيا :

آ ــ جميع اللجان الفرعية في الاحياء والقرى منتخبة من قبل جميع المواطنين في الحي أو البلد بطريقة الاقتراع السرى .

ب ــ يتجدد انتخاب نصف الاعضاء في كل ستة أشهر ويكون الانتخاب بالطريقة المذكورة سابقا ، ويتعين بالقرعة لاول مرة ، النصف المراد تجديد انتخاب بدلا عنه ، ثم يكون تجديد النصف الاخر بالتناوب .

ثالثا :

آ ــ ليس للجنة (العليا والفرعية) رئيس دائم ، بل ينتخب لكل جلسة رئيس بأكثرية أصوات الاعضاء الموجودين في تلك الجلسة (م٥ مركزي ، ٧ فروع) .

ب ــ تملأ المراكز في جميع اللجان المحلية والعليا بطريق الانتخاب من قبل اللجنة ذاتها فتنتخب الكاتب ، وأمين السر ، والخازن ، وأمين الصندوق .

رابعا : توفر امكانيات المناقشة والمحاسبة بين القواعد ولجانها من جهة ، وبين هذه القواعد واللجنة العليا كذلك عن طريق اجتماعات دورية توضحها (المواد ١٣و١٤ من النظام المركزي والمواد ١٤و١٥و١٦ من النظام الفرعي).

الى جانب هذا التنظيم الديمقراطي ، نجد اجراأين يلفتان النظر يتيحان للجنة العليا تجاه اللجان الفرعية ، وللجان الفرعية تجاه القواعد ، نوعا من أنواع الرقابة الموجهة :

آ ــ ان اللجنة العليا تستنسب ضم (أي تعيين) أحد الواقفين على مجرى الامور ، الى كل لجنة من اللجان الفرعية ، ليعرض عليها دائما كل ما يحدث مما يهم وقوفها عليه . ويجوز للجنة الفرعية أن تنتخب هذا الشخص كاتبا لها .

ب ــ تنتخب كل لجنة فرعية بضعة اشخاص يسمون لجنة تفتيشية لمراقبة اهل الحي أو البلد المنتسبة اليه وارشادهم الى ما تقتضيه المصلحة العامة والاحوال

الحاضرة وتنصح من يشذ منهم عن مقاصد اللجنة الوطنية ، وتبث فيهم روح التآلف والنظـام .

خامسا : الترتيبات الخاصة : اخذ هذا التنظيم بترتيبات خاصة ناشئة عـن أن غايات اللجنة الوطنية العليا واسعة الاطراف ، تستدعي جهداً عظيما وعملا جسيما ، وتقتضي أشتراك كـل العاملين مـن رجال الامة للوصـول اليها ، فمـن المناسب الاستعانة بـ :

١ ـ انضمام مندوبين اثنين من كل حزب مـن الاحزاب السياسية السورية المتفقة غايتها مع غاية الامة المبينة في المادة الثانية .

٢ ـ تأليف لجنة استشارية من أعيان البلاد وأهل الزعامة فيها ومن الافاضل المشهود لهم بالعلم وسعة المدارك .

٣ ـ تأليف لجنة عاملة مـن الشـباب المتعلمين النشيطين ، يستعان بها في تنفيـذ ما تودعه اليها اللجنة العليا من القرارات .

٤ ـ للجنـة العليـا أن تسـتعين في تنفيـذ قراراتهـا بلجان مؤقتـة تؤلف حسب الاحتياج (م١١) .

يتبين من هذه الترتيبات رغبة اللجنة الوطنيـة العليا استيعاب كل الطاقـات وتعبئتها وتوجيهها بصورة واقعية تدرك ، كما يبـدو ، ضرورة ايجاد مواقع خاصـة لرجال الاحزاب ، ولأعيان البلاد وأهل الزعامة فيها .

ولكن هذه المعاني التي نجدها في نصوص نظـام اللجنة الوطنية العليا ، ونظـام اللجان الوطنية الفرعية ، تشير الى مفاهيم متميزة صيغت عند وضـع ذلك النظـام : « ليكون موافقا من جهـة للدواعي التي أوجبت ايجاد هـذه التشكيلات الوطنية ، وملائما من جهة ثانية ، للحاجات الاجتماعية العامة بعد أن يستتب للامة استقلالها ، وللبلاد وحدتها . » (المقدمـة) .

انها معانٍ تنظيمية ، أريد بها حين وضعها مواجهة « ظروف المعركة » القائمة ، والاستجابة لحاجات البلاد الاجتماعية العامة ، فيما بعد .

وضع سـير الاحداث حدا لهذه المحاولـة التنظيمية المتميزة ، قبل أن يبلـغ عمرها السنة بانتهاء العهد العربي الفيصلي . ولكن هذا لا يقلل من قيمتها وأهميتها، « كمفاهيم » تكون أسس محاولة تنظيمية تبدو ، في عصرها ، محاولة لتخطي الصيغ

التنظيمية الحزبية المتعددة ، الى صيغة التنظيم الشعبي الشامل ... أثرت في أحداث ذلك العهد بالرغم من انها لم تأخذ مداها في الممارسة .

اقطاب اللجنة الوطنية العليا : نعرف رئيسها الشيخ كامل القصاب ، والشـيخ محب الدين الخطيب ـ الكاتب العام ، وأعضاء هيئتها الادارية : سامي مردم ،ونسيب حمزة ، وعبد القادر الخطيب ، وعوني القضماني ، والشيخ عيـد الحلبي ، وأسـعد المالكي ، وشكري الطباع ، وعبـد القادر سكر ، وجميـل مردم ، وأسـعد المهايني ومحمد النحاس(٤) .

فعاليات اللجنة الوطنية العليا وفروعها :

بدات فعاليات اللجنة الوطنية العليا في مواجهة الاتفاق الانكلو ـ فرنسي ، الذي عدل في بنود سايكس بيكو بحيث تحصل بريطانيا على الموصل مقابل سحب قواتهـا من سورية . فاجتمع رجال الاحزاب والجمعيات والنقابات ، وفتيان الاحياء الوطنية بتاريخ ٩/١٤ وساروا في أحياء العاصمة بالاهازيج ، متجهين نحـو ساحة الشـهداء فضفاف بردى فالنادي العربي ، وانضم اليهم أعضاء النادي حزبيين وغير حزبيين ، وانتظم الجميع في مظاهرة وطنية انقسمت الى قسمين ، دار كل منهما حول مدينـة دمشق من جهة ، ليتقابلا امام قصر الامير(٥) الذي أطـل على المتظاهرين . وتوالـى الخطباء يلحون على مطلب واحد هو الاستقلال والحرية ، مؤكدين :

أولا : ان ابناء الشعب الذين وهبـوا دماءهم متطوعين في الجيوش الهاشمية ، ما كانوا يفعلوا ذلك ويقاتلوا مع الحلفاء جنبا لجنب ، من اجل أن يرفعوا من أعناقنا نيرا ويضعوا نيرا آخر مكانه ...

ثانيا : انما كان الشرط من الاول ، أن تكون لنا حريتنا واستقلالنا ونحن لا نزال على هذا الشرط (٦) .

ظلت المظاهرات الشعبيـة تجـوب ارجاء البلاد عدة أيـام فارسلت بريطانيـا تهديـدا للامير فيصل لم يستجب له واجاب : ان المظاهرات التي يقـوم بها الشعب ما هي الا تعبيرا عن خوف العرب من أن تهضم حقوقهم ، وان الامة غـير مطمئنة على مصيرها ، وأعلن التطوع في البلاد ، ولبس الجميع اللباس العسكري ، وفتح النادي العربي أبوابه لاستقبال المتطوعين واجراء التمرينات العسكرية(٧) .

في اليوم التالي ، الخامس عشر من أيلول ، توجه فيصل الى فرنسا ووجه نداء الى الشعب يطلب منه تأييده في مهمته(٨) . وعندما بدات الجيوش الفرنسية تحتل

بعض الاماكن على الحدود السورية وفقا للاتفاق الانكلو ــ فرنسي ، عادت المظاهرات الصاخبة تنادي بعدم الاعتراف بالاتفاقات الثنائية ، وتطالب بجلاء الجيوش الاجنبية، وكان هذا التجمع بداية لتأسيس اللجان الوطنية . وأرسل فيصل برقية من باريس الى دمشق يطمئن الشعب السوري حول الاتفاق الثنائي ، على أنه اتفاق عسكري ومؤقت .. ولكن هذه البرقية لم تصل للمسؤولين في سورية ، لان فيصل أرسلها لأخيه ونائبه الامير زيد عن طريق وزارة الخارجية الفرنسية ، فأرسلتها هذه الى « غورو » الذي جمدها عنده(٩) .

قامت اللجنة الوطنية العليا بحملة توعية صحفية، برز فيها الصحفي محب الدين الخطيب من خلال مقالاته في جريدة العاصمة شبه الرسمية في دمشق ــ وكان مسؤولا عنها كرئيس تحرير ــ ومنها مقالة بعنوان وظيفة الارشاد ، يشير فيها بوضوح الى اهمية جماهير الشعب العاملة مبينا أن سواد الامة ليس قاصرا على طبقة المتعلمين والاعيان ، وتجار الحواضر ، الذين يقرؤون الصحف اليومية ، ويراقبون سير السياسة الخارجية ، بل سواد الامة هو المتكون من جماهير العمال ، وسكان القرى والجبال ، والعاكفين على شق الارض واستنباتها ، فهؤلاء هم الذين يجب على المتعلمين أن يصرفوا هممهم الى تنوير قلوبهم وعقولهم وترقية مواهبهم ومداركهم ، ليتكون للامة رأي عام بواسطتهم(١٠). وكان هذا الرأي العام أو الهدف هو : « الاستقلال التام»(١١).

تأييد المؤتمر السوري للحملة الشعبية : وكان أهم ما يدعم الحملة الشعبية ، ومطاليبها الجماهيرية ، بلاغات المؤتمر السوري ، وهو الهيئة التمثيلية القائمة في البلاد التي تمثل جميع مناطق سورية وأجزائها . فقد نقل المؤتمر المطالب الشعبية الى المستوى العالمي عن طريق معتمدي الدول ، محتجا على كل قرار او اتفاق يخالف ارادة الامة ، وانتدب المؤتمر في احدى جلساته(١٢) لجنة تمثل جميع بلاد الشام ، لابلاغ معتمدي الحلفاء في دمشق أن المؤتمر الذي يمثل الامة السورية يحتج على كل قرار أو اتفاق يخالف تصويت الامة بضرورة المحافظة على وحدة البلاد السورية واستقلالها .

زار الوفد معتمدي بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا وأمريكا واسبانيا ، وقدم لكل منهم صورة عن بلاغه في هذا الشأن ، مبينا أن الامة تصر كل الاصرار على قرارها الثابت في المحافظة على استقلالها التام ، ووحدة البلاد السورية كلها ، من جبال طوروس شمالا الى حد العريش في الجنوب ، ومن اقصى بادية الشام شرقا الى البحر الابيض في الغرب ، وترفض كل دعوى حق أو قومية في سورية غير حق الامة العربية وقوميتها . وقد اصغى معتمدو الدول الى هذه البيانات الجليلة ووعدوا بابلاغها الى مراجعهم (١٣) .

وعلى اثر بيانات المؤتمر السوري ، تجددت المظاهرات في جميع مدن بلاد الشـام بقيادة اللجنة الوطنية العليا ، وارسلت كل مدينة وفدا ليشترك في المظاهرات الكبرى في دمشـــق(١٤) .

النضال المسلح : ارتفع النضال الشعبي الى مستوى النضال المسلح ، تشجعه اللجنة الوطنية العليا ولجانها الشعبية ، وبعض اعضـــاء جمعية العربية الفتاة الذيـن ظلوا خارج الحكم ، وتفجرت عدة انتفاضـــات ثورية كان أهمهـــا : انتفاضة الحولـــة وانتفاضة تل‌كلخ المعروفة بـ « ثورة الدنادشـــة » ، وانتفاضة بعلبك ، وغيرها مــن الانتفاضات المسلحة في أنحاء بلاد الشام . وتشير وثائق محب الدين الخطيب وغيره من رجال العصر ، الى ما يؤكد تشجيع أعضاء اللجنة الوطنية العليـــا للثوار وتدريب المتطوعين ، ويزيد اللواء عطفة ، أحد ضباط الجيش العربي : « أنه تم الباس عدد من الجنود النظاميين على شكل ثوار لمهاجمة الفرنسيين حتى يظهر الجيش النظامي بأنه حيـــادي »(١٥) .

نادت اللجنة الوطنية العليا من خلال المظاهرات الشعبية بضرورة تكوين جيش للبلاد يحل محل الجيوش المنسحبة حسب الاتفاق الثنائي الانكلو ــ فرنسي ، ودعمت الحكومة وجهة نظر رجال الاحياء في‌الاستعداد للدفاع(١٦) واستلم الشيخ كامل القصاب رئيس اللجنة الوطنية العليا ،تنظيم النضال الشعبي لما يتمتع به من شعبية في الاحياء، وأخذ يهيىء الجو لاتخاذ قرار شعبي بضرورة الدفاع وتكوين جيش نظامي . وقامت اللجنة العليا بعدة أعمال كان منها :

آ ــ حل الازمة المالية التي كانت مــن أهم الامور اللازمـــة لدعم حركة الدفـــاع فألفت لجانا فرعية لجمع المال اللازم بنسبة ٢٪ من ثروة كل فرد مــن أفراد الامة ، وتركت الخيار لمن يريد التبرع ، وذلك بقرار اتخذته في اجتماعها بتاريخ ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩(١٧) .

ب ــ توحيد الجهود الشعبية والطائفية في اجتماع عقدتـــه في النادي التجاري (٣ كانون الاول / ديسمبر) شارك فيه بطريرك الروم الارثوذكس ومطران السريـــان والمفتي والعلماء ، وقرروا باتفاق الاراء لزوم الدفاع عن الوطن ، ودعوة كل الطوائف الوطنية بواسطة رؤسائها الروحيين وزعمائها للاشتراك في الدفاع .

ج ــ وأهم عمل قامت به اللجنة حينذاك ، أن قررت تأليف كتيبة من المتطوعين، يبلغ عددهم الالف ، وارسال وفود الى البلاد السورية للاتفاق على توحيد الخطة .

وأعلن الشيخ كامل القصاب رئيس اللجنة : أن الامة قررت الدفاع ، وبدأ رجال الاحياء بالتطوع ، وأن رجال حي الميدان بدمشق قد تطوعوا فعلا وسيضربون خيامهم غدا في المزة ، وكذلك أهل الشاغور ، وان الاخبار الواردة من بعلبك والبقاع تقول أن اهلها على استعداد للانضمام الى الحركة الوطنية(١٨) .

تأثرت محادثات باريس ، بين الامير فيصل والحكومة الفرنسية ، بهذه الاحداث، فأرسل فيصل برقيات تطالب بالهدوء ، وطلب من أخيه الامير زيد ، وعلي رضا الركابي رئيس الوزراء ، تهدئة الموقف ، وأخبر الامير زيد الامير فيصل ، بقرارات المؤتمر السوري المتعلقة باعلان استقلال البلاد ، وتغيير الحكومة لاقامة أخرى وطنية دفاعية ، فأجاب فيصل بأن لا يصار الى أي تغيير جوهري في نظام الحكم ريثما يتم البث في مصير البلاد ، وأشار بدعوة المؤتمر السوري الى جلسة يتلى فيها بلاغ من الامير زيد موجه اليه ، وعقد المؤتمر جلسة في الفاتح من كانون أول / ديسمبر ١٩١٩ لم يحضرها الامير زيد ولم يرسل علي رضا الركابي ، بل أرسل السيد عيسى العيسى رئيس كتاب ديوان الامير ، فألقى في المؤتمر بلاغا باسم الامير زيد ، يحتوي على كثير من المدح والاطراء لاعضاء المجلس ومواقفهم الوطنية وقال : « غير أنا نرى أن ابقاء التشكيلات الادارية الحاضرة المعلومة لديكم مع بعض التعديل في الفروع أدعى للاقتصاد وأحفظ للنظام وتوطيد دعائم الامن في مثل هذه الاوقات ، الى أن يتقرر مصير البلاد النهائي في مؤتمر الصلح »(١٩) .

وعقد المؤتمر السوري جلسة بتاريخ ٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٩ أصدر فيها منشورا وزع على الاهلين جاء فيه : » ان المؤتمر السوري الذي تمنى أن تكون الحكومة مسؤولة لدى الامة ولم يتمكن من ذلك التمني ، فقد قرر في جلسته المنعقدة بتاريخ ٤ كانون الاول ١٩١٩ تأجيل جلساته وفقا لرغبة سمو الامير المعظم ، الى أن تدعوه الحكومة والامة مرة أخرى »(٢٠) .

موقف اللجنة الوطنية العليا : لئن استجاب المؤتمر السوري لمطالب الامير فيصل وحكومته، فان موقف اللجنة الوطنية العليا كان مختلفا ، فقد دعت الى تجمع المعارضة في صفوفها ، من أعضاء الاحزاب والهيئات والقيادات الشعبية ، وأعضاء المؤتمر السوري ، وبدأت بتنظيم النضال الشعبي وتوحيده حتى بلغ مستوى من الشمول والقدرة أجبر الامير زيدا نائب الامير فيصل على قبول استقالة رضا الركابي قبل أن يعود فيصل من أوروبا . وقطع فيصل زيارته تحت تأثير الضغط الشعبي وعاد الى سورية لمحاولة اعادة الوضع على ما كان عليه ، خاصة وأن المظاهرات قد عمت جميع المدن السورية مؤيدة لموقف المؤتمر السوري واللجان الشعبية .

لم يقتصر نشاط اللجنة الوطنية العليا على دمشق ، بل أخذت على عاتقها تنفيذ برنامج اللجنة المركزية بوجوب تشكيل جيش وطني ، يتدرب على التعليم العسكري يوميا في جميع أنحاء بلاد الشام ، من ذلك ما جاء في البرقية التي وردت من فرع اللجنة في عمان الى المركز في دمشق ، ونصها : « دعونا رؤساء العشائر من أطراف معان الى الكرك ، وعشائر البلقاء ، للاجتماع في يوم معلوم للمذاكرة في مصالح الوطن. وسنوافيكم بما يتم . واننا نرجو من اللجنة الوطنية العليا أن تعلمنا بما يجد في العاصمة يوميا لتكون الكلمة والحركة متوحدة » .

وصلت الحالة في البلاد درجة الغليان، فالمظاهرات في كل مكان ، والاضراب يشل حركة الاسواق والتجارة ، والنضال المسلح في كل مناطق الحدود تقريبا . وزاد في تأزم الموقف نشر خبر اتفاق فيصل ــ كلمنصو ، فاضطر الامير زيد أن يقبل استقالة الركابي ، ليعين بدلا عنه عبد الحميد القلطقجي . وبعد بضعة أيام مصطفى نعمة ، كما عين يوسف العظمة رئيسا لديوان الشورى الحربي ، اي وزارة الدفاع . واتخذت الحكومة قرارا بالخدمة العسكرية الاجبارية بتاريخ ١٣ كانون الثاني ١٩٢٠ .

عودة الامير فيصل وموقف اللجنة : عاد فيصل من اوربا الى دمشق في ١٤ كانون الثاني ، وأعلن لمستقبليه فكرة الاتفاق مع فرنسا ورغبته في استشارة الامة قبل اقرار الاتفاق ، « فاستحسن فريق رأيه واستنكره آخرون »(٢٢) وخاطبه الشيخ كامل القصاب رئيس اللجنة الوطنية العليا في احدى خطبه بقوله : « اني واثق أنك لن ترضى ، وحاشاك أن ترضى أن تكون أميرا على بلاد يظللك فيها علم أجنبي »(٢٣) . وتسارعت الاحداث منذرة بوقوع أزمة حزبية ووطنية بين الامير وحكومته من جهة ، وبين اللجان الوطنية والنضال الشعبي والمعارضة من جهة أخرى . وكانت المعارضة الشعبية لموقف فيصل وحماسته للاتفاق مع فرنسا شديدة جدا ، واستنكر الناس خطابه المشهور في النادي العربي ٢٢ كانون الثاني ، الذي تطرق فيه الى الوضع السياسي والى المستقبل ، وأبدى تخوفه من خطط الحلفاء حول سورية ودعا الشعب وقياداته الى « الصمت » تحت شعار : « نريد اعمالا لا أقوالا » ، ففجر الموقف(٢٤). ثم خرج ومؤيدوه الى منزل بديع المؤيد للتداول . وقرر المعارضون دعوة فيصل للاجتماع بهم في اليوم التالي ، وتم اللقاء في منزل علي رضا الركابي فحدثت مشادة حادة بين الامير واعضاء الهيئة الادارية لجمعية العربية الفتاة ، بعد خطبة القاها توفيق الناطور ، هاجم فيها الامير باسم المعارضة . « واتسع الخرق في هذا الاجتماع بين الفريقين » كما يقول محب الدين الخطيب في مذكراته ، وعطل فيصل الصحف الوطنية التي كانت تؤيد النضال الشعبي(٢٥) وشكل حكومة المديرين اللا حزبية ، واسس الحزب الوطني من أعضاء جمعية العربية الفتاة الذين التفوا حوله . وبقيت المعارضة

تمثل اكثرية اعضاء جمعية العربية الفتاة ، واللجان الوطنية العليا والفرعية ، ومن التف حولهم من أعضاء المؤتمر السوري ورجال الصحافة وغيرها .

محاولة « تقارب » بين الامير فيصل ـ واللجان الوطنية : حاول الامير فيصل أن يستميل اليه أعضاء اللجنة الوطنية ، ليكسب تأييدا جماهيريا لفكرة اتفاقه مع فرنسا، فطلب من الشيخ رشيد رضا تهيئة اجتماع مع الشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم، يحضره الشهبندر عضو حزب الاتحاد السوري المعارض .. ويقول صاحب المنار : « جاء اصحابنا الثلاثة حسب الطلب ، وسهرنا معه الى انتهاء الساعة الحادية عشرة . ودار الحديث في المسألة العربية وذكر لهم موقفه الرسمي بين ابيه والاقطار العربية التي وكلته ، وسألهم رأيهم فيما يجب أن يفعل ، ولم يستطيعوا أن يجيبوه جوابا مقنعا ، ولم يتفقوا على شيء وحلفوا له على الكتمان وانصرفنا »(٢٦) .

يتبين من هذا اللقاء أن اللجنة الوطنية العليا ، كانت في مقدمة المعارضين لمشروع فيصل الذي وعد به (كليمنصوا) وكان يعده هو وأعضاء وفده ، وفي مقدمتهم عوني عبد الهادي « أفضل ما يمكن التوصل اليه من فرنسا وانكلترة »(٢٧) .

وعندما شكل الامير فيصل حكومة المديرين برئاسة أخيه الامير زيد ، تعاون معه الذين انتسبوا الى جمعية العربية الفتاة في عهده ، في حين امتنع الاعضاءالاوائل، وأعضاء التنظيم الشعبي عن التعاون ، وأطلقوا على فيصل وحكومته اسم « ابناء الذوات » وأعضاء حزب « الحاكم » وغير ذلك من الالقاب ، كذلك لم تنفع فيصل وحكومته الجولة التي قام بها في أنحاء البلاد السورية أواخر كانون الثاني ١٩٢٠ ، لشرح الموقف للجماهير الشعبية وكسب تأييدها لاتفاقية فيصل ـ كليمنصو ، وأخذ الشعب في حلب مثلا يهاجم الذين دافعوا عن الاتفاقية ، واتهمهم بالخيانة . وبعد زيارة فيصل لحلب في ٢٨ كانون ثاني ، « أصبحت الجماهير تجاهر بطردهم »(٢٨) . وفي زيارته بيروت في ٣ شباط / فبراير لم يلق تشجيعا من الجماهير ولا من الثوار الدنادشة الذين لم يستجيبوا لمطالبه ، فقرر العودة الى دمشق ليتقرب من المعارضة وأعضاء اللجان الشعبية .

في هذه الاثناء كانت اللجنة الوطنية العليا ، والمعارضة تقومان بحملة توعية شعبية واسعة ، عن طريق الصحف والنوادي، والمظاهرات ، وبدأت المنشورات تهاجم الركابي وغيره من المؤيدين ، مما دعا رئيس دائرة الجنرال غورو السياسية أن يكتب للجنرال مذكرة قال فيها : ان لجنة الدفاع الوطني ، التي كانت قبل وصول الامير فيصل تدير شؤون الحكومة ما زالت حتى الان تنشر في البلاد أفكار الاستقلال التام ، قد قررت محاربة الامير فيصل اذا كان قد وقع معاهدة مع فرنسا . وهذه اللجنة

لا تزال مستمرة مع المعارضة ، ويظهر انها لا ترغب في مشاركة الامير في غاياته ومراميه الزائدة والناقصة في الاخلاص للقرب منا(٢٩) .

قرر فيصل أن يحضر الاجتماعات الشعبية عله يتفاهم مع أعضاء اللجنة الوطنية العليا بعد سيطرتهم على « الشارع » بهذه القوة الجماهيرية الهائلة ليسعى بالتالي الى مزيد من التفاهم مع صفوف هذه الهيئات الشعبية القيادية .

اجتماع المزة ، ٩ شباط / فبراير ١٩٢٠ : بناء على هذا المخطط الجديد ، حضر فيصل اجتماع اللجنة الوطنية العليا الذي عقدته في المزة في ٩ شباط ، برئاسة الشيخ كامل القصاب ، وخالد الحكيم ، وحضره الكثيرون من رجال الاحزاب منهم عبد الرحمن الشهبندر ورشيد رضا ، عضوا حزب الاتحاد السوري ، وعدد كبير من أعضاء حزب الاستقلال . ويقول الشيخ رشيد رضا : لم تشهد دمشق مظاهرة أكبر واضخم من هذه المظاهرة التي سبقت الاجتماع ، حيث امتدت من دمشق الى مكان الاجتماع في المزة »(٣٠) . وكان الغرض من هذه المظاهرة ، كما يقول صاحب المنار ، أن يرى الامير فيصل أن الامة كلها كانت متفقة على طلب الاستقلال المطلق من كل قيد ، لا ترضى بما دونه بديلا . وكان الشيخ القصاب وأركان اللجنة قد علموا أن الامير جاء من أوروبا متفقا مع فرنسا على نوع من الوصاية ، ويقول صاحب المنار أيضا انني أخبرتهم بأن فيصل يعتقد « بأنه يقدر أن يأخذ من زعماء البلاد تفويضا بذلك »(٣١) .

اكدت كلمات الخطباء في هذا الاجتماع أن الشعب لا يرضى عن الاستقلال بديلا، وتكلم فيصل فقال : انه يؤيد الامة في طلب الاستقلال المطلق ، وان هذا الاستقلال لا ينال الا بجيش قوي عظيم ، وكان جوابه يتضمن الرد الخفي على الطلب ، من غير أن يؤخذ عليه ما تفهم منه الامة أنه يريد أو يرضى دون ما تريد الامة أو ترضاه . . .(٣٢).

تطورت الامور في سورية تطورا سريعا ، وقررت المعارضة ، بعد انانضمت اكثرية أعضاء الفتاة العربية الى صفوفها ، وضع الامير امام الامر الواقع ، ودعوة المؤتمر السوري للاجتماع ، بدلا من انتخاب مؤتمر جديد . واجتمع المؤتمر يوم ٦ اذار مارس ١٩٢٠ في النادي العربي وانتخب هاشم الاتاسي لرئاسته ، وعزتدروزة سكرتيرا له. وأهمية هذا الاجتماع ، انه عقد للتنفيذ وليس للبحث والمداولة ، وحضر فيصل الاجتماع ، وكان قد اضطلع على البيان المزمع اعلانه في المؤتمر ، والقى رئيس اللجنة الوطنية العليا كامل القصاب ، باسم مجموع الامة السورية ، خطابا أشار فيه الى أن استقلال سورية هو بمثابة حجر الاساس لاستقلال البلاد العربية(٣٣) .

وفي يوم٧ آذار اجتمع اعضاء المؤتمر وقرروا بالاجماع اعلانالاستقلالالتام لسورية بحدودها الطبيعية ، والمناداة بفيصل ملكا عليها . وفي ٨ اذار تشكل وفد من اعضاء

المؤتمر وتوجه الى دار الامارة لتتويج فيصل ـ الذي حضر بموكبه الرسمي ـ ملكا على سورية . ورفع العلم السوري الجديد ،وهو علم الدولة الهاشمية في الحجاز ، مضافا اليه نجمة واحدة بيضاء في المثلث الاحمر ، واطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة ، ثم تلا سكرتير المؤتمر محمد عزت دروزة قرار المؤتمر السوري كما تم الاتفاق عليه بين فيصل واعضاء المعارضة والاحزاب ، وجاء أهم ما فيه كما تريد اللجان الوطنية والمعارضة عموما : اعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية بما في ذلك فلسطين ، مع رفض الادعاء الصهيوني بالوطن القومي (وهذه الحدود هي حسب قرار المؤتمر السوري الذي قدمه للجنة الاستفتاء) اعلان الحكم نيابي دستوري ، الاحتفاظ بصداقة الحلفاء، على أن يحترم كل طرف مصالح الطرف الاخر ، المطالبة بجلاء جنود الحلفاء من المنطقتين الغربية والجنوبية ليحل الجند الوطني محلها(٣٥). وهكذا انتصرت المعارضة وأعلن استقلال سورية الطبيعية .

مؤتمر سان ريمو والمعارضة الشعبية : بتاريخ ٢٦ نيسان /ابريل١٩٢٠ اقر مؤتمر « سان ريمو » الانتداب على سورية والعراق وفلسطين ، فهاج الشعب وكادت تقع حوادث واصطدامات كبرى ، واحتج فيصل على الدول التي وصفت أهل سورية بالشعوب والامم ، معلنا ان الشعب السوري شعب واحد وأمة واحدة(٣٦) . وغضبت الجماهير لموقف وزارة الركابي تجاه مؤتمر سان ريمو ومقرراته ، فتشكل وفد من جميع أحزاب سورية ، تؤازره مظاهرة شعبية كبرى ، وتوجه الجميع لمقابلة الملك فيصل . واخذت الجماهير تهتف بسقوط الركابي وحكومته ، فاضطر الملك الى ارسال كبير امنائه ليقنع الركابي بالاستقالة . واقنعه بذلك وفد يضم بعض اعضاء الفتاة تسانده الجماهير الشعبية ذهب الى الركابي في بيته ، فاستقال في ٣ايار / مايو ١٩٢٠ (٣٧) . وطالبت الجماهير بتشكيل : « وزارة دفاعية تصرف جل جهدها في الاستعداد للدفاع عن الاستقلال اذا اعتدى عليه ، أو يكون الاستعداد سببا لعدم الاعتداء »(٣٨) ولم ترض عن اختيار هاشم الاتاسي لتشكيل الوزارة ، لانه رجل مسالم، بالرغم من أن يوسف العظمة شغل منصب وزارة الحربية وعبد الرحمن الشهبندر وزارة الخارجية ، وهما يمثلان الفكرة الوطنية المتطرفة والدفاعية(٣٩) .

قدمت الوزارة بيانها مؤكدة تأييد الاستقلال التام الناجز ، ومن جملة ما تضمنه حق التمثيل الخارجي، والمطالبة بوحدة سورية الطبيعية. وتعرض البيان الى مقررات سان ريمو ، وانها تضمنت الاعتراف مبدئيا باعتبار سورية دولة مستقلة « فنحن نسجل هذا الاعتراف مع السرور ونتخذه اساسا للحقوق الاخرى التي سنطالب بها » (٤٠) .

لم تنلْ وزارة الاتاسي الثقة بسهولة . وكانت الجماهير خارج المجلس النيابي ، وداخله ، تطالب بتأكيد الدفاع ، وعندها قال الشهبندر : « ان الوزارة دفاعية ، قامت لاجل الدفاع وستدافع الى النهاية » فنالت ثقة المجلس الاجماعية (٤١) . واكدت أعمال الوزارة ، ما جاء في بيانها الوزاري ، فأعادت النظر في قانون التجنيد وعدلته لتجند جميع سكان سورية ، محددة الخدمة بسنة واحدة ، وطرحت في الاكتتاب قرضا وطنيا بضمان أملاك الدولة ، ليصرف في وجوه الدفاع الوطني ، مما اكسبها ثقة الشعب .

الازمات التي تعرضت لها الوزارة السورية :

مرت الوزارة السورية بعدة أزمات تعرضت لها البلاد ، من اهمها اشاعة سفر الملك الى أوربا ، والازمة التي خلقتها فرنسا على الحدود بين المسيحيين والمسلمين، والاصطدامات المسلحة في جبل عامل ، والحولة ، وبعض مدن الساحل ، وازمة نقل الجنود والذخائر الفرنسية الى الشمال عن طريق سكة حديد رياق ــ حلب بحجة مقاومة العصابات التركية ، وهدفها الحقيقي الذي أدركته الجماهير هو احكام الطوق على سورية من الشمال بعد نزول القوات الفرنسية في لبنان .

وفي جلسة المجلس بتاريخ ٥/٢٩ ، توالت البرقيات تؤكد ما قام به الفرنسيون على الحدود من فظائع تذوب لهولها القلوب(٤٢) . وتليت برقيات تطلب تدخل الحكومة، وقرر بعض الضباط الحزبيين الاستقالة من الجيش والانضمام الى الثوار في جبل عامل وغيره من المناطق(٤٣) . وكانت المظاهرات الشعبية في هذه الاثناء تطوف العاصمة طالبة تدخل الحكومة بقوة السلاح وتأييد الثوار ، ووعد الملك فيصل بتهدئة الامور في القريب العاجل . وفي جلسة الثلاثاء ١٩٢٠/٦/٩ وردت برقيات تؤكد مرور الاسلحة من رياق الى حلب ، وانها استخدمت ضد السوريين وليس ضد الاتراك ، مما جعل الجلسة صاخبة بين أعضاء المجلس والحكومة ، ووجهت الاتهامات للحكومة بلهجة قاسية ، ووجه مندوبو فلسطين سؤالا حول تعيين هربرت صموئيل والهجرة الصهيونية ، فقبلت الاسئلة ، واقترح أن ترفع الجلسة مدة عشر دقائق ، وان تقدم الاسئلة للحكومة مكتوبة ، كي لا تقع ازمة داخل المجلس بين انصار الحكومة والمعارضين(٤٤) .

اللجان الشعبية والمعارضة في مواجهة سفر الملك الى اوربا :

طرح الملك فيصل مسألة سفره الى أوربا(*) على أعضاء المجلس فلم يؤيد وجهة نظره الا اقلية من أعضاء المؤتمر ، أما أعضاء الوزارة فوعدوه ببحث الموضوع

* كان عزت دروزة ورفاقه قد وجهوا سؤالا للحكومة عن موضوع سفر الملك الى اوربا .

واعطائه جوابا نهائيا بعد مداولة جميع الاطراف . وتوالت الاجتماعات ، وكان أهمها الاجتماع الذي عقد في بيت جميل مردم في ١٩ حزيران وحضره الشيخ كامل القصاب رئيس اللجنة الوطنية وعدد من أعضائها وفي مقدمتهم خالد الحكيم ، كما حضره عبد الرحمن الشهبندر ويوسف العظمة والشيخ رشيد رضا وجميل مردم .. والهيئة الادارية لجمعية العربية الفتاة . وكان الغرض من هذا الاجتماع بحث المواضيع التي ستتناولها مفاوضات الوفد ، في حال سفره الى اوربا مع الملك .. وكانت أول نقطة استقر رأي المجتمعين عليها هي : ارسال وفد من ١٥ عضوا من أعضاء المؤتمر السوري يمثل جميع الهيئات السياسية في سورية ، وعدم سفر الملك . واستقر الرأي على أن قرارات المؤتمر السوري هو خير ما تجري المفاوضة عليه اي : الاستقلال التام الناجز، ووحدة سورية الطبيعية .. وافق الشيخ كامل القصاب والحضور على ذلك ، ولكن بعد المناقشة تبين أن ذلك يعني ، رفض مقررات سان ريمو ، فقال كامل القصاب : لا حاجة اذن الى سفر الوفد ، ويمكننا رفض المقررات من هنا .. وجرت مناقشات حول تفسير مقررات سان ريمو ، شارك فيها وزير الحربية يوسف العظمة ، ووزير الخارجية الشهبندر الذي اشار الى بلاغ اللورد اللنبي ، وهو أن المؤتمر قرر الاعتراف باستقلال سورية والعراق على قاعدة الانتداب ، وان سورية داخلة في منطقة الانتداب الفرنسي . .وقال امامنا أمران :

الاول : رفض القرار الصادر عن سان ريمو ولا حاجة حينئذ للوفد .

الثاني : الاعتراف بالقرار والبحث في معنى الانتداب ، والطلب الا يمس سلطاننا القومي ، ولم ينته الاجتماع الى قرار معين ، واتفق الحضور على اجتماعات اخرى .

وفي مساء ٢١ حزيران ، اجتمع رشيد رضا ووزير الخارجية، ووزير الحربية ووزير المعارف ، وخالد الحكيم ، في بيت جميل مردم ، ولم يحضر الشيخ كامل القصاب(٤٥) واتفق الحضور في هذه الجلسة على النقاط التالية :

آ ــ أن يسافر الوفد ، ب ــ أن تكون قاعدة مطالب الوفد قرار المؤتمر السوري ، جـ ــ الاحتجاج على مقررات سان ريمو لمخالفتها المادة (٢٢) من معاهدة فرساي ، د ــ البحث في معاني المساعدة الاستشارية المقررة في تلك المادة واشتراطه أن لا تمس الاستقلال التام ، هـ ــ أن لايقرر الوفد شيئا نهائيا ، بل يحمل ما يتقرر الى البلاد ، ويعرضها على المؤتمر، ليقرر ذلك أو يرفضه أو يطلب تعديله(٤٦) .

انذار غورو : في هذه الاثناء ، وجه الجنرال غورو انذارا شفهيا للحكومة السورية لقبول الانتداب الفرنسي على سورية ، وقبول التعامل بالعملة الورقية السورية ،

وتأديب المجرمين ، وضع سكة حديد رياق ـ حلب بتصرف القوات الفرنسية (كانت الانباء قد وصلت بأن القوات الفرنسية قد احتلتها بتاريخ ١٢ تموز)(٤٧) . قررت الهيئات الشعبية والمعارضة تشكيل وفد لمقابلة الملك واقناعه بضرورة تبديل الوزارة، وأن لم يقبل فالتوجه الى هاشم الاتاسي ، فاذا رضي واستقال ، عادة الوفد لاقناع الملك بتكليف ياسين الهاشمي ، المنادي بالدفاع . تشكل الوفد برئاسة رشيد رضا ، ولكن الملك رفض طلبه ، وكذلك الحكومة التي أعلنت الاحكام العرفية بعد أن وجه غورو انذارا خطيا ، فازداد الهياج الشعبي وخرجت مظاهرات صاخبة تطالب برفض الانذار . واستقالت الحكومة واندفع ابناء الشعب بالشوارع يدعون للدفاع عن البلد ، ويهاجمون الحكومة والملك . وسعى الملك الى الجنرال غورو ملتمسا تعديل مطالبه فأبى(٤٨) .

جاء الانذار الخطي بتاريخ ١٤ تموز ، وشروطه هي شروط الانذار الشفهي، محددا مهلة أربعة أيام لتنفيذه جملة ، أو تطلق فرنسا يدها في البلاد . واجتمع المؤتمر السوري ، بعد أن تسربت الانباء بأن الحكومة قبلت الانذار وتعهدت بتنفيذه ، مما أدى الى هياج الشعب وتكتله في مظاهرات اجتماعية تنادي بسقوط الحكومة ،وتطالب باعلان الجهاد. وفي المجلس توالت الخطابات التي تحمل المسؤولية للوزارة ، في حين كانت المظاهرات الشعبية تطوق المجلس ليعلن رايه في الامر ، وتقدم ٤٥ عضوا باقتراح خلاصته المحافظة على قرار المؤتمر التاريخي في ٧ اذار اي اعلان الاستقلال والملكية وبعد الاقتراع قبل الاقتراح بالاتفاق التام(٤٩) على أن يبلغ للحكومة وينشر على الامة. وهكذا أيد المؤتمر السوري وجهة نظر الجماهير المحتشدة حول مبنى المجلس في ضرورة الدفاع عن :

آ ـ الاستقلال التام والوحدة ورفض الهجرة الصهيونية .

ب ـ ملكية فيصل على الاساس النيابي الدستوري .

جـ ـ وبقاء المؤتمر منعقدا يراقب أعمال الحكومة المسؤولة امامه الى أن يجتمع مجلس النواب بموجب القانون الاساسي(٥٠) .

كان الملك فيصل وحكومته يحاولون الوصول الى طريقة للتفاهم مع اعضاء المؤتمر، فطلب من رشيد رضا رئيس المؤتمر ان يهيء له اجتماعا معهم في ١٧ تموز ، وتم ذلك في حديقة قصره ، وحاول فيصل تبرير ميله الى سياسة التفاهم والسلم ، فاحتد بعض الاعضاء وردوا بلهجة شديدة وذكروه بخطبه الحماسية في النادي العربي ، فطلب

من كل عضو أن يكتب رايه على حدة ليأخذ براي الاكثرية . وانصرف الاعضاء وظـن فيصل أنهم انصرفوا لتسجيل آرائهـم ، ولكنهـم في الحقيقة لم يفعلـوا ، وقرروا الاجتماع في مقر مؤتمرهم(٥١) .

اللجنة الوطنية العليا تعلن الجهاد : وفي هذه الاثناء ، أعلنت اللجنة الوطنية العليا الجهاد . والافادة من حماسة الجماهير الشعبية التي صممت على الدفاع . وأيد هذا الرأي بعض أعضاء المؤتمر السوري ـ الذين واصلوا الاجتماع طيلة الايام الاربعـة المحددة لقبول الانذار ـ وأيد وزير الحربيـة موقف اللجنة الوطنيـة العليا ، كمـا أعضـاء المؤتمر السـوري : « لتثبت سـورية للراي العـام العالمي أن هـذه البـلاد تفضل الموت على الانتداب » . ووقف العسكريون في حيرة من أمرهـم بـين الحقيقة والواجب ، فهم من ناحية ، يرون أن لا فائدة من المقاومة ، ولكن الدفاع عن الاستقلال والموت في ساحة الشرف كان عندهم الضامن الوحيد ليسجل التاريخ أن الانتداب قام في سورية بالقوة والاكراه ، وعلى جثث الشهداء .

وفي الجلسـة القانونية التي عقـدها المؤتمر السوري بعد ظهر يوم الاحـد ١٨ تموز ، قرر الاعضاء استدعاء الحكومة لحضور جلسة الغد الاثنين ، حيث تنتهي مدة الانذار في منتصف الليل . وعقدت الجلسة صباح الاثنين وبدأت سرية ولكن الوزارة لم تحضر ، فقرر الاعضاء أن تكون علنية . . . وأعلن رئيس المؤتمر أن الوزارة تنتظر عودة الوفود الذين أرسلتهم الى بيروت لمفاوضة الجنرال غورو في تعديل شروطه الواردة في الانذار . . . وتوالت الخطب واكتظت القاعة بالحاضرين ، وأعلن عن سحب الثقة من الحكومة ، لانها خالفت ما جاء في بيانها الوزاري . وكان رد فعـل الحكومـة أن بدأت بتنفيذ الانذار ، وبدأت بتسريح الجيش السوري المدرب.وأرسل الملك والحكومة وزير الحربية الى المؤتمر ليبلغ المجلس مرسوم الملك بوقف جلسات المجلس ، وتأجيله مدة شهرين ، وطلب من الاعضاء الانصراف(٥٢) .

أما خارج المجلس ، فلم تهدأ المظاهرات طيلة الايام الاربعة العصيبة ، واللجنـة الوطنية العليا تقود الجماهير في انحاء المدينة، تهدد كل من يسعى لهدم استقلال البلاد، وطافت مظاهرة الاحد ١٨/ تموز ، حول مبنى المؤتمر مؤيدة قراراته ، محيية أعضاءه الوطنيين الذين آمنوا بالدفاع عن وطنهم .

ودعت اللجنة الى عقد اجتماع كبير مساء الاثنين ١٩ تموز يحضره رجال الاحزاب والاعيان وكل من يعارض الحكومة ويدعو الى القتـال للمحافظة على الاسـتقلال . ودارت محاورات بين الحضور حول الانذار ومواده ، وأخـيرا قرر المجتمعون تنظيـم

مظاهرة كبرى في اليوم التالي (الثلاثاء ٢٠/٥) لم تشهد سـورية ، في فترة الحكـم الفيصلي أكبر وأعظم منها ، قادتها اللجنة الوطنية العليا والمعارضة عموما ، وتحولت، بعدما أذيع خبر قبول الانذار وتأجيل جلسات المؤتمر ، الى ما يشبه ثورة وطنية ضد الحكومة والملك ، وتوجه المتظاهرون الى القصر الملكي هاتفين ضد الحكومة ، متهمين الملك بالتآمر معها ، فالتفت فيصل الى من كان بجواره قائلا : هذه هي مكافأتي علـى جهودي التي طالما بذلتها في سبيل بلادي(٥٣) .

ثم توجه المتظاهرون من أعضاء اللجنة الوطنية العليا نحو قلعة دمشق للاستيلاء على ما فيها من أسلحة ، وتمكنوا من فتح أبوابها واطلاق سراح المساجين ، وسقط عدد من القتلى نتيجة الاشتباكات بينهم وبين رجال الامن . ولا يزال سكان دمشق يذكرون « تلك الليلة الليلاء » ، وكيف كانت أصوات العيارات النارية تدوي في أنحاء دمشـق قوية مرعبة(٥٤) .

اعلان الجهاد بقيادة اللجان الوطنية :

وبرغم المحاولات التي بذلتها الحكومة لحقن الدماء وتعرضها لسخط الشعب ، فوجئت البلاد بزحف القوات الفرنسية ، فحاول الملك والحكومة جمـع الجيش مـن جديد ، وزار الملك وزارة الحربيـة وخاطب جموع المتطوعـة وحثهم على الجهاد ، وأخبرهم أنه أعلن الحرب رسميا ، وطلب نشر الخبر في الصحف .

ومن ناحية ثانية ، استدعى الملك زعيم اللجنة الوطنية العليا الشيخ كامل القصاب وخاطبه قائلا : لقد نزلت أنا وحكومتي على الرغبة التي طالما ناديتم بها لمقابلة العدوان بالقوة ،وقبلت قولكم بأن القوة الوطنية مستعدة للاضطلاع بتلك المهمة،فهيا أرنا همتك وعلى الله التوفيق(٥٥) .

ويقول محب الدين الخطيب ، ان رجال الاحياء تجمعوا بعصيهم ، وبما تبقى من الاسلحة ، واخذ كل عضو من أعضاء اللجنة الوطنية العليا ، يجمع أقاربه وأصدقائه. واستبشر الاهلون بأن الدفاع عن وطنهم سيتحقق . وبدأت التبرعات لشراء السلاح ، وعمت المظاهرات أنحاء دمشق ، وعادت الحيوية لاحياء العاصمة أشد مما كانت عليـه أثناء فترة الانذار ، وكانت الخطب الحماسية تسمع هنا وهناك ، والكل يتجه نحـو ميسلون بما في يده من أسلحة صالحة وغير صالحة دون زاد أو غذاء ، وتصميم الفداء باد على الوجوه .

ودخل الشيخ كامل القصاب زعيم اللجنة الوطنية مبتهجا لهذا الحشد الجماهيري وقال مخاطبا الهاشمي : انظر الى الشعب المتحمس ، انظر الى القوم وقد صمموا على الفداء ، ولكن الهاشمي ـ بنظرة الخبير العسكري ـ علم أنه ليس بمثل هذا السلاح من هراوات وسيوف ، يمكن مقاومة جيش فرنسا ، وخصوصا أن الجيش المدرب في سورية كان قد سرح ، ولم يبق الا قلة من الدرك المنظم ، أما بقية المقاتلين فكانوا من متطوعي الشعب .

في هذه الاثناء دخل يوسف العظمة وزير الحربية ، معلنا عزمه على القتال قائلا : اني ادافع عن بلادي وعن شرفي العسكري ، فقد ناديت بالدفاع ، وسأموت في أرض المعركة . ويقول مؤرخو هذه الفترة ان التصميم والعزم والتضحية كانت من أهم مزايا يوسف العظمة وكامل القصاب ، ورجال هذا العهد الذين اتجهوا نحو ميسلون(٥٦).

وكان يوم ٢٤ تموز/١٩٢٠ هو اليوم الفاصل بين قوى الظلم والعدوان ، وبين قوى الدولة العربية الفتية ، ودخلت جيوش فرنسا بعُددها وعددها الى دمشق على جثث المناضلين الابطال وفي مقدمتهم وزير الحربية الشاب القائد يوسف العظمة ، وآلاف من أبناء الاحياء الشعبية في البلاد السورية .

الحواشي :

(١) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل (مخطوط في مكتبة آل الخطيب في القاهرة) .

(٢) محمد عزت دروزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، صيدا ١٩٥٠ ، ج١ ص ١٠٩ .

(٣) نظام اللجنة الوطنية العليا في العاصمة السورية ، مطبعة الترقي ، بمحلة القيمرية في دمشق ١٩١٩ ، المقدمة . وانظر : خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨-١٩٢٠ ، ط٢ ، بيروت ١٩٨٢ ، ملحق ٦ ص ٢٨٧ .

(٤) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، دار احياء التراث بمصر ، م٢ ، ص ١٠٣ .

(٥) جريدة العاصمة ، ١٩١٩/٩/١١ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) جريدة العاصمة ، ١٩١٩/٩/١٤ .

(٨) العاصمة ، بتاريخ ١٩١٩/٩/١٥ .

(٩) أحمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق ، ص ١٠١ وما بعدها . وكذلك جريدة الاهرام ، ١٩١٩/١٠/٢٣ .

(١٠) العاصمة ، ١٩١٩/١٠/١٦ .

(١١) جريدة المفيد الدمشقية ، ١٩١٩/١٠/٢٠ .

(١٢) جلسة المؤتمر السوري ، ٢٧ تشرين أول ١٩١٩ .

(١٣) العاصمة ، ١٩١٩/١٠/٣٠ .

(١٤) العاصمة ، ١٩١٩/١١/١١ .

(١٥) د. خيرية قاسمية ، مرجع سابق ، هامش ص١٥٢ .

(١٦) أوراق الامير زيد ، في كتاب سليمان موسى: الحركة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤ ، بيروت ١٩٧٧ .

(١٧) محب الدين الخطيب : المذكرات ، سيرة جيل .

(١٨) محب الدين الخطيب : المصدر السابق ، وأمين سعيد ، ص ١٠٢ وما بعدها .
(١٩) أوراق محب الدين الخطيب ، ملف الحركة العربية بدمشق .
(١٠) العاصمة ، ٨ كانون أول ١٩١٩ .
(٢١) راجع نص البرقيات ، في العاصمة ، أعداد كانون أول ١٩١٩ .
(٢٢) المنار ، م٢٢ ، ج٦ ص ٤٦٤ .
(٢٣) جريدة الدفاع (دمشق ٦ ، ١٨ كانون ثاني ١٩٢٠ .
(٢٤) أحمد قدري ، ص ١٦٩ وما بعدها .
(٢٥) العاصمة ، ٢٦ كانون ثاني ، ١٩٢٠ .
(٢٦) المنار ، م٣٢ ، ج١٠ ص ٧٩٣ .
(٢٧) أكد عوني عبد الهادي هذا القول في أكثر من مقابلة معه في القاهرة ١٩٦٦ ، (أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي) .
(٢٨) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش الثورة العربية ، القاهرة ١٩٥٩ .
(٢٩) جريدة الدفاع ، ١٩٢٠/١/١٨ .
(٣٠) المنار ، م٣٣ ، ج٩ ص ٧١٣ .
(٣١) المصدر السابق .
(٣٢) المنار ، م ٣٣ ، ج٩ ص ٧١٣ .
(٣٣) بين أوراق محب الدين الخطيب كلمة كامل القصاب التي ألقاها باسم اللجان الوطنية والشعبية .
(٣٤) راجع العاصمة ، ١١ آذار ١٩٢٠ . وعزت دروزة ، ج١ ص ١٤٤ .
(٣٥) راجع سهيلة الريماوي ، مجلة قضايا عربية ، الرواد العرب والقضية الفلسطينية ، عدد ١١ / ١٩٨٠ .
(٣٦) راجع أعداد العاصمة أواخر نيسان وأوائل أيار ١٩٢٠ ، وكذلك أمين سعيد ، م٢ ص١٤٤ .
(٣٧) محب الدين الخطيب ، الجيل الذي عاصر بعث العروبة ، وعزت دروزة ج١ ص ١٢٢ .
(٣٨) المنار ، م٢٢ ، ج٤ ص ٣١٥ وما بعدها .
(٣٩) عزت دروزة ، ج١ ص ١٢٢ وما بعدها .
(٤٠) محضر جلسة ٨ أيار ١٩٢٠ في جريدة العاصمة .
(٤١) العاصمة ، محضر الجلسة ، وأوراق الخطيب وأحمد قدري ، ص ٢٠٨ وما بعدها .
(٤٢) محضر جلسة ٥/٢٩ جريدة العاصمة .
(٤٣) مذكرات علي خلقي الشرايري ، (مخطوط لم يطبع) ، وأحمد قدري ، ص ٢٠٩ .
(٤٤) العاصمة ، محضر جلسة ١٩٢٠/٦/٩ .
(٤٥) المنار ، م٣٤ ، ج٥ ص ٣٦٦ .
لم يبين الشيخ رشيد رضا في مذكراته في المنار الاسباب التي دعت الشيخ كامل القصاب لعدم الحضور ، وربما لانه أفصح عن رأيه في الاجتماع السابق كما ورد .
(٤٦) راجع المنار ، وأسعد داغر ، ص ١٢٢ وما بعدها . ومكتبة محب الدين الخطيب ، ويرجح أن الورقة بخط الشيخ رشيد رضا .
(٤٧) راجع أمين سعيد ، م٢ ص ١٦٩ . وساطع الحصري ، يوم ميسلون ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٩٩ وما بعدها .
(٤٨) المنار ، م٢٢ ، ج٢ ص ٤٦٧ . وكذلك مقابلة مع عوني عبد الهادي ، ومحب الدين الخطيب في القاهرة ١٩٦٦ .
(٤٩) العاصمة : ١٩ تموز محضر جلسة ١٥ تموز ١٩٢٠ .
(٥٠) العاصمة ، ١٩ تموز .
(٥١) العاصمة ، ١٩ تموز . والمنار ، م٢٢ ، ج٦ ص ٤٦٧ .
(٥٢) المنار ، م٢٢ ، ج١٠ ، ص ٧٩٢ وما بعدها .
(٥٣) أحمد قدري ، ص ٢٤٩ .
(٥٤) عزت دروزة ، ص ١٣١ .
(٥٤) عزت دروزة ، ص ١٣١ .
(٥٥) من أوراق محب الدين الخطيب ، ملف الحكومة العربية ، وأحمد قدري ، ص ٢٥١ .
(٥٦) راجع : مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل (المخطوطة) ، عزت دروزة ، ج١ ص ١٣٣ ، أحمد قدري ، ص ٢٥٢ وما بعد .

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكّمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها وتشرف على تحريرها

لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

السنة الرابعة عشرة ، العددان ٤٧ و ٤٨ ، ايلول ـ كانون الأول ١٩٩٣

المدير المسؤول : د. شاكر الفحام — رئيس التحرير : ناظم كلاس

الاشتراكات	للأفراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر السوري	(١٠٠) ل.س	(٢٠٠) ل.س	(٥٠) ل.س
في الأقطار العربية	(١٠) دولارات أمريكية	(٢٠) دولارا	
في البلاد الأجنبية	(١٥) دولارا	(٣٠) دولارا	

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام ، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب ، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق

المكاتب : جامعة دمشق ، هاتف /٢٢٢٢٤٦١/

شـروط النشـر في المجلـة

ان مجلـة دراسـات تاريخيـة هي جـزء مـن **مشروع كتابـة تاريخ العـرب** ، وخطوة مـن خطوات تخـدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسـي ، وهو كتابـة تاريخ

وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعهـا الغرض الاساسي ، وهـو كتابة تاريـخ

العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي ، وتسـليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريـخ الامة العربية واعطتـه خط مساره الخاص ، وايضاح ما لفه الغموض ، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في أغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يسـاعد في مسيرتها ، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به ، على أن يراعى فيها ما يلي :

آ ـ ان تتوافـر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب ـ ان لا يكون البحث منشورا من قبل .

ج ـ ان يكون مطبوعا على الآلة الكاتبة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د ـ تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مـدى صلاحيتها للنشر ، وفـق المعايير المذكـورة اعلاه ، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال ، بما يتوافق مع أغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع ، ولذلك يحسـن أن يتقيـد السـادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها ، على النحو التالي :

٢ ــ في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى) :

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين (   ) ان كان متوفى ، اسم المصدر او المرجع وتحته خط ، عدد المجلدات أو الاجزاء ، اســم المحقق ان وجــد ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

ب ــ في محاضر المؤتمرات :

ذكر اسم الباحث كاملا ، عنوان الدراسة كاملا بين قوســين مزدوجين «   » ، عنوان الكتاب كاملا ، اسم المحرر أو المحررين ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعــة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

جـ ــ في المجــلات :

اسم الباحث كاملا ، عنوان البحث بين قوســين مزدوجين «   » اسم المجلة كاملا وتحته خط ، رقم المجلد او السنة ، رقم العدد وتاريخه ، الصفحة .

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية :

د ــ في المخطوطات (للمرة الاولى) :

اسم المؤلف كاملا ، عنوان المخطوط كاملا ، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ‌النسخة وعدد أوراقها ، رقم الورقة من الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب) . ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية .

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين (   ) ، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة * . **وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من اول البحث الى آخره ، دون التوقف عند نهاية الصفحات .**

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادرة خلال ذلك العام ، مع عشرين (مستلة) من البحث .

دراسات تاريخية

السنة الرابعة عشرة ، العددان ٤٧ و ٤٨ ، أيلول ـ كانون الأول ١٩٩٣

تنويـه :

• **الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظـر صاحبها**
• **ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنيـة**

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكّمة

تعني بالدراسات حول تاريخ العرب

دراسات تاريخية

٤٧ ـ ٤٨
١٩٩٣ / ٣ ـ ٤

الجامعة الاردنية ـ جامعة دمشق ـ جامعة اليرموك

المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام

وجهت الجامعات الثلاث ، جامعة دمشق والجامعة الاردنية وجامعة اليرموك ، الدعوة الى المؤرخين والباحثين المختصين للمشاركة في المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام الذي ينعقد في رحاب جامعة دمشق في الفترة من ٢٢ ـ ٢٦ تشرين الاول أكتوبر ١٩٩٤ ، وحددت نهاية شهر نيسان موعداً أخيراً لتسلم البحوث المعدة لهذا المؤتمر .

محاور المؤتمر

بلاد الشام من منتصف القرن الخامس

الى اواسط القرن السابع للهجرة

أولا : المصادر

آ ـ المصادر العربية .

ب ـ المصادر غير العربية .

ثانيا : القوى السياسية

آ ـ الخلافتان العباسية والفاطمية .

ب ـ القوى المحلية ، الفرنجة .

ج ـ القوى الدولية (بيزنطة ، الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فرنسة ، انكلترة ، النورمان . .) .

ثالثا : البنية السكانية في بلاد الشام

التغيرات في البنية السكانية والعوامل المؤثرة فيها .

رابعا : الحياة الاقتصادية :

آ ـ الزراعـة .

ب ـ النظام الاقطاعي ، الاسلامي والفرنجي (بداياته وتطوره) .

ج ـ النظام المالي ، الضرائب والنقد .

د ـ الصناعات والحرف .

هـ ـ التجارة الداخلية والخارجية .

و ـ طرق المواصلات والقوافل .

خامسا : الحياة الاجتماعية في المدن والارياف

آ ـ العمران والحياة في المدن (بيت المقدس ومدن فلسطين ، دمشق ، حلب ، الرها ، طرابلس ، انطاكية ، الكرك ، حمص ، حماة ..) .

ب ـ الحياة في الارياف .

سادسا : الادارة ومؤسساتها .

سابعا : الحياة العلمية والثقافية ومؤسساتها .

* * *

من تاريخ اللغة العربيــة (٣)

اللهجـات العربيـة

د. مسعود بوبو
جامعة دمشــق

من ابرز أسس علم اللغة عند اللغويين المحدثين ربط هذا العلم بالعلوم الاخرى ، كعلم النفس ، والاجتماع ، والاجناس ، والجغرافية ، والتاريخ .. وغيرها من العلوم الانسانية .. ويتنامى هـذا الاتجاه نحو ربط علم اللغـة بالعلوم التقنية والتطبيقية وما يتصل بذلك من الالات والاجهزة الدقيقة .. ولقد ادرك مؤرخونا في وقت مبـكر طبيعة علاقة اللغـة بالتاريخ ، فوصفوا أحـوال اللغة العربيـة في فصاحتها ولحنهـا ولهجاتها في الاقاليم والامصار ، وأحوال متكلميها من عرب وأعاجم وقادة فتوح ورجال دين رافقوا طلائع الفتوحات وكانت مهماتهم تعليم العربية والاسلام لمن يدخلون الدين الاسلامي ، أو توكل اليهم وظائف ادارية في الدولة العربية الاسلامية ، ومما يشـار اليه من ذلك على سبيل المثال ما كتبه « البلاذري » في كتابـه « فتـوح البلـدان » و « الهمداني » في « صفة جزيرة العرب » و « المقدسي » في « أحسن التقاسـيم في معرفة الاقاليم » . فلقد عرض هؤلاء ــ وغيرهم ــ في كتبهم لاحوال اللغـة واللهجات استكمالا لابحاثهم التاريخية ، ورصدا لتطور العربية وانتشارها في الافاق ، فكانوا بذلك سباقين الى ادراك ما لصلة اللغة بالتاريخ من أثر وأهمية لا يمكن اغفالهما . لكن بحث المؤرخين في هـذا الميدان لم يكن كافيا ، ولم يعن بتتبع التفصيلات ، أو يفـرد كتبا بأعيانها لهذا الغرض .. انما كان ذلك من شأن اللغويين الذين استقصوا أوضـاع اللغة على ألسنة متكلميها فكانت جهودهم موزعة بين الاحكام النظرية والجدل العلمي ، وبين البحث الميداني التطبيقي . وكانت ظواهر اللحـن والمعيارية واللهجات وتعليـم العربية ، من الهموم الكبرى التي شغلت بال الخلفاء والامراء والعلماء ، وكان استقراء تلك الظواهر منطلقا موضوعيا وسبيلا سليما الى ايجاد الحلول المناسـبة لتفـادي مضاعفاتها السلبية على اللغـة القومية ولغـة الدين الاسلامي .. وكان مبـدأ تنقية اللغة ، ووضع القواعد ودراسة اللهجات واللغات ، ووضع كتب « لحن العامة » ... كل ذلك وغيره كان لصون العربية ، ولترسيخ وحدتها ، ولتعميم فصحاها .. وفي الوقت نفسه كانت تلك الجهود لونا من التأريخ عند العرب .

نشرت الحلقة الاولى من هذه الدراسات في العدد ٣٣/٣٤ (١٩٨٩) من مجلة دراسـات تاريخيـة ونشرت الحلقة الثانية في العدد ٣٧/٣٨ (١٩٩٠)من المجلة .

وقبل أن نقف عند الظواهر اللهجية ومصطلحاتها أو مسمياتها نعرض بايجاز لمفهوم اللهجة في نشأته اللغوية ، ومن ثم تطوره الى ما انتهى اليه في الاصطلاح .

يقول ابن فارس : « اللام والهاء والجيم أصل صحيح يدل على المثابرة على الشيء وملازمته ، وأصل اخر يدل على اختلاط في أمر »(١) . ثم يقول : « واللهجة: اللسان ، بما ينطق به من الكلام . وسميت لهجة لان كلا يلهج بلغته وكلامه » . ويقول ابن منظور : « واللَّهْجَةُ واللَّهَجة ـ بإسكان الهاء وفتحها ـ : طرف اللسان .. وجرس الكلام . ويقال : فلان فصيح اللهجة واللهجة ، وهي لغته التي جبل عليها فاعتادها ونشأ عليها »(١) .

وهكذا يمكن القول ان اللهجة تعني اليوم لغة الانسان المتمثلة بمجموعة من العادات الصوتية التي الفها الانسان منذ الصغر ودرج على أدائها . ويرى الدكتور ابراهيم أنيس أن اللهجة : « مجموعة من الصفات اللغوية ، تنتمي الى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة »(٢) . وهذا قول عام ربما كان يصلح لتصوير مفهوم اللهجة في الحاضر أكثر من الماضي ، وفي اية لغة :لا في العربية وحدها . وأما مفهوم اللهجة في العربية فقد كان يطلق عليه أصلا مصطلح « اللغة » عند القدماء، أي أنه لم يكن عندهم بمثل هذا التصور ، ولم يكن على وجه اليقين « مجموعة من الصفات اللغوية » ، بل كان أحيانا يعني انفراد قبيلة بعينها بصفة لغوية بعينها (كما سنعرض بعد قليل) . وفي مثل هذه الحال يبدو مفهوم اللهجة أضيق من هذا التعريف ، وأكثر خصوصية . أما اذا كانت هنالك مجموعة من الخصائص العامة الواضحة والسمات اللغوية المميزة فاننا عندئذ لا نتردد في تسمية تلك الظاهرة لهجة، وخاصة عندما يصعب التوفيق لدى المقارنة بين أساليب الاداء اللغوي في هذه البيئة أو تلك . ويكون الاختلاف اللغوي بين اللهجات نسبيا ، أي أن مظاهر التشابه والاتفاق بينها أكثر من مظاهر التغاير ، وعلى ذلك فان عملية الاتصال والفهم والتخاطب تتم في سهولة ويسر بين متكلمي تلك اللهجات . وتلك هي الصورة التي كانت عليها اللهجات العربية عامة كما يستخلص من تتبعها وفق ما عالجتها كتب التراث ، وباستقرائها في شيء من التأمل والاناة يمكننا ان نلحظ أن أبرز مظاهر الاختلاف بينها ترجع الى خصائص نطقية أو عادات صوتية، لا الى قضايا لغوية أساسية كنظام الجملة، أو أزمنة الفعل ، وتقسيم الكلام ، والفصائل اللغوية ، وأدوات الربط والتعريف والتنكير والتثنية والجموع والتذكير والتأنيث وما شابه ذلك.. وأما ما ساقه اللغويون من أمثلة تخالف القواعد المطردة للغة العربية الفصحى المشتركة فقد كانت أمثلة قليلة، وكان قدر غير قليل منها مصنوعا وضعه النحاة لأغراض مختلفة ، أو قوموه وفق أحكام لغوية تتأثر بمنزلة لهجة قريش التي تبوأتها في فترة لاحقة ، عندما سمت بها المكانة

الدينية حتى جعلت منها محتكما في معايير الفصاحة ورجحان سلامة القراءات القرآنية عند اختلافهم فيها .

وقد اتخذ مفهوم اللهجة أحيانا طابعا معياريا بالنظر الى اللغة المثالية المشتركة ، لغة الفكر والادب ، من شعر ونثر وخطب وامثال وحكم ومواعظ .. فكل ما لم يتفق مع هذه اللغة المشتركة عُدّ لهجة أحيانا ، وصنف أحيانا بين مراتب الفصاحة الدنيا، وذلك في وقت بدأ العرب ــ بقبائلهم المختلفة ــ يقتنعون فيه أن هناك لغة عربية موحدة تكاد تكون محل قبول واجماع .. لغة خالية من الخواص المحلية ، وبالقياس اليها سمى اللغويون ما انفردت به بعض القبائل «لغات» أو لهجات . ولم تكن تلك الصفات اللغوية تتعدى بعض ظواهر النطق ، او الابدال ، او الدلالة المختلفة . واشهر تلك اللهجات :

١ ــ الكشكشة ، وهي الحاق الشين بكاف المخاطبة ، أو ابدال كاف المخاطبة شيناً في الوقف ، لأن منهم من يثبت الكاف في الوقف ، ومنهم من يثبتها في الوصل ، ومنهم من يجعل الشين مكان الكاف ويكسرها في الوصل ويسكنها في الوقف(٣) ، كقولهم : رأيتكش ، وأكرمتكش ، وبكش ، وعليكش ، وابوكش . أو رأيتش ، وأبوش، وعليش السلام ..

وتعزى هذه اللهجة الى قبائل : تميم وربيعة ومضر وبكر وبعض بني أسد لتجاور هذه القبائل في الاقامة ، ومن الشواهد الشعرية على هذه اللهجة قول المجنون :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقيق(٤)

ويروى البيت بغير عزو ، وباختلاف في الشطر الثاني على النحو التالي :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولونش الا أنها غير عاطل(٥)

ومما روي من الشعر بهذه اللهجة لبعضهم :

علي فيما ابتغي ابغيش
بيضاء ترضيني ولا ترضيش
وتَطَّبي وُدّ بني أبيش
اذا دنوت جعلت تنئيش

واذا نأيت جعلت تدنيش

وان تكلمت حثت في فيش

حتى تنقي كنيق الديش(٦)

وما خلا هذه الشواهد فأقوال تتوزعها كتب اللغة للتمثيل على هذه الظاهرة النطقية يبدو من خلالها أن الحاق الشين بكاف المؤنثة لا شاهد له من شعر أو نثر . وأحيانا يضعون السين عوضا عن الشين في المواضع السابقة فتسمى اللهجة عندئذ « الكسكسة » وقد عرفت في بكر (بكر من هوازن ، لا بكر بن وائل من ربيعة) وتميم وأسد وبعض بني ربيعة ومضر وهوازن(٧) .

٢ ـ العنعنة : أي نطق الهمزة عيناً في قبيلة تميم ومن جاورهم كبعض قيس وأسد ، وطيء(٨) وبعض بني كلاب بن عامر بن صعصعة (ينتهي نسبهم الى قيس). وبعض اللغويين يجعلون هذا النطق خاصا بالحرف (أن) المفتوح الهمزة مع تشديد النون أو تسكينها ، ويعزون ذلك الى تميم التي تقول في موضع (أن) : عن . وبعضهم ، كالسيوطي يشترط أن يبدأ بالهمزة ، بصرف النظر عن تقييد حركتها بالفتح ، كما يتضح من الامثلة ، يقول : « وهي (أي العنعنة) في كثير من العرب في لغة قيس وتميم، تجعل الهمزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في انك : (عنك) ، وفي : أسلم : (عسلم) ، وفي : أذن : (عذن) . . »(٩) . ومن الشواهد الشعرية المروية بهذه اللهجة قول ذي الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم ؟(١٠)

أي : أان ترسمت . ومن ذلك قول ابن هرمة :

أعن تغنت على ساق مطوقة ورقاء تدعو هديلا فوق أعواد (١١)

وقول جران العود :

فما أبْنَ حتى قلن يا ليت عننا تراب وعن الارض بالناس تخسف(١٢)

وعن الخليل بن احمد الفراهيدي قوله : قال شاعرهم :

ان الفؤاد عن الزلفاء قد كمدا وحبها موشك عن يصدع الكبدا(١٣)

ويبدو أن ظاهرة « العنعنة » هـذه ترجع الى تجـاور مخرجي العين والهمـزة الحلقيتين ، اذ أن مثل هذا التبادل بين حروف الحلق : (الهمزة والهاء والعين والخاء والحاء والغين) شائع في كتب الابدال ، أو أنها تفسـر بالمبالغة في تحقيق الهمز عنـد التميميين ، ولعل « الداني » من هنـا قال : « فحيث ما وقعت العين وقعت الهمـزة مكانها ، فنقول في : آمنوا : عامنوا ، وفي : وآتى المال : وعاتى المال ، وفي : خاسئين : خاسعين ، وفي قوله : متكئون : متكعون »(١٤) .

ويبدو أن تقييد السيوطي هذا الابدال بالابتداء ، أو بأول الكلام غـير مطلق ، أو استغراقي ، لأن أمثلة من النصوص جاء فيها ابدال الهمزة عيناً وهي في الوسط ، فقد جاء في « اللسـان » ، في مادة « عنف » أن العنفوان يجوز أن يكون الاصل فيه : أنفوان .. ثم نقل : «وسمعت بعض بني تميم يقول : اعتنفت الامر بمعنى : ائتنفته ، واعتنفنا المراعي : أي رعينـا انفهـا . وبنو تميم يقولـون : هذا خباعنا ، يريـدون : هـذا خباؤنا » (١٥).

٣ ــ الفحفحة : أي ابدال الحاء عيناً كقراءة بعضهم : « عتى حين » ، وكقولهم: قم عتى آتيك ، أي حتى حين ، وحتى آتيك(١٦) . وقد نسبت هذه اللهجة الى هذيل وثقيف . وفي عزوها الى هزيل يقول ابن مالك : « قرأ ابن مسعود : (ليسجننه عتى حين) ، فكتب اليه عمران أن الله أنزل هذا القرآن عربيا ، وأنزله بلغة قريش ، فـلا تقرئهم بلغة هذيل »(١٧) .

ولعل الابدال هنا كان فرارا من تكرار حر في الحاء باحلال العين محل الحـاء الاولى ، وسهل هذا او سوغه كون الحرفين (العين والحاء) كليهما من حروف الحلق، ولهذا قال ابن جني : « لولا بحة في الحاء لكانت عينا »(١٨) .

٤ ــ الاستنطاء : أي ابدال العين السـاكنة نونا اذا اوليتها الطاء نحو : أعطى ، تقال : أنطى . وبها قرئت الآية الكريمة (إنا أنطيناك الكوثر) ومن الشواهد الشعرية لهذه اللهجة قول الإعشى :

جيـادك في القيـــظ في نعمـة　　　تصان الجلال وتنطى الشعيرا(١٩)

وقد نسب اللغويون هذه اللهجة الى قبائل : هذيل والازد وقيس وبعض الانصار في يثرب ، والى أهل اليمن(٢٠) . ومن الملاحظ ان الشواهد لهذه اللهجة قد اقتصرت على الابدال في الفعل « أعطى » وحده(٢١) مع أن العربية لم تالف الابدال بين العـين

والنون ، بل هو ابدال مستبعد لاختلاف الصوتين في المخرج والحيز والصفة . ولعلها لهجة خاصة جدا ، او من بقايا الاصول السامية . .

٥ ـ التضجع ، أو الإمالة في تميم وقيس وأسـد ، أي نطق الفتحة نطقا يسمع صوتا بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة ، وفي ذلك يقول سيبويه :

« والالف تمـال اذا كان بعدها حرف مكسور ، وذلك قولك : عابد ، وعالم ، ومساجد ، ومفاتيح . . وانما امالوها للكسرة التي بعدها ، ارادوا أن يقربوها منها ، وجميع هذا لا يميله أهل الحجاز »(٢٢) .

وهذا يعني أن للمحيط الصوتي والمماثلـة Assimilation أثرهما في النطق كما يرى اللغويون المحدثون ، ولكنه أثر عارض تزيله مجاورة الاحرف المستعلية في مخارجها ، كما يفسر سيبويه نفسه حيث يقول :

فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة : الصاد والضـاد والطـاء والظـاء والغين والقاف والخاء ، اذا كان حرف منها قبل الالف تليه ، ذاك قولك : قاعد ، غائب ، وضامن ، وظالم . وانما منعت هذه الامالة لانها حروف مستعلية الى الحنك الاعلـى » (٢٣) .

ويستفاد من كتب اللغة ان هذه اللهجات التي اتينا على ذكرها كانت منتشرة بين قبائل شمال الجزيرة العربية وهم من العدنانية المضرية ، وانها لم تكن عامة حتى في أفراد القبيلة الواحدة مما يشير الى احتمال وجود ازدواج لغوي يتمثل في لغة ادبية عالية ، ولهجات محكية، كما ألمحنا من قبل .

وقد نسب اللغويون الى القحطانيين مثل هذه الظواهر اللهجية نحـو :

١ ـ التلتلة : اي كسر أول المضارع المفتوح ، يقولون : تعلمون ، وتعرفون ،ونحن نعرف ، وهو يعرف . . وتنسب هذه اللهجة الى قبائل : تميم وبهراء وأسد وربيعة وعقيل وغيرهم(٢٤) ، وغالبا ما يقال : تلتلة بهراء . ومن شواهدهم فيها قول حكيم ابن معية الربعي :

لو قلت ما في قومهـا لم تِيثـم

يفضلها في حسب وميسـم(٢٥)

و « تيثم » من الاثم ، أبدلت همزة الفعل ياء لتوافق حركة المضارعة المكسورة فقال : تيثم عوضا من « تئثم » . ومن المرجح ان هذه الظاهرة أعم وأكثر انتشارا مما ذكرنا من قبائل العرب ، بل لعلها أعم من الفتح الذي هو في لغة قريش وأسد ، في قراءتهم : (نستعين) وغيرهم يكسرها(٢٦) . ويرى بعضهم أنها ظاهرة سامية عامة تشترك فيها مع العربية : العبرية ، والسريانية والحبشية(٢٧) .

وملخص ما ذكره سيبويه في هذه المسألة ان جميع العرب من غير أهل الحجاز يكسرون أوائل الافعال المضارعة مما كان ماضيه على فَعِلَ ، فيقولون : أنا أعلم ، وانت تعلم ، ونحن نعلم . الا ما كان أوله ياء فانهم يفتحونه طلبا للاستخفاف فيقولون : يعلم ، كالحجازية . وقد جاء عن بعضهم كسر الياء اذا كان فاء الفعل واوا نحو : وجل ، ووحل ، فانهم اذا بنوا منه يفعل فروا من ثقل الواو بعد الياء فكسروا الياء لتنقلب الواو ياء فقالوا : ييجل . . وبعضهم قام : ياجل . وآخرون قالوا : يِيجل (٢٨) .

٢ ـ العجعجة : أي قلب الياء المشدوة جيما نحو قولهم في تميمي : تميمج .ومن ذلك ما يروى عن الاصمعي عن خلف الاحمر عن رجل من أهل البادية ، أو عن راجز قال :

خالي عويف وأبو علج
المطعمان الشحم بالعشج
وبالغداة فلق البرنج
يقلع بالود وبالصيصج(٢٩)

أجرى الراجز الوصل مجرى الوقف ، وكان حرف الجيم في هذه الالفاظ عوضا من حرف الياء المشدد ، أي ان الالفاظ على الاصل : العشي ، البرني (نوع من جيد التمر) ، الصيصي والصيصية : (شوكة الحائك يسوي بها السداة واللحمة ، او قرن البقرة . .) وأنشد أبو الغول (الطهوي) للمفضل الضبي ، لبعض أهل اليمن :

يا رب ان كنت قبلت حجتجْ
فلا يزال شاحج يأتيك بج
أحمرُ نهات ينزي وفرتِج(٣٠)

ويروى : (أقمر) نهات ، (يعني حمارا أو بغلا يصعد صوته من صــدره) . ويلحظ في ألفاظ هــذا الشاهد أن الياء التي قلبت جيما لم تكن مشددة ، مــع أن السيوطي نص على التشديد في قوله : « ومن ذلك المجمجة في لغة قضاعة ، يجعلــون الياء المشددة جيما ، يقولون في تميمي : تميمج »(٣١) . غير أن أبا الطيب اللغوي يورد من أبي عمرو قوله : « وهم يقلبون الياء الخفيفة أيضا الى الجيم . قال الفراء :وذلك في بني دبير من بني أسد خاصة(٣٢) . ويتفق هذا الاطلاق مع ما ذكره سيبويه حيث لم يقيد هذا الابدال بالياء المشددة ، انما قال :

« وأما أناس من بني سعد فانهم يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف ، لانها خفيه فأبدلوا من موضعها أبين الحروف ، وذلك قولهم : هذا تميمج ، يريدون : (تميمي)، وهذا علج ، يريدون : (علي) . وسمعت بعضهم يقول : عربانج، يريد : (عرباني)(٣٣). المهم في كلام سيبويه هنا أنه يجعل الابدال بين صوتي الياء والجيم ، لا حصرا بالياء المشددة ، وانما قيد ذلك بالوقف . ويبدو أن الوقف هو الذي أدى الى سماع هــذا الصوت ، نتيجة لتشديد اخر الكلمة ، سواء في الياء المشددة نفسها ، ام « الخفية » كما سماها أبو الطيب اللغوي ، أم « الخفيفة » كما سماها سيبويه . فالتشديد هنــا اذا بولغ فيه قليلا اختلط صوتا الياء والجيم المجهوران اختلاطا يجعلهما شبه متحدتين في الصوت المسموع كما هما متحدتان في حيز المخرج الذي هو غار الفم أو سقف الحنك الصلب ، اي ان الياء التي تتصف بالرخاوة تكتسب بتشديدها بعضا من شدة الجيم، وفي الجيم شدة ورخاوة . وفوق هذا فان قوة سماع الصوت بدقة كافية هي المعول عليها قبل كل شيء في تعليل هذه الظاهرة اللهجية ، ولان صوت هذه الجيم كما كان ينطق فعلا لم يسجل ، فان الوصف وحده ليس كافيا لحكم نهائي ، الا ان ابدال الياء من الجيم او العكس لهجة كانت مسموعة على ما نقلت كتب التراث العربي ، من ذلك قول بعض بني تميم « شيرة » في الشجرة ، وعلى ذلك انشدت أم الهيثم :

اذا لم يكــن فيكن ظــل ولا جنــى   فأبعدكنّ اللــه مــن شَيَرات

تريد : « شجرات » (٣٤). ولا تزال آثار هذه اللهجة مسموعة الى اليوم في بعض مناطق الخليج العربي .

وتنسب المجمجة الى قضاعة وبعض بني سعد وبعض بني حنظلة وطيء وفقيم وبني دبير ، كما تنسب الى بعض أهل اليمن (٣٥) ، والى ناس من بني تميم على ماجاء في شرح « الشافية » ، وهو : « يبدل ناس من بني تميم الجيم مكان الياء في الوقف ، شديدة كانت الياء أو خفيفة »(٣٦) .

٣ ــ الطمطمانية : أي ابدال لام التعريف ميما ، وتنسب هذه اللهجة الى قبائل حمير باليمن جنوبي الجزيرة العربية (ولا تزال مسموعة الى اليوم ، وخاصة في الشريط الاوسط المحاذي لتهامة من اليمن ، وفي تهامة بصفة عامة ، وحجة ، ودهم، وارحب ..)، كما تنسب الى طيء والازد ، يقولون في : طاب الهواء ، وصفا الجو : طاب امهواء ، وصفا امجو . ومنه الحديث الشريف : (ليس من امبر أمصيام في امسفر) ، أي : ليس من البر الصيام في السفر(٣٧) . ومن الشواهد الشعرية في ذلك قول احد الطائيين :

ذاك خليلي وذو يعاتبني   يرمي ورائي بامسَهْم وامسلِمه

أي : يرمي ورائي بالسهم والسلمة(٣٨) . وربما تعلل هذه الظاهرة اللهجية بالابدال الشائع بين اللام والميم الذي « كثيرا ما يقع في اللغات السامية »(٣٩) . وتكون العربية قد ورثته منها وابقت عليه في جملة هذه الظواهر اللهجية .

٤ ــ الوهم : اي كسر الهاء في ضمير الغائبين المتصل نحو : منهم ، بينهم، (بكسر الهاء فيها جميعا) . والنطق المشهور لهذه الهاءات الضم ، الا ما كان منها مسبوقا بياء او بكسرة نحو : فيهم ، في منازلهم ، ماضيهم .. فالهاءات في هذه الحال تنطق مكسورة بتأثير ما يسمى بقانون المماثلة Assimilation ، كما سلفت الاشارة في الحديث عن التضجع او الامالة . غير أن قبيلة كلب(٤٠) اليمانية التي تنسب أليها هذه الظاهرة النطقية تساوي بين تلك الحالات كلها فتنطقها بالكسر مطلقا ، سواء أكانت سبقت بياء او كسر أم لم تسبق .

٥ ــ الوكم : وتلك ظاهرة لهجية كالوهم من الناحية الصوتية الا انها تسمع في نطق الكاف من ضمير المخاطبين بالكسر نحو : عليكِم ، بكِم ، اذا سبق بياء أو بكسر ، ويعزى هذا أيضا الى قبيلة كلب اليمانية أو الى ربيعة منها(٤١) .

٦ ــ الشنشنة ، وهي ــ لغةً ــ : الخلق، والطبيعة ، والعادة الغالبة ، ولهجةً: جعل كاف الخطاب شيناً مطلقا ، لا كما حصر في « الكشكشة » بكاف المؤنثة ، ويمثلون لذلك بقول بعض اهل اليمن : « لبيش اللهم لبيش » في : لبيك اللهم لبيك ، وينسب ذلك الى بعض القبائل اليمنية ، وربما انفرد ابن عبد ربه بعزو هذه اللهجة الى قبيلة تغلب (٤٢) .

الى جانب هذه الالقاب تتناقل كتب اللغة ظواهر لهجية اقل شيوعا ، او ربما كانت اقل دورانا على الالسنة فلم تحظ بكثير من الاهتمام حتى بدت أحيانا غامضة ،

او ليست محل اجماع في مفهومها العام ، او الاصطلاحي ، من ذلك : العجرفية التي يسوقها ابن فارس والامام ثعلب الى جانب العنعنة ، والكشكشة وغيرهما ، في نص غير متطابق أو موحد مفاده أن قريشا أفصح العرب لانها « ارتفعت عن عنعنة تميم ، وتلتلة بهراء ،وكشكشة ربيعة . . وعجرفية ضبة »(٤٣). أو : « لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد . . »(٤٤) .

ويعنينا من هذا أمران : الاول أن العجرفية نسبت الى ضبة وقيس ، ولعل الارجح أنها تنسب الى ضبة كما ذكر الامام ثعلب . والامر الثاني أنها لم تشرح أو تفسر الا في بعض المعاجم ، كقولهم : العجرفية : الجفوة ، والاقدام في هوج(٤٥) ، أو هي : جفوة في الكلام(٤٦) ، أو التقعر وطلب الغريب الوحشي من الكلام(٤٧) .

ومن ذلك أيضا :

اللخلخانية ، أي العجمة في المنطق ، يقال : أتانا رجل فيه لخلخانية ، ورجل لخلخاني اذا كان لا يفصح(٤٨) . واللخلخانية أيضا نقص بعض حروف الكلم في الادراج والوصل ، يقولون في : ما شاء الله : (مشا الله) . ويعزى ذلك الى أعراب الشحر ، وعمان . وشبيه بهذا :

القطعة ، أي قطع اللفظ قبل اسماع تمامه ، نحو : (يا أبا الحكا) أي : يا أبا الحكم . ومن هذه الظواهر اللهجية :

الوتم : أي قلب السين تاء ، كقول علباء بن أرقم :

يا قبح الله بني السِّعلاتِ

عمرو بن يربوع شرار النات

ليسوا اعفّاء ولا أكيات(٤٩)

يعني : شرار الناس ، والاكياس (جمع كيّس وهو الظريف) . وتنسب هذه اللهجة الى أهل اليمن(٥٠) . ومن تلك اللهجات :

الفمغمة : أي ان تسمع الصوت ، ولا يتبين لك تقطيع الحروف ، أي أصوات بغير تمييز او افصاح ، وينسب ذلك الى قضاعة(٥١) .

وثمة ظواهر لهجية كالفراتية ، واللكْنة وغيرهما مما عرضت لـه كتب التراث عرضا ولم يقف الدارسون طويلا عنده ، وهذا ما يؤيد بعض اشارات الباحثين المحدثين الى أن اللهجات العربية القديمة لم تدرس دراسة منهجية تفرد لها خالصة ، ولم تتقص شواهدها وابعادها ، أو تحلل تحليلا لغويا معللا ، بل توزعتها كتب اللغة والنحو واللحن والمعاجم وكتب الثقافة الادبية العامة والكتب التي عرفت باسم «اللغات في القرآن »(٥٢).

كما توزعت تلك الظواهر اللهجية « لغات القبائل » التي ينسب أقدم كتاب منها الى يونس بن حبيب البصري (ت١٨٢ هـ)، ثم الى لغويين آخرين كالفرّاء (ت٢٠٧هـ)، وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠ هـ)، وأبي زيد الانصاري (ت٢١٥ هـ) والاصمعي (ت٢١٦ هـ) وعمرو بن ابي عمرو الشيباني (ت٢٣١ هـ)، وابن السكيت (ت٢٤٤هـ)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في معالجته لشيء من هذا الجانب في كتابه « أدب الكاتب »، وابن دريد (ت ٣٢١ هـ) في معجمه « جمهرة اللغة » ، وابن سيده الاندلسي (ت ٤٥٨ هـ) في « المخصص » .

نخلص من هذا الى القول ان «هناك حقيقة مهمة في تاريخ العربية هي أن اللهجات التي عرضوا لها ليست (لهجات عامية) كما نفهمها في العصر الحديث ، وانما هي (عناصر لغوية) تنتسب الى قبائل معينة ، وقد دخلت اللغة الموحدة وأصبح لها مستوى من الفصاحة مقرر معروف »(٥٣) . وينبغي أن تكون تلك العناصر معواناً للمؤرخين على فهم الكيفية التي انتقل بها العرب من حال القبلية الى حال « المجتمع العربي » أو الشعب بمفهومنا القومي المعاصر ، ومن حال التوزع اللغوي في لهجات متباعدة الى حال (الوحدة اللغوية) التي عزز الاسلام والشعور القومي تماسكها واستمرارها منذ فجر الاسلام الى اليوم على نحو لا تعرفه لغة على وجه الارض . ومن هنا تكون الابحاث العلمية الرصينة التي عقدت وتعقد على دراسة لهجات بعض القبائل العربية مسوغة وتشكل اسهاما علميا يكمل الاطار العام الذي دفع بفكرة اعادة كتابة التاريخ العربي الى الوجود ، ويلتقي ــ في هذا الاتجاه ــ مع النشاط اللغوي الذي يحظى بعناية اللغويين المحدثين في دراسة لهجات الاقاليم والقبائل والشعوب بما في ذلك بعض مناطق الوطن العربي ، وان كان المنطلق الاساسي عند هؤلاء هو أن « اللهجات » عناصر لغوية لا يمكن اغفالها لانها جزء من الظاهرة اللغوية Le Langage بصرف النظر عن فكرة الفصحى والعامية ، أو الازدواج اللغوي .

الحواشي والمصادر :

(١) انظر « مقاييس اللغة » و « لسان العرب » مادة (لهج) .

(٢) في اللهجات العربية :١٦ (القاهرة ١٩٦٥).

(٣) انظر فيها : معجم «العين» للخليل : ١٠٤/١ بتحقيق د. عبد الله درويش (بغداد ١٩٦٧)، و « جمهرة اللغة » لابن دريد : ١٥٣/١ ، و « الابدال » لابي الطيب اللغوي : ٢٣٠/٢، بتحقيق عز الدين التنوخي (دمشق ١٩٦٠)، و « الكتاب » لسيبويه : ٢٩٥/٢ ، و « الخصائص » لابن جني : ١١/٢ بتحقيق النجار (القاهرة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦) ، و «خزانة الادب » للبغدادي : ٤٩٥/٤ (بولاق ١٢٩٩هـ) و «المزهر» للسيوطي :٢٢١/١ ، و «اللسان: كشش »، و « تاريخ آداب العرب» للرافعي: ١٣٨/١ (الاستقامة ١٩٤٠) .

(٤) جمهرة اللغة : ٥/١ ، ابدال أبي الطيب اللغوي: ٢٣٠/٢ ، اللسان : كشش . ويروى البيت في خزانة الادب : ٤٩٥/٤ بغير ابدال، أي : فعيناك عيناها ...

(٥) الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس بتحقيق مصطفى الشويمي (بيروت ١٩٦٣) .

(٦) الابدال لابي الطيب : ٢٣٠/٢ .وهذه الظاهرة اللهجية مسموعة الى اليوم في بعض مناطق العراق والكويت وبادية الشام والجزيرة العربية وفلسطين واليمن وغيرها .

(٧) انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه : ٤٧٧/٢ بتحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣) ، وتاج العروس للزبيدي : كسكس (القاهرة ١٣٠٦ هـ) ، والمزهر : ٢٢١/١، والصاحبي في فقه اللغة : ٥٣، والخصائص لابن جني : ١٢/٢، وخزانة الادب : ٤٩٥/٤.

(٨) انظر : القلب والابدال لابن السكيت : ٢٤ (ضمن الكنز اللغوي في اللسان العربي) نشر المستشرق أوجست هفنر (بيروت ١٩٠٣) ، الخصائص : ٤١١/١ (ط الهلال) ، المزهر : ٢٢١/١ ، سر الصناعة لابن جني : ٢٣٥/١ ـ ٢٣٧ (ط ١ بمصر ١٣٧٤ ـ ١٩٥٤) تحقيق لجنة من الاساتذة ، المفصل للزمخشري : ٣١٨ ، شرح شافية ابن الحاجب : ٢٠٣/٣ بتحقيق محمد الزفزاف (٤ أجزاء ، ط حجازي بالقاهرة ، بلا تاريخ)، العين للخليل: ٥١ ، شرح المفصل لابن يعيش : ١٤٩/٨ ـ ١٥٠ (الطباعة المنيرية).

(٩) المزهر : ٢٢١/١ ، وتهذيب اللغة للازهري: ١١١/١ (ط القاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧).

(١٠) شرح الشافية : ٢٠٣/٣ ، جمهرة اللغة : ١٣٨/١ (ط العثمانية ١٣٥١ هـ) ، والصاحبي : ٥٣ .

(١١) شرح المفصل لابن يعيش : ١٤٩/٨ .

(١٢) الصاحبي : ٥٣ ، خزانة الادب : ٤٩٥/٤، تهذيب اللغة : ١١١/١ ، الخصائص : ٤١١/١ .

(١٣) العين : ١٥٦ ، وجاء في شرح القصائد السبع الطوال لابن الانباري : ٤٥٥ .من هذه اللهجة قول الزبير بن بكار :

قال الوشاة لهند عن تصارمنا
ولست أنسى هوى هند وتنساني

يريد « أن تصار منا » فأبدل الهمزة عينا.

(١٤) كتاب « النقط » : ١٤٣ (مع كتاب المجتمع لابي عمرو الداني ت ٤٤٤ هـ) بتحقيق محمد احمد دهمان (دمشق١٩٤٠).

(١٥) هذا الابدال شائع مسموع الى اليوم في بعض مناطق اليمن ، وبادية الشام ، وصعيد مصر في نحو قولهم : سعال ، أي (سؤال) ، عالة (آلة) ، لع (لا) أو : لا ، النافية المحققة الهمز .

(١٦) ينظر فيها : ابدال أبي الطيب اللغوي : ٢٩٠/١ ، ابدال ابن السكيت : ٢٣، المزهر: ٢٢٢/١ سر صناعة الاعراب : ٤٦/١ ، البحر المحيط لابي حيان الاندلسي : ٣٠٧/٥ ، ٢٠٤/١ (مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ) ، همع

الهوامع للسيوطي : ٢٣/٢ (مطبعة السعادة ١٣٢٧ هـ) .

(١٧) البحر المحيط: ٣٠٧/٥، همع الهوامع: ٢٣/٢.

(١٨) سر صناعة الاعراب : ٢٤٦/١ .

(١٩) ابدال أبي الطيب : ٣١٨/٢ : والبيت للشاعر الاعشى الذي ينتهي نسبه الى(قيس) القحطانية اليمنية الاصل ، لا قيس عيلان، وكذا بقية القبائل المنسوبة اليها هذه اللهجة يمنية اصلا .

(٢٠) انظر فيها : لسان العرب / نطا . المزهر : ٢٢٧/١ ، الاقتراح للسيوطي : ٨٣ - ٨٤ (ط العثمانية ١٣٥٩هـ) ، الفائق في غريب الحديث للزمخشري : ٨/١ (القاهرة ١٩٤٥ - ١٩٤٨) .

(٢١) انظر تفسير الطبري(الجامع لاحكام القرآن): ٢١٦/٢٠ (ط القاهرة ١٩٦٧) .

(٢٢) الكتاب لسيبويه : ٢٥٩/٢ .

(٢٣) نفسه : ٢٦٠/٢ .

(٢٤) الخصائص : ١١/٢، خزانة الادب: ٥٩٦/٤، الصاحبي في فقه اللغة : ٤٨، تهذيب الالفاظ لابن السكيت : ٢٠٧ (تح : لويس شيخو اليسوعي ، طبعة مصورة عن طبعة بيروت ١٨٩٥) ، المنصف لابن جني: ٣٢٢/١ بتحقيق ابراهيم مصطفى وآخرين (ط القاهرة ١٩٥٤) وسر صناعة الاعراب له : ٢٣٥/١ .

(٢٥) خزانة الادب : ٢١١/٢ . وأراد هنا : ما في قومها احد يفضلها ، أقام الفعل في موضع الاسم ، ضرورة ، اذا كان الفعل نعتا .

(٢٦) انظر الهامش رقم ٢٤ ، وانظر أيضا : الصاحبي : ٤٨ ، المزهر : ٢٥٥/١ وقيد المرحوم الدكتور صبحي الصالح عن سيبويه أن «ذلك في لغة جميع العرب الا أهل الحجاز» وانظر كتابه : دراسات في فقه اللغة : ٦٦ ، ولعل مما يرجح هذا القول وجود بقايا نطقية مسموعة من هذه اللهجة في مناطق نجد وبادية الشام وجنوب اليمن ...

(٢٧) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية : ٥٠/١ (ط الهلال ١٩٣٦) .

(٢٨) الكتاب : ١١٠/٤ - ١١٣ .

(٢٩) الصاحبي : ٥٥ ، أمالي القالي : ٧٧/٢ ، ابدال أبي الطيب : ٢٥٧/١ ، ٢٦٠/١ ، وابدال ابن السكيت : ٢٩ ، والكتاب : ١٨٢/٤ ، سر صناعة الاعراب : ١٧٥/١ - ١٧٧ ، شرح الشافية : ٢٨٧/٢ ، التصريف الملوكي : ٣٢٩ ...

(٣٠) المواضع السابقة نفسها .

(٣١) المزهر : ٢٢٢/١ ، وفي ابدال ابن السكيت: ٢٨ قال أبو عمرو : قلت لرجل من بني حنظلة: ممن انت ؟ فقال : فقيمج ، قلت : من أيهم؟ فقال : مرج ، أي : (فقيمي ، مري) .

(٣٢) ابدال أبي الطيب : ٢٦٠/١ .

(٣٣) الكتاب : ٣٦١/١ و ١٨٢/٤ .

(٣٤) ابدال أبي الطيب : ٢٦١/١ .

(٣٥) القلب والابدال لابن السكيت :٢٨، الكتاب: ٣٦١/١ ، ابدال أبي الطيب ، الصفحات : ٢٥٧/١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، المزهر ٢٢٢/١ ، أمالي القالي : ٧٧/٢ - ٧٨ ، نوادر أبي زيد الانصاري : ١٦٤ (ط بيروت ١٨٩٤) .

(٣٦) شرح الشافية لابن الحاجب ٢٨٧/٢ .

(٣٧) لسان العرب : (أمم) .

(٣٨) وانظر فيها العقد الفريد : ٤٧٦/٢ - ٤٧٧، خزانة الادب : ٥٩٦/٤ ، المزهر : ٢٢٣/١، مجالس ثعلب : ٧٣/١ ، همع الهوامع: ٧٩/١ ، مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٣ (مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٥٤) ، وفي اللسان (أمم) : (يرمي ورائي بامسيف..) بدلا من السهم .

(٣٩) محمد حسن آل ياسين : الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٧٨ (ط بيروت ١٩٨٠) .

(٤٠) المزهر : ٢٢٢/١ .

(٤١) نفسه .

(٤٢) السابق نفسه ، والعقد الفريد : ٤٧٥/٢، ٣٢٠/٣ . وقيل الشفشفة (بالفاء) لغة اليمن ، تجعل الكاف شينا مطلقا ، ولعله تحريف . لكن هناك لهجة تجعل الكاف غالبا شينا ، كما في العراق اليوم .

(٤٣) مجالس ثعلب : ٨٠/١ .

(٤٤) الصاحبي : ٥٣ .

(٤٥) الجمهرة لابن دريد ، واساس البلاغة (عجرف) .

(٤٦) مختار الصحاح للرازي (عجرف) ، وعنه ـ كما يبدو ـ أخذ « المعجم الوسيط » فقال العجرفة والعجرفية : جفوة في الكلام .

(٤٧) د. شوقي ضيف : العصر الجاهلي : ١٣٢ هامش ٣ .

(٤٨) المزهر : ٢٢٣/١ ، وانظر اللسان (لخخ).

(٤٩) ويروى باختلاف يسير في « نوادر » ابي زيد الانصاري : ١٤٧ .

(٥٠) انظر القلب والابدال لابن السكيت : ٤٢ ، والمزهر : ٢٢٢/١ .

(٥١) العقد الفريد : ٤٧٦/٢ ، خزانة الادب : ٥٩٦/٤ . ومن هذه الظواهر اللهجية قلب التاء كافا في ضمير المخاطب والتكلم نحو : أحسنت ، يقولون : احسنك . وفي كنت يقولون : كنك ، وتلك ظاهرة معروفة في اليمن قديما ، وما تزال تسمع في بعض مناطقه الى اليوم . وانظر في ذلك : العربية : ١٣ليوهان فك (ترجمة د. النجار ، القاهرة١٩٥١)، والشعر والشعراء لابن قتيبة : ٤٠٨/١ (بتحقيق شاكر ١٩٦٢).

(٥٢) ينسب اقدمها الى ابن عباس (٦٨هـ) بكتاب لطيف حمل هذا العنوان وتضمن ما يمكن ان يسمى احصاء للكلمات الغريبة في القرآن، أو عزوا لها الى القبائل التيتكلمت بها ، وكذا الى اللغات الاجنبية التي وفدت منها. وألف في هذا مقاتل بن سليمان ، وهشام ابن محمد الكلبي (ت٢٠٤هـ) ، والهيثم بن عدي (ت٢٠٦هـ) ، والفراء (ت ٢٠٧ هـ)، والاصمعي (ت٢١٦هـ) ، وابو زيد الانصاري (ت ٢١٥ هـ) ولم يصل الينا منها الا كتاب ابن عباس برواية ابن حسنون ويبدو من استقراء مضمون هذه « اللغات » في الكتاب أنها معقودة على الكلمات التي لم تكن مألوفة شائعة في لهجات القبائل العربية كلها ، وان ابن عباس لم يدونها او يجمعها بنفسه فيهذا الكتاب ، بل أملاها او اشار اليها كما فعل في كتابه الاخر « غريب القرآن »، ثم جمعت ورتبت من بعده . وقد نشر كتاب « اللغات في القرآن » بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (الطبعة الاولى ١٩٤٦ عن مطبعة الرسالة بالقاهرة ، والثانية عن دار الكتاب الجديد في لبنان ١٩٧٢) .

(٥٣) د. عبده الراجحي : فقة اللغة في الكتب العربية : ١١٠ (ط دار النهضة ـ بيروت ١٩٧٢).



جَذِيمَةُ الأبرَش الأزدي في المصادر العربيـة

د. عادل فريجـات
جامعـة دمشق

جَذِيمَةُ الأبرَش ملك من ملوك الحيرة القدماء ، وشاعر من الشـعراء الاوائل عند ابن سلاّم الجمحي . وهو رجل من الذين عُرف عنهم أشياء استحدثوها ، وكانوا أول من استنها وعمل بها . وقد قدمت لنا كتب التاريخ والادب والامثال اخبارا شتى عن جذيمة ، منها ما هو قابل للتصديق ، ومنها ما هو أقرب الى الاسطورة والخيال منه الى التاريخ الصحيح والخبر المقبول . وذكرت تلك الكتب معلومات عن اسمه ونسبه، وزمانـه ، وغزواته ، وحروبه ، ومآثره وابتكاراته ، وشعره .

١ ـ اسمه ونسبه :

قال ابن خِلِّكان (٦٨١هـ ـ ١٢٨٢م) في جذيمة : « هو بفتح الجيم وكسر الذال المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفتح الميم ، وبعدها هـاء ساكنة ، وكنيتـه ابو مالك »(١) .

واختلفت المصادر في نسب جذيمة اختلافا واضحا ، فقد نقل الطبري عـن ابن الكلبي أن جذيمة من العاربة الاولى ، من بني وَبَار بن أُميم بن لَوذ بن سام بن نوح(٢). وهذا نسب غريب ومشكوك فيه ، ذلك لانه يرجع الرجل الى لوذ بن سام بـن نوح ، وهو من العرب العاربة ، الذين ينتمي اليهم أيضا جرهم وقطورا وطسم وجديس وعاد وثمود واميم وإرم ، وهم الذين يقول فيهم ابن حزم الاندلسي : « بادوا وليس علـى اديم الارض أحد يصحح انه منهم الا أن يدعي قوم ما لا يثبت »(٣) .

وتكاد المصادر تجمععلى انتماء جذيمة الى الأزد ، أو الأسد(٤)، وكلاهما لفظان لمسمى واحد ، فقد قال الطبري في مالك والد جذيمة الابرش : « هو مالك بن فهم بـن غنم بن دوس بن عدثان بن عبد الله بن نصر بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الازد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ »(٥) .

وجذيمة من الازد عند المسعودي الذي مَدّ في نسبه الى أن أوصله الىيعرب بن

قحطان ، فهو عنده : « جذيمة بن مالك بن فهم بن دوس بن الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان » (٦) .

واذا قارنا نسب شاعرنا هنا ، بنسبه عند الطبري ، وجدنا المسعودي قد حذف بعض آباء جذيمة ، وزاد بعضهم الآخر ، هذا أمر نقع عليه كثيرا عند النسابين القدماء ، وخاصة اذا اتصل الامر برجل قديم جدا من رجال الجاهلية .

وجذيمة من الازد عند كل من ابن حبيب (٢٤٥هـ - ٨٥٩م)(٧) ، واليعقوبي (٢٩٢هـ - ٩٠٤م)(٨) ، وابن دريد (٣٢١ هـ - ٩٣٣ م)(٩) ، والهمداني (٣٤٦ هـ ٩٥٧) ، (١٠) والاصفهاني (٣٥٦ هـ - ٩٦٦ م)(١١) ، وابن حزم (٤٥٦ هـ - ١٠٦٣م)(١٢) ، وياقوت الحموي (٦٢٦ هـ - ١٢٢٨م)(١٣) .

وزعم الهمداني أن ثمة (جذيمتين) ، هما : جذيمة الأبرش ، وهو جذيمة بن مالك بن غنم بن دوس الازدي ، وجذيمة الوضاح ، وهو حميري ، وقيل له ذلك لبياضه ووضوحه لونه ، وهو ابن الحارث بن زرعة بين ذي غيمان(١٤) واجماع المصادر الاخرى هو ان جذيمة الابرش يلقب بجذيمة الوضاح ايضا ، والله اعلم .

واذا انتقلنا الى أسرة جذيمة ، وجدنا ابن إياس (٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م) يقول عن جذيمة: انه أكبر أبناء أبيه مالك بن فهم . وكان ابوه يكنى بأبي جذيمة. ويضيف ابن إياس ان لمالك أربعة عشر ولدا ، سمى منهم احد عشر ، هم : معن وهناءة ، وأمهما ابنة وديعة بن لكيز ، والحارث وهمام وسليمة ، وأمهم جعدة بنت ساعدة بن الحارث بن معاوية الكندي ، ورافد وثعلبة وشبابة وعوف ومالك بن مالك ، وجذيمة(١٥) .

ويروى عن سليمة بن مالك هذا انه هو الذي رمى اباه بنبله خطأ ، فقتله ، فقال ابوه عندئذ :

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني

فلا ظفرت يداه حين يرمي ... وشلّت منه حاملة البنان

فبكوا يا بني عليّ حولا ... ورثوني وجازوا من رماني (١٦)

وقيل عن جذيمة انه تزوج (لميس) - اخت مالك بن زهير بن فهم بن تيم الله ، وان له ابنة تدعى (زينب) ، وابناً يدعى (جهضم)(١٧) . ومن وجه آخر روى ابو هلال العسكري (٣٩٥ هـ - ١٠٠٤م) أن جذيمة كان عقيما لم يعقب(١٨) . لذا ورث ملكه ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي .

٢ ـ زمانـه :

روى الطبري ، دون تحديد للزمن ، ان مالك بن فهم والد جذيمة ،وأخاه عمرا، وابن أخيهما مالك بن زهير ، طلعوا على قوم على الانبار ، التي كانت للارمانيين ، وهـم نبط السـواد ، وطلع قوم آخر على نِفَّر ، وهي للاردوانيين ، وهم ملوك الطوائف، وكان طلوعهم بعد أن استوطنوا البحرين فترة من الزمن ، وقيل انهم جاؤوا من تهامـة ، وقدم اليهم تبع وقومه ، وغادرهم وقـد تجمع في الانبـار والحيرة على ضفاف الفرات، أقوام عرب كثيرون يقيمون في المظال والاخبيـة ، وملكـوا عليهم مالـك بن فهـم ، ولما توفي ، ملكوا أخاه عمرو بن فهم ، وبعد موته تولى الملك جذيمة الابرش(١٩) .

ومع جذيمة الابرش يمكن الاطمئنان الى أننا امام شخصية تاريخيةحقيقية ولسنا ازاء ملك عربي أسطوري ، كما يزعم كاتب مقال (جذيمة الأبرش) في **دائـرة المعارف الاسلامية** ، فقد ورد اسم هذا الرجل في نقش نبطي ويوناني عثر عليه في (أم الجمال) ويرجح ان تاريخه سنة ٢٧٠م . يقول هذا النقش : « هذا موضعاي قبر فهر بن شلي (سلي) مربي جذيمة ملك تنوح »(٢٠) . ومن غير المعروف من هو (فهر) هذا . ولكن النص ينعت ، بوضوح ، جذيمة ، بأنه ملك تنوح ، او تنوخ . ومن جهة اخرى فقـد ورد اسم جذيمة الابرش وأسماء معاصريه ، وابطال القصص التي حيكت حوله ، في كثير من أشعار العرب القدامى(٢١) .

واستفاض في الاخبار ان جذيمة كان معاصرا لملوك الطوائف الذين قضى عليهم (أردشير بن بابك) . بل هناك من روى أن الذي ملك جذيمة على العرب هو اردشير نفسه(٢٢) .وملوك الطوائف هؤلاء وجدوا بعد ان قتل (الاسـكندر المقدوني) (دارا) قبل الميلاد ، وكان أردشير واحدا منهم ، ثم انه تغلب على الجميـع ، واسس الدولة الساسانية . يقول ابن خلكان فيهم وفي اردشير : « واردشير .. هو الذي أبـادملوك الطوائف ومهد الملك لنفسـه ، واستولى على الممالك ، وهو جد الفرس الذين آخرهـم يزدجرد . وكان انقراض ملكهم في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة ، وأخبارهم مشهورة . وهؤلاء غير ملوك الفرس الاوائل الذيـن آخرهم دارا بن دارا ، الذي قتله الاسكندر »(٢٣) .

وقد قدر ابن خلكان حكم ملوك الطوائف باربعمائة سنة(٢٤) ، في حين كان البيروني (٤٤٨هـ ــ ١٠٥٦م) أقرب الى الصواب اذ قال ، ان ملكهم دام اربعمائة وخمس عشرة سنة بالتقريب(٢٥) . وكلا المؤرخين العربيين يقتربان من سـنة ٢٢٦م ، وهي السنة التي قتل فيها (اردشـير) خصمـه (اردوان) ، واسـس مملكـة الفرس الساسانية(٢٦) .

ونخلص مما سبق الى ان جذيمة الابرش المعاصر لاردشير كان من رجال القرن الثالث الميلادي ، وعليه ساغ للاعظمي مؤلف كتاب **تاريخ ملوك الحيرة** ان يقول : ان جذيمة دان لاردشير ، بعد أن قتل الاخير أردوان آخر ملوك الاشكانيين(٢٧) .

ومما يؤكد وجود جذيمة في القرن الثالث ايضا ، ان خليفته عمرو بن عدي حكم الحيرة من بعده ما بين سنتي ٢٦٨ بداية و ٢٨٨ او ٣٠٠م ، نهاية(٢٨) ، وأن خليفة خليفته ، امرأ القيس بن عمرو بن عدي ، مات سنة ٣٢٨م ، طبقا لما جاء في نقش النمارة(٢٩) . ومما يؤيد ما جاء في هذا النقش رواية للطبري تذكر أن وفاة امرىء القيس هذا كانت في عهد سابورذي الاكتاف (٣١٠ ــ ٣٧٩م) (٣٠) .

فاذا وثقنا بما تقدم ، تبين لنا انه من الخطأ القول إن جذيمة الابرش كان ملكا بعد الميلاد بثلاثين سنة ، كما يزعم الشريشي ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، والعباسي(٣١) .

اما مدة حكم جذيمة بالذات ، فهي موضع خلاف ، فمن المعاصرين من حددها بما بين سنتي ٢٠٨ ــ ٢٦٨م ، ولكنه لم يذكر مصدرا لهذا التحديد ، أو تعليلا تاريخيا مقبولا(٣٢) . اما القدماء ، فثمة تباين كبير فيما بينهم ، ففي حين ذكرت بعض المصادر ان ملك جذيمة استمر ستين سنة(٣٣) ذكرت مصادر اخرى انه مائة وثماني عشرة سنة ، أو مائة وعشرون سنة(٣٤) . وهذه أرقام مبالغ فيها في نظرنا ، وليست من التاريخ الحقيقي في شيء .

ومهما تكن سنوات ملك جذيمة ، فان ظهور هذا الملك على مسرح الاحداث كان يمثّل ، فيما يبدو ، منعطفا في حياة العرب عامة ، وعرب العراق خاصة ، حتى أنهم اتخذوا من ملكه معلما من معالم تاريخهم ــ كما يقول المسعودي(٣٥) . وفي زمن جذيمة تأسست دولة الفرس الساسانية ، وتوطدت أركانها ، فشاب تلك الفترة حروب ومناوشات كان لجذيمة فيها نصيب وحضور .

٢ ــ غارات جذيمة وحروبه :

روت لنا الاخبار أن جذيمة كان يغير على الامم الخالية من العاربة الاولى(٣٦) . والغريب أن العباسي يذكر ان جذيمة كان يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما في أيديهم(٣٧) . وهذا خبر لا يتسق مع ما تقدم من أن أردشير هو الذي ولى جذيمة على العرب في العراق ،وربما يصح لنا أن نلتمس لقبول هذا الخبر احتمالين هما : أن تكون غارات جذيمة قد وقعت قبل تأسيس اردشير لملكته ، او ان تكون تلك

الغارات قد تمت بالتحالف والتنسيق فيما بينه وبين اردشير ، حسبما أشار الى ذلك صاحب **كتاب تاريخ ملوك الحيرة** من قبل .

وقد حارب جذيمة ايضا قبيلة إياد ، أو من كان يسكن منها في أرض الجزيرة. واسباب هذه الحرب او المناوشات ، بينه وبين اياد ، كانت ، في الغالب ، تتصل بالتنازع والتناحر على المراعي والمياه وطرق التجارة ، وذلك أن منازل جذيمة كانت تحاذي منازل اياد ، فمنازله فيما بين الحيرة والانبار وبَقّة وهيت وناحيتها ، وعين التمر واطراف البر الى الغدير وجفنة والقطقطانة وماوالاها(٣٨) . وكانت داره بالموضع المعروف بالمضيق بين بلاد الخانوقة وقرقيسياء(٣٩) . ومنازل اياد ، أو بعضهم ، فيما بين البصرة والكوفة ، وفيما يلي الحيرة ، وأكثرهم في عين اباغ(٤٠) .

ومما يروى عن جذيمة انه تكهن ، واتخذ له صنمين يقال لهما الضيزنان ، كان يستسقي بهما ، ويستنصر على العدو(٤١) . ويزعم الاخباريون أن ايادا ، لكي تكف أذى عدوها ، ارسلت الى سدنة ذينك الصنمين من سقاهم خمرا ، وسرق الصنمين، فاصبحا في اياد ، فبعثت اياد عندئذ تفاوضه على أن يكف عن غزوها وترد الصنمين، فوافق جذيمة على أن يكون معهما عدي بن نصر اللخمي ، وهو رجل ظرف وجمال وادب ، كان يقيم في اخواله الاياديين . وقبلت اياد ، وعاهدهم جذيمة على ما ارادوا. ثم استخلص عديا لشرابه ، بعد أن كان لا ينادم الا الفرقدين كبرا وتيها . وتمضي الرواية فتذهب الى القول ان اخت جذيمة ، رقاش ، عشقت عديا ، ولكن هذا المعشوق خشي أن يرفض جذيمة تزويجه بأخته ، لذا استغل لحظة سكره ، وطلب منه الزواج ، فوافق جذيمة ، ولما صحا من سكره ، وعرف ما وقع ، ندم على فعلته، وقال مخاطبا اخته :

خبريني رقاش لا تكذبيني	ابحر زنيت أم بهجين
أم بعبد ، فانت اهل لعبد	أم بدون ، فانت اهل لدون

وقد كان ثمرة هذا الزواج خليفة جذيمة ، عمرو بن عدي . اما عدي نفسه ، فقد رجع الى اياد ، واقام فيهم ، الى ان رماه فتى بين جبلين ، كما تزعم الرواة ، فتنكس ومات(٤٢) . وتتصل قصة زواج عدي برقاش وانجابهما عمرا ، بقصة نديمي جذيمة، وهما مالك وعقيل ابنا فارج بن كعب من بلقين بن جسر بن قضاعة(٤٣) . وقد كان جذيمة فقد ابن اخته عمرا ، وطلبه ، فلم يجده ، ووجده هذان الرجلان ، فرداه اليه ، فسر جذيمة بذاك ، وقال لهما : حكمكما ؟ فقالا : منادمتك . فكان لهما ما أرادا ، وبقيا على

منادمة جذيمة دهرا ، حتى صارا مضرب المثل ، وذكرا في أشعار العرب ، فقال متمم ابن نويرة يرثي أخـاه مالكا :

فلمـــا تفرقنـــا كأنــــي ومـــالكـــا لطـول اجتمـاع لم نبت ليلـة معـا

وكنـــا كندمانــي جذيمـة حقبـــة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا(٤٤)

ونحن نرى في قصة جذيمة وعمرو بن عدي خرافة نسجت لتعلل قضية انتقال ملك الحيرة من الازد الى بني لخم ، وهي تشبه الخرافة التي نسجت حول مفاتيـح البيت وولاية الحرم من خزاعة الى قريش ، فكما سكر جذيمة وزوج اخته لعدي بن نصر اللخمي ، سكر أبو غبشان ، وباع مفاتيح البيت لقصي بن كلاب(٤٥). والحقيقة ان طابع القص ساطع فيها ، حتى ليخيل الينا أن مبتدعها أيضا اراد ان يرضي بني اياد، فجعل عدي بن نصر مقيما في أخواله منهم . وقد اســتغل هذه الحكاية مؤلفو كتـب الامثال ، فنقلوا ما جاء على السـنة ابطالها من أقوال جرت مجرى الامثال ، كقولهـم « أعطي العبد كراعاً فطلب ذراعا »(٤٦) ، و « شب عمرو عن الطوق »(٤٧)، و « كندماني جذيمة » (٤٨) .

ولا يوضح لنا المؤرخون تفاصيل انتقال زعامة العرب في العراق ، آنئذ ، من الازد الى بني لخم ، بيد اننا نظن ظنا أن قسوة أرد شير بن بابك ، ورحيل بعض بني قضاعة من العراق الى الشام ، كانا وراء ذلك . يقول الطبري في هذا الصدد : « ولما استولى اردشير بن بابك على الملك بالعراق كره كثير من تنوخ ان يقيموا في مملكته ، وأن يدينوا له ، فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة الذين كانوا أقبلوا مع مالك، وعمرو بن فهم، ومالك بن زهير ، و غيرهم ، فلحقوا بالشام ، الى من هنالك من قضاعة »(٤٩) .

فهل كان خروج قضاعة في زمن اردشير من العراق الى الشام سببا في ضعف جذيمة ، ولاسيما أنه وصف بأنه آخر ملوك قضاعة(٥٠). وبالتالي تمهيدا لتولي ابن اخته عمرو بن عدي ملك الحيرة من بعده ؟.

ومن غزوات جذيمة تلك التي شنها على طسم وجديس في منازلهم من (جَو) وما حولها ، فصادف حسان بن تبَّع قد أغار عليهم باليمامة ، فانكفأ جذيمة راجعا بمن معه ، وقد أتت خيول تبع على سرية لجذيمة ، فاجتاحتها، وبلغ جذيمة خبرها ، فقال قصيدته التائية المعروفة التي يقول فيها :

ربمـــا أوفيـتُ في علــــم	ترفعـــن بُـرْدي شــمالات
في فتـــوٍ انـــا كالئهــــم	في بلايـــا غـــزوة ماتـــوا
ليت شـــــعري ما أماتهـــم	نحن أدلجنا وهـم باتـــوا(٥١)

اما غزوة جذيمة التي قام بها في آخر عمره ، كما يقول حمزة الاصفهاني (٣٥١هـ ـ ٩٦٢م)(٥٢) ، فقد كانت على عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العمليقي . وقد كان ملك العرب بأرض الجزيرة ومشارف الشام ، فلقيه جذيمة، وفض جموعه وقتله ، فملك قومه من بعده ابنته (الزباء) .

وقد استفاض في كتب التاريخ والادب والامثال قصة (الزباء) ، واسمها نائلة(٥٣) ، وخبر مقتل الزباء لجذيمة ، ثأرا بأبيها . وخلاصة هذا الخبر أن الزباء كانت ملكة بالجزيرة من قبل الروم ، وكان يقال لها (الرومية) ، وقيل انها كانت تتكلم العربية ، وقد انتوت الثأر من جذيمة ، فاحتالت عليه بأن طلبت منه الزواج ، فاستشار جذيمة صحبه ، وهو ببقة(٥٤) ، في أمر الزباء ، فوافقوه على الزواج منها ، والذهاب اليها ، الا قصير بن سعد اللخمي(٥٥) ، فلم يعبأ جذيمة براي قصير ، ولما ذهب الى غريمته ، وجدها قد أعدت العدة لقتله ، وهنا نجا قصير على فرس لجذيمة تدعى (العصا) ، وبها يضرب المثل فيقال : « خير ما جاءت به العصا »(٥٦).

ويسدل الستار هنا على أسطورة جذيمة والزباء (٥٧) ، وتبدأ مع خليفة جذيمة ، عمرو بن عدي ، قصة التأثر من الزباء .

وقد اختلف الباحثون في كون هذه (الزباء) ، هي (زنوبيا) ملكة تدمر ، أم لا . ومن المؤكد أنها ليست ملكة تدمر ، وقد ذهب الى تمايز الاميرتين المستشرق الانكليزي (ردهوس) ، وله في ذلك رسالة ضافية (٥٨)

٤ ـ مآثر جذيمة وابتكاراته :

يستفاد من اخبار جذيمة انه لم يكن ملكا كالملوك ، فقد استحدث أشياء كثيرة نسبت اليه ، وعرف بها ، فهو عند المؤرخين من أفضل ملوك العرب رأيا(٥٩) ، وابعدهم مغارا وأشدهم نكاية ، واظهرهم حزما ، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق ، وضم اليه العرب ، وغزا بالجيوش ، وكان به برص ، فكنت العرب عنه ، وهابت أن تسميه وتنسبه اليه اعظاما ، فقيل فيه جذيمة الابرش ، أو الوضاح . وهو أول من عمل المنجنيق ، وأول من حذيت له النعال ، واول من رفع له الشمع . ونسب اليه انه أول من جلس على السرير من ملوك العرب ، وأول من لبس الطوق ، وكانت تجبى اليه الاموال وتفد عليه الوفود(٦٠) .

٥ ـ شاعريتــه :

وعرف من جذيمة ايضا انه شاعر ، فقد نعت في **كتاب سيبويه** (١٨٠هـ ـ ٧٩٦م)، بهذه العبارة : « وقال الشاعر جذيمة الابرش »(٦١) . وادرجه ابن سلام بين الشعراء الاوائل القدماء ، وساق له ثلاثة أبيات من تائيته المشهورة(٦٢) . ووصفه بالشاعرية كل من ابي الفرج الاصفهاني ، والآمدي ، فقال الاول : « وكان جذيمة الملك شاعرا »(٦٣) . وقال الثاني تحت عنوان (من يقال له الابرش) : « منهم جذيمة الابرش الملك كان شاعرا وهو القائل :

ربما أوفيت في علم ترفعن ثوبي شمالات

في ابيات ، وله في كتاب الاسد اشعار »(٦٤) .

ولم يرو لجذيمة القصيدة التائية فحسب ، بل رويت له أيضا أشعار اخرى ، جمعنا له منها تسعة عشر بيتا ، بعد عودتنا الى مجموعة وافرة من المصادر التي مكنتنا أن نعالج أخباره على النحو الذي عالجناها فيه .

المصادر والمراجع :

١ ـ الآمدي ، الحسن بن بشر (٣٧٠هـ / ٩٨٠م) : المؤتلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

٢ ـ ابن الاثير ، علي بن محمد (٦٣٠هـ / ١٢٣٢ م)) الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٥ (١٠ أجزاء) .

٣ ـ ابن إياس ، (٣٣٤هـ / ١٩٤٥ م) : تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة ، القاهرة ١٩٦٧ .

٤ ـ ابن حبيب ، محمد بن حبيب (٢٤٥ هـ / ٨٥٩م) : أسماء المغتالين ، (ضمن نوادر المخطوطات) ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مجلد /٢/ ، ط٢ ، القاهرة ١٩٧٣ .

٥ ـ ابن حزم الاندلسي ، ابو محمد علي بن سعيد (٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) : جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٢ .

٦ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ/١٤٠٥م) : تاريخ العرب والبربر.. المعروف بتاريخ ابن خلدون ، طبع بيروت . د.ت.

٧ ـ ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن خلكان (٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) : وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس، بيروت .د.ت (٨ أجزاء).

٨ ــ ابن دريد ، محمد بن الحسن (٣٢١ هـ / ٩٣٣ م) : الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٥٨ (جزءان) .

٩ ــ ابن رسته ، ابو علي بن رسته (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي). الاعلاق النفيسة ، طبع مصر .

١٠ــ ابن رشيق ، الحسن بن رشيق القيرواني (٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) : العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، بيروت ١٩٧٢ (جزءان) .

١١ــ ابن سعيد الاندلسي ، (٦٨٥ هـ/١٢٨٦م) : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ١٩٨٢ (جزءان).

١٢ــ ابن سلام ، محمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ/٨٤٥ م) : طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر ، ط٢ ، القاهرة ١٩٧٤ .

١٣ــ ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ/٨٨٩م) : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٤ــ ابن منظور ، محمد بن المكرم المصري (٧١١ هـ /١٣١١ م): لسان العرب ،طبعة صادر ، بيروت (٥ ١مجلدا).

١٥ــ ابن نباته ، جمال الدين محمد بن نباتة (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) : سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الفكر العربي بمصر ١٩٦٣ .

١٦ــ الاخفش الاصغر، ابو الحسن علي بن سليمان (٣١٥هـ / ٩٢٧م) : كتاب الاختيارين ، تحقيق فخر الدين قباوة ، دمشق ١٩٧٣ .

١٧ــ د. الاسد ، ناصر الدين : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، القاهرة، ط ٤ ، ١٩٦٩ .

١٨ــ الاصفهاني ، ابو الفرج ، علي بن الحسين (٣٥٦هـ /٩٦٦م) : الاغاني ، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية (٢٤ جزءا) .

١٩ــ الاصفهاني ، حمزة بن الحسن (٣٦٠ هـ / ٩٧٠م) : تاريخ سني ملوك الارض وملوكها ، بيروت . د. ت .

٢٠ــ الاعظمي ، علي ظريف : تاريخ ملوك الحيرة ، مصر ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠م .

٢١ــ الانباري ، ابو بكر محمد بن القاسم (٣٢٨هـ / ٩٣٩م) : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٢ ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢٢ــ البغدادي ، عبد القادر بن عمر (١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م) : خزانة الادب ، تحقيق هارون ، الرياض والقاهرة ١٩٧٩ فما بعدها ، (١٣ جزءا) .

٢٣ـ البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) :

١ ـ فصل المقال في شرح كتاب الامثال ، تحقيق احسان عباس وعبد المجيد قطامش ، بيروت ١٩٧١ .

٢ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥ (٤ أجزاء) .

٢٤ـ البيروني ، محمد بن أحمد (٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) : الآثار الباقية ، طبع مصر .

٢٥ـ الثعالبي ، عبد الملك بن محمد (٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٥ .

٢٦ـ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ/٨٦٨م) : البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، بيروت ط٢ ، ١٩٨١ .

٢٧ـ الحميري ، عبد المنعم (القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ .

٢٨ـ الحميري ، نشوان أبو سعيد (٥٧٣هـ / ١١٧٧م) : الحور العين ، تحقيق كمال مصطفى ، القاهرة ١٩٤٨ .

٢٩ـ الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود (٢٨٢هـ / ٨٩٥م) : الاخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣٠ـ الزمخشري ، محمود بن عمر (٥٣٨هـ / ١١٣٤م) : المستقصى في أمثال العرب، طبعة حيدر أباد ١٩٦٢ (جزءان) .

٣١ـ زيدان ، جرجي : العرب قبل الاسلام ، بيروت د.ت .

٣٢ـ سيبوية ، أبو بشر عمرو بن عثمان (١٨٠هـ / ٧٩٦م) : الكتاب ، أو كتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت ١٩٦٦ ، (٥ أجزاء) .

٣٣ـ السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ / ١٥٠٥م) : الوسائل الى معرفة الاوائل ، تحقيق ابراهيم العدوي وعلي محمد عمر ، القاهرة ١٩٨٠ .

٣٤ـ الشريشي ، أحمد بن عبد المؤمن (٦٢٠هـ / ٢٢٣ م) : شرح مقامات الحريري، مصر ١٣٠٦هـ (جزءان) .

٣٥ـ الطبري ، محمد بن جرير (٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) : تاريخ الامم والملوك (تاريخ الطبري) ، تحقيق محمد أبو الفضل ، مصر ١٩٦٨ ، (١٠ اجزاء) .

٣٦ـ العباسي ، عبد الرحيم بن عبد الرحمن (٩٦٣هـ/١٥٥٦ م) : معاهد التنصيص، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٤٧ .

٣٧ـ عدي بن زيد العبادي : ديوان عدي بن زيد ، تحقيق محمد عبد الجبار المعيبد ، بغداد ١٩٦٨ .

٣٨ـ العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله (٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م) :

١ ـ الاوائل ، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب ، دمشق ١٩٧٨ ، (جزءان).

٢ ـ جمهرة الامثال ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش ، القاهرة ١٩٦٤ (جزءان) .

٣٩ـ علي ، جـواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، طبعة دار العلم للملايين، بيروت ط٢ ، ١٩٧٨ (١٠ أجزاء) .

٤٠ـ فروخ ، عمر : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٤ .

٤١ـ القلقشندي ، احمد بن علي (٨٢١ هـ/١٤١٨م) : صبح الاعشى ، القاهرة ١٩٢٤ مما بعدها .

٤٢ـ كريستنسن ، آرثر : ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧ .

٤٣ـ المسعودي ، علي بن الحسين (٣٤٦هـ/٩٥٢م) :

١ ـ التنبيه والاشراف ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨١ .

٢ ـ مروج الذهب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٥، بيروت ١٩٧٣ (٤ اجزاء) .

٤٤ـ المفضل الضبي ، (١٦٨ هـ او ١٧٨ هـ / ٧٨٤ م او ٧٩٤ م):

١ ـ أمثال العرب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٨٠ .

٢ ـ المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، القاهرة ، ط٥، ١٩٧٦ .

٤٥ـ الميداني ، احمد بن محمد (٥١٨هـ/١١٢٤م) : مجمع الامثال ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، طبعة دار الفكر ، ط٤ ، بيروت ١٩٧٢ (جزءان).

٤٦ـ د. نصار ، حسين : قبيلة الازد ، مجلة العرب ، الرياض ، السنة الخامسة ـ الجزء التاسـع .

٤٧ـ نغرين ، جيواويد : ماني والمانوية ، ترجمة د. سهيل زكار ،دمشق ١٩٨٥ .

٤٨ـ الهمداني ، الحسن بن احمد (نحو ٣٤٥ هـ/٩٥٦) :

١ ــ الاكليل ، الجزء الاول ، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي ، بغداد ١٩٧٧ .

٢ ــ شرح قصيدة الدامغة ، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي ، القاهرة ١٩٧٨ .

٤٩ــ الوزير المغربي ، الحسين بن علي (٤١٨هـ / ١٠٢٧م) : الإيناس في علم الانساب ، نشر حمد الجاسر ، الرياض ١٩٨٠ .

٥٠ــ ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ/١٢٢٦م) : معجم البلدان ، طبعة دار صادر بيروت ١٩٨٤ ، (٥ أجزاء).

٥١ــ اليعقوبي ، أحمد بن يعقوب المعروف بابن واضح الاخباري (٢٩٢ هـ /٩٠٤م): تاريخ اليعقوبي ، بيروت ١٩٦٠ (جزءان).

الحواشي :

(١) ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ٦ : ١٨ ، وانظر البغدادي : **خزانة الادب** ١١ : ٤٠٨ .

(٢) الطبري : **تاريخ الامم** ١ : ٦١٢ .

(٣) ابن حزم : **جمهرة انساب العرب** ٩ ، ٨ .

(٤) انظر مقال د. حسين نصار عن **قبيلة الازد** في **مجلة العرب السعودية** ، السنة الخامسة ــ الجزء التاسع ص ٨٠٢ ــ ٨١٩ .

(٥) الطبري : **تاريخ الامم** ١ : ٦١٢ ــ ٦١٣، وقارن بالامدي : **المؤتلف والمختلف** ٣٩ ، والاصفهاني : **الاغاني** ١٩ : ٣١٢ ، وابن نباتة : **سرح العيون** ٧٧ .

(٦) المسعودي : **مروج الذهب** ٢ : ٦٦ .

(٧) ابن حبيب : **اسماء المقتالين** (ضمن نوادر المخطوطات) ٢ : ١١٢ .

(٨) اليعقوبي : **تاريخ اليعقوبي** ١ : ٢٠٨ .

(٩) ابن دريد : **الاشتقاق** ٤٤٧ ، وانظر ص٣٧٨ و ٥٤٣ .

(١٠) الهمداني : **شرح القصيدة الدامغة** . ٥٩ .

(١١) الاصفهاني : م.س ١٥ : ٣١٢ .

(١٢) ابن حزم : **جمهرة انساب العرب** ٣٧٩ .

(١٣) ياقوت الحموي : **معجم البلدان** (الحيرة) .

(١٤) الهمداني : **الاكليل** ٢ : ١٤٠ ، والبكري : **فصل المقال** ١٢٤ .

(١٥) انظر ابن اياس : **تاريخ الموصل** ٩٨ .

(١٦) م.ن ٩٨ــ١٠١ .

(١٧) انظر الطبري : **تاريخ الامم** ١ : ٦١٠ ،وحمزة الاصفهاني : **تاريخ سني ملوك الارض** ٧٥، وابن الاثير : **الكامل** ١ : ٣٤١ ، وابن سعيد الاندلسي : نشوة الطرب ٢٢٠ .

(١٨) ابو هلال العسكري : **الاوائل** ١ : ١٠١ ، وانظر ابن حزم : **جمهرة انساب العرب**٣٨٠.

(١٩) انظر الطبري : م.س ١ : ٦١١ ــ ٦١٢ ، وابن الاثير : م.س ١ : ٣٤١ ، وقارن بحمزة الاصفهاني م.س ٧٤ــ٧٥.

(٢٠) انظر جواد علي : **المفصل في تاريخ العرب** ٣ : ١٨٣ ــ ١٨٤ ، وصورة النقش المذكور في كتاب **مصادر الشعر الجاهلي** ص ٢٦، وفي **تاريخ اللغات السامية** ص ١٣٧ .

(٢١) انظر **ديوان عدي بن زيد العبادي** ق/١٣٨ ، **ومفضلية متمم بن نويرة** (البيت ٢١) ، وشعر **المخبل السعدي في تاريخ الطبري** ١ :٦٢٥ ، وشعر نهشل بن حرى في **معجم ما استعجم** ٢٦٥ .

(٢٢) انظر اليعقوبي : **تاريخ اليعقوبي** ١ : ٢٠٨، والعسكري : **الاوائل** ١ : ١٠١، والعسكري:

جمهرة أمثال العرب ١ : ٢٣٣ .

(٢٣) ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ٤ : ٣٦١ ، وانظر اخبار اردشير في تاريخ الطبري ٢ : ٤٢ ، وابن الاثير : **الكامل** ١ : ٣٨٠ — ٣٨٤ ، والمرغني الثعالبي : **تاريخ غرر السير** ٤٧٣ — ٤٨٦ .

(٢٤) ابن خلكان : م.س ٤ : ٣٦١ .

(٢٥) انظر البيروني : **الاثار الباقية** ١٤ .

(٢٦) انظر : ارثر كريستنسن : **ايران في عهد الساسانيين** ٧٥ — ٧٦ ، والاعظمي : **ملوك الحيرة** ١٤ .

(٢٧) انظر الاعظمي : م.س ١٤ .

(٢٨) انظر عمر فروخ : **تاريخ الجاهلية** ٦٨—٦٩، وقارن بجيواويدنغرين : **ماني والمانويسة** ١٦٢ — ١٦٣ .

(٢٩) انظر جواد علي : **المفصل في تاريخ العرب** ٣ : ١٩١ .

(٣٠) الطبري : **تاريخ الامم** ٢ : ٦١ وما بعدها ، وجواد علي : م.س ٣ : ١٩٤.

(٣١) الشريشي : **شرح مقامات الحريري** ٢ : ٥ ، وابن خلكان : **وفيات الاعيان** ٦ : ١٨ ، وابن خلدون : **تاريخ العرب والبربر** ٢ : ٥٤١ ، والعباسي : **معاهد التنصيص** ١ : ٣١٢ فما بعدها .

(٣٢) انظر الاعظمي : م.س ١١ و ١٨ .

(٣٣) انظر ابن قتيبة : **المعارف** ٦٤٦ ، وحمزة الاصفهاني : **تاريخ سني ملوك الارض** ٧٦ ، وابن رشيق : **العمدة** ٢ : ٢٤٩ ، وابن خلكان : م.س ٥ : ٤٦ ، والعباسي : م.س ١ : ٣١٢ .

(٣٤) انظر المسعودي : **مروج الذهب** ٢ : ٦٥ ، والبكري : **فصل المقال** ٤٢١ .

(٣٥) انظر المسعودي : **التنبيه والاشراف** ١٨٩ .

(٣٦) انظر الهمداني : **شرح القصيدة الدامغة** ٥٩٠.

(٣٧) العباسي : **معاهد التنصيص** ١ : ٣١٢ .

(٣٨) انظر الطبري : **تاريخ الامم** ١ : ٦١٣ ، والهمداني : م.س ٥٩٠ ، والاصفهاني : **الاغاني** ١٥ : ٣١٥ ، وياقوت الحموي : **معجم البلدان** (الحيرة) .

(٣٩) انظر المسعودي : م.س ٢ : ٦٥ ، وقارن بياقوت : م.س (المضيق) ، وعبد المنعم الحميري : **الروض المعطار** (المضيق) .

(٤٠) انظر اليعقوبي : **تاريخ اليعقوبي** ١ : ٢٠٨ ، والطبري : م.س ، وابن نباته : **سرح العيون** ٧٧ ، وياقوت : م.س (عين أباغ) .

(٤١) انظر اليعقوبي : **تاريخ اليعقوبي** ١ : ٢٠٨ ، وقارن بابن منظور : **اللسان** (ضزن) .

(٤٢) انظر الطبري : **تاريخ الامم** ١ : ٦١٥ ، وابن الاثير : **الكامل** ١ : ٣٤٣ .

(٤٣) انفرد الهمداني بنسبة نديمي جذيمة الى طيء — انظر **شرح القصيدة الدامغة** ٥٩٠ .

(٤٤) انظر المفضل الضبيء : **المفضليات** — المفضلية ٦٧ ، البيتان ٢٠ و ٢١ .

(٤٥) انظر المسعودي : **مروج الذهب** ٢ : ٣١ ، والانباري : **شرح القصائد السبع الطوال** ٢٥٩ — ٢٦٠ ، والثعالبي : **ثمار القلوب** ١٣٥ والوزير المغربي : **الايناس في علم الانساب** ١١٢ .

(٤٦) المفضل الضبي : **أمثال العرب** ١٤٩ ، والبكري : **فصل المقال** ٣٩٧ .

(٤٧) المفضل الضبي : م.س ١٥٠ ، وابو هلال العسكري : **جمهرة الامثال** ١ : ٥٤٧ ، والزمخشري : **المستقصى في امثال العرب** ١ : ٣٧١ .

(٤٨) الزمخشري : م.س ٢ : ٢٢٤ .

(٤٩) الطبري : **تاريخ الامم** ٢ : ٤٢ ، وانظر ابن الاثير : **الكامل** ١ : ٣٨٤ .

(٥٠) انظر البغدادي : **الخزانة** ١١ : ٤١٨ ، وقارن بالاصفهاني : **الاغاني** ١٥ : ٣١٢ .

(٥١) انظر الطبري : **تاريخ الامم** ١ : ٦١٣ ، وابن سعيد الاندلسي : **نشوة الطرب** ١ : ٦٨ .

(٥٢) انظر حمزة الاصفهاني : **تاريخ سني ملوك الارض** ٧٥ .

(٥٣) قال الدينوري في قاتلة جذيمة هي « مارية ابنة الزباء الغسانية » **الاخبار الطوال** ٥٤.

وقال البغدادي في اسم الزباء : « وقيل فارعة ، وقيل ميسون » ثم نسبها ، فقال: « وقيل ان الزباء بنت مليح بن البراء كان ابوها ملكا على الحضر ، وهو الذي ذكره عدي بن زيد بقوله :

واخو الحضر اذ بناه واذ دجـ
ـلة تجبي اليه والخابور

انظر **الخزانة** ٨ : ٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

(٥٤) قال ياقوت الحموي في (بقة) : « اسم موضع قريب من الحيرة ، وهو على فرسخين من هيت ، وكان ينزله جذيمة الابرش ملك الحيرة .. وفيها يقول عدي بن زيد :

دعا بالبقه الامراء يوما
جذيمة عام ينجوهم ثبينا

فطاوع امرهم وعصا قصيرا
وكان يقول : لو نفع اليقينا »

معجم البلدان (بقة) .

(٥٥) هو قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس بن هليل بن دحي بن نمارة بن لخم انظر ابن حبيب : **أسماء المغتالين** ١١٤ .

(٥٦) انظر العسكري : **الاوائل** ١ : ١٠٥،والطبري **تاريخ الامم** ١ : ٦٢٠ والميداني : **مجمع الامثال** ١ : ٣٢٧ .

(٥٧) انظر قصة جذيمة والزباء في : الضبي : **امثال العرب** ١٤٣ ــ ١٥٠ ، والاخفش :كتاب **الاختيارين** ٧١٩ وما بعدها ، وابن حبيب : **اسماء المغتالين** (ضمن نوادر المخطوطات) ٢ : ١٣ ــ ١١٥ ، والطبري : **م.س** ١ : ٦١٧ وما بعدها ، والهمداني : **شرح القصيدة الدامغة** ٥٩١ ، والمسعودي : **مروج الذهب** ٧٣ ، والاصفهاني : **الاغاني** ١٥: ٣١٦ وما بعدها ، والعسكري : **جمهرة الامثال** ١ : ٢٣٢ والبكري : **فصل المقال** ١٢٤ ــ ١٢٥ ، ونشوان الحميري : **الحور العين** : ٣٠٠ ــ ٣٠٤ ، والميداني : **م.س** ١ : ٢٢٣ــ ــ ٢٢٧ ، وابن الاثير : **الكامل** ١ : ٣٤٥ ــ ٣٥١ ، وابن نباتة : **سرح العيون** ٧٧ــ٨١ ، وابن سعيد الاندلسي : **نشوة الطرب** ١:٥٩ ــ ٦٦ ، والعباسي : **معاهد التنصيص** ١:٢١٢ وما بعدها ، والبغدادي ، **خزانة الادب** ٧:٢٧٣ ــ ٢٩٥ .

(٥٨) انظر جرجي زيدان : **العرب قبل الاسلام** ٩٣.

(٥٩) لا ندري كيف يصح نعت جذيمة بهذه الصفة، وقد خدع بكتاب الزباء اليه ، وهو قاتل ابيها . وهذا أمر يرجح أن قصته مع الزباء أسطورة لا أساس لها من الصحة .

(٦٠) انظر في مآثر جذيمة وأستحداثاته: ابن حبيب **أسماء المغتالين** (ضمن نوادر المخطوطات) ٢ : ١١٢ والجاحظ : **البرصان والعرجان** ٧٣، وابن قتيبة : **المعارف** ٦٤٦، والطبري : **تاريخ الامم** ١ : ٦١٣ ، والعسكري : **الاوائل** ١ : ٧٩ ، ٩٨ ــ ١٠٠ ، والاصفهاني : **الاغاني** ١٥ : ٣١٥ ، وابن رسته : **الاعلاق النفيسة** ١٩٢ ، والسيوطي : **الوسائل الى معرفة الاوائل** ٧٣ ، ٧٩ ، ١٠٣ ، والنويري : **نهاية الارب** ١٥:٣١٦ ، والعباسي **معاهد التنصيص** ١ : ٣١٢ ، والقلقشندي : **صبح الاعشى** ١ : ٤١٦ ، والبغدادي : **خزانة الادب** ١١ : ٤٠٨ ــ ٤٠٩ .

(٦١) سيبويه : **الكتاب** ٣ : ٥١٧ .

(٦٢) ابن سلام : **طبقات فحول الشعراء** ١ : ٣٧ ، ٣٨ .

(٦٣) الاصفهاني : **الاغاني** ١٥ : ٣٢١ .

(٦٤) الامدي : **المؤتلف والمختلف** ٣٩ .

دور الجمل والحصان في الفتوح العربية المبكرة

د. نبيه عاقل
جامعة دمشق

١ ـ الجمل :

للجمل في العربية اسماء متعددة . وتستخدم غالبية المصادر كلمة « بعير » للدلالة عليه وهي الكلمة الاكثر شيوعا على لسان البدو حتى يومنا هذا . وتستعمل للمؤنث والمذكر ، وهناك كلمات أخرى مثل « الناقة » وهي للمؤنث البالغ ، « والابل » وهي للجمع ، و « الجمل » للمفرد المذكر . أما «راحلة» فتعني القوي القادر على الاحتمال والاسفار للذكر والانثى ، و « الركاب » بمعنى ، الابل الصالحة للركوب وواحدتها راحلة ، وقد ذكرت في القرآن الكريم (٥٩ ، ٦) ، وقصد منها التفريق بوضوح بين الجمال والخيل .

وفي حالات قليلة استخدمت مصطلحات أخرى ك : « الناضح » للدلالة على الجمل الذي يستخدم عادة لنضح الماء من الآبار ، وقد يستعمل أحيانا للركوب ، و « النجيبة » وهي من جمال الركوب ، وكذلك : « الذلول » و « المطي » فهما أيضا من أسماء جمال الركوب . واستخدمت كلمة « بكر » لمن كان صغير السن . وتطلق كلمة « ظعينة » للدلالة على القفص الخشبي الذي يعلو ظهر الجمل لركب النساء .

وقد ادى فقر المسلمين الاوائل الى قلة عدد الجمال التي رافقتهم في المسيرة الى بدر ، إذ لم يكن بحوزتهم الا ما يقارب السبعين جملا ، وعدد الرجال يزيد على الثلاثمئة مقاتل ، فضلا عن ثقلهم ومتاعهم ، ولذا كان الرجال يتناوبون ركوب الجمال . ويتضح لنا من قراءة أولية لاخبار أغلب سرايا الرسول (ص) وغزواته أن عدد الجمال من الجانبين : المسلم والمشرك ، كان على الدوام أقل من عدد الرجال المشاركين في القتال.

على أن الحال تبدل فيما بعد ، وغدا عدد أوفر من الجمال بتصرف المسلمين ، وذلك بسبب ما غنموه في معاركهم التالية ، وانضمام عدد أوفر من الاعراب راكبي الجمال ، الى الصف الاسلامي . وطبيعي انه كان للجمل أهمية بالغة في الاعمال

دراسات تاريخية ، العددان ٤٧ و ٤٨ ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٩٣ .

الحربية لانه كان وسيلة الانتقال الاكثر شيوعا . ولم يأت عصر الفتوح ، حتى كان اغلب المقاتلين يملكون الجمال .

ولا تذكر المصادر في حديثها عن المعارك التي خاضتها جيوش الفتح المختلفة اي شيء من وسيلة الانتقال التي استخدمتها هذه الجيوش ، لانه من المعروف أن الجمال كانت هي الوسيلة الاهم ، إلا اذا أشير الى سواها . وكمثال على ذلك فان عمرو ابن العاص حين استخدم خيلا في فتح مصر ، أشارت المصادر الى ذلك صراحة(١) . واستمر اعتماد العرب على الجمل كوسيلة أساسية للنقل والانتقال طوال عصر الفتوح ، وكان بين أهم غنائمهم من شمال افريقيا ، الاعداد الكبيرة من الجمال التي حصلوا عليها من مصر وشمال افريقيا ، رغم أنه كان في جيشهم الذي فتح مصر فرقة خيالة لم يكن لها ما يماثلها في فتوحهم السابقة . وقد عادوا للاعتماد على الجمل في فتحهم لبلاد المغرب التي كانت قد أهلت الجمل قبل ذلك بأمد طويل .

اما في المصادر التي تتحدث عن فتح فارس وهضاب آسيا الوسطى ، وبسبب طبيعة الارض، فلا نجد إلا اشارات قليلة للجمال . وربما كانت الجمال التي استعملت في هذه الفتوح هي الجمال ذات السنامين التي تستخدم لنقل العتاد والمتاع ، وليس جمال الركوب ذات السنام الواحد . وقد أدى اعتماد الفاتحين لهذه الاصقاع على البغال والخيل الثقيلة والجمال ذات السنامين الى تغير نمط القتال البدوي الذي كان سائدا من قبل . فلم يعد المقاتلون يركبون الجمال أثناء القتال ، بل غدا الجيش مؤلفا من مشاة يقاتلون على الاقدام ، وفرسان يقاتلون وهم يمتطون صهوة الخيول ، وغدا هؤلاء الفرسان صفوة المقاتلين .

ولا توفر لنا المصادر معلومات كافية عن وسائل النقل التي استخدمها الفاتحون في عمليات فتح الاراضي القاحلة في الصحراء الكبرى وخراسان . فقد اتبع المقاتلون في غاراتهم الاولى على خراسان طريق الصحراء ، حيث يندر وجود الماء ، وبالتالي يصعب استخدام الحصان والبغل . وكان الناس في هذه الاصقاع يستخدمون الجمل ذا السنام الواحد منذ قرون عديدة سبقت محاولة الفتح الاسلامي ، كما استخدمه الاسكندر المكدوني في مسيرته من برسيبوليس الى خراسان . ولذا فانه من المرجح أن العرب ايضا استخدموا هذا النوع من الجمال للنقل والركوب عند غزوهم للصحارى والسهوب الواقعة شرق وشمال شرق الهضبة الايرانية .

ومعروف أن العرب استخدموا الجمل ذا السنام الواحد لاغراض عدة ، منها الركوب ، ونقل الامتعة ، وللاعمال الزراعية . كما انه ليس سهلا ان يقوم المقاتل

بمواجهة خصمه من على ظهر جمل ، لذا فان استخدام الجمل لركوب الفرسان لم يكن شائعا ، ولا نجد الا اشارات قليلة لهذا النوع من المطية في قتال هذه الفئة من الجيش ، منها على سبيل المثال ان حامل راية هوازن في غزوة حنين قاتل برمحه من على ظهر جمله ، كما ان بعضهم قاتل في القادسية وهو يركب جملا . ولكن هذه الاخبار قليلة ، لا بل ان هناك العديد من الاشارات الى ترجل الرجال عن جمالهم ليقاتلوا ، أو تركهم لها في المعسكرات بحراسة العبيد ، هذا فضلا عن انهم في موقعة اليرموك وضعوا الجمال حول المعسكرات لحمايتها . وكان على المقاتل الذي لا يملك فرسا أن يقاتل مع المشاة ، أو أن يصنف مع المشاة المحمولة اذا أصر على ركوب جمله . وكانت سرعة المسير تختلف حسب طبيعة الرحلة وتركيبة القوة المقاتلة. وطبيعي أن أسرع المسافرين كانوا السعاة الذين يكلفون بمهام خاصة ، ولا يحملون بالتالي متاعا ، كما لا تصحبهم زوجات وأطفال . فقد كانت الرحلة بين مكة والمدينة ، التي تزيد على ٢٥٠ ميلا ، لا تستغرق اكثر من ثلاثة أو أربعة أيام بالنسبة لهؤلاء السعاة . في حين أن المثنى بن حارثة قطع المسافة بين المدينة والحيرة والتي تبلغ ٦٧٠ ميلا في عشرة أيام . وتتفق المعلومات التي ترد على ألسنة المسافرين في أيامنا هذه مع هذه الارقام . فقد استطاع الرحالة والباحث المعروف ببحوثه عن جغرافية الجزيرة العربية السيد تسيجر أن يقطع مسافة ٤٥٠ ميلا في مدة تسعة أيام(٢) . كما يتحدث موزيل عن رحلة قام بها ساعيان قطعا خلالها مسافة ٩٤ ميلا في أربع وعشرين ساعة فقط(٣) ، وعن رجل قام برحلة قطع فيها مسافة ١٦٠ ميلا من شروق الشمس حتى مغيبها ، ونام الليل ليؤدي رحلة العودة في اليوم التالي من الشروق وحتى المغيب ، كما فعل في اليوم السابق(٤). ويقدر دواتي أن الذلول المعافى يستطيع قطع ٦٠ــ٧٠ ميلا في اليوم(٥) .

وطبيعي ان يكون متوسط سرعة السرية التي تقوم بمهمة قتالية أبطأ من ذلك ، إذ قد تواجه صعوبات على الارض أو قد ينقصها الماء ، أو قد تنفق بعض رواحلها، الامر الذي جعل الباحثين يتفقون على أن معدل مسير السرية هو ٣٥ ــ ٤٠ ميلا في اليوم الواحد . وكمثال على ذلك يمكننا أن نذكر مسيرة سعد بن أبي وقاص وجيشه الى القادسية . فقد تأثرت مسيرة سعد هذه بأمور واعتبارات لا علاقة لها بقوة احتمال الجند أو الرواحل التي يمتطون . فقد كان في جيش سعد بعض من رجال القبائل اليمنية الذين جاؤوا ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأمتعتهم . كما كان تقدمه يتم على مراحل ليضمن توافر الماء والمرعى للرواحل من جهة ، وليضم الى جيشه محاربين من القبائل التي كان يمر بها من جهة أخرى . وطبيعي أن هذا سيؤدي لان تكون سرعته بحدود العشرين ميلا في اليوم ، لا أكثر .

ب ــ الحصان :

في مصادرنا العديد من الاشارات الى الحصان في هذا المجال . وعلى الرغم من

ان الجمل كان في الايام الاولى للفتوح والمعارك ، هو الراحلة المعتمدة اكثر من سواها، الا ان الاشارات الى « الفرس » و « الفارس » و « الخيل » تتوافر في هذه المصادر في حديثها عن فترة الجاهلية وعصر الرسول (ص) . كما تورد المصادر كلمة « خيل » لتدل على التشكيلات التي يعتمد فيها المقاتلون على الحصان أو الفرس لركوبهم . أما كلمة « كراع » فكانت تستعمل كمصطلح جمعي للدلالة على حيوانات الركوب، لا لتدل على تشكيل قتالي ، كما يظن البعض .

وهناك تسميات لوحدات الخيالة تبعا للمهام التي كانت توكل اليها، ومنها:

١ ــ الكتيبة : وكانت تعادل ما يمكن أن نعتبره اليوم وحدة خيالة .

٢ ــ الطليعة : هي فئة من الفرسان قليلة العدد مهمتها الاستطلاع والتعرف على اوضاع العدو ويكون عدد أفراد الطليعة بين الواحد والعشرة . كما يستخدم اصطلاح « طليعة » على فئة صغيرة تقوم بالغارة السريعة والعودة .

٣ ــ السرية : بين الطليعة بمعناها الثاني ، والسرية شيء من تشابه . أي ان السرية تقوم بمهام الاستطلاع والغارة معا . وقد استعمل الواقدي في (مغازيه) كلمة « سرية » للتفريق بين حملة عسكرية لم يشارك الرسول فيها ، واخرى قادها هو بنفسه .

٤ ــ الجريدة : يستعمل هذا المصطلح غالبا مضافا اليه كلمة « خيل » . ومعنى « جريدة خيل » الجماعة الراكبة للخيول والتي تتوغل في أرض العدو مسافات بعيدة ، وتفعل ما تراه مناسبا وفق الظرف الذي تجد نفسها فيه .

٥ ــ المجردة : وكان هذا المصطلح (المجردة) يستعمل للدلالة على سلاح الخيالة كجزء من التشكيل العسكري للجيش في المعركة .

٦ ــ الرابطة : عند فتح مدينة أو مقاطعة ، كان الفاتحون في بعض الاحيان يتركون وراءهم حامية راكبة لتتمركز في الارض المفتوحة كقوة حراسة متحركة مهمتها قمع أي تحرك أو ثورة ضد الفاتحين . ومن هنا جاء اصطلاح «المرابطة».

٧ ــ الكردوس : لا نجد هذا المصطلح الا في رواية سيف بن عمر التميمي عن معركة اليرموك . اذ انه يتحدث عن انقسام الخيالة الى « كراديس » ، ويعطينا أسماء قادة هذه الكراديس .

كان عدد الخيل بحوزة المسلمين في أيام معاركهم الاولى قليلا ، ولكنه ازداد بعد أن فتحوا مكة ، وانضم اليه ما كان بحوزة اثريائها من خيل . ففي معركة بدر ، وبعد أن طرد المسلمون بني قريظة ، كان بين ما خلفه هؤلاء ، عدد غير كبير من الخيل

استولى عليها المسلمون . ولا نجد في اخبار معركة حنين وما وقع للمسلمين فيها من غنائم أي ذكر للخيل ، رغم انهم استولوا على / ٦٠٠٠ / جمل . وقد ابتاع المسلمون خيولا مما خلف بنو قريظة وبنو النضير ، ونصت معاهدة الصلح مع نجران أن على أهل نجران ان يقدموا للمسلمين ثلاثين حصانا في حال وقوع حرب .

ويمكن القول ان عدد الفرسان ، كجزء من جيوش المسلمين ، ظل قليلا حتى كان نصرهم في اليرموك والقادسية . اذ كان بين غنائم هاتين المعركتين عدد كبير من الخيول . كما حاول الخلفاء ، ومنهم عمر بن الخطاب ان يزودوا جيوش الفتح بهذه الخيول من مناطق كالكوفة وشمال سورية . وتتحدث المصادر عن شخص اسمه نافع بن الحارث اقطعه الخليفة عمر أرضا في البصرة فجعل منها مزرعة لتربية الخيول .

بعد هذه المقدمة السريعة التي قصدنا منها اثارة الموضوع ، لا الدخول في تفصيلاته ، لا بد لنا من التذكير بأن معرفة العرب بالخيل تعود الى فترة ما قبل الاسلام ، حتى ان الله كرمها فذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ..». كما جعل الرسول (ص) نصيب الفارس من الغنائم التي يحصل عليها المسلمون من اعدائهم ثلاثة اضعاف ما يحصل عليه الراجل ، وذلك تشجيعا لهم لاقتناء الخيل . وعلى الرغم مما ذكرناه عن قلة عدد الخيل في بعوث الرسول (ص) وغزواته الاولى ، اذ بدات كما هو معلوم بفرسين فقط في غزوة بدر سنة ٢هـ ، فانها ما لبثت ان اخذت بالتزايد باضطراد حتى بلغت بضعة الاف فرس في نهاية عهد الرسول (ص) ، واستمرت بالتزايد زمن أبي بكر وعمر . وغدا لفرق الفرسان دور بارز في الجهاد وحركة الفتح الاسلامي داخل الجزيرة وخارجها . ولم يكن القرآن وحده في تكريم الخيل والحث على اقتنائها وتعلم ركوبها ، بل ان هناك العديد من الاحاديث النبوية التي تكرم الخيل وتحث المسلم على الاحسان اليها والترفق بها . ومن ذلك قوله ، صلوات الله عليه : « ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها واعجازها(٦) ، وقوله : « ان المنفق على الخيل في سبيل الله كباسط يديه بالصدقة لا يقبضها »(٧). الى غير ذلك من أحاديث كثيرة في هذا المجال .

ولعل اهم تشجيع على اقتناء الخيل اعفاؤها من ضريبة الزكاة ، برغم أن الزكاة فرضت على كافة الانعام ، بما في ذلك الابل التي استعملت للركوب في الجهاد . يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « ان الله تجاوز لكم عن صدقة الخيل »(٨) . وامعانا في تكريم الخيل وراكبيها ، جعل نصيب الفارس من الغنيمة ثلاثة اضعاف

الراجل ، وحديث ذلك كما ترويه المصادر، ان الرسول(ص)عندما قسم غنائم بدر أعطى الفارس سهمين والراجل سهما (٩) . وفي حديث ابن هشام عن غزوة بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة يذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم « أعلم في ذلك اليوم سُهمان الخيل وسُهمان الرجال .. فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم ، وللراجل من ليس له فرس سهم »(١٠) . والنص هنا يحدد بدقة بداية العمل بهذا النظام . واستمر الحال على هذا النهج في غزوة خيبر عام ٧ هـ(١١). أما الشيباني، فقد ذكر في « شرح كتاب السير الكبير » ما يلي : « واذا أصاب المسلمون الغنائم فاحرزوها وارادوا قسمتها فعلى قول أبي حنيفة يعطى الفارس سهمين ، سهما له وسهما لفرسه ، والراجل سهما . وقال (ابو حنيفة) : لا أجعل سهم الفرس افضل من سهم الرجل المسلم ، وهو قول اهل العراق من أهل الكوفة والبصرة . وعلى قول ابي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني رحمهما الله للفارس ثلاثة أسهم : سهم له وسهمان لفرسه ، وهو قول أهل الحجاز وأهل الشام . قال محمد بن الحسن الشيباني : وليس في هذا تفضيل البهيمة على الادمي ، فان السهمين لا يعطيان للفرس ، وانما يعطيان للفارس فيكون في هذا تفضيل للفارس على الراجل ، وذلك ثابت بالاجماع ، ثم هو يستحق احد السهمين بالتزام مؤونة فرسة والقيام بتعاهده، والسهم الاخر لقتاله على فرسه، والسهم الثالث لقتاله ببدنه، وقال: أرجح هذا القول(١٢).

وحول هذه المسألة نقاش اوسع لن ندخل في تفصيلاته . على ان غزوة خيبر اكدت حق الفارس في الحصول على ثلاثة أضعاف ما يحصل عليه الراجل من الغنيمة. وقد يكون من المناسب هنا أن نتساءل عن سبب اهتمام المسلمين بزيادة عدد خيلهم في غزوة خيبر عام ٧هـ ، وقد كان قبل اقل من سنتين أي في غزوة بني قريظة في أواخر العام ٥ هـ لا يتجاوز ستا وثلاثين فرسا !! ولسنا نجد تفسيرا أوضح مما جرى في غزوة احد حين انشغل رماة المسلمين بجمع الغنائم ، فاغتنمت خيالة المشركين هذا الموقف لان يوجهوا للمسلمين ضربة قاسية من الخلف . وأدرك المسلمون أهمية الخيالة فعملوا مذ ذاك على تقوية هذا الجزء من جيشهم . وقد كان للنظام الذي وضعه الرسول بتخصيص ثلاثة أسهم من الغنيمة للمقاتل الفارس أثره على الذين ارادوا ان يكون لهم نصيب أوفر من هذه الغنائم، فاصطحب بعضهم اكثر من فرس لميدان القتال، ويبدو أن الرسول كان في بعض الاحيان يسهم للشخص الذي يصطحب معه فرسا آخر بأربعة أسهم لفرسيه ، وسهما له ، وبذلك يرتفع نصيبه من الغنائم الى خمسة أضعاف الراجل . على انه كان لا يسهم للرجل فوق فرسين ، كما ذكر ابن قدامة(١٣) .

على ان هذا لم يحدث الا في حالات قليلة ، اذ ذهب غالبية المحدثين والفقهاء الى القول أن الرسول(ص) لم يكن يسهم لاكثر من فرس واحد(١٤) وأياً كان ، فقد اخذت

اعداد خيول المسلمين بالتزايد ، حتى كان عدد خيول المهاجرين والانصار وحدهم عند فتح مكة ثمانمائة فرس . وكان لبني مزينة في هذه الوقعة مائة فرس، ولأسلم ثلاثون فرسا ولجهينة خمسون فرسا ، ولبني سليم تسعون فرسا(١٥) . وفي غزوة تبوك بلغ عدد الخيل اوج ارتفاعه في عهد الرسول (ص) اذ اشترك في هـذه الغزوة عشرة آلاف فارس مسلم(١٦) . وكانت تبوك آخر غزوة قادها الرسول (ص) ، وقد حمى الرسول (ص) لخيول المسلمين حِمى النقيع(١٧) ، مرعى ترعى فيه هذه الخيول المرتبطة للجهاد دون سواها من البهائم ، ولا يسمح لغيرها أن ترعى فيه . وفي هذا التدبير فائدتان : اولاهما ضمان وجود الكلأ الكافي لخيل الجهاد ، وثانيهما : فان وجود هذه الخيول في مكان واحد يجعلها في حالة استعداد دائم عند الحاجة اليها للجهاد . وقد استمر العمل بهذا النظام زمن خلافة الراشدين . واستفاد أبو بكر من قوة الفرسان التي نظمهـا الرسول (ص) في الاعمال العسكرية التي قام بها لتثبيت هيبة الدولة ابان الردة ، ومن ثم عند اطلاقة عملية الفتح ، بدءا من بعث أسامة بن زيد الى مؤتة ، كما هو معلوم . وقد اضاف ابو بكر عنصرا جديدا في هذا المجال ، اذ استخدم جزءا من حصة الدولة من الغنائم ، وهي الخمس ، في شراء الخيـل والسـلاح للمقاتلة الذين لا يملكـون ما يكفي لشرائهما(١٨) .

واستمر الخليفة عمر بن الخطاب في رعاية الخيـل والعناية بهـا والاعتمـاد عليهـا في عمليـات الفتح التي اتسـعت اتساعا كبيرا في عهده فشـملت العـراق وفارس والشام ومصر ، ولعبت الخيل وفرسانها دورا بارزا في هذه الفتوح . علـى أن المؤسف ان مصادرنا لا تسعفنا بأية احصاءات أو أرقام عن عدد هذه الخيـول . وربما كان الجديد في هذا المجال هو ما تم زمن هذا الخليفة من تجربة جديدة ومثيرة، وهي المواجهة التي أخذت تقع بين الخيل والافيال التي استعملها الفرس في حروبهم ضد العرب ، بدءا من موقعة الجسر وما تلاها ، على النحو المعروف . وكما فعـل الرسول (ص) وأبو بكر من بعده ، اهتم عمر بتوفير المراعي لخيل المسلمين وحمى لهـا الحمى، لا سيما وانه كسلفه، أبي بكر ، اشترى عددا كبيرا منها من أموال الخمس(١٩) .

ويقودنا هذا الحديث عن الجمال والخيل كأدوات ركوب ونقل في المعارك ، الى دور هذين الحيوانين في طبيعة المعارك وسير عملياتها . ومعروف ان البدو منذ فترة الجاهلية كانوا يقومون بالغزو ، والغزو يعتمد على عناصر ثلاثة هي : سرعة الحركـة وخفتها ، وعنصر المفاجأة ، والهرب من الملاحقة . وقد استمر أسلوب الغزو هـذا ، وما يجب ان يتوافر له من عناصر لنجاحه ، الاسـلوب المتبـع في بعض العمليـات العسكرية بعد قيام الاسلام . ومن ذلك العمليات التي قادها المثنى بن حارثة على طول نهر الفرات بعد رحيل خالد بن الوليد . فقد كان المثنى يقوم ليلا بمهاجمـة المـدن

الواقعة على ضفاف النهر ، ثم ما يلبث قبـل شـروق الشمس أن يفر عائـدا الى الصحراء، ليعاود الكرة في اليوم التالي . وكان المثنى ورجاله يحرصون على عـدم اثقال رواحلهم بحمل المتاع الثقيل ، بل كانوا يكتفون بما يقع لهم من ذهب وفضـة ونفائس . وقد فعلوا الشيء ذاته في هجماتهم على الحيرة وسواها من مدن الفرات.

وقد اتبع المسلمون اسلوب الغزو هذا في فتح بلاد ما بين النهرين ، وفي الهجمات الاولية على اذربيجان وطبرستان وخراسان . وقد حتم عليهم هذا الاسلوب، انه اذا ما صمدت قلعة في وجههم أن يتركوها ، واذا ما ثار عليهم سكان مدينة بعد رحيلهم عنها أن يعاودوا الكرة في مهاجمتها حين تسنح الفرصة .

وطبيعي ان أسلوب الغزو في القتال وما يرتبط به من سرعة في الحركة كان يحقق نجاحا أوضح حين تكون الارض المهاجمة منبسطة ، أو صحراوية ، لا عقبات طبيعية فيها تقف في وجه الغزاة . على أن هذا لا يعني أنهم لـم يكونوا مستعدين للقتـال في الاراضي الاخرى . اذ تحفل مصادرنا بأخبار المعارك في الوديان والجبال ، وعبورهـم للانهار ، واستعانتهم بالسكان المحليين لبناء الجسور على هذه الانهار لقلة خبرتهم بمثل هذا العمل . وهكذا فقد كان المقاتـل العربي برغم حبـه للهجوم الخاطف والسـريع كأسلوب في القتال ، لا يقف عاجزا أمام أساليب القتال الاخرى التـي تقتضيها طبيعة الارض التي يواجهها ، فقد كانوا يحسنون اختيار مواقع تمركزهم ، كمـا يحسنون تمويه جيوشهم وعتادهم . هذا فضـلا عن استغلالهم لعنصر المفاجـاة ، ومهارتهم في استعمال السهام من على ظهور الخيل . وأهم من ذلك كله سرعة حركتهم التي كثيرا ما انقذتهم من هلاك ، أو كانت سببا في هلاك عدوهم .

ويستنتج الدارس لأخبار المعارك التي خاضها العرب منذ الفترة المبكرة لقيـام دولتهم ، ومن تتبعه للاستراتيجية التـي استخدموها في عملياتهم التعبوية ان أهـم ما كان يعينهم على التفوق على خصومهم هو مقدرتهم الفائقة علـى تجميع قواتهـم في المناطق التي تتعرض للخطر أكثر من سواها . وخير مثال على ذلك هو أمر الخليفة عمر لخالد بن الوليد أن يترك العراق وأن يلتحق بالجيوش التي كانت تقاتل بالشـام ، وما قام به خالد من جهد خارق في تجميع جنده المبعثرين على أكثر من جبهة في العراق ولم شملهم ، وقطعه الصحراء بزمن قياسي ليلاقي التجمع الرومي في اجنادين ، حيث كان الجيش العربي في مأزق عسكري قد يودي به . وكذلك النجدة التي ارسلها هذا الخليفة لعمرو بن العاص الذي كان يقوم بفتح مصر ، والتي وصلته في زمن قياسـي أيضـا . وطبيعي أن العنصر الهام في كل هذا ، كان نظام الاتصالات الذي يربط القائد الاعلى (الخليفة) بقادة جيوش الفتح المنتشرة على رقعة واسعة من الارض ، ويجعله على معرفة وثيقـة بكل مجريات ووقائع تحركات جيوشـه ، وأوضاعها وحاجاتها .

وهكذا فان سرعة الحركة ، التـي هي ارث الغزو الجاهلي مـن جهة ، والاعتماد علـى وسائط النقل السريعة واهمها الحصان من جهة ثانية ، هي من اهم عوامل النصر الذي حققته جيوش الفتح في جميع الجبهات . انها الصحراء بارثها القديم من غزو وجمل وحصان ، وراء كثير من عوامل نصر الدولة العربية في معاركها المبكرة .

الحواشـــي:

(١) انظر ، الطبري ، دي خويه ، ج١ ، ص ٢٥٩٢ .

(٢) انظر : Thesiger, w. Arabian Sands, London 1959, P. 17

(٣) انظر : (Musil , A., Northern negd, new-york 1928, P. 120) .

(٤) انظر : Musil , P. 145 .

(٥) Doughty, C.M., Travels in Arabia Deserta, London 1936, vol. II, P. 553

(٦) أحمد بن حنبل ، المسند ، ج٤ ، ط. المكتب الاسلامي ، بيروت، الطبعة الرابعة١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٣٤٥ .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

(٨) راجع ، المسند ، أحمد بن حنبل ، ج١ ، ص١٨ ، ٩٢ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦، ١٤٨، . وانظر ايضا أبو عبيد كتاب الاموال تحقيق وتعليق محمد خليل هراس ، القاهرة ، دار الفكر ، ط٢ ١٩٧٥ ، ص٥٦٢ - ٥٦٣ و كتاب الخراج، تحقيق وتعليق محمد ابراهيم البنا ، ط. القاهرة، دار الاصلاح للطبع والنشر والتوزيع ١٩٧٨ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٩) انظر ، شمس الدين السرخسي ، كتاب المبسوط ج١٠ ، ط. بيروت ، دار المعرفة ، الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م .

(١٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق السقا ورفاقه ، القاهرة ، ط. دار الكنوز الادبية . د.ت ، ج٢ ، ص ٢٤٤ .

(١١) المرجع السابق ، ص ٣٥٠ ، ويتفق مع هذا الرأي الواقدي وابن سعد وسواهما .

(١٢) محمد بن الحسن الشيباني ، شرح كتاب السير الكبير ، ج٣ . تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٦٠ ، ص ٨٨٥-٨٨٦ .

(١٣) ابن قدامة ، موفق الدين ابو عبد الله احمد بن محمد ، المغني، ط. الرياض مكتبة الرياض الحديثة ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م، ج٨ ، ص ٤٠٧ .

(١٤) انظر : الواقدي ، كتاب المغـازي ، ت. مارسدن جونز ، اكسفورد ١٩٦٦ ، ج٢ ، ص ٦٨٨ ، ومالك بن انس ، الموطأ ، اعداد احمد راتب عرموش ، الطبعة الثامنة ، بيروت ، دارالنفائس ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ م ، ص ٣٠٣ .

(١٥) الواقدي ، المغازي ، ص ٨٠٠ ، ٨١٢ - ٨١٣ .

(١٦) الواقدي ، ج٢ ، ص ١٦٦ .

(١٧) احمد بن حنبل ، ج٢ ، ص ١٥٥-١٥٧ .

(١٨) انظر ، السرخسي ، كتاب المبسوط ، الطبعة الثالثة ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ج ١٠ ، ص ١٤ .

(١٩) انظر في هذا المجال ، ياقوت الحموي ، مادة « الابرق » ومادة « النقيع » .

الاوضـــاع الادارية في الحجــاز
في العصــر الامــوي
(دراســـة مقارنة)

د. نجدة الخماش
جامعة دمشق

يتحتم على الباحث قبل الخوض في الاوضاع الادارية لمنطقة او اقليم من الاقاليم ان يبين حدوده ، واذا كان هذا الامر يبدو سهلا نسبيا فيما يتعلق بالشـــام والعراق ومصر ، فانه يصعب اعطاء حدود دقيقة للحجاز لاختلاف الجغرافيين المسلمين الاقدمين في تحديده أو في تحديد المدن الهامة التي تقع ضمن نطاق الحجاز ، وان كنا نجد شبه اجماع على ان المدينة من الحجاز(١) . أما مكة والطائف ففي امرهما خلاف ، فمنهم من يعتبر مكة من الحجاز كالاصطخري وابن حوقل والفيروزبادى نقلا عن الشافعي(٢)، فثلاثتهم متفقون على ان الحجاز يشتمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها ، بينما ينقل ياقوت الحموي عن الاصمعي وابو الفدا عن الواقدي ان مكة تهامية(٣) ، وبعضهم يجعل الطائف من الحجاز(٤)، بينما يدخل الحربي الطائف في نجد(٥) .

ونحن اذا تركنا جانبا ما يرد عنـــد الجغرافيين وتتبعنا النصـــوص في المصادر التاريخية التي أولت فترة صدر الاسلام اهتمامها ، لوجدنا ان لفظ الحجاز كان أحيانا يقصد به المدينة وما حولها وأحيانا يقصد به مكة والمدينة .

جاء في الطبري : ان عمر كتب الى امراء الامصار يستغيثهم لاهل المدينة وماحولها ويستمدهم ، فكان أول من قدم عليه ابو عبيدة بن الجراح في اربعة الاف راحلة مـــن طعام ، ثم تتابع الناس واستغنى أهل الحجاز واحيوا مع أول الحيا(٦) .

وعندما ولى يزيد بن معاوية ، مسلم بن عقبة المري حرب أهل المدينة ، خـــرج مناديه فنادى ان سيروا الى الحجاز على أخذ اعطياتكم كملا ومعونة مائة دينار(٧) .

ويورد خليفة بن خياط نصا يفهم منه ان الحجاز يراد به مكة والمدينة ، ويذكر انه « عندما بلغ يزيد بن معاويـــة أن أهل مكة أرادوا ابن الزبـــير على البيعة ارســـل النعمان بن بشير الانصاري وهمام بن قبيصة النميري الى ابن الزبير يدعوانه الى البيعة

ليزيد على ان يجعل ولاية الحجاز او ما شاء وما أحب لاهل بيته من الولاية »(٨) . ولا يستخدم خليفة تعبير ولاية الحجاز الا مرة واحدة في هذا الصدد ، اما الطبري ، فاننا لا نكاد نجد ذكرا للحجاز كولاية في العصر الاموي الا مرتين ، فهو في احداث سنة ٦١هـ يورد ان يزيد بن معاوية عزل عمروا عن الحجاز وامّر عليها الوليد بن عتبة (٩).

وبما اننا نعلم ان عامل يزيد سنة ٦٠هـ على مكة والمدينة كان عمرو بن سعيد ابن العاص(١٠) ، فهذا دليل على ان الحجاز يقصد به مكة والمدينة ، وهذا ينطبق على خبر عزل عمر بن عبد العزيز عن الحجاز سنة ٩١هـ(١١) ، لان عمر بن عبد العزيز كان سنة ٩٠هـ عامل الوليد على مكة والمدينة والطائف(١٢) . ولكن ما يلفت الانتباه هو ان الحجاز ذكر عند عزل الولاة ، اما عند التعيين ، فاننا نجد التعبير نفسه يتكرر عند جمع المدينة ومكة والطائف لوال واحد ، فالطبري يشير مثلا الى انه في سنة ٧٣هـ ، لما قتل عبد الله بن الزبير ، ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي مكة والمدينة والطائف(١٣) ، وان عمر بن عبد العزيز كان في سنة ٩٠هـ واليا على مكة والمدينة والطائف(١٤) ، وان هشام بن عبد الملك ولى ابراهيم بن هشام المخزومي ثم محمد بن هشام المخزومي، مكة والمدينة والطائف(١٥) .

رغم اختلاف الروايات وعدم وضوحها ، فانه يمكننا ان نعتبر الحجاز الاقليم الذي يضم المدينة ومكة والطائف ، وان كانت معظم المعلومات الادارية التي بين ايدينا وتعود الى العصر الاموي تتعلق بالمدينة وولاتها وقضاتها ومؤسساتها ، بينما المعلومات المتعلقة بمكة والطائف محدودة ، اللهم الا اذا استثنينا فترة عبد الله بن الزبير الذي اتخذ من مكة مركزا له : ولذلك فان بحثي يتعلق بالدرجة الاولى بالمدينة كمركز اداري للحجاز .

من المتفق عليه ان المدينة اخذت تظهر في مجتمع الجزيرة العربية كقوة سياسية عسكرية اثر هجرة الرسول(ص) اليها ونزول تشريع الجهاد الذي اعطى المسلمين صفة سياسية، كما اعطى مجتمعهم في المدينة صفة الدولة القادرة على حماية المسلمين والتي لا تستطيع ان تستغني عن مجالدة اعدائها في سبيل نشر مبادئها ، وأصبحت المدينة القاعدة الادارية والعسكرية الاولى التي انطلقت منها سرايا الرسول (صلعم) وغزواته، وبقيت المدينة القاعدة الادارية والعسكرية حتى بعد فتح مكة سنة ٨هـ ، وخلال الفترة الراشدة حيث كانت تعيينات الولاة والقضاة وعمال الخراج وكتاب الدواوين وعمال الصدقة تصدر عن الخليفة الذي كان مركزه المدينة(١٦) T ، واذا كان الخليفة علي بن ابي طالب قد غادر المدينة واتخذ من الكوفة مقرا مؤقتا له خلال صراعه مع

معاوية بن ابي سفيان ، الا انه ليس لدينا ما يثبت انه كان سيتخذها عاصمة للدولة العربية الاسلامية لو انه انتصر على معاوية .

وبقيت المدينة القاعدة العسكرية التي تنطلق منها جيوش الفتح خلال خلافة ابي بكر وعمر بن الخطاب ، يذكر البلاذري انه لما فرغ ابو بكر ، رضي الله عنه ، من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش الى الشام، فكتب الى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه ، فسارع الناس اليه بين محتسب وطامع واتوا المدينة (١٦) ب .

وفي رواية الطبري « انه قدم على ابي بكر اوائل مستنفري اليمن ومن بين مكة واليمن .. وقدم عليه عكرمة قافلا وغازيا فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين »(١٧) ، وحينما حشد يزد جرد القوى والجند ووزع الفرق في كل المناطق التي فتحها العرب ، كتب عمر بن الخطاب الى عمال العرب على الكور والقبائل ، لا تدعوا احدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي الا انتخبتموه ثم **وجهتموه الي والعجل** العجل (١٨) . والامثلة متعددة حول توجه المقاتلة الى المدينة اولا ، ثم ارسال الخليفة هؤلاء المقاتلة الى الجهات التي هي بحاجة الى المزيد من الامدادات(١٩) .

لم تعد المدينة القاعدة العسكرية الوحيدة التي تنطلق منها جيوش الفتح بعد انشاء البصرة والكوفة وتجنيد الاجناد في الشام وتأسيس الفسطاط ، وانما اصبح لكل قاعدة مقاتلتها وساحات حربها ، مع بقاء الخليفة الموجه الرئيسي ، كما حدث في معركة نهاوند سنة ٢١هـ حينما ارسل عمر بن الخطاب أهل المدينة وفيهم عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وفيهم المهاجرون والانصار ، وكتب الى ابي موسى الاشعري ان يسير بأهل البصرة ، والى حذيفة بن سليمان ان يسير بأهل الكوفة حتى يجتمعوا جميعا في نهاوند(٢٠) . وحينما غزا حبيب بن مسلم ارمينية في أهل الشام وبلغ حبيبا ان القائد الرومي قد توجه نحوه في ثمانين الفا من الروم والترك ، كتب بذلك الى معاوية ، وكتب معاوية الى الخليفة عثمان ، الذي كتب الى والي الكوفة يأمره بامداد حبيب ابن مسلمة ، فأمده والي الكوفة بسليمان بن ربيعة الباهلي في ستة الاف وفق رواية الواقدي وثمانية الاف وفق رواية ابي مخنف(٢١) .

بانتقال الخلافة الى معاوية بن ابي سفيان الذي اتخذ من الشام مركزا له . ومن دمشق عاصمة للدولة العربية الاسلامية ، أصبح الحجاز اقليما مرتبطا مباشرة بالخليفة ، وفقد الحجاز الكثير من الامتيازات التي كان يتمتع بها على الصعيدين الاداري والمالي ، فقد اصبحت التعيينات تصدر من الخليفة في دمشق الذي أعطى لولاته على الامصار التي كانت قواعد للفتح ، صلاحيات واسعة ، وبما ان المدينة

فقدت مركزها كقاعدة عسكرية رئيسية ، فان ولاة المدينة كانت لهم صلاحيات محددة سوف نشير اليها حين الحديث عن الولاة ، ولكن الخلفاء استمروا يعتمدون على مقاتلة اهل المدينة المسجلين في ديوانها في حماية السواحل وفي حملات الصوائف والشواتي، فعندما كتب علقمة بن يزيد القطيفي الى الخليفة معاوية بن ابي سفيان بأنه قد خلفه بالاسكندرية وليس معه الا اثنا عشر الفا ما يكاد بعضهم يرى بعضا من القلة ، كتب اليه معاوية انه قد أمده بعبد الله بن مطيع في أربعة الاف من أهل المدينة(٢٢) .

وفي سنة ٨٨هـ ضرب الوليد بن عبد الملك البعث على أهل المدينة ، فذكر محمد ابن عمر عن ابيه ان مخرمة بن مسلم الوالبي قال : ضرب عليهم بعث الفين وانهم تجاعلوا فخرج الف وخمسمائة ، فغزوا الصائفة مع مسلمة والعباس (٢٣)، وحينما حج هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦هـ بالناس ، قدم المدينة فوافق قدومه موت سالم بن عبد الملك بن عمر بن الخطاب ، فصلى هشام على سالم بالبقيع لكثرة الناس ، فلما رأى كثرتهم قال لابراهيم بن هشام المخزومي ، اضرب على الناس بعث اربعة الاف فسمى عام الاربعة الاف(٢٤) . وكان الناس اذا دخلوا الصائفة خرج أربعة الاف من المدينة الى السواحل ، فكانوا هناك الى انصراف الناس وخروجهم من الصائفة .

اما من الناحية المالية ، فانه بعد ان كان خمس الغنائم يوجه الى المدينة في العهد الراشدي ، أصبح يرسل الى دمشق او الى القاعدة التي انطلقت منها الفتوح(٢٥)، كما ان الفائض من مال الفيء (الجزية + الخراج + عشور التجارة) ، كان يرسل الى المدينة ، وان كان عمر بن الخطاب قد حاول مراعاة النظرة القبلية والتمشي معها، واوصى قبل موته بأهل الامصار خيرا وان لا يؤخذ منهم الا فضلهم وعن رضى منهم(٢٦) ، اما معاوية بن ابي سفيان فانه كان أول من أمر بتسجيل او حفظ سجلات بمقادير الجزية والخراج لكل منطقة او اقليم ، وميز تمييزا واضحا بين دخل ارض الخراج ودخل الصوافي ، وانشأ مبدأ وضع الصوافي عموما تحت سلطة البيت الحاكم ، ويذكر اليعقوبي ان معاوية فعل بالشام والجزيرة واليمن مثلما فعل بالعراق من استصفاء ما للملوك من الضياع وتصييرها خالصة لنفسه واقطعها أهل بيته وخاصته(٢٧) ، حتى فدك اصطفاها معاوية واقطعها لمروان بن الحكم (٢٨) . فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، ردها الى ما كانت عليه ، وكان الرسول (ص) يضع ماياتيه منها في أبناء السبيل ، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون(٢٩) . وامر معاوية ان تسهم كل ولاية بارسال الفائض الى بيت مال دمشق(٣٠) ، ومن ثم حرم الحجاز من دخل اساسي كان الخليفة يتصرف به ، لاسيما وان الروايات التي بين أيدينا تؤكد ان عمر بن الخطاب اسس الديوان في المدينة سنة ٢٠هـ ، بعد ان فتح المسلمون الشام والعراق وجبي الخراج وكثرت الاموال (٣١) ، ومن المعروف ان ارض الحجاز

ومكة والمدينة وارض العرب التي فتحها الرسول (ص) هي أرض عشر ولم يجعل على شيء منها خراجا(٣٢) ، وعلى الرغم من ان النبي (ص) جعل على قوم من أهل اليمن يرى انهم من اهل الكتاب الجزية ، فانه لم يفرض الخراج على أرضهـا وانما جعـل العشر في السيح ونصف العشر في الدالية لمؤونة الداليـة ، ثم ان أرض الحجـاز هي الارض الوحيدة في الدولة العربية الاسلامية التي كان كل عناصرها السـكانية مـن المسلمين بعد ان أجلى عمر بن الخطاب اليهود عن فدك(٣٣) ، وعن خيبر(٣٤) ، وهـذا يعني ان المورد المالي الاساسي للحجاز هو الزكاة ، لانه ليس هناك أهل ذمة يجبى منهم الجزية ، وان كان عمر بن الخطاب قد ضرب لمن يقدم منهم اجلا قدر ما يبيعون سلعهم، أي انه حدد لهم مدة الاقامة واباح لهم ان يدخلوها للتجارة رعاية لمصالح المسلمين ، وكان ما يجبى من أهل الذمة نصف العشر ومن أهل الحرب العشر(٣٥)آ . وبما أن الله سبحانه وتعالى قد حدد وجوه صرف الصدقات في الاية الكريمة « انمـا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيـل الله وابن السبيل »(٣٥)ب ، فان ما يجبى من عشور التجارة لم يكن ليفي بمتطلبـات الانفاق على مصالح الولاية ، كمشاريع الري واقامة المنشآت وعطاء الجند ودفع رواتب الولاة والقضاة والعمال والموظفين على اختلاف مهامهم ، بعد ان حرمت الولاية مـن خمس الغنائم ومن فائض مال الفيء ، وليس ادل على ذلك مما يرد في كتاب الامـوال لابي عبيد من ان معاوية بن ابي سفيان حاول ان يعطي اهل المدينة اعطياتهم وافرة غير منقوصة ، ولكنه وجد عجزا في المال فكتب الى مروان بن الحكم ان يأخذها من صدقة مال اليمن ، فرفض أهل المدينة ذلـك لان مال اليمن صدقـة ، والصدقـة لليتامى والمساكين وعطاؤهم من الجزية(٣٦). وحينما حج عبد الملك بن مروان، امر للناس بالعطاء، فخرجت بدرة مكتوب عليها « من الصدقة » فأبى اهل المدينة قبولها وقالوا : انمـا عطاؤنا من الفيء(٣٧)آ .

ويذكر الزبير بن بكار ان عبد الله بن مصعب الزبيري اشترط على الخليفة الرشيد، عندما اراد ان يوليه المدينة ، الا تصرف رواتبه ورواتب موظفيه من مال الصدقة(٣٧)ب.

هذه الامثلة تشير الى أن الاموال التي كانت تجبى من عشور التجارة من أهـل الذمة لا يمكنها ان تفي بمصاريف الولاية ، ولذلك كان الخلفاء يلجـأون الى ارسـال الاموال لتغطية النفقات ، لان المقاتلة والموظفين كانوا يرفضون ان يأخذوا أعطياتهـم أو رواتبهم من أموال الصدقة .

ومن ثم فان القول ان الادارة المالية في الحجاز كانت ترسل جزءا من الواردات بعد أن تسدد كل وجوه الانفاق التي تتطلبها المشاريع اللازمة رغم قلة الواردات(٣٨) ، قول يحتاج الى الاثبات ، لان الامثلة التي ترد في المصادر لا تشير الى ان هذه المشاريع

كان ينفق عليها من واردات الحجاز فقط ، وانما يستنتج الباحث ان الخلفاء كانوا يدعمون هذه المشاريع ماليا(٣٩) ، ولذلك كانوا يطلبون من المسؤولين عن الديوان وبيت المال رفع الحساب مع السجلات(٤٠) . واذا كانت الادارة المالية في الحجاز ترسل حقا جزءا من الواردات ، فهذا ينطبق فقط على مال الصدقة الذي كان ولا شك يفيض عن حاجات الفقراء والمساكين وابناء السبيل والعاملين عليها .

ومن المعروف أن الصدقات في عهد الرسول (ص) كانت تجمعمن الاطراف المسلمة وترسل الى المدينة حيث يقوم الرسول (ص) بتوزيعها على المستحقين من المسلمين في الديار كافة ، فلما توفي الرسول (ص) نرى ان الكثير من القبائل رأت في الزكاة عبئا ثقيلا عليها لم تدرك معناه ، يتضح ذلك من قول قرة بن هبيرة من بني عامر لعمرو بن العاص، عندما نزل به منصرفه من عمان . « يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة فان اعفيتموها من أخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع وان ابيتم فلا أرى ان تجتمع عليكم »(٤١) ، ولذا لجأت الدولة ، بعد القضاء على الردة ، الى ترتيب اخر يتلخص في ان تجمع الزكاة من الاطراف وينفق منها على المستحقين في هذه الاطراف ويرسل الفائض من الزكاة الى بيت مال المدينة ، واصبح يرسل في خلافة بني امية الىدمشق.

اذا كان الحجاز قد فقد الكثير من الامتيازات في المجالين الاداري والمالي بانتقال الخلافة الى الشام ، فقد احتفظ هذا الاقليم بمكانته المرموقة بين اقاليم الدولة الاسلامية ، لانه قلب العالم الاسلامي وقبلة المسلمين جميعا ، ففيه مكة التي يعتبر الحج اليها أحد الاركان الخمسة ، وفيه المدينة التي دفن فيها الرسولالكريم ، فأصبح يؤم الحجاز سنويا عشرات الالوف من الحجاج من انحاء العالم الاسلامي لاداء فريضة الحج . يضاف الى ذلك ان اقليم الحجاز كان يضم ابناء الصحابة الذين تباينت مشاربهم والكثير من معتزلي السياسة ومن الناقمين على خلافة بني أمية ، ولذلك اولى خلفاء بني امية هذا الاقليم اهتمامهم ، فكانوا يختارون لهذه الولاية عمالا من البيت الاموي ومن القادرين على فهم نفسية الاهالي ومواجهتهم بما يتفق مع ميولهم ، ووضع اسس هذه السياسة معاوية بن ابي سفيان الذي جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرب فيها ابناء البيت الاموي على ادارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرج في تلك الادارة وفق خطوات مقررة ، فكان اذا أراد ان يولي رجلا من بني حرب بدأ بأن عهد اليه بحكم الطائف ، فان رأى منه خيرا او نجاحا ولاه معها مكة ، وان احسن ادارة هاتين المدينتين ، ولّي الى جانبها المدينة المنورة ، وقيل انه حذق(٤٢) ، واشتهر من امراء هذه الولاية مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، والوليد بن عتبة بن ابي سفيان في خلافة معاوية(٤٣) ، وابان بن عثمان (٧٦–٨٢هـ) في خلافة عبد الملك بن مروان(٤٤)T ، واشهر من ولي الحجاز عمر بن عبد العزيز (٨٧–٩٣ أو ٩٤ هـ) ، في خلافة الوليد بن

عبد الملك(٤٤)ب ، الذي سلك حين دخل المدينة مسلكا يعيد للناس سيرة عمر بن الخطاب لارضاء امزجتهم بالحكم اذ دعا عشرة من فقهاء المدينة واخبرهم انه دعاهم لامر يؤجرون عليه يكونون فيه عونا على الحق وانه لا يريد ان يقطع امرا الا برأيهم او براي من حضر منهم وانهم اذا رأوا احدا يتعدى أو بلغهم عن عامل له ظلامة ان يبلغوه ذلك (٤٥) .

ورغم ان الوليد بن عبد الملك عزل عمر بن العزيز بتأثير من الحجاج وولى خالد بن عبد الله القسري على مكة وعثمان بن حيان المري على المدينة ، فاننا نلاحظ عودة الى تعيين ولاة من قريش ، فكان ولاة هشام بن عبد الملك على الحجاز ابراهيم بن هشام المخزومي ثم محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومي .

لم تكن مسؤوليات ولاة الحجاز حتى عند جمع المدينة ومكة والطائف لوال واحد ثقيلة ثقل مسؤوليات ولاة الامصار التي استمرت قواعد للفتح والذين كانوا مسؤولين عن تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير ارزاقهم ، والنظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام وجباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها واقامة الحدود وامامة المسلمين وتسيير الحجيج من عملهم . واذا كان الاقليم ثغرا متاخما للعدو اضيف للوالي مهمة جهاد من يليه من الاعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس(٤٦) ، وبما أن المدينة لم تعد قاعدة عسكرية في العصر الاموي ، ولم يكن في الحجاز أراض خراجية ، فان مسؤوليات وصلاحيات الولاة انحصرت في تعيين العمال على النواحي وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتعيين القضاة وأصحاب الشرط والعمال على الاسواق وامامة المسلمين ، وكان لوالي المدينة مكانة تفوق أقرانه من ولاة مكة والطائف اذ انه كان يحج بالناس إلا اذا تراس الحج الخليفة أو أرسل أميرا من أمراء البيت الاموي ينوب عنه(٤٧) .

واجهت ولاة الحجاز مشكلات نابعة من التكوين الاجتماعي للسكان في الحجاز ، ومن طبيعته المناخية ووضعه الاداري السابق ومكانته الدينية ، فقد كانت بوادي نجد والحجاز مجالا لنشاط القبائل البدوية التي كانت تمتلك القطعان الكبيرة من الابل والخيل والاغنام ، والتي كان الرعاة ينتقلون بها في البوادي بحثا من المراعي الخصبة وطلبا لمساقط الغيث والكلأ (٤٨) . وبما أن البحث عن المراعي الخصبة التي تستطيع قطعان الماشية أن ترعى فيها كانت تؤدي الى نشوء المنافسات القبلية على هذه المراعي، فان ولاة بني امية كانوا حريصين على مراقبة هذه القبائل وعقاب المخطئين ، حتى لا تتحول المنافسات الى قتال فيما بينها مما يثير العصبيات القبلية وما يتبع ذلك من اخذ بالثأر الذي نهى الاسلام عنه(٤٩) .

كان الولاة كذلك يبذلون الجهود في محاربة السراق وقطاع الطرق الذين يفسدون في الارض ويترصدون القوافل التجارية على الطرق الممتدة من العراق الى الحجاز ومن العراق الى اليمامة ومن الشام الى الحجاز . أو من اليمن الى الحجاز ، فقد كان أبو النشناش التميمي وعصابته مثلا يعترضون القوافل التجارية على الطريق الممتدة من الشام الى الحجاز(٥٠) . أما السمهري بن بشر العكلي ومن تجمع حوله ، فكانوا يعترضون المسافرين بطريق الكوفة ومكة أو بطريق نخل والمدينة ، وقد استطاع والي المدينة ، عثمان بن حيان المري، ان يقبض على السمهري ويقتله(٥١) . كما قبض والي اليمامة ابراهيم بن عربي على جحدر بن مالك العكلي الذي كان ينزل باليمامة ويغير على نواحيها وأسواقها فيزج به في سجن دوار باليمامة(٥٢) .

كذلك حرص ولاة الحجاز على توطيد الامن والحيلولة دون الفتن التي قد تنشب، مع مراعاة عدم استثارة الاهالي من الانصار والمهاجرين ومن بني امية وسائر فروع قريش ، لا سيما في الفترة السفيانية ، ويصور عمرو بن سعيد الوضع الحساس لوالي المدينة تصويرا دقيقا حينما سأله معاوية عن مروان بن الحكم ، فقال له :تركته ضابطا لعملك منفذا لأمرك ، فقال معاوية : انه كصاحب الخبزة كفي نضجها فأكلها ، قال : كلا والله يا أمير المؤمنين ، انه عن قوم لا يحمل بهم السوط ولا يحل لهم السيف ، يتهادون كوقع النبل . سهم لك وسهم عليك(٥٣) . وحينما عزل يزيد بن معاوية عمرو ابن سعيد عن الحجاز ، لأن ناسا من بني أمية قالوا ليزيد بأنه لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به اليك(٥٤) ، قال عمرو ليزيد حينما عاتبه في أشياء كان يأمره بها في ابن الزبير فلا ينفذ منها الا ما أراد : « يا أمير المؤمنين ، الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وان جل أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا اليه وهووه وأعطوه الرضا ، ودعا بعضهم سرا وعلانية ، ولم يكن معي جند اقوى بهم عليه لو ناهضته ، وقد كان كان يحذرني ويتحرز مني ، وكنت أرفق به وأداريه لاستمكر منه ، فأثب عليه ، مع اني قد ضيقت عليه ومنعته من أشياء كثيرة لو تركته واياها ما كانت له الا معونة ، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لا يدعون احدا يدخلها حتى يكتبوا الي باسمه واسم أبيه ومن اي بلاد الله هو ، وما جاء به وما يريد ، فان كان من أصحابه أو ممن أرى انه يريده رددته صاغرا ، وان كان ممن لا أتهم خليت سبيله ، وقد بعثت الوليد ابن عتبة، وسيأتيك من عمله وأثره مالعلك تعرف به فضل مبالغتي في أمرك ومناصحتي لك ان شاء الله . . . . . . »(٥٥) .

تضاءلت هذه المراعاة بعد القضاء على الحركة الزبيرية ، يتجلى هذا حينما عزل الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز لأن الحجاج كتب اليه ان مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا الى المدينة ومكة وهذا وهن ، فعمد الوليد

الى تولية عثمان بن حيان المري الذي « لم يترك بالمدينة احدا من أهل العراق تاجرا ولا غير تاجر الا وامر بهم أن يخرجوا من كل بلد » . واتبع أهل الاهواء وأوضح سياسته للناس في خطبة أنهاها بقوله : أيها الناس ، إنا والله ما راينا شعارا قط مثل الامن ، ولا رأينا حلسا قط شرا من الخوف ، فالزموا الطاعة ، فان عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف ، والله ما أنتم بأصحاب قتال ، فكونوا من أحلاس بيوتكم ، وعضوا على النواجذ ، فاني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم ، انكم في فضول كلام غيره ألزم لكم ، فدعوا عيب الولاة ، فان الامر انما يُنقَض شيئا فشيئا حتى تكون الفتنة ، وان الفتنة من البلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد(٥٦) .

وبما ان ضبط الولاية وتوطيد الامن فيها كانا من أهم واجبات الوالي ، فان صاحب الشرطة كان ولا شك الساعد الايمن للوالي، وينسب المؤرخون احداث الشرطة الى الخلفاء المسلمين دون أن يتفقوا على الفترة الزمنية التي ظهرت فيها هذه المؤسسة للوجود ، فاليعقوبي يذكر أن معاوية هو أول من أقام الحرس والشرط(٥٧) . ويتفق خليفة بن خياط معه على أن معاوية هو أول من أقام الحرس ، ولكنه يذكر أن الخليفة عثمان هو أول من اتخذ الشرط ، وكان على شرطه عبد الله بن قنفذ من بني تميم(٥٨) . ويذهب المقريزي الى أبعد من ذلك عندما يذكر ان الخليفة أبا بكر عمد لأول مرة في الاسلام الى تعيين عامل يقوم بالطواف بالليل ، وكان عبد الله بن مسعود اول من عس بالليل عندما أمره أبو بكر بعس المدينة(٥٩) . وبعد أبي بكر كان الخليفة عمر بن الخطاب يقوم بنفسه بالعسس ومعه مولاه أسلم ، وأحيانا الصحابي عبد الرحمن بن عوف(٦٠) . وكان من أهم وظائف الشرطة العسس أو الطواف بالليل ، بالاضافة الى حماية شخص الامير أو الوالي . وبعض المؤلفين ، كالمقريزي ، يطلقون اسم العسس على الشرطة بشكل عام ويسمون صاحب الشرطة بصاحب الليل ، وهو لقب نجده كذلك في الاندلس كما يقول المقري ، فكان صاحب الشرطة يعرف في السن العامة بصاحب الليل(٦١) . ولضمان حسن تنفيذ مهام وظيفته ، كان على صاحب الشرطة أن يجند تحت امرته رجالا مخلصين وغير متحيزين . وكان يسعى لاختيارهم أحيانا غرباء عن المدينة ، عن الدائرة التي كان مسؤولا عنها . فعندما ولي مروان بن الحكم المدينة ، ولى مصعب ابن عبد الرحمن بن عوف شرطته ، فقال : انني لا أضبط المدينة بحرس المدينة ، فأبغني رجالا من غيرها ، فأعانه بمائتي رجل من أهل ايله ، فضبطها ضبطا شديدا(٦٢) . بالاضافة للشرطة ، وجد في المدينة حرس للمسجد النبوي يمنعون الصلاة فيه على الجنائز ، كما يقول السمهودي(٦٣) . وكان للقاضي ، كما يبدو ، حرس ، اذ يورد وكيع رواية عن مالك بن أنس عن ربيعة ، قال : رأيت أبا بكر بن حزم وهو قاض يقضي في المسجد وعلى رأسه حرس معهم سياط ، فقلت لمالك ، وما شأن السياط ؟ قال : يذبون الناس بها(٦٤) .

أما القضاة فقد انحصرت وظيفتهم في صدر الاسلام في الفصل بين الخصوم (٦٥). ونظرا لان الولاة كان اليهم القضاء ، فان الوالي الجديد كان عادة يعزل القاضي السابق ويعين قاضيا من قبله(٦٦) . وكان القاضي في المدينة لا يركب مركبا ولا يذهب فيحاجة الا استأذن امير البلد(٦٧) .

وكان والي المدينة يضم للقاضي الشرط أحيانا . فقد ضم مروان في ولايته الاولى الشرط مع القضاء لعبد الله بن نوفل(٦٨) ، وضم الشرط مع القضاء في ولايته الثانية سنة ٥٣هـ ، لمصعب بن عوف ، وكان شديدا صليبا في ولايته ، ولما ولي الشرط اخذ الناس بالشدة ، وكانوا قبل ذلك يقتل بعضهم بعضا(٦٩) .

كان جل قضاة المدينة قرشيين من الفقهاء والمحدثين ، فلما كانت ولاية عمر ابن عبد العزيز ، ولي عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة الانصاري ، (ولد في عهد الرسول /ص/) ثم عزله عزلا جميلا لانه بلغه انه كان اذا اختصم اليه الخصمان في الشيءالتافه اليسير اخرجه القاضي من ماله فأصلح به أمرهما (٧٠) ، ثم ولى عمر بن عبد العزيز ابابكر محمد بن عمرو بن حزم الانصاري الذي ابقاه الوالي عثمان بن حيان المري قاضيا على المدينة ، فلما كانت خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) عزل عثمان بن حيان وولى ابا بكر ولايةالمدينة .

من الموظفين الذين كان الولاة يعتمدون عليهم في ادارة ولايتهم . عمال الاسواق، وقد ظهرت وظيفة العامل على السوق منذ عهد الرسول (ص) ، فقد استعمل الرسول (ص) عمر بن الخطاب على سوق المدينة ، وسعيد بن العاص على سوق مكة، وذلك بعد الفتح (٧١) ، كما ان سمراء بنت نهيك الاسدية كانت قد ادركت الرسول وعمرت ، وكانت تمر في الاسواق تأمن بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتضرب الناس على ذلك بالسوط(٧٢) . وفي كنز العمال ان عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة في السوق ، وانه قد كان يباشر ذلك بنفسه(٧٣) . وفي الاستيعاب ، ان السائب ابن يزيد كان عاملا لعمر على سوق المدينة مع عبد الله بن عتبة بن مسعود وسليمان ابن خيثمة(٧٤) ، بينما كان الحارث بن الحكم على السوق في خلافة عثمان(٧٥) . وذكر الازرقي أن سعيد بن ميناء كان على السوق في مكة لعبد الله بن الزبير(٧٦) ، اما في المدينة ، فكان العامل على السوق في ولاية عمر بن عبد العزيز ، سليمان بن يسار(٧٧)، ويذكر صاحب الاغاني ان بردان كان عاملا على السوق ، سوق المدينة في العصر الاموي ، ولكنه لا يذكر زمن تعيينه(٧٨) .

ولما كانت وظيفة عامل السوق قد مهدت لظهور المحتسب ، فانه يمكننا ان

نفترض ان سلطات عامل السوق كانت كتلك التي يتمتع بها المحتسب ، وان لم تكن واسعة سعتها التي وصلت اليها في العصر العباسي ، ولعل اهم عمل له ، كما يفهم من اسمه ، هو تفقد احوال السوق وكل ماله صلة بالسوق ، كالتأكد من صحة المكاييل والمقاييس والاوزان المستعملة في السوق ، لكي يجرى التعامل بها من غير غبن على الوجه الشرعي(٧٩) . وقد يكون من واجبه كذلك التدخل لمنع الارتفاع الفاحش في اسعار البضائع التي يحتاجها الناس ، وفي حالة تواطؤ التجار واحتكارهم لاصناف الطعام المختلفة كان من واجبه التدخل لاجبار المحتكرين على البيع ، لان الاحتكار حرام ، والمنع من فعل الحرام واجب(٨٠) .

هذا وقد كان سوق المدينة ساحة مكشوفة لا تؤخذ عليه الضرائب ، فلما كانت خلافة معاوية ، اتخذ دار القطران ودار النقصان وفرض الضريبة عليهما(٨١) . فلما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب الى اهل المدينة : انما السوق صدقة فلا يضربن على أحد فيه كراء(٨٢). وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك اقترح ابراهيم بن هشام ابن اسماعيل المخزومي والي المدينة بناء دار يدخل فيها سوق المدينة ، فوافق هشام ، فبناها وجعل في اسفلها حوانيت تكرى على التجار بالاجرة ، وعلالي تكرى للسكن(٨٣)، واستمرت تلك الدار في عهد هشام بن عبد الملك ، فلما وصل الى أهل المدينة نبأ وفاة هشام بن عبد الملك ، قام الناس بهدم الدار وانتهبت ابوابها وخشبها وجريدها(٨٤).

من الموظفين الذين نجد لهم ذكرا في الحجاز ، حواط الحمى (أي القائمين على امر الحمى) ، ومن المعروف ان الرسول (ص) حمى النقيع لخيل المسلمين(٨٥)، وحمى عمر بن الخطاب الربذة(٨٦) وحمى ضريته(٨٧) لابل الصدقة ومواشيها .

ويفهم من النص الذي يورده ابو عبيد ان الهدف من الحمى هو حسن استغلال المراعي فيما يحقق المصلحة العامة للمسلمين ، وان للخليفة الحق في تقرير وسائل استخدامها ، فله ان يسمح لبعض الناس باستخدامها وخاصة الفقراء واصحاب الابل والغنم القليلة التي يعتمدون عليها في معاشهم(٨٨) .

وكان حمى ضرية من أهم الاحماء يمتد الى مسافة ستة اميال من كل ناحية من نواحي ضرية(٨٩) . وقد اتسعت مساحة الحمى بعد ذلك في عهد عثمان ، حين زاد عدد ابل الصدقة على أربعين الفا(٩٠) .

استمرت هذه الحمى في العصر الاموي ، الا ان خصوبة ارضها ادت الى العدوان عليها ، الامر الذي كان يتطلب حراسة قوية من المكلفين بحمايتها . وكانت ادارة الحمى

تواجه مشكلات عدة منها حماية الحمى من العدوان الذي تتعرض له من ملاك الاراضي المجاورة له ، وحل المشكلات التي قد تحدث بين الرعاة والزراع . فضلا عن الاشراف على ابل الصدقة ومواشيها(٩١) . يضاف الى ذلك ان بعض الولاة بداوا يستفيدون من الحمى لمصلحتهم الخاصة لا سيما حمى ضريه، فيروي السمودي انه لم تزل الولاة تزيد فيه وأتخذوه مأكلة(٩٢) . ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز أن يباح الحمى لجميع الناس(٩٣)، الا أن الولاة عادوا في خلافة هشام الى الاستفادة منها لمصلحتهم الخاصة، فقد زاد والي المدينة ابراهيم بن هشام المخزومي حمى ضريه وضيق على أهله ، ولذلك « فان حواط الحمى كانوا يقاتلون عليه اشد القتال ويكون فيه الدماء . . »(٩٤) .

اعتمد الولاة في جمع الصدقات على عمال الصدقة ، وكان الرسول (ص) قد عين منذ البدء عمالا على الصدقات ، على كل قبيلة أو قبيلتين(٩٥) ، عامل(٩٦) ، وقاتل أبو بكر مانعي الزكاة ، كما أن عثمان كان يبعث السعاة لقبض الصدقات .

وعلى الرغم من كثرة الروايات المتعلقة بعمال الصدقة ، والوقت الذي يتوجه فيه السعاة لجمع الصدقات من القبائل البدوية في نجد والحجاز وتشدد بعض عمال الصدقة في جمع الاموال في العصر الاموي(٩٧) ، فاننا لا نجد ذكرا لديوان الصدقات في الحجاز ، مع انه من المتوقع ان يكون لديوان الصدقات في الحجاز الاهمية التي لدواوين الخراج في الولايات الاخرى ، ويبدو ان الديوان الذي أسس في خلافة عمر بن الخطاب بتسجيل المقاتلة ومقدار أعطياتهم كان كذلك يضم سجلات بأموال الصدقات التي كانت تجبى من المناطق التابعة لوالي المدينة بالاضافة الى السجلات المتعلقة بعشور التجارة، وكانت هذه الاموال تودع في بيت المال ، مع الانتباه لعدم ادخال مال الصدقة بما يجبى من أهل الذمة .

هؤلاء هم الموظفون الذين كان لهم دورهم في الحجاز في العصر الاموي ، واذا كان الولاة والقضاة وأصحاب الشرط من العرب ، فان الدولة استفادت من جهود الموالي في الحجاز كما استفادت من جهودهم في الامصار ، وان كان ذلك على نطاق أضيق ، وتذكر المصادر أن عبد الرحمن بن هرمز رجل من أهل الشام كان على ديوان المدينة في عهد يزيد بن عبد الملك(٩٨) ، كما ولي الديوان في خلافة هشام بن عبد الملك ابن أبي عطاء(٩٩) . وكان سليمان بن يسار ، مولى ميمونة بنت الحارث ، عاملا على سوق المدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك وولاية عمر بن عبد العزيز(١٠٠)، وحينما أمر الوليد عمر بن عبد العزيز بهدم مسجد الرسول (ص) وتوسيعه ، كلف عمر صالح بن كيسان مولى سعدى مولاة آل معيقب ، للاشراف على هذا العمل(١٠١) .

وعلى الرغم من كثرة الرقيق في الحجاز ، والذي يعود الى ما يناله المحاربون في جبهات القتال ، وما اعتاد بعض الخلفاء اعطاءه لاهل الحجا ز، ورواج تجارة الرقيق في الحجاز في العصر الاموي ، فانه لم يكن للرقيق دور في الحياة الادارية، وانما كان لهم دورهم الواضح في الحياة الاقتصادية والاجتماعية(١٠١) والسياسية ، لان من الطبيعي ان يتبع العبد مولاه عند نشوب القتال ، ففي موقعة الحرة سنة ٦٣هـ/٦٨٢م ، اشترك العبيد الى جانب سادتهم من أهل المدينة ضد مسلم بن عقبة المري ، ولاقى بعضهم حتفه ، وحينما استولى الخوارج على المدينة سنة ١٢٩ هـ ، اشترك العبيد في قتالهم واخراجهم من المدينة(١٠٢) .

بعد هذا العرض الذي يعطي صورة عن الاوضاع الادارية ، يمكننا القول ان الحجاز ، وان كان قد فقد الكثير من الامتيازات الادارية والمالية ، فان خلفاء بني أمية كانوا شديدي الحرص على تتبع أحوال الحجاز ، وكانت صلتهم بولاتهم مستمرة ، واوامرهم لهم متتابعة ، كما أنهم كانوا ينفقون وبسعة على الكثير من المشاريع ، كحفر الابار واقامة السدود وشق الطرق . فمن السدود التي أقيمت سد معاوية بن ابي سفيان الذي يبعد عن المدينة عشرين ميلا بين المدينة ومعدن بني سليم(١٠٣) ، والسد الذي بني في خلافته على بعد ستة أميال شرقي الطائف(١٠٤) . وحفر معاوية عددا من العيون في مكة المكرمة(١٠٥) ، وكتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز يأمره بتسهيل الثنايا وحفر الابار بالمدينة ، كما كتب الى والي مكة خالد بن عبد الله القسري بذلك(١٠٦) . وامر الوليد بن عبد الملك واليه عمر بن عبد العزيز ان يدخل حجر ازواج الرسول (ص) في مسجد رسول الله ، وان يشتري ما في مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ، وبعث اليه بمال و فسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر(١٠٧) .

وكتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز أن يعمل القوارة التي عند دار يزيد بن عبد الملك ، فعملها عمر وأجرى ماءها ، وامر الوليد بقوام يقومون عليها وان يسقى أهل المسجد منها ففعل ذلك (١٠٨) . والامثلة على اهتمام الخلفاء بالحجاز متعددة ، مما يشير الى أنه كان للحجاز مكانة خاصة في نفوس خلفاء بني أمية ،وكان معاوية يقول اغبط الناس عيشا عبدي أو قال مولاي سعد ، وكان يلي أمواله بالحجاز ، ويتربع جدة ويتقيظ بالطائف ويشتو بمكة .

الحواشـــي :

(١) **الاصطخري ، مسالك الممالك ، بريل ١٩٢٧** تحقيق دي غوجه .**ابن حوقل، صورة الارض،** ليدن ١٩٦٧ ، ص ١٩ .**أبو الفدا ، تقويم البلـدان ، باريس ، ١٨٤٠ ،** ص ٧٩ . **الفيروزبادي ، المغانة المطابة في معالم طابة ،** الريـاض ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ص ١٠٢ . **السمهودي ، وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى** (اربعة أجـزاء) بيروت ١٩٧٣ / ١٣٩٣ ج٤ ص ١١٨٢. **ياقوت الحموي،** معجم البلدان، خمسة اجزاء ، دار صادر ، بيروت ج٢ ص ٢١٩ . وينقل ياقوت الحموي عن الاصمعي (ت ٢٢٦ هـ) المناطق التابعة للحجاز فيقول الحجاز اثنتا عشرة دارا : المدينة وخيبر وفدك وذو المروة ودار بلي ودار اشجع ودار مدينة ودار جهينة ونفر من هوازن وجل سـليم وجل هـلال .

(٢) الاصطخري ، ص١٤ ، ابن حوقل ، ص١٩، الفيروزبادي نقلا عن الشافعي ص ١٠٢ .

(٣) ياقوت الحموي ، ج٢ ص٢٢١ ، أبو الفدا ص ٧٩ .

(٤) ياقوت الحموي ، ج٢ ص ٢١٢ .

(٥) الحربي ، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيـرة ، تحقيق حمد الجاسـر ، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ ص ٥٣٧ ، **البكري ، معجم ما استعجم مـن اسماء البلاد والمواضـع ،** تحقيق مصطفى السقا ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٦٤–١٣٦٨هـ /١٩٤٥ – ١٩٤٩ ج١ ص١٠.

(٦) **الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم** ، ١٠ أجزاء ، ج٣ ص ١٨ .

(٧) **المصدر السابق ، ج٥ ص ٤٨٣ ، ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ١٠ أجزاء** ، دار صـادر بيروت ج٣ ص ٣١١ .

(٨) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، جزءان، تحقيـق سهيل زكار ، دمشـق ١٩٦٧ ج١ ص ٣١٦ .

(٩) الطبري ج٥ ص ٤٧٧ ، ابن الاثير ج٣ ص ٢٧٦ .

(١٠) الطبري ج٥ ص ٣٩٩ .

(١١) المصدر السابق ج ٦ ص ٤٨١ ، ابن الاثير ج٤ ص ١٢٩ .

(١٢) الطبري ج٦ص ٤٤٧ .

(١٣) خليفة ، تاريخ ، ج١ ص٢٨٣ . الطبري ، ج٦ ص ٢٠١ ، ابن الاثير ج٤ ص٢٦ ، يذكر ابن الاثير ان الحجاج كان واليا على مكـة والمدينة فقط .

(١٤) الطبري ، ج٦ ص ٤٤٧ .

(١٥) المصدر السابق ، ج٧ ص ٣٩ ، ٣ ، ٥، ٦٩، خليفة ج٢ ص ٤٨٢ ، ٥٣٤ .

(١٦) آ – الطبري ، ج٤ ص ٦٤ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ٢٤١ ، **البلاذري ، فتـوح البلدان ،** ص ٣٢٢ ، **الازدي ، تاريخ الموصل ،** تحقيق علي حبيبة ، القاهرة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٦٧ ص١٨ **الدينوري ، الاخبار الطوال ،** تحقيق عبـد المنعم عامر ، وزارة الثقافة والارشاد ،الاقليم الجنوبي ، ص **ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير ،** ليدن ١٣٢٢ – ١٣٢٥ هـ ج٦ ص٣ ، خليفة ج١ ص ١٥٨ .

(١٦) ب – البلاذري – فتـوح ، ص ١١٥ ، بدران (عبد القادر) تهذيب تاريخ دمشق ، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ ج١ ص ١٣١ – ١٣٣ .

(١٧) الطبري ، ج٣ ص ٣٨٩ ، **ابن حبيش (عبد الرحمن بن محمد)** الفتوح مخطوطة منسوخة في مكتبة الدكتور سـهيل زكار ص١١٩ . **ابن اعثم الكوفي ، الفتوح** ٧أجزاء تحقيـق محمد عبد المعيـد خان ١٣٨٨ – ١٣٩٤ هـ ج ١ ص ١٢٣ .

(١٨) الطبري ، ج٣ ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

(١٩) الطبري ، ج ٣ ص ٤٦٢ ، ٤٨٤ ، **ابن عبد الحكم،** فتوح مصر واخبارها رليدن ،١٩٣٠، ص ٦ ،٥ **البلاذري ، فتوح** ص ٢١٤ .

(٢٠) الطبري ، ج٤ ص ١١٨ ، ١٢٤، ١٢٥ .

(٢١) المصدر السابق ، ج٤ ص ٢٢٧ .

(٢٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٩٢ .

(٢٣) الطبري ج٦ ص ٤٣٤ .

(٢٤) المصدر السابق ج٧ ص ٢٩ .

(٢٥) ابن اعثم ، فتوح ج٢ ص ١٢٣ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ابن الاثير ج٥ ص ١٥٩ كان قتيبة بن مسلم الباهلي في فتوحاته يرسل الخمس الى الحجاج والي العراقين والمشرق ، ابن اعثم ، فتوح ، ج٧ ص٢٢٢، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٧ .

(٢٦) ابن سعد ، الطبقات ، ج٣ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢٧) **اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، جزءان** ،دار صادر بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ ج٢ ص٢٣٣- ٢٣٤ .

(٢٨) المصدر السابق ج٢ ص ٣٠٥، البلاذري ، فتوح ، ص ٤٦ .

(٢٩) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٥-٤٦ .

(٣٠) ابن اعثم ، فتوح ، ج٤ ص ١٨١ ، الطبري، ج٥ ص ٤٠٣ ، ٥٠٩ ، **المقريزي ، المواعظة والاعتبار بذكر الخطط والاثار** ، ثلاثة أجزاء، عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ج١ ص ١٤٥ . **ساويرس ، سير الاباء البطاركة ، باريس** ١٩١٠ ، ج٥ ص ٨٦ .

(٣١) ابن سعد ، الطبقات ، ج٣ قسم ١ ص ٢١٣، اليعقوبي ، ج٢ ص ١٥٣ ، البلاذري فتوح، ص ٤٣٦ - ٤٣٩ - ٤٤٤ ، الطبري ، ج٤ ص ١١٢ ، **ابو عبيد كتاب الاموال ، تحقيق محمد حامد الفقي**، القاهرة، ص ٢١١،٢١٢. **ابو يوسف ،كتاب الخراج في موسوعة الخراج**، دار المعرفة ، بيروت ، ص٤٤ .

(٣٢) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٥٩،٦٩ .

(٣٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٤٣ ، ابو عبيد، الاموال ، ص ١٥ .

(٣٤) ابو عبيد ، الاموال ، ص ١٥ ،٩٩، الطبري ج٤ ص ١١٢ ، البلاذري فتوح ، ص ٣٦.

(٣٥) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٩٩ ، أبو يوسف الخراج ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، يحيى بن ادم. الخراج في موسوعة الخراج ، ص ١٧٣ .

(٣٥)ب سورة التوبة آية ٦٠ .

(٣٦) ابو عبيد ، ص ٢٥٦ .

(٣٧آ) **ابن بكار ، الاخبار الموفقيات** ، تحقيق سامي مكي العاني ، بغداد ١٣٩٢ هـ ص ٥٧٣ ، **المسعودي ، مروج الذهب** ، اربعة اجزاء، دار الاندلس للطباعة والنشر ، ج٣ ص ١٢١.

(٣٧ب) الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش ج١ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٣٨) **الدكتور عبد الله محمد السيف ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز في العصر** الاموي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٣٩) الحربي ، المناسك ، ص ٣٣٠ ، قويتشل. ك.س. المملكة العربية السعودية ، ترجمة شكيب الاموي ، القاهرة ، ١٩٥٥ ،ص٥٠. **الازرقي ، كتاب اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار** ، ط ١٢٧٥ هـ.ص ٤٤٣ . **الطبري** ، ج٦ ص ٤٣٧ ، ابن الاثير ج٤ ص ١٠٩ .

(٤٠) الطبري ، ج٧ ص ١٣ .

(٤١) المصدر السابق ، ج٣ ص ٢٥٩

(٤٢) المصدر السابق ، ج٥ ص ٢٩٦ .

(٤٣) المصدر السابق ، ج٥ ص ٢٩٥ ، ٣٠٣،٣٠٨ خليفة ج١ ص ٢٧٦.

(٤٤آ) وكيع ، اخبار القضاة ، ٣ اجزاء ، مطبعة الاستقامة ١٩٤٧ ،١٩٥٠، ج ١ ص ١٣٠ ، خليفة ج١ ص ٣٨٣ .

(٤٤ب) وكيع ج١ ص ١٣٤ ، الطبري ، ج٦ ص٤٢٧، ٤٢٨ ، ٤٨١،٤٨٢.

(٤٥) الطبري ، ج٦ ص ٤٢٨ .

(٤٦) **الماوردي ،الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، الطبعة الثالثة** ١٩٧٢ ، ص ٣٠.

(٤٧) الطبري ، ج٥ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ج ٦ص ٢٥٦ ، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٤٩ ، ٤٩٣ ،٥٢٢،٥٤٥،٥

(٤٨) **الاصفهاني ، الاغاني** ج١ – ج ١٦ طبعة دار الكتب ، القاهرة .
ج ١٧– ج٢٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
١٣٨٩هـ/١٩٦٩ ج١٩ ص ١٠٣ ، ج٢٠ ص ١٩٩ ، ج٢٤ ص ٢٠٩ البكري ، معجم ما استعجم ، ج١ ص ٧٧.

(٤٩) **الجاحظ ، المحاسن والاضداد ، القاهرة ، ١٣٢٤ ص ٦٧ ،** الزبير بن بكار الموفقيات ص ١٧٠ – ١٧٢ .

(٥٠) الاغاني ، ج٢ ص ١٧١ .

(٥١) الاغاني ج٢١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٨ .

(٥٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ص ٤٧٨.

(٥٣) الطبري ، ج٥ ص ٢٩٥ .

(٥٤) المصدر السابق ج٥ ص ٤٧٧ .

(٥٥) المصدر السابق ج٥ ص ٤٧٧ .

(٥٦) المصدر السابق ، ج٦ ص ٤٨٦ .

(٥٧) اليعقوبي ج٢ ص ٢٢١ .

(٥٨) **الكليبي ، جمهرة النسب ، مخطوطة برقم (٣٨٢)** في مركز الوثائق والتوثيق الجامعة الاردنية ، ص ٢٩آ . خليفة ج١ ص ١٩٥.

(٥٩) المقريزي ، الخطط ج٣ ص ٦٦.

(٦٠) المصدر السابق ج٣ ص ٦٦ .

(٦١) المقري – نفخ الطيب ، ج١ ص ٢١٨ .

(٦٢) وكيع ، ج١ ص ١١٩ .

(٦٣) السمهودي ، وفاء الوفاء ج٢ ص ٥٣١ .

(٦٤) وكيع ، ج١ ص ١٤٥ .

(٦٥) المصدر السابق ج١ ص ١١٢–١٥٥ .

(٦٦) وكيع ج١ ص ١١١–١٥٥ .

(٦٧) المصدر السابق ج١ ص ١٤١ .

(٦٨) المصدر السابق ج١ ص ١١٤ .

(٦٩) المصدر السابق ج١ ص ١١٨ .

(٧٠) وكيع ج١ ص ١٣٤ .

(٧١) **عبد الرحمن بن زيدان ، كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة ،** المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٦٢ ص ٦٢ ، **عبد الحي الكتاني ، التراتيب الادارية فاس ١٣٤٩ هـ** ص ٢٨٥ .

(٧٢) عبد الحي الكتاني ، التراتيب الادارية ، ص ٢٨٥ .

(٧٣) تاريخ الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ، دار احياء علوم الدين ، دمشق ص ١١٧ .

(٧٤) عبد الرحمن بن زيدان ، ص ٦٣.

(٧٥) البلاذري ، انساب ، ج٥ ص ٤٧.

(٧٦) الازرقي ، أخبار مكة ، ص ١٤٩ .

(٧٧) ابن سعد ، ج٥ ص ١٣٠ .

(٧٨) الاغاني ، ج٨ ص ٢٧٧ .

(٧٩) **الشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،** القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٥،١٩ .

(٨٠) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٨١) عمر بن شبه ، تاريخ المدينة مخطوطة برقم (٤٤٤) – جامعة الرياض ج١ ص ٨٧ ، السمهودي وفاء الوفاء ، ج٢ ص ٧٥.

(٨٢) السمهودي ، ج٢ ص ٧٤٩ .

(٨٣) السمهودي ، ج٢ ص ٧٥٢ .

(٨٤) المصدر السابق ج٢ ص ٧٥٣ .

(٨٥) ابو عبيد ، ص ٢٧٤ .

(٨٦) المصدر السابق ص ٢٧٤ .

(٨٧) السمهودي ، ج٣ ص ١٠٨٨ .

(٨٨) ابو عبيد ص ٢٧٤ .

(٨٩) ضريه صقع واسع بنجد ينسب اليه الحمى يليه امراء المدينة وينزل به حاج البصرة .

(٩٠) السمهودي ، ج٣ ص ١٠٩٣ .

(٩١) **صالح العلي ، الحمى في القرن الاول الهجري مجلة العرب** ج٧ ١٣٨٩ هـ / نيسان ١٩٦٩م ص ٥٩٤ – ٥٩٥ .

(٩٢) السمهودي ، ج٣ ص ١٠٩٣ .
(٩٣) ابن سعد ج ٥ص ٢٨١ .
(٩٤) السمهودي ، ج٣ ص ١٩٠٣ ، ١٠٩٤ .
(٩٥) البلاذري ، انساب ج١ ص ٥٣٠ .
(٩٦) البلاذري ، انساب ج٥ ص ٢٩ .
(٩٧) الطبري ،ج٧ ص ١٣ ، ابن سعد ، ج٨ ص ٣٤٨ ،السمهودي ، ج٣ ص ١٠٤٦ .
(٩٨) الطبري ، ج٧ ص ١٣ ، ابن سعد ، ج٨ ص ٣٤٨ .
(٩٩) السمهودي ، ج٣ ص ١٠٤٦ .
(١٠٠) ابن سعد ، ج٥ ص ١٣٠ .
(١٠١) البلاذري ، فتوح ص ٢١ .
(١٠٢) د. عبد الله محمد السيف ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٢٥٥ .
(١٠٣) الحربي ، المناسك ، ص ٣٣٠.
(١٠٤) **سعاد ماهر ، الطائف ودج وما بها من اثار النبي (ص)** والمساجد الاثرية ، مجلة الدارة ــ العدد الثالث ، ١٤٠١هـ .
(١٠٥) الازرقي ، أخبار مكة ــ ص ٤٤٣ .
(١٠٦) الطبري ، ج٦ ص ٤٣٧ ، ابن الاثير ج٤ ص ١٠٦ .
(١٠٧) البلاذري ، فتوح ص ٢١ ، الطبري ج٦ ص ٤٣٦ ، الحربي ، المناسك ٣٦٩ .
(١٠٨) الطبري ج٦ ص ٤٣٧ .



ابو مسلم الخراساني
في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر

د. محمد زيود
جامعة دمشق

الخلاف حول أبي مسلم الخراساني في مصادر التاريخ الاسلامي شديد ، فهناك عدم اتفاق بشأن : اسمه ، وولادته ، ووفاته ، وأصله ونسبه ، ومسقط رأسه ، وحراً كان أم عبداً ؟ ثم كيفية اتصاله بالعباسيين ، والى غير ذلك من احداث هامة في مسيرة حياته (١) .

وهو عبد الرحمن بن مسلم ، وقيل عثمان، أو ختكان(٢) الفارسي قال له ابراهيم الامام بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب : غير اسمك ، فما يتم لنا الامر حتى تغير اسمك فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم(٣) « وكني بأبي مسلم ».

وقيل انه ولد في ماء البصرة « مما يلي أصبهان » عند عيسى ، ومعقل ابني ادريس العجلي(٤) ، فربياه الى أن أصبح شابا ، بينما أورد ابن خلكان أن ولادته كانت في رستاق فاتق بقرية يقال لها « ناوانه » ، أو « ماوان » والخليفة يومئذ عمر بن عبد العزيز ، (٩٩ – ١٠١ هـ / ٧١٧ – ٧٢٠م)(٥) ، وفي رواية أخرى لابن خلكان ذكر أن اباه من رستاق فريدن من قرية تسمى سنجرد ، وكانت هذه القرية لوالده مع عدة قرى مجاورة لها ، وقيل انه من قرية يقال لها « ما خوان » تبعد مسافة ثلاثة فراسخ من « مرو »(٦) . وروى المسعودي انه من قرية يقال لها خرطينة(٧) ، واليها تنسب الثياب البرسية المعروفة بالخرطينية، وهي من أعمال الكوفة وسوادها . وكان لأبيه جارية اسمها « وشيكة » حامل منه ، كان قد أحضرها من الكوفة . وفي رستاق فاتق ، اتصل والده بعيسى بن معقل بن عمير أخي ادريس بن معقل « جد أبي دلف العجلي » ومكث عنده بعض الوقت ، ثم فارقه قاصدا أذربيجان فمات فيها(٨). ويبدو أن الجارية أودعت عند عيسى وولدت فيما بعد ابا مسلم ، فنشأ عند عيسى وكان يرافق ولده الى المكتب ودور العلم في الكوفة فخرج أديبا لبيبا يشار اليه منذ صغره .

دراسات تاريخية ، العددان ٤٧ و ٤٨ ، ايلول – كانون الاول ١٩٩٣ .

وقد اضطربت الروايات عن هذه الفترة من تاريخ حياة أبي مسلم الخراساني ، وذلك قبل أن يتصل بالامام ابراهيم بن محمد العباسي بالحميمة ، وفي كيفية وصوله اليه ، والى موسى أو عيسى السراج ، ومن ثم تعليمه صناعة السروج ، وتفقهه في أصول الدعوة العباسية .

يروي الطبري(٩) وغيره أيضا : « توجه سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم ، ولاهز بن قريظ ، وقحطبة بن شبيب من خراسان ، وهم يريدون مكة في سنة أربع وعشرين ومائة ، فلما دخلوا الكوفة أتوا عاصم بن يونس العجلي ، وهو في الحبس ، قد اتهم بالدعاء الى ولد العباس ، ومعه عيسى وادريس ابنا معقل ، حبسهما « يوسف ابن عمر » [الثقفي] فيمن حبس من عمال خالد بن عبد الله [القسري] ومعهما أبو مسلم يخدمهما ، فرأوا فيه العلامات ، فقالوا من هذا ؟ قالوا : غلام معنا من السراجين — وكان أبو مسلم يسمع عيسى وادريس يتكلمان في هذا الرأي فاذا سمعها بكى — فلما راوا ذلك منه دعوه الى ما هم عليه ، فأجاب وقبل . ويضيف ابن خلكان ان هؤلاء النقباء أخذوا معهم أبا مسلم الى مكة، وفي طريق عودتهم عرجوا على الحميمة، والتقوا فيها بالامام « ابراهيم بن محمد بن علي » وكان قد تولى الامامة بعد وفاة أبيه (محمد) فقدموا له هداياهم ومنها عشرون ألف دينار ، ومئتا ألف درهم ، كما أهدوا اليه كذلك أبا مسلم الخراساني ، فأعجب به وبمنطقه وعقله وادبه وقال لهم : « هذا عضلة من العضل »(١٠) . وأقام أبو مسلم بعد ذلك عند الامام ابراهيم يخدمه ، ويكلفه بمهمات خاصة الى خراسان وبالاتصال بسليمان بن كثير الحراني نقيب الدعاة هناك .

ويذكر الطبري في أحداث سنة ١٢٥هـ / ٧٤٢م قوله (١١) : وفيها قدم سليمان ابن كثير ، ومالك بن الهيثم ، ولاهز بن قريظ ، وقحطبة بن شبيب مكة ، فلقوا — في قول بعض أهل السير — محمد بن علي ، فأخبروه بقصة أبي مسلم ، وما رأوا منه فقال لهم : « أحر هو أم عبد » ؟ ، فقالوا : أما عيسى فيزعم انه عبد ، وأما هو فيزعم انه حر ، قال : « فاشتروه وأعتقوه » . ثم أعطوا محمد بن علي مائتي الف درهم ، وكسوة بثلاثين ألف درهم وقال لهم : ما أظنكم تلقوني بعد عامي هذا فان حدث لي حدث فصاحبكم ابراهيم بن محمد .

ويروي الدينوري(١٢) ، أن العجليين اهدوا أبا مسلم لمحمد بن علي ، فارسله النقباء اليه ، وسفر بينه وبينهم . وقال البلاذري(١٣) : « ذكر بعض ولد قحطبة انه كان عبدا للعجليين فأسلموه الى أبي موسى « السراج » فتعلم منه السراجة فابتيع للامام بسبعمائة درهم وأهدي اليه ، وأن اللذين أهدياه سليمان بن كثير ولاهز بن قريظ » . ويؤكد البلاذري أن أبا مسلم اتصل بالامام محمد قبل وفاته ، ويقول :

« قدم سليمان بن كثير ، ولاهز ، وقحطبة الكوفة ، يريدون الحج ، فدخلوا على عاصم « ابن يونس العجلي » مسلمين(١٤) » فرأوا أبا مسلم عنده ، فأعجبهم عقله ، وظرفه ، وادبه ، وشدة نفسه ، وذهابه بها . ومال اليهم فعرف أمرهم فقال : أنا أصحبكم وأكون معكم ، فسألوا أبا موسى السراج أن يعينهم به ، وكان من كبار الشيعة ففعل وكتب معه كتابا الى ابراهيم الامام ، وقد كان علم أن ابراهيم عزم على الحج في سنته، وأن القوم واعدوه الالتقاء بمكة ، فشخص أبو مسلم معهم ، ووجدوا ابراهيم بمكة ، فأعطوه عشرين ألف دينار ، ومائتي ألف درهم ، وأوصلوا اليه كسي حملوها له ، ورأى ابراهيم الامام أبا مسلم فعرفه ، وأثبته لانه كان يراه أيام اختلافه الى أبيه في محبسه ، وتأمل أمره وأخلاقه ، فأعجبه منطقه ، ورأيه وجذالته ، فقال : هذا عضلة من العضل(١٥) ، ومضى به فكان يخدمه » . وهذا الخبر يبين أن أبا مسلم انتظم في الدعوة العباسية منذ الايام الاخيرة من حياة محمد بن علي العباسي ، وهذه الرواية توثق ذلك ، وتخالف الاخبار التي توضح وترى أن أبا مسلم انتظم في الدعوة العباسية في أيام الامام ابراهيم بعدما ابتيع له أو أهدي اليه(١٦) . وأقام أبو مسلم بعد ذلك عند الامام ابراهيم يخدمه حضرا وسفرا ، وأصبح يختلف ما بينه في الحميمة ، وسليمان ابن كثير الحراني نقيب الدعاة العباسيين في خراسان وكان يشخص على حمار له (١٧).

وفي رواية أخرى قيل أن أبا مسلم كان لبعض أهل هراة أو بوشنج(١٨) فقدم مولاه على ابراهيم الامام ، وأبو مسلم معه ، فأعجبه عقله ، فابتاعه منه ، وأعتقه ومكث عنده عدة سنين . ويقول ابن خلكان اختلف الناس في نسب أبي مسلم فقيل انه من العرب ، وقيل من العجم ، كما قيل انه من الاكراد(١٩) .

هكذا نرى ان شخصية أبي مسلم اكتنفها الغموض ، وان نسبه ومولده مختلف فيهما . ويعترف المسعودي وغيره باضطراب الروايات حوله(٢٠) ، ويبدو انه كان ايرانيا ، مولى أو عبدا (٢١) ، ولكنه ادعى بعد نجاحه انه من نسل سليط بن عبد الله ابن العباس(٢٢). وقد لفت انتباه الحزب العباسي وهو في ريعان شبابه لذكائه،وفهمه، وحسن بصيرته ومنطقه ، فأعجبهم فأخذوه وقدموه الى الامام العباسي ، فأصبح من خاصته ، ورسوله الى خراسان ، ثم عينه ممثله هناك(٢٣) .

ويشير الدوري(٢٤) الى أن أبا مسلم كان يكتب اسمه على نقوده « عبد الرحمن ابن مسلم » ولم يكن هذا اسمه الاصلي .

وقال الخليفة المأمون(٢٥) عندما ذكر أبو مسلم عنده « أجل ملوك الارض ثلاثة ، وهم الذين قاموا بنقل الدول : الاسكندر ، وازدشير ، وابو مسلم الخراساني ».

واما سياسته في خراسان ، فقد استندت على ثبات الراي ، وحسن التنظيم، والقدرة على انتهاز الفرص ، والمرونة السياسيةوالشدة عند اللزوم، وكان من نتيجتها انتصار الثورة العباسية في خراسان . ففي رواية للطبري(٢٦) . « وافاه في يوم واحد اهل ستين قرية » كما زعم الدينوري(٢٧) ان جميع ارض خراسان استجابت للدعوة، ويشير بارتولد(٢٨) ، الى أن معظم الدهاقين دخلوا في الاسلام لاول مرة بتأثيره . وكان ظهوره في خراسان في مرو(٢٩) في شهر رمضان سنة تسع وعشرين ومئة ، والوالي يومئذ بخراسان نصر بن سيار للخليفة مروان .

لكن على الرغم مما تحقق علي يد ابي مسلم من نصر ، وتصديه لمن وقف في وجهه في عمله لاقامة الدولة العباسية(٣٠) اقدم أبو جعفر المنصور على قتله لانه شعر انه يستخف به ، ويستعلى عليه ، ويهدد سلطته ، واستخدم المنصور كافة السبل حتى استدرجه ولاطفه حتى وثق به(٣١) ، وقتله في صدر خلافته وذلك فيسنة سبعوثلاثين ومائة ، برومية المدائن « وهي بلدة قريبة من بغداد على نهر دجلة » .

وستظل شخصية ابي مسلم محط اهتمام الباحثين ، ولهذا كان للعثور على مواد تاريخية جديدة حوله أهمية زائدة . وقد وجدت في ترجمة الخراساني لدى ابن عساكر من الروايات ما انفرد به وله اهمية كبيرة « المجلدة العاشرة (٣٣٧٦ تاريخ)، المكتبة الظاهرية » .

ابو مسلم في تاريخ ابن عساكر :

— عبد الرحمن بن مسلم(٣٢) ، ويقال بن عثمان بن يسار، ابو مسلم الخراساني صاحب دعوة بني العباس .

— ذكر ابو الحسن محمد بن احمد بن القواس الوراق في تاريخه انه قدم هو وأبو سلمة حفص بن سليمان المعروف بالخلال علي ابراهيم بن محمد الامام فأمرهما بالمسير الى خراسان ، وبالحميمة كان ابراهيم الامام حينئذ .

— اخبرنا أبو علي الحداد قال : قال لنا ابو نعيم الحافظ في تاريخ اصفهان عبد الرحمن بن عثمان بن يسار ابو مسلم صاحب الدولة مختلف في مولده ، فقيل مولده باصبهان برستاق « فريذين »(٣٣) ، وذاك ان والده عثمان قدم مع معقل بن عمير ابن نعيم العجلي من الكوفة فسكن معقل(٣٤) فاتق ، وعثمان فريذين فولد له بها ابو مسلم .

ـ اخبرنا ابو الحسن بن قبيس وابن سعيد وابو النجم السنجي التاجر قالوا : قال لنا ابو بكر الخطيب عبد الرحمن بن مسلم بن سنفيرون بن اسفنديار / ابو مسلم المروزي صاحب الدولة العباسية ، يروى عن ابن الزبير محمد بن مسلم المكي، وثابت البناني ، وابراهيم ، وعبد الله ، ابني محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . وكان فاتكا شجاعا ذا رأي وعقل ، وتدبير ، وحزم ، وقتله أبو جعفر المنصور بالمدائن(٢٥) .

ـ اخبرنا ابو الحسين الميداني ، أنا ابو سليمان ابن زبر انا ابو محمد الفرغاني انا ابو جعفر الطبري(٢٦) ، قال : ذكر علي بن محمد ان حمزة بن طلحة السلمي ، حدثه عن ابيه قال : كان بكير بن ماهان كاتبا لبعض عمال السند ، فقدم ، فاجتمعوا بالكوفة في دار فغمز بهم (٢٧)، فأخذوا فحبس بكير ، وخلي عن الاخرين ، وفي الحبس يونس ابو عاصم ، وعيسى العجلي بن معقل ، ومعه ابو مسلم يخدمه ، فدعاهم بكير فاجابوه الى رايه ، فقال لعيسى بن معقل : ما هذا الغلام ؟ قال : مملوك ، قال : تبيعه ؟ قال : هو لك ، قال : أحب ان تأخذ ثمنه ، قال : هو لك بما شئت ، فاعطاه اربعمائة درهم، ثم اخرجوا من السجن ، فبعث به الى ابراهيم فدفعه ابراهيم الى أبي موسى السراج، فسمع منه ، وحفظ ، ثم صار الى ان اختلف الى خراسان .

ـ وقال غيره(٢٨) ، توجه سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم ، ولاهز بن قريظ، وقحطبة بن شبيب من خراسان وهم يريدون مكة . في سنة اربع وعشرين ومائة ، فلما دخلوا الكوفة اتو عاصم بن يونس العجلي ، وهو في الحبس ، فبدأهم بالدعاء الى ولد العباس ، ومعه عيسى وادريس ابنا معقل . حبسهما يوسف بن عمر، فيمن حبس من عمال خالد بن عبد الله ، ومعهما ابو مسلم يخدمهما ، فرأوا فيه العلامات ، فقالوا : « من أين هذا الفتى »(٢٩) ، فقال : غلام معنا (٤٠) ، من السراجين ، وقد كان أبو مسلم يسمع عيسى وادريس يتكلمان في هذا الرأي ، فاذا سمعهما بكى ، فلما رأوا ذلك منه دعوه الى ما هم عليه فاجاب(٤١) .

ـ أخبرنا أبو النجم بن عبد الله أنا أبو بكر أحمد بن علي أنا محمد بن أحمد ابن رزق البزاز أنا ابو الحسن المظفر بن يحي الشرابي نا أحمد بن محمد بن عبد الله المرثدي نا أبو اسحاق الطلحي نا أبو مسلم محمد بن عبد المطلب بن فهم بن محرز . وهو من ولد(٤٢) ، أبي مسلم ـ قال : كان اسم ابي مسلم صاحب الدعوة : ابراهيم بن عثمان بن يسار بن شيدوس بن جودرن من ولد بزر جمهر(٤٣) . وكان يكنى أبا اسحق ، وولد بأصبهان ، ونشأ بالكوفة ، وكان أبوه أوصى الى عيسى بن موسى السراج ، فحمله الى الكوفة ، وهو ابن سبع سنين ، فقال له ابراهيم بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس ، لما عزم على توجيهه الى خراسان : غير اسمك فانه لا يتم لنا

الامر الا بتغييرك اسمك ، على ما وجدته في الكتب . فقال : قد سميت نفسي عبد الرحمن بن مسلم ، وتكنى أبا مسلم ، ومضى لشأنه ، ولـه ذؤابة ، فمضى على حمار باكاف(٤٤) ، وقال له : خذ نفقة من مالي لا اريد ان تمضي بنفقة من مالك ولا مال عيسى السراج ، فمضى على ما أمره ، ومات عيسى ولا يعلم أن أبا مسلم هو ابو مسلم ابراهيم بن عثمان ، وتوجه أبو مسلم لشأنه وهو ابن تسع عشرة سنة ، وزوجه ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، بنت عمران بن اسماعيل الطائي المعروف بابي النجم على اربعمائة ، وهي بخراسان مع أبيها ، وزوجه وقت خروجه الى خراسان ، وبنى بها بخراسان ، وزوج أبو مسلم ابنته فاطمة من محرز بن ابراهيم ، وابنته الاخرى أسماء من فهم بن محرز ، فأعقبت أسماء ، ولم تعقب فاطمة .

قال : وفاطمة التي تدعو لها الخرّميّة الى الساعة(٤٥).

كتب اليّ نصر بن القشيري ، انا أبو بكر البيهقي ، أنا ابو عبد الله الحافظ قال: سمعت ابي رحمه الله يحكي عن المعمرين من أهل نيسابور أن أبا مسلم لما راى الرؤيا التي طمع بها في ولاية خراسان ، اشترى حمارا وركبه ، وقد كان أخبر برؤياه عشيرته بمرو ، وتحدث الناس به ، فلما ورد نيسابور نزل « بوياباد » وكانت عامرة ، وفيها اسواق كثيرة قال : فتحدث « الخان دار »(٤٦) ، الذي نزل أبو مسلم خانه ، ان هذا يزعم . انه والي خراسان ، فخرج أبو مسلم لبعض حوائجه ، فعمد بعض الماجنين الى حماره فقطع ذنبه . فلما انصرف أبو مسلم للخان ، قال : من فعل هذا ؟ قال : والله ما ادري قال : ايش تسمى هذه المحلة ؟ قال : بوياباد(٤٧) ، قال : ان لم اصيرها « كندا باد » فلست بأبي مسلم ، فضرب الدهر ضرباته ، وانصرف الى نيسابور على ولاية خراسان ، فعمد الى تلك المحلة فخربها عن آخرها فهي الان لا تشبه محالنا ، انما هي كفرية خربة .

قال : ونا أبو عبد الله سمعت ابا بكر محمد بن حمدون بن نجار يقول : سمعت أبي يقول : لما ورد أبو مسلم نيسابور على « إكاف على حمار »(٤٨) ، وليس معه آدمي ، قصد في بعض الليالي دار « الفادوستان »(٤٩) ، فدق عليه الباب ففزع أصحابه ، وخرجوا اليه فقال لاصحابه : قولوا للدهقان أن أبا مسلم بالباب يطلب منك الف درهم ودابة ، فدخلوا على صاحبهم ، فسأل عنه : في أي زي هو ، وأي عدة ؟ فأخبروه انه وحده بأدون زي ، فسكت ساعة ثم دعا بألف درهم ودابة من خواص دوابه وأذن له ثم قال : يا أبا مسلم قد اسعفناك بما طلبت ، وان عرضت حاجة اخرى فنحن بين يديك فقال : ما ضاع لك ما فعلته ، « ولم يزده عليه »(٥٠) ، فخرج الى اقاربه بأصبهان ، وجمع عشيرته ، وكان من أمره ما كان . فقال له بعض اقاربه : ان فتحت نيسابور

اجتمع لك كل ما اردته من مـال الدهقان المجوسي بها فقال : له عندنا يـد ، فلما انصرف الى نيسابور وأتته هدايا « الفادوسيان » قبلها فقيل له : لا تقبلها واطلب منه الاموال فقال : له عندنا يد ، ثم لم يتعرض [له] ولا لاحد من اصحابه وأمواله حتى انصرف الى مرو(٥١) .

قال : ونا ابن سيار نا العلاء بن الحسين حدثني اخي علي بن الحسين والقديدي جميعا يذكران عن ابي الحسين قال : رأيت فيما يرى النائم ، كأني ادخلت موضعا واسعا ، واذا رجل على السرير قاعد ، واذا رجل يقلى بين يديه قال : فقلت من هذا ؟ قال : قيل ان ذا يزيد النحوي ، وهذا أبو مسلم يقلى بين يديه، قال : فما حال أبراهيم الصائغ ؟ قال ذاك في أعلى عليين من يصل اليه . قال : الحسين ، وقيل لي في المنام ، ان هذه الرؤيا التي رايتها رآها كل صالح في كور خراسان ، فكان يجيئنا بعد ذلك . « ان يبلغ(٥٢) رجلا هذه الرؤيا » وبسمرقند وجرجان وكور خراسان(٥٣) .

اخبرنا أبو غالب محمد بن الحسن انا محمد بن علي بن احمد بن اسحاق أنـا أحمد بن عمران الاشناني انا ابو عمران موسى بن زكريا انا خليفة بن خياط قال : سنة سبع وثلاثين ومائة فيها وجه ابو جعفر ابا مسلم الى عبد الله بن علي فالتقوا بنصيبين في جمادى الاخرة من سنة سبع وثلاثين ومائة . فاقتتلوا قتالا شديدا . ثم انهـزم عبد الله بن علي فاتى البصرة ، وبعث ابو جعفر الى ابي مسلم ان احتفظ بما في يديك، فغضب ابو مسلم ، وتوجه الى خراسان ، فبعث ابو جعفر سلمة بن سعيد بن جابر ، وكان صهر ابي مسلم كانت خالته تحت ابي مسلم ، فلحق ابا مسلم قبل ان يدخل الري ، فسأله القدوم على ابي جعفر ، فقدم معه وابو جعفر بالمدائن ، فقتله ابو جعفر بالرومية ، وذلك يوم الاربعاء لاربع بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة(٥٤) .

وقال خليفة فسمعت يحيى بن المسيب قال قتله وهو في سرادقات ، ثم بعث الى عيسى بن موسى فاعلمه ذلك ، واعطاه الرأس والمال فخرج به . ونثر الاموال فتشاغلوا بها ، ويقال بعث أبو جعفر جرير بن يزيد بن عبد الله الى أبي مسلم .

فلما صار أبو مسلم بحلوان ، جرت بينه وبين أبي جعفر رسل فمن كتب ابي جعفر الى ابي مسلم(٥٥) : أما بعد فانه يرين على القلوب ، وتطبع عليها المعاصي ، فع ايها الطائش ، وافق أيها السكران ، وانتبه أيها الحالم ، انك مغرور باضغاث احلام كاذبة وفي برزخ دنيا قد غرت قبلك ، وسحر بها سوالف القرون ، ف « هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً » ، وأن الله تعالى لا يعجزه من هرب ، ولا يفوته من طلب، ولا تغرر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي فكأنهم قـد صاولوك(٥٦) ان انت خلعت

الطاعة وفارقت الجماعة فبدالك عند ذلك من الله ما لم تكن تحتسب ، فمهلا مهلا احذر البغي أبا مسلم ، فانه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ، ونصر عليه من يصرعه باليدين ، والفم ، واحذر أن تكون سنة في الذين خلوا من قبلك ، فقد قامت الحجة ، واعذرت اليك والى اهل طاعتي فيك . قال الله تعالى(٥٧) « واتل عليهم نبأ الذين آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » .

فأجابه أبو مسلم : اما بعد فقد قرات كتابك فرايتك فيه للصواب مجانبا وعن الحق حائدا ، اذ تضرب فيه الامثال على غير أشكالها ، وتضرب لي فيه آيات منزلة من الله في الكافرين ، وما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، واني والله ما انسخلت من آيات الله ولكني يا عبد الله بن محمد كنت رجلا متأولا فيكم من القرآن آيات اوجبت لكم بها الولاية والطاعة فائتممت بأخوين لك من قبلك ، ثم بك من بعدهما ، فكنت لهما شيعة متدينا احسبني هاديا ، واخطأت في التأويل ، وقديما لعمري ما اخطأ المتأولون المريدون بذلك وجه الله تعالى والمبتغون اقامة حكم الله سبحانه ،وفيما أنزل الله سبحانه من القرآن(٥٨) « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم الى قوله فانه غفور رحيم » .

قال : وكتب اليه ابو مسلم : اما بعد ، فاني كنت اتخذت اخاك أماما ودليلا على ما افترض الله سبحانه على خلقه ، فتبع في الفتنة ، واستجهلني بالقرآن يحرفه عن مواضعه طمعا في قليل من الدنيا زائل ، ومثل لي الضلالة في صورة الهدى ، وأمرني ان اجرد السيف وأقتل بالظنة ، واقدم بالشبهة ، وأرفع الرحمة ، ولا أقبل العذر(٥٩) فيستقيم عندي البريء والمستقيم ، ووترت اهل الدنيا في طاعتكم ، وتوطئة سلطانكم ، حتى عرفكم من كان يجهلكم ، « واطار(٦٠) غيركم من فوقكم الذل » ، وركبتم بالظلم والعدوان ، ثم ان الله سبحانه تداركني منه بالندم ، واستنقذني بالتوبة ، فان يعف ويصفح فانه كان للاوابين غفورا(٦١) .

فأجابه ابو جعفر اما بعد : أيها المجرم العاصي ، فان اخي كان امام هدى، يدعو الى الله على بينة من الله ، فاوضح الله لك السبيل ، وحملك فيها على المنهج، فلو بأخي اقتديت ، ما كنت عن الحق حائدا وعن الشيطان وأمره صادرا ، ولكنه لم يسنح لك أمران الا كنت لارشدهما تاركا ، ولاغواهما موافقا ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطش بطش الجبارين ، وتحكم بالجور حكم المفسدين(٦٢) ، ثم أن من خبري لك أيها الفاسق ، اني قد وليت موسى بن كعب خراسان ، وامرته بالمقام بنيسابور ، فان أردت خراسان لقيك دونها بمن معه من قوادي ، وشيعتي ، وانا موجه للقائك أقرانك، فاجمع كيدك وامرك غير مسدد ، ولا موفق ، وحسب امير المؤمنين ، الله ونعم الوكيل(٦٣) .

ـ فشاور ابا اسحاق المروزي فقاله له :(٦٤) ما الرأي هذا موسى بن كعب لنا دون خراسان . وهذه سيوف ابي جعفر من خلفنا ، وقد انكرت من كنت اثق به من اهل عسكري فقال له : ايها الامير هذا رجل يضغن عليك امورا متقدمة ، عليك بنيسابور ، فلو كنت اذ ذاك هذا رأيك ، ووليت رجلا من ال علي كان اقرب الى الحق ، ولو انك قبلت توليته اياك خراسان والشام وغزوت الصائفة ، مددت بك الايام ، وكنت في فسحة من امرك ، ووجهت الى المدينة فاجتلبت رجلا من بني فاطمة فنصبته اماما ، فاستملت أهل خراسان وأهل العراق ، ورميت ابا جعفر بنظيره ، لكنت على طريق التدبير ، أتطمع ان تحارب ابا جعفر ثم تقوى به ، وانت بحلوان وعساكره بالمدائن ، وهو خليفة مجمع عليه لبئس ما ظننت ، قال : ما الراي فان هذا قد فات . قال : الرأي ضيق ، وامرك منتشر ، ولكن اقول على الاضطرار ، أرى أن تكتب الى قوادك وعمالك ، وتفعل كذا وكذا أمر قد ذكره . قال : هذا رأي ان وافقنا عليه قوادنا ، قال : فما دعاك الى ان تخلع ابا جعفر ، وانت على غير ثقة من قوادك،انا استودعك الله من قتيل.وقال‌له ابو اسحاق : ارى ان توجه بي الى ابي جعفر حتى اسأله لك الامان ، فانك منه على احدى منزلتين ، اما صفح عنك ، واما عاجلك وانت على شعبة من عزك من قبل ان ترى المذلة والصغار من اهل عسكرك ، فاما صرت في ايديهم اسيرا ، واما قتيلا يركضون برأسك الى المدائن(٦٥) .

وسفرت بين أبي جعفر وأبي مسلم(٦٦) السفراء ، واخذوا له الامان فأقبل حتى دخل علي ابي جعفر ، وهو يومئذ بالرومية من المدائن ، فأمر الناس فتلقوه ، واذن له فدخل على دابته ، ورحب به وعانقه وقال : كدت ان تخرج قبل ان افضي اليك بما اريد ، قال : اتيت ياأمير المؤمنين فمر بأمرك(٦٧) ، قال : انصرف الى منزلك، وضع ثيابك وادخل الحمام واسترح يذهب عنك كلال السفر ، وجعل ابو جعفر ينتظر به الفرص قال :(٦٨) فاقام اياما يأتي اباجعفر في كل يوم ، فيريه من الاكرام ما لم يره قبل ذلك ، حتى اذا مضت له ايام ، اقبل على التجني عليه فاتى ابو مسلم عيسى بن موسى فقال : اركب معي‌الى‌ا مير المؤمنين ، فاني قد اردت عتابه ، قال عيسى : تقدم حتى اتيك ، قال ابو مسلم : اني اخافه ، قال : انت في ذمتي ، واقبل ابو مسلم فقيل له ادخل ، فلما صار الى الرواق الداخل قيل له : امير المؤمنين يتوضأ فلو جلست ، وأبطأ عيسى بن موسى عليه وقد هيأ له ابو جعفر ، عثمان بن نهيك في عدة فيهم شبيب بن رواح(٦٩) وتقدم ابو جعفر عثمان ، فقال اذا عاتبته فعلا له صوتي فلا تحركوا ، وعثمان واصحابه في سترة من ابي‌مسلم، والصواب شبيب بن واج(٧٠) .

ولما اراد المنصور قتله ، دس له رجالا منهم شبيب بن واج(٧١) وتقدم اليهم فقال : اذا سمعتم تصفيقي فاخرجوا اليه فاضربوه فلما حضر وحاوره طويلا حتى

قال له : في بعض قوله ، وقتلت وجوه شيعتنا فلانا وفلانا . وقتلت سليمان بن كثير، وهو من رؤساء انصار دولتنا ، وقتلت لاهزا قال: انهم عصوني فقتلتهم ، وقد كان قبل ذلك قال المنصور له : ما فعل سيفان بلغني انك اخذتهما من عبد الله بن علي ، فقال: هذا أحدهما يا أمير المؤمنين ، يعني السيف الذي هو متقلده ، قال أرنيه ، قال : فدفعه اليه فوضعه المنصور تحت مصلاه ، وسكنت نفسه ، فلما قال ، ما قال ، قال المنصور : يا للعجب اتقتلهم حين عصوك ، وتعصيني فلا اقتلك ، ثم صفق ، فخرج القوم وبدرهم اليه « شبيب » فضربه فلم يزد على ان قطع حمائل سيفه ، فقال له المنصور : اضربه قطع الله يدك ، فقال ابو مسلم : يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك قال : واي عدو اعدى لي منك ؟ اضربوه ، فضربوه ، بأسيافهم حتى قطعوه اربا اربا ، فقال المنصور : الحمد اللهالذي اراني يومك ياعدو الله . واستؤذن لعيسى بن موسى ، فلما دخل ورأى ابا مسلم على تلك الحال وقد كان كلم المنصور في امره لعناية كانت منه به ، استرجع ، فقال له المنصور : احمد الله فانك انما هجمت على نعمة ولم تهجم على مصيبة(٧٢) .

خطب المنصور الناس بعد مقتل ابي مسلم فقال : ايها الناس لا تخرجوا من انس الطاعة الى وحشة المعصية ، ولا تمشوا في ظلمة الباطل بعد سعيكم في ضياء الحق (٧٣) ان أبا مسلم احسن مبتدئا وأساء معقبا(٧٤) ، واخذ من الناس بنا أكثر مما أعطانا ، ورجح قبيح باطنهعلى حسن ظاهره ، وعلمنا من خبثسريرته، وفساد نيته، مالو علمه اللائم لنا فيه ، لعذرنا في قتله وعنفنا في « امهاله »(٧٥) وما زال ينقض بيعته « ويحضر »(٧٦) ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه ، فحكمنا فيه حكمه في غيره، ولم يمنعنا الحق له من امضاء الحق فيه(٧٧) وما أحسن ما قال النابغة الذبياني للنعمان (يعني ابن المنذر)(٧٨) :

فمن اطاعك فانفعه بطاعته ... كما اطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة ... تنهى الظلوم ولا تقعد على خمد

اخبرني أبو الحسن قال : نا ابو النجم أنا أبو بكر الخطيب انا الحسين بن محمد اخو الخلال نا عبد الرحمن بن محمد الاسترابادي فيكتابه قال : سمعت محمد بن أحمد بن موسى البخاري يقول : ظهر أبو مسلم لخمس بقين من شهر رمضان سنة تسع وعشرين ومئة ، ثم سار الى أمير المؤمنين أبي العباس سنة ست وثلاثين ومائة وتوفي(٧٩) سنة سبع وثلاثين ومائة ، وبقي أبو مسلم فيما كان فيه ثمانية وسبعين شهرا غير ثلاثة عشر يوما .

قال : وأنا الحسن بن أبي بكر قال : كتب الي ابو محمد بن ابراهيم الجوري ، يذكر أن أحمد بن حمدان بن الخضر أخبرهم نا أحمد بن يونس الضبي نا أبو حسان الزيادي قال : سنة سبع وثلاثين ومائة فيها قتل ابو مسلم لخمس ليال بقين في شعبان ويقال لليلتين بقيتا منه .

قال : ونا ابو الفضل نا عبد الله بن جعفر نا يعقوب بن سفيان قال : وقتل أبو مسلم يوم الاربعاء لسبع ليال خلون من شعبان في هذه السنة يعني سنة سبع وثلاثين ومائة .

قال : وأنا علي بن محمد الشمار أنا عبد الله بن عثمان الصفار نا عبد الباقي بن قانع قال : سنة سبع وثلاثين ومائة فيها قتل المنصور أبا مسلم عبد الرحمن بن مسلم بالمدائن .

قال : وأنا الحسين بن محمد المؤدب أنا أبو سعد الادريسي في كتابه ، قال : سمعت محمد عبيد الله بن محمد بن أحمد بن سهل يقول : قتل ابو مسلم سنة اربعين ومائة .

قال : واخبر أبو الوليد الدربيدي نا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان الحافظ ببخارى قال : قتل أبو مسلم صاحب الدولة ببغداد في سنة أربعين ومائة .

قال الخطيب : بالمدائن قتل لا ببغداد(٨٠) .



الحواشــــي :

(١) لكل ما ذكر يمكن العودة الى : ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج٣ ص ١٤٥ « بيروت ١٩٧٠» ـ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص ١٩٨ / ١٩٩ ـ ٣٤٤ « ط ٢ مصر ١٩٦٥ » ـ المسعودي ، مروج الذهب : ج٣ ص ٢٣٨ /٢٣٩ « بيروت ١٩٦٦ » . ـ اليعقوبي ، تاريخه ج٢ ص ٣٣٨ / ٣٦٤ «بيروت ١٩٨٠» ـ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ج٥ص٢٥٤ وما بعدها « بيروت ١٩٧٩ » ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج١٠ ص ٢٠٧ ـ ٢١١ « طبعة بيروت » ـ ابن كثير ، البداية والنهاية : ج١٠ ص ٦٧ ـ ٧٠ « ط٢ بيروت ١٩٧٧ » ـ ابن خلدون ، العبر ج٣ ص ١٠١ ١٠٢ « ط ٩٧١ » وانظر كذلك البلاذري ، أنساب الاشراف ، ج٣ ص ٢٠١/٢١٠ «بيروت ١٩٧٨ » والزركلي ، الاعلام ، ج٣ ص ٣٧٧ « ط ٧ ١٩٨٦ » .

(٢) انظر الخطيب ، ج١٠ ص ٢٠٧ « يذكر اسمه : عبد الرحمن بن مسلم بن سنفيرون بن اسفنديار.«أبو مسلم المروزي » ابن الاثير، الكامل ، ج٥ ص ٢٥٤ يقول : « انه ابراهيم بن عثمان ابن بشار بن سدوس بن جودزدة من ولد بزر جمهر ويكن ابا اسحق » ـ ابن كثير : البداية ج١٠ ص٦٧ « يقول : هو عبد الرحمن بن مسلم ابو مسلم صاحب دولة بني العباس »» ويقال له امير ال بيت رسول الله (ص) .

(٣) « كني او تكن او يكنى » الخطيب : ج١٠ ص٢٠٧ ـ الكامل ج ٥ص ١٥٤/٢٥٥/٢٥٧ـ البداية ، ج١٠ ص ٦٦ .

(٤) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٣٣٩ « ليدن ١٨٨٨ » تاريخ بغداد ج١٠ ص ٢٠٧ يقول أنه ولد « باصبهان » ـ الكامل ، ج٥ ض ٢٥٤ ـ بينما يضيف الفخري ص١٣٩، انه ولد باصفهان ونشأ في الكوفة .

(٥) ابن خلكان ، وفيات ج٣ ص٩٤٩ .

(٦) ابن خلكان ، وفيات ج٣ ص ١٤٥ .

(٧) المسعودي ، مروج الذهب ج٣ ص ٢٣٨/٢٣٩ ـ ووردت عند الطبري ، ج٧ ص ٢٦٠ « خطرنية » ويعدها من سواد الكوفة « بينما يذكرها ياقوت في ج٢ ص ٣٧٨ قائلا بأنها ناحية من نواحي بابل بالعراق » .

(٨) ابن خلكان ، وفيات ج ٣ ص ١٤٧ .

(٩) الطبري ، تاريخ ج٧ ص ١٩٨ ـ ابن الاثير، ج٥ ص ٢٥٤ ـ ابن كثير ، البداية ج١٠ ص ٦٩ .

(١٠) انظر ، اخبار الدولة العباسية ، ص ٢٦١ ـ ابن خلكان ، ج٣ ص ١٤٦ .

(١١) الطبري ، ج٧ ص ٢٢٧ ـ ابن الاثير ، ج٥ ص ٢٧٤ .

(١٢) الدينوري ، ص ٣٣٨ ـ الطبري ، ج ٧ص ٣٦٠ .

(١٣) البلاذري ، أنساب ، ، ج٣ ص ٨٤/١١٩ ـ اخبار الدولة العباسية ، ص ٢٥٤/٢٥٦ـ اليعقوبي ، تاريخه ، ج٢ ص ٣٢٧ ، حيث يورد روايات متناقضة بعضها تقول بانهعرف الامام محمد واخرى تذكر ان ابا مسلم لم يلحق محمد بن علي وانما لقي ابنه ابراهيم.

(١٤) كان عاصم بن يونس محبوسا بسبب فساد « وربما لانه كان قد تخلف عن دفع الضرائب، انساب ج٣ ص ١١٩ ».

(١٥) عضلة « داهية » انظر اخبار الدولة العباسية ص ٢٦١ ـ حسين عطوان : الدعوةالعباسية تاريخ وتطور ص ٢٤١« بيروت ١٩٨٤ ».

(١٦) الطبري ، ج ٧ ص ١٩٨/٣٢٩ ـ انساب الاشراف : ج٣ ص ١٢٠ ـ واخبار الدولة العباسية ص ٢٦١ ـ الكامل ، ٥ص ٣٢٩.ـ

(١٧) البلاذري ، ج٣ ص ١٢٠ ـالكامل ، ج٥ ص ٢٥٨ ـ وفيات الاعيان ج٢ ص ١٤٦ .

(١٨) الكامل ، ج٥ ص ٢٥٨ ـ ويورد ياقوت ج١ ص ٥٠٨ أن بوشنج بليدة من نواحي هراة بينهما عشرة فراسخ .

(١٩) ابن خلكان ، ج٣ ص ١٥٥ .
(٢٠) المسعودي ، ج٣ ص ٢٣٨ – الطبري ، ج٧ ص ٢٧٧ – الطقطقي ، الفخري في الاداب السلطانية ، ص ١٣٩ – الدينوري ، ص٣٣٩
(٢١) الدوري ، العصر العباسي الاول ، دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي ص ٢٦ بيروت ١٩٨٨ .
(٢٢) الدوري ، المرجع السابق ص ٢٦ .
(٢٣) الطبري ، ج ٧ ص ٣٤٤ – اليعقوبي : ج٢ ص ٣٤٠ – وفيات ج٣ ص ١٤٦ – الكامل : ج٥ ص ٢٤٧ / ٢٥٥ .
(٢٤) الدوري : المرجع السابق ص ٢٦ .
(٢٥) وفيات ، ج٣ ص ١٤٧ .
(٢٦) الطبري ، ج٧ ص ٣٥٥ .
(٢٧) الدينوري ، ص ٣٤٤ .
(٢٨) بارتولد ، الحضارة الاسلامية ، ص ٦٥ – والدوري ، ص ٢٨ .
(٢٩) ابن خلكان ، ج٣ ص ١٤٩ .
(٣٠) الطبري ، ج٧ ص ٤٩١ – ابن كثير ،ج١٠ ص ٧٢ .
(٣١) المقدسي ، البدء والتاريخ : ج٦ ص ٧٩ « باريز ١٩١٩ » – المسعودي ، ج٣ ص ٢٩٢ – الفخري ، ص ١٦٨ (بيروت ١٩٦٦) . اليعقوبي، ج٢ ص ٣٦٧ – والعيون والحدائق ج٣ ص ٢٢٤ – وفيات ، ج٣ ص ١٥٣ .
(٣٢) يذكر الخطيب البغدادي هو « عبد الرحمن بن مسلم بن سنفيرون بن اسنفديار ابو مسلم المروزي صاحب الدولة العباسية . انظر تاريخ بغداد او مدينة السلام المجلد العاشر ص ٢٠٧ دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان » . وانظر ابن كثير، البداية والنهاية (ط ٢ بيروت ١٩٧٧) ج١٠ ص٦٧ ويقول : هو عبد الرحمن بن مسلم ابو مسلم صاحب دولة بني العباس ، ويقال له امير ال بيت رسول الله (ص) . نهاية الصفحة في المخطوطة ١٨٧ .
(٣٣) وردت بالاصل باشكال مختلفة ففي الوفيات ج٣ ص ١٤٥ فريدين ، وفريزن في معجم البلدان لياقوت ج٤ ص ٢٥٩ طبعة بيروت وقال عنها انها قرية على باب هراة ويقال لها فريزة . والارجح انها فريدين وهي احد رستاقات اصبهان والذي يقول ياقوت في معجمه ج١ ص ٢٠٧ وهي أي اصبهان ستة عشر رستاقا وكل رستاق ثلاثماية وستون قرية قديمة سوى المحدثة وهي (جي ، وماربانان .. وفريدين ،وقهستان..الخ)..
(٣٤) ابن خلكان ، ج ٣ ص ١٤٥ « وردت رستاق فائق » ويضيف ابن خلكان انآباه من رستاق فريدين ومن قرية تسمى سنجرد او «سنجر» وقيل انه من قرية يقال لها «ماخوان» .
(٣٥) الخطيب ، ج١٠ ص ٢٠٧ – البداية ، ج ١٠ ص ٦٨ .
(٣٦) الطبري ، ج ٧ ص ١٩٨ .
(٣٧) مغمز بهم : أي سعى بهم شرا .
(٣٨) الطبري ، ج٧ ص ١٩٨/١٩٩ .
(٣٩) وفي الطبري ، ج٧ ص ١٩٨ « من هذا » (وفي الاصل فقال من غلام معنا ومن زائدة).
(٤٠) وفي الطبري ، ج٧ ص ١٩٨ قالوا : غلام معنا من السراجين .
(٤١) الطبري، ج٧ ص١٩٩: فأجاب وقبل .
(٤٢) البغدادي ، ج١٠ ص ٢٠٧ – وفيات ، ج٣ ص١٤٥ – انساب ، ج٣ ص ١١٨ واخبار الدولة العباسية ، ص ٢٥٥.
(٤٣) فيالوفيات ،ج ٣ص ١٤٥ قيل : هو ابراهيم بن عثمان بن يسار بن شذوس ابن جودون من ولد بزر جمهر بن البختكان الفارسي والكاف في بختكان فارسية النطق » .
(٤٤) قال المدائني : « كان أبو مسلم يختلف الى خراسان يبعثه الامام يكتبه الى سليمان ابن كثير فيشخص على حمار له » انظر : البلاذري ، ج٣ ص ١٢٠ . ابن الاثير، ج٥ ص ٢٥٨ – وفيات ، ج ٣ ص ١٤٦ .
(٤٥) الخطيب ، ج ١٠ ص ٢٠٧ (نهاية الصفحة ١٨٩ .
(٤٦) حافظ الخان .

(٤٧) لم أجدها عند ياقوت وغيره ، وقد تكون موضع شك كما في الرواية التي جاءت بصدد ذكرها والتي قرنت بها ، ومفادها ان ابا مسلم رأى رؤيا استدل بها على ملك خراسان، ولما ورد نيسابور نزل « بونا باذ » وكانت عامرة ، ثم قام ابو مسلم بتخريبها كما تذكر الرواية لسبب ضعيف ولرؤيا مشكوك في تنبؤها اولا وقد تكون من الروايات التي وضعت فيما بعد عن ابي مسلم .

(٤٨) انظر ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص ٤٨٠ « باكاف أو لاكاف » يقول : ان ابا مسلم ورد نيسابور على حمار باكاف .

(٤٩) انظر ابن الاثير ، وردت « الفاذوسيان » لفظة فارسية وهي صفة لدهقان نيسابور المجوسي ، وربما تعني وظيفة ادارية عالية في الرستاق .

(٥٠) انظر : ابن الاثير ، ج٥ ص ٤٨٠ حيث يقول : « ما نضيع لك ما فعلته » (نهاية صفحة ١٩٠) .

(٥١) انظر ابن الاثير ، ج٥ ص ٤٨٠ « يقول : فلما ملك نيسابور اتته هدايا الفاذوسيان — دهقانها المجوسي — فقيل له : لا تقبلها واطلب منه الاموال فقال : له عندي يد ، ولم يتعرض له ولا احد من إصحابه وامواله ، وهذا يدل على علو همة وكمال مروءة ».

(٥٢،٥٣) لم أجدها في المصادر المتوفرة .

(٥٤) خليفة بن خياط العصفري ، تاريخ خليفة ج٢ ص ٦٣٧ دمشق ١٩٦٨ .
— الطبري ، ج٧ ص ٤٨٤/٤٨٧— وأنساب، ج ٣ ص ٢٠٢ — الكامل ، ج٥ ص ٤٧٨ — وابن خلدون ، ج٣ ص ٣٩٠ ، ويظهر من الروايات ان المنصور بعث لابي مسلم اكثر من رسول منهم عيسى بن موسى ، وجرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي فلاطفه هذا وخدعه وبعث المنصور كذلك ابا حميد محمد بن ابراهيم الحميري فكره اليه المعصية ثم اتته رسالة اخرى بواسطة ابي اسحاق صاحب حرسه ونصحه بالرجوع ، واخيرا سار اليه صهره سلمة بن سعيد بن جابر .

(٥٥) ابن كثير ، ج١٠ ص ٦٨ « ووردت ببعض الاضافات القليلة في بعض العبارات » .

(٥٦) وردت في البداية ، ج ١٠ ص ٦٨ « فكأنهم قد صالوا عليك بعد ان صالوا معك » .

(٥٧) سورة الاعراف الاية : ١٧٥ .

(٥٨) سورة الانعام الاية : ٥٤ « واذا جاءك الذين يؤمنون باياتنا فقل سلام عليهم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده ، واصلح فانه غفور رحيم » .

(٥٩) وردت عند الخطيب ، ج١ ص ٢٠٨« ولا أقبل المعذرة » (نهاية صفحة ١٩٣) .

(٦٠) هذه الجملة زيادة عما جاءت في المصادر السابقة .

(٦١) انظر البداية ج١٠ ص ٦٩ ويضيف ابن كثير : « وان يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد» ، وانظر : الطبري : ج ٧ ص٤٨٤ — الكامل : ج٥ ص ٤٧٠/٤٧١، والخطيب : ج١٠ ص ٢٠٨ ، وفي الروايات تطابق في المعنى مع خلاف طفيف في العبارات .

(٦٢) في البداية ، ج١٠ ص ٦٩ « ونبذر المال وتضعه في غير موضعه فعل المسرفين » ، ثم من خبري أيها الفاسق .

(٦٣) في البداية ، ج١٠ ص ٦٩ وفي البداية ايضا « وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه » الله ونعم الوكيل .

(٦٤) انظر : الطبري ، ج٧ ص ٤٨٦ — الكامل ، ج٥ ص ٤٧٣ — خليفة ، تاريخ ج٢ ص ٦٣٧، وكلها لا تذكر ما قاله ابو اسحق لابي مسلم، وهنا كذلك نجد اضافات عند ابن عساكر ومعلومات جديدة ، وتذكر فقط ان ابامسلم وجه أبا اسحق مندوبا عنه لابي جعفر وذلك لثقته به ولكن كي يستطلع له الحضرةويعلمه الحقيقة .

(٦٥) المصادر السابقة،وانظر : انساب الاشراف، ج٣ ص ٢٠٢، ومروج الذهب ، ج٣ ص٢٩٠،

البداية ، ج١٠ ص ٦٤ وانظر : حسين عطوان ، المرجع السابق ص ٣٨٧ « وينفرد ابن عساكر بهذه التفاصيل ».

(٦٦) انظر : انساب ، ج٣ ص ٢٠٢ ـ الطبري ، ج٧ ص ٤٨٤ / ٤٨٦ / ٤٨٩ ـ اخبار الدولة العباسية ص ٢١٨/٢٢١ ـ المسعودي ، ج٣ ص ٢٩١ ـ الكامل ، ج٥ ص ٤٧١/٤٧٢ ـ وانظر : عطوان ، المرجع السابق ص٣٨١.

(٦٧) انظر : اليعقوبي ،تاريخ ج٢ ص ٣٦٧.

(٦٨) الطبري ، ج٧ ص ٤٨٦ / ٤٩١ ـ الكامل ، ج٥ ص ٤٧٤ ـ انساب ، ج٢ ص ٢٠٣ .

(٦٩) انظر : اليعقوبي ، ج٢ ص ٣٦٧ ـ ومروج، ج٣ ص ٢٩١/٢٩٢ ـ وفيات ، ج٣ص ١٥٤ـ البداية ، ج١٠ ص ٦٩ ـ ورد عند الخطيب، ج١٠ ص ٢٠٩ « شبيب بن داج ».

(٧٠) وردت في الخطيب ، ج١٠ ص ٢٠٩ «داج».

(٧١) انظر : اخبار الدولة العباسية ، ص ٢١٨ـ وكان المنصور اعد « عثمان بن نهيك » وهو رئيس الحرس ، وهو من مجلس السبعين من اهل ابيورد مع اربعة من اقوياء الحرس منهم « شبيب بن واج أو داج ، وابو حنيفة » « حرب بن قيس » واخفاهم وراء ستر في الرواق . وانظر : انساب : ج٣ ص٢٠٥ ـ الطبري ، ج٧ ص ٤٩٠/٤٩١ ـ ومروج الذهب ، ج٣ ص ٢٩١/ ٢٩٢ ـ واليعقوبي ، ج٢ ص ٣٦٧ ـ والخطيب ،ج١٠ ص ٢٠٩/٢١٠ .

(٧٢) انظر المصادر السابقة ـ والفخري في الاداب السلطانية ، ص ١٥١ ، والكامل ، ج٥ ص٤٧٥ والوفيات ، ج٣ ص ١٥٣، والبداية، ج١٠ ص ٦٦/ ٦٧، وابن خلدون ج٣ ص٢٩١.

(٧٣) انظر : الكامل ، ج٥ ص ٤٧٨ .

(٧٤) البداية ، ج١٠ ص ٧١ جاءت « اسامتهيا».

(٧٥) الكامل ، ج٥ ص ٤٧٨ جاءت «امها لنا له».

(٧٦) الكامل ، ج٥ ص ٤٧٨ جاءت « يحقر » .

(٧٧) انظر : الكامل ، ج٥ ص ٤٧٨/٤٧٩ ، وابن كثير ، ج١٠ ص ٧١ انظر : ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم « مصر » القصيدة الاولى في مدح النعمان .

(٧٨) زيادة عن الاصل .

(٧٩) انظر : الخطيب ، ج١٠ ص ٢١٠ ، نهاية صفحة ١٩٧ .

(٨٠) الخطيب ، ج ١٠ ص ٢١٠/٢١١ .

اشـكال الاسـتبداد عنـد الكواكبـي

محمـد جمال طحـان

بدأ الكواكبي كتابه « طبائع الاستبداد » بالتعريف بموضوع بحثـه ، محاولا أن يسطي الكلمة أبعادها مبتدئا بالمعنى اللغوي : « الاستبداد لغـة هـو غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة أو الاسـتقلال في الراي وفي الحقـوق المشـتركة »(١) . فالاستبداد تعصب من ينتصر لرأيه ويرفض قبول الراي الآخر ، وينفر من أن يشاركه احد التفكير ؛ أو هو استئثار المرء بالحقوق العامة لنفسه ، تلك الحقوق التي يتوجب عليه أن يشارك الاخرين فيها . وهذا المعنى يشمل الاستبداد بصفة عامة حيث يكون الفرد ، أياً كانت وظيفته ، سواء أكان أباً أم معلما أم حاكما ... ويسمى تبعا لمضافه فيكون أسريا أو تربويا أو دينيا أو ماليا .. لأن « تحكم النفس على العقل ، وتحكم الأب والاستاذ والزوج ، ورؤساء بعض الاديـان ، وبعض الشـركات ، وبعض الطبقات ، فيوصف بالاستبداد مجازا أو مع الاضافة »(٢) . وهنا يبدو جليا أن الكواكبي يدرس الاستبداد من حيث الهيئة الصادر عنها ، فنلاحظ أن هناك أشكالا كثيرة يشير اليهـا الكواكبي اشارة عابرة . فهو ، فضلا عما ذكر سابقا يقول :« من أقبح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم ، واستبداد النفس على العقل »(٣) ، فالعلم والعقل يجب أن يسودا ، وأن سيادة عكسهما يسمى استبداداً . لكن الكواكبي لا يتوقف الا عنـد اربعة أنواع من الهيئـات التي يمكـن أن تضاف الى الاسـتبداد ، هي : الأصلاء ، المتعممون(*) ، الاثرياء ، الحكام . وسنعرض لها جميعا كما فهمها الكواكبي .

آ ـ استبداد الأصلاء : يرى الكواكبي أن الاصالة صفة قد يكون لها بعض المزيات إذ ان الابناء يرثون من الآباء استعدادات وراثية ، ويتلقون عنهم مبادىء تربوية خاصة ، ويحظون بما يخلفونه من ثروة ورخاء. ويقسم الكواكبي بيوت الاصالة الى ثلاثة أنواع: بيوت علم وفضيلة، وبيوت مال وكرم، وبيوت ظلم وإمارة. وهذا النوع الاخير هو الذي يسهب الكواكبي في الحديث عليه . فالفرد في بيوت الظلم والامارة يشب على الترف ويستخدم الثروة في الملاذ، ويتمثل بأقران السوء المتملقين المنافقين، ويبغض العلماء، ويعتقد ان الناس مخلوقون لخدمته(٤) . وتبعا لذلك يرى المؤلف أن « الاصلاء باعتبـار أكثريتهم

دراسات تاريخية ، العددان ٤٧ و ٤٨ ، أيلول ـ كانون الاول ١٩٩٣ .

(*) يستخدمها الكواكبي بدل (رجال الدين) غير المسلمين .

هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل ، لان ابناء آدم داموا اخوانا متساوين الى ان ميزت الصدفة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية »(٥) ، وهذا التمايز لم يكن بحق ، وانما هو مجرد فوارق وهمية رسخها الاصلاء ليظلموا الناس عن طريقها ويستبدوا بكل شيء . يسلبون الاموال بالقوة ، ويدعون العلم مقابل تجهيل الناس ، ثم يؤسسون الحكومات المستبدة(٦) .

ب ـ استبداد المتعممين : وهؤلاء يلقبهم الكواكبي بالمتعممين الذين يدعون أن دون العلم بالدين حجابا لا يكشف إلا لهم . اذ يضع الكهنة ، والبراهمة ، والقسوس ، وامثالهم ، انفسهم حجابا على سموات الله ، يزعمون انهم يمنعون لقاء الارواح بربها ما لم يأخذوا عنها مكوس المرور وفدية الخلاص(٧) . والعوام ، من خوفهم ، يصدقون ما يقال لهم ، ثم يرجحون اليمين بهؤلاء الاولياء المقربين ، على اليمين بالله(٨) .

ان تشدد الفقهاء في الدين ، وكثرة الترهيب ، تحزّب يُراد منه الاستبداد بالناس عن عريق ادعاء المتعممين / المتعالين انهم وحدهم العارفون بما يريد الله من عباده ، وانهم هم الذين يغفرون الذنوب ، فيحتاج اليهم الناس الذين لا يهمهم سوى مرضاة الله ، ويتبعون البدع التي تشوش الايمان وتشوه الاديان ، فيقعون في فخ الاستبداد(٩) . إذاً ، فان المتعممين ينشرون تعاليم تزيف الاديان ليتمكنوا من بسط سيطرتهم على أذهان العامة ، وليستطيعوا ، بالتالي ، قهرهم بما يصوغونه لهم من الاساطير والمبتدعات الغريبة التي يرى العامة أنفسهم عاجزين عن تفسيرها ، مما يجعلهم يتعبدون الاوهام والامراء والعارفين(١٠) .

جـ ـ استبداد الأثرياء : وللمال دور مهم في حياة الناس . وبحسب الترتيب الذي اقتنع به الكواكبي : « يقال ... القوة كانت للعصبية ثم صارت للعلم ثم صارت للمال »(١١) . لذلك فانه يحاول تبيين علاقة الاستبداد بالمال وما يحدثه في نفوس الأثرياء .

يعرّف الكواكبي المال بقوله : « كل ما ينتفع به في الحياة هو مال »(١٢) . ويفرّق بين المال الحلال والمال الحرام : « المال الخبيث الحرام هو ثمن الشرف ، ثم المغضوب، ثم المسروق ، ثم المأخوذ إلجاء ، ثم المحتال فيه »(١٣) والناس لا يأتيهم الاثراء الا عن طريق المال الحرام ، فهم بعد أن عرفوا قيمة المال وقوته سارع بعضهم لاغتصاب ما في ايدي الاخرين والاستئثار به من دونهم .

والكواكبي يربط الظلم الناتج من الاستبداد المالي بالاستبداد الاجتماعي

الذي يعده استبدادا محميا بقلاع الاستبداد السياسي(١٤) . ويلاحظ القسمة غير العادلة بين الناس في الاعمال . وفي عائدات هذه الاعمال على أصحابها . فالذين يكدّون ويشقون لا ينالون الا النذر اليسير ،أما المتبطلون والمرابون والمحتكرون فيجنون ثمرات اتعاب الاخرين من غير مشقة ولا عناء « فان أهل السياسة والاديان ومن يلتحق بهم وعددهم لا يبلغ الخمسة في المائة ، يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر او زيادة ، ينفقون ذلك في الرفه والاسراف »(١٥) ، وأهل الصنائع الكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون والسماسرة وامثالهم .. يعيش واحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو الالوف من الصناع والزراع . ويقرر الكواكبي : « وجرثومة هذه القسمة المتفاوتة المتباعدة الظالمة هي الاستبداد لا غيره »(١٦) .

ولتحديد معنى الاستبداد المالي يدرس الكواكبي انواع العمل وشروط جواز التمول . فيرى أن أعمال البشر في تحصيل المال هي الزراعة والصناعة والتجارة ، وكل وسيلة خارجة عن ذلك فهي وسائل ظالمة(١٧) . وكي تتحقق مشروعية التمول لقضاء الحاجات يجب أن يكون احراز المال بوجه مشروع ، والا يكون في التمول تضييق على آخرين ، والا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . ما عدا ذلك يكون استبدادا ماليا . ويعد الكواكبي الربا استبدادا لانه كسب بدون مقابل مادي، وبدون عمل ، ولا تعرّض للخسائر . ففي الربا نماء مطلق يؤدي الى انحصار الثروات فيختل التساوي او التقارب بين الناس(١٨). تلك الثروة التي لا تأتي الا بالتقرب من المستبد بمعرفة أسرار لا يريد لها أن تشيع ، ثم عن طريق الاتجار بالدين ، ثم الملاهي ، ثم الربا الفاحش(١٩). والكواكبي يحتج على الثراء الفاحش وعلى استبداد الملاك ، ويسمي الفقراء أسرى الطغيان ، ويرى أن القضاء على الطغيان هو شرط الخلاص من هذا المرض الاجتماعي (الفقر). فهو يُرجع كل مظهر من مظاهر الفساد الاقتصادي الى نظام الحكم المستبد، ويبين مشكلة الاثراء بحسب أنظمة الحكم .

د ـ **استبداد الحكام** : ان الانواع السابقة من الاستبداد يعدها الكواكبي استبدادا مجازيا ، أو انها وصفت بالاستبداد مع الاضافة . أما اذا جاء لفظ (الاستبداد) بغير اضافة فانه يفهمه على أنه أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الانسان أشقى ذوي الحياة »(٢٠) . لان الاستبداد السياسي هو الاخطر ، وهو صاحب اليد الطولى من حيث تأثيره في أشكال الاستبداد الاخرى ، ومن حيث ايجادها بعد ان لم تكن ؛ وهو سبب الاسباب لضعف المسلمين جميعها « تمحص عندي أن أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي »(٢١) . فيه تختل السلطة القانونية ويعم الانحلال . ان الكواكبي ، بالرغم من ادراكه تنوع أشكال الاستبداد ، بقي تفكيره محصورا ــ الى حد ما ــ بما للاستبداد السياسي من تأثير في الميادين الاخَر .

نظرا الى اهمية هذا النوع من انواع الاستبداد ، في فكر الكواكبي ، لذلك نـراه يعطيه التحليل الاعمق من الدراسة ، ونحن سنعرض ، هنا ، معنى السياسة لديه وما ينتج عن ارتباطها بالاستبداد .

ثم نرى رايه في الحكومة المستبدة : سماتها واشكالها .

لما راى الكواكبي أن تأخر المسلمين ناتج عن تدهور النظم السياسية « ان سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الاسلامية »(٢٢) ، أصبح النظام السياسي هو اهـم المسائل التي تشغل فكره ، وأدرك خطورة الخوض في امور السياسة « لاخفـاء أن السياسة علم واسع جدا »(٢٣) ، لذا فانه اثر أن يتبنى معنى محددا لما يقصده من لفظ (السياسة) ليتسنى له أن يدخل في تفاصيل أهم المقولات السياسية واشدها خطرا ـ نظام الحكم ـ باعتبار أنه عد السياسة علما ، ولا بد للعالم من التخصص في فرعه العلمي ، فما هو البحث الذي اختار الخوض فيه ..؟ .

يقول : « ولما كان تعريف علم السياسة بأنه هو (ادارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة) ، يكون بالطبع أول مباحث السياسة واهمها بحث (الاستبداد) اي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى »(٢٤) . فالاستبداد هو بحثه السياسي الاساسي، والسياسة هي ادارة . لكنها ادارة ماذا ؟ انها ادارة للشؤون المشتركة . وهنا يبدأ البحث عن الوسيلة الموصلة الى هذه الادارة . وهو هنا يرى أن ذلك يتم بمقتضى الحكمة ، أي تحكيم العقل لتسيير الامور العمومية وفق مصلحة أصحاب العلاقـة جميعهم . وهو لا يكتفي بناحية الايجاب ، بل يقرن تعريفه بالناحيـة السلبية حيث ان كل غياب للحكمة يستحضر استبدادا . وهنا يحضـر (التصـرف) في الشـؤون المشتركة بدل (ادارتها) ، وتغيب الحكمة العقلية ليوجد (الهوى) . وكأننا به يضع (التصرف) فعلا و (الهوى) مصدرا ، يضعهما خارج دائرة السياسة العملية الحقة ، وان كان بالامكان تناولهما ، من الوجهة النظرية للسياسة . على أن منتوجهما هـو (الاستبداد) . فبحثه اذا سياسي ، وداء السياسة : الاستبداد .

إن الكواكبي ، باديء ذي بدء ، يعرفنا بمفهوم الاسـتبداد الـذي يقصـده : « الاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة ، وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات : استعباد ، واعتساف ، وتسلط ، وتحكم »(٢٥) ، فعـدد الاشخاص غير ذي أهمية لوصف تصرف ما بأنه استبداد ، فكما أن الفرد الواحـد قادر على أن يستبد بحقوق شعبه ، كذلك فان مجموعة ما ، هي الاخرى تفعل ذلك .

كما أن التسمية ، وان اختلفت شكلا ولفظا ، فان الجوهر يبقى واحدا هو الاستبداد على صعيد السياسة . والاستبداد في الحكم سواء أمارسه واحد او مجموعة اشخاص له ميزة أساسية هي غياب القانون .

أن الاستبداد « هو الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الامة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم »(٢٦) ، فحيث لا تكون علاقة الحاكم بالمحكوم محكومة بقانون، لا تكون هناك علاقة بين الاثنين ، ويبقى كل ما هنالك هو متسلط وتابعون . ان غياب القانون يعني انعدام العقاب الذي يمكن أن يردع القائم على راس الحكم عن التصرف الهوجائي بمقدرات الامة « الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين »(٢٧) . وهذه الحكومة لا تتبع شريعة أو عرفا معينا ، ولا تستند الى ارادة الشعب في ادارة شؤونه. فالحكومة المتعنتة هي (إما غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعـة ، أو على أمثلـة تقليدية ، أو على ارادة الامة ، أو يمكنها ابطال قوة القيد متى شاءت)(٢٨) .

إن الكواكبي يرفض صيغة الحكم الاستبدادية ، مستندا الى وظيفـة الحكـم الاساسية : « ان الناس وضعوا الحكومات لاجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع، فجعل الرعية خادمة للرعاة »(٢٩) ، فالاصل في الحكومة أن توجد لتنظيـم أحـوال الناس ، وخدمتهم ، والسهر على راحتهم ، وما عدا ذلك لا يصح تسميته حكومة على الاطلاق . وفي محاولة لتكثيف جملة ما خرج بـه من آراء يصـوغ (المؤلف)(*) معنى الحكومة ويرسم حدودها بفقرات موجزة . فتحت عنوان (مبحث ما هي الحكومة) يتساءل مستنكرا : « هل هي سلطة امتلاك فرد لجمـع ، يتصرف في رقابهم ، ويتمتع بأعمالهم ويفعل فيهم بارادته ما يشاء ..؟ »(٣٠) فيستولي على حقوقهم . وهذه الحقوق « هل هي حقوق آحـاد الملوك ، ولكنها تضاف للامـم مجازا ..؟»(٣١) بحيث يقدمها الحكام منا على أنها منحة منهم يستطيعون منعها في أي وقت يشـاؤون . ويتساءل مستغربا : كيف تحولت الوظائف الاساسية للحكومة الى خدمة السلاطين والامـراء، « هل الحكومة تملك السيطرة على الاعمال والافكار ، وتتصرف في الحقوق كما تشـاء بذلا وحرمانا »(٣٢) ؟ وطريقة تساؤله الساخرة تدل على رفضه هذه الوظائف الوهمية للحكومـة .

الحكومة قد تتخذ لنفسها أشكالا متعددة مع أن جوهرها واحد هـو الاستبداد.

(*) المؤلف ، الكواكبي ، عبد الرحمن ، السيد الفراتي ، أبو الضعفاء ، الرحالة ك .. تدل على رجل واحد ، هنا ، هو الكواكبي . ونحن نحاول استخدام هذه الاسماء بمنهجية تأخذ بعين الاعتبار السياق الذي ترد فيه .

وتستوي في ذلك الحكومات المتسلطة ، والمنحرفة عن مسارها الطبيعي ، كلها ، مهمـا اختلف شكلها وتباينت هيئاتها ، « ان صفة الاستبداد ، كما تشمل حكومة الحاكـم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة او الوراثة ، تشمل أيضا الحاكم الفرد المقيـد المنتخب متى كان غير مسؤول [...] وتشمل أيضا الحكومة الدستورية المفرقة فيها بالكلية قوة التشريع عن قوة التنفيذ وعن القوة المراقبة »(٣٣) ، لان شـكل السلطـة لا يغير شيئا ما لم يحتو مضمون المراقبة لجعل ذلك الشكل ذا مضمون ايجابي فعلي قابل للتنفيذ . فما الفرق ، من حيث ممارسة الاستبداد ، بين القائد العسكري الذي استولى على الحكم بالقوة ، وبين الحاكم الذي أقسم على الالتزام بالقانون مع علمه بأن أحدا لن يحاسبه اذا حنث بقسمه ، واخيرا بين الحكومة الدستورية التي تتصرف كل هيئة فيها وكأنها وحدها صاحبة السلطة وصاحبة الامر والنهي في الدولة ، من غير ان تنسق ادارتها مع الهيئات الاخرى المكملة لها .

ومهما يكن شكل الحكومة المستبدة سيئا فان هناك شكلا تنحصر فيه سلبيات الاستبداد كلها ، ويكون هو الاسوأ ، انه « حكومة الفرد المطلق ، الوارث للعرش القائد للجيش ، الحائز على سلطة دينية . ولنا أن نقول : كلما قل وصف من هذه الاوصاف خف الاستبداد »(٣٤) . ويبدو أن فهمه حركية التضمن والشمول قد دفعه الى تعيين الاستبداد ، بمحاولة حصره في أكبر عدد ممكن من الصفات ليتقلص عدد من ينطبق عليهم هذا المفهوم ، مما يقلل عدد الذين تنطبق عليهم هذه الخصائص ، ويزيد مـن معرفتنا بصفات الاستبداد الجوهرية . وعبـد الرحمـن ، من ناحيـة اخرى ، يصور لنا مدى استحكام التعسف ، من ملاحظة الافعال والمظاهر التي يركز عليهـا الحكـام المستبدون لاخفاء فشل حكوماتهم . فمن مميزات الحكومة المستبدة التي تكشف عن مدى ما وصلت اليه من ظلم « هو تغاليها في شئآن الملوك وفخامة القصـور وعظمـة الحفلات ومراسيم التشريفات وعلائم الابهة ونحو ذلك من التمويهات »(٣٥)، بها تحاول الحكومة سد ثغرات عجزها ، واخفاء ضعفها وتخلفها ، لتبقي على بقايا الرهبة التـي العلم كأن العلم نار وأجسامهم بارود»(٣٦) .

يفرّق الكواكبـي بين الاستبدادين : الشـرقي والغربي ، في طريقـة ممارسـة الاستبداد . فيلاحظ أن المستبدين الغربيين لا يمنعون العلم اجمالا ، وانما يحرصون على عدم ادراك الناس أن الحرية أفضل من الحياة . فهـم يحاربـون تعليم الناس حقوقهم حتى لا ينقلبوا على ملوكهم مطالبين بها ، لكن المستبدين الشرقيين يحاربـون العلم جملة وتفصيلا ، « أما المستبدون الشرقيون فأفئدتهم هواء ترتجف من صـولة العلم كأن العلم نار واجسامهم بارود »(٣٦) .

ان السياسيين جميعا يهمهم جمع المال ، لكن الفرق بين الغربيين والشرقيين ان الاولين « يعينون الامة على الكسب ليشاركوها » أما الشرقيون فهم « لا يفتكرون في غير سلب الموجود » . والاستبداد الغربي ، وان كان طويل الامد إلا انه يتصف باللين ؛ أما الشرقي فانه سريع الزوال ، لكنه أكثر ازعاجا وأشد وطأة على الرعية . وهو اذا زال يخلفه استبداد أشد وبالاً وأقوى سطوة وتعسفا(٣٧) . وبشكل عام فان المجتمعات الغربية قد تحولت من الاستبداد الداخلي الى الاستبداد الخارجي ، حيث أصبحت الحكومة تحصل على المال والقوة من خلال المستعمرات التي تسطو عليها في بلاد الاخرين . أما الحكومات الشرقية فسادرة في غيها وضعفها ؛ وليس لها ، لتحقيق غاية استبدادها ، الا مزيد من القسوة والعنف تجاه رعاياها .

يصل الكواكبي الى نتيجة أن الاستبداد عام في الحكومات ، يقول : « الى الان لم توجد امة حكمت نفسها برأيها العام حكما لا يشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام ، أو بنوع من الاغفال ولو ببذر الشقاق الديني أو الجنسي بين الناس »(٣٨) ، ولا تلبث أن تنشره في أرجاء الدولة ، إما بأن تفرض على الناس علاقات عسكرية سلطوية تمارس القوة وتبشر بها ، أو بما تبثه من تفرقة بين المذاهب والطوائف والاجناس ، لتتمكن من استمرار فرض هيمنتها وحفظ هيبتها الحكومية وسط جموع مشتتة لا يمكنها الاتفاق ضدها . ان أي حكومة ، مهما كان ظاهرها العدل، فانها تنقلب الى حكومة مستبدة متى أدركت تغافل الشعب عن مراقبتها . انها تستغل أقل فرصة سانحة لها لتفرض سيطرتها بما تملكه من عناصر القوة(٣٩) . وهي ان لاحظت وجود بعض العقلاء الذين ينادون بالاصلاح فانها تتدارك أمرها وتبذل الكثير من الوعود الكاذبة حتى اذا وثق الناس بوعودها واطمأنوا اليها ، نراها تستعرض ما تملكه من القوة والاكراه ، وتكشر عن أنيابها ، وتزيل أقنعة المداراة ، وتمارس استبدادها سافرا(٤٠) .

ان الكواكبي ، لبيان خصائص الحكم الاستبدادي ، يقدم مثلا حيا وواقعيا عما يفعله الاستبداد متجسدا في شخص الحكومة العثمانية(٤١) .

فهو يحصي واحدا وعشرين سببا لاختلال السياسة العثمانية التي تفرز الاستبداد السياسي وتدل عليه ، تتلخص في :

١ ــ توحيد القوانين برغم اختلاف عادات الشعوب .

٢ ــ اتباع وسائل مخالفة للشرع ولرغبات الرعايا .

٣ ـ مركزية الادارة .

٤ ـ ترك ادارة المال بلا اشراف .

٥ ـ وضع موظفين غير اكفياء .

٦ ـ عدم مشاركة المحكومين فيما يتخذ من قرارات .

٧ ـ ممارسة الارهاب ضد المعارضة .

٨ ـ استبعاد العرب عن وظائف الدولة(٤٢) ..

فالقوانين الموضوعة غير مدروسة بما يتناسب وطبيعة الشعوب الخاضعة لها ، فضلا عن ان القوانين كثيرا ما تخرق دونما سبب سوى رغبة الحكام في تحقيق مأرب ما بشتى الوسائل ، الممنوع منها والمشروع . والادارة العثمانية تربط كل شؤون المملكة بخيط واحد يمسكه صاحب العظمة الوحيد ، يحرك به أفراد المملكة كلهم ، وكأنهم دمى ، كيفما شاء . ناهيك عن كون بيت المال مجرد خزانة للسلطان وحاشيته، ينفق منها بلا حسيب او رقيب . ويختار من الاشرار أحطهم خلقا ، وأجهلهم ادارة، للقيام بأعلى المناصب في الحكومة . وأقدرهم على تنفيذ رغبات صاحب السمو بعيدا عن رأي المحكومين بما يجري عليهم من نظم وقوانين . فاذا حدثت أحد الاخيار نفسه بالاعتراض على ظلم او تعسف ، ربط لسانه بلجام الذهب ، فان ابى جلد بالسياط حتى يصمت ويستكين . وليس للعرب في هذه الدولة أي دور غير دور الرعايا ، فلا هم يوظفون في المراتب العليا ، ولا هم يستشارون في طريقة ادارة بلادهم ، وتمارس عليهم بشاعة التمييز . ولا يستثنى من ذلك الا من يحابي السلطة .

هذه هي حال الدولة ، كما يصورها الكواكبي ، زمن الحكم العثماني . وهي ، كما يلاحظ ، حال كل الدول التي ترزح تحت سياط حكم استبدادي ، حيث يظهر فساد الامراء واعتمادهم على المزيف من العلماء ، والمرتزقة من الجند . وحيث لايهمهم الا جمع الضرائب وتجنيد الجيوش ، واستخدام ذلك كله لاغراض شخصية. فالكواكبي اراد البرهان على أن ما فعله السلاطين العثمانيون هو من مميزات الفعل الاستبدادي في كل زمان ومكان ، جوهر واحد لاشكال متعددة ، وممارسات واحدة بأقنعة مختلفة ، فحيث تكون السياسة العامة استبدادية ، فلا شرع يحترم ، ولا قانون يصان .

ان (السيد الفراتي) اذ ينقد العثمانيين ، فانه ينقد الاستبداد مجسدا ، وما قوله على ألسنة العرب : « ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل والترك والجراد »(٤٣)

الا للتدليل على استياء الناس من ممارسات الحكام الاتراك التعسفية ضد العرب . وهو لا يكره الاحرار من العثمانيين بدليل قوله : « على انه يوجد في المتفرنجة افراد غيورون كالراسخين من أحرار الاتراك »(٤٤) . فليس كرهه لبعض الاتراك تعسفيا . بل هو مبني على حقائق منظورة أو متبصرة ، يشير الى بعضها على لسان (الامير الهندي) : « اليس الترك قد تركوا الامة أربعة قرون ولا خليفة ، وتركوا الدين تعبث به الاهواء ولا مرجع . . »(٤٥) فقد اهتم الترك بتقوية نفوذهم المظهري ، وسلطاتهم التي تستعيض عن القوة بالقسوة ، وتجاهلوا مصلحة الاسلام والمسلمين ، وفقدوا دوافع الحمية « أليس الترك قد تركوا الاندلس مبادلة »(٤٦) . فحكومتهم لا تلتزم بالشؤون الوطنية ، ولا تحمل هموم مواطنيها ، لذلك لم تر ضررا من بيع أي شيء في الدولة (الارض والمواطنين والقيم . .) ما دامت بذلك تدعم مركزها السلطوي . وسياسة الاتراك تعتمد أسلوب السلطة المركزية ، وتضع من القوانين ما يتعارض واصول الشرع الاسلامي ، ضاربة على يد المعارضين . كما كان الانفصال شديدا بين فئة الحكم وبين الرعية ذلك لأن أغلب افراد الرعية كانوا عربا ، بينما كان الحاكمون من الاتراك الذين ابوا التجنس بجنسية الرعية . ولا يرى (أبو الضعفاء) العثمانيين الا جماعة تتاجر بالدين (فالسلطان محمد الفاتح قدم الملك على الدين)(٤٧) ، ويضرب أمثلة مطولة على أفعال السلاطين وما يجلبونه من خزي وعار على البلاد التي يحكمونها وهم يحتمون بظلال القرآن الذي هو منهم براء « ان احترام الشعائر الدينية في أكثر ملوك آل عثمان هي ظواهر محضة »(٤٨) وما يهمهم ، في حقيقة الامر ، الا ما يبتدعونه لأنفسهم من صفات الملك نحو « المولى المقدس ، ذي القدرة ، صاحب العظمة والجلال ، المنزه عن النظير والمثال ، واهب الحياة ، ظل الله . . . »(٤٩) وكل ذلك شرك لا علاقة له بالدين ، لا من قريب ولا من بعيد .

يقوم الكواكبي بدراسة نفسية المستبد ، من خلال دراسة اخلاقه وممارساته وعلاقته بالمجتمع . كما أنه يدرس صفات أعوانه وتصرفاتهم .

مَن ذا الذي يقوم بفعل الاستبداد ، وكيف يرسم الكواكبي صورته ؟ . ان (عبد الرحمن) يستعرض آراء الاخرين في المستبد ، دالاً بذلك على مشاركتهم في ما ذهبوا اليه من وصف للمستبد . فهو من «يتحكم في شؤون الناس بارادته لا بارادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم »(٥٠) . والكلمات التي تستعمل مرادفا للمستبد ، مثل : (جبار ، وطاغية ، وحاكم بأمره ، وحاكم مطلق . .) ، لا تعني المؤلف كثيرا بقدر ما يعنيه فحواها : اي معرفة مجموعة الصفات التي اذا اتصف بها شخص ما حقت عليه تلك التسمية . فهو يأخذها على أنها كلمات تدل على شخص واحد ، يسميه (مستبدا) ، لا يعنيه الا أن تكون الرعية أذنابا له لا اكثر ، وان يكون الناس ادوات

لتنفيذ رغباته . ان « المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درّاً وطاعة » ، ليس لهم من هدف الا خدمة مصالحه(٥١) . ويريدهم فئة عبيد لا يسعهم الا السجود أمام شخصه، ما داموا يعيشون في كنف دولته وتحت رعايته(٥٢) . ويبين لنا الكواكبي كيف ينظر المستبد الى نفسه والى الاخرين ، فان « المستبد في لحظة جلوسه على عرشه ووضع التاج على راسه يرى نفسه كان انسانا فصار الها »(٥٣) لا يناقش ولا يعصى له أمر. وهو ، لعلمه بسفالته ، يحاول ان يغطي قصوره ودونيته بشتى الوسائل والاساليب. لكن « التمويهات التي يسترهب بها الملوك رعاياهم عوضا عن العقل والمفاداة »(٥٤) لا تغني شيئا عن حقيقتهم ، وانما هم يلجؤون اليها « كما يلجأ قليل العز للتكبر وقليل العلم للتصوف وقليل الصدق لليمين وقليل المال لزينة اللباس »(٥٥) . فما هذه المظاهر القيصرية الا اقنعة يرقمها المستبدون تعويضا عن نقص ، يعرفونه ، في نفوسهم. لذلك فان الجالس على العرش ترتعد فرائصه خوفا من رعيته . ويدرك بما يعلمه عن نفسه من ظلم وتعسف ، بأن الرعية قد تجرده من تاجه في أي لحظة(٥٦) . لذلك فانه يستعين بأظلم الناس ممن يثق بأنهم على شاكلته ، لردع من تسول له نفسه دفع الظلم أورد الطغيان(٥٧) . فينشىء جيشا من المستبدين الصغار . « ان المستبد لا يخرج قط عن انه خائن خائف محتاج لعصابة تعينه وتحميه فهو ووزراؤه كزمرة لصوص : رئيس وأعوان »(٥٨) . ولا يلبث أن يتخوف المستبد حتى من أعوانه ، فضلا عن خوفه رعيته « لان أكثر ما يبطش بالمستبدين حواشيهم لان هؤلاء اشقى خلق الله حياة، يرتكبون كل جريمة وفظيعة لحساب المستبد »(٥٩) ، فيحاول تنحيتهم والقضاء عليهم وبذر الفتن بينهم حتى لا يتفقوا عليه . والمستبد يوهم الناس ، عن طريق التنكيل بأعوانه ، بأنه صالح عادل ، وان مساعديه ووزراءه هم الاشرار . وكثيرا ما يصدقه الناس متناسين أن المستبد هو الذي عين هؤلاء المساعدين والوزراء الاشرار .

هكذا يرسم (ابو الضعفاء) صورة المستبد ، فهو كلما زاد خوفه ازداد بطشه في محاولة منه للحفاظ على نفسه . وكلما زاد ظلما واعتسافا « زاد خوفه من رعيته وحتى من حاشيته ، حتى ومن هواجسه وخيالاته »(٦٠) حيث تصور له نفسه ، أن كل ما يحيط به يسعى الى قتله . ويبقى غارقا في الدوامة نفسها ، لما يعهده في نفسه من تعود على خيانة العهود وظلم الناس ، فيخاف حتى من الهواء الذي يتنفسه ويحسب له حسابا . نتيجة لذلك يرى الكواكبي أن « اكثر ما تختم حياة المستبد بالجنون التام »(٦١) ، ويعلق على ذلك : « قلت التام لان المستبد لا يخلو من الحمق قط »(٦٢) ، لان عقله سيبقى يجتر معارفه الاولى فقط!، بسبب أسلوبه الاستبدادي في التفكير ، أولا ، ولنفاق الاخرين الذين يجارونه في أخطائه ، ثانيا . لان كلّ من يحيط به يخشى أن يدله على صواب الطريق ، فيما يخالف رايه ، فيفقد راسه أو مركزه. لذا فان المستبد ، خلال حكمه كله ، يبقى خبط عشواء غير دار الفرق بين الصواب

والخطأ . ان مستشاري المستبد لا يصرحون بآرائهم الفعلية ، وهم لا ينفكون يحاولون استنتاج ما يريد منهم المستبد أن يقولـوه فيدلوا به على انه رايهـم . لذلك حـق القول : « ان الصدق لا يدخل قصور الملوك »(٦٢) . مما يجعل الخطأ يجر الذي بعـده الى ان يصبح عقل الملك (= المستبد) مشوشا مضطربا يداخله الخبل الى ان ينتهي بالجنون ، ما لم ينه بطريقة اخرى . ذلك فضلا عن انه يبقى طوال حياته اشقى الناس عيشا واتعسهم فكرا وروحا(٦٣) .

ولكن ما صفات الاعوان ـ الاعيان ، كيف يعيشون ، وكيف يفكـرون ، وكيف يختار المستبد أعوانه ؟ يجيب الكواكبي : ان المستبد يحرص على أن يكون أعوانهمن حثالة المجتمع ، ويحفظ لهم مراتبهم الوظيفية على هذا الاساس بحيث « يكون أسفلهم طباعا وخصالا اعلاهم وظيفة وقربا ، ولهذا لابد ان يكون الوزير الاعظم للمستبد هـو اللئيم الاعظم في الامة »(٦٣) ، ذلك ليتمكن من تسليطه على رقاب الناس ، وهو على يقين بأن هذا الشخص وأمثاله لن تأخذهم الرافة بأحد ، ولن (يعصوا) لمولاهم أمرا يشم فيه رائحة الدم والانتقام « ان أكابر رجال عهد الاستبداد لا خلاق لهم ولا ذمة ، فكل ما يتظاهرون به أحيانا من التذمر والتألم يقصدون به غش الامة »(٦٤) ، معتمدين على أن الاستبداد قد أعمى بصر الامة وسهل غشها ، لذلك فهم يتبجحون كذبا بأنهـم هم الذين سيغيرون الاوضاع ، وانهم فقط ينتظرون الفرصة السانحة ، وهم في الواقع يبتغون تثبيط عزائم الناس وامتصاص ثورات غضبهم . وهـؤلاء المخادعون جبنـاء مرتشون ، وما ثرواتهم المكدسة الا من السرقات المسموح بهـا في عهـد الاستبداد ، وما هم الا فخورون « بمشاركة المستبد في امتصاص دم الامة ، ذلك بأخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة »(٦٥) ، وهم يتصدقون بالقليل ، وقـد يشاركون في بنـاء المعابد سمعة ورياء ، « وكأنهم يريدون أن يسـرقوا ايضا قلوب الناس ، بعـد سلب أموالهم ، أو أنهم يرشون الله ، الا ساء ما يتوهمون »(٦٦) . هكذا ، يقرر الكواكبي ، أن وزير المستبد لا بد أن يكون مستبدا مثله « يحمل سيف المستبد ليغمده في الرقاب بأمر المستبد لا بأمر الامة [. . .] لما يعلم من نفسه أن الامة لا تقلد القيادة لمثله »(٦٧). وبعد أن يألف عمال الاستبداد لذة البذخ والجبروت ، لا يمكننا أن نصدق ما يبديـه بعضهم من تبرم من أسلوب الحكم ، ومن اهتمام بمصالح الامة ، اذ كيف يمكن المستبد أن « يرضى بالدخول تحت حكم الامة ويخاطر بعرض سيفه عليها فتحله أو تكسره تحت ارجلها » . ان تلوم المستبدين ـ الاعوان على المستبد الاكبر « ان لم يكن خداعا للامة فهو حنق على المستبد لانه بخس ذلك المتلوم حقه فقدم عليه من هو دونه في خدمته بتضحية دينه ووجدانه »(٦٨) . ان الكواكبي لا يرى في المستبد وفي أعوانه الا جماعة متكاتفة على ظلم الناس ، متعاونة على ايقاع الاستبداد على الاخرين .

ـ الاستبداد نظاما شاملا : والمستبد لا يفتأ يزيد من عدد أعوانه باطراد مع زيادة جوره على مواطنيه ، فلا يلبث أن يعم الاستبداد اسلوبا للعيش ، ذلك لأن كل فرد من أفراد الدولة ، وخاصة المقربين من كراسي الحكم ، يحاولون أن يتمثلوا أفعال المستبد الاكبر ، ويحذوا حذوه ، فينتشر الاستبداد في أنحاء الدولة كلها « الحكومة المستبدة تكون طبعا مستبدة في كل فروعها من المستبد الاعظم الى الشرطي ، الى الفرّاش ، الى كنّاس الشوارع ، ولا يكون كل صنف الا من أسفل اهل طبقته اخلاقا لأن الاسافل لا يهمهم طبعا الكرامة وحسن السمعة ، انما غاية مسعاهم أن يبرهنوا لمخدومهم بأنهم على شاكلته ، وانصار لدولته »(٦٩) . فتوسع الجهاز الحكومي يؤدي الى زيادة عدد الذين يستبدون بالقرارات تحت ستار حماية الدولة ، ويزداد ، بالتالي ، عدد الذين ينبغي للمواطنين ان يطيعوهم « وهذه الفئة المستخدمة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصا على العسف احتاج الى زيادة جيش المتمجدين العاملين له المحافظين عليه »(٧٠) .

هكذا يتشكل هرم الاستبداد من القمة الى القاعدة « ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كل فرد من أسراء الاستبداد مستبدا في نفسه لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى وربَّه الذي خلقه تابعين لرأيه وأمره »(٧١) . فالاستبداد ، في فكر الكواكبي ، ليس حاكما يأمر وينهي ، بل هو نظام يشمل المجتمع كله . فالحاكم مستبد ، وأعوانه مستبدون ، وأسرى الاستبداد يتخبطون في رد فعل استبدادي ، كل بحسب ما يتسنى له ، ولا يبقى ما دون مستوى هذه القاعدة الا المنبوذون . . أولئك الذين عليهم أن يحملوا عبء هذه الطفيليات التي تتكاثر وتتوالد بشكل سرطاني مخيف .

* * *

لقد رأى الكواكبي انه مهما يكن شكل الحكومة فانها لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن منتخبة ، وملتزمة بقانون يوافق عليه المواطنون ، ومراقبة من قبل الشعب ، ومنسقة هيئاتها التنفيذية والتشريعية . وكلما نقص بند من هذه الشروط كلما كانت الحكومة أكثر اعتسافا . ونستطيع معرفة مدى استبداد الحكومة من ملاحظة درجة غلوائها في مظاهر فارغة تحاول بها التعويض عما ينقصها من الحكمة في ادارة شؤون البلاد . ويلاحظ الكواكبي أن ذلك كله كان موجودا في الحكم العثماني .

فالمستبد ، كما صوره الكواكبي ، انسان مريض يستعيض عن القوة الرشيدة بالقسوة والعنف ، فلا هو مدرك الحق ولا يمكنه أن يدركه في يوم ما ، وذلك نتيجة

سياسته الاستبدادية . واعوان المستبد ما هم الا جماعة مرتزقة تستغل السلطة التي يمنحها اياها المستبد فتستأثر بحق الاخرين لنفسها ، وتنتقم منهم تعويضا عن نقصها وشعورها بالدونية .

وربما كان من اهم ما يستخلص مـن دراسة الاستبداد في فكر الكواكبي ان الاستبداد ليس فقط حكومة أو فردا يحكم وعصابة تساعده في غيه ، بل هو نظام شامل يحكم العلاقات الاجتماعية كلها فينقلب الامر من حكومة مستبدة وحسب ، الى دولة مستبدة بكل ما فيها من هيئات وأفراد وعلاقات .

الحواشي :

(١) **طبائع الاستبداد** ، ص ٢١ .
(٢) **م.ن** ، ص.ن .
(٣) **م.ن** ، ص ٢٦ .
(*) يستخدمها الكواكبي بدل (رجال الدين)في الاديان الاخرى .
(٤و٥و٦) ينظر : **طبائع الاستبداد** ، ص ٥٩ – ٦٠ .
(٧) **م.ن**، ص٣٠ .
(٨) **م.ن**، ص ٣١ .
(٩) **م.ن** ، ص ٤١ .
(١٠) ينظر **ام القرى** ، على لسان التبريزي ، ص٣٥ .
(١١) **طبائع الاستبداد** ، ص ٨١ .
(١٢–١٦) ينظر : **طبائع الاستبداد** ، ص ٦٩–٧٢ .
(١٧) ينظر : **طبائع الاستبداد** ، ص ٧٣–٧٤ .
(١٨) ينظر : **م.ن** ، ص ٧٧–٧٨ .
(١٩) ينظر : **م.ن** ، ص ٧٩ .
(٢٠) **طبائع الاستبداد** ، ص ٢١ .
(٢١) **م.ن** ، ص ١٣ .
(٢٢) **أم القرى** ، ص ٢٩ .
(٢٣) **طبائع الاستبداد** ، ص ١٧ .
(٢٤) **طبائع الاستبداد** ، ص ١٨ .
(٢٥) **م.ن** ، ص ٢١ .
(٢٦) **م.ن** ، ص ١٤٥ .
(٢٧) **طبائع الاستنبداد** ، ص ٢٢ .
(٢٨) ينظر : **م.ن** ، ص.ن .
(٢٩) **م.ن** ، ص ٨٧ .
(٣٠) م.س ، ص ١٤٥ .
(٣١) **م.ن** ، ص.ن .
(٣٢) ينظر : **م.ن** ، ص ١٤٦ .
(٣٣) **طبائع الاستبداد** ، ص٢٢ .
(٣٤) **م.ن** ، ص ٢٢/٢٣ .
(٣٥) **م.ن** ، ص ٥٠ .
(٣٦) **طبائع الاستبداد** ، ص ٥١ .
(٣٧) ينظر **م.ن** ، ص ٨٣ .
(٣٨) **م.ن** ، ص ١٣٦ .
(٣٩) ينظر : **طبائع الاستبداد** ، ص ٢٣–٢٤.
(٤٠) ينظر : **م.ن**، ص ١٤٥ .
(٤١) ينظر : محمد جمال طحان ، **الاستبداد وبدائله في فكر الكواكبي** . رسالة ماجستير في الفلسفة . لم تنشر . بيروت . جامعة القديس يوسف ، ص ٥٦–٥٧ و ٦٩ – ٧١ .
(٤٢) ينظر : **أم القرى** ، ص ١٦٣ – ١٦٧ .
(٤٣) **أم القرى** ، ص ١٧٠
(٤٤) **م.ن** ، ص ١٨٥/١٨٦ .
(٤٥) **م.ن** ، ص ٢٣٨/٢٣٩ .
(٤٦) **م.ن** ، ص ٢٣٩ .
(٤٧) لمعرفة أمثلته على ما فعله سلاطين آل عثمان ينظر : م.ن ، ص ٢٢٩ – ٢٣٤ .
(٤٨) **أم القرى** ، على لسان الامير ، ص٢٢٨ .
(٤٩) **م.ن** ، على لسان المولى الرومي، ص٤٩ .
(٥٠) **طبائع الاستبداد** ، ص ٢٥ .

(٥١) ينظر : م.ن ، ص ٢١ـ٢٦ .

(٥٢) ينظر : م.ن ، ص ٤٩ـ٥٠ .

(٥٣) م.ن ، ص ٦٢ .

(٥٤)و(٥٥) **طبائع الاستبداد** ، ص ٥٠ .

(٥٦) ينظر : م.ن ، ص٤٨ .

(٥٧و٥٨) ينظر : م.ن ، ص ٦٣ـ٦٤ .

(٥٩و٦٠و٦١) م.ن ، ص ٤٨ـ٤٩ .

(٦٢) ينظر : **طبائع الاستبداد** ، ص ٥٤ .

(٦٣و٦٧) م.ن ، ص ٦٣ـ٦٦ .

(٦٨) م.ن ، ص ٦٤/٦٥ .

(٦٩و٧٠) **طبائع الاستبداد** ، ص ٦٢/٦٣

(٧١) م.ن ، ص ٢٧ .

المصادر :

الكـواكبي ، عبـد الرحمـن (ت ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م) :

- ام القرى ، دار الرائد العربي ، ط٢،بيروت ١٩٨٢ (نسخة مصورة عن طبعة حلب ، المطبعة العصرية ١٩٥٩).
- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، دار القرآن الكريم ط٢ ، بيروت ١٩٧٣ .



في حيـاة العرب الدينية قبـل الاسـلام
من خـلال النقوش

د. سـلطان المعاني
جامعـة مؤتـة

هدف البحث :

يهدف البحث الى اعتماد النقوش مصدرا أساسيا لدراسة حياة العرب الدينية قبل الاسلام فيتناول اللات في النقوش العربيـة الشمالية والنقوش السامية الشمالية الغربية ، للخروج بتصور واضح للناحية الدينية عند العرب كما اشارت اليها هـذه النقوش ، مع عدم اغفال مصادر البحث الاخرى .

التسـمية :

ورد اسم اللات بأشكال متعددة : ففي المصادر اليونانية جاء بالاشكال التالية : إل ـ إل ـ اهـت ، أل ـ إلات واللات(١) وهي مرادفة للكلمـة ال ـ ال ت بادغـام وسـط بين ال ـ ال هت أو بالادغام التام ال ت اللات تماما مثل لفظ الجلالة ال ـ ال هـ الذي أصبحت صيغته ال هـ (الله)(٢).

وهناك رأي أخر في الاسم وهو أن لفظة اللات جاءت بهـذا الشكل بتأثير مـن الكلمة السريانية alla hta « الإلهة » أي أن الاسم اللات هو ادغام للفظة لات أو إلات مع ارتباطها بأل التعريف . إلا أن هذا الافتراض غير مقنع ، فأداة التعريـف في العربية الشمالية كانت الهـاء ولم تظهر أل التعريـف إلا في بعض النقوش النبطية المتأخـرة (٣) .

جاء اسم اللات في النقوش العربية الشمالية والنبطية والتدمرية والخصرمية بصيغة التانيث ، اللات ، لات ، هن إلات (han-ilat) (٤) وهذا يتوافق مع طبيعتها المؤنثـة التي اعتبرت الصورة المؤنثة للاله المذكر ال هـ أو ايل .

أما عند العرب فقد جاء تفسير الإسم على انه من الفعل لاته يلوته اي يحميه من الشرور(٥) ، أو أنه مستوحي من قصة الرجل الذي كان يلت السويق بالسمن للحجاج

في مكة والـذي توفي قرب الصخـرة التي مثلت الـلات(٦) . ولا نملك الا ان نقـلل من أهمية هذين التفسيرين لأن ذكر اللات بهذه الصيغة أقدم من ذلك بكثير .

البعد الزمني :

يعود أقدم ذكر للاتالى الاكادية ، وقد جاء ليعبر عن الآلهة المؤنثة مطلقاً وكانت الكلمة تلفظ التـو iltu (٧) . ثم جاء ذكرها في النقوش الاوغاريتية بمعنى الالهه في « وال ت ص د ي ن م » (٨) .

تتحدث النقوش الفنيقية والبونيّة عن الآلهة المؤنثة مطلقاً ، وورد ذكـر اللات في نقش فنيقي يعود للقرن السابع قبل الميلاد(٩) ، وهناك نقوش بونية أخـرى جاءت على ذكرها سواء تلك التي اكتشفت في قرطاجة(١٠) مثل :

(بدمل قرت [بن أشم] ن حلص كهن الت)

« بدمل قرت ابن اسمنحلص كاهن اللات »

ونقش ثاني :

(بن يتنملك ر[ب] كهن الت)

« ابن يتنملك ربُ كاهن اللات »

ونقش ثالث :

(ربت جوط الت)

« ربةُ جوط اللات »

ام في سردينيـا(١١) :

١ ــ .... ٢ ــ ٣ ــ كبنات . تهمقدسزت لهربت لالت

٤ ــ واينا تهماس زت بنا حملكت .

ومن النقوش البونية الاخرى التي تشـير الى الـلات ١٤٩ cls ٢٤٤ cls و ٦٠٦٨ cls

وقـد ورد ذكرها في القـرن الخامس قبـل الميـلاد في المصـادر اليونانيـة امثال هيرودت وعرفت عندهم بعدة أسماء(١٢) . وجاء القيداريون على ذكرها في القرن الخامس قبل الميلاد ، كما تظهر لنا بعض النقوش الارامية المحفورة على عـدة اوانٍ ذهبية ونحاسية ، وهذه النقوش هي(١٣) :

(زي قرب صحا بر عبد عمرو لهن الت) وترجمته « هـذا ما قدّمه صحا بن عبد عمر (اضحية) للاّت » .

(زي قينو بر حمشم ملك قدر قرب لهنالت) الترجمة « هذا ما قرّبه قينوس جشم ملك قيدار للات » .

اما النقش الثالث فهو (جربك بر فسري قرب لهنالت الهت) « جربك بن فارسي قرب ؟ هذا للات آلهته) » .

ومن نقوش أهل الحضر في العراق التي اشارت الى اللات :

(١ ـ دكير نشريهب ٢ ـ . ..... ٣ ـ لطب ولشنفير قدم ٤ ـ مرن ومرتن وبرمرين الت ٥ ـ وسميتا كلهون هو ومن درحيملهـ)(١٤) .

والنقش (١ ـ صلما دي الت........ ٢ ـ ...)(١٥) ، وغيرها(١٦) .

اما في النقوش النبطية فقد ذكرت اللات في عدد من النقوش يحمل بعضها اشارات تاريخية ، ففي نقش وجد في حوران يعود الى ٤٧م نقرأ ان شخصا يدعى مليكو بن قصيو كان كاهنا للات في حبران(١٧) ونقش آخر يعود الى ٥٦ ميلادية(١٨) . وورد ذكر اللات في بعض النقوش النبطية والتي تعود الى عهد الملك النبطي رابيل الثاني (سنة ٧٠ ـ ١٠٦م)(١٩) .

اما الاشارات التاريخية في النقوش التدمرية التي تذكر اسم اللات فيعود اقدمها الى سنة ٦٢ ميلادية(٢٠) ثم سنة ١١٥م(٢١) وهناك نقش ثالث يعود الى سنة ١٢٩ ميلادية يشير الى اللات في النص التالي : ..وإالت ورحم الهي طبيا .. « واللات ورحيم الآلهة الطيبة »(٢٢) .

لعل اكثر ذكر للات كان في النقوش العربية الشمالية ، والتي احتوت بدورها على بعض الاشارات التاريخية .

تشير المصادر التاريخية الى ان اقدم ذكر للثموديين كان في المصادر الآشورية . فقد اشارت كتابات الملوك الاشوريين الى غزوهم الجزء الشمالي من الجزيرة العربية ... ومن النقوش الاشورية التي اشارت الى ثمود نقش الملك الاشوري سرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق.م) الذي ذكر انتصاره على شعوب المنطقة ومنها ثمود(٢٣) .

أما عن النقوش الثمودية نفسها فان أقدمها يؤرخ بالقرن السابع قبل الميلاد الا ان البعض يعيدها الى ما بعد ذلك بقرنين .

ومن النقوش الثمودية التي تشير الى اللات(ولكنها لا تحتوي تحديدا على تواريخ زمنية) أورد مثالا لا حصرا ما يلي :

(ل س ل م ت ب ن ل ب د و ر ع ي ف هـ ل ت (هـ) ن ي ت)(٢٤) .
« من سلامة بن لبيد ، ورعي ، فيا اللات (اعطه) الصحة » .

والنقش(٢٥) : (لي‌دع بن قن ذ ال نمر وتشو(ق) فهلت سلم وقر) « مَنْ يَدَّع بن قن من قبيلة نمر وتشوق فيا اللات سلاما وراحة » . ولم تكن اللات من آلهة اللحيانيين الرئيسية لذا فقد جاء ذكرها قليلا عندهم ، اما ورودها فجاء بصيغة هن إلات (han-ilat) ولات (lt) (٢٦) .

نعل النقوش الصفوية هي الاكثر ذكرا للات إذ جاء خبرها في أكثر من ٤٠٠ نقش(٢٧) . الا أن هذه النقوش لم تحتو على تاريخ كتابة النقش إلا في حالات قليلة ، وذلك من خلال الاشارة الى أحداث معينة ، وعلى هذا الاساس يصعب علينا تحديد زمن دقيق لتلك النقوش التي أوردت الاسم إلا أن أقدم النقوش الصفوية تعود بشكل عام الى القرن الاول قبل الميلاد واحدثها الى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، في حين أن أهم الاشارات التاريخية في النقوش الصفوية هي : (سنت حرب نبط) « سنة حرب الانباط » ، و (سنت حرب جشم الثمد) « سنة حرب جشم ضد ال ثمود »(٢٨) .

ويخال لي أن النقش الصفوي التالي يتضمن اشارة تاريخية لأحد ملوك الانباط وهو الحارث الثالث (٨٧ ــ ٦٢ ق.م) أو الحارث الرابع (٩ق.م ــ ٤٠ م) وقد وجد هذا النقش في منطقة جاوا : (ل ش م س ب ن ش ددت....د. وب ني هسـتر سنت أسر حرثت وشكت فهلت ودشر سلم وعور وعرج ذي عور هخطط) وترجمته « لشماس بن شدادة ... وبني هذا الجدار سنة اسر الحارث واشكة ، فيا اللات ويا ذا الشرى سلاما . وعما وعرجا لكل من يخرب هذا الخط » وربما كان هذا النقش هو أقدم اشارة للات في النقوش الصفوية .

هزم الرومان دولة الانباط نحو ١٠٦م ، ويلوح لي أن النقش التالي يؤرخ لهروب شخص يدعى جال بن غنث من الرومان فيدعو اللات أن تهبه السلام : (ل ج ل ب ن غنث ونفر مـردم فهي‌لت سلم سنت III) وترجمته : « لجال

بن غنث وهـرب مـن الروم ، فيا اللات سـلاما سنت ٣ »(٢٩) . وهنـاك نقش صفوي اخر في منطقة جبل الدروز أمكن تأريخـه بسنة ١٢٩ ميلادية ، ويقرأ النقش كالتالـي : (لمعن بن غلمت بن خل بن حني بن مسك وتسلل فهلت سلم وسم (سن)ت XXIV فهلت وشعهق موهجدعدذ فص(يت) ممت كان ونقات لذيعور هسفر) ويترجم « لنعم بن غلامة بن خل بن حني بن ماسك ، تسلل ، فيا اللات سلاما ، واختفى تماما سنة ٢٤ فيا اللات ويـا شيع القوم ويا جادعويذ . . »(٣٠) .

نقش اخر يعود الى القرن الثاني الميلادي يقرا كالتالي : (لمسك بن ابرقن بن مسك ورعي هضان سنت سر هملك بهع رضفهلت سلم) وترجمته: « لماسك بن إبرقان بن ماسك ، رعى الضأن سنة رحيل الملك في هذا الوادي فيا اللات سلاما »(٣١) وقد يكون الملك المقصود هنا الملك الرومـاني باسيليوس Basileos ولعله يشير الى رحلة هارديان Hardian لمدينة تدمر مما دفعنا للاعتقاد بأن يعود الى القرن الميلادي الثاني .

استمرت عبادة اللات زمنيا الى ما قبل الاسلام بقليل ، فها هو القرآن الكريـم يشير اليها في الايـة ١٩ من سورة النجم : « أفرأيتم اللات والعـزى ومناة الثالثـة الاخرى » صدق الله العظيم، وقد اشار اليها شعراء العصر الجاهلي (كما سيأتي) وأشارت الروايات الى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر المغيرة بن شـعبة أن يدمر المغارة التي كانت موضعا للهدايا والهباب للات والمسماة غباغب (غب غب)وامر أن تمنح الهدايا لابي سفيان بن حرب(٣٢) .

من خلال هذ العرض الزمني يتبين لنا العمق التاريخي لواحدة من أهم آلهـة الساميين عموما والعرب خصوصا ، اذ تجاوز تعظيم الآلهة المؤنثة الالفي عام ابتـداء بالاشوريين الى عرب العصر الجاهلي في حين أن اللات كاسم علم لآلهة محددة عرفت بقاء زمنيا تجاوز عشرة قرون .

البعد المكاني :

ان الفترة الزمنية الطويلة التي عبدت اللات خلالها ، وهذا الانتشار الواسع بين الشعوب والقبائل كانا من الاسباب المهمة التي جعلت اللات آلهة تقدس على مساحة واسعة في الشرق الادنى القديم .

فاذا بدانا بلغة أهل الحضر الآرامية نجد أن اللات قد عبدت في بلاد الرافدين إذ « بنوا لها معبدا كبيرا في مدينتهم الحضر شيده لها نصر وباسم اشربل »(٢٣) ، واذا صح زعم ديتلف نيلسون في ان اللات قد ألهت عند العرب الجنوبيين(٢٤) فان انتشارها يكون قد امتد الى جنوبي الجزيرة العربية .

وما دام الحديث قد بدأ بذكر واحدة من اللهجات الارامية، فاننا نرى أن نتحدث عن انتشار اللات عند كل من العرب الانباط والتدمريين الذين استخدموا الارامية في كتاباتهم .

يعتقد ان الانباط جاءوا بأرباب معينة من مواطنهم الاولى وهي اللات والعزى ومناة وذو الشرى وشيع القوم ، وهي بمجموعها أرباب تناسب حياة البداوة وقد اكتشف فوغيه (De vogue) في صلخد النبطية صخرة مربعة تعرف باسم اللات ، ومن النقوش التي وجدت هناك النقش الذي يعود الى سنة ٥٦ ميلادية وهو : (دنه بيتا دي بنه روحو بر ملكو بر ابل بو بر روحو لالت الهتهم دي بصلخد ودي نصب روحو بر قصيوع م روحو دنهدي علا بيرح اب شنت عشر وشبع لملكو ملك نبطو بر حرتت ملك نبطو رحم عمه) وترجمة النقش هي : « هذا (هو المعبد) البيت الذي بناه روح بن مالك بن اكلب بن روح للات آلهتهم التي بصلخد وهذا بناه قصي جد روح المذكور اعلاه بشهر آب سنة عشر وسبع (سبع عشرة) لمالك ملك الانباط بن حارثة ملك الانباط محبوب شعبه »(٢٥) ، وتشير النقوش النبطية الى وجود نقش آخر في صلخد يقرأ كالتالي : (ده مسجد دي قرب فهكورو بر اوسر لالت ربت ال أثر) وترجمة النقش كالتالي : « هذا المسجد الذي قدمه فهك ورو بن أوس للات سيدة المكان (الاثر) »(٢٦) .

وقد وجدت نقوش نبطية تذكر اللات في حوران(٢٧) والبتراء(٢٨) ووادي رم ، وتشير المصادر الى وجود معبد لها هناك بني في عهد الملك النبطي رابيل الثاني (٧٠ — ١٠٦ م)(٢٩) . وفي جنوبي الاردن أيضا نجد أن المصادر تشير الى وجود معبد اللات في خربة التنور(٤٠) وعلاوة على ذلك فقد اشارت نقوش الحجر النبطية الى اللات سيدة الآلهة المؤنثة عندهم (٤١) .

ولم تخل النقوش التدمرية من الاشارات الى اللات ، فالكتابات التدمرية تحدثنا عن وجود معبد للات شيد من قبل احد افراد بني مازن سنة ٦٢ ميلادية في تدمر(٤٢). وهناك نقش تدمري آخر في تدمر يعود للعام ١٢٩ يؤكد العلاقة بين اللات والشمس

ويتكون النقش من سبعة اسطر يشير في أحدهـا الى اللات (... (و) الت ودحم الهـيا طـبـيا بيرح ...)« اللات ورحيم الآلهة الطيبة »(٤٣) .

واذا تحدثنا عن التوزيع الجغرافي للنقوش الثمودية فانها تنتشر فوق رقعة واسعة منها تيماء والعلا ومدائن صالح وحائل والجوف وتبـوك ، وشمالا الى جبـل رم وام الرصاص في جنوبي الاردن ووسطه .

وتشير المصادر الى أن الثموديين قـد بنـوا معبدا للات في روافة سنة ١٦٦ ـ ١٦٩م (٤٤) .

وفي النقوش الثمودية المكتشفة في وادي رم وتيمـاء ومدائن صالح وتبوك نجـد انها تشير الى تعبير (وذكرت لت) او ذكرت الت)(٤٥) .

لقد انتشرت النقوش الصفوية على مساحة واسعة من الارض امتدت من حوران شمالا الى وادي السرحان في جزيرة العرب جنوبا(٤٦) ، وتعتبر منطقة الصفا في جبل الدروز الى الجنوب الشرقي من دمشق ومنطقة الحرّة في الصحراء الاردنية اكثر مناطق تواجد هذه النقوش .

أما اهم تواجـد للنقوش الصفوية التي اشارت الـى اللات ففي مناطق جاوا ، الاحفور ، الاجفايف ، وحرة الراجل ، جاثون ، وأم الجمال ، تل العبد ،مديسيس، وادي الغرز ، جبل سايس ، العيسوي ، غدير الـدرب ، وادي الشـام ، زلـف والسويداء وجميع هذه المناطق متواجدة في سورية والاردن .

أما اهم المناطق في جزيرة العرب فهي عراعـر ، وادي الشاظي ، غدير بدنـة ، راس العنانية ووادي غرابة .

ومن الطريف ان النقوش الصفوية نفسها احتوت على أسماء بعض المواقع مثل النمـارة(٤٧) ، بصـرى(٤٨) ، تدمـر (بالميرا) (٤٩) ، عرض(٥٠) ، رحبت(٥١) وحولت(٥٢) .

أما عند العرب في فترة ما قبل الاسلام فقد اعتبرت اللات أكبر آلهـة ثقيف في الطائف وقريش بنخلة(٥٣) ، وكان الاخباريون العرب قد اشاروا الى أن اللات صخرة مربعة وكان العرب « قد بنوا عليها بناء وكانت قريش وجميع العرب تعظمها»(٥٤) .

ماهية اللات :

ماهية اللات اشكالية ، تنوعت واختلفت باختلاف عبدتها ، الا ان هناك وجه شبه مشترك يجمع اغلب عبدتها وهو اعتبارها مؤنثة ، وكذلك راى الطبري اذ قال ان اللات من الله الحقت به تاء فانثت(٥٥) .

لقد ارتبطت العبادة الوثنية بالقوى الطبيعية المحيطة الخارقة ، فكانت اللات مرتبطة بالنجوم والكواكب (كالشمس والقمر والزهرة) في اذهان عبدتها ، وسنتطرق فيما يلي لرؤية اللات وارتباطها مع النجوم السماوية .

يرى (ونت) أن اللات هي آلهة القمر(٥٦) ، برغم ان اله القمر عند العرب الجنوبيين مذكر فانه حسب اعتقاده مؤنث في شمال الجزيرة(٥٧) . أما اليوناني هيرودوت فاعتقد انها في العربية الشمالية تماثل الهة المشتري عشتر)(٥٨) . وعرفت اللات ايضا على انها الهة الشمس على اعتبار انها مؤنثة وحتى الشمس نفسها فقد عرفت باسم الات أو الالهة(٥٩) . وترد في واحدٍ من النقوش النبطيةِ عبارة (ربت الـاتـر) أي سيدة اللمعان وهذه اشارة الى ارتباطها بالشمس . وكانت اللات حسب راي سترابو تمثل في الارجح الشمس وانها ام للارباب فكانت لفظة « الربة » تكفي للدلالة عليها .. ويتحدث ايفانيوس من عيد سنوي يقيمه الانباط في بترا لأم ذي الشرى الرب النبطي الاكبر ويرجح انه يعني اللات(٦٠) . وقد كانت اللات عند الانباط قرينة ذي الشرى دوما ، فعندما أصبح ذو الشرى يضاهي زيوس هدد أصبحت اللات القديمة تسمى اترعتا (اتر ـ اتا) وهي ربة الخصب السورية أو ربة منبج (هيرابولس)(٦١) .

صورت اللات في المعابد النبطية التي بنيت خصيصا لها على صورة نصف امراة ونصف سمكة ، ووجدت مثل هذه الصورة عند الالهة اليونانية افروديت(٦٢) . وصورت اللات المماثلة لاتراعتا (اترغان) في معبد اخر على شكل امراة مجعدة الشعر جالسة بين أسدين يحفان بعرشها(٦٣) .

أما معبد اللات النبطي في صلخد فقد صورها صخرة مربعة وهذا يشابه ما عرف عنها عند العرب قبل الاسلام « فاللات كانت لثقيف بالطائف او لقريش بنخلة وهي فعلة من لوى لانهم كانوا يلوون عليها أي يطوفون وقرا هبة الله عن البزي وروسي عن يعقوب اللات بالتشديد على انه سمي لانه صورة رجل كان يلت السويق بالسمن يطعم الحاج »(٦٤) . ويضيف ابن كثير ان اللات كانت صخرة بيضاء مربعة بنيت في

الطائف(٦٥) . وكانت بجانبها مغارة تسمى غبغب ، بها توضع الهدايا والهبات ، وقد امر الرسول صلى الله عليه وسلم المغيرة بعد مجيء الاسلام ان يدمرها وان يمنح ابا سفيان جميع ما بها من هدايا(٦٦) ، اما سدنتها فكانوا من بني عتاب بن مالك(٦٧)، وفي رواية اخرى أن قبيلة ابي اوس هم سدنتها في الطائف(٦٨)، وقدست ثقيف هذه الصخرة اعتقادا منهم ان الرجل الذي كان يلت السويق للحجاج قد مات قرب هذه الصخرة(٦٩) .

اما ما افادنا من الشعر الجاهلي من ذكر ما كان يقدم للات من عطايا وهبات فيؤكد الرواية التي تشير الى تقديم الحلى والقلائد فالشاعر الاسلامي كعب بن مالك الانصاري يقول بهذا الصدد(٧٠) :

ونسى اللات والعزى وودآ ونسلبها القلائد والسيوفا

واذا عدنا الى الوراء زمنا أطول نجد ان العرب الصفويين شأنهم شأن الشماليين قد دللوا على اللات كقطعة من الشمس(٧١) ، وقد أيد ليتمان هذا التصور(٧٢) ، في حين عارض كل من ونت وريد هذا الافتراض(٧٣) .

لم تسعفنا الرسوم التي عثر عليها في النقوش الصفوية كثيرا في معرفة طبيعة اللات . الا ان هناك عددا قليلا من النقوش صور اللات على شكل انثى فاتحة ذراعيها وقد مدت بيديها شعر راسها على الجنبين، وهذا الشكل من الالهة عرف في حضارة أور في العراق خلال الالف الثالث قبل الميلاد كرمز اعشتار(٧٤) . وفي نقوش صفوية ثلاثة اخرى تشير الى اللات مع وجود رسم للشمس ربما يحمل دلالات تدل على طبيعة اللات(٧٥) .

إن طبيعة المجتمع الصفوي البدوي أو شبه البدوي قد تكون الدافع وراء عدم وجود معبد للات عندهم ، وربما تسعفنا المكتشفات الجديدة الى اشارات أوضح لطبيعة أعظم آلهة الصفويين .

وتشير النقوش التدمرية أيضا الى اللات ، فقد شيد لها معبد في تدمر بناه احد أفراد بني مازن سنة ٦٢م(٧٦) ، ومعبد آخر سنة ١١٥م(٧٧) ، وقد اتخذت اللات اسم عشتار في معبد بل بتدمر رمزت اللات فيه الى الشمس .

ومن الهياكل التي صورت فيها اللات عند التدمريين صورة امراة تجلس بين أسدين(٧٨) ، وقد رُمز اليها على أنها رمز التحول نحو العسكرية ، ما يعود الى نهاية القرن الثاني الميلادي .

عبدة اللات :

تزخر النقوش السامية الشمالية الغربية والعربية الشمالية بأسماء الاعلام المركبة مع أسماء آلهة وخصوصا المضافة الى اللات. وتحتوي هذه الاسماء على دلالات تشير الى درجة قربى العابد والمعبود وسمة هذا التقارب ففي النقوش الصفوية نقرأ أسماءً مثل (تمهالت) تيم اللات و (عبد الت) عبد اللات و (قينهلت) قين اللات و (وهب الت) وهب اللات و (عمر لت) عمر اللات و (شعلت) شيع اللات و (نعم لت) نعم اللات(٧٩) .

ولم تكن مثل هذه الاسماء في النقوش الصفوية بأقل منها عند الثموديين حيث اضيف اسم اللات الى عدد وافر من الاسماء منها (اسالت) أوس اللات، (سعدلت) سعد اللات ، (شعلت) شيع اللات) ، (تملت) تيم اللات وغيرها(٨٠) .

ونجدها في العربية الجنوبية محاكية للنقوش العربية الشمالية من هذه الزاوية إذ تزخر أيضا بالاسماء المركبة مع اللات مثل (ربلت) ربُ اللات ، (سلملت) سلم اللات ، (اوسلت) أوس اللات ، (سعدلت) سعد اللات ، (عمرلت) عمر اللات ، (مجدلت) مجد اللات ، (يزدلت) زيد اللات وغيرها(٨١) .

ولا يخفي ما تحمله هذه الاسماء من صفات للات وعبدتها ، إذ تكثر الاسماء التي تدل على عبودية صادقة فالالفاظ عبد ، وتيم وقين ، وغيرها تدل على ذلك . وعبارات الشكر تتضح في الاسماء مثل شكر ، زيد وسعد ووهب وغيرها .

ويظهر الصفوي في عدد من النقوش الصفوية ملتفتا الى اللات بالدعاء عندما ينتظر قريبا غاب عنه ، ويشتاق لأبيه (وخرص ابه)(٨٢) ولابنائه وبناته (وخرص بنه وبته)(٨٣) ولأبن عمه (وخرص بن دده لتبن)(٨٤) وهو بشوق لأشياعه (وخرص عل اشيعه)(٨٥) ، وهو ينتظر شخصا ما قد يكون صديقه ؟ وخرص ملكت ال هعهد) (٨٦) ، وربما نجده بانتظار شخص آثر عدم ذكر اسمه أو درجة قرابته(٨٧) . والصفوي لا ينتظر شوقا كل الوقت وانما نراه ينتظر أعداءه متربصا بهم (وخرصه شن)(٨٨) ويطارد الشر (وخرصدن)(٨٩) ، أينما كان ، ويدعو ربته أن تنقذه من الموت حين يمر متسللا (وتسلل) و (وبيت حيط فتظر ها سر) و (ونف ر مندم)(٩٠) من بين هؤلاء الاشرار والاعداء .

ومن الافعال التي استخدمها الصفويون بمعنى انتظر أو مرادفاتها (وتشوق)(٩١) أو (ونجع)(٩٢) الدالتان على الشوق ولهفة الانتظار .

ويزداد ارتباط الانسان بمعبوده عند حلول الموت او ذكراه ، فها هو الصفوي يتعبد اللات عند قبر صديق أو قريب فيقف واجما عند قبر أخيه(٩٣) أو ابيه (ووخم عل ابهـ)(٩٤) أو امه وخاله (وعل امهـ وعل اخهـ وعل خلهـ وعل أوس)(٩٥) . كما تؤكد النقوش أيضا على حاجة الصفوي لربته عند ولهه وحزنه وندمه (وول هـ (٩٦) ،) وندم عل كلبهـذلل) (٩٧) أو توجعه (فوجع)(٩٨) أو حيث ثقل حمله انتظارا أو جزعا على أخيه (وثقلع عل اخهـ) (٩٩) .

ولا يكاد الصفوي يفوت مناسبة يرتجي فيها اللات ويتعبدها فهي حاضرة في كل الظروف الزمانية والمكانية ، فها هو يذكرها على مدار الفصول ، صيفا (وقيظ هنمرت)(١٠٠) وشتاء (و ش ت ي)(١٠١) وفي الربيع (و د ت أ)(١٠٢) وكذلك في الخريف (وبعرهـ هـخرف)(١٠٣) . ويقترب من ربته في ظروف حله وترحاله التي تفرضها عليه حياة البداوة من أجل البحث عن الماء والكلأ أو حين سفره من اجل التجارة(١٠٤) . ومن لطيف ما وجد من نقوش تشير الى عبادة اللات هو تضرع المراة الى اللات بأن تخفف عنها الام الحيض وتمنحها البقاء والسلام(١٠٥) .

وفي النقوش الثمودية تتكرر كلمة (ذكرت)(١٠٦) فهو يدعوها ان تتذكره في فقرة فيطلب منها العطاء (كفر ال بحي والت بص)(١٠٧) « كفراي بن حي ، فيا اللات اعط قليلا». وينشدها حين يصيبه الشوق) . . ليدع بن قن ذال نمر وتشو(ق) فهلت سلم وقر) أي : « من يدع بن قين من قبيلة نمر ، وتشوق فيا اللات سلاما وراحة »(١٠٨) ، وحين تضطره ظروف الرعي أن يبتعد : (لسلمت بن لبد ورعي فهلت (هـ) نيت) وترجمته « من سلامة بن لبيد ، ورعي ، فيا اللات (اعطه) الصحة »(١٠٩) وينتظر الثمودي عودة الغائب : وينتظر عودة الغائب : (خلصت بن سول نصب هلت حب (حر) وترجمة النص « (ل) خلصة بن سول هذا النصب ، فيا اللات كوني رقيقة (لطيفة) وأعيديه »(١١٠) .

أما عند العرب في فترة ما قبل الاسلام فقد كانت اللات من أعظم آلهتهم وخصوصا عند كل من قريش وثقيف . وقد عرف العرب الاصنام نتيجة اختلاطهم بالاراميين، حين زار عمر بن لحي بلاد الشام فوجد الناس يعبدون أصناما فاستهدى واحدا منها نصبه في مكة وامر الناس بعبادته(١١١) ، وقد أقسم الجاهليون باللات وعظموها فيقول أوس بن مجر(١١٢) :

وباللات والعزى ومن دان دينها   وبالله ، ان الله منهن أكبر

ويقول أيضا(١١٣) :

حلفت لهم بالملح والمجمع شُهّد   وبالنار واللات التي هي أعظم

وقد اتى الشاعر الجاهلي على ذكرها في حالة الغضب فنرى المتلمس يخاطب مهجوه محتداً (١١٤) :

اطرَدتني حذر الهجاء   ولا اللات والانصاب لا تألوا

والعلاقة بين الجاهلي وربته علاقة حميمة قوية الوشائج يصعب حل عقدتها فنرى عامر بن معبد يشير الى مثل ذلك بقوله(١١٥) :

فاني وتركي وصل كأس لكالذي   تبرأ من لاتٍ وكان يدينها

ولا شك ان مجيء الاسلام قد ذهب بالجاهلية وميراثها ، فاعتزل المسلمون تلك الحياة ، حياة الشرك وعبادة الاصنام ومن لطيف الامور أن يشير زيد بن عمر بن كعب قبل مجيء الاسلام الى مثل ذلك(١١٦) :

أربٌ واحدٌ أم الف ربٍّ   أدين إذا تقسمت الأمورُ

عزلت اللات والعزى جميعاً   كذلك يفعل الرجل الصبورَ

لقد قدم العربي في الجاهلية الهدايا والقرابين للات فقلدها القلائد والسيوف ، ونرى الشاعر الاسلامي كعب بن مالك الانصاري يقول(١١٧) :

وننسى اللات والعزى وودّاً   ونسلبها القلائد والسيوفا

وقد كان سدنتها من العرب بنو عتاب(١١٨) وقبيلة ابي أوس في الطائف(١١٩) .

الثواب والعقاب عند اللات :

ابرزت لنا الأدعية المتوافرة من خلال النقوش عددا وافرا من صفات اللات تبنت جوانب الرحمة والثواب من جهة وجوانب العقاب من جهة أخرى . أما فيما يتعلق بجوانب الرحمة والثواب فقد ظهر من خلال الادعية التي طلب فيها الصفويون من ربتهم أن تمنحهم النعمة (نعم ، نعمت)(١٢٠) ، والمساعدة والمعونة (سعد ، معين ، سعدت)(١٢١) ، والراحة (روح)(١٢٢) ، والسلام (سلم)(١٢٣) ، ويدعونها أن تمنحهم

الصحة (هـنيت)(١٢٤) والسعادة والمجد (مجدت)(١٢٥) والقبول (قبلل)(١٢٦) ، ويتوجه الصفوي الى ربته بالشكر (شكر)(١٢٧) . وتولدت بطبيعة الحال صلة وجدانية بين الصفوي المسافر أو الذي ينوي السفر وبين اللات فنراه يدعوها أن تعيده سالماً (مءدت عود)(١٢٨) وأن تقيه (وقيت)(١٢٩) من الاعداء وقطاع الطرق . وربما كان سفره بسبب التجارة فيدعو ربته أن تهبه الغنى (غنيت)(١٣٠) ، ولا يفتأ يفكر في هودته سالماً من مخاطر طريق المودة فيتضرع الى اللات أن تمنحه الخلاص (خلصت)(١٣١) .

واللات عند الصفويين واهبة الطقس الجميل المعتدل ، ويتضرع لها أن تحميه من الصقيع (قره)(١٣٢) ، وهي في الوقت نفسه مسؤولة عن القحط والجدب أيضا (محلت ، حلت)(١٣٣) . وعلاوة على كل ذلك فاللات واهبة الحنان (حنن)(١٣٤) والهدايا (وهب)(١٣٥) وبيدها سر البقاء (موجد)(١٣٦) .

لم تكن اللات ربة للثواب والرحمة فقط ، بل كانت مسؤولة عن العقاب (عقب)(١٣٧) أيضا ، فهي التي تنتقم (نقمن) للداعي وتقتص (قصص)(١٣٨) له ، وهي التي تعاقب الاعداء بالعمى (نقات)(١٣٩) واللعنة (لعن)(١٤٠) .

لم يفتأ الصفوي يتضرع الى اللات أن تثأر (تأر)(١٤١) له من اعدائه وأن تصيبهم بحر الصيف (سهم)(١٤٢) وأن توقعهم في السجن (سجنت ، سعر)(١٤٣)، ويرى الصفوي اللات قادرة على أن تصيب الاعداء بالصمم (صم)(١٤٤) والعور (عير ، رعور)(١٤٥) والبكم (خرس)(١٤٦) والعرج (عرج)(١٤٧) وحتى الموت (موت)(١٤٨) .

كانت اللات عند الثموديين الوهابة المانحة(١٤٩) للصحة (هـنيت)(١٥٠) والسلام والراحة وقرة العين (سلم وقر)(١٥١) والسناء والسعادة والود (سن الت لس اب ي وأن ادد)(١٥٢) وهي التي تتذكر داعيها أبداً . وقد زخرت النقوش الثمودية بلفظة (ذك رت)(١٥٣) . وكانت اللات عندهم واهبة العودة وهي التي تتلطف بذلك (خلص بن سول نصب هلت حب « حر »)(١٥٤) .

اما عند العرب الانباط فقد كانت اللات واهبة الخصب إذ اقرنوها باترعتا (اترأتا) ربة الخصب السورية(١٥٥) .

أما ثقيف فقد وهبوها المال طالبين منها الرجاء ، وقد كان دعاؤهم « لبيك اللهم، إن ثقيفاً قد أتوك ، وخلفوا المال ، وقد رجوك »(١٥٦) .

آلهة ارتبطت باللات :

رغم ورود اسم اللات في معظم النقوش الصفوية منفردا ، إلا أنها اشتركت مع غيرها من آلهة الصفويين ، وقد تأثر هؤلاء بغيرهم من الساميين فأخذوا منهم بعض الآلهة مثل (ذو الشرى وبعل شامين وشيع القوم) ثم اكتسبت آلهتهم بعض الصفات التي استعاروها من آلهة غيرهم مثل (جاد عويذ وجاد ضيف) الآلهين المحليين .

وأما اهم هذه الآلهة والاقوام الذين ارتبطت بهم فهي رضى عند التدمريين(١٥٧) وذو الشرى أعظم آلهة الانباط(١٥٨) وبعل شامين (سيد السماء) الذي ارتبط ذكره باللات حوالي اثنتي عشرة مرة وشيع القوم وجاد عويذ وجاد ضيف ورحيم واخيراً الشمس . وكما اشير سابقا فان هذه الآلهة تنقسم الى عامةٍ عبدها أكثر من قوم مثل رضى وذو الشرى ، وخاصة ارتبطت بقوم أو قبيلة معينة مثل جاد ضيف وجاد عويذ، إلا أن هناك آلهة أخرى استعيرت من أقوام ساميين آخرين كالحال في بعل شامين الذي يعتبر من آلهة الفينيقيين(١٥٩) .

خاتمـــة :

اعتبر العرب اللات أهم آلهتهم قبل الاسلام ، ولجأوا اليهـا في جميع احوالهـم وظروفهم ، في حالات السفر أو الانتظار أو الحرب أو الزراعة والرعـي ، وكذلك في جزئيات حياتهم كحالة الحيض ، ناعتينها بنعوت متعددة ، يطلبون منهـا أن تهبهـم السلام والامن والغنى والخلاص والثأر ومعاقبة العدو والحاسد ، ويدعونها أن تعيد اليهم من غاب وابتعد ، فهم يلجأن اليها في كل أحوالهم اكثر من غيرها من الآلهـة مما يدلل على علو مكانتها في نظرهم .

بعد ، فلم تكن حياة العرب الدينية هامشية فيإعتباراتهم بل أولوها كبير اهتمامهم واحلوها في ضمير مجتمعهم محلا عاليا كاد يشكل مع سلطة القبيلة قانون حياتهـم وضابط معاشهم .

* * *

الحواشـــي :

(١) Winnett, F.V and Reed, **Ancient Records of North Arabia.** Toronto (1970). p. 78, (ARNA).

(٢) ديسو ، رينيه ، العرب في سوريا قبـــل الاسلام . ت. عبـد الحميـــد الدواخلي . القاهرة (١٩٥٩) ، ص : ١١٤ .

(٣) ARNA ص : ٧٨ .

(٤) Winnett, F.V., «The Doughters of Allah » . **Moslem world .** (1940) 30 : 113-130. S. 120 .

(٥) الحموي ، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٤هـ) ، معجم البلدان ، ٥ أجـزاء بيروت . دار صادر (١٩٥٥) ص : ٥٠ .

(٦) الازرقي ، حمد بن عبد الله (ت٢٢٣هـ) ، **اخبار مكة** . دار الاندلس ، بيروت (١٩٦٩) جـ١ ، ص ١٢٦ .

(٧) Segert , Stanislav, **A Grammer of Phoenician and Punik .** Munchen (1976). P. 179 .

(٨) Segert , Stnislav , **A Basic Grammer of the ugaritic Language.** London (1984)S. 166

(٩) راجـع Segert (1976) III

(١٠) Tomback, R. A , **Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic languages.** 1978 . p. 21.

(١١) « Corpus inscriptionum Semiticarum » **(CIC)** is. 149.

(١٢) **ARNA.** 78

(١٣) Dumbrell, W., « The Tell EL Mashuta Bowels and the «Kingdum » of Qedar in the Persian Period » **BASOR** (1971) 202: 33 - 44 .

(١٤) Donner, H. and W. Rollig. **Kanaandische und aramäische inschriften,** 1 - III. Wiesbaden 1966 - 1968 (KAI), 251.

(١٥) Vattioni, Francesco, **le Iscrizioni Di Hartra** Napoli (1981). S. 64.

(١٦) المصدر السابق ، ص ٤٨، ٥٢، ٦٤.

(١٧) Cis. II. 170

(١٨) انظر ماهية اللات .

(١٩) Winnett, F.V., « The Doughters of Allah » **Moslem word** (1940) 30 : 113 - 130 .

راجع ملاحظة ١٤ عند ونت .

(٢٠) علي ، جـواد ، **المفصل في تاريـخ العـرب قبل الاسلام** . دار العلم للملايين ، بـيروت (١٩٨٠) جـ٦ ، ص ٥٣ .

Teixidor, j., **The Pantheon of Palmyra,** Leiden (1979). p. 53.

(٢١) جواد علي . المصدر السابق .

(٢٢) Cooke, M.A. **A Text - Book of North semitic inscriptions** oxford (1903) 5, 275 .

(٢٣) Van den Branden, **Histoire de Thamoud** . Beyrouth 1966 p. 7.

(٢٤) Littmann, Enno, **Thamud und safa,** leipzig (1940) p. 62.

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٧٦.

(٢٦) انظر ونت المصدر السابق ، ص١٢ .

(٢٧) انظر اطروحة الماجستير للباحث :

Allat : **An Epigraphical Approuch : A Study on Allat in the Safaitic inscriptions** (unpublisched)(Yarmouk University - Jordan) (1988).

(٢٨) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٢٩) Littmann, Enno, **Safaitic Insc -**

riptions. Leiden (1943), (SAI). Nr 94 .

(٣٠) انظر النقش SAI 162 .

(٣١) انظر النقش SAI 326 .

(٣٢) جواد علي ،المصدر السابق ، جـ٦،ص٢٨٨.

(٣٣) الروسان ، محمود محمد ، **القبائل الثمودية والصفوية** . جامعة الملك سعود (١٩٨٧) ، ص ١٨١ .

(٣٤) نيلسن ، ديتلف ، وآخرون ، **تاريخ العرب القديم** . ترجمة فؤاد حسنين علي ، مكتبة النهضة المصرية (١٩٥٨) ، ص ١٨٦ .

(٣٥) انظر : CIS, ii : 182

(٣٦) Littmann , Enno, **Nabataean Inscriptions,** Leiden (1914).p.22

(٣٧) انظر : CIS. ii. 170

(٣٨) جواد علي ، المصدر السابق جـ٦،ص٢٣٢ .

(٣٩) Winnett, **the Doughters of Allah** ... p. 117 .

(٤٠) عباس ، احسان ، **تاريخ دولة الانباط** . دار الشروق ، (١٩٨٧) . ص ١٣١ .

(٤١) انظر : CIS. ii. 198

(٤٢) انظر : Teixidor المصدر السابق،ص٥٣

(٤٣) انظر : Cooke, CIS 3900 (117) .

(٤٤) انظر :

Littmann, Enno, **Thamudic Inscriptions**

النقوش ٦١ ، ١١٨ ، ١٣٧ .

(٤٥) Winnett, F., **A study of the Lihyanite and Thamudic inscriptions** Toronto. (1937), p.42.

(٤٦) Winnett, F ,Lankester Harding, **inscriptions from fifty safaitic cairns,** Toronto. (1978) p. 3. and inscrption Nr. 50. (WH).

(٤٧) انظر : SAI 330

(٤٨) Winnett, F.,**Safaitic inscriptions from Jordan,** Toronto (1957) (Sij). Nr 78.

(٤٩) انظر : SAI. 717, CIS. 63

(٥٠) انظر النقش الوجود شمالي تدمر في كتاب SAI رقم ٨١ .

(٥١) انظر SAI. النقوش ٢٩٩ ، ٣٤٤، والتي والتي وجدت في مكان قرب العيسوي .

(٥٢) انظر المصدر السابق في النقش رقم ٨٩ .

(٥٣) انظر تفسير البيضاوي ، ص ١٠٢ وتاريخ اليعقوبي (ت٢٨٤هـ)، الجزء الاول ،ص٢٥٤.

(٥٤) راجع الاصنام لابن الكلبي (١٩٢٤)، ص١٦.

(٥٥) راجع تاريخ الطبري ، الجزء ٢٧، ص٣٤.

(٥٦) انظر ونت في مقالته في مجلة عالم الاسلام ١٩٤٠ عدد ٣٠ :١٢٠ .

(٥٧) المصدر السابق ١٢٥ ــ ١٢٨ .

(٥٨) نليسن في تاريخ العرب القديم ، ص ١٧٨ .

(٥٩) المصدر السابق ١٩٢ .

(٦٠) احسان عباس في تاريخ دولة الانباط،ص١٢٨.

(٦١) المصدر السابق ١٢٩ .

(٦٢) المصدر السابق ١٣١.

(٦٣) المصدر السابق ١٣٢ .

(٦٤) البيضاوي في تفسيره ، ص ١٠٢ .

(٦٥) ابن كثير ، عماد الدين ابي الفداء (ت٧٧٤هـ) البداية والنهاية ، دار السعادة ، القاهرة . الجزء الرابع ، ١٩٣٢ ، ص ٢٥٤ .

(٦٦) جواد علي جـ٦ ، ص ٢٨٨ .

(٦٧) ابن الكلبي ، ص ١٦ .

(٦٨) انظر كحالة ، عمر رضا ، **معجم القبائل العربية** . بيروت ١٩٦٨) ، الجزء الاول ،ص ١٤٨–١٥١ .

(٦٩) انظر المصدر السابق للازرقي جـ١ ، ص ١٢٦ .

(٧٠) انظر ابن هشام ، محمد بن عبد الملك (ت ٢١٣هـ) . **سيرة ابن هشام** . دار الجيل، (١٩٧٥) ، بيروت الجزء الاول ، ص ٦٣.

(٧١) انظر وينية ديسو المصدر السابق ،ص١١٤.

(٧٢) انظر ليتمان ١٩٤٠ ، ص ٧٥.

(٧٣) انظر ARNA ص ٧٥ .

(٧٤) انظر سواح ، فراس ، لغز عشتار ، دار سومر للدراسات والنشر، قبرص .

(١٩٨٦) ، ص ١٨٥ .

(٧٥) انظر المعاني السابق ، ص ١٤٦ .

(٧٦) Teixidor, J., **The pantheon of Palmyra** , Leiden, (1979) p.53.

(٧٧) انظر المرجع السابق .

(٧٨) Colledge, M ., **The Art of palmyra,** London. (1989) p. 44.

(٧٩) راجع المعاني السابقة ، ص ١٢٨ .

(٨٠) انظر الجزء المختص بالاسماء المركبة مع اسم اله في كتاب :

Harding, Lankester, **An Index and Concordance of pre - Islamic Arabian Names and inscriptions,** University of Toronto Press. (1971) (Index) .

(٨١) المصدر السابق .

(٨٢) انظر النقش رقم ٧٠٩في SAI .

(٨٣) انظر النقش رقم ٥٧٧ في WH .

(٨٤) انظر النقش ٥٧٧في SAI

(٨٥) Macdonald, C. « Safaitic Inscriptions in the Amman Museum and other Collecitons I.» **ADAJ,** (1979), 23 : 101 - 119. **(SIAM).** Nr. 35.

(٨٦) انظر النقش رقم ١١٥٦ في SAI .

(٨٧) انظر النقش رقم ٥٩٨ في SAI .

(٨٨) انظر النقش رقم ٢١٠ في SAI .

(٨٩) انظر النقش رقم ٥٧٦ في SAI .

(٩٠) انظر النقش رقم ٢٨ في CIS .

(٩١) Harding, Lankester, the cairn of Hani ADAJ. (1953). 2: 8 - 59 (HCH) .

انظر النقوش ٤٢ ، ٤٤ . والنقش رقم ١٣٢٦ في :

Jamme, A., **Safaitic inscriptions from the countrey of ʿAraʿar an Ra s ʿAnaniyah,** New York. (1971) (S ʿR).

(٩٢) انظر النقش رقم ٦٤٠ في SAI .

(٩٣) انظر النقش رقم ٢٣٣ في SAI .

(٩٤) انظر النقش رقم ٥٢٨ في SAI .

(٩٥) انظر النقش رقم ٤٠٥ في SAI .

(٩٦) انظر النقش رقم ١٨٩ في SAI .

(٩٧) انظر النقش رقم ١٣١ في HCH .

(٩٨) انظر النقش رقم ٣٨٥ في HCH .

(٩٩) انظر النقش رقم ٣٠٦ في HCH .

(١٠٠) انظر النقش رقم ٣٣٠ في SAI .

(١٠١) انظر النقش رقم ٦٤٩ في SAI .

(١٠٢) انظر النقش رقم ٥٧ في TS .

(١٠٣) انظر النقش رقم ٣٥٥ في SAI .

(١٠٤) انظر النقوش ١٦٢ ، ١٧٩، ٢٥٧ ، ٢٢٦ ، ٦٦٤ ، ٧١٧ ، ٧١٩ في SAI ، و ٥٠٤٤ في CIS و٢٤ في WH ،ورقم ٧٦في HCH

(١٠٥) انظر النقش ٢٨١٤ في WH .

(١٠٦) انظر ونت (١٩٣٧) المصدر السابق ،ص٤٢.

(١٠٧) انظر ليتمان (١٩٤٠) المصدر السابق، ص٨١

(١٠٨) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(١٠٩) المصدر السابق ، ص٦٢ .

(١١٠) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(١١١) **السيرة النبوية** ، المصدر السابق ج١، ص٧٢

(١١٢) اوس بن حجر ، **الديوان** ، تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت ، (١٩٦٠) ، ص٣٦.

(١١٣) الجاحظ ، عمر بن بحر (ت٢٥٥ هـ) ، **البيان والتبيين** ، تحقيق عبد السلام هارون، ٤ أجزاء ، ط٤ ، دار الفكر ، بيروت (بدون تاريخ) ج٣ : ص٨ .

(١١٤) المتلمس الضبيعي ،**الديوان** ،معهد المخطوطات العربية (١٩٧٠) ص ٤٣٠ .

(١١٥) ياقوت ، جـ٥ ، ص٥ .

(١١٦) المصدر السابق .

(١١٧) **السيرة** ، المصدر السابق ، جـ١ : ص٦٣ .

(١١٨) ابن الكلبي ، السابق ، ص١٦ .

(١١٩) انظر كحالة ، السابق ، ص ١٤٨–١٥١ .

(١٢٠) انظر النقش ٤٦٠ في SAI و ٢٨٩٠ WH

(١٢١) انظر النقش ١٠٢ في HcH ، و ١٤٦ ، ٣٤٢ ، ٦٨٧ في SAI ، ٢١٤٥ في CIS .

(١٢٢) انظر النقوش ٦٠٢ ، ٢٨٤٨ في WH ، ٣٢٨٦ ، ٢٣٧٩ في CIS .

(١٢٣) انظر النقوش ١٠٤٤،٨٣،٧٦،٧١ في HcH و ٢٠٢، ٢٤٠ في Sij و١٦٢ ، ٦٢٢ في WH و ٦٤٠ ، ٦٨٥ في SAI .

(١٢٤) انظر النقش ٢٨٧ في SAI .

(١٢٥) انظر النقش ٧٠ في S°R .

(١٢٦) انظر النقوش ٤٢ ، ٤٣ ، ١٣٧ في HcH و ١٣٥ في WH .

(١٢٧) عبد الله ، محمود يوسف ، **النقوش الصفوية في مجموعة جامعة الرياض** (١٩٧٠) رسالة ماجستير في الجامعة الامريكية غير منشورة . نقش ٦٥ .

(١٢٨) انظر النقش ١٨٠ في SAI ١٢١ في HcH .

(١٢٩) انظر النقش ١٥٩ في WH و ٣٠٦ في SAI .

(١٣٠) انظر النقوش ٢٤ ، ١٠٠١ في WH

(١٣١) انظر النقش ١٠٤ في SAI .

(١٣٢) انظر النقش ٧٠١ في SAI .

(١٣٣) انظر النقوش ٢٦٣ ، ٣٥٣ في Sij .

(١٣٤) النقش ٢٨٧ في Sij .

(١٣٥) انظر النقش ٤٠٣٧ في CIS .

(١٣٦) انظر النقش ٣٦٦١ في CIS .

(١٣٧) انظر النقش ١٢٢٤ في SAI .

(١٣٨) انظر النقوش ٣٢٣ و ٣٨٠ في SAI و ٤٦٩٢ في CIS .

(١٣٩) انظر ليتمان (١٩٤٠) المصدر السابق ، النقش ٢٩ .

(١٤٠) انظر النقش ٢٤ في WH .

(١٤١) انظر النقوش ٧٢ ، ١٢٦ في HcH و ٥٧ في CIS و ٤٦١ في SAI .

(١٤٢) انظر النقش ١٤٥ في S°R .

(١٤٣) انظر النقش ٢٨٢ في SAI .

(١٤٤) المصدر السابق .

(١٤٥) انظر النقوش ٨٥ ، ١٠٣ في HcH و ٣٧٩، ٣٦٨ في WH و ١٦٩ ، ٣٨٥ في SAI .

(١٤٦) انظر النقش ٣٦٨ في SAI .

(١٤٧) انظر النقش ٤٨٣٨ في CIS ٣٦٨ في WH

(١٤٨) انظر النقش ٥٢٠٨ في CIS .

(١٤٩) انظر ليتمان (١٩٤٠) ، ص ٨٢ .

(١٥٠) المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(١٥١) المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(١٥٢) المصدر السابق ، ص٨٣ .

(١٥٣) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، ٨٥ .

(١٥٤) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(١٥٥) احسان عباس ، المصدر السابق ، ص١٢٩ .

(١٥٦) تاريخ اليعقوبي ، ج١ : ٢٥٤ .

(١٥٧) Oxtoby, W. **Some inscriptions of the safaitic Bedouins**, New Haven. (1968) p. 21 .

(١٥٨) انظر المعاني ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(١٥٩) المصدر السابق ، ص ١٣٢–١٣٨ .

* * *

راي للمناقشة

إشكالية « المصطلحات والتاريخ »

حركة التطور المستمرة لكل مجتمع بشري تفرض خضوعه بالضرورة للتغيير والتبدل والتحول ، بين مرحلة تاريخية واخرى ، في مسيرته التطورية العامة والشاملة لكل ميادين حياته المادية والفكرية بما فيها جميع علومه وايديولوجياتهوفلسفته وفنونه وآدابه وغيرها . والتاريخ هو مسيرة التطور هذه ، ومن هنا جاءت موسوعية علمه التي تحتم ارتباطه بعلاقة جدلية مع كل العلوم ، بحيث يؤثر فيها ويتأثر بها ، ان تغييرا أو تبدلا أو تحولا ، مما يفسر اعتبارها في معظمها كعلوم مساعدة له ، لدورها المشترك الاساسي في الوصول الى معرفته(١) ، وعليه فان اي جديد في احدها ، بما فيهالجديد الاصطلاحي ، لا يمكن الا أن ينعكس جديدا فيه .

عند هذا الجديد الاصطلاحي نقف لنجيب على سؤال هام يتردد كثيرا في اوساط بعض مثقفينا : هل يجوز استخدام مصطلحات حديثة للتعبير عن معطيات قديمة سابقة لظهورها . .؟ نقول ان مشروعية هذا الاستخدام تحددها هذه المعطيات ذاتها ، من حيث احتواؤها على المضامين العامة نفسها التي يعبر عنها المصطلح ، وكما هو ملاحظ فان مبرر وقفتنا عند هذا السؤال هو ان جوابه يحدد لنا شرط وجود المشروعية العلمية في استخدام المصطلحات عموما ، والمتمثل بوحدة المعطيات العامة ما بين مضمون المصطلح وما بين مضمون الفكرة او الظاهرة التي يعبر عنها ، والحدث أو الشيء الذي يدل عليه .

حرصنا على أن يكون مثالنا شديد الدلالة دفعنا الى اختياره مما زودتنا به العلوم الانسانية من مصطلحات حديثة تعبر عن تصنيف وتقسيم فئات المجتمع حسب تموضعها في عملية الانتاج ، والتي هي مصطلحات متفق عليها من قبل جميع المدارس الفكرية والايديولوجية ، وشاملة لكل المجتمعات البشرية في شتى المراحل التاريخية المختلفة التي خضعت فيها لهيمنة علاقات الملكية الخاصة ، بدءا بمرحلة العبودية ، ومرورا بمرحلة الاقطاعية ، وانتهاء بالرأسمالية . والمصطلحات المعبرة عن هذا التصنيف هي : فئة السادة ، الاقطاعية ، البرجوازية ، البرجوازية الصغيرة ، الفئات

دراسات تاريخية ، العددان ٤٧ و ٤٨ ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٩٣ .

الكادحة من عمال وفلاحين صغار .. والسؤال الان : ما مدى مشروعية استخدام هذه المصطلحات الحديثة للتعبير عن التصنيف الاجتماعي لتجمعـات بشريـــة قديمة أو وسيطة ...؟

مرة اخرى نقول : ان ما يؤكد هذه المشروعية او ينفيها هو وجود التماثل بـين معطيات كل من المصطلح والوضع الاجتماعي للفئة المعنية التي يعبر عنها ، بغض النظر عن الزمان والمكان ، لان وجود جميع الفئات الاجتماعية المذكورة هــو سابق لظهـور مسمياتها الاصطلاحية بزمن طويل بالنسبة لبعضها وقصير بالنسبة لبعضها الاخر . ولنقف عند احدث وابرز هذه المصطلحات ، والذي اخترناه موضوعـا لمثالنـا ، انـه « البرجوازية » . فمن المتعارف عليه اليوم أن هــذا المصطلح يتطابـق مع مصطلـح « الراسمالية » ، ويدل على الفئة الاجتماعية المالكة لرأس المال الثابـت أو المتغـير ، والتي توظفه لتنميه عن طريق استغلال العمل المأجور الذي تحصل من خلاله عـلى « القيمة الزائدة » التي هي مصدر دخلها تحديدا . وتنقسم البرجوازية تبعا لتوظيفها لراس المال الى برجوازية تجارية أو صناعية أو ريفية أو مصرفية(٢) . ولقد حـدد الباحثون شروط وجودها ، اي شروط وجود المشروع البرجوازي ، فجعلوا الشـرط الاول هو وجود المستوى المناسب من تطور قوى الانتاج ، والثاني هو وجـود الانتاج البضائعي المتطور ، والثالث هو وجود السوية لقوة العمل الحرة ، والرابع هو وجود النفسانية الاجتماعية المناسبة لتحويل قوة العمل الى بضاعة ، اي المناسبة لوجـود العمل المأجـور .

هذه الشروط لوجود البرجوازية هي شروط نظرية مجردة وذات وجـود مادي نسبي في الزمان والمكان ، اي أن معطياتها التجسيدية ونسبها وطبيعتها تختلف مـن مجتمع الى اخر ومن مرحلة تاريخيـة الى اخـرى ، وعليـه فهي ، أي الشـروط ، ليست سوى مضامين عامة ، ووجودها في أي مجتمع بشري ، بغض النظر عن الاشكال التجسيدية لهذا الوجود ، يعنيوجود البرجوازية كمشروع وكعلاقات وكفئةاجتماعية. ومنظورنا المقوم لهذا الوجود يجب أن يعتمـد المعايير الخاصـة بالمرحلـة التاريخيـة المعنية وليس معاييرنا المعاصرة . وعلى سبيل المثال نذكر ان المستوى المناسب فيتطور الانتاج والقوى الانتاجية ، الذي هو أهم شروط وجود المشروع البرجوازي ، يجـب ان يتم تحديده عند مجتمع بشري ما في مرحلة تاريخية معينة بناء على مقارنة بـين قوى الانتاج ومستوياته فيه وبين مثيلاتها في الواقع الانتاجي للمجتمعات الاخـرى المتواجدة في المرحلة نفسها ، والتي من خلالها تتشكل معايير التقويم الصحيحة الخاصة بها . فما يعتبر كشفا عظيما وثورة بمعايير العصر الذي ظهر فيه ، كالعجلة مثلا، يعتبر عاديا جدا بمعايير عصرنا عصر الثورة الصناعية والمصرفية ، عصـر الذرة والفضاء .

ان معطيات كل مرحلة تاريخية هي التي تحدد المعايير الخاصة بها في الحكم والتقويم ، ولا يجوز بحال من الاحوال تجاوزها أو الخلط بينها .

ان عدم استيعاب هذه الحقيقة التاريخية هو السبب الاساسي الاول الذي يفسر الكثير من الاخطاء التي وقع فيها بعض الباحثين ، ومن ضمنها ربطالبرجوازية بالعصور الحديثة وبأوروبا تحديدا وبمعطياتها فيهما ، أما السبب الثاني فهو جهلهم لطبيعة المسار الجولي ما بين معطيات القديم والجديد في حركة التطور العامة ، بحيث اعتبروا هيمنة الجديد نفيا لوجود القديم أو العكس ، أي اعتبروا ان هيمنة القديم نفيا لوجود الجديد . وبناء عليه فقد ربطوا كل مرحلة تاريخية في تطور البشريةبهيمنة علاقات انتاجية معينة ، نافين وجود غيرها فيها ، من هنا أتى ربطهم للوجود البرجوازي ، على سبيل المثال ، بمرحلة الهيمنة البرجوازية في أوروبا في العصور الحديثة ، ومن هنا جاء نفيهم بالتالي لمشروعية الحديث عن هذا الوجود ، كمعلمون وكمصطلح ، في بقية المراحل التاريخية في العصور القديمة والوسطى وعند جميعالامم بدون استثناء .

الى هؤلاء نتوجه لنؤكد اولا ، ان لكل مرحلة في التاريخ الحضاري للمجتمع البشري ، منذ معرفته للفائض الانتاجي في الزراعة والحرفة ، وممارسته للتجارة وحتى يومنا الحاضر ، برجوازيتها الخاصة بها ، والتي تنسجم في جميع معطياتها مع طبيعة تطور القوى والعلاقات الانتاجية فيها . والى هؤلاء نتوجه لنؤكد ، ثانيا ، أن الجديد ينبثق من القديم ويتصارع معه الى أن تتشكل في المجتمع تراكمات التغييرات الكفيلة بحسم الصراع لصالح هيمنته عليه ، أي لصالح هيمنة الجديد على القديم ، ولنؤكد أن هذه الهيمنة لا تعني نفي هذا القديم ، لانه يبقى في صراع وتعايش مع الجديد من خلال حركة تراجعية مستمرة لصالحه ، أي لصالح الجديد، أي ان تعم معطياته عمقا وافقا ، وعندها اما أن ينتفي القديم أو أن يضطر الى تغيير لبوسه ومحتواه .

هذا يفسر ، من جملة ما يفسر ، تواجد عدة أنماط من الانتاج في مجتمع ما ،في مرحلة تاريخيةما(٣) ، في ظل تعايش وصراع غير حاسم أحيانا ، وفي ظل حسم لصالح هيمنة احدها احيانا اخرى ، وهو تواجد له مبرراته التي تعود الى طبيعة المرحلة التاريخية المهيمنة ، والى خصوصية هذا المجتمع أو ذاك في تفاعله معها، أي وباختصار شديد تعود الى طبيعة العلاقة الموجودة بين الخاص القومي والعام التاريخي(٤) . وهي طبيعة يغيب فهمها الصحيح عند الباحثين المذكورين ، فيغيب معه فهمهم العلمي لخصوصية المجتمعات الانسانية في تطورها في شتى المراحل التاريخية ، ومع هذا الغياب يبرز السبب الثالث لوقوعهم في الخطأ المذكور .

ان العام التاريخي المجرد النظري للبرجوازية ، موضوع مثالنا ، يعني المســار العام لتطورها التاريخي على المستوى العالمي للمجتمع البشري ككل ، والذي يعكس وحدة التاريخ الانساني عموما . ويتلخص هذا المسار بأن البرجوازيه ترتبط ، كبداية وجود ، بظهور الفائض الانتاجي للزراعة والحرفة في المجتمـع العبـودي ، وبظـهور النشاط التجاري بهذا الفائض . وترتبط ، كنمو لعلاقات انتاجية فعالــة غير مهيمنة بوجود شروط مشروعها البرجوازي الصناعي والتجاري التي تكلمنا عنها في الواقــع الانتاجي للمجتمع الاقطاعي ، حيث تهيمن العلاقات الاقطاعية التي تمثل القديم المتراجع في صراعه مع العلاقات البرجوازية التي تمثل الجديد المتنامي . وترتبط ، كهيمنــة اسلوب انتاج برجوازي ، بقيام الثورة الصناعية التقنية التي، اذ تضع النهاية الحاسمة لهيمنة العلاقات الاقطاعية لصالح هيمنة العلاقات البرجوازية ، فانها تحول المجتمع الاقطاعي الى مجتمع برجوازي .

هذا المضمون العام التاريخي المجرد للبرجوازية قد تجسد ، اما جزئيا أو كليا ، في الخاص القومي لامم وشعوب العالم الحضارية ، أي في واقعها الانتاجي ووعيهــا الاجتماعي ، بأشكال ملموسة مختلفة ، والتي وحده علم التاريخ الشمولي الموسوعي قادر على تعريفنا بها ، ومتابعة مثالنا نفسـه ستكون من خلال الخاص القومي لامتنا العربية . ان أبرز ما يكون هذا الخاص وما يميزه هو قدمه التاريخي الحضاري(٥) . فقد دلت الدراسات التاريخية التخصصية الحديثة على أن اولى التجمعات البشرية المستقرة والمستمرة للانسان العاقل كانت في مشرقنـا العربي القديم منــذ حوالي سبعة عشر الف سنة(٦) ، وأجمعت على أن حضارة هذه التجمعات هي أولى الحضارات الانسانية المستمرة وسابقة لها بالاف السنين(٧) .

القدم التاريخي الحضاري هذا قد أعطى هذه التجمعات خصوصية تطوريـة افقا وعمقا وفي شتى المجالات الحياتية المادية والفكرية ، فكانت صاحبة جميع الثورات الاقتصادية السابقة للثورة الصناعية التقنية، من تدجينية وزراعية وحرفية وتجارية. وكانت أول من عرف الملكية الخاصة ، وعرف هيمنة شكلها العبودي ثم الاقطاعي ، لهذا كان من الطبيعي ان يظهر المشروع البرجوازي أول ما يظهر في واقعها الاجتماعي الانتاجي(٨) . إن أية دراسة علمية موضوعية شاملة لمختلف جوانب النشاط التجاري للعرب البابليين والمصريين والفينيقيين في العصور القديمة ، والذين أسسوا مراكزهم التجارية على شواطىء المتوسط كله ووصلوا حتى شواطىء امريكا منذ ذلك الحين(٩)، وجوانب النشاط التجاري للعرب في ظل الدولة العربية الاسلامية في العصور الوسطى، والذين هيمنوا على التجارة الدولية حتى القرن الخامس عشـر ميـلادي(١٠) ، تبين بوضوح ليس وجود المشروع البرجوازي العربي فقط في العصور القديمة والوسطى،

وانما تمتعه بأفضل معطيات شروطه المذكورة سابقا ايضا ، وذلك بالطبع حسب معايير تقويمها في هذه العصور ، وتؤكد بالتالي وجود البرجوازية في المجتمع العربي القديم والوسيط كفئة اجتماعية وكعلاقات انتاجية فعالة ولكنها غير مهيمنة .

ومن المعروف بالنسبة لكثير من الباحثين انه لولا خضوع العرب لمفاسد حكم بعض السلاطين المماليك في أواخر العصور الوسطى ، وللاحتلال العثماني المتخلف منذ بداية العصور الحديثة ، وما تبع ذلك من ضربات قاصمة وجهت الى البرجوازية العربية في الصميم ، وفي الوقت نفسه الذي تصاعدت فيه النهضة الاوروبية البرجوازية ، لكانوا هم أصحاب الثورة الصناعية في العصور الحديثة كما كانوا أصحاب الثورة التجارية والحرفية والزراعية في العصور القديمة والوسطى . وما يهمنا من جميع ما ذكرناه هنا هو ابراز المشروعية العلمية في استخدام المصطلح الحديث « البرجوازية » أو « الرأسمالية » للتعبير عن الفئة الاجتماعية الانتاجية المعنية به في المجتمع العربي القديم والوسيط ، مما يفسر وجود هذا الاستخدام عند الكثير من الباحثين العرب والاجانب أمثال موليه وايمار واوبواية والتيزيني الخ.(١١) .

إن مثالنا هذا الذي قدمناه حول وجود المشروعية العلمية في استخدام المصطلحات الحديثة للتعبير عما ينسجم مع مضامينها في الفترات التاريخية السابقة لها ، قديمة كانت أم وسيطة ، يؤكد ان مشروعية استخدام المصطلح لا ترتبط بزمن ظهوره ، وانما بمضامينه الدلالية تحديدا ، والتي قد توجد معه فقط أو توجد قبله وبعده ايضا . ان معظم المسميات او المصطلحات في العلوم الانتروبولوجية والانسانية عموما ، وفي ظواهر الطبيعة والكون ، والكثير منها في العلوم التطبيقية ايضا ، اتت متأخرة على مدلولاتها ، أي الموجودات التي تعبر عنها ، بزمن مختلف في طوله وقصره . فالانسان موجود قبل ان يدعو نفسه بمصطلح « الانسان »، وما دعاه ابن النفيس في العصور الوسطى بمصطلح « الدورة الدموية » هو موجود في الانسان منذ وجوده قبل ابن النفيس بالاف الاف السنين ، و « الديناصور » موجود قبل ان يسمى باسمه الاصطلاحي هذا الذي انتهى بنهايته .

وكما يؤكد أحد الباحثين الاقتصاديين : « اذا كان القدماء لم يتعرضوا الى بنية أجسامهم ، فهذا لا يعني أن هذه البنية لم تكن موجودة موضوعيا ، أو انها كانت تلعب دورا أقل مما تلعبه الان . والشيء نفسه صحيح اذا كان القدماء لم يعرفوا الاحصاء ، لم يقيسوا ولم يحللوا العلاقات والتناسبات الاقتصادية ، فهذا لا يعني أن الروابط الاقتصادية المادية ــ الانتاجية (« بنية » المجتمع) لم يكن لها موضوعيا وجود في ذلك الوقت ولم تكن تلعب دورا محددا (١٢) . وان الذي يتبادر الى ذهننا تصديقا لتأكيد

هذا الباحث هو حديث المؤرخ الفرنسي روسي عن وجود « الاقتصاد الزراعي المصري والرافدي الضخم» ، وعن وجود التنظيمات الصناعية والبحرية والماليـة الموطـدة في الشرق وسط ملايين العمال والمهندسين والعلمـاء الذين تسوسهم وتدير امورهـم دول مركزية عربية منذ عهد قديم ، هي دول مصر وبابل (١٣) ، والذي يبين لنا فيه: « ان دور المصارف الحاسم جدا في ايامنا في الحياة الاجتماعية والسياسية للشعوب، لم يكن اقل من دور المصارف في العصور القديمة »(١٤) . ان جهل عرب مصر وبابـل وفينيقيا بالمصطلحات المعبرة عن واقع دولهم الاقتصادي هذا، من اقطاعيةاو برجوازية أو مصرفية او غيرها ، لا ينفي بحال من الاحوال وجود هذا الواقع بكل ما يحتويه من مدلولات لجميع هذه المصطلحات .

وبالمنظور ذاته نؤكد ان جهل المجتمعات الانسانية في العصور القديمة والوسطى عموما لما دعاه « نيوتن » في العصر الحديث بمصطلح « قانون الجاذبية الارضية » لا ينفي ابدا وجوده منذ ملايين السنين ، أي منذ وجدت الارض كجزء متوحد مع الكون الكلي. والحال نفسها مع معظم المصطلحات الحديثة ، باستثناء المتعلق منها بالمخترعات التقنية تحديدا ، حيث لا وجود لمدلولاتها قبل ظهورها : فلا وجود لـ « العجلة » أو « العربة » او « البوصلة» او « الطباعة » أو « المذياع » او « التلفاز » او الكمبيوتر الخ . . قبل زمن اختراعها واعطائها هذه المسميات الاصطلاحية ، مما يحصر مشروعية استخدامها ضمن الفترة الممتدة منذ هذا الزمن وفيما بعده فقط .

النتيجة التي نخلص اليها من كل ما ذكرناه هي ان منطلق وجود المشروعيـة العلمية في استخدام اي مصطلح هو دائما مضامينه الدلالية العامة ليس الا ، فوجودها يبرر استخدامه بغض النظر عن الزمان والمكان ، وعدم وجودها ينفي مشروعية أو حتى امكانية هذا الاستخدام نفيا مطلقا ، وهي نتيجة تبدو بديهية بالنسبة للبعض ، لكنها ما تزال مثار جدل بالنسبة لكثير من الباحثين(١٥) ، مما دفعنا الى وقفتنا عندها في بحثنا هذا ، وذلك في محاولة متواضعة منا للمساهمة في حل اشكالية تكاد لا تخلو أية ندوة تاريخية من الحوار حولها انها اشكالية « المصطلحات والتاريخ ».

* * *

هوامش البحث :

(١) المؤرخ الكبير ابن خلدون هو أول من تحدث عن أهمية العلوم المختلفة ، أو « المعارف المتنوعة » بالنسبة للمؤرخ . انظر مقدمة ابن خلدون ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ، ص ٩ وص ٢٨ ، ولم يعد هناك خلاف حول موضوعية علم التاريخ ودور العلوم المساعدة في معرفته . انظر على سبيل المثال: حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ،دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، القاهرة، ١٩٦٥ ، ص ٢٣-٥٠ ، وليلى الصباغ ، دراسة في منهجية البحث التاريخي ، مطبوعات جامعة دمشق ، ١٩٨٨ - ١٩٨٩، ص ١٢٠ - ٩٣ .

(٢) تفاصيل هذه المسلمات الموجزة جدا حول مصطلح البرجوازية أو الراسمالية موجودة في كل المصادر والمراجع المتعلقة بهذا الموضوع، والتي تبين كيف تطور مضمونه الاصطلاحي منذ بداية ظهوره ومن يومنا الحاضر ، ولكن يستطيع من يريد معلومات عامة اكثر ومختصرة ايضا حولها مراجعة موسوعة الهلال الاشتراكية ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٠، ص ٢٣٦ - ٢٣٩ ، و.ب.ن. بونوماريوف، القاموس السياسي ، ترجمة عبد الرزاق الصافي ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٣) يوري ف. كاتشانفسكي ، عبودية ،اقطاعية، ام اسلوب انتاج اسيوي ، ترجمة عارف دليلة ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٧٥ - ٩٠ .

(٤) انظر المرجع نفسه ، ص ٤٢ - ١١١ .

(٥) حول أهمية هذا القدم انظر نجاح محمد : « الواقع الاجتماعي العربي القديم ، خصوصية ام اسلوب انتاج اسيوي » (مجلة الوحدة ، العدد ٥٧ ، حزيران ١٩٨٩ ،ص ٧٩-٩٧).

(٦) هذا ما تجمعليه جميع الدراسات التاريخية الاثارية . انظر على سبيل المثال سلطان محيسن ، عصور ما قبل التاريخ ، دار المستقبل ، دمشق ، ١٩٨٦ - ١٩٨٧ ،ص ١٩٣ - ٤٤ ٢ .

(٧) انظر المرجع نفسه، على سبيل المثال ، فلقد دلت على ذلك جميع الدراساتالتاريخية - الاثارية الموضوعية دون استثناء ، والتي تحدثت عن المثلث الحضاري الاقدم بالنسبة لجميع الحضارات الانسانية،مثلث حضارات العراق وسوريا ومصر .

(٨) راجع مجلة الوحدة ، العدد ٥٧ ، « الواقع الاجتماعي العربي ..»،

(٩) أي ان العرب الفينيقيين هم أول مناكتشفوا اميركا قبل كريستوف كولومبس بالاف السنين . انظر احدث المراجع بهذا الخصوص :

وانظر أيضا : اميل ادة ، الفينيقيون واكتشاف اميركا ، دار النهار ، بيروت ١٩٦٩ .

(١٠) يجمع المؤرخون ان الواقع الاساسي لما دعي بالمكتشفات الجغرافية فيما بين أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، أي اعادة اكتشاف اميركا ورأس الرجاء الصالح ، هو البحث عن طريق الى الهند لا يكون تحت الهيمنة العربية والاسلامية .

(١١) انظر على سبيل المثال مؤلف لافون موتيل ولاحظ عنوانه :

(١٢) كاتشانفسكي ، المرجع السابق، ص٦٨.

(١٣) Pièrre ROSSI, La Cité d' Isis Vraie Histoie des Arabes, Nouvelles Editions Latines, Paris, 1976, pp. 132-146 .

(١٤) Laffon MOUTELS, Les Etapes du Capitalisme , de Hammourabi à Rockfeller, Paris, 1938.

Ibid, p. 145

(١٥) انظر على سبيل المثال ، مداخلة أ.د. طيب التيزيني على بحث : « ملامح الاشتراكيــة في التاريخ العربي القديم » ، ندوة « الطريق العربي الى الاشتراكية »، نشرت تحت هذا العنوان نفسه ، دمشق ، ١٩٨٨ ، ص ٦٣، وانظر الرد عليها في ص٦٤-٦٧ وانظر مؤلفات أ. د. التيزيني حول الفكر العربي.

* * *

الاســلام والقوميــة في البلقــان
(دور الدين في تشــكل الشــعوب)

د. محمد م. الارناؤوط
جامعة اليرموك

تتميز شبه جزيرة البلقان ، أو ما يعرف بأوربا الجنوبية الشرقية ، بتطور «دور خاص » للدين في تشكل الشعوب ، وبالتحديد في تحول المجتمعــات من أقــوام الى شعوب ، وفي الحركات القومية اللاحقة التي برزت لدى هذه الشعوب للمطالبة بدول قومية . وقد بدأ هذا « الدور الخاص » للدين يتضح مع انتشار المسيحية في البلقان، وخاصة بعد الانقسام الكبير بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية سنة ١٠٥٤م . ونظرا الى ان الاسلام انتشر في هذه المنطقة ، كما لم ينتشر في أية منطقة اخرى فيأوربا، فمن المثير أن نتعرف هنا على ما واجه الاسلام ، أو ما قام به الاسلام في هذه المنطقة .

مدخــــل :

طالما أن الموضوع لا يرتبط بالاسلام فقط بل بدور سابق للمسيحية ايضا فمن الضروري في هذه الحالة أن نتعرف على بعض المعطيات التاريخية العامة، التي ساهمت فيما بعد في تبلور الشخصية الخاصة للمنطقة .

كانت شبه جزيرة البلقان في العصر القديم تتميز بوجــود عــدة مــدن ــ دول في أقصــى الجنــوب وجزر بحر ايجه تمثــل الحضارة اليونانيــة المتقدمة بالنســبة لو قتهــا ومحيطهــا ، وبوجــود ثلاثــة مجموعات مــن الاقــوام القويــة في وســط المنطقة التي تمتد من البحر الاسود الى البحر الادرياتيكي :

١ ــ التراقيون في الشــرق (تراقيــا) وهــم مــن القبائل الهندواوربية التــي استقرت قديما في المنطقة الممتدة من بحر ايجة حتى جبال الكاربات في الشمال . وقد اعتبرهم المؤرخ هيرودوت في زمنــه (ق ٥ ق.م) من أكبر شعوب العالم بعد الهنود ،

(*) كتب هذا البحث في صيف ١٩٩١ وقدم للنشر في صيف ١٩٩٣ .

وكانت لهم حضارة متميزة الا ان لغتهم لم تدون كما أنهم لم يكونوا وحدة سياسية ، ولذلك ذابوا لاحقا في الشعوب المجاورة(١) .

٢ ـ المكدونيون في الوسط (مكدونيا) ، وهم ايضا من القبائل الهندواوربية التي استقرت قديما في المنطقة مع أن العلماء ما زالوا يختلفون حول أصولهم . وقد تعرضوا لتأثير أكبر من الحضارة اليونانية المجاورة وخاصة بعد قيام ملكهم فيليب (٣٥٩ ـ ٣٣٦ ق.م) بالسيطرة على المدن ـ الدويلات اليونانية المجاورة (٢) .

٣ ـ الاليريون في الغرب (اليريا) وهم أيضا من القبائل الهندواوربية القديمة ايضا في المنطقة . وقد وجدت بينهم مؤثرات يونانية قديمة نتيجة لتأسيس بعض المستوطنات اليونانية في أراضيهم (أبولونيا وغيرها) ، كما تعرضوا لاحقا الى تأثير روماني قوي ، ولكنهم استمروا أخيرا في المنطقة من خلال أحفادهم الالبانيين (٣) .

وقد تمكنت روما فيما بعد من ضم البلقان برمته الى دولتها حتى منتصف القرن الاول قبل الميلاد . ومع ظهور المسيحية في الشرق تسربت أفكارها في أرجاء الدولة بما فيها البلقان ، وهناك ما يشير الى أن المسيحية قد وصلت الى إليريا في عهد الرسول بولس نفسه(٤) . ومن ناحية اخرى كا ناتساع الدولة الرومانية قد أصبح عبئا على ادارتها ، فلجأ الامبراطور **ديوكلتيان** (٢٧٤ ـ ٣٠٥م) الى تقسيم الامبراطورية الى قسمين ـ قسم شرقي وقسم غربي(٥) ، ثم تكرس هذا التقسيم نهائيا سنة ٣٩٥ م من قبل الامبراطور **تيودور الكبير** (٣٧٨ ـ ٣٩٥م) . وما يهمنا هنا ان خط التقسيم النهائي للدولة الرومانية بين الشرق والغرب ، الذي كان يمتد على طول البحر الادرياتي ثم على طول مجرى انهار درينا Drina وسافا Sava والدانوب ، سيصبح قدرا تاريخيا لانه سيكون هو نفسه الحد الفاصل بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية(٦) . وأكثر من هذا ان هذا التقسيم الديني للبلقان الى شرق وغرب سيكون لاحقا الاساس لتشكل شعوب جديدة .

بعد هذا المدخل يبدو من الاهمية بمكان أن نشير الى حدثين متداخلين ، من حيث الزمان والمكان ، كان لهما الاثر الكبير في تبلور « الدور الخاص » للدين في شبه جزيرة البلقان :

١ ـ تمايز وتطور الكنيسة الشرقية ـ الارثوذكسية .

٢ ـ قدوم السلاف وتوطنهم في البلقان .

وفيما يتعلق بتمايز الكنيسة الارثوذكسية وتطورها ، فقد أصبح من المعروف ان جذور الخلاف بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما تعود الى عدة قرون قبل تكرس « الانقسام الكبير » سنة ١٠٥٤ م بين الكنيستين(٧) . وتجدر الاشارة هنا الى ان الصراع حول شبه جزيرة البلقان المهمة للطرفين ، وبالتحديد تنافس الكنيستين حول استمالة حكام الدول الجديدة في المنطقة ، كبلغاريا ، خلال القرن التاسع ،كانت من الاسباب الرئيسة التي عمقت الخلاف بين الكنيستين وأوصلت الى « الانقسام الكبير » في القرن الحادي عشر(٨) . وما يهمنا هنا ان الكنيسة الارثوذكسية أخذت منذ البداية تتميز بارتباطها الوثيق بالدولة الى حد انه أصبح من الصعب تصور الكنيسة دون دولة والدولة دون كنيسة(٩) . والمهم هنا ان هذا النمط ، أو « المثل الاعلى البيزنطي » Byzantine ideal ، للعلاقة بين الكنيسة والدولة سيتحول الى مصدر إلهام للدول الجديدة التي تشكلت في البلقان بعد استقرار السلاف في المنطقة(١٠) .

أما فيما يتعلق بقدوم السلاف وتوطنهم ، فقد تم على شكل موجات قوية ومتلاحقة خلال القرنين السادس والسابع للميلاد ، اذ أخذت القبائل السلافية البربرية في عبور الدانوب والتغلغل نحو الجنوب باستمرار . وقد أخذ هذا التغلغل شكلا جارفا للسكان الاصليين بحيث طغى الطابع السلافي منذ ذلك الحين على شبه جزيرة البلقان. وهكذا باستثناء بعض الاليريين الذين احتموا بالمناطق المرتفعة والجبال التي تكثر في بلادهم ، وبعض اليونانيين في أقصى الجنوب الذين نجوا بفضل بعدهم عن مركز البلقان الذي استوطنه السلاف بكثافة ، لم يعد من السكان الاصليين الا بقايا مشتتة هنا وهناك(١١) .

بعد هذه الموجة السلافية الكبيرة التي غطت معظم البلقان عبرت الدانوب في بداية القرن السابع موجة طورانية (بلغارية) صغيرة بقيادة الخان اسباروخ واستقرت في شمال شرق البلقان ، حيث تحالفت مع السلاف الذين سبق واستوطنوا المنطقة ، وأرغمت الدولة البيزنطية سنة ٦٨١ م على الاعتراف بها كقوة جديدة : بلغاريا(١٢).

ان تشكل بلغاريا ، وبالتحديد تشكل الشعب البلغاري الجديد ، يعتبر أفضل نموذج لتوضيح « الدور الخاص » الذي سيتميز به الدين لاحقا في البلقان فقد كان هذا الكيان الجديد قد تشكل نتيجة تحالف بين أقلية طورانية (بلغارية) وأكثرية هندواوربية (سلافية) . وقد بقيت الاقلية البلغارية حوالي قرنين من الزمن تمثل الهيئة الحاكمة ، بينما كانت الاكثرية السلافية تمثل الرعية المحكومة. وكان التقارب والتداخل بين الطرفين محدودا طوال ما بقي كل طرف يحتفظ بديانته الوثنية ، وبالتحديد بآلهته التي تختلف عن آلهة الطرف الاخر . ولكن عندما اعتنق

الطرفان ديانة واحدة (المسيحية) زال الحاجز الذي كان يفصل بينهما ويمنع امتزاجهما(١٣) .

وتجدر الاشارة هنا الى ان بلغاريا كانت قد توسعت كثيرا بعد موت الخان اسباروخ ، وخاصة في عهد الخان كروم (٨٠٣ - ٨١٤م) وغيره ، حتى أصبحت في منتصف القرن التاسع الميلادي من أكبر وأقوى الدول في المنطقة . وبسبب هذا الموقع الذي احتلته بلغاريا في شبه جزيرة البلقان فقد أصبحت كل من الكنيستين الشرقية والغربية حريصة على نشر المسيحية فيها لاجتذابها الى طرفها . وكان على راس الدولة البلغارية حينئذ الامير بوريس (٨٥٢ - ٨٨٩م) ، الذي أراد الافادة من هذا التنافس بين الكنيستين لتعزيز سلطته . كان الامير بوريس واعيا لدور الكنيسة في تعزيز الدولة الا انه كان يدرك أيضا المخاطر السياسية للارتباط الديني ، سواء بالقسطنطينية أو بروما ، ولذلك كان يفضل حلا يحافظ به على استقلاله السياسي(١٤) . وهكذا بقي الامير بوريس عدة سنوات مترددا بين روما والقسطنطينية ، الى ان ارتبط أخيرا بالكنيسة الشرقية بعد أن ضمن محافظة الكنيسة البلغارية على تنظيمها الخاص(١٥) . وقد عزز الامير بوريس سياسته الاستقلالية بقرار مهم يقضي باعتبار اللغة السلافية اللغة الرسمية للكنيسة والدولة على حد سواء ، مما جعل بلغاريا تتحول الى مركز للثقافة السلافية في المنطقة خلال عدة قرون(١٦) .

هكذا ولدت الكنيسة البلغارية من فوق ، من الدولة ، لتعزيز مكانة الدولة ، وأصبحت المسيحية ((الارثوذكسية) ديانة رسمية (وحيدة) للدولة البلغارية . ومع هذا التوحد ، الذي كان يستلهم « المثل الاعلى البيزنطي » كما بينا ، برزت أركان المثلث الجديد (دولة واحدة - كنيسة واحدة - لغة واحدة) . وكان لهذا المثلث مغزى كبير اذ تحول الى اطار لتشكل شعب جديد . فمع وجود ديانة واحدة ولغة واحدة أصبح في الامكان اندماج الطرفين الاساسيين في بلغاريا ، أي البلغار الطورانيين والسلاف الهندواوربيين ، ليتكون بهذا الشكل شعب جديد(١٧) . الا أن هذا الكيان الجديد لم يقتصر على اندماج هذين العنصرين بل كان يشمل أيضا اندماج بعض العناصر المجاورة من السلاف وغير السلاف ، من الصربيين والالبانيين ، التي لم تكن لها كنيسة خاصة بها . فمع وجود المثلث الجديد (الدولة الواحدة - الكنيسة الواحدة - اللغة الواحدة) أصبح تعبير « بلغاري » يضم كل من ينضوي ضمن هذا المثلث(١٨) .

ان هذه « التجربة » البلغارية الرائدة ستتكرر لاحقا مع دولة جديدة مجاورة هي صربيا . وكان الصربيون ، وهم من الاقوام السلافية ، قد استفادوا من انتصار بيزنطة على الدولة البلغارية وانشأوا امارة صغيرة تحت زعامة ستيفان نيمانيا

(ت ١١٩٦م) ، مؤسس سلالة نيمانيتش التي حكمت صربيا نحو قرنين . وقد تحولت هذه الامارة الى دولة / مملكة في عهد ابنه ستيفان الثاني (١٩٦ ١ـ ١٢٢٧م)، واكتسبت كنيستها الخاصة برعاية الابن الاخر سافا Sava . وكما كان الامر مع الامير بوريس فقد تقرب الامير ستيفان أولا من البابا حتى انه تتوج باسمه سنة١٢١٧ واصبح بذلك أول ملك متوج في صربيا ، الا انه تحول بعد ذلك باتجاه بطريرك القسطنطينية . وفي الواقع بقيت سلالة نيمانيتش مترددة بين روما والقسطنطينية حوالي قرن (١٢١٧ ـ ١٣٠٨م) ، الى ان انحازت أخيرا الى الكنيسة الشرقية وأخذت في اضطهاد الكاثوليك لديها(١٩) ، وهكذا ، وبوجود كنيسة صربية ، مرتبطة بالدولة على « النمط البيزنطي » ، لم يعد هناك ذوبان للصرب في البوتقة البلغارية بل تشكلت لدينا الان بوتقة صربية موازية . وبعبارة أخرى فقد أصبح تعبير « صربي » يعني الشخص القاطن داخل حدود الدولة الصربية والتابع للكنيسة الصربية بغض النظر عن أصله . وهكذا ، وبفضل المثلث الجديد ايضا (الدولة الواحدة ـ الكنيسةالواحدة ـ اللغة الواحدة) اخذ يتكون الشعب الصربي بروح ارثوذكسية متميزة(٢٠) .

ان هذا الدور الجديد للدين يتضح أكثر مع نموذج الدولة الاخرى التي برزت الى جوار صربيا ، هي كرواتيا . وتجدر الاشارة هنا الى أن الكروات هم أقرب السلاف الى الصرب ، ولغتهما تكاد تكون واحدة ولذلك يطلق عليها « اللغة الصربوكرواتية » أو « اللغة الكرواتوصربية » . الا أن كرواتيا كانت تقع على الحدود الفاصلة التي أشرنا اليها بين مناطق الكنيسة الشرقية ومناطق الكنيسة الغربية ، ولذلك فقد كان الطبيعي أن يكون لكل كنيسة تأثيرها ، وأن تسعى كل من الكنيستين الى ضم كرواتيا . اليها . وكانت كرواتيا قد سبقت صربيا في بروزها كدولة ، وكان الامير توميسلاف (٩١٠ ـ ٩٢٨م) أول من حمل لقب ملك . الا أن موقع كرواتيا، كما سبق ، ادى مع الزمن الى بروز اتجاهين بين رجال الدين : اتجاه يفضل الارتباط مع روما والكنيسة الغربية ، مع ما يعني ذلك من اعتماد اللاتينية في طقوس الكنيسة، واتجاه ثان يريد الارتباط مع القسطنطينية والكنيسة الشرقية ، مع ما يميز ذلك من استخدام السلافية في الطقوس الكنسية . وقد استمر هذا التردد بين الشرق والغرب نحو قرن من الزمن أيضا الى ان قرر الملك زفونومير (١٠٧٥ ـ ١٠٨٩م) الارتباط مع روما والكنيسة الغربية(٢١) .

لقد كان لهذا القرار نتائج بعيدة المدى على المنطقة . فنظرا للتجاور والتداخل في بعض المناطق ، بالاضافة الى التقارب السلالي في الاصل ، أصبح الفرز الان يتم بسرعة بين الطرفين والدولتين على أساس الدين . فقد أصبح تعبير « كرواتي » يعني في الدرجة الاولى الانتماء الى الكنيسة الكاثوليكية (الكرواتية) ، وتعبير « صربي »

يعني أولا الانتماء الى الكنيسة الصربية (الارثوذكسية).وهكذا تحولت كل كنيسة الى بوتقة ليتشكل في كل واحدة الشعب الكرواتي أو الشعب الصربي بالاستناد الى الدين(٢٢) . وقد تعمق هذا الفرز بين الشعبين ، المنقسمين الى كنيستين مختلفتين ، بعد ان اخذ الكرواتيون بالحروف اللاتينية لكتابة لغتهم وبقي الصربيون يكتبون لغتهم بالحروف السلافية أو الكيريلية ، وبعد أن ارتبط الكرواتيون منذ ذلك الحين بالعالم الكاثوليكي الغربي بينما بقي الصربيون جزءا من العالم الشرقي الارثوذكسي (٢٣) .

ويبدو اخيرا هذا الدور الجديد للدين بشكل أوضح اذا أخذنا نموذجين اخرين مختلفين : البوسنة والبانيا .

تقع البوسنة بين صربيا وكرواتيا(٢٤) ، وهكذا فهي تمتد في المناطق التي يتقاطع فيها تأثير الكنيسة الشرقية وتأثير الكنيسة الغربية . وقد أدى هذا الموقع الى وضع فريد حيث نشأت هناك كنيسة ثالثة أو « كنيسة بوسنوية » لا ترتبط بالكنيسة الشرقية ولا بالكنيسة الغربية(٢٥) ، كما برزت هناك دولة مستقلة تتوج فيها الامير ستيفان ترفتكو (١٣٥٣ ــ ١٣٩١) بلقب « ملك الصربيين والبوسنة والكرواتيين »(٢٦). ونظرا الى اهمية البوسنة في نظر الكنيستين فقد أعتبرت « الكنيسة البوسنوية » « هرطقية » أو « متمردة » ، وتحولت الى هدف متواصل للكنيسة الكاثولكية . وهكذا فقد تولت هنغاريا ، بتحريض متواصل من البابا ، دور اعادة البوسنة الى الحظيرة الكاثوليكية . وقد نجح الملك الهنغاري جيغموند في ارغام ملك البوسنةستيبان دابيشا على الاعتراف بسلطته سنة ١٣٩٣ ، كما قام خلال ١٤٠٨ ــ ١٤١٠ م بقيادة عدة حملات لاخضاع الامراء المتمردين . الا ان تدخل هنغاريا بهذا الشكل لاخضاع البوسنة دفع بعض الامراء الى الاستعانة بالاتراك العثمانيين ، مما جعل البوسنة تسقط في يدهم اخيرا(٢٧) . وبعبارة أخرى لم تنجح البوغوميلية أو «الكنيسة البوسنوية » بتوطيد نفسها ككنيسة مستقلة ووحيدة ، على نمط ما حصل في كرواتيا وصربيا ، اذ بقيت في المنطقة « جيوب » صربية ارثوذكسية وكرواتية كاثوليكية من ناحية كما أن الضغوط الخارجية من ناحية اخرى أثرت كثيرا في خلق حالة من عدم الاستقرار في البوسنة الى أن سقطت بيد العثمانيين سنة ١٤٦٣م .

أما فيما يتعلق بألبانيا فالوضع كان يختلف تماما . فقد كان خط التقسيم بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية يمس البانيا الشمالية مما جعل تلك المنطقة تقع تحت تأثير الكنيسة الغربية ، في حين بقيت البانيا الوسطى والجنوبية تحت تأثير الكنيسة الشرقية . ومن ناحية أخرى فقد برزت في ألبانيا الوسطى في نهاية القرن الثاني عشر (١١٩٠م) امارة محلية على نمط ما حدث في بلغاريا وصربيا وكرواتيا ،

الا أنها لم تتطور كغيرها الى مملكة مستقلة(٢٨) وبعد هذا التعثر برز عدة حكام محليين من العائلات القوية (توبيا ، دوكاجين وغيرها) في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . الا أن هؤلاء بقوا يتنافسون فيما بينهم ويختلفون في تحالفهم مع الدول المجاورة الى أن خضعوا أخيرا للاتراك العثمانيين في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر. وهكذا ، ونظرا لعدم تشكل دولة البانية واحدة وكنيسة البانية واحدة على نمط ما حصل في بلغاريا وصربيا مثلا، بقي الالبان الارثوذكس يرتبطون بالكنائس الارثوذكسية المجاورة ، التابعة للدول المستقلة . فهم « روم » (يونان) في بعض المناطق التي كانوا يتبعون فيها الكنيسة البيزنطية ، وهم « بلغار » في المناطق التي يتبعون فيها الكنيسة البلغارية ، و « صرب » في بقية المناطق التي كانوا يتبعون فيها الكنيسة الصربية . وهكذا ، ونتيجة لعدم وجود كنيسة خاصة بهم تعتمد على لغتهم ، كان الالبانيون مضطرين ان يؤدوا الطقوس الدينية في لغات اخرى وان يتعلموا في لغات أخرى ، نتيجة للعلاقة الوثيقة بين الدين والتعليم ، وان يطلقوا على أولادهم أسماء اخرى حسب الكنائس التي يتبعونها (أسماء صربية ، بلغارية ، يونانية) ، وأن يخضعوا أخيرا للدولة التي تمثلها الكنيسة . وبعبارة اخرى كان الالبانيون في هذه الحالة يذوبون بالتدريج في الشعوب المجاورة ، ولم ينقذهم من خطر الذوبان الا الدين الجديد ـ الاسلام(٢٩) .

بالاستناد الى ما تقدم يمكن القول انه خلال أربعة قرون ، وبالتحديد منذ انتشار المسيحية وسط السلاف في البلقان في منتصف القرن التاسع ، وحتى وصول الاسلام الى البلقان مع العثمانيين في منتصف القرن الرابع عشر ، تبلور في المنطقة دور خاص للدين (المسيحية) تمثل في تسريع الانتقال من مرحلة الاقوام الى مرحلة الشعوب، وبالتحديد في تشكل شعوب جديدة كالشعب البلغاري والشعب الكرواتي والشعب الصربي

ومع انتقال الاتراك العثمانيين الى البلقان منذ منتصف القرن الرابع عشر تشكلت بسرعة دولة جديدة من نوع خاص ، تتوسع باسم الاسلام ولكنها لا تصر على الاسلام كدين وحيد للدولة(٣٠) . وفي الواقع لقد كان الخلاف والتنافس بين الحكام المحليين احد العوامل المساعدة على توسع الدولة العثمانية في ذلك الجزء من اوربا ، اذ ان القوات العثمانية كانت تستدعى أحيانا من قبل احد هؤلاء الحكام المحليين للتغلب على أحد منافسيه ، كما ان هذه القوات كانت تتقدم احيانا في اراضي أحد هؤلاء الحكام وسط تجاهل من منافسيه المجاورين(٣١) . ومن ناحية أخرى كانت الدولة العثمانية تفضل في البداية ان تترك الحكام المحليين على رأس اماراتهم ، بعد الاقرار بخضوعهم للسلطان ، ولكنها كانت ، في وقت لاحق ومناسب ، تقوم بتطبيق الحكم العثماني المباشر . وفي الواقع كان تطبيق الحكم المباشر يعني تطبيق نظام التيمار،

ولكن هذا النظام نفسه كان يسمح في البداية باستمرار النبلاء المحليين في مراكزهم دون اعتناق الاسلام كشرط مسبق ، الا ان الامر يستخلف لاحقا مع توطد الوجود العثماني في اوربا(٣٢) .

وفي هذا الاطار تجدر الاشارة الى أن الدولة العثمانية بادرت في بداية الامر الى خلق وجود اسلامي كبير ، موال لها بطبيعة الحال ، في شرق ووسط البلقان ، وذلك بتشجيع الاتراك على الانتقال والتوطن هناك(٣٣) ، في حين فضلت خلق وجود اسلامي محلي في غرب البلقان (البانيا والبوسنة) عن طريق تشجيع السكان المحليين على اعتناق الاسلام . وفي هذا الاتجاه قامت مؤسسة الدفشرمة العثمانية الجديدة بدور مهم في خلق الاجيال الاولى من المسلمين المحليين التي ستقوم بدورها في هذه المهمة ، ونشر الاسلام في موطنها الاصلي(٣٤) . وقد ترافق مع هذا اعتناق عدد متزايد من النبلاء المحليين للاسلام ، بعد ان ادركوا ان الاسلام يفتح لهم باب المساواة مع النخبة الحاكمة ويتيح لهم الصعود حتى أعلى المراكز ، بينما فضل عدد أخر الهجرة الى ايطاليا لمتابعة المقاومة من هناك(٣٥) .

ان هذا التحول للاسلام من القمة ، للاعتبارات السياسية في الدرجة الاولى، كان له اثره المهم على انطلاق التحول للاسلام من القاعدة ايضا . الا انه لابد ان نأخذ بعين الاعتبار ايضا الوضع او التأزم الاجتماعي في بعض الجهات . ففي البوسنة على سبيل المثال ، التي تميزت بوجود كثيف للاقنان ، كان اعتناق الاسلام يعني فيما يعني التحرر من القنانة(٣٦) . ومن ناحية أخرى تجدر الاشارة أيضا الى تأثير الارتفاع المتواصل في الجزية المفروضة على السكان المسيحيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أي في الوقت الذي زاد فيه انتشار الاسلام بشكل واضح في بعض الجهات كألبانيا(٣٧) .

وهكذا ، وبعد نحو ثلاثة قرون (ق ١٥ ــ ١٧) ، وحين استقر الوضع الديني الى حد ما في المنطقة ، نجد ان الاسلام بقي يقتصر على الاقلية في بعض الجهات، في حين اصبح يمثل الاغلبية في بعض الجهات الاخرى . فقد انتشر الاسلام بشكل محدود في اليونان وبلغاريا وصربيا وكرواتيا ، بينما انتشر بشكل واسع في البانيا والبوسنة .

وبالاستناد الى هذا يبدو من النظرة الاولى أن انتشار الاسلام كان محدودا بين الشعوب التي كانت تتمتع بكنائس قوية ، أو كما يقال الان « كنائس قومية » ، حيث كانت كل كنيسة تمثل دولة ولغة وثقافة معينة . وفي المقابل نجد الاسلام ينتشر بشكل واسع في البانيا والبوسنة الى الحد الذي شمل غالبية السكان . وهنا نرى ايضا ، بالاضافة الى الاسباب السابقة ، ان انتشار الاسلام بهذا الشكل في هاتين الجهتين

يؤكد ما أشرنا اليه سابقا ولكنه يرتبط هنا بحالة معاكسة ، أي عدم وجود كنيسة قوية ومستقرة على نمط ما كان في بلغاريا وصربيا وكرواتيا المجاورة . فقد رأينا سابقا كيف أن الظروف لم تسمح بتشكل دولة البانية واحدة وكنيسة البانية واحدة وهذا ما ترك الالبانيين يتعرضون للذوبان في الشعوب المجاورة . أما في البوسنة فقد تشكل دولة وكنيسة أيضا ، الا أن هذه الكنيسة « الهرطقية » لم تنل الاعتراف ولم تنعم بالاستقرار نتيجة للتهديد المتواصل من الخارج من هنغاريا الكثوليكية بتحريض من روما .

ومع هذا الانتشار الاستثنائي للاسلام في هاتين الناحيتين من البلقان يمكن أن يدور في الذهن السؤال التالي: ما تأثير انتشار الاسلام في البانيا والبوسنة، وبالتحديد بالنسبة لاولئك الذين اعتنقوه وأصبحوا الاغلبية هناك .

يميل الباحثون في الجواب على هذا السؤال الى التسليم بدور « خاص » أو « قومي » للاسلام أيضا في هذه المنطقة اذ انه ساهم في الواقع في تشكيل شعبين جديدين : الشعب الالباني والشعب المسلماني . ولا شك هنا انه مما ساعد الاسلام على القيام بهذا الدور طبيعة هذا الدين نفسه . فالاسلام ليس مجرد عقائد وشعائر بل هو أيضا نمط حياة يميز بسرعة الجماعة المؤمنة به في الطعام واللباس والعادات والتقاليد .. الخ(٣٨) .

فيما يتعلق بالالبانيين رأينا ان عدم وجود كنيسة خاصة بهم كان يعرضهم الى خطر الذوبان في الشعوب المجاورة . وقد أدى هذا الوضع خلال عدة قرون (ق ٩-١٤) الى ذوبان قسم منهم في الشعوب المجاورة ، حتى ان بعض الباحثين المعنيين يذهبون الى حد التسليم بان الالبانيين كان يمكن ان يذوبوا تماما بين الشعوب المحيطة بهم لولا اعتناقهم للاسلام(٣٩) . الا انه مع انتشار الاسلام في وسط الالبانيين منذ نهاية القرن ١٤ وبداية القرن ١٥ وجد حاجز قوى بين الالبانيين الذين اعتنقوا الاسلام وبين الشعوب المجاورة الذي بقي معظمها يدين بالمسيحية كالشعب البلغاري، والشعب الصربي والشعب اليوناني ، ولم يعد الالبانيون يتزاوجون كما في السابق مع الشعوب المجاورة بمباركة الكنيسة ، ولا يطلقون على أولادهم اسماء بلغارية أو صربية يختارها لهم الاسقف ، ولا يتعلمون اللغات الصربية أو البلغارية أو اليونانية من أجل الذهاب الى الكنيسة والقيام بالشعائر الدينية وقد خلق هذا الوضع فرصة تاريخية للالبانيين للتماسك من جديد بعد أن كانوا مهددين بالذوبان . ولم يعد الامر يقتصر على النجاة من الذوبان في الشعوب المجاورة بل أصبح الالبانيون بعد هذا التماسك قادرين على امتصاص بعض العناصر المجاورة لهم كالسلاف وحتى الاتراك(٤٠) .

وبفضل هذا التحول الجديد برز الالبانيون في المنطقة كشعب وباسم جديد يعبر عن هذا الانعطاف التاريخي . فقد كان الالبانيون حتى ذلك الحين يعرفون بأكثر من اسم ، حسب المناطق والاقاليم التي يعيشون فيها ، مثل آربر ، وكلمند ، وابيروت epirotë , kelmendë , arbër الخ . أما بعد هذا التحول فقد أخذ الالبانيون يشتهرون منذ نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر باسم واحد هو shqiptarë يدل على لغتهم أو على رابطتهم اللغوية shqip shqiptarë (٤١) وهنا تجدر الاشارة الى ان اسم الشعب يعبر عن مرحلة معينة من تطور الشعوب ، اذ انه تعبير عن ان افراد الشعب (الاثنوس) شعروا بانهم رابطة وشعب من الشعوب(٤٢) .

وعلى الرغم من هذا الدور الايجابي أو الانقاذي للاسلام فيما يتعلق بالالبانيين نجد أن الاعتراف بهذا الدور تأخر كثيرا نتيجة للظروف الخاصة التي أحاطت بتطور الشعب الالباني . ففي مطلع هذا القرن (١٩١٨) توزع الالبانيون بالتساوي تقريبا بين الدولتين الجديدتين المتجاورتين ـ ألبانيا ويوغسلافيا . وقد بدأ الاهتمام بهذا الموضوع في ألبانيا أولا ، التي أصبحت الان دولة قومية للالبانيين ، حيث أخذت تبرز اشارات رائدة منذ الثلاثينيات(٤٣) . وفي خلال الاربعينيات نشر في تيرانا كتابان جديدان يعرضان بشكل مباشر لهذا الموضوع ويقران بشكل صريح بالدور الايجابي أو الانقاذي للاسلام(٤٤) . اما بعد الحرب العالمية الثانية فقد برزت لدينا مفارقة مثيرة تتعلق بالموقف من هذا الموضوع . فقد برز بعد الحرب نظامان شيوعيان في ألبانيا ويوغسلافيا ، ولكن مع فارق مهم يتعلق بالدين ، فقد كان موقف النظام الشيوعي في يوغسلافيا منفتحا على الدين(٤٥) ، ولذلك وجد من يتابع الاهتمام بهذا الموضوع . ففي مطلع السبعينات صدرت دراسة رائدة للمؤرخ حسن كلشي(٤٦) ، وتعرض لهذا الموضوع بفصل خاص المؤرخ د. اسكندر رضا في كتاب له صدر في مطلع الثمانينات(٤٧) ، كما تناوله أخيرا في دراسة جديدة المؤرخ د. محمد براكو في مطلع التسعينات(٤٨) . اما في ألبانيا فقد بقي موقف النظام من الدين متشددا ، حتى أنه لجأ في سنة ١٩٦٧ الى الغاء اعترافه تماما بالدين والمؤسسات الدينة(٤٩) . وحاول هذا النظام باستمرار تحجيم دور الدين وحتى تشويه دور الدين ، أي دين ، في تاريخ الشعب الالباني . وفيما يتعلق بالاسلام نجد الصورة قاتمة ، وأحادية ، وغير موضوعية ، تشكك بدوافع اعتناق الاسلام وتشوه نتائج اعتناق الالبانيين للاسلام(٥٠) . وعلى الرغم من هذا لدينا استثناء في كتاب المؤرخ الالباني المعروف ضيا شكودرا « المدينة الالبانية » الذي صدر في تيرانا خلال ١٩٨٤(٥١) .

أما فيما يتعلق بالبوسنة فالوضع يختلف الى حد ما . فالبوسنة ، كما رأينا ، منطقة تقع بين كرواتيا وصربيا . وهي بهذا منطقة تداخل وتقاطع بين الصربيين والكرواتيين . وقد شهدت هذه المنطقة محاولة لتأسيس كنيسة خاصة ، غير ارثوذكسية كما في صربيا وغير كاثوليكية كما في كرواتيا ، الا أن هذه المحاولة لم تأخذ فرصتها للنجاح نتيجة للضغوط المتواصلة من الخارج وخاصة من هنغارياالكاثوليكية. ومع انتشار الاسلام في هذه المنطقة ، نتيجة لاقبال انصار هذه الكنيسة البوغوميلية على اعتناقه(٥٢)، كان من الطبيعي ان يتميز المسلمون عن غيرهم في المناطق المجاورة بتقاليدهم وعاداتهم الجديدة النابعة أو المتأثرة بالدين الجديد(٥٣) . وهكذا نشأ مع الزمن شعب جديد في البوسنة الى جانب الشعبين الاخرين ، الشعب الصربيوالشعب الكرواتي . وقد شاهدنا سابقا تأثير الدين في تعميق الفرز بين الكرواتيين والصربيين على أساس ديني ، وبالتحديد دور الدين في تكوين الشعب الكرواتي والشعب الصربي، أما الان فلدينا نموذج مماثل لدور الاسلام في تشكيل شعب جديد . فقد برز واقع جديد يتمثل في تكون ثلاثة شعوب متجاورة ، بالاستناد الى الدين ، تتكلم لغة واحدة ـ اللغة الصربوكرواتية(٥٤) . الا أن المشكلة بقيت في تسمية هذا المزيج الكرواتي ـ الصربي الجديد (٥٥) ، أو الشعب الجديد الذي تشكل بالتدريج نتيجة لاعتناقالاسلام. فقد شمل انتشار الاسلام في البداية غالبية السكان ، ولذلك فقد كان تعبير «بوسنوي» يترادف تقريبا مع تعبير « مسلم » ، كما ان المسلمين أنفسهم باتوا يسمون أنفسهم « بوسنويين » . الا أن عدد المسلمين هناك أخذ ينخفض منذ القرن الثامن عشر نتيجة للحروب والمجاعات والهجرات حتى أصبح مساويا لعدد المسيحيين(٥٦) . وفي هذه الحالة لم يعد تعبير « بوسنوي » ينطبق فقط على ذلك القسم من السكان الذي اعتنق الاسلام ، بل يشمل ايضا القسم الاخر الذي لم يعتنق هذا الدين . وهكذا فقد بقي أولئك الذين اعتنقوا الاسلاميعتبرون انفسهم « بوسنويين » و « مسلمين »، ثم شاع هذا التعبير الاخر « المسلمون » Muslimani فيما بعد وتحول الى اسم خاص بهذا الشعب الجديد ، أي « الشعب المسلماني » Muslimanski narod ، الذي انتزع اخيرا الاعتراف به على قدم المساواة مع الشعوب الاخرى في يوغسلافيا(٥٧). وفي حدود ما نعرف فان هذا الشعب قد يكون الوحيد في العالم الذي يوحي اسمه بمصدر تكوينه ـ الاسلام .

وبالاستناد الى كل ما تقدم يمكن القول ان الاسلام انتشر في منطقة تميزت بدور خاص للدين في تشكل الشعوب ، وبالتحديد في الانتقال التاريخي من مرحلة الاقوام الى مرحلة الشعوب . وربما يكون قد أصبح من الواضح ان انتشار الاسلام في منطقة كهذه حمل الاسلام دورا جديدا اذ انه أنقذ شعبا من حالة الذوبان (الشعب الالباني) ولعب دورا حاسما في تكوين شعب جديد (الشعب المسلماني) . وهكذا مع

نهاية هذه المرحلة الاولى (أواخر القرن السابع عشر على وجه التقريب) كانت قد تبلورت في المنطقة عدة شعوب ، نواة لامم جديدة أو ل « أمم في طور التكون »، وستبرز في المرحلة الثانية (ابتداء من القرن الثامن عشر) حركات قومية في هذه الشعوب تطالب بدول قومية جديدة . وفي هذه المرحلة الثانية أيضا ستبقى العلاقة وثيقة بين الدين والقومية ، ولذلك سيكون من المفيد حقا أن نتابع التعرف على العلاقة بين الدين وبين الحركات القومية الجديدة في البلقان في بحث اخر .

الحواشي :

(١) R. F. Hoddnott, Bulgaria in antiquity , New York , St . Martin's Press, 1975, pp. 24-32.

ولمزيد من التفاصيل حول التراقيين انظر:

R. F. Hoddnott, The Thracions, London, Thames and Hudson, 1981 .

(٢) كان المكدونيون كما نرى يقيمون بين الاليريين واليونانيين القدماء . وهناك من المؤرخين من يراهم على صلة سلالية (اثنية) بالاليريين :

Barbara Jelavich , **History of the Balkans,** Cambridge University Press 1987, p. 6.

ولكن هناك من المؤرخين أيضا من يرى ان المكدونيين كانوا على صلة باليونانيين القدماء، وكانوا يتكلمون « لهجة قريبة من لغة هؤلاء». انظر مثلا :

N. Hammond - G. Griffith, A History of Macedonia, vol. II, Oxford 1979, pp. 3-54.

وانظر في العربية :

د. أسد رستم ، تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني ، بيروت ، منشورات الجامعة اللبنانية – قسم الدراسات التاريخية ١٥ ، ١٩٦٩ ، ص٥ .

(٣) كان العالم ثونمان Thunmann خلال القرن ١٨ أول من أطلق هذا الرأي القائل باستمرارية الالبانيين في مناطقهم الحالية ، وبالتحديد بانحدارهم من الاليريين . وقد أيد هذا الرأي لاحقا عدد كبير من العلماء ك ميير Meyer وبدرسن Pedersen ويوكل Jokl وغيرهم . وفي نهاية القرن ١٩ ظهر رأي آخر يقول بانتقال الالبانيين من قلب البلقان الى المناطق الحالية التي يسكنونها وذلك بالاستناد الى نوع من التقارب بين الالبانية الحالية والتراقية القديمة . وقد بقي هذا الرأيان يتنافسان في يوغسلافيا، حيث يعيش اليوم نصف الالبانيين تقريبا ، لاسباب غير علمية الى حسمت الطبعة الجديدة من « موسوعة يوغسلافيا » الامر بالقول ان « الابحاث اللغوية والاتنولوجية والاركيولوجية وغيرها أصبحت تقود نحو الاصل الاليري للغة الالبانية » :

Enciklopedija Jugoslavije , II izdanje, vol. 1, Zagreb 1981,s.

(٤) ورد في الكتاب المقدس في « رسالة بولس الرسول الى أهل رومية » (اصحاح ١٥ ، ١٩) قوله :«حتى اني من أورشليم وما حولها الى الليريكون قد أكملت التبشير بانجيل

المسيح » . ويختلف الباحثون هنا حول دلالة « الى الليريكون » (اليريا) وهل كان يعني حتى حدود اليريا أو حتى اليريا في الداخل : انظر :

J. Zeiller, Les Origines chretiennes dans les provinces Danubiennes de l'Empire Romain , Paris 1918, p. 27.

Gjini Gasper, Skopskoprizrenska biskupijia kroz stoljeca , Zagreb 1986, s. 21.

(٥) صدر مرسوم التقسيم في سنة ٢٨٦ وقد نص على وجود امبراطور بلقب اغسطس في كل قسم ، وفي سنة ٢٩٣ م أدخل ديوكليتيان تعديلا بحيث يصبح لكل اغسطس قيصرا يتولى ادارة بعض المناطق . وهكذا فقد تولى غاليروس ، كأول قيصر في هذا النظام ، ادارة ايليريا ومكدونيا واليونان وجزيرة كريت :

د. نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، دمشق ١٩٨٥ ص ٤٣ .

(٦) Jelavich, Op. eit., p 10.

(٧) حول ملابسات هذا الانقسام انظر الفصل السادس « العلاقات الكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني » من كتاب : د. عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني حتى اواخر القرن الثاني عشر ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٠ .

(٨) فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ٤٠٩ — ٤١٢.

Jelavich, Op. cit., p. 12; Donald M. Nicol, Church and Society in the East Centuries of Byzantium, Cambridge 1979, pp. 25 .

وفي العربية لدينا فصل مهم بعنوان« الكنيسة والدولة » لدى : د. زبيدة عطا ، الدولة البيزنطية من قسطنطين الى انستاسيوس ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٧ ، ص ٦٢ — ٧٢ .

(١٠) Steven Runciman , Byzantine civilisation , London , Edward Arnold, 1975, p. 128.

(١١) حول قدوم السلاف لدينا أقدم المصادر في كتابات المؤرخين اليونانيين القدماء ، بما في ذلك ما كتبه الامبراطور قسطنطين بورفيروغنت :

Vizantiski izvori za istorije naroda Jugoslavije I-II, Beograd 1955 - 1959 .

ومن الدراسات الحديثة :

S. Stanojevic, Vizanitje i Srbi I' Balkansk poluostrvo do VII veka' Novi Sad 1903; Istorija naroda Jugoslavije I,Beograd 1953, s. 63-104.

وانظر في العربية ترجمة كتاب الامبراطور قسطنطين الذي يتضمن معطيات كثيرة عن السلاف :

ادارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس ، عرض وتحليل وتعليق د. محمود سعيد عمران ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠وانظر الفصل القيم المتعلق بالسلاف في كتاب :

د. وسام عبد العزيز فرج ، دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى ، القاهرة ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥ ، ص ٧٣—١٣٣ .

(١٢) حول تشكل وتطور بلغاريا انظر في العربية : بروفسور نيكولاي تودوروف ، موجز تاريخ بلغاريا ، ترجمة د. احمد سليمان الاحمد، دمشق ، دار الثقافة ، ١٩٨١ ، حسن سعيد

اللمع ، لمحات من تاريخ بلغاريا ، دمشق ، دار الثقافة ، ١٩٨١ .

وتجدر الاشارة الى ان هذين الكتابين ، مع كتب اخرى ، قد صدرا بمناسبة الذكرى ال ١٣٠٠ لتأسيس بلغاريا .

(١٣) Jelavich, p. 15.

وانظر ايضا : تودوروف ، ص ١٩ و د. وسام ص ١١٥.

(١٤) للتوسع حول ذلك انظر : نعيم ، ص ٤٠٩ و د. وسام ، ص ١١١–١١٢ وزيتون ، ص ٣٣١ – ٣٣٢ .

(١٥) Jelavich, p. 16 .

(١٦) انظر على سبيل المثال كتاب اللمع ، ص ٧٩ – ٩٤ .

(١٧) Jelavich, p. 16 .

وانظر ايضا : د. وسام ، ص ١١٥ واللمع، ص ٧٥–٧٦ ، وتودوروف ، ص ٢٩.

(١٨) « بالنسبة لمؤرخي وكتاب بداية العصور الوسطى كانت القومية تحدد بواسطة عاملين: الهيئة السياسية والهيئة الدينية ، أي أن الفروق اللغوية والاتنوغرافية والتاريخية والانثربولوجية لم تكن مهمة .. وهكذا نجد السلاف وغير السلاف الذين كانوا رعايا الامبراطورية البلغارية وتابعين لبطريركية اوهريد Ohrid كانوا يسمون « بلغاريين» « Bulgarus :

Kristo Frashëri, Trojet e shqiptarëve në shek. XV, Konferenca e Dytë e Studimeve Albanologjike, Tiranë 1965,f. 110 .

وتجدر الاشارة الى ان هذا التوسعالبلغاري في الاراضي الالبانية خلف اثارا عميقة الى الان وخاصة في مجال اسماء الانهار والاماكن وغير ذلك :

Mahir Domi, Cështje të iopo-nomisë me burim të huaj , Shqiptarët dhe trajet e tyre, Tiranë 1982, f. 300-301 .

(١٩) Jelavich, p, 19.

(٢٠) يبدو هذا الارتباط الوثيق بين القومية الصربية (الصربوية (srpstvo والارثوذكسية في القول الشائع « لا يوجد صربوية دون ثلاثة أصابع » (اشارة الصليب عند الارثوذكس) :

« Nema srpstva bez tri prsta ».

للتوسع حول هذا انظر :

Dr. Branislav Djurdjev, **Uloga crkve u staroijoj** istoriji srpskog oaroda.

(٢١) Jelavich, p. 24.

وانظر في العربية : د. وسام، ص١١٩–١٢٠.

(٢٢) وهكذا بالاضافة الى ما تقدم « لا يوجد صربوية دون ثلاثة أصابع » برز مع الزمن أيضا القول الشائع « الكاثوليكي الصالح فقط يمكن أن يكون كرواتيا » :

«Samo dobar katolik moze biti dobar Hrvat ».

حول تأثير ودور الدين في هذا المجال انظر:

Todor Kurtovic , **Crkva i religija u socialitickom** samoupravnom drustvu, Beograd 1978, s. 158-170.

(٢٣) Jelavich, p. 24.

(٢٤) كانت البوسنة في السابق تشمل منطقة محدودة حول أعالي مجرى نهر بوسنة

Bosna ، ثم توسع مفهوم « البوسنة » لاحقا خلال القرنين الحادي عشر والثالث عشر للبلاد باتجاه الشرق والغرب بعد أن ضمت اليها مناطق كانت تتبع صربيا (راشكا) وكرواتيا :

Enciklopedija Jugoslavije, II izdanje, vol. 2, Zagreb 1982, s. 226 .

(٢٥) ظهرت في الدولة البيزنطية عدة حركات دينية ، أو « هرطقات » بالتعبير الرسمي ، تتسم بطابع احتجاجي على الفوارق الطبقية الجديدة . ومن أهم هذه الحركات كانت البولسية Palicianism التي برزت بتأثر واضح من المانوية في مطلع القرن التاسع في أعالي الفرات . وقد نجحت هذه الحركة في كسب تأييد السكان وتأسيس « جمهورية » خاصة هناك . وقد حاولت الدولة البيزنطية القضاء على هذه «الجمهورية» دون جدوى ، وسعى الامبراطور باسيل الى ارسال عدة جيوش خلال ٨٦٨- ٨٧٠ م الى ان تمكن اخيرا من تحطيم هذه الجمهورية . الا أن الامبراطور باسيل لم يكتف بذلك بل عمد الى نقل اتباع هذه الطريقة الى تراقيا ومكدونيا وتوزيعهم على طول الحدود مع بلغاريا . وبتأثير من هؤلاء انبعثت هناك حركة دينية مشابهة باسم « البوغوميلية »، نسبة الى الكاهن بوغوميل حيث انتشرت في مكدونيا وصربيا والبوسنة وامتدت حتى أيطاليا وجنوب فرنسا :

Runicman, **Byzantine civilisation,** p. 118 .

وللتوسع حول البوغوميلية انظر :

Dragan Tashkovski , **Bogomilism in Macedonia,** Skopje 1975

وقد انتشرت البوغوميلية بشكل خاص في البوسنة حتى اصبحت هناك الديانة الرسمية للدولة . وقد امنت البوغوميلية أيضا بثنائية العالم ، بوجود الخير والشر وبوجود الهين واحد خالق للعالم الروحي واخر خالق للعالم المادي ، ويقال للاول « اله النور » وللثاني « اله الظلام » . وبالمقارنة مع الكنائس الاخرى لم تكن « الكنيسة البوسنوية » تجمع العشور من الشعب كما لم تكون لنفسها املاك خاصة بها:

Grup autorësh , Historia e shteteve dhe të drejtave të popujve Jugosllavë , (Istoria drzava i Prava Jugoslovenskih naroda), Prishtinë 1891, f. 142

(٢٦) Jelavich , p. 25 .

(٢٧) Enciklopedija Jugoslavije , II izdanje, vol. 2, Zagreb 1982 s. 171 - 172 .

(٢٨) G. LL. Arsh - I. G. Senkeviç-N. D. Smirnova, Histori e shkurtë e Shqipnisë, Prishtinë 1967, f. 13 - 14.

(٢٩) يعتبر الباحث س. ستانويفتش « معركة قوصوة » (كوسوفو Kosovo أو كوسوفا Kosova) التي جرت سنة ١٣٨٩ بين التحالف الصربي - الالباني - البوسنوي بقيادة الملك الصربي لازار والجيش العثماني بقيادة السلطان العثماني مراد ، والتي انهارت على اثرها الدولة الصربية ، هي الحد الفاصل في وقف هذا الذوبان . وهكذا يقول ستانو يفتش بكل وضوح انه منذ تلك المعركة الحاسمة « توقفت سيرورة الذوبان السلالي (الاثني) الذي كان قائما في الجنوب. فقد ادى انتصار وتوسع الاتراك الى وقف سيرورة التسوية الثقافية والسلالية(الاثنية) في مناطق صربيا الجنوبية التي كانت تسير بشكل ممتا ز...» :

Stanoje Stanojevic, Od Velbuzda do Kosova, Beograd 1931, s. 20 .

(٣٠) Dr. Ilija A. Przic, Zaztita manjina, Beograd 1933, s. 40;Vladimir Djuro Degan, Medjunarodnopravno uredjenje polozaja muslimana sa osvrtom na uredjenje polozaja drugih vjerskih i narodnosnih skupina na podrucju Jugoslavije , Prilozi, Institut za istoriju radnickog pokreta, br. 8, Sarajevo 1972, s. 57.

(٣١) G. Ll. Arsh - I. G. Senkoviç - N. D. Smirnova, Histori e shkurtë e Shqipnisë, përkthyes Z. Cana e A. Karagdiu, Prishtinë 1967, f. 14 - 15; Barbara Jelavich, Op. cit., pp. 30-31 .

(٣٢) H alil Inalcik , « Ottoman Methods of Conquest », Studia Islamica II, Paris 1954,pp.103, 115 - 116 ; The Cambridge History of Islam, Vol IA, Cambridge 1970, p. 283.

ومن المؤرخين العرب نجد انا لشناوي قد ادرك وسلم بذلك على نحو واضح: « كان ادخال نظام التيمارات في البانيا من الاسباب التي ادت الى انتشار الاسلام فيها منذ بداية الحكم العثماني . وقد رأت الدولة العثمانية أن من حسن السياسةوبعد النظر لاستقطاب الالبانيين نحو الدين الاسلامي الا تجعل اعتناق الاسلام شرطا أساسيا لمنح التيمارات .. وكانت النتيجة ان ارباب الاقطاع الالبانيين الذين منحهم العثمانيون تيمارات كانوا اول من اعتنق الاسلام خلال القرن الخامس عشر » : د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج٤ ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٨٦٣ .

(٣٣) حول ابعاد ونتائج هذا التوطين انظر :

Inalcik, Op. cit., pp. 122 - 128; O.L.Barkan « **Les deporations comme methode de peuplement et de** colonizacion dans l'Empire Ottoman », Revue de la Faculte des Sciences Economiques, No II, Istanbul 1956; Yasar Yucel, « Turkish Settlement in the Balkane and its Impact, Turkish Review, Vol 1, Ankara .. 1986, pp. 39 - 50 .

(٣٤) للمزيد من التفاصيل حول هذه المؤسسة انظر كتابنا : دراسات ووثائق حول الدفشرمة ، اربد ١٩٩١ .

(٣٥) كان من نتائج هذا الصعود المتواصل بروز مئات الوزراء وعشرات الصدور العظام من الالبانيين الذين تجاوزوا حجمهم بكثير من خلال المناصب التي احتلوها بالمقارنة مع الشعوب الاخرى .

(٣٦) Adem Handzic, «O islamizaciji u sjeveroistocnoj Bosni u XV i XVI vijeku », POF XVI - XVII, Sarajevo 1970, s. 12; The Cambridge History of Islam, Vol IA , p 287.

(٣٧) في القرن السادس عشر كانت الجزية على السكان المسيحيين في شمال البانيا لا تتجاوز ٤٥ اقجة ، بينما ارتفعت في بداية القرن السابع عشر الى ٣٠٥ اقجة ثم الى ١٧٨٩اقجة

في النصف الثاني للقرن السابع عشر . ومع ان هذا الارتفاع الكبير يعود ايضا الى التضخم وتدني قيمة العملة العثمانية فيذلك الوقت الا انه كان له اثره على كل حال :

Kristo Frashëri, The History of Albania, Tirana 1964, p. 95 ; Jelavich, p. 81.

(٣٨) تجدر الاشـــارة الى ان بعض الباحثين المتخصصين في هذا المجال يعتبرون ان الاسلام قام بدور مشابه منذ ظهوره بتوحيـــده للقبائل العربية في شعب واحد وفي شمال افريقيا بتعريب الشعوب هناك ليتشكل من كل هذا « امة عربية واحدة». انظر :بروملية ـبودولني ، الاتنوس والتاريخ ، ترجمة طارق معصراني ، موسكو ، دار التقدم ، ١٩٨٨، ص ٦٥ ـ ٦٦.

الا ان بعض المؤرخين العرب يعتبـــرون ان ما حدث في شمال افريقيا كان « تحريرا » للعرب هناك ، ولذلك يخرجون القضيــةمن هذا الاطار .

(٣٩) من هؤلاء الباحثين نشير مثلا الى ياكوف ميلاي مؤلف كتاب « الجنس الالباني »،وهو من الالبانيين المسيحيين الذين لا يمكن اتهامهم بالتحيز للاسلام :

Jakov Milaj , **Raca shqiptare** , Tiranë 1944, f. 78.

وكان هذا الكتاب قد صدر في تيرانا في وقتواحد تقريبا مع كتاب اخر يتعرض الى هذهالنقطة بشكل مباشر .

« لو لم يعتنق الالبانيون الاسلام لكانـوا قد ذابوا تماما في المحيط السلافي »:

H. Kokalari , Kosova djep i shqiptarizmit, Tiranë 1943, f.16

(٤٠) هناك خلاف كبير بين الباحثين الصربيـين والالبانيين في يوغسلافيا حول هذهالقضـية. فالباحثون الصربيون يرون ان الكثير مـن الصربيين في كوسوفا ومكدونيا أصبحـــوا البانيين بعد اعتناقهم الاسلام . وبينما يقدر البعض عدد هؤلاء الذين ذابوا في الالبانيين بنحو مئة الف صربي ، يذهب البعض الاخـر أبعد من ذلك ليقرر ان نسبة كبيرة مـــن الالبانيين في كوسوفا هم من الصربيين الذين اعتنقوا الاسلام :

J. Hadzi - Vasiljeic, Musliman nase krvi u Juznoj Srbiji, Bratstvo 19, Beograd 1925, s. 21 - 94 .

اما الباحثون الالبانيون في يوغسلافيـــــا فيرفضون تماما هذه الاراء :

Skender Rizaj, Kosova gjatë shekujve XV, XVI dhe XVII, Prishtinë 1982, f. 475; Pirraku I, f. 18.

ولكن يلاحظ هنا ان المؤرخين الالبانيين علـى استعداد لتقبل الراي الاخــــر الذي يقول بذوبان بعض الاتراك مع الالبانيين:

Rizaj, Kosova gjatë shekujve, f. 467 ; Zija Shkodra , Qyteti shqiptar gjatë Rilindjes kombëtare , Tiranë 1984 , 31.

(٤١) Myderrizi , Emri i vjetër kombëtar i Shqipërisë në tekstet Vjetra shqip me alfabet latin dhe aran, Studime historike , nr. I , Tiranë 1965, f. 164 - 166.

ولمزيد من التفاصيل حول هذا انظر بحثنا: الالبانيون عدة تسميات لامة واحدة ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلد ٦٣، ج٤ ، دمشق ١٩٨٨ ، ص ٦٧٧ ـ ٦٨٥.

(٤٢) بروملية ـ بودولني ، الاثنوس والتاريخ ، ص٦٨ .

(٤٣) يشير الكاتب الالباني المعروف فائق كونيتسا (١٨٧٦ ـ ١٩٤٢) في كتابه « البانيا »، الذي ألفه خلال ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ ، الى تبلور رأيين متناقضين بين المثقفين الالبانيين في ذلك الحين حول هذا الموضوع : الرأي الاول يقول بأنه لو بقي الالبانيون مسيحيين لذابوا كلهم في الشعوب المجاورة ، والراي الثاني يذهب الى ان الالبانيين لو بقوا مسيحيين لكان وطنهم أكبر الان ولكان قد تحرر قبل غيره :

Faik Konica , Shqipëria kopsht shkëmbor i Evropës Jugolin - dore, Prishtinë 1990, f. 159-160

وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا الكتاب الهام عن البانيا والالبانيين كان قد صدر سابقا في الانكليزية :

Faik Konitza, Albania the Roch Garden of Southeastren Europe, Boston , VATRA , 1957 .

(٤٤) H. Kokolari, Kosova diepi i shqiptarizmit, Tiranë 1943 f. 16; Jakov Milaj , Raca shqiptare , Tiranë 1944, 78.

(٤٥) يبدو هذا الانفتاح على المستوى النظري ، وخاصة بعد القطيعة مع الستاليتية سنة ١٩٤٨ ، في مواقف كثيرة حتى أصبحت « الماركسية اليوغسلافية » تتهم بابتعادها عن ماركس في موضوع الدين بالذات :

Dr. Ivan Cvitkovic , Savez Kominista Jugoslavije i Religijia, Beograd , Rednicka stampa , 1982, s. 35 .

وعلى المستوى العملي أصبح يقال للتندر أن ما بني من جوامع في العهد الشيوعي يماثل أو يتجاوز ما بني في العهد العثماني .

(٤٧) Skender Rizaj , Kosova gjatë shekujve XV , XVI dhe XVII, Prishtinë 1982, f. 460 - 479 .

(٤٨) Dr. Muhamed Pirraku, O isla - mizaciji i ulozi islama u integ - raciji albanske naronosti, I , Dituria islama nr. 15-16 , Pri - shtinë 1990 , f. 15 - 23 , Dituria islme nr. 17, Prshtinë 1990, f. 25 - 31 .

(٤٩) حول هذا لدينا دراسة قيمة صدرت مؤخرا:

Odile Daniel , The historical Role of the Muslim Community in Albania , Central Asian Survey , vol. 9, No 3, 1990 , pp. 18 - 22.

ولمزيد من التفاصيل انظر ما نشرناه في العربية :

الدين والمسألة الدينية في البانيا ، العربي عدد ٢٣٩ ، الكويت اوكتوبر ١٩٧٨ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٨ .

(٥٠) انظر على سبيل المثال :

Aleks Buda , Shkrime historike 1, Tiranë 1986, f. 72, 76-78.

(٥١) Zija Shkodra, Qyteti shqiptar gjatë Rilindjes kombëtare , Tiranë 1984 , f. 27 .

(٥٢) هناك من يرى بين الباحثين ان اقبال انصار الكنيسة البوغوميلية في البوسنة على اعتناق الاسلام ارتبط ببساطة الاسلام وتحريمه للصور :

E. Durham , Njëzet vjet nagtë - rresa ballkanike, Tiranë 1944 , f. 140 ; Aleksandar Solovjev , Nestanak bogumistva i islami - zacija Bosne, Godisnjak Drusva istiricara BiH l, Srajevo 1949 , s. 42 - 79 .

(٥٣) Smail Balic , Kultura Bosnjaka, Wien 1973, s. 17.

(٥٤) حتى الماركسيين في يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية أقروا بدور الدين في هذه السيرورة الفريدة (تشكيل ثلاثة شعوب تتكلم لغة واحدة) مع اختلافهم في وصف هذا الدور ــ هل هو « دور حاسم » أو « دور معين » :

« لا بد ان نأخذ بعين الاعتبار ان الدين لعب دورا معينا في تشكيل بعض الشعوب اليوغسلافية (الصربيون ، الكرواتيون ، المسلمانيون Muslimani) التي تتكلم لغة واحدة ــ اللغة الصربوكرواتية » :

Cvitkovic , Savez Kominsta i religija , s. 101 .

ومن المثير ان الباحثين السوفيتين المعاصرين بروملية وبودولني تعرضا في كتابهما الى دور الدين في تشكل الشعوب اليوغسلافية التي تتكلم لغة واحدة ، ولكنهما اكتفيا بذكر الصربيين والكرواتيين دون أن يشيرا الى الشعب الثالث : بروملية ــ بودولني، الاتنوس والتاريخ ، ص ٦٤ .

(٥٥) خلال القرن التاسع عشر ، ومع بروز الحركات القومية التي تبحث لنفسها عن حدود أوسع ، بدأ التنافس الصربي ــ الكرواتي حول البوسنة ، اذ ان كل طرف كان يحاول اثبات حقه في البوسنة بالتأكيد على «الاصل الصربي » او «الاصل الكرواتي » للمسلمين فيها . وقد أخذ هذا التنافس بعد خلق يوغسلافيا (١٩١٨) أبعادا سياسية وسلطوية معقدة . وقد بقي هذا الموضوع يثير الجدل والخلاف في يوغسلافيا الاشتراكية الى ان أخذت « الموسوعة اليوغسلافية » بموقف وسطي يقول ان المسلمين في البوسنة ينحدرون في أصولهم من الصربين والكرواتيين ومن بقايا العناصر الاليرية والفلاحية التي ذابت في البوتقة السلافية :

Enciklopedija Jugoslavije, II izdanje, vol. 2 , Zagared 1982, s. 227 .

(٥٦) حسب التقرير الذي رفعه يرونيم زلاتاريتش J. Zlataric الى الملك النمساوي فرديناند سنة ١٥٩٩ ورد ان المسلمين في البوسنة « يشكلون أغلبية السكان ». وفي ١٦٢٤ ذكر الموفد البابوي بيتر مازاركي P. Mazareki في تقريره الى البابا بعد زيارته للبوسنة ان المسلمين يؤلفون ثلاثة أرباع السكان وان المسيحيين من كاثوليك وارثوذكس يؤلفون الربع الاخر . وخلال القرن السابع عشر استمر الوضع على هذا الشكل بالاستناد الى ما لدينا من تقارير عديدة . الا أن عدد المسلمين أخذ ينخفض منذ القرن الثامن عشر نتيجة للحروب والمجاعات والهجرات ، حتى أصبح مساويا لعدد المسيحيين في مطلع القرن التاسع عشر ، وبالتحديد ٦٠٠ الف من مجموع عدد السكان الذي وصل حينئذ الى مليون و ٢٠٠ الف :

Atif Purivatra , Jugosloven-ska muslimanska organizacija u politickom zivotu Kraljevine

Srba , Hrvata i Slovenca , Sarajevo 1997, s. 359 .

(٥٧) تجدر الاشارة هنا الى ان هذا الاسم لم يقبل بسهولة في يوغسلافيا الملكية (١٩١٨– ١٩٤١) ولا حتى في يوغسلافيا الاشتراكية، وقد اثار جدلا بين المنظرين والمؤدلجين الى ان تم الاعتراف به أخيرا في الستينات .

وبالاستناد الى هذا أصبح « الشعب المسلماني » Muslimanski narod أحد الشعوب الرئيسية المؤلفة ليوغسلافيا. حول هذا التطور المهم انظر :

Kasim Suljevic , Nacionalnost Muslimana, Rijeka 1981 .

* * *

العراقيـون
والاحتـلال البريطـاني للعـــراق
١٩١٤ – ١٩١٨

د. ممدوح عارف الروسـان
جامعة اليرموك

اولا – مدخـل :

آ – المصالح البريطانية في العراق :

جاء احتلال بريطانيا للعراق خلال سنوات الحرب العالمية الاولى (١٩١٤–١٩١٨) تتويجا لمساعيها الرامية الى ادخاله في دائـرة نفوذها ، تأمينا لمصالحها الاقتصاديـة والاستراتيجية والسياسية ، الماثلة أو المحتملة . فبين القرن السـابع عشر ومطلـع القرن العشرين نشأت في العـراق مصالح اقتصادية بريطانيـة في مجالات الاسـتيراد والتصدير ، والنقل البري والنهري والتجاري والبريدي . وكان الاحتمال كبـيرا في قيام مصالح أخرى في مجالات استغلال المعادن والنفط والزراعة(١) .

ولقد عدت الدوائر البريطانية « الهندية خاصـة » العراق امتدادا جغرافيـا وسياسيا واقتصاديا لمنطقـة الخليج العربي . فبغداد كما قال كيرزون نائب الملك في الهند عام ١٨٩٢ « تقع ضمن موانىء الخليج العربي ويجب أن تدخـل ضمن السيادة البريطانية التي لا نزاع فيها »(٢) .

وتتضح أهمية موقـع العراق الاستراتيجية مما قالـه رئيس اركـان الجيش النمسوي كوهنفيلد Kohen Field : أن وادي الفرات الممتـد عرضا بين خليـج الاسكندرونة ورأس الخليج الفارسي (العربي) كقطر لجسم رباعي ، زاويتاه الغربيتان على البحر المتوسط وزاويتاه الشرقيتان على بحر قزوين والخليج الفارسي (العربي) هو ملتقى جميع الطرق المؤدية للخليج ، ولذلك فان القبض على هـذا الوادي يؤدي حتما الى السيطرة على جميع الاراضي الواقعة ضمن هذا الجسم الرباعي(٣) .

كذلك فان أطماع بعض الدول الاوروبية ، كفرنسـا وروسيا والمانيـا ، بمنطقة

دراسات تاريخية ، العددان ٤٧ و ٤٨ ، ايلول – كانون الاول ١٩٩٣ .

الخليج العربي زادت من اهتمام بريطانيا فيها . وفي حين جاء التحدي للمصالح البريطانية ـ من حملة نابليون على مصر١٧٩٨ وحتى عام١٨٧٠ ـ من فرنسا وروسيا، فانه جاء في الفترة التالية ، ١٨٧٠ ـ ١٩١٠ ، سواء كان حقيقة او توهما ، من روسيا وحدها(٤) . وعندما نشبت الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ واظهر أمير الافغان ميلا للروس ، عبر وزير خارجية بريطانيا سالسبوري عن قلق حكومته : ان اهل هذه البلاد (بريطانيا) لن يسمحوا بأن تكون الكلمة العليا للروس في وادي دجلة والفرات(٥).

فامكان الزحف الروسي نحو الخليج ووادي الرافدين ظل ماثلا في ذهن الساسة الانجليز قبل الحرب العالمية الاولى وخلالها بالرغم من دخول روسيا الحرب الى جانب الحلفاء ، الى درجة يمكن معها القول بأن خطة التقدم البريطاني نحو بغداد ، وطبيعة اتفاق سايكس بيكو كانا متأثرين بالاطماع الروسية .

اما التحدي الالماني لمصالح بريطانيا في المنطقة فلم يكتسب صفة الخطورة الا عندما حصلت المانيا على امتياز سكة حديد الاناضول (١٩٠٢) التي كان مقررا أن تمتد الى بغداد والبصرة ، مما حدا بوزير خارجية بريطانيا الى القول لمدير سكة الاناضول الالماني : ان بريطانيا تسيطر حتى الان وجدها على اقصر الطرق الى الهند ، ولكن بناء سكة حديد بغداد يجردها من تلك السيطرة(٦) ، بل ان كل مائة كم من سكة حديد بغداد تمتد نحو الخليج العربي تعادل طرادا بحريا لكسر شوكتنا(٧). واحساس بريطانيا بهذا الخطر يفسر سياسة التفاهم مع فرنسا (الاتفاق الودي ١٩٠٤) ، ومع روسيا (١٩٠٧) لصد التقدم الروسي أو التعاون معه ، لتتفرغ لمواجهة التقدم الالماني نحو الشرق(٨) .

لم تقتصر المصالح البريطانية في العراق على المجالين الاقتصادي والاستراتيجي ، وتعدت ذلك الى المجال السياسي الذي تمثل بالامتيازات التي كان يتمتع بها القنصل البريطاني في بغداد ، بحيث أصبحت شخصيته ابرز نسبيا من شخصية السفير البريطاني في استانبول ، وكان بالفعل الشخص الثاني بعد الوالي التركي(٩) .

مما سبق يتضح أن بريطانيا كانت تنظر للعراق باعتباره مقرا لقنصلها الذي يحتل مركزا مرموقا في بغداد ، وموقعا استراتيجيا تسيطر من خلاله على الطرق المؤدية الى راس الخليج العربي الذي كان يعتبر باب الهند ، وسوقا للبضائع ورؤوس الاموال الانجليزية ، ومصدرا يجهزها بالمواد الخام ، ومحطة تعبر فيها البضائع الى ايران وتركيا ، وارضا بكرا يحوي باطنها المعادن الثمينة واهمها البترول ، وشريانا لمواصلاتها البرية والنهرية .

ب ـ السياسة البريطانية تجاه العراق قبل الحرب :

كادت بريطانيا قبيل الحرب العالمية الاولى أن تسيطر على جنوب العراق أو تضمه الى أملاكها الهندية ، أو تضعه تحت حمايتها سلميا (كما أدخلت محمياتها العربية في الخليج وجنوب شبه الجزيرة العربية) بموافقة ومباركة الدولة العثمانية وألمانيا . ففي الفترة بين ٢٩ تموز ١٩١٣ وحزيران ١٩١٤ عقدت بين الدولة العثمانية والدول الاوربية ، وبخاصة ألمانيا وبريطانيا ، عدة اتفاقات أسفرت عن اقتسام ألمانيا وبريطانيا النفوذ في أملاك الدولة العثمانية الآسيوية ، وما له علاقة بالعراق قسم الى :

١ ـ منطقة خاصة بالالمان مقفلة في وجه الانكليز (حدود ولاية الموصل) .

٢ ـ منطقة خاصة بالانكليز مقفلة في وجه الالمان (منطقة شط العرب) .

٣ ـ منطقة مفتوحة للطرفين على أساس المشاركة في الاعمال مع شيء غير قليل من الاختصاص : الري والملاحة النهرية للانكليز ، والسكك الحديدية للالمان ، على أن يكون للانكليز حصة الاقلية في السكك الحديدية ، وللالمان حصة الاقلية في الملاحة والري من الموصل الى البصرة(١٠) .

فالدولة العثمانية وألمانيا اعترفتا بحق بريطانيا في السيطرة على القسم الجنوبي من العراق واستغلال امكاناته الاقتصادية والنقلية ، الا أن نشوب الحرب العالمية الاولى في تموز ١٩١٤ عرّض المصالح البريطانية في بغداد والبصرة للخطر ان لم يكن للزوال ، الامر الذي دفع بريطانيا الى المبادرة باحتلال منطقة البصرة او العراق الجنوبي أولا ، ثم بلاد ما بين النهرين (العراق) بأكملها خلال سنوات الحرب العالمية الاولى ثانيا .

الواقع ان مشروع احتلال بريطانيا للعراق وعلى الاخص قسمه الجنوبي لم يكن مشروعا جديدا ظهر خلال الحرب العالمية الاولى ، ولكنه كان مشروعا قديما ، خاصة بالنسبة للساسة الانكليز التابعين منهم لحكومة الهند البريطانية ، فقد دعا هؤلاء الساسة وفي مناسبات مختلفة في الفترة ما بين ١٨٩٢ و ١٩١٣ الى ضرورة السيطرة البريطانية على المنطقة الممتدة من بغداد الى البصرة . يدل على ذلك تصريحات سالسبوري ١٨٧٨ ، ولورد كيرزون ١٨٩٢ التي أسلفنا الاشارة اليها مقرونة بتصريح ادوارد غراي وزير الخارجية البريطاني ١٩١٣/٤/٣ الذي جاء فيه : ان ما تريده بريطانيا من العراق هو القسم الجنوبي الممتد من بغداد الى البصرة(١١) ، من ناحية ، ورسالة المقيم البريطاني في الخليج الى كل من حكومة الهند والسفير البريطاني في

استانبول ١٩١٣/٦/٢٣ والتي طالب فيها باحتفاظ الحكومة البريطانية بما احرزتـه من أرجحية حتى الان في بلاد ما بين النهرين منطقتها الطبيعية في الدول العثمانية ،(١٢) من ناحية ثانية .

هذه المطالب تفسر لنا تحفظات بريطانيا بالنسبة لجنوب العراق في مراسـلات حسـين مكماهون (١٩١٥ ـ ١٩١٦) ومطالبتها بادارة خاصـة في ولايتـي البصـرة وبغـداد(١٣) .

فلما اعلنت الحرب العالمية الاولى سارعت كل من بريطانيا وروسيا الى تحديد سياستهما تجاه الدولة العثمانية في حالة دخولها الحرب الى جانب المانيا على اساس انهاء وجودها والاستغناء عنها على حد تعبير وزير خارجية بريطانيا (ادوارد غراي ؛ ووزير خارجية روسيا (سازانوف)(١٤) . ولمواجهة احتمال دخول تركيا الحرب الى جانب المانيا (وهو امر كان مؤكدا بالنسبة للدوائر البريطانيـة)(١٥) اقترح الجنرال ادموند بارو Edmond Barrow السكرتير العسكري لوزارة الهنـد في ١٩١٤/٩/٢٦ توجيه حملة عسكرية الى الخليج العربي(١٦) . ووافق مجلس الوزراء البريطاني على الاقتراح في ١٩١٤/١٠/٢ ، وصدرت الاوامر السرية الى لواء المشاة السادس عشر من الفرقة السادسة بالاقلاع من بومبي يوم ١٩١٤/١٠/١٦ الى الخليج العربي بقيادة أمير اللـواء ديلامين Delamain ، الذي أمر بالقيام بمظاهرة حربيـة عند رأس الخليج واحتلال عبادان لحماية آبار النفط ، وميناء البصرة اذا تيسر ذلك(١٧) .

ومع أن الهدف المباشر للحملة هـو احتلال البصرة وعبادان في رأس الخليـج العربي ، الا أنها انتهت باحتلال العراق (بلاد ما بين النهرين) بأكمله(١٨) ويرجع ذلك الى تطورات أحداث الحرب ، في العراق وخارجه(١٩) ، والاتفاقات السرية بين الحلفاء (اتفاقية القسطنطينية ، آذار ١٩١٥ ، وسايكس ـ بيكو ، آذار ـ نيسان ١٩١٦)(٢٠) .

مع هذا فان سياسة الحكومة البريطانية تجاه العراق لم تكن محددة وواضحة، وحتى في الفترة بين احتلال البصرة (١٩١٤/١١/٢٢) ، وبغداد (١٩١٧/٣/١١) لم تكن بريطانيا قد قررت مستقبل العراق السياسي ، وهل سيكون جزءا من الدولة الاسلامية المتفق على اقامتها في حال زوال الحكم التركي من القسطنطينية والمضائق ، أم انـه سيكون جزءا من ممتلكاتها الخاصة(٢١) . ولذا فقد رفضت حكومة لنـدن أن تعلن ان احتلالها للبصرة هو دائم وفقا لمقترحات نائب الملك (في الهند) في رسالته الى وزيـر الهند في لندن كانون أول ١٩١٤(٢٢) . فمجال الحملة البريطانية على العراق لم يحدد مقدما ، وهذا ما عبرت عنه « المس بيل » في رسالة الى والديها (١٥ تموز ١٩١٥) :

ان العقبة الحقيقية هنا هي أننا لا نعرف بالضبط ما نحن عازمون على عمله في هـذه البـلاد(٢٣) .

وصلت الحملة البريطانية القادمة من الهند البحرين يوم ١٩١٤/١٠/٢٣ ، وفي يوم (١٩١٤/١١/٦) اليـوم التالي لاعـلان بريطانيا الحرب على الدولـة العثمانيـة (١٩١٤/١١/٥) نزلت القوات البريطانية الى الفاو ، ثم احتلت البصرة (١٩١٤/١١/٢٢) ومنها تقدمت الى القورنة فاحتلها (١٩١٤/١٢/٩) ، ولـم تنتـه الحـرب العالمية الاولى في ٣٠ تشرين أول ١٩١٨ الا وكانت بريطانيا قد اكملت احتلالها للعراق أو بلاد ما بين النهرين .

ثانيا ـ مواقف العراقيين خلال الحرب :

تعددت مواقف العراقيين خلال الحرب بتعدد فئات الشعب العراقي الاجتماعية والدينية والعرقية ، وتبدلت بتبدلات أحداث الحرب وتطوراتها من ناحية ، وبطبيعة السياسة التي انتهجها طرفا القتال (الاتراك والانكليز) تجاه العراقيين خلال الحرب من ناحية ثانية . ومع هذا فهناك ثلاثة مواقف عامة انتظمت اكبر عـدد ممكن مـن العراقيين وهذه المواقف هي :

١ ــ الجهاد الى جانب الاتراك ضد الانكليز .

٢ ــ القبول بالامر الواقع المقرون بالحياد تارة وبالتعاون مع الانكليز تارة اخرى.

٣ ــ الترحيب بالغزاة الانكليز المحتلين .

مع ملاحظة ان هذه المواقف كانت متداخلة وغير مقصورة على فئـة واحدة من فئات الشعب العراقي ، ولا نبالغ اذا قلنا أن بعض الشخصيات ، وبخاصة من زعماء القبائل ، اتخذت اكثر من موقف ، فهي تارة معادية للانجليز وتارة محايدة ، وتارة ثالثة مناصرة لهم متعاونة معهم .

١ ــ الجهاد الى جانب الاتراك ضد الانجليز :

آ) **دعوى الجهاد المقدس** : ظهرت الدعوة للجهاد ضد الانكليز بعد نزول القوات البريطانية في الفاو وتقدمها نحو البصرة . ففي ١٩١٤/١١/٩ بعث وجـوه البصـرة برقيات الى علماء الدين في العتبات المقدسة ومختلف مدن العراق حذروا فيها مـن الخطر الانكليزي وطلبوا مساعدة العشائر لهـم الدفاع عن الثغر . وقـد تليت هـذه

البرقيات في المساجد واخذ الوعاظ يلهبون مشاعر الناس بخطبهم الحماسية ويؤكدون الاخطار التي سوف تترتب على احتلال الانكليز للعراق(٢٤) .

ومع ان الدولة العثمانية كانت تعقد آمالا كبرى على دعوى الجهاد المقدس ، بتشجيع من المانيا ، كوسيلة لكسب تأييد رعاياها ورعايا الدول الحليفة من المسلمين(٢٥) ، فان السلطات التركية في العراق لم تبادر للدعوة للجهاد في العراق الا بعد وصول القوات البريطانية الى القورنة (١٩١٤/١٢/٩) ، فعزلت جاويد باشا القائد العام للقوات التركية ، وعينت بدلا منه القائد سليمان العسكري فبادر الى تحريض العراقيين على مقاتلة الانكليز باسم الدين ، واعلن الجهاد المقدس بواسطة مجتهدي العتبات المقدسة .

ففي بغداد دعا الشيخ مهدي الخالصي الى تأييد دعوى الجهاد واصدر حكما اوجب على المسلمين التبرع بأموالهم من أجل الجهاد . وقام وفد من وجهاء بغداد وعلمائها ومجتهديها بزيارة العتبات المقدسة حيث عقد اجتماع في جامع الهندي في النجف حضره العلماء والزعماء وشيوخ العشائر في الفرات الاوسط ، أيد خلاله بعض العلماء أمثال محمد سعيد الحبوبي وبعض شيوخ القبائل الدعوة للجهاد . وفي الكوفة نجح حميد الكليدار سادن حرم الامامين في بغداد في استمالة الشيخ محمد كاظم اليزدي كبير مجتهدي الكوفة لتأييد الدعوة ، وبادر بارسال ولده محمود لينوب عنه في استنهاض العشائر . وخطب (اليزدي) في النجف (١٩١٤/١٢/١٦) قائلا : « واجب على الغني العاجز بدنا أن يجهز من ماله الفقير القوي »(٢٦) .

ومن دمشق حث جمال باشا العراقيين على تأييد دعوة الجهاد وتلقى منهم ردودا مشجعة(٢٧) .

ومع تفاوت مواقف المجتهدين من دعوى الجهاد المقدس ، تبعا لانتماءاتهم العرقية وطبيعة علاقتهم مع الاتراك والانكليز ، فقد أصدروا في النجف والكوفة وبغداد والاعظمية ، الفتاوى بضرورة الوقوف الى جانب الاتراك . ولبى العراقيون الدعوة للجهاد من مختلف أنحاء العراق واختلفت المصادر في تقدير عددهم بحيث راوح بين ١١ و ٥٠ الفا بينهم ١٥٠٠ من الاكراد (٢٨) . ولم يكلف هؤلاء المتطوعون الاتراك عبء تزويدهم بالمؤن والارزاق ، وقال السيد الحيدري للقائد التركي يوم وصل العمارة في طريقه الى الشعيبة عندما عرض عليه المساعدة من مؤن واموال : « إننا مستغنون عن مساعدتكم ولو تمكنا نحن من مدكم بالمال والطعام لفعلنا »(٢٩) . وكذلك رفض محمد سعيد الحبوبي تزويده بالمال قائلا للقائد التركي الذي عرض عليه ذلك : « انني

مكلف بالتضحية في مالي ونفسي ، فاذا نفد المال بقيت نوبة النفس ، أعتبروني جنديا من الجند آكل مما يأكلون ، وأشرب مما يشربون ، وجهاد النفس افضل . لا ، لا اقبل درهما واحدا »(٣٠) .

هذان الموقفان يناقضان راي (المس بيــل) التي نسبت تطــوع المجاهديــن العراقيين الى الرغبة في السلب والنهب ، وانهم سيقوا الى جبهات القتال بالقوة ، وقول وزير الخارجية البريطاني ادوارد غراي في خطابه في مجلس اللوردات (نيسـان ١٩١٥) : « ان عنصر الاثارة الدينية لم يكن الدافع الفعال لمن تعاون مــع الاتراك أو ساعدهم »(٣١) .

ب ـ موقعة الشعيبة : تمثل موقعة الشعيبة (١٢ ـ ١٥ نيســان ١٩١٥) ذروة الجهاد ضد الانكليز . وتحمّل العبء الاكبر فيها رجال العشائر العراقية وبخاصة في منطقة الفرات الاوسط والجنوبي ، وقام المجتهدون بــدور المحرّض والمشجع علــى الجهاد . وكانت الحكومة التركية قد عينت مندوب أزمير ضياء بك لقيادة المجاهدين، وعهدت الى السيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ عجمي السعدون والشيخ عبد الله الفالح برئاسة أقسام المجاهدين الثلاثة . وقد لقيت القيادة صعوبــة في تسليحهم ، فكانت أسلحتهم غير متناسقة(٣٢) .

تحدث الكولونيل غراي المقيم السياسي البريطاني في الكويت في تقرير له بتاريخ ١٩١٥/٦/٩ ، عن العشائر العراقية التي شاركت في موقعة الشعيبة ، فقلل فيه مــن دورها ، وقدر عدد المجاهدين بعشرة آلاف ، القسم الاعظم منهم من قبائل المنتفك ، ونسب مشاركتهم الى الرشوة أو الضغط والتهديــد بمصادرة الامــوال والاملاك : « فقلوب قبائل المنتفك لم تكن في المعارك التي دارت بين ١٢ـــ١٥ نيسـان ، ولم يكن لهم حماس قومي أو ديني ، فزعماؤهم دخلوا المعارك الى جانب الاتراك حفاظا على مراكزهم، بينما كان هدف الجماهير السلب والنهب من أي جانب كان ولم يكن في موقفهم اي اثر للاثارة الدينية »(٣٣) .

ومع أن الهزيمــة(٣٤) لحقت بالاتراك والمجاهدين العراقيين في الشــعيبة ، فان الاتراك تعلموا منها ، واستغلوا رجال القبائل في عمليات استنزاف القوات البريطانية أو انهاكها ، بدلا من المشاركة بالقتال التقليدي ، لان عمليات الانهــاك اكثر ملائمــة لاساليب القتال التي تجيدها القبائل وشعارها اضرب واهــرب كما كان الحــال في الحجــاز .

جـ ـ موقف رجال القبائل : وتمشيا مع هذا الفهم ، استخدم الاتـراك رجال القبائل لانهاك القوات البريطانية واعاقة تقدمها نحو الكوت ، فكان الشـيخ غضبان آلبنية من بني لام راس الرمح في الغارات القبلية على القوات البريطانية غربي دجلـة وحتى خطوط انابيب النفط في عبادان . كذلك استخدم الاتراك بني طروف لاعاقـة تقدم الانكليز الاول نحو بغداد (خريف ١٩١٥) واعطوا رجال القبائل دورا محـدودا في موقعة سلماك باك (٢٢ ـ ٢٥ تشرين‌ثاني ١٩١٥) ، كذلك استغلوا رجال القبائل لاستنزاف القوات البريطانية في تراجعها نحو العزيزية ، فالكـوت(٢٥) . وقـد عبر تاونزند قائد القوات البريطانية في الكوت عما لحقه من هزيمة وخسائر في الارواح : « لقد وجدت العرب في أثناء الاعمال العسكرية في العراق جماعة لا تعرف الرحمـة انهم جماعة من الاوغاد الجبناء »(٢٦) . وساهمت القبائل في احباط محاولات فـك الحصار عن الكوت (نيسـان ١٩١٦) ، كما تعرضت المعسكرات الانجليزية لعمليات السرقة من قبل اللصوص والعاطلين عن العمل(٢٧) .

ظلت القبائل العراقية في عداء للانكليز ، تتحمل وحدها عبء الجهاد . ولكن هذا الموقف العدائي اختلف من قبيلة الى أخرى بل ان موقف القبيلة الواحدة كان يتبـدل مع تبدل مجريات الحرب ، وهناك قبائل انقسم زعماؤها ما بين معاد للانكليز أو موال لهم . وقلة فقط من زعماء العشائر ظلوا في حالةالعداء طيلة فترة الحرب. وفيمقدمتهم عجمي باشا السعدون زعيم قبائل المنتفك . ومع هذا فقد وصف لونغرغ موقفه بأنـه « كان حليفا غير مفيد للاتراك »(٢٨) .

فموقف رجال العشائر كان معاديا للانكليز بشكل فردي يغذيـه سوء معاملـة الانكليز للعرب ، ولكن هذا الموقف لم يكن ثابتا ، ولكنه كان متغيرا متذبذبا وفي تحـول مستمر لصالح الطرف المنتصر وهـو الانكليز ، وحتى بعـد سقوط بغـداد (١١/٣/ ١٩١٧) بقيت بعض القبائل على نهري دجلـة والفرات مناصرة للاتراك ، وقد وصفت المس بيل معارضـة هذه القبائل بالمعارضة المبعثرة وانها كانت من قبيـل التحـدي لا المعارضة،تغذيها الدعاية التركية،وعدم حسم مصير العراق‌ومصير الحرب اضافة الى ثورة النجف الاشرف ضد الانكليز (اذار / ١٩١٨)(٢٩) . وأكدت التقارير البريطانية هذه الحقيقة ، وجاء في احدها : « ليس عجيبا لهؤلاء الذين سارعوا بجهل وروحيـة خفيفة بالجهاد ضد الكفار (الانكليز) في معركـة الشعيبة ان يصبح عدد من قادتهـم أصدقاء مخلصين ومساندين لنـا ، وليس عجيبا أيضـا أن عددا مـن الذين كانـوا يضمرون العداء أو الكراهية للاتراك قد اقتنعوا بالعودة الى ولائهم او على الاقل حملوا بعيدا عن النشاط والتعاون معنا عندما واجهتهم مدافع سلماك باك وحوادث الكوت

وذلك فزعا من النتيجة التي ستحل بهم عندما يستطيع اسيادهم القدماء (الاتراك) مواصلة اجبارنا على التراجع »(٤٠) .

د ـ ثورة النجف اذار ـ ايار / ١٩١٨ :

تدهورت علاقات العتبات المقدسة الشريك الرئيسي للقبائل في حركة الجهاد مع الاتراك الى درجة الثورة عامي ١٩١٥ / ١٩١٦ في كل من النجف وكربلاء (نيسان ـ حزيران ١٩١٥)(٤١) ، والحلة (تشرين اول ١٩١٦) مما كان له اكبر الاثر على وقف دعوى الجهاد المقدس ، الى حد أن هادي القزويني في الحلة دعا الى الجهاد ضد الاتراك لا الانكليز ، وترتب على ذلك انسحاب الاتراك منها وتمتعها بدرجة من الاستقلال الذاتي ، وقد اعترف الانكليز اعترافا واقعيا بهذا الاستقلال وتعهدوا بعدم التدخل في شؤون العتبات المقدسة طالما ترك الحجاج الهنود بأمان فبريطانيا ليست معادية لا للعرب ولا لديانتهم(٤٢) .

فلما احتل الانكليز (بغداد ـ اذار ١٩١٧) قام قادة النجف وكربلاء بزيارتها مهنئين من ناحية ومستفسرين عن مستقبل مدنهم السياسي من ناحية ثانية . وقد استقبلهم رئيس الممثلين السياسيين السيد برسي كوكس بكل مظاهر الاحترام وطلب منهم الحفاظ على الامن والنظام حتى يكون بالامكان التعامل مع المدنيين مباشرة ، واعتبر زيارتهم دليل الخضوع والتبعية . ولكن قادة المدينتين عدوا حسن استقبالهم وتفويضهم بالحفاظ على الامن استمرارا لاعتراف الانكليز باستقلالهم الذاتي ، الا ان الاجراءات البريطانية الادارية والاقتصادية التي صدرت من بغداد والرامية الى التقليل من مكانة المدن المقدسة ووضعها تحت الادارة البريطانية المباشرة مقرونة بالتضيق على حرية التجارة اثارت أهالي النجف خاصة الامر الذي أدى الى تذمرهم فتمردهم فثورتهم ، التي توجت بقتل حاكم النجف الكابتن مارشال (١٩١٨/٣/١٨)(٤٣) .

فهل كانت ثورة النجف امتدادا واستمرارا لحركة الجهاد ضد الانكليز ، تلك الحركة التي غذاها مجتهدو العتبات المقدسة ، وشارك فيها رجال القبائل كما أسلفنا.

ربط عبد الرزاق الحسني بين ثورة النجف وجمعية النهضة الاسلامية التي تأسست في النجف عام ١٩١٧(٤٤) برئاسة سيد محمد بحر العلوم(٤٥) والشيخ محمد جواد الجزائري ، وهما من العماء ذوي الاصل العربي ، هدفها تخليص العراق المسلم من براثن السيطرة الانكليزية وتأليب المسلمين على الاجانب ضمانا لاستقلال البلاد وتحريرها من الاستعمار . وقد توسلت لنشر أهدافها بالمنشورات السرية التي تندد

بسياسة المحتلين ونشرت دعوتها بين القبائل المحيطة بالنجف والكوفة وأبو صخير والشامية بتكتم شديد(٤٦) . ومع أن الحسني لم يحدد تاريخا لهذه الاتصالات ، ولكن يبدو أنها جرت قبل مقتل حاكم النجف (آذار ١٩١٨) وحصار الانكليز لها بدليل قوله : انتظر أعضاء الجمعية أن تستجيب القبائل المحيطة بالنجف لدعوة حمل السلاح المتفق عليها من قبل(٤٧) .

فلما قتل حاكم النجف الكابتن مارشال وحاصر الانكليز المدينة ، حاول ثوار النجف الاتصال مع بعض زعماء القبائل أمثال عجمي السعدون ، ومع الاتراك الذين كانوا يقاتلون الانجليز في منطقة الفرات الاعلى (محافظة الانبار) ، الا أن تلك الاتصالات لم تثمر فقد احجمت القبائل والتي سبق الاتفاق معها على نجدة النجف (كما ذكر الحسني) ، ولم يلب الدعوة من قبائل الشامية سوى الشيخ مرزوق العواد رئيس العوابد ، وجواد المنصور زعيم احدى القبائل الكردية الذي ابدى استعداده لدعم الثوار بالمال ، وعدد من قبائل الحواتمة ، (الشيخ سليمان الفاضل رئيس الحواتم) والفتلة (الشيخ وادي رئيس آل علي)(٤٨) . وترجع أسباب ذلك الى الحصار الذي فرضه الانكليز على النجف من ناحية والى عدم تفهم القبائل لطبيعة الادارة البريطانية الجديدة من ناحية ثانية ، مقرونا ذلك بموقف مجتهدي العتبات المقدسة وبخاصة كبير مجتهدي الكوفة السيد محمد كاظم اليزدي . فبدلا من أن يعنى هؤلاء بمناصرة ثوار النجف ، واعلان الجهاد المقدس ضد الانكليز، اقتصر دورهم على المطالبة برفع الحصار عن النجف في رسالة وقعها (١٩) عالما (١٩١٨/٣/٢٥)(٤٩) ، بل ان بعض الشيوخ عرضوا على السلطات البريطانية استعدادهم لقمع الثورة أمثال الشيخ عمران السعدون من بنس حسان والشيخ معتوق من الفتلة في منطقة الهندية ، كما أن الدوائر البريطانية أحضرت عددا آخر من الشيوخ لمشاهدة عمليات قصف منطقة الحويش في النجف(٥٠) .

وفي الثلاثين من أيار ١٩١٨ ــ اليوم الذي اعدم فيه احدى عشر شخصا من المشاركين في الثورة ــ عقد اجتماع في بيت السيد عباس الكليدار بحضور عدد من الضباط الانكليز من الاصل الهندي ، والقى الحاج محسن شلاش خطابا ابدى فيه أسفه لمقتل الكابتن مارشال واشاد بالاجراءات التي اتخذتها الحكومة خلال الازمة وقلد القائد بلفور حاكم الشامية الجديد سيفا من الذهب ، ونائبه ساعة من ذهب مرصعة بالاحجار الكريمة(٥١) .

والواقع أن أكبر دعم لقيه الانكليز تجاه ثورة النجف انما جاء في المجتهد الاكبر السيد محمد كاظم اليزدي والذي كانت قراراته مساوية للاوامر الدينية ، فقد امتنع

عن مناصرة الثوار وحبس نفسه في بيته بحجة انه رجل دين ولا علاقة له بالسياسة ، الا أنه لم يتوقف عن اعلام الانكليز بأنه ضد الثورة وابدى ارتياحه لقمعها . وتشير التقارير البريطانية الى ان الضابط السياسي للشامية كان على اتصال دائم معه ، وقابله ثلاث مرات في الفترات ما بين ١٧ـ٢٨ نيسان ١٩١٨ ، مقابلات ودية دعا فيها الى تنظيف النجف الاشرف من جميع الاشخاص غير الموالين سواء كانوا يلبسون العمامة أو العقال ، وابدى تذمره من محاولات بعض العلماء التي كانت تدعوه الى معارضة الانكليز ، وهكذا : « فمن الصعب تقدير الخدمات التي قدمها السيد محمد كاظم اليزدي لنا ، ويمكننا الاعتماد على مساعدته باستمرار بشرط عدم ذكر اسمه رسميا »(٥٢) . وتعليقا على وفاته ورد في تقرير سري عنه « ان نفوذه كان يستخدم بلا انقطاع في مصلحتنا وموته خسارة جوهرية لنا »(٥٣) .

٢ ـ القبول بالامر الواقع المقرون بالحياد حينا وبالتعاون مع الانكليز حينا آخر :

اذا كان رجال القبائل ومجتهدو العتبات المقدسة هم الذين تحملوا عبء الجهاد ضد الانكليز وبمستويات مختلفة، فان سكان المدن الرئيسية بفئاتها المختلفة وقفوا على الحياد خلال الحرب ، حتى اذا ما بدات الكفة ترجح لصالح الانكليز أبدوا استعدادهم للتعاون معهم باستثناء موظفي الادارة العثمانية عربا وأتراكا ، وتأثرت مواقفهم بنوايا الانكليز المعلنة التي دعت الى تحييد العرب أكثر مما دعت الى تثويرهم ، فبريطانيا ليست معادية للعرب بقدر ما هي معادية للاتراك ، مقرونا ذلك بالاضرار الاقتصادية التي لحقت بهم جراء الحرب .

وكانت مواقف سكان المدن متعددة بتعدد فئات السكان واختلاف مصالحهم ، سيما وان الحركة الوطنية كانت ناشئة وضعيفة وتدور حول بعض الشخصيات التي كانت تتصرف بوحي من مصالحها وطموحاتها الخاصة أكثر منها بوحي مبادىء او موقف وطني ، كما كان الحال بالنسبة لطالب باشا النقيب في البصرة ، والاشراف في بغداد .

ففي البصرة غادر رجال الإدارة التركية المدينة قبل احتلالها ، وقابل النبلاء والاعيان وبقية السكان دخول القوات الانكليزية بشيء من القلق والفتور ، ولم يرحب بالفاتحين الا بعض التجار ، حرصا على مصالحهم وعلى تجاراتهم التي كانت تمت هيمنة الانكليز من قبل الاحتلال ، ونصحوهم بالتقدم شمالا نحو بغداد(٥٥) ، خلافا لما ذكره قائد الحملة من أنه قوبل بالترحاب من السكان الذين أبدوا رغبتهم بنقل ولائهم من الاتراك الى الحكومة الانكليزية(٥٥) .

وأجرى السيد طالب النقيب اتصالات مع الدوائر البريطانية في الهند من خلال ممثليها في المحمرة والكويت والخليج ، في الفترة بين ايلول ١٩١٤ وكانون ثاني ١٩١٥. ابدى فيها استعداده للتعاون معها شريطة الاعتراف به اميرا مستقلا على جنوب العراق ، شأنه في ذلك شأن الشيخ خزعل في المحمرة وآل الصباح في الكويت ، ولكن المسؤولين الانكليز لم يوافقوا على مطالبه وازدادوا تصلبا ،وبخاصة بعد احتلال البصرة والقورنة (تشرين ثاني – كانون أول ١٩١٤) . وبوساطة ابن السعود والشيخ خزعل وافقت الدوائر البريطانية على سفره الى الهند والاقامة هناك براتب شهري قدره ١٢٠٠ روبية هندية(٥٦) .

وعندما احتل الانكليز بغداد غادرها الاداريون والموظفون الاتراك والعرب ، اما بدافع من وطنيتهم واما توقعا لعودة الاتراك . ونظرا للاضرار التي لحقت بتجار بغداد منذ احتلال الانكليز للبصرة ، مقرونة بالاجراءات التركية مثل حظر التعامل بالعملة الذهبية والفضية وفرض التعامل بالعملة الورقية مما أدى الى عدم استقرار قيمتها اصبح هؤلاء يتطلعون الى الانكليز لحل مشكلاتهم بعد أن أصبحت البصرة السوق الرئيسي للاستيراد والتصدير .

كذلك كان وضع الصناع والحرفيين سيئا ، فالحرب لا تعنيهم ، ودعوى الجهاد لا تستثيرهم ، وولائهم كان لنقاباتهم وارتباطهم بالقسطنطينية كان ضعيفا ، وأصبح الهرب من الجيش ظاهرة عادية للعديد منهم بالاضافة الى ما عانته بغداد من آثار الحرب كنقص المواد التموينية وارتفاع الاسعار الهائل ، مقرونا ذلك بأخطار الفيضان والكوليرا التي قدرت ضحاياها عام ١٩١٥ بـ (٣٠٠) شخص يوميا .وقد وصف الرحالة موسل بغداد بقوله : « لا يوجد في المدينة اي نوع من انواع الحياة مع انها كانت تعد سابقا من أكبر مدن الشرق حركة وعملا »(٥٧) ولقد توقع أهل بغداد أن يكون وضعهم في ظل الحكم البريطاني افضل مما هم فيه بدليل أن الحياة في البصرة في ظل الحكم البريطاني كانت تفضل الحياة في بغداد .

وفي الموصل زاد الوضع سوءا خاصة بعد احتلال بغداد بسبب سوء الادارة التركية ، ونقص المواد التموينية ، وزيادة عدد النازحين من المناطق المجاورة ووصلت حالتها الى درجة المجاعة حتى تمنى أهلها التعجيل باحتلال الانكليز لها بقولهم : هل يمشي الانكليز مشي النمل ، لماذا لم يهجموا فيضبطوا الموصل ويخلصونا من هذه الحالة التعسة ولا يوجد امامهم قوة مهمة من الجيش التركي بل جل ما يقاومهم قطيع من الغنم الجائع(٥٨) .

أما الحركة الوطنية في بغداد فكانت ضعيفة وناشئة ، والجمعيات والنوادي ، ان لم تكن ميتة ، فهي غير فعالة ، والصحافة غير موجودة ، والاتصال مع الخارج ضعيفا ان لم يكن مقطوعا . وكان دعاة القومية في بغداد عند قيام الحرب اعضاء في جماعة الاشراف المؤلفة من النبلاء والتجار وكبار ملاك الاراضي ، وكان تأييدهم لدعوى الجهاد شكليا ، ضعف مع استمرار الحرب بمقدار ضعف ثقتهم بالاتراك بسبب سوء الادارة والمعاملة ، وعلى أثر اعدام جمال باشا لاحرار العرب في سورية وقيام الثورة العربية في الحجاز التي أبطلت دعوى الجهاد .

ومع ان اشراف بغداد كانوا القوة الحقيقية وراء المعارضة للاتراك لمعاداتهم لجمعية الاتحاد والترقي، فقد بقيت اغلبيتهم على الحياد حتى منتصف ١٩١٦ ، عندما دعا عدد من مثقفي الطبقة الوسطى الى عقد اجتماع حضره عدد من اشراف بغداد امثال موسى كاظم الباجه‌جي وجميل زاده عبد الرحمن ، ويوسف السويدي ، ويوسف الباجه‌جي وعبد الرحمن النقيب ، وعدد من المثقفين امثال عبد اللطيف ثنيان ، وسيد محي الدين الكيلاني ورشيد الهاشمي ، حيث اقترح عبد اللطيف ثنيان ارسال رسالة الى الانكليز تعرض عليهم المساعدة ، ووافق الجميع على الاقتراح باستثناء عبد الرحمن النقيب(٥٩) . ومع انه لم يتمخض شيء عن الاجتماع الا أن معظم المجتمعين غادروا بغداد فيما بعد خوفا من الاضطهاد التركي ، والتجأ سيد صادق العراجي صاحب جريدة الرصافة السابق ، وسيد محي الدين الكيلاني احد اعضاء اسرة نقيب بغداد ورشيد الهاشمي، وثلاثتهم من الصحفيين ، الى الانكليز وابدوا استعدادهم للانضمام الى الثورة العربية في الحجاز(٦٠) .

باستثناء هذا الموقف فلا توجد اية اشارة لموقف اهالي بغداد من الاتراك او ضدهم .

لم تقتصر الرغبة في نصرة الانكليز على سكان المدن وتعدت الى العسكريين العراقيين في الجيش العثماني ، واعضاء جمعية العهد ، فقد ابدوا استعدادهم للثورة ضد الاتراك بالتعاون مع الانكليز في مطلع ١٩١٤ ولكن السفير البريطاني في القسطنطينية حذّر حكومته من التورط في ذلك العمل(٦١) .

وخلال الحرب ، وقبل احتلال بغداد ، كان الضباط العراقيون في الجيش العثماني مترددين في مواصلة الحرب الى جانب الاتراك ، الا أنهم لم يكونوا متأكدين من نوايا الحلفاء . وفي مطلع عام ١٩١٥ خطط عدد من الضباط العراقيين للثورة ضد الاتراك بعد الاتفاق مع الانكليز من أجل الحصول على وعد منهم باقامة حكومة عربية في

العراق تتفق وامانيهم القومية ، ولكن موقعة الشعيبة (نيسان ١٩١٥) فاجأتهم وحالت دون اتصالهم بالانكليز الذي كان مقررا ان يتم في آذار ١٩١٥ . وفي تموز ١٩١٥ ، وبعد تعرض الاتراك لمدة هزائم عقد الضباط العراقيون اجتماعات في الناصرية اتفقوا خلالها على ضرورة الاتصال بالانكليز بهدف التعهد باستقلال العراق مقابل تمرد حامية الناصرية ــ ومعظم ضباطها من العرب ــ على القوات العثمانية ، والاتصال بقبائل المنطقة لدعم الحركة . ولكن الخطة فشلت بسبب عدم امكان الاتصال بالانكليز في الوقت المناسب لوضع الخطة موضع التنفيذ(٦٢) . وهكذا بقي الضباط العراقيون الى جانب الاتراك ، باستثناء من فر منهم الى القوات الانكليزية في تموز ١٩١٥ امثال مولود مخلص وعلى جودت الايوبي وعبد الله الدملوجي وجميعهم من جمعية العهد . وبعد سقوط بغداد زاد عدد الهاربين أو الفارين من الجنود والضباط العراقيين في الجيش التركي بسبب تزايد شكوك الاتراك بولائهم ، وقيام الثورة في الحجاز والرغبة في المساهمة فيها . علما بأن الاسرى العراقيين في الهند رفضوا في البداية المشاركة في الثورة ، ولكن بعد سقوط بغداد وانتصارات الشريف المتوالية تزايد عدد الراغبين في الانضمام الى الثورة منهم . وكان للسياسة البريطانية ــ الهندية ، وأسلوب معاملتها للاسرى العراقيين أكبر الاثر في ترددهم في المشاركة في الثورة(٦٣) .

٣ ــ الترحيب بالفاتحين وتقديم التسهيلات لهم :

رحبت بعض الطوائف والفئات من الشعب العراقي وبخاصة من الاقليات الدينية والعرقية بالمحتلين الانكليز ، وفي مقدمتهم اليهود . الذين عانوا ولحقت بهم أضرار كثيرة خلال الحرب ، وكانوا محل شك السلطات وفرضت عليهم رقابة شديدة ، وبخاصة التجار والصرافين منهم لتلاعبهم بالاسعار وادخارهم للاموال . يضاف الى ذلك تهربهم من الخدمة العسكرية ومن أجبر منهم على أدائها فر من الجيش ، ولقد نفذ حكم الاعدام علنا بكل من ألقي عليه القبض ، اما بتهمة الفرار من الجيش ، أو بتهمة التجسس لصالح الانكليز(٦٤) .

لم يكن مستغربا والحال هذه ان يكون اليهود في مقدمة المرحبين بالغزاة والمحتلين بالطبول والمزامير والموسيقى لدرجة ان المؤرخ اليهودي العراقي ايلي كذوري بعث برسالة الى القنصل البريطاني في بغداد المستر فريزر يقول فيها : يسرني ان اضع قصري الجميل ليكون مقرا لرئاسة الاركان البريطانية ، وتبرع باقامة مستشفى للجيش البريطاني وللجاليات الاجنبية في العراق(٦٥) . وأطلق يهود بغداد على يوم دخول القوات البريطانية بغداد اسم « يوم الاعجوبة » وذكروه في صلواتهم لسنوات كثيرة . وفرح يهود كركوك بالاحتلال البريطاني لدرجة أن الحاخام الاكبر أقام صلاة خاصة على شرف البريطانيين عندما احتلوا المدينة يوم ١٩١٨/٥/٧(٦٦) .

والواقع أن الانكليز كانوا يؤملون ان يكـون اليهود سـندا ودعما لهم في حكـم العراق . ففي عام ١٩٠٦ ، زودت القنصلية البريطانيـة في بغداد احـدى المدارس اليهودية بالاموال لتدريس اللغة الانكليزية ، وفي ١٩١٨/٤/٢٢، دعا برسي كوكس في رسالة الى اللجنة الشرقية الى الاعتماد على اليهود ، واقترح قدوم وايزمن اذا أمكن او ان يبعث بممثل يثق بـه الى بغداد للتأثير على يهود العراق كـي يقفوا الـى جانب البريطانيين ، فلما جرى استفتاء ولسن أواخر عام ١٩١٨ وضـع اليهـود عريضة التمسوا فيها بقاء الادارة البريطانية(٦٧) .

اما بالنسبة لاكراد العراق ، فمع أن قسما منهم قد لبى دعوة الجهاد واشترك في موقعة الشعيبة ، وأن أحـد زعمائهم جـواد المنصور ابدى استعداده لدعم ثـوار النجف بالمال ، فانهم ، وبخاصة في السليمانية وكركوك ، رحبوا بالقوات البريطانيـة نظرا لسوء معاملة القوات الروسية ، وعقد زعماء الاكراد في المدينتين اجتماعا في ربيع عام ١٩١٨ رحبوا فيه بالحكم البريطاني . ومع أن الاتراك عادوا الى المدينتـين الا ان الضابطين السياسيين ، لكفري وتوز ، عاودا الاتصال باغوات الاكراد وبخاصة الشيخ محمود البرزنجي ، وشارك الاكراد عدد من الطوائف المسيحية بهذا الترحيب(٦٨) .

وعلى العموم فان الانجليز واجهوا مصاعب كبيرة عند احتلالهم العـراق رغم مساعدات قدمها بعض شيوخ القبائل ، أو بعض سكان المدن ، يهودوا او اكـرادا أو عربا . وكما يقول لورنس ظلت جيوشنا في العراق حتى نهاية الحرب جيوشا تحتل أرضا للعدو ، واهل البلاد اما مستسلمون في حياد او يضمرون لنا العـداء ، ولـم تتمتع جيوشنا بحرية الحركة ومرونتها كما حصل لجيوش اللنبي الذي دخل البلاد صديقا وتقدم فيها وأهل البلاد يعاونونه معاونة كبيرة(٦٩) ولم تستطع القيادة الانكليزية في اي وقت ان تعتمد على ولاء الاهلين أو تكسب حيادهم على الاقل(٧٠) .

ثالثا ـ السياستان التركية والبريطانية تجاه العراقيين خلال الحرب :

١ ـ **السياسة التركية** : تأثرت مواقف العراقيين خلال الحرب بالسياسة التي انتهجها طرفا القتال تجاه العراقيين . فموقف العراقيين من دعوى الجهاد المقدس التي أعلنها الاتراك تأثر بسياسة الاتراك تجاه العرب عامة والعراقيين خاصة ، ومـع ان علاقة العراقيين بالاتراك قبل الحرب لم تكن ودية ، نظرا لسوء الادارة وتضييق الولاة على رؤساء العشائر وأخذ الرشوة والهدايا ، وبخاصة في الفترة بين ١٩١١ ـ ١٩١٤(٧١) الا انهم استجابوا لدعوى الجهاد وبدرجات متفاوتة . ولكن الهزيمة التي لحقت بالاتراك والمجاهدين في الشعيبة أدت الى تدهور العلاقات تدريجيا بين الطرفين

الى أن توجت بثورة العتبات المقدسة ضدهم في النجف وكربلاء والحلة (١٩١٥ / ١٩١٦) بسبب هزائم الاتراك المتتالية وشكهم وسوء معاملتهم للعرب ، مع اصرارهم على عودة العرب الفارين من الجيش(٧٢) الامر الذي أحيا الخوف القديم من الخدمة العسكرية .

فاذا كان العراقيون قد تراجعوا عن تأييد الاتراك ، فمسؤولية ذلك يتحملها الاتراك الذين فشلوا في توظيف الشعور الديني ضد الانكليز ، نظرا لسوء معاملتهم للعرب . فقد حمل قائد الحملة التركي سليمان العسكري العشائر العراقية مسؤولية الهزيمة في الشعيبة متهما اياها بالخيانة ، وقال احمد بك اوراق (احد قادة الترك): « اننا لو فتحنا الشعيبة والبصرة ، يبقى علينا واجب ثان هو فتح العراق ، وخاصة الفرات وعشائر شط دجلة لانهم خونة » فأجابه بدر الرميض زعيم بني مالك : «انتم الخونة للاسلام ، ولولا فتوى العلماء لما وجدتمونا في هذه الساحات التي نقاتل فيها »(٧٣) .

ويروي شاهد عيان وهو عبد العزيز القصاب قائمقام السماوة ان أحد الضباط الاتراك لحق بالمجاهدين الاكراد الى السماوة قائلا : انه يريد أخذ الترتيبات العسكرية اللازمة لضرب المجاهدين الاكراد الفارين من المنتفك بأمر القائد سليمان العسكري(٧٤).

ومع ان القبائل العراقية وقفت الى جانب الاتراك في موقعة الحويزة (شط العرب) وشاركت في حرب الانهاك أو الاستنزاف ضد القوات البريطانية في تراجعها نحو الكوت (١٩١٥/١١/٣٠) وفي احباط محاولات فك الحصار عنها ، وفي استرداد الاتراك لها ، الا أن القائد التركي خليل باشا الذي استرد الكويت (١٩١٦/٤/٢٩) رفض مبادلة الاسرى العرب بالاسرى الانكليز قائلا : « ان معظمهم محكوم عليه بالاعدام ولذا يجب اطلاق الرصاص عليهم في حالة عودتهم ، وعلى أي حال فهو لا يريدهم واضاف : ان ٩٠٪ من العرب غير موالين او معادين للاتراك وقد اعدم تسعة اشخاص من اهل الكويت» (٧٥) . وهذا الموقف يذكرنا بحكم الاعدام الذي أصدره القائد التركي بحق قاضي البصرة العربي الذي عاد الى بغداد مع مساعد الوالي بعد احتلال الانكليز للبصرة ، مع أنه كان مواليا للاتراك(٧٦) .

وعندما قامت الثورة في الحلة تشرين أول ١٩١٦ ، ساق الاتراك اليها حملة بقيادة عاكف بك تحت اسم (جيش الانتقام) احتلتها وفتكت بأهلها دون تمييز بين رجل أو امراة وطفل او شيخ ومسلح أو أعزل ، وبلغت ضحاياها ١٥٠٠ شخص أعدم منهم علنا (١٢٧) شخصا(٧٧) . لقد اختار الاتراك الحلة بعد انتصارهم في الكويت

لتكون درسا لكل من تراوده نفسه بالثورة على الاتراك بالرغم من تعهدهم لهم بالحفاظ على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم(٧٨) .

هذه هي السياسة التركية التي نفرت العراقيين من الاتراك وجعلتهم يعادونهم بدلا من مناصرتهم الى درجة أن هادي القزويني دعا الى الجهاد ضد الاتراك لا الانكليز كما اسلفنا .

٢ ــ **السياسة البريطانية** : اذا كان الاتراك قد فشلوا في توظيف المشاعر الدينية ضد الانكليز ، فهل حاول هؤلاء بدورهم توظيف واستثمار العداء العربي التركي الذي ازداد حدة بعد موقعة الشعيبة وثورة العتبات المقدسة (١٩١٥/ ١٩١٦) ، لتثوير العراقيين ضد الاتراك ، ومدهم بالمال والسلاح مثلما فعلوا مع الشريف حسين في الحجاز . . سيما وأن الدوائر البريطانية في الهند ولندن ، قبل الحرب وبعد نشوبها ، كانت على علم بالعداء العربي التركي وتتوقع أن يعمد العراقيون الى تأييد اية حركة مقاومة ضد الاتراك(٧٩). الواقع ان الانكليز لم يفعلوا ذلك ، وأهملوا عروض الثورة ضد الاتراك قبل الحرب وخلالها بين ١٩١٤ ــ ١٩١٦ ، حتى محاولة لورنس المدعومة من الخارجية البريطانية رفضها قادة الحملة الانكليزية في العراق التابعين لحكومة الهند البريطانية .

فسياسة الحملة البريطانية ــ الهندية في العراق قامت على أساس تحييد العراقيين لا اثارتهم ضد الاتراك . والشواهد على ذلك كثيرة ، وعلى سبيل المثال، خطاب برسي كوكس رئيس الممثلين السياسيين غداة احتلال البصرة ، وجاء فيه : « ليكن معلوما أن الحكومة البريطانية لا تخاصم السكان العرب المقيمين على ضفتي الشط ، وعليهم ان لا يتخوفوا من شيء ، كما اننا سوف لا نتعرض لهم ، ولا لاموالهم اذا وقفوا منا موقفا وديا لايؤيدون فيه الجنود الاتراك ، أو يحملون فيه السلاح علنا »(٨٠) . وكرر هذا الكلام غداة احتلال القورنة في ١٩١٤/١٢/٩، وكرره للمرة الثالثة في ١٩١٥/٨/٢٠ وفي رده على رسالة عطية ابو كلل احد زعماء مدينة النجف ، التي عرض فيها التعاون مع الانكليز ، « ان السلطات البريطانية لا تعادي السكان العرب ولا ديانتهم ، ولكنها تعادي الاتراك ، شريطة ان يبقى العرب على الحياد وان الانكليز لن يتدخلوا في شؤون العتبات المقدسة على أن يترك الحجاج الهنود في أمان »(٨١) .

كذلك خلا البيان الذي أعلنه الانكليز على العشائر العربية في العراق من الدعوة الى الثورة أو المؤازرة ، وناشدهم : « لا نريد شيئا من جانبكم الا حفظ السكينة

والامان في بلادكم ، ولا تاذنوا لرعاياكم في الالتفات الى كلام الجهال الداعية الى الجهاد لانه ليس في الحرب الجارية ما يتعلق بالاديان »(٨٢) .

ولقد استغلت الدوائر البريطانية أموال وقف (عودة) في الهند(٨٣) لتحييد
Apart from more general Consideration Thein interest in the Oudh Beques
سكان العتبات المقدسة وعدم مشاركتهم في الحرب الى جانب الاتراك
Should teach them on which side their bread is buttered. (٨٤)

ان المحاولة الوحيدة لاشعال ثورة بتشجيع من الانكليز قام بها لورنس بتكليف من حكومته في آذار ١٩١٦ . فأثناء تواجده في البصرة (بعد ان فشل في رشوة القائد التركي خليل باشا لفك الحصار التركي عن الكويت) (٨٥) تلقى تعليمات من الكولونيل كلايتون في القاهرة يطلب منه العمل على الاعداد لثورة عربية في العراق وسوف تساعده في ذلك بعثة من القوميين العرب يجري تأليفها في القاهرة ، ووضع تحت تصرفه مبلغ مليون دينار للانفاق على الثورة . واتصل لورنس في البصرة بالمحامي سليمان فيضي وطلب منه العمل على مساعدته . ولكن المحاولة فشلت لعدة اعتبارات تمثلت في أنه لم يستطع دغدغة أماني العراقيين الاستقلالية ، لان التعليمات التي تلقاها في البصرة حذرته من الحديث عن مستقبل العراق باستثناء الوعد بعمل كل ما نستطيعه لدعم الاستقلال العربي a simple promise to do all we can tohelp Arab Independent(٨٦) هذا اولا ، وثانيا فان قيادة الحملة البريطانية في العراق بما في ذلك برسي كوكس كانت تجهل وتعارض في تلك المشاريع . وتتضح تلك المعارضة من رسالة الجنرال ليك Lake التي عارض فيها فكرة ارسال الفاروقي وعزيز علي الى العراق لمساعدة لورنس في مهمته ، وجاء فيها : « يبدو لنا أن وجهات نظرهم وخططهم السياسية سابقة لأوانها وغير مناسبة »(٨٧) .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا لجأ الانكليز ، وبعبارة أدق حكومة الهند البريطانية وقادة الحملة البريطانية الهندية في العراق الى هذه السياسة ؟ يجيب على هذا السؤال السر ريدر بولارد : « ان عرب العراق غير الضباط العراقيين الذين كانوا يحاربون في الحجاز وفلسطين ، كانوا قبائل تهتم بالنهب أكثر من اي شيء آخر، بالاضافة الى أن فكرة استقلال العرب لم تظهر في العراق الا بعد احتلال اكثر من نصفه »(٨٨) . فبولارد يعزو انتهاج حكومته لسياسة تحييد العراقيين خلال الحرب العالمية الاولى الى عاملين ، عامل اجتماعي يتمثل في الواقع القبلي العشائري في العراق، وعامل سياسي يتمثل في تأخر الوعي الوطني والقومي الاستقلالي في العراق .

والواقع أن هذه الاسباب ليست مقبولة ، فعرب العراق اكثر استقرارا من عرب الحجاز ، وكفاءة قبائل العراق القتالية تفوق كفاءة القبائل الحجازية . وكبدت الانكليز خسائر فادحة في ثورة العشرين في وقت لم تكن فيه بريطانيا متورطة في ميادين قتالية أخرى . وهذا ما اعترفت به المس بيل : « ان القبائل كانت متخندقة جيدا ، وكانت تعبئتها تدل على معرفة بالاساليب العسكرية التركية ، الامر الذي يكشف عن وجود ضباط سابقين عملوا في الجيش العربي والتركي والتحقوا بالثوار »(٨٩) . ولو صح وجود مثل هؤلاء الضباط ، فهذا يوضح ان امكانية تدريب القبائل على القتال وبالتالي الافادة منهم ضد الاتراك كانت متوفرة وميسورة ، كما كان الحال في الحجاز.

كذلك فان الوعي القومي لدى العراقيين ، وتطلعهم الى الاصلاح فاللامركزية (الحكم الذاتي) فالاستقلال كان أسبق ظهورا وأكثر اتساعا في العراق منه في الحجاز، بدليل انخراط العراقيين في الجمعيات العربية كالقحطانية والعربية الفتاة ، وتشكيل الجمعيات والنوادي السرية العراقية كجمعية العلم الاخضر (الاستانة ١٩١٢) والنادي الوطني العلمي في بغداد ، وجمعية البصرة الاصلاحية (١٩١٣) ، والمشاركة في أعمال المؤتمر العربي الاول في باريس ١٩١٣ . وكانت برامج ونشاطات تلك الجمعيات والنوادي تعبر عن اليقظة القومية وطموح الشعب العربي العراقي في الاستقلال(٩٠).

ان فكرة الثورة لطرد الاتراك من العراق كانت تراود الضباط العراقيين منذ عام ١٩١٢ . والتقارير البريطانية تشير الى تشكيل جمعية سرية أواخر عام ١٩١٢ ضمت ما يزيد على مائة ضابط عربي لطرد الاتراك من العراق(٩١). وفي بداية عام ١٩١٤ خطط الضباط العراقيون من جمعية العهد لاشعال الثورة في العراق على أن تمدهم بريطانيا بالعون والمساعدة ، الا أن السفير البريطاني في استانبول حذّر حكومته من التورط بهذا العمل(٩٢) . كما عرض عزيز علي المصري مشروع ثورة في العراق على المستر كلايتون في تشرين أول ١٩١٤ ، فكان رده أنه غامض وغير عملي وغير مضمون ، كما ان تنفيذه يتطلب بذل الوعود لتأييده الامر الذي سيقود الى اعطاء ضمانات لا نستطيع تقدير مداها(٩٣) .

ويقول احد تقارير الشرطة في بغداد (تموز ١٩١٧) : « ان كل عربي مسلم في بغداد لديه شيء من الثقافة كان ينتمي الى جمعية لها فروع في جميع البلدان المهمة في العراق ، وهي جمعيات تسعى لاتحاد العرب ومقاومة الاجانب وغرضها طرد الانكليز وتأسيس حكم عربي »(٩٤) . وسارع الضباط العراقيون الاسرى في معسكر سمربور في الهند بعد أن ترددوا وأحجموا عن المشاركة والانضمام الى الثورة العربية في الحجاز، الى الانضمام الى الثورة بعد أن تبين لهم أنها تضمن استقلال البلاد العربية(٩٥) .

فالاسباب الحقيقية التي رسمت مسار السياسة البريطانية في العراق خلال الحرب لا تتمثل في ضعف الوعي القومي الاستقلالي في العراق ، أو تأخر ظهوره ، ولا في ضعف كفاءة القبائل العراقية وعدم الاستفادة منها ، بل في رغبة حكومة الهند البريطانية بالحاق العراق مباشرة بالهند كبورما الغربية . ولذا فات اشراك العراقيين في الحرب ضد الاتراك او الاعتراف بالروح الاستقلالية العربية فيه ، سوف يربك التسوية السياسية المستقبلية في العراق ، وكما قال وزير الهند الى وزارة الخارجية ردا على عرض أو مشروع عزيز علي للثورة تشرين أول ١٩١٤ .

It is inadvisable to complicate the present and future Political situation in Mesopatamia by introduction of any factor from outside (٩٦)

تمشيا مع هذه السياسة عارضت الدوائر البريطانية الهندية في تشرين الثاني ١٩١٥ فكرة اقامة دولة عراقية او دولة عربية مستقلة تشمل العراق وفقا لرسالة مكماهون للشريف حسين في ١٩١٥/١٠/٢٤ ، بحجة ان هذا العمل غير ضروري وغير ممكن ، وغير مناسب وسابق لاوانه ، وبخاصة أن الشعب العراقي متخلف غير قادر على قبول هذه الفكرة بالاضافة الى ان هذا العمل يتعارض واهداف الحملة على العراق(٩٧) . كذلك عارض قادة الحملة العسكريون عروض الثورة على الاتراك في العراق قبل الحرب وخلالها في الفترة ما بين ١٩١٤ ، ١٩١٦ بما في ذلك محاولة لورنس المدعومة بموافقة وزارة الخارجية في آذار ١٩١٦ . فأوساط رجال السياسة والثقافة والعلم ، والجيش كانوا على أهبة تأييد فكرة الثورة ورفع مبداي الوحدة والاستقلال ولكن تثبيط الانكليز لحماس الوطنيين وعدم تشجيعهم حتى لا يشعروا بأنهم نالوا استقلالهم بأيديهم(٩٨) حال دون ذلك .

كذلك فقد عزلوا العراق عن حركة الوعي القومي العربي ، وحجبوا أخبار الثورة العربية ، ولم ينشروا أخبارها الا بعد ان تعثر الزحف البريطاني نحو بغداد وحوصرت القوات البريطانية في الكوت ، مما أضطرهم الى الطلب من الشريف حسين اعداد المنشور الثاني للثورة ، بناء على طلب برسي كوكس ، لتوزيعه على زعماء القبائل في العراق ، يناشدهم بذل كل ما في وسعهم لمعاداة الاتراك وتعطيل طرق مواصلاتهم ،على اعتبار ان بريطانيا صديقة العرب ، وانهم في مساعدتهم الجيوش البريطانية فانما يساعدون القضية القومية الى حد كبير (٩٩) .

ومع هذا فقد تراجع الانكليز عن هذا الموقف بعد تحسن وضعهم العسكري اواخر عام ١٩١٦ ، لدرجة ان الجنرال مود لم يكن راضيا عن الخطاب الذي القاه (في ١٩١٧/٣/١٧) بعد دخوله بغداد (١٩٧١/٣/١١) لما ورد فيه من عبارات عن

تحرير العرب وانقاذهم واستعادة مجدهم(١٠٠) ، بحجة انه غير مناسب للاقلية اليهودية البارزة في بغداد ، ولا لبعض الاقليات الاخرى(١٠١) .

وهكذا اختلفت السياسة البريطانية خلال الحرب العالمية الاولى في العراق عنها في الحجاز ، ففي الوقت امدت فيه بريطانيا عرب الحجاز بالمال والسلاح ، وحرضتهم على الثورة ضد الاتراك ، ووعدتهم بدولة عربية مستقلة في قارة اسيا ، نجدها تحجم عن انتهاج سياسة مماثلة في العراق ، وهي وان قدمت الاموال والسلاح احيانا فلكي يقف العراقيون على الحياد وليس من اجل المشاركة في الحرب الى جانبها والسبب الرئيسي في ذلك كله يرجع الى انها لم تكن تطمع بالحجاز في حين كانت لها اطماع استعمارية توسعية في العراق وزاد تمسكها بهذه الاطماع مع تطورات الحرب لصالحها.

الحواشي :

(١) حول اهتمام بريطانيا بالعراق انظر : ممدوح الروسان: العراق والسياسة العربية (١٩٢١ - ١٩٤١) رسالة ماجستير غير مطبوعة ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٢٨ - ٣٥ .

(٢) فيليب ايرلند ، العراق دراسة في تطوره السياسي ، ترجمة جعفر الخياط ، بيروت ١٩٤٩ ، ص ٢٤ ، وقد كرر هذا التصريح ثانية عام ١٩١١ .
Parliamentary Debates, House of Lords, Vol. X 1911, P. 587.

(٣) عبد الفتاح ابراهيم ، على طريق الهند ، من رسائل الاهالي ، بغداد ،١٩٣٥، ص٧٩.

(٤) حول الاطماع الروسية في وادي الرافدين ومنطقة الخليج العربي واثر ذلك على السياسة البريطانية ، راجع الروسان ، ص ٣٧-٤٠ .

(٥) جورج كيرك ، موجز تاريخ الشرق الاوسط ، ترجمة عمر السكندري ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٣١ - ١٣٤ . وانظر رسالة اللورد نورث بروك الى وزير الخارجية البريطاني في ١٨٧٦/٣/٢٠ . محمود علي الداوود ،الخليج العربي والعلاقات الدولية ١٨٩٥ - ١٩١٤ ، القاهرة د.ت ، ص ٣٦ .

(٦) لؤي بحري ، سكة حديد بغداد ، بغداد ١٩٦٧ ، ص ٦٧ ، ١٣٦ .

(٧) تعليق لاحد الساسة الانكليز على المشروع ، محمد امين العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ط١ ، الموصل ، ١٩٢٤ ، ص ٢٦، ٤٧ ، وحول نشأة المصالح الالمانية في العراق واثر ذلك على المصالح البريطانية ، انظر : زكي صالح ، العراق وبريطانيا حتى عام ١٩١٤ ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٢٣٠ .
Attiyah : Ghassan, Iraq, 1908 - 1921, Beirute 1973, P. 72 .

(٨) حول سعي ادوارد غراي كسفير لبريطانيا في طهران ، ثم كوزير خارجية بريطانيا من اجل التعاون مع روسيا ، انظر : الداوود، ص ١٧٥ - ١٧٨ .

(٩) حول الامتيازات السياسية لممثلي بريطانيا في العراق ، انظر : عبد الفتاح ابراهيم ، ص ٤٨ - ٥٤ ، ولونغرغ ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط بغداد ١٩٦٢ ، ص ٢٧٤ ، ٣٠١ ، وساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت ١٩٦١ ، ط٢ ، ص ٢٧٤ ، ٣٠١ .

(١٠) الحصري ، ص ٢١٠ - ٢١٥ ، وعبد الفتاح

ابراهيم ، ص ١٤٢ ، وبيشون ، الاسس التاريخية لمشكلات الشرق الاوسط ، ترجمة محمد عزة دروزة ، بيروت ١٩٤٦ ، ص١٣٠-١٣٩ ، وفيليب ايرلند ، ص٢ / ٣٣ .
Anderson, The Eastern question London, 1960, PP. 266 — 267.

(١١) لؤي بحري ، ص ١٤٦ / ١٦١ .

(١٢) عبد الرحمن البزاز ، العراق من الاحتلال الى الاستقلال ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٥-١٦.
انظر أيضا كرك ، مصدر سابق ص ١٤٦ .
Longrigg , Iraq , 1900 - 1950 , London, 1953, P. 77.

ولقد اقترح القائم بأعمال القنصل البريطاني في بغداد في ١٩٠٦/٦/٢٨ القيام بأعمال المسح في نهر دجلة ليس من أجل الملاحة فقط ، بل ومن أجل الحصول على أي معلومات تسهل اي عمل عسكري يمكن ان يجري في بلاد ما بين النهرين مستقبلا :
Attiyah, Op. Cit, PP. 77.

(١٣) راجع رسالة مكماهون الى الشريف حسين ١٩١٥/١٠/٢٤ في : جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٥٥٧ .

(١٤) كمال مظهر ، أضواء على قضايا دولية في الشرق الاوسط ، حقائق جديدة عن معاهدة سايكس بيكو ، على ضوء الوثائق الروسية، بغداد ١٩٧٨ ، ص ١٠٧ .

(١٥) حول خلفيات الاتجاه العثماني لدخول الحرب الى جانب ألمانيا ، انظر : الروسان ، ص ٤٥ — ٤٦ مكي شبيكة ، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الاولى ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٢٢ — ٢٣ ، ٣٥ .

(١٦) Moberly , The Campaing in Mesopotamia, London , 1928 , Vol. I, pp. 80, 86 — 87 .
وزين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية والعلاقات العربية التركية ، بيروت ص١١٤.

(١٧) حول أهداف الحملة البريطانية — الهندية على العراق انظر :
a) F. O 371 / 2143, Telegram from Secretary of State of India office to Viceroy, dated STh Octeber 1914 .
رسالة نائب الملك الى وزير الهند بتاريخ ١٩١٤/١٠/٧ —
B) F.O. 371/2144
C) peter Sluglett , Britian in Iraq 1914 - 1932 Loudon, 1967/ p. 9 , and note , (4) , p. 31 .
وتاونزند ، محاربتي في العراق ، ترجمة عبد المسيح وزير ، بغداد ١٩٢٣ ، ص ٦ .

(١٨) أشارت مذكرة السفارة البريطانية في استانبول ١٩١٤/٩/٢٢ الى الخارجية البريطانية والتي تسلمتها يوم ١٩١٤/١٠/٧ الى أنه في حالة دخول تركيا الحرب فعلى بريطانيا تحطيم قوة تركيا في الجزيرة العربية الى حدود سورية ، وفي العراق الى الموصل، شبيكة ، ص ٢٨ .

(١٩) حول دوافع التقدم نحو بغداد كرد فعل لفشل حملة غاليبولي والخوف من التقدم الروسي نحو بغداد ، انظر :.
Longrigg , Op. Cit , pp. 72 - 80 , 89 .

(٢٠) كمال مظهر ، ص ١٣٠ — ١٣٤ .

(٢١) هذا ما قاله ادوارد غراي للسفير الفرنسي في لندن وبعث به الى السفير البريطاني في باريس بتاريس ١٩١٥/٣/٢٣ انظر :
F O. 371 / 2486 , Confidential No. 250 .
وانظر أيضا زين نور الدين ، نشوء القومية العربية ، ص ١١٤ .

(٢٢) انظر رسالة نائب الملك الى وزير الهند في لندن ١٩١٤/١٢/٧ ، ورد وزير الهند عليه في ١٩١٤/١٢/٩ .
Fo. 371 / 2144 / 85922

(٢٣) Burgoyne , E , Gertrude Bell From the Personal Papers , 1914 -1958, London 1959, p.43.

وهذا ما أشار له تاونزند في آب ١٩١٥ في رسالة الى رئيس هيئة الاركان في لندن ، وتساءل فيها عن المكان الذي يجب أن يتوقفوا عنده في العراق ، وأضاف : انني ارى انه يجب علينا الامساك بما حصلنا عليه وعدم التقدم الى أبعد من ذلك ، رسل برادون ، حصار الكويت ، لندن ١٩٦٩ ، ترجمة سليم التكريتي ورفيقه جـ١ ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ٦٩ .

(٢٤) علي الوردي ، لمحات من تاريخ العراق ، جـ٤ ، ص ١٢٧ ، بغداد ١٩٥٤ والنفيسي ، دور الشيعة في تطور العراق السياسي ، الكويت ١٩٧٦ ، ص ٨٥ — ٨٦ .

(٢٥) حول حرص تركيا على اعلان دعوى الجهاد انظر : لنشوفسكي ، الشرق الاوسط في الشؤون العالمية ، ترجمة جعفر الخياط ، جـ ١ ، ص ٨٦ .

Moberly , Vol . I , Op. Cit , p. 80 .

وحول قلق الدوائر البريطانية من دعوى الجهاد انظر : فيليب ايرلند ، ص ٥١ ، وشبيكة ، ص ٢٢ ، ٥٦ .

Attiyyah, Op. Cit, pp. 121 - 23, Glubb , Britian and the Arabs , 1908-1958, London 1959, p. 59.

انظر ايضا البيان الذي اذاعته الحكومة البريطانية للشعوب العربية القاطنة في آسيا العربية بتاريخ ١٩١٤/١٢/٤ .

Tibawi : Anglo - Arab Relation and Palestine Question (1914 - 1912) London 1978, pp. 42-43.

ولونغرغ ، العراق (١٩٠٠ — ١٩٥٠) ترجمة وتعليق سليم التكريتي ، جـ١ ،بغداد ص ١٤٦ .

(٢٦) علي الوردي ، جـ٤ ، ص ١٢٨ ويذكر عبد الرزاق الحسني ان كاظم اليزدي لم يوافق على دعوى الجهاد بحجة عدم الاستعداد والضعف العسكري كما أن بعض المجتهدين فسر دعوى الجهاد على انها تقتصر على حماية الاماكن المقدسة فقط ، العراق بين دوري الاحتلال والانتداب جـ ١ ص٦٦ ، صيدا ١٩٣٥ . قارن هذا بما أورده كامل سليمان الجبوري ، ٦٣ عاما على حرب العراق ١٩١٤ — ١٩١٥ ، مجلة آفاق عربية عدد ١٠ حزيران ١٩٧٨ ، ص ٥٠ وانظر :

Attiyyah , Op. Cit, p. 112

والنفيسي ، ص ٨٥ — ٨٦ .

(٢٧) أحمد جمال باشا ، مذكراتي ، تعريب علي أحمد شكري ، بيروت ١٩٢٣ ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٢٨) حول اعداد المجاهدين العراقيين الذين لبسوا دعوى الجهاد انظر : كامل سليمان الجبوري، ص ٣٧ .

Moberly , Vol. Op. Cit , pp. 217 - 218 Longrigg , Op. Cit. p. 84 .

وشبيكة ، ص١٢٥ . ولقد رفض الشيخ خزعل الاستجابة لدعوى الجهاد بحجة انه من رعايا الدولة الايرانية ولكن قبائله العربية ثارت ضده ، ولذا فقد أصبح عبئا على الانكليز بدلا من أن يكون عونا لهم . بيل ، فصول من تاريخ العراق ، ترجمة جعفر الخياط ، بيروت ١٩٤٩ ، ص ٧ ، والوردي، جـ٤ ، ص ١٤١ وحسين خلف خزعل ، تاريخ الكويت السياسي ، جـ٤ ، ص ٣٢ .

Moberly , Ibid , pp. 173 , 177 .

(٢٩) حول وقوف الشيعة الى جانب الاتراك انظر الجبوري ص ٤١ وما بعدها ، والنفيسي ، ص ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ .

(٣٠) ديوان محمد سعيد الحبوبي ، اعداد عبد الغفار الحبوبي ، بغداد ١٩٨٠ ، الحبوبي مجاهدا ص ٥٠ ، فريق المزهر ال فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية ١٩٢٠

ونتائجها ، بغداد ١٩٥٢ ، القسم الاول ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٣١) بيل ، ص ٤ ، ٨ وشبيكة ، ص ١٢٥ ،وعبد العزيز القصاب ، ذكرياتي ، بيروت ١٩٦٢، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣٢) الحسني ، العراق بين دوري الاحتلال والانتداب ، جا ص ١٧ .

(٣٣) Fo. 371 / 2486 / 97255 Grey , Political , Agent Kuwait to Palitical Dep. India Office , 19 July 1915 .

انظر ايضا : شبيكة ، ص ١٢١ - ١٢٦..

(٣٤) انظر ما يرويه علي جودت الايوبي حول اسباب الهزيمة في الشعيبة ممثلة فيالاسلحة البالية ونقص وسائل النقل وعدم توافر الماء والطعام ، ذكريات ، بيروت ١٩٦٧ ،ص ٣٣ ، وفريق المزهر ، ص ٣٦-٤٠ .

(٣٥) Moberly , Vol II , pp. 109-110 .

ولقد اشاد ولسن بشجاعة بني طروف في حربهم ضد قوات تفوقهم عددا وعدة ولاسيما تجاه القصف المركز بالمدفعية والرشاشات ولكنهم صمدوا صمودا رائعا ، النفيسي ، ص ٩٤، وحول الخسائر التي لحقتبالقوات البريطانية اثناء تقدمها نحو العمارة ومعركة الناصرية ، انظر : وسل برادون ، ص٥٦، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ - ٨٧ والنفيسي ص ٩٦، ٩٧ .

(٣٦) النفيسي ، ص ٩٥ - ٩٧ ، ولقد اتهم تاونزند العرب بالتجسس لصالحالاتراك ، وراقب في تقدمه نحو العمارة جنوده وهم يتساقطون من زوارقهم او بقطع عرب الاهوار المتربصين خناجرهم /وسل/م٠ن/ص ٥٦ ، ٢١٩ ولكنه يتجاهل ما فعلته القوات البريطانية بالعرب اثناء تقدمها نحو العمارة، النفيسي ، ص ٩٧ .

(٣٧) النفيسي ، ص ١٠٣ .

Longrigg , Op. Cit p. 81 .

(٣٨) والترجمة العربية ، ص ١٣٤ ، Longrigg Op. Cit, p. 79 .

حول موقف قبائل المنتفك بزعامة عجمي باشا السعدون ومحاولة الانكليز استمالتهبواسطة كوكس او ابن السعود ، بالاضافة الى بعض الزعماء الذين شاركوا في موقعة الشعيبة وظلوا محايدين حتى سقوط بغداد ، مثل سيد هادي القوطر زعيم الشامية وسيد محسن ابو الطبيخ ، والقبائل التي لم تشارك كقبائل الضفير وشيخ الزبير ، ودور الشيخ مبارك (شيخ الكويت) في تحريضها على عدم المشاركة انظر :

Attiyah, Op. cit, pp. 117-120.240

(٣٩) المس بيل ، ص ٣٩.

Longrigg , Op. Cit , pp. 81 , 85 , 94 , 96 .

(٤٠) عماد أحمد الجواهري ، تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ١٩١٤ - ١٩٣٢ ، بغداد ١٩٧٨ ص ٢٨٩ ، وحول تبدل المواقف السياسية لرؤساء القبائل ، وتصويب الفارز غير النظامية ، العربية والكردية ، أسلحتها ضد الاتراك وهجمات عشائر الفرات الاعلى والاوسط المنتظمة على المواصلات التركية ، انظر : لوتسكي ، تاريخ البلاد العربية الحديث ، ترجمة عفيفة البستاني ، موسكو ١٩٧١ ، ص ٤٦٤ ، ٤٧١ .

(٤١) اسباب ثورة النجف ضد الاتراك انظر Attiyah , Op. Cit pp. 80 - 81 .

النفيسي ، ص ٩١ ، وكريم وحيد صالح، نجم البقال قائد ثورة النجف ، النجف ١٩٨٠ ، ص ٥٦-٦١ ، وعلي الوردي ،ج٤، ص١٨٨ ، ١٩٦ - ١٩٧ ، ولونغرغ (الطبعة العربية) جـ١ ص ١٤٧ ، وشبيبكة ،جـ٢، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

الى قيادة الفرقة (١٢) البريطانية في

(٤٢) انظر رسالة القيادة البريطانية في البصرة الى قيادة الفرقة ١٢ البريطانية في الناصرية (١٩١٥/٨/٢٠) ردا على رسالة عطية ابو كلل احد قادة ثورة النجف الى

قيادة الفرقة (١٢) بتاريخ ١٩١٥/٨/١٢ .
F. O. 371 / 24 , 89 .
وانظر : وميض عمـــر نظمي ، الجـــذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركـــة القومية العربيـــة الاستقلاليـة في العـراق بيروت ١٩٨٤ ، ص ١٢٨ .
كذلك فقد طالب محمد علي كمونة احـــد زعماء كربلاء كوكس (تشرين أول ١٩١٥) الاعتراف به اميرا على المنطقة الممتدة مـن سامراء الى النجف ، فرد عليه ردا وديا مع مبلغ من المال ، واستمر ارسال هذا المبلغ للحفاظ على ولائه :
Attiyah, Op. Cit p. 227, Note (i)

(٤٣) وصف النفيسي أولئك الذين زاروا بغداد بالادعياء الذين لا يمثلون ارادة الشعب وانهم يبغون نفعا ماديا ، مصدر سابق ، ص٥٢. وحول تطور الاحداث في النجف الى درجة الثورة انظر الحسني ، ثورة النجـــف ، بيروت ١٩٧٨ ، الصفحات (٢٢-٤٢) .

(٤٤) ذكر الحسني في كتابه ثورة النجف ص٣١، ان الجمعية تأسست في بدايـة عام ١٩١٧ ، ولكنه لم يورد تاريخا محددا لتأسيسها في كتابه « العراق بين دوري الاحتلال والانتداب» ص ٣٦ ، اما العطية فذكـر ان الجمعيـة تأســـــت اواخر عام ١٩١٧ ص (٢٢٩) فروايتا الحسني والعطيـة تتفقان على أن تأسيس الجمعية جرى في عام ١٩١٧ ، أي قبل ثورة النجف في اذار ١٩١٨ ، انظر ايضا كريم وحيد صالح ، ص ٦٥/٦٦ .

(٤٥) كان من بين المجتهدين الذين لبوا دعـــوى الجهاد ، ورفض ما عرضه الانكليز مـــن اموال لوقف مساعيه ضدهم والذهاب الـى ايران مقابل (١٠٠٠) جنيه
Attiyah , Op. Cit , p. 229

(٤٦) الحسني ، ص ٣١ — ٣٣ ، وكريم وحيـد صالح ، ص ٧١-٧٢ .

(٤٧) الحسني ، ص ٤٦ .

(٤٨) الحسني ، ص ٣٣ ، Attiyah , p. 230

ويتهم النفيـسي عطية أبو كلل بتسرعـه ، وقيامه بأعمال استفزازية بهدف دفع الانكليز وحملهم على اتخاذ اجراءات صارمـة ضـد النجف في محاولته جمع صفوف النجفيين الى جانب الاتراك .
النفيسي ، ص ٦٧ .

(٤٩) انظر نصها في الحسني ، ص ٦٢-٦٣ .

(٥٠) Attiyah , p. 231 .

(٥١) الحسني ص ١١٦ — ١١٩ ، ولقـد نسـب النفيسي موقف القبائل الى تفوق الانجليز بالسلاح ، وعدم تسلـح القـرى المجاورة للنجف لان مكانة النجف توفر لهم السلامـة مقرونا ذلك بسياسة الانجليز المثلة بتقديم السلف والقروض والمعونات ورفع الضرائب المفروضة على الارض ومحاصيلها وخففـوا وطأة الاجراءات الحكومية بين القبائل وهـو وان كان يدافع عن موقف المجتهد الاكبـر محمد اليزدي الا انه اعترف بان الثـوار كانت تعوزهم مساندة المجتهد الاكبر روحيـا ومعنويا ، النفيسي ص ٦٠-٦١ .

(٥٢) Fo. 371/3397 , Collection of Fortnightly Reports by the Civil Commion are Report No. 12 April 15 to May I 1918 .

(٥٣) Fo. 371 / 4149 / 77939 , From Political officer Baghdad, dated May 13 , 1919 .
ولقد رفض اليزدي التوسط لدى السلطات البريطانية للحيلولة دون تنفيذ حكم الاعدام في أحد عشر شخصا من المشاركين في ثـورة النجف ، علما بأن حاكم الشامية الكابتـن بلفور اتصل به وسأله ان كان لديه ما يقوله بحق المحكومين ولكنه لم يقل شيئا . الحسني ثورة النجف ، ص ١١٤ . يذكر النفيسي أنه توسط لتخفيف الحكم بحق بحر العلوم (ص ٦٢) .ويصف موقف اليزدي تجاه الانكليز بأنه شكل من أشكال التقية ، ص١٢٣-١٢٤.

(٥٤) ايرلند ، ص ٦٣ .

(٥٥) Cmd , 8074 . Despatches Regarding operations in Persian Gulf and Mesopotamia 1915 , p. 8 , Longrigg , p. 78 .

يذكر وسل براودون (ص ٢١) أن أهالي البصرة لم يهتموا كثيرا بالضيوف (الثقلاء) وفي حالة من حالات الكراهية الفطرية المتبادلة استقر كل جانب على استغلال الجانب الاخر.

(٥٦) حول مساعي طالب النقيب خلال هذه الفترة انظر : شبيكة ، ص ٣٣ – ٣٥ ، سليمان فيضي ، في غمرة النضال ، بغداد ١٩٥٢ ، ص ١٨٩ – ١٩٢ . والمس بيل ، ص ٣ ، وميض جمال عمر نظمي ، ص ١٠٨ – ١٠٩، ١١١ – ١١٢ .

(٥٧) A. Musil, The Middle Euphrates Newyork , 1927 , pp. 128 0 29.

(٥٨) راجع : عبد العزيز القصاب ، ذكريات ، ص ١٧٤ – ١٧٦ ، والعمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، جـ١ ص ١٣٥ –١٤١، ١٤٩ ، جـ٣ ص ٥٩ .

(٥٩) Fo 371/2771 / 125694, Secret, No. 5, Arad Bureou Report , dated Cairo 18th June 1916 .

(٦٠) Fo. 371/2775/ 196 445 . Telegram from General Officer Commanding Force (D) dated 15th August 1916, to chief of General Stalf Simla .

العطية ، ص ٩٦، وانظر ايضـا نظمي ، ص ١١١ .

(٦١) Attiyah Op. Cit , p. 100 .

(٦٢) انظر الحديث الذي اجراه العطية معتوفيق وهبة حدل الموضوع

Attiyah , ibid , p. 102 .

(٦٣) انظر التقرير السري الذي اعده ابراهيم دمتري سكركر ريجنالد ونجت خلال زيارته الى جدة وينبع في الفترة ما بين ٧/٣٠ – ١٩١٦/٨/١٧ ، Attiyah, ibid , 104

وراجع أيضا الايوبي ، ذكريات علي جودت، ص ٣٧ – ٣٨ ، وشبيكة جـ٢ ص ١٢٥ ، ١٣٩ .

(٦٤) انظر : غنيمة ، تاريخ اليهود في العراق ، بغداد ١٩٢٤ ، ص ١٨١ – ١٨٢ ، والعزاوي، لمحات ، جـ١ ، بغداد ١٩٥٦ ، ص ٢٢٨ .

(٦٥) فاروق العمر ، حول السياسة البريطانية في العراق (١٩١٤ – ١٩٢٠) بغداد ١٩٧٧، ص٢٢ ، النفيسي ، ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٦٦) حاييم كوهين ، النشاط الصهيوني فيالعراق مترجم عن العربية ، مركز دراسات فلسطينية ، بغداد ١٩٧٣ ، ص ٩ .

(٦٧) النفيسي ، ص١١٦ – ١٢٦ .

(٦٨) طالب مشتاق ، اوراق أيامي ، بيروت ١٩٧٠ ص ١٨ – ١٩ ، وبيل ، ص٢٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٧ ، بيل ، طبعة ١٩٧١ ، ص١٣٨ ، ١٤٥.

(٦٩) لورنس ، أعمدة الحكمة السبع ، ترجمة سليم النعيمي بغداد ١٩٤٧ ، جـ١ ،ص٥٧.

(٧٠) بيل ، ص٥ ، ٩ .

(٧١) انظر حول الموضوع ، لطفي فرج ، عبد المحسن السعدون ، ط٢ ، بغداد ، ١٩٨٠، ص١٠، العمري، مقدرات ،جـ١ ،٩٧–٩٨ ، وعماد احمد الجواهري ، تاريخ مشكلة الاراضي ، ص ٧٢ – ٧٥، فريق المزهر، القسم الاول ، ص ٢٧ – ٣٥ .

(٧٢) قدر عدد الفارين من الجيش العثماني والملتجئين الى النجف والحلة وكربلاء بـ٢٦ الفا ، وحول أسباب ثورة العراقيين ضد الاتراك وخاصة في العتبات المقدسة بعدموقعة الشعيبة انظر : النفيسي ، ص ٩١ ، والجبوري ص ٥٠ .

(٧٣) سليمان الجبوري ، افاق عربية ، ص ٤١، وفريق المزهر ، الحقائق الناصعة ، ص٣٩، ٤٠، بيلص٨، ٥٩،علي جودت، ص ٣٤.

(٧٤) راجع حول هجمات العراقيين علىقائمقامية السماوة ، وردود الفعل التركية ، عبد العزيز القصاب ، ذكريات ، ص ١١٤–١١٥، ١٢٢ – ١٣٠ ، ١٣١ – ١٣٣ .

(٧٥) تقرير لورنس السري الى وزارة الحرب
Fo. 882/8/May 1916 , Phillip Nightly and colin simpson secret lives of Lawrence of Arabia pp. 64-65 London, 1971

وحول معاملة الاتراك السيئة لسكان الكوت انظر : Longrigg, p. 87 .

ويذكر قدري قلعجي: ان الذين اعدمهم خليل باشا كانوا (٤٠) وجيها واهدى نسائهم الى ضباطه وجنوده ، جيل الفداء بيروت ١٩٦٧، ص ٤١ .

(٧٦) العمري ، مقدرات ، جـ١ ، ص ١٠٢ .

(٧٧) فريق المزهر ، ص ٤٣ ،
Attiyah p. 80, Longrigg, p 85

(٧٨) سعد ابو دية ، قاسم محمد صالح ،الثورة العربية الكبرى ، الجانب الفكري ،عمان، ١٩٩١، ص ١٥٥ – ١٥٧ .

(٧٩) حول توقع المسؤولين البريطانيين وقسوف العراقيين الى جانبهم ، اذا ما شجعوا حركة المقاومة ضد الاتراك انظر : تعليق فيتسموريس ، خبير الشؤون العربية في الخارجية البريطانية ، على مذكرة السفارة البريطانية في استانبول والمعروفة بمذكرة ريان Rayan ١٩١٤/١٠/١١ ، شبيكة ص٣٠، وتقرير القنصل البريطاني في البصرة المستر Grow حول توتر العلاقات العراقية التركية في تقرير له عن طالب النقيب ١٩١٥/١/٣ ، شبيكة ص ٥٠ .
Moberly , Op. Cit , Vol. I, p. 133 - 39 .

(٨٠) بيل ، ص ٢٣ ،
Glubb : Britian and the Arabs 1908 - 1958 , London , 1959 , pp. 99 - 100 .

(٨١) راجع هامش (٤٢) ، وانظر : نظمي ، ١٠٩ .

(٨٢) العزاوي ، جـ٨ ، ص ٢٦٤ .

(٨٣) كان ملك اوراجا « عودة » غازي الدين حيدر قد اقرض حكومة الهند عام ١٨٢٥ مبلغ (١٠) ملايين روبية بفائدة ٥٪ توزع على فقراء النجف وكربلاء بصورة دائمة ، الحسني ثورة النجف ص ٧٨ .وحول كيفية توزيع موارد الوقف واسماء المجتهدين الذين كانوا يتلقون المال ، انظر ، نظمي ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٨٤) رسالة لويس مالت ، السفير البريطاني في استانبول الى وزير الخارجية ادوارد جراي، في ١٩١٤/٩/٢٥
Fo. 371 / 2140 / 53073 Confidential No. 857 .

(٨٥) حول محاولة شراء حرية تاونزند وقواته بمليوني جنيه انظر : راسل برادون ، حصار الكوت ، جـ٢، ص ١٥١، ولونغرغ ،الترجمة العربية ، ص ١٥١ ، النفيسي ، ص ١٠٦.

(٨٦) F. O. 882/ 15 , 26 March. 1916, Phillip Knightly , Op. Cit , pp. 61 - 67, A Special Mission .

(٨٧) F.O 371 / 2768 / 61639 , From General Lake to secretary of State for India , Basrah 30th March 1916 F.O. 882/15, 8April 1916. Longrigg, p. 87 .

(٨٨) بولارد ، بريطانيا والبلاد العربية من اقدم العصور حتى عام ١٩٥٢ ، ترجمة د.حسن أحمد سليمان ، بغداد ١٩٥٦ ص٩٨، ٩٩ .
Longrigg , p. 115 .

(٨٩) بيل ، ص ١٦٢ .

(٩٠) حول بداية ظهور الوعي القومي في العراق وعوامله انظر :

١ – صالح محمود منسي ، حركة اليقظة العربية ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٥، ص ١٤٦ – ١٤٩ .

٢ – فاضل حسين ورفيقه ، تاريخ العراق المعاصر ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٦–٧.

٣ – عبد الكريم رافق العرب والعثمانيون، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٥٤٠ ، ٥٥٦.

٤ ـ علي محافظة ، نقد كتاب المؤتمر العربي الاول ١٩١٣ ، مجلة المستقبل العربي، بيروت ، عدد (٢٢) ، ١٩٨٠ ، ص١٤٤ ـ ١٤٨ .

٥ ـ د. وميض عمر نظمي ، شيعة العراق وقضيته القومية العربية ، مجلة المستقبل العربي ، بيروت اعداد (٤٢ـ٤٣،٤٤) لشهر ٨ ، ٩ ، ١٠/ ١٩٨٢/ ص ٩٠ـ٩٤ .

٦ ـ حول أهداف جمعية البصرة الاصلاحية انظر : زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ . بيروت ١٩٦٨ .

٧ ـ فيليب ايرلند ، ص ١٧٦ ،ومذكرات السويدي ، ص ٢٥ .

(٩١) Fo. 371 / 1796 /2241, Confedential Despatch Summary of Events in Turkish Iraq for december 1912 , by Acting Consul General Baghdad, Attiyah p. 99 .

وقد تكون هذه الجمعية هي جمعية الدفاع المقدس السرية التي تحدث عنها عماد عبد السلام في مجلة افاق عربية ، بغداد ، عدد ٧ ، ١٩٧٩ .

(٩٢) راجع ما سبق ذكره ص ١٣ .

(٩٣) انظر مشروع عزيز علي للثورة في العراق وموقف الدوائر البريطانية منه سواء في القاهرة او لندن او نيودلهي ، شبيكة ص ٥٨ ، ٦٣ .

(٩٤) فيلب ايرلند ، ص ٤٨ .

(٩٥) تقرير معسكر سمربور F. O. 371 / 3050 , 8/4/1917 .

انظر شبيكة ، جـ٢ ، ص ١٣٠ ، ١٣٩ .

(٩٦) F. O. 371 / 2140 / 8 / 700 , From India Office te F.O dated 11 the December 1914 .

انظر شبيكة ، جـ١ ص ٥٨ـ٦٣ . ولقد استغرب لونغرغ عدم استخدام قوات عربية في العراق بعد ان نجحت العملية في الحجاز Longrigg , p. 115 .

(٩٧) راجع مراسلات الدوائر البريطانية الهندية وقادة الحملة البريطانية في العراق مع لندن بتاريخ ٩،٦،٤ تشرين ثاني ١٩١٥ Attiyah , pp. 134 - 35 .

(٩٨) انيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية، بيروت ١٩٦٦ ـ ص ٩١ـ٩٢ .

(٩٩) النغيسي ، ١٨٨ ـ ١٨٩ ، سليمان موسى، الحركة العربية ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٨٤ نقلا عن رسالة المعتمد البريطاني في جدة FO. 686/7, 17/8/1916

وفيليب ايرلند ، حول منع نشر اخبارالثورة ص ١٨٣ .

(١٠٠) الحسني ، ثورة النجف ص ٩ ـ ١٠ H. C. Debates Vol. 139 , March 1917 p. 2402 .

انظر نص البيان ملحق (١) ، النفيسي ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

(١٠١) F. O. 371 / 3042 , From Political Officer , Basra , General Maud's Telegram of 16 March 1917 .

* *